عزيز السيد جاسم

علي

سُلْطة الحق

تحقيق وتعليق
صادق جعفر الروازق

www.haydarya.com

علي بن أبي طالب عليه السلام

سلطة الحق

ج /
ع ١
١٤٢ق.

علي بن أبي طالب (ع) سلطة الحق

تأليف: عزيز السيّد جاسم

تحقيق: صادق جعفر الرّوازق

منشورات: الإجتهاد

الطبعة الاولى: ٢٠٠٠

تصميم الغلاف: علاء الجعفري

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

Isbn: 978-964-2941-04-9

توزيع

الغدير للطباعة والنشر والتوزيع

قم - شارع معلّم - الفرع ١٢ - رقم ٣ - موبايل: ٠٩٨٩١٢٥٥١٤٤٢٦+

E - mail: algadeer_pub @ yahoo. com

علي بن أبي طالب عليه السلام

سلطة الحق

تأليف

عزيز السيد جاسم

تحقيق وتعليق

صادق جعفر الروازق

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٨٢٩٥
التاريخ ١٥/١١/

إهداء المحقّق

الى تلميذ ربّه جلّ وعلا.. نبراس الإنسانية..
وسلطان الكرامة..، ومعلّم الأمم...
أمير الحريّة.. ورائد الحوار : علي بن أبي طالب عليه السلام.
والى كلّ الراحلين على مساره بنورٍ وبصيرةٍ...
وتركوا لنا بصمات من مواقف الشموخ القيمي
ومنهم صاحب هذا السفر الخالد الشهيد : عزيز السيّد جاسم.

تقريض

قدّم لي الأخ الكريم الكاتب الإسلامي الأُستاذ (أبو جعفر) صادق جعفر الرّوازق ـ رزقه الله التوفيق المطرّد ـ ما حقّقه ونمّقه من مقالٍ إكمالاً لكتاب «**علي بن أبي طالب**عليه السلام **سلطة الحق**» للسيد عزيز السيد جاسم النجفي، الاشتراكي الماركسي سابقاً والتائب الآيب الى «**محمد**صلى الله عليه وآله **الحقيقة العظمى**» لاحقاً، والذي أعلن عن عودته هذه بكتاب نشره بهذا الاسم أولاً، ثم ثنّاه بهذا الكتاب عن علي عليه السلام ثانياً، والذي رأى فيه سلطة الحق والحقيقة، ورأىٰ أنه بوصفه لسلطة الحق في علي عليه السلام يقوم بجهاد كلمة الحق أمام إمامٍ جائر كصّدام! وكان سرعان ما اكتشفت زمرته ذلك فأدى الى إعدامه شهيداً!

ومن الحق والصدق أن يرى أخونا الصادق الرّوازق من حق هكذا مجاهدٍ بكلمة الحق أن يحقّق قلمه وكتابه ويعاد نشره مشروحاً، ومعلقاً عليه ببعض ما ينبغي أو يجب، فكان هذا البيان اللامع، فلله درّه وعليه أجره.

ولا أراني مضطراً الى تطويل القول هنا أكثر من هذا، فخير القول ما قلّ ودل، والعذر عن التطويل مقبول بل جميل.

اليوسفي الغروي

٢٠/١٠/١٤٢٧هـ

مقدّمة المحقّق

تبقى الكتابة عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، رغبة مُلّحة عند الكاتب الملتزم المسؤول، وربما يكون أكثر شغفاً وتلهفاً وهي تسايّره مع نضوج تجربته من جهة، ومع تردي القيم وفوضوية السياسة وشيوع الاستبداد السلطوي من جهة أخرى. ولذا يبقى الطموح فاعلاً مشتعلاً آخذاً بالتأجج يتعايش مع ذاته في صومعة العبقرية الخالدة التي لا مناص لسمو الوعي وصُدّق المسؤولية أن يعيش علياًّ عليه السلام بأحاسيسه ووجدانه، وهو يرى ما سنّه من قيمٍ ومبادئٍ تألقت مصاديقها تُترجم حقيقة التطلّع الإنساني ومكامن أهدافه الساميّة، وعندئذٍ تصبح المصاديق التاريخية معينُ الكاتب وغذاؤه الوحيد في وحشته وعُزلته، مُبتعداً كلّ البُعد عن مصاديق حاضّره من قساوة الفوضىٰ وغياب المُثُل.

وربّما يُستفهم عن الاهتمام بتحقيق هذا الكتاب دون غيره، في الوقت الذي كُتبت عن الإمام عشرات التأليفات القيمة أيضاً بمحتواها الفكري وربما الفني في بعضها؟

والحق أنه مع مافي أهمية النتاجات الأخرىٰ، فإنها كُتبت بأجواءٍ ليس فيها ما يثير غضب السلطة، وليس فيها ما يدعو الى خطورة التحامل الطائفي والمذهبي، وربما كلّها كانت نتاجاً في أجواءٍ علمية خالصة.

بيد أن (سلطة الحق) كان رسالةَ تحدٍ صارخ لنظام فاقدٍ لسلطته الشرعية ومع ما في سياسته من وحشية دموية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً وشبيهاً.

وإلّا فإن المؤلف لم تكن غايته زيادة رصيده على قائمة الاصدارات، أو هاوياً لإعادة سيرة ومواقف الإمام عليه السلام وإن كان بإسلوبٍ عصري يتساير ورحابة الذوق

الأدبي، كما ولم يكن هاوياً المنافسة مع من كتب عن علي عليه السلام من الكُتّاب العرب، ولم تكن من غايته إثارة النزعة الطائفية بعد أن أصبحت الكتابة عن علي عليه السلام في زمن سلطة البعث تهمة طائفية تهدد الأمن الوطني العراقي وربما العربي أيضاً!!

إن الغاية الحقيقية للمؤلف هو التصدي للسلطة جراء سياستها اللاإنسانية بعد أن قرر إستحضار التاريخ القيمي ورشقه بوجه هذه السلطة التي خَليَّ قاموسها من مفردات قيميّة مارسها علي عليه السلام من عدلٍ وإنصافٍ للأموال والأعراض والأنفس. فكان (سلطة الحق) صاعقاً مفاجئاً وزلزالاً حارقاً لسلطة النظام، وفي ظرفٍ شاع فيه الصمت الرهيب، وقاهرية قراراته في التحسس من الموروث الإسلامي، وكلّ ما يُستمد لرجال التاريخ من قيم الفضيلة والحب والتسامح... هذه هي ميزة الكتاب، وميزة كاتبه الذي يطمح بسلطة الحق ودولة القانون واحترام الرأي وصون الكرامة، بعيداً عن قوة الإرهاب وسياسة البطش والإلغاء وعدم إنصاف الناس وابتسار التراث وتزييف الحقيقة.

فما كان من المؤلف إلا أن يعيش أشدَّ محنةٍ عرفها مثقف عراقي، بعد أن كثُرت عليه جبهات قوية، ومتعددة لمحاربته، وربما أقسى ما فيها مواقف مثقفي السلطة جراء وشاياتهم وتقاريرهم حقداً وحسداً وتملقاً وتقرباً للسلطان، وطمعاً بأبخس الأثمان، بعد أن انتزعوا ضمائرهم وأخلاقيات الأصالة العراقية، وطابع هويتهم الإنسانية! حتى باتت «لا» مفردة غريبة في القاموس الثقافي السياسي وأصبحت «نعم» أزهد مفردة لمواقف هؤلاء، وربما كانت عند غيرهم أخف وطأةً لدفع الضرر في اطار ممارسة التقية.

(فسلطة الحق)[1] كان انفراداً واستثناءً في الطَّرق على الباب المحظور سلطوياً،

---

١ ـ سجل الكتاب حضوراً مهماً وفاعلاً في الساحة الإسلامية، وقد تُرجم الى اللغة الفارسيّة تحت عنوان «امام علي عليه السلام نماد حكومت حق» قام بترجمته وتحقيقه الأستاذ موسى دانش، طبع: ↩

غائراً في كنوزه الإنسانية، مستنطقاً إياها نوراً في أحلك ظلامٍ خيّم على شعب العراق، فاستطاع فيه المؤلف أن يجسّد آفاقاً جديدة في التحدي والصمود، لإعادة اعتبارية ما مسخه النظام من قيم الديمقراطية والحوار الإنساني المنفتح على الحياة وعلى كل مناخاتها المتعددة، بعيداً عن سياسات القهر والطغيان. ولذا من الممكن القول: ان المؤلف استعرض خطاباً قيميّاً من معاني الإنسانية والأخلاق والحُرية الفكرية والتسامح وسيادة الحوار وإنصاف الحق إستنباطاً وإستدلالاً من منظومة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومع هذه الفرادة التي قدّمها المؤلف والتي عكس فيها همجيّة السلطة وفوضى سياساتها، فهو ممن نال وسام الشهادة والخلود في تاريخ الثقافة العراقية الملتزمة، فكانت له جولةٌ وكلمةٌ حُرّة. مع ما سجل من مدادٍ خالدٍ وهو يعلّم ويُخبر الطغاة بمنهج علي عليه السلام، بما يجب أن يُتبع، لا بما يُتبع من قبلهم وفق جاهزية الأحكام الإنحرافية والإرهابية، فجاء استعراضه لعليٍ عليه السلام وفق ما تحتاجه الذات العراقية، من مواقف اللطف والشفافية، وممارسة منظومة الحقوق بما فيها من العدل والمساواة بعد تضخم خزائن العراق البترولية، كما سجل طموحاً مشروعاً في الصفح والعفو والتسامح، وما أحوج ما كان عليه العراق من حاجةٍ الى التسامح السياسي، وفتح باب الحوار مع العراقيين جميعاً، بعد أن شدّ عليهم الفقر والقهر والرقابة الشديدة، لخنق الحرية الشخصية فضلاً عن الحرية السياسية.

مع التركيبة الفكرية للمؤلِّف

تأثر المؤلف في مطلع شبابه بحركات اليسار التحررية، يوم كان الواقع العراقي حافلاً بقوة التيار الماركسي، ومع بدايات تجربته الفكرية لم تكن لديه قناعات ثابتة

مؤسسة چاپ استان قدس رضوی، چاپ اول ١٣٨١ هـ. ش (طبعة اولى عام ١٩٩٢م) / ٢٠٠٠ نسخة، وسجل الكتاب فى المكتبة المركزية في ايران تحت رقم ١٤٠٨ع[٢]ج / ٣٥ / ٣٧ BP

تشير الى قناعاته أو موقفه الفكري المحدد، ولذا كانت كتاباته محط جدال التيار اليساري الذي تقاطع معه (المؤلف) في الكثير من متبنياته الجديدة، فنجد في (سلطة الحق) ـ وهو في صدد بيان أوجه العدل ـ يؤكّد (إن الإلحاد يلغي أية خشية من وجود الرقيب الإلهي، أو أي احتساب له، فتصبح حدود الذهن والإرادة الشخصية، والمزاج، ومخزون اللاشعور، للفرد الحاكم ذي السلطة المطلقة، هي التي تقرر كل موقف سياسي دون التزام بالحق، بالمفهوم الإلهي، بسبب فقدان الإيمان بالله، ودون الإلتزام بالقوانين، فنتج عن ذلك فوضوية القرار، رغم التشدّد في المنهجية) مضيفاً ومعللاً (إن الأفكار المادية في العدل الاجتماعي تُحال الى عقل الانسان ونفسه وتقديراته الخاصة، واجتهاداته، بما ينتاب ذلك من مؤثّرات شعورية أو لا شعورية قويّة، قد تجرف ـ في التنفيذ ـ المسار العام للحركة التطبيقية للعدل الاجتماعي في مسار ذاتي، يتعلق بالرغبات الشخصية، أومسار براجماتي، يتعلق بالمصالح الآنيّة للدولة. مثلما حصل في التجارب السوفيتية، وبلدان اوربا الشرقية مثلاً، فالسلطة المطلقة، مارست التصفيات السياسية والجسدية، باسم ضرورات التطبيق الاشتراكي، محتكمةً في ذلك الى إرادة الحزب وتصوّراته التي هي ـ أيضاً ـ إرادة وتصوّرات قطاع واسع في الدولة والمجتمع، فالإجتهاد النظري والسياسي الذاتي، مع المصالح الآنيّة للحزب والدولة، كانا وراء الاجراءات القمعيّة القاسية ولم يستطع القانون أن يفعل شيئاً أمام إرادة السلطة المطلقة). وبعد مزيد من التفصيل ينتهي المؤلف في قراءته المقارنة لأوجه العدل بين النظرتين: الإلهية والمادية، متبنياً قول علي بن أبي طالب ﷺ الذي كتبه الى (الأسود بن قطبة) صاحب جند حلوان (في فارس): «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْوَالِيَ إِذَا ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذٰلِكَ كَثِيراً مِنَ ٱلْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ ٱلْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا ٱفْتَرَضَ ٱللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوَابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا قَطُّ فِيهَا سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيكَ عَنِ ٱلْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً، وَمِنَ ٱلْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَٱلإِحْتِسَابُ عَلَى

الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ، وَالسَّلَامُ».

ولقراءات وتطلّعات المؤلف المتعددة مع ما يلحظها من مصاديق واقع الأنظمة السياسية وحاكمية ايديولوجياتها. انتهى المؤلف الى مزيد من الاطمئنان في بلورة أفكاره ومتبنياته وهو يترجم ايمانه بوحده الخالق وقدرته، مستعرضاً قول علي بن أبي طالب عليه السلام في عجز قدرة الإنسان عن صفة مخلوق مثله، فكيف به أن يصف قدرة الخالق وصفته! «هَلْ تُحِسُّ بِهِ ـ ملك الموت ـ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّىٰ أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّىٰ ٱلْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؟! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟!»[١]

وسجل ايمانه بالآخرة وهو يتطابق مبدئياً مع قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ ٱلآخِرَةِ!»[٢].

ومع كلّ إذعانه للخالق، ونبوة محمد صلى الله عليه وآله، وايمانه فيه، وانبهاره بعلي عليه السلام، ينطلق تشهده مع تشهد الإمام القائل: ««وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ ٱلْمَشْهُورِ، وَٱلْعَلَمِ ٱلْمَأْثُورِ، وَٱلْكِتَابِ ٱلْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَٱلأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالمَثُلَاتِ،...»[٣].

ومن ذلك يتضح أن المؤلف تبلورت لديه انطلاقة ايمانية عقلانية لمنظومة الفكر الاسلامي ومع ايمانيته بالغيب، توافقت قراءته كُليّاً مع القراءات العملية لشرعنة الإسلام كمنظومة فكرية تسود مرافق الدولة ضمن دستورها وقوانينها، بعد أن عجزت

---

١ ـ أُنظر سلطة الحق، النسخة الأصلية (الطبعة الثانية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت: ٢٩٦، وفي هذا الكتاب: ٥٥٤.

٢ ـ سلطة الحق: ٢٩٧، الأصل وفي هذا الكتاب: ٥٥٧.

٣ ـ المصدر السابق: ٢٩٨، الأصل وفي هذا الكتاب: ٥٥٨.

المنظومات الأخرى من تقديم البديل المتوافق للطبيعة الإنسانية وتطلعاتها في الحياة، ومع ما يتوافق من مستجدات حداثوية، أثر التطور العلمي وإشباع الرغبات وتنظيم مسار الحياة، مع لحاظ أهمية وكيفية التعايش السلمي فيها، ورغم ما يكتنفها من التعددية الفكرية والاعتقادية والفوارق الأخرى.

ولهذا يسهب المؤلف في عرض نماذج انسانية رائعة من مصاديق سياسة علي بن أبي طالب عليه السلام في تداوله لمعنى الحُرية، وبعد أن يستذكر قول علي عليه السلام: **«وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً»**[1]. نرى المؤلف يُصاب بالذهول لهذا القول، ولم يستطع أن يُحرر تعليقاً وهو يرى فارقاً كبيراً بين طموحاته الإنسانية وبين واقعه الفعلي، الذي أصبح فيه المجتمع العراقي قطيعاً من الإماء والعبيد، تفعل بهم آلة النظام كما يُريد، فيكتفي المؤلف بإستعارة رائعة عن لسان جورج جرداق، ولعله وجد فيها ما يُريد أن يقوله: «**فانظر كيف توجّه علي بقوله الى من يريده أن يثق بنفسه ويستشعر روح الحرية ومعناها، فألقى في نفسه ما يوقظه على أصل من أصل وجوده، وهو أن طبيعة الكون جعلته حُرّاً لا يتمرد ولا يطيع ولا يعمل ولا يقول إلا على أساس من هذا الحق الطبيعي، وهو بذلك إنما يلقي في نفسه بذور الثورة على كل ما من شأنه أن يضيّق عليه ويسلبه حقه في أن يكون حُرّاً**».

ثم يستعرض المؤلف نماذجَ من سياسة الإمام عليه السلام في رفض الإكراه «**على الرغم من قدرته على أداء حقّه كسلطة**» وعبارة المؤلف ـ هذه ـ تؤكد كبير من الأسر والطوق اللاشعوري الذي بات حاكماً على أفكاره جرّاء انعكاس لتجارب التاريخ والمرحلة المعاصرة، فلا يمكن أن يكون السلطان بمعزل عن ممارسة حقه في السلطة. وإن وضع اعتبارية حرية الفرد في حساباته! ولذا فإن المؤلف يُلفت نظر الدارسين ويؤكد على أن من أهم عوامل المحنة التي مرّت بها خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام تمسكه المبدئي الصارم بالحرية، ورفضه الحاسم للإكراه من أي نوع، فقد رفض إكراه أحد على بيعته،

---

١ ـ سلطة الحق: ٢٧٥ الأصل وفي هذا الكتاب: ٥١٧.

فقال عن الذين بايعوه **«ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين»** وينتهي المؤلف ـ في هذا الباب ـ مستعرضاً بعض المواقف التي كان أصحابها يرفضون البيعة، حتى راح أحدهم يهدّد الإمام كحبيب بن مسلمة الفهري، إلا أن موقف الإمام كان صارخاً في رفع شعار الحرية وعدم الإكراه، حتى كان له النداء التاريخي الإنساني، وهو يقول: **«اللهمّ إني دللتهم على طريق الرحمة وحرصت على توفيقهم بالتنبيه والتذكرة، ليثيب راجع، ويتعظ مستذكر، فلم يطع لي قول، اللهم إني اعيد عليهم القول...»**.

وفي هذا القول لوحده، ما يحتم على الدارس استحضار ما يتعلق بسيرة علي عليه السلام وفق دراسة علمية موثقة، يُظهر فيها جوانب عظمة الإمام في ندائه الخالد، وصرخته العالية لصون الحرية واحترام كرامة الإنسان، ومع ما يتعالى من شعارات معاصرة ومواقف السلاطين والملوك في التاريخ، فحقاً لعلي أن يكون أميراً للحرية، وسُلطاناً للكرامة، وليس أميراً للمؤمنين وحسب.

وأما مع العدالة الاجتماعية التي جسدها علي بن أبي طالب، ورغم ما كاد أن يكون الكتاب (سلطة الحق) بكل شموليته لمصاديق العدل، يشعر القارئ أنّ المؤلف يستطيع اشباع رغبته في كل ما أراد أن يُفرغ ما في جعبته لشدّة تأثره بهذا العدل الإلهي كما وصفه المؤلف نفسه، وأخرى من شدّة عطشه لتطبيق صورة هذا العدل في مجتمعه، بعد أن أضحى مجتمعاً طبقيّاً بإمتياز!!

وكأنّنا نرى في المؤلف أنه قد أخذه الشوق والشغف لأقوال علي عليه السلام في العدل حدّاً من الانبهار والمعشوقية الكبرى وهو يضع أحدها أولاً: **«وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَىٰ اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَىٰ الْبِلَىٰ قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَىٰ حُلُولُهَا؟!»**[1].

---

١ ـ سلطة الحق: ٢٥٧، الأصل وفي هذا الكتاب: ٤٨٥.

يكون كباقي النصوص والأقوال، أو كما في نصوص غيره ممن أراد تحسين صورته التاريخية، لا يمكن أن يكون مثل علي عليه السلام يترك قوله خالياً من المصاديق، بل إنه لا يقول إلا أن يكون مصداقاً لقوله وفعله، ولا نرى أبلغ من قصته مع أخيه عقيل وأيضاً مع ابن أخيه عبد الله بن جعفر، فمع عقيل يقول علي عليه السلام: **«وَٱللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّىٰ ٱسْتَماحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ [الشُّعُورِ، غُبْرَ] ٱلأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ ٱلْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ، مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ ٱلثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَىٰ نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ ٱلأَذَىٰ وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظىً؟!»**

وأما مع ابن أخيه وبعد محنةٍ قد ألمت به يقول له: **«يا أمير المؤمنين لو أمرت لي بمعونة أو نفقة... فوالله ما لي نفقة إلّا أن أبيع دابّتي!»** فكان جواب الإمام له، وهو صاحب المال والحاكم عليه: **«لا والله، لا أجد لك شيئاً، إلا أن تأمر عمّك أن يسرق فيعطيك!»** فليس عجباً أن يكون هكذا علي عليه السلام. بل العجب أن لا يكون هكذا علي عليه السلام! فتنتهي القيم ويزداد الظُّلْم وتَعِمُ الفوضىٰ.

ومع هذه الصورة الفكرية المشرّقة، يضع الى جانبها المؤلف صوراً أخرى من رحمة الإمام وعطفه وسماحته، ويفرد المؤلف في باب الحروب لعلي عليه السلام نموذجاً انسانياً ساطعاً لأخلاقياته في الحرب وتأكيداته المستمرة لدعوة الحوار وكرهه للحرب، وحرصه على حقن الدماء حتى قال عليه السلام يوماً: **«فَوَٱللهِ مَا دَفَعْتُ ٱلْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلىٰ ضَوْئِي، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَىٰ ضَلالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا».**

وبعد أن سجل المؤلف إمتياز انتمائه، وحسبك في هذا السفر، فقد سبقه ذلك كتابه (محمد صلى الله عليه وآله... الحقيقة العظمىٰ)، ومع ما في (سلطة الحق) من سياسة اسلامية جسّدها

(محمدﷺ... الحقيقة العظمىٰ)، ومع ما في (سلطة الحق) من سياسة اسلامية جسَّدها عليعليه السلام. فكان للكتاب وجه مقارنة صارخ مع واقع المؤلف الذي امتاز بسياسة الاستبداد والفوضوية القيميّة، وما يرى من خطورة طائفية أرجعت بالمجتمع الى تجزئات وتناحرات مذهبية حادة، ولم يترك المؤلف بيان هذا الخطر الداهم الذي أحبط البشرية احباطاً كبيراً، ويؤكد المؤلف ـ أن من خطورته ينجم الإرهاب الايديولوجي (باسم الدين والدين منه براء كما يقال). ويتمثل هذا الارهاب بصورتين مأساويتين: احدهما ارهاب الفكر ومصادرة الحُريات، والآخر، ارهاب الانسان نفسه وإزهاق روحه[1]، ومن ذلك فإن ما يحصل ـ الآن ـ في العراق هو جراء سياسة النظام الطائفية بعد تغذيته طوال خمس وثلاثين عاماً من حكمه. بيد أن المؤلف لم يترك هذا الخطر دون أن يجد له علاجاً ناجعاً من منظومة الإمامعليه السلام وينتهي الى أن الحل يكمن في ركنين:

الأول: التركيز على الأخوة الايمانية، الاخوة الايديولوجية السياسية وبما يتضمن ذلك من وحدة المنطلقات ووحدة العلاقة بما فيها التضامن والتحالف.

الثاني: وهو الركن الأهم، فهو تذكير السلطة المذهبية، أن الانسان من مذهب آخر هو نظير انسان السلطة في الخلق، وليس ثمة ما يتعالى به عليه، فتكون له ـ به ـ حجة لقمعه، وذلك استنباطاً من قول عليعليه السلام: **الناس «صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإمّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»**.

وسوف يرىٰ القارئ الكريم، أننا أوردنا بعضاً من مصاديق تعامل الإمامعليه السلام مع أهل الكتاب من خارج الدائرة الإسلامية، والذين يُطلق عليهم بـ(أهل الذمة) أي إنهم في ذمة الله ورسوله، وذلك من مواقع جهدنا في التحقيق، لإتمام فكرة المؤلف حول الحرية الشخصية في الإسلام وكيفية التعامل والتعايش مع الآخر المخالف فكراً

١ ـ سلطة الحق: ٢٤٦ الأصل وفي هذا الكتاب: ٤٦٥.

وعقيدة وتوجهاً.

واختصاراً لمساحة المقدمة، نترك الكثير من النقاط التي أبرزها الكاتب من السيرة الفريدة في تاريخ البشرية، والمُثل العظمى التي جسّدها علي ابن أبي طالب ﷺ كمصاديق بعد أن كادت الأمة أن تبتعد عن هذه المُثل وتحصرها في قليل من الجماعة.

وتشوّق المؤلف ﷺ لإعادتها وتفعيلها في بيئة علي ﷺ الأولى، ورسالة صريحة وواضحة للنظام للإقتداء بهذه المُثل وماهو عليه من سياسة دموية أودت الى خراب الإنسان قبل خراب العراق.

فكان (**سلطة الحق**) إستشرافاً دقيقاً لواقع المستقبل جراء ما امتاز به المؤلف من قراءة مُحكمة في نصوص الإمام، والرؤية الصادقة لتبني هذه المُثل دون محاباة ومساومات، وبصلابة الرجال وقوة الشكيمة والإصرار على عزّة النفس وصون الكرامة، خطّ رؤاه المسؤولة مع ما يتوقعه من ثمنٍ ربما لم يكن باهضاً حين تتلقفه الشهادة والخلود.

فسلامٌ على الخالدين في جناتهم.. الذين عاهدوا الله على قول الكَلِمُ الحق في محضر الجبابرة والسلاطين.

والحمدلله رب العالمين

صادق جعفر الرّوازق

المؤلّف في دائرة التعريف

لم نقف على نصوص في تعريف المؤلف عزيز السيد جاسم، رغم كثرة ما كُتِبَ عنه، ولم نهتدِ الى ما يمكن أن يكون تعريفاً بليغاً شاملاً بالمؤلف، سوى ما ذكره زميله الدكتور صلاح الفرطوسي[1] من على موقع «كتابات»[2]، وهو يهدي القارئ الى مواقف كثيرة من العزّ والشموخ من سيرة ـ هذا ـ المؤلف الشهيد، فنترك ـ عزيزي القارئ ـ وما قاله الفرطوسي، دون إضافةٍ أو حذف... فيقول[3]:

أوّلاً: الكاتب

مازال لقائي الأول بعزيز كأنه البارحة على الرغم من مرور ربع قرن عليه، فقد زارني لخطبة أخيّتي لأخيه برفقة مجموعة من الوجوه النجفية التي لا يمكن أن يرفض لها أي طلب. إذ كان من بينها السيد الجليل العلامة المحقق محمد تقي الحكيم والسيد الجليل العلامة هادي فياض تغمّدهما الله بواسع رحمته.

كانت حفاوتي برفقته لا تعد لها حفاوة. ولا سيما بالسيد الحكيم الذي لم ألتيقه من قبل ولكنه كان ملء السمع والبصر. أما السيد الفياض فقد ربطتني به صلة مودّة ومحبة ورثتها عن والدي الذي كثيراً ما اصطحبته لزيارته في مكتبه أو بيته.

---

١ ـ وهو ابن أخ رجل الدين المعروف، والشاعر المجيد صاحب ملحمة الطف، الشيخ عبد المنعم الفرطوسي النجفي﵀.

٢ ـ موقع لصحيفة حُرّة على الانترنيت.

٣ ـ مقال بعنوان (علي بن أبي طالب وسلطة الحق) كتاب فاز مؤلفه عزيز السيد جاسم بجائزة الشهادة.

وكنت قد سمعت عن الرجل وعن سيرته أشياء من هنا وهناك، إذ لم أكن على اتصال بالصحافة العراقية أو كتب السياسة التي تصدر في العراق على كثرتها خلال السنوات الست السابقة التي قضيتها في مصر للدراسة، وبعد عودتي لم أكن أحفل كثيراً بالسياسة التي كان عزيز قطباً من أقطابها، ولم أقرأ له سطراً واحداً من قبل إلا أن ذلك لم يمنعني من التحديق في ملامحه التي لم تفارقني صورتها الأولى، فقد رأيته طويل القامة ممتلئاً ثاقب النظر حادّه، حنطي البشرة، شاخصاً، قليل الحديث، صارم الوجه على الرغم من الابتسامة المغتصبة التي رسمها على محيّاه أثناء حديث المجاملة الذي دار بيننا، ولا أدري لماذا خيّل إلي أن الرجل سليم النيّة، طيّب القلب، ولا أستبعد أن يكون سبب ذلك الانطباع يعود إلى الصحبة المنتخبة التي رافقته، على أن رغبة راودتني في حينها لسبر غوره، ومعرفته من قرب.

كان ذلك اللقاء في خريف سنة ١٩٧٧م في غالب الظن، ثم مرت أشهر كي ألتقيه ثانية في بيت أخيه الذي كان مديراً لناحية الحيرة آنذاك، وفي هذه المرة عرفت أشياء جديدة عن الرجل، وخاصة بعد أن قرأت له بعض ما كتب، وبدا لي أنه رجل فكر وفلسفة وأدب قبل أن يكون رجل سياسة، وأنه زجّ فيها زجّاً، وكان لزاماً أن يختلف ويفشل في ظل حكم لا يقبل النقد، ولا يعرف الحكمة، ولا يقيم وزناً لوجهة النظر التي تختلف معه حتى وإن كانت تحاول تبصيره بمزالق الطريق، بل يسحق أصحابها بكل حقد وعنف، نظام يسيّره المزاج الشخصي الذي كان يخطط إلى قابل عاصف أشد حلكة من جميع العصور المظلمة التي مرت على العراق في تاريخه الطويل، لذا فقد رأيته رحيماً حينما أحال عزيز على المعاش سنة ١٩٧٧م ولمّا يبلغ الأربعين.

وبمرور الزمن كنا نلتقي مرة كل شهر أو يزيد، ونتجاذب أطراف الحديث بمودّة ومحبة مشوبتين بالاحترام، وكنت حريصاً على الاقتراب منه ـ على الرغم من تهيّبي له ـ في محاولة لربط الحاظر بالماضي لتشوّف المستقبل الذي كنا نراه غائماً تشوبه رياح سموم لا بد أن تأتي في قريب عاجل لتعصف بالحرث والزرع.

وما أتذكّر أني سمعته مرّة يتشدّق بمعرفة هذا أو ذاك، أو بعمله مع هذا أو ذاك، ولعله كان ميّالاً لمحو تلك المرحلة من مخيّلته ونسيانها كي يتخلص منها ومن تبعاتها، وكان يلذّ له الحديث عن بعض الأصدقاء من الذين نذروا أنفسهم للفكر والثقافة، ولم يؤثر فيهم بريق سلطة أو مال، وقضوا حياتهم على قارعة الطريق، وما كان ميّالاً أيضاً للحديث عن كتبه ومقالاته على كثرتها، ولكنه بمرور الوقت أهداني جميع ما توافر عنده منها على غير عادته.

كان عزيز في بعض كتاباته التي اطّلعت عليها يوصي المنخرطين في النضال الوطني بالابتعاد عن مزالق السلطة، وعدم التأثر ببريقها، لأن المناضل الحق هو الذي يكون رقيباً عليها ومحاسبّاً بالدرجة الأولى، وليس مستفيداً منها، وعليه أيضاً أن يكون مثالاً لغيره في السلوك الخاص والعام وقد حاول أخذ نفسه بتلك الاعتبارات والمقاييس و الرؤى التي و ضعها إلى حدّ كبير.

وكان نهم القراءة موسوعيّها، تظنه أحياناً لم يترك كتاباً في ميادين الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والفلسفية لم يطلع عليه، ولقد رأيته بعين منصفة واحداً من المفكرين والكتاب اللامعين الذين التقيتهم في حياتي، وإذا كنت آسف على شيء، فإني آسف على رحيله ـ تغمّده الله بواسع رحمته ـ في عنفوان عطائه العلمي الذي ينفع الناس.

وعلى الرغم من ضيق ذات يده كان مولعاً بشراء الكتب، ولا سيما النادر والممنوع منها، وما أكثر الممنوعات في ذلك العصر، ولقد زرته ذات مساء فاعلمني بفرح أنه استطاع شراء ديوان عمي الشيخ عبد المنعم الفرطوسي الذي حرّمت السلطة تداوله أو اقتناءه بخمسمائة دينار، وهو مبلغ يزيد على ضعف راتبه التقاعديّ.

بدأت كتابات عزيز خلال الثمانينيات تأخذ منحى جديداً، ولكنه في عرف ذلك العصر يعد منحى تحرشيّاً يثير الريبة والاستغراب، فقد انحسرت مقالاته السياسية واتخذت من الاحداث والشخصيات الإسلامية الكبرى كالحسين عليه السلام شهيداً، ومعركة

الطف، والشريف الرضي سلّماً لنقد الواقع والاعتراض عليه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، كما أصدر كتاباً عن المرأة وآخر بعنوان (الصحافة في عالم متغير) ثم أعقبه بآخر عنوانه (مقتل عبد الناصر) الذي راج رواجًا كبيراً في المشرقين.

كان عزيز متعالياً عن كل ما يشين أو يتعلق بالكرامة، وكان من السهل على السلطة أن تصفيه يوم قررت ذلك، إذ لم يتمسّح بها أو يعتذر لها أو يتوسّل بهذا أو ذاك أو يتوسّط أحدًا، وأظنّه لم يقم بزيارة أحد من معارفه أو أصدقائه الذين كانوا في سدّة الحكم آنذاك خوفًا من اتهامه بما يشين مسيرته، وانزوى في داره، ولم يشارك بأي نشاط جماعي اجتماعي أو ثقافي، وقد فرض على نفسه إقامة شبه إجبارية إذ لم يخرج من داره إلا لماماً، وأتذكر مرة دعانا فيها الصديق العزيز الدكتور علي عباس علوان على مائدة غداء في بيته سنة ١٩٨٠م، وكان أحد معارفنا من الشعراء قد نشر قصيدة في مدح صدام حسين، وضمّنها نقداً لاذعاً للمتزلّفين والأدعياء، والوصوليين ورأيتها في عين قاصرة تستحق التنويه، فسألت عزيزًا وعليّا إن كانا قد اطلعا عليها، وبدأت أنوّه بها وبجرأة الشاعر، ورأيتها شجاعة منه أن يواجه النظام بذلك النقد، وقبل أن يعلق علي بادرني عزيز بأسلوب عنيف بقوله: كان على الشاعر ان يستحي من نفسه، فقد تمسّح بعباءة صدام بطريقة لابد أن تسقطه من عيون الناس، لقد أبعد من وظيفته وفصل، وعليه أن يحترم نفسه إلى أن يرد له اعتباره إن كان له اعتبار، أما أن يتزلّف هكذا فأمر يدعو إلى الشفقة والأسى، أما أنا فقد عبرت عن أسفي لأني لم أكن على بيّنة من ظروف فصل الشاعر، وأما علي فقد حاول بلغته النقدية تلطيف الجو مذكراً عزيزاً بجهلي الأحداث وذلك لقرب عودتي إلى الوطن.

بدأت الكوارث تتسارع بعد استلام صدام للسلطة، وبدأت الصورة واضحة فيما سيؤول إليه الوضع، ولا سيما بعد اختلاق حكاية المؤامرة التي استهل بها حكمه، ثم اختلاق حكاية تفجيرات المستنصرية التي اتخذت ذريعة للحرب على إيران التي خطط لها وشنها بعد نجاح ثورتها بقيادة الإمام الخميني طيّب الله ثراه، وأصبح من

العسير على الكُتّاب والمثقفين العراقيين النجاة من حبائل الشيطان، فإما أن تكون معه، وإما أن تكون من ضحاياه، إما الوقوف على الحياد، أو قول كلمة، أو تقديم نصيحة فأمر في غاية الخطورة، أما بالنسبة لي فقد كان الخطب أكبر، ولا سيما بعد اعتقال أبناء عمومتي الشهداء حسن، وثائر وجمال وأحمد تغمّدهم الله بواسع رحمته، وبعد جهد جهيد تركت العراق في خريف سنة ١٩٨١م إلى المغرب، واخترت التدريس بجامعة محمد بن عبد الله بفاس لبعدها عن مقر السفارة بالرباط، وفي تلك الفترة كان يتردد علينا الأستاذ وليد عمر العلي لزيارة أخته الدكتورة زكيّة زوجة صديقنا الدكتور عامر النفّاخ، وجرّنا الحديث يوماً إلى عزيز، فحدثني عنه، وعن اعتداده، وذكر لي موقفاً مفاده أن أحد أعضاء القيادة القومية من اللبنانيين طلب من أخيه الأستاذ صلاح الذي كان وزيراً للثقافة آنذاك أن يجمعه بعزيز، فطلب من وليد اصطحاب عزيز إلى الفندق الذي ينزل فيه العضو القيادي، يقول وليد: ولما وصلنا إلى باب الفندق امتنع عزيز من دخوله، ومن مقابلة الرجل أو التعرف عليه، ولما سألته عن السبب قال: كيف يكون هذا الرجل مناضلاً ويرضى بالسكن على حساب الشعب في مثل هذا الفندق الفخم الذي لابدّ أن يكلّف الدولة مبالغ كبيرة، وهو يعلم بحال البلد. لقد حدثني وليد عن أشياء كثيرة عن سلوك عزيز الصارم، وكنت أسمع أيضاً قصصاً عن حياته المتواضعة التي شهدتها من قرب وعن رعايته المحتاجين من أصدقائه في السر والعلن وعن اعتزازه بنفسه على الرغم من ضيق ذات يده.

أما علاقة إخوته به فقد رأيتها عجيبة في قدسيّتها وصرامتها، إذ كان احترامهم له وحبهم يفوق المعقول، وكان حديثهم معه تشوبه الرهبة والمحبة الصادقة، وفي المرحلة الأخيرة من علاقتي به، كنت أجدني أخاً أملك حقاً في مناقشته ببعض الأمور الخاصة والعامة، وكان الدكتور محسن الذي شغل منصب رئيس مجلس إدارة مؤسسة آفاق عربية صادقاً في دفاعه عن نفسه أمام المسؤولين في عدم تدخله في شؤون أخيه، بل قدرته على التدخل، وكان صادقاً أيضاً في كون عزيز لا يطلع أحداً على مشاريعه أو

قرارته كي لا يشرك أحداً بتبعاتها.

كانت علاقته بوالدته وعلاقتها به تفوق التصور أيضاً، وما أظنه ناقشها أو ردّ لها طلباً، أما هي فقد أقسمت ألا تنام على فراش منذ اختطافه في منتصف الشهر الرابع من سنة ١٩٩١م، ولم أرها طيلة زياراتي لها إلا على بساط من الصوف على الرغم من تدهور صحتها، وهي امرأة لا تختلف كثيراً عن ولدها في صرامتها وتقاليدها، إذ لم تخرج من بيتها بعد موت زوجها إلا لماماً، إما بسبب الانتقال من بيت إلى آخر، أو لمراجعة مستشفى أو لأسباب قاهرة تعد على أطراف الأصابع. ولقد ربطتني بهذه العلويّة الجليلة وشائج مودة وإعجاب بدورها في تربية أولادها بعد فقد أبيهم وعزّة نفسها وكبريائها على الرغم من فقرها، وكانت تتبسط معي وتخصني بدعاء صادق يزيد من احترامي ومودتي لها.

في سنة ١٩٨٨م زجّ أخوه محمد في سجن الأمن بمحافظة كركوك بأمر من علي حسن المجيد في قصة من قصص الخوف والظلم والاضطهاد يطول شرحها، فصحبتُ عزيزاً إلى كركوك، وفيها طلب مني أن نذهب إلى مقر الحزب؛ كنت خائفاً حقاً، وما أن وصلنا إلى مكتب الاستعلامات حتى طلب ورقة خطّ عليها رسالة إلى قيادة فرع الشمال لا يلتمس فيها، وإنما يطلب محاكمة أخيه إن كان قد ارتكب جرماً أو يطلق سراحه إذا ثبتت براءته، كما كتب رسالة أخرى إلى صدام حسين بالمعنى نفسه، ولم أشأ إطالة النقاش معه، إذ كان يحدّثني بسلطة الحق والعدل والمواطنة، وكنت أحدّثه عن سلطة علي حسن المجيد المستمدة من سلطة صدام التي لم تعرف يوماً شيئاً أسمه الحق أو العدل أو الرحمة أو المواطنة.

كان كتابه (محمد صلى الله عليه وآله... الحقيقة العظمى) يمثل تحولاً حقيقياً في منحى كتاباته، وكان وقعه غريباً، ورواجه كبيراً، ليس بسبب ما كتبه عن سيرة نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وإنّما بسبب مقدّمته الرائعة التي احتلّت حيزاً من الكتاب، فكاتب الفكر والسياسة والأدب والفلسفة غابت عنه الحقيقة عقوداً، وهي نصب عينيه ممثلة بقيم الإسلام ومُثله وسيرة

صاحب الدعوة العظيم محمدﷺ، لقد تكشّفت له الحقيقة في أبهى صورها فأعلنها في وقت ما كان عليه أن ينبس ببنت شفة عنها، لذا فقد أشاع الكتاب همساً بين أصدقائه وعارفيه، إذ رأيناها مغامرة لابد أن تجرّ وراءها ما تجرّ، ولا سيما في وقت لم يكن فيه من عظيم في العراق غير القائد، وكاتب سياسة وفكر اشتراكي يتحول مثل هذا التحول لابد أن يكون وراء تحوله ما يكون من عداء للسلطة واعتراض عليها.

ومرت عاصفة الكتاب، ولكنه لم يتوقف، وكأنه أراد أن ينفّس عن الثورة على الوضع من خلال إبراز الصّور المشرقة التي ينبغي أن يكون عليها الحكم، وما من سبيل إلى ذلك إلاّ من خلال تقديم أمثلة، لعل الطغيان يفيق من غيّه حينما يطّلع عليها، أو لعله كان يبحث عن طريق للشهادة بوعي أو بدون وعي، فتحقّق له ما أراد بعد سنة من صدور كتاب (**علي بن أبي طالب، سلطة الحق**).

ثانياً: الكتاب

ما زالت ابتسامة عزيز الصافية مرسومة في مخيلتي يوم زرته أول مرة في دائرة الأمن العامة ببغداد على الرغم من مرور ثلاثة عشر عاماً عليها، كنا قبل اعتقاله قد تقاربنا، واحتل كل منا موقعاً طيباً في نفس أخيه بعد مسيرة تعارف تجاوزت العقد من الزمان، قال لي: كان من الممكن أن تكون معنا يا صلاح، ولكن الله نجاك بأعجوبة، لقد وصلتني ثلاث نسخ من الكتاب، وقررت أن أخط على أحدها إهداء لك، وفي لحظة الشروع زارني الشباب لاصطحابي إلى المعتقل. وبقي الكتاب هاجساً لم تستطع النسخة المسخ التي صدرت في بغداد أن تمحوه من ذاكرتي، وتضاعفت رغبتي في قراءته، وخاصة بعد أن أخذت زمرة الشيطان عزيزاً إلى جنة الخلد على غير إرادتها في ربيع سنة ١٩٩١م.

وفي خريف سنة ١٩٩٣ زرت صديقي الدكتور طاهر البكّاء مودّعاً فتحدّثنا عن الهمّ الذي يجثم على صدر العراق، وجرّنا الحديث إلى عزيز وكتابه، فأخبرته أن دوائر

الأمن قد اشترت الكتاب ومسودّته من الناشر قبل توزيعه ونفذت فيه حكم الإعدام فهمس في أذني بأنه يمتلك نسخةً منه، وحاولت ـ دون جدوى ـ أن أطّلع عليها، ولكنه رفض، وحق له الرفض.

ومرّت سنيات التقيت فيها محسناً أخا عزيز ببيته في تونس، فأطلعني على نسخة من الطبعة الأصلية، وبسبب ظروف السفر لم تسنح لي الفرصة بتصويرها. وشاء قدر الله أن ألتقي الكاتب الصحفي المرموق مصطفى الكاظمي في مؤتمر إسلامي عقد بمدينة قرطبة في صيف سنة ٢٠٠٢م، وتذاكرنا عزيزاً وكتابه، فأخبرني أن الكتاب قد أعيد طبعه، وأنه يملك نسخة من الطبعة الثانية، فرجوته أن يتكرّم عليّ بتصويرها، ولكنه تعهد مشكوراً بإهدائها بعد عودته إلى لندن، ومن هناك تكفل أخي الأستاذ زكي بحر العلوم بإيرادها، لذا فإن هذه الصفحات مدينة بالشكر والعرفان للصديقين العزيزين الكاظمي وبحر العلوم.

لم أكن أبحث في الكتاب عن سيرة الإمام ﷺ بعد أن قرأت أغلب ما كتب عنه قديماً وحديثاً، وإنما كنت أبحث عن دوافع إخوان الشيطان في تصويرهم خطورة الكتاب ومؤلفه على الأمن القومي ـ بزعمهم ـ في تقريرهم الذي كان سبباً من أسباب تصفية عزيز تغمّده الله بواسع رحمته.

كانت كتابات عزيز الإسلامية تثير التساؤل، وظن بعضهم أن نقلته هذه تدعو إلى الحيرة والريبة، ولكني رأيتها طبيعية، فأغلب الكتاب من المسلمين تحولوا إليها بعد شعورهم بفشل التيارات السياسية في إحداث تغيير حقيقي في بلدانهم.

وأزعم أن جمهوراً من الكتاب والمفكرين تراودهم فكرة الكتابة عن الإمام، وتحاصرهم في مراحل نضجهم، ولكنهم يتهيّبونها لرهبة الدخول إلى رحابها، وهي في نظر بعضهم سباحة في بحر لا يدرك غوره، ولا يعرف مداه، وهي إيضاً امتحان للقدرة على التقاط الجوهر في مركب عسر وسط أنواء من زحمة العواطف وتضاربها، ومن زحمة الأحداث وتشابكها، وطول قامة الشخصيات التي شاركت فيها، وبين تاريخ

يضج بالمتناقضات، وحاضر يصطرع مع الآخر دون وعي ولا حكمة يجد الكاتب نفسه ـ في كثير من الأحيان ـ مضطراً إلى تأجيل مشروعه لوقت آخر تكون الصورة فيه أكثر وضوحاً فيستطيع الاقتراب من ذلك البهاء دون أن يوصم بالتطرّف أو التحيّز، وهذا ما يلحظ في المرحلة التي كتب فيها عن الإمام كُلّ من: طه حسين، والعقاد، ومحمد جواد مغنيه، وعبد الفتاح عبد المقصود، وخالد محمد خالد، وعبد الرحمن الشرقاوي، وغيرهم، لذا فإنه لا يستغرب أن يكتب عزيز عن الإمام بعد أن صدر له اكثر من أربعين مؤلفاً في موضوعات شتى محورها الإنسان.

وليس عزيز لوحده الذي راح ضحية الإعجاب بالإمام سيرةً وحكمةً وشجاعةً وعدلاً ونهجاً وتشوقاً، إذ لا أظن أحداً ممن كتب عنه نجا من النقد أو التعقيب، أو السجن أو حتى القتل، وعلى الرغم من ذلك مازال الزحام على أشده في رحاب أبي السبطين، وسيبقى الحديث عنه موصولاً، ما بقيت الأرض عامرة بسكانها تضجّ بالظلم والاضطهاد والطغيان تبحث فيها فئة من الخلق عن الحق فلا تتشوف بهاءه إلا في سيرة باب مدينة العلمعليه السلام.

وتستطيع وضع مجموعة من التصورات عن الكاتب وكتابه ليس من العنوان فحسب، وإنما من الإهداء أيضاً فالعنوان يوحي أن الكتاب ليس بحثاً في سيرة الإمام، وإن تعرض لها، ولا إلى دوره في إرساء الدعوة المحمدية وإن تعرض لها أيضاً، وإنما إلى دوره في إرساء قيم الحق فيها التي تشوّف الكاتب بعض ملامحها صبيّاً في سيرة أبيه الذي أراد الاقتداء بالإمام، لذا كان جديراً أن يقدم له كتابه هذا هدية.

ونحن نعلم أنه ليس من السهل على أي كاتب إهداء جهده لأحد مهما كان، إلا أن يحاصره وفاء لدين يطوقه بالعرفان، أو بريق يأخذ بصره، أو ذكرى تضغط على وجدانه، أو ما إلى ذلك، وقد يسهل عليه كتابة فصول إلا أن من العصب عليه الاستقرار على كلمات الإهداء، ولا أشك في أن الكاتب الذي أصرّ من كتابه الأول أن يكون اسم أبيه لقباً له، وان تكون السيادة لازمة لأبيه (جاسم) أراد في هذا الكتاب أن يرتبط اسم

أبيه بصلة رحم بالإمام من خلال جانب من جوانب سيرته عليه السلام، لذا لم يكن الإهداء بسبب دوره في حياة ولده تربيةً وتنشئةً ورعاية، وإنما بسبب تلك الصلة، يقول: (رحم الله أبي كان يشطر رغيف الخبز بيننا وبين السائل، فكان نصيبنا منه السهم الأقل) وما أكثر الفقراء والسائلين في قرية النصر أو الغازية النائية التي ولد بها عزيز ونشأ فيها، وما أقل القادرين على تقديم رغيف الخبز للسائلين، وهكذا فإن عزيزاً الذي أكد صلة الدم بالإمام من خلال (السيد جاسم) أراد أن يؤكد صلة أخرى هي إيثار أبيه المحتاجين على النفس والبنين، وهي من أهداف الكتاب، ومن سجايا الإمام عليه السلام.

والكتاب من بعد أيضاً عنواناً وإهداء يعطينا تصوّراً لحظة المؤلّف التي أرادها تشوّفاً لرؤى دولة الحق والقانون التي جعل منها الإمام منهجاً صارماً من اليوم الأول لحكمه، وهي رؤية لا يراد منها إبراز الصورة فحسب، وإنما كي تكون قدوة ومثالاً، وترغيباً بالخلود، وتذكيراً للآخر بأن الملك لله وحده، وإذا كان صدّام وغيره من الحكام قد حاولوا على مرّ التاريخ التعلق بالإمام من جهة النسب، فإن خلق مثل هذه الصلة لن تكون مبرراً للعظمة أو الخلود أو الشرعيّة، بدليل أن جميع الأشجار التي علّقها الطاغية في جميع الأضرحة المقدسة لم تمنحه الشرعيّة التي جاهد لتحقيقها، وحينما وجد أن أشجار العالم كلّها لن تحقق له مبتغاه، حارب الإمام بكل الوسائل، وأراد انتزاع محبته من النفوس بوسائل لم تخطر على بال البشرية جمعاء في صفحات تاريخها السود، ولم يتخذ عبرة لا من التاريخ الذي كثيراً ما تشدّق به، ولا من غيره، متناسياً ما فعله الطغيان من قبل يوم نبشت آلاف القبور زمن الحجاج وغيره للعثور على رفات الإمام الطاهر، وكأن العثور على رفاته والتخلص منه سيطفئ نور مسيرته التي عمّت المشرقين.

وكان لا بد من مدخل لإبراز أولويات المشروع الذي خلق عبقرية بحجم الإمام، فالناس تولد بأقدارها، إلّا أن بعض الولادات تكون محفوفة بإعجاز رباني، فإذا كان مخاض المصطفى صلى الله عليه وآله أحاطت به المخاوف والأهوال في حياة جدّيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وفي حياة أبيه عبد الله، فإن الإعجاز الرباني هو الذي حماه، أما

مخاض ابن عمه فكان هو الآخر محفوفاً بمشيئة ربانية عجيبة، فقد وضعته فاطمة بنت أسد في بيت جده إبراهيم، وختم الله حياته في بيت الله الجامع بالكوفة وبين الولادة والاستشهاد كانت المشئية الربّانية تحف بمسيرة الإمام في حياة المصطفى ﷺ وبعد وفاته.

وأية سلطة لابد لها من قوة كي تتحقق، وعناوين القوة كثيرة، فقد تستمد من القوه الجسدية، أو من المعرفة، أو من الإيمان، أو من قوة العشيرة، أو من رأس المال أو من غيرها، ولا يستطيع أي كاتب يتناول أي جانب في حياة الإمام أن يغفل الحديث عن شجاعته على الرغم من زحمة ما كتب عنها قديماً وحديثاً، فهو حديث معاجيز يصعب تصورها، وان تصورنا بعضها، فعلينا أن نتخيل الأطوار التي سبقتها من دربة ورياضة، ولكن هل منحت نفس علي علياً فرصة لدربة الجسد، أزعم أن مثل هذا لم يحدث، وأزعم أن روح علي كانت من القوة بحيث أنها لم تسمح للنفس بالسيطرة على الجسد، وأن مشيئة الرب أرادت أن تخلق منه أسطورة ولاكأساطير الأولين فكانت تنهض به إلى ما لم يسبقه إليه أحد، فيوم دعا النبي ﷺ عشيرته لنصرته لم يجد من بينهم ملبيّاً إلا الفتى الذي لم يبلغ الحلم في نظرهم، ويوم جاء أمر الله إلى نبيّه ﷺ بالهجرة إلى المدينة لم يكن غير الفتى جديراً بالنوم في فراشه، ودفع أماناته إلى أهلها، ويوم تعذّر على المهاجمين اقتحام حصن خيبر، لم يكن غير حيدرة جديراً بحمل راية رسول الله، ويوم تشابكت السيوف والرماح على المصطفى ﷺ في معركة أحد لم يكن غير عليّ قادراً على تشتيت ذلك الهجوم، بل لم يكن غير عليّ جديراً بحمل لواء النبي ﷺ في كل غزواته إلا واحدة تركه فيها على المدينة كي يكون منه بمنزلة هارون من موسى عليه السلام.

وإذا كانت شجاعته قد أطّرت بهالة من الرعاية القدسيّة في رأي بعض كتاب سيرته عليه السلام، بحيث نزعت منه حقه في أن يكون رمزاً للشجاعة والتضحية الإسلامية؛ فعنترة، وعمرو بن كلثوم، ودريد بن الصمة، وتأبط شراً وغيرهم من صعاليك العرب والعجم ممن أحيطت شجاعتهم بالخوارق والأساطير كانوا شجعاناً بسبب قوتهم -

الجسدية وعزائمهم التي لا حدود لها، أما علي ﷺ فإنه يتحرك وسط المهامة و الأهوال ببطولة محروسة برعاية خاصة لم تتوفر لمثل ذلك النفر، وفي ذلك إجحاف لدور علي الإنسان إذ يبدو وكأن ليس له من فضل، لأن الرعاية هي التي كانت تحركه وتتكفّل بحمايته، غير أن الدارس لسيرة أبي السبطين المتعمق بها يراها نابعة من عزيمة وإصرار، وتربية رسالية، وإيمان قادر على بث قوى خارقة في بناء جسد قوي، وقلب لم يعرف الخوف مطلقاً وعقل خارق الذكاء، وهذا المزيج، خلق عنده قوة روحيّة لم تخلق عند غيره من شجعان العصر لذا امتاز عليهم، ويقول الكاتب: (**إن امتياز علي بن أبي طالب بشجاعته الجسدية لم يكن ليعني شيئاً لديه مثلما يعني لسواه من الذين يغترّون بقوة الجسد ذلك لأن تلك القوة الجسدية خاضعة لدى علي لشجاعته الروحية ونقائه الروحي**)، ولم يشك أحد من قبل في أن سيف علي كان سبباً مباشراً من أسباب صمود الدعوة وانتصارها، فإذا كان عدد قتلى المشركين في معركة الإسلام الحاسمة (**بدر**) نحو السبعين فقد انفرد سيف علي بفطر هام سبعة وعشرين من سادة قريش وشجعانهم، وقد استمر أبوالسبطين في حمل رايه الحق الى النصر المؤزر فكان درعاً واقية لدعوة نبي الرحمة حيّاً كما كان درعاً لها بعد وفاته ﷺ، ولم تكن سلطة السيف التي كانت مسلّطة على الكفر والارتداد هي حليته، وإنما كانت في موازاتها سلطة أخرى مسلّطة على النفس لتجعلها مثالاً للحق والإيثار والعدل والرحمة، وهي قيم من الصعب أن تقبلها النفوس وتنصاع لها إذا اختصمت معها، لذا كان جلّ صحابة الإمام في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته من الذين آمنوا إيماناً كاملاً بعدالة رسالة نبي الرحمة، وقدّموا أعظم التضحيات في حياتهم كي يبقى نور الإسلام يشع على الإنسانية جمعاء.

كانت تملي السلطة المثالية هاجس عزيز ﷺ في أغلب كتاباته، فتمثّلها أولاً فيمثاليات الفلاسفة والحكماء على مرّ العصور، ولكنه بعد أن جاوز الأنا اكتشفها أولاً في أروع صورها بدعوة سيد الكائنات ﷺ فكان كتاب (**محمد الحقيقة العظمى**) ثم اكتشفها ثانية في سيرة الإمام الذي رأى فيه إيماناً صافياً كالبلور وبساطة غريبة في

الملبس والمأكل والمجلس، وقطعاً كالسيف في موضع القطع، ورآه لا يعيش ليومه في كل مراحل حياته لأن الإيمان الذي تلبَّسه استحوذ على كامل كيانه؛ لقد رآه قوة لا تعد لها قوة، وسماحة، وطيبة، وحنكة، وإرادة وظِّفت لخلق مجتمع لا يعرف الجور، أو التسلط أو التحايل، لأن الحكم لم يكن هاجس ذلك الإمام الذي كتبت له الرفعة والخلود على مرّ العصور، وستبقى الأقلام تتبارىٰ في تدبيج ملامح سيرته ما بقيت الأرض.

وعلى الرغم من كل العجائب التي تدافعت على الإمام في كل أطوار حياته ـ كما يرى الباحث ـ فإنّه كان يدفعها عليه السلام ـ إما بصبره الذي لا يعدله صبر، وإما بحكمته وبُعد رؤاه، وإما بكلمته الطيّبه، وموعظته الحسنة، وعلى الرغم من النفر الهائل الذي أحاط به فانّه كان يشعر بوحدة مؤلمة إلا من صحبة تعد على أطراف الأصابع ما فتئت الأحداث تسلّها من بين أصابعه الواحد تلو الآخر، بل إن جمهرة من الذين كانوا الأقربين في حياة ابن عمه صلى الله عليه وآله وظنَّهم الأقربين إليه بعد وفاته سلتهم المطامع أو الأحداث أو اختلاف الرؤى من بين أصابعه أيضاً، بل إن بعضهم حاربه أشرس حرب وهو ظالم له، وعلى الرغم من تزاحم الخلق عليه أنصاراً وأعداء فانهم كانوا يشعرون بالهوة السحيقة التي تفصل بينهم وبينه فتهيّبوه جميعاً.

لقد أراد أثناء حكمه دفع معركة الجمل وغيرها بكل الوسائل والسبل، وجادل القوم وحاورهم بالعقل والمنطق والحكمة، وأراد دفع الشرّ عن الإسلام وأهله بكل وسيلة شريفة كي يتفرّغ تماماً لنشر الإسلام وتطبيق دستوره الذي يحقق نواميس الحياة الكريمة والسعادة الأبدية، ولكن التيار كان هادراً، وفسحة الزمن ضيّقة، والمشيئة حاكمة.

ولكي تظل مسيرته نبراساً هادياً حاصرته الطغمة الباغية بباطلها، وعلى الرغم من شراسته، وقوة أحابيله انتصر عليها في نهاية المطاف انتصاراً ساحقاً باستشهاده في مسجد الكوفة الجامع.

كان الإمام في كل معارك الإسلام يبحث عن الشهادة في كل الوسائل والصور وعلى الرغم من الوشاح الذي وشّحه نبي الرحمة ﷺ به في معركة أحد (**لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي**) فإنّه ـ كما ينقل الكاتب ـ بكى بكاءً شديداً حينما زاره الرسول بعد المعركة التي أصيب فيها الإمام في نحو تسعين جراحة لأن الشهادة قد فاتته هذه المرة أيضاً، ولكن الرسول بشرّه بقوله: «**إنها من ورائك ياعلي**».

يقول الكاتب: كان علي في زمن النبي (**مقاتلاً، فدائياً، مأموراً، ومتطوعاً، وكان النبي هو الذي يقرر ويخطط لمعارك العقيدة ضد الشرك**)، ويقول: (**إن طبيعة المقاتل فيه قد بلغت من الاستقامة، ومن العدالة، ومن الشرف المدى الذي أفاءه عليها القرآن، والرسول، والإسلام، فهي عند الإمام لا تمثل عدواناً، ولا تتشكل بهتاناً، ولا تنطلق وقوداً لأغراض دنيا وأطماع نفس، وهي بهذا ولهذا تجاوز نفسها الى أعلى مستويات البطوله، كما أن البطولة عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة**).

وعلى الرغم من طغيان الفئة الباغية وانتصارها الدنيوي المحدود فإن انتصار أبي السبطين كان باهراً لأنه انتصار للبشرية على مرّ العصور ومكسب لمعادلاتها الإنسانية لم يتحقق إلا على يده (ولم يستطع التمرد المسلح الواسع النطاق أن يخلق خللاً في معادلاته الذاتية التي كانت في جوهرها معركة الحق الإسلامي... ومهما كانت النتائج السلبية التي نجمت عن انعدام التوازن بين حقّانيّته واضطراب الأجواء السياسية للمسلمين فإن تلك النتائج كانت سلبية في حينها، ولكنها في التاريخ دخلت في الدرس الذي لقنه للخصوم.. لقد كان الدرس أكبر من كل التفاصيل، تفاصيل الربح والخسارة بالمعنى الذي تعرضه السلطة والسياسة على نحو عام، فما قيمة الربح الذي كسبه خصم علي بن أبي طالب بإزاء الدروس والحكم والمآثر والأدلة الباهرة التي كسبتها البشرية من علي بن أبي طالب على حدّ تعبير الكاتب.

كان عزيز كغيره من الكتّاب والمفكرين العراقيين الشرفاء يبحث عن أية وسيلة لإيقاف شلال الدم الذي تدفق على يد طاغية العراق، وشلالات الظلم والاضطهاد

والتسعف الذي مارسته سلطته الباغية، وكانت صورة الإمام القديمة التي علّقت في بيت والده في القرية، والصورة الأخرى التي علّقها في بيته وقال عنها: إنها مصوّرة عن صورة في متحف اللوفر، وإنها أقرب الى حقيقة عليّ من سواها، كان يراه خير مثال يمكن تقديمه الى تلك الفئة الطاغية علّها تفيق من غيّها، ولعل المقارنة في ذهنه كانت حادة ومؤلمة، كما آلمت عشرات من عشاق الكلمة الشريفة، كان يرى الإمام (يبني سلطة عادلة، قوامها الإدارة الذاتية للجماهير المؤمنة، وبكلمة أخرى كان يصنع سلطة متحررة من أدواتها الترابية والقمعية المستعلية على المجتمع) و(كان أول ما باشر عمله تحقيق المساواة الاقتصادية على أساس أن العباد عباد الله، والمال مال الله، وهم شركاء فيه على قدر الجهد، لا على قدر التقوى، فجزاء التقوى عند الله) وكان يريد (إعادة الأمور الى نصابها فيدمج الحاكم والدولة بالأمة التي هي الأصل والأساس، والأول والآخر، إن هذه الإدارة هي منهجه السياسي، النابع من فكره ومبادئه التي تشرّب بها من المصطفى)، وكانت فكرته عليه السلام تعتمد (على العلاقة المباشرة بين الخليفة والناس، وتلك العلاقة التي يضبطها المسجد الجامع والصلة الحرّة المباشرة، في الأسواق، وفي ميادين العمل وفي ساحات القتال حيث لا حدود ولا مسافات ولا أسيجة تفصل المواطن عن الخليفة، وكانت الحلول لكل المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لا توضع في عهدة بيروقراطية متنفذة، أو في أطر متعالية سرية، بل هي توضع في مجرى الصلة الحيّة المباشرة، وفي مجرى الحوار المتدفّق بين أفراد المجتمع رعاة ورعية)، و(كانت نظرة الحق تريه أن الناس سواسية، فكان يرفض رفضاً باتاً سياسة التمييز القومي، والشوفينية القرشية التي كانت تروم تحويل تراث النبي العظيم الى مكاسب خاصة، فالإسلام دين البشرية الذي دخلت تحت لوائه أمم وشعوب وقوميات مختلفة، فلا محل -إذن- لأي استعلاء قومي، ولأيّة عرقيّة، مثلما، لا محل لأيّة هيمنة ارستقراطية مغالية)، وكانت السلطة في زمانه هي سلطة الحق (وكان عليّ نفسه الضمانة الكبرى والأساسية لاتصاف السلطة بالعدل، لقد كان بذاته سلطة خارج السلطة، وهذا هو الفارق الجوهري بينه وبين سواه من رؤساء الحكم الذين هم في حقيقة حالهم عبيد السلطة، مثلما يكون بعض الأثرياء الكبار

عبيد المال). (وقد كانت تجربة السلطة عند علي بن أبي طالب طرازاً إسلامياً فريداً نافعاً لجميع المذاهب السياسية الإنسانية التي تفكر بكيفية إخضاع الدولة لواجباتها وعدم التمرد على المجتمع بركوبها على كتفيه، كان علي بن أبي طالب يدير سلطة مكشوفه للناس هي سلطتهم أنفسهم، والتي تتحقق فيها أرقى صورة للإرادة الذاتية والتسيير الذاتي). (إنها سلطة المجتمع الفعلية من الشعب والى الشعب، وليست السلطة المزدوجة التي تظهر على نحو وتبطن نحواً آخر، فالمال ملك الناس، والفيء ملك الناس، والقوانين في خدمة الناس، ويناقش الجميع أمور دنياهم ودولتهم بحرية تامة كما يناقشون أمور دينهم).

كان الإمام عليه السلام زمن النبي ركيزة من ركائز تثبيت قاعدة **(العدل أساس الحكم)**، وكان العدل في توزيع الثروة أساس استمرار قيم الحق التي جاهد الرسول لإرسائها، لذا فليس من المستغرب على الإمام أن يفتتح يومه الأول في الحكم بقوله: **(ألا وأيّما رجل استجاب لله ورسوله فصدق ملتنا، ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله،والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء)** لذا كان صوته **(إيذاناً بتقسيم أموال بيت المال على المسلمين سوية بلا فروق، وبلا مزايا وامتيازات. كان ذلك حدثاً كبيراً جداً بإزاء ظهور فئة من الذين كنزوا الذهب والفضة، بعض باسم السابقة في الإسلام، وبعض من خلال السلطة، وبعض من خلال القرابة للولاية والعمال وغير ذلك).**

كانت فصول الكتاب تمهيداً لنتائج تتسارع دائماً لتوضيح سلطة الحق في سلوك الإمام ومسيرته الخالدة، وكان تحليل الكاتب يبدو نموذجياً في قراءة النصوص التاريخية أو في قراءة تراث الإمام النثري في خطبه ورسائله ووصاياه، وكان فهمه أحياناً جديداً لم يطرق من قبل بحسب خلفيته التي تشرَّبت الفكر السياسي قديماً وحديثاً، وكان حقاً خطراً على أمن الطغمة الفاسدة، لذا كان لزاماً عليها إعدام الكاتب وكتابه، وخاصة بعد أن استولت على كل مقدرات البلاد واغتالت كل شيء جميل فيه.

أما قراءة الكتاب فقد كانت متعة ولا كبقية المتع، وكان قلمه زلالاً وتحليقاً في أجواء

ملائكية من الصفاء والتجرد، وإذا كنت ترى في كتابات الآخرين اصطفافاً مع الإمام، فإنّه حاول جاهداً الابتعاد عن كل ما يشوبه من تهم طائفية نعته بها إخوان الشيطان في تقريرهم، ولعل عزيز من الفئة التي كتبت عن الإمام ولم ترجع الى أي مصدر يتهم بالتشيع أو التطرف أو الطائفية.

أما فصول الكتاب الأحد عشر فأغلب ما ورد فيها جديد في طرحه ومعالجته؛ من فصل (مشيئة الرب) وحتى فصل (سلطة النص في بلاغة علي بن أبي طالب)، وكانت مقدمة الكتاب حرية في أخذ قارئه الى خاتمته، في أسلوب عفيف العبارة مشرقها يفيض بالأمل في مستقبل آت قريب لدولة الحق والقانون، ولا أشك في أنه سيبقى مرجعاً مهماً لكل المحاولات القادمة التي ستتناول مسيرة الإمام، ونبراساً لكل حاكم يحاول حجز صحيفة في سجل الخالدين.

أنا على يقين أن كتاب عزيز عن الإمامعليه السلام كان أصدق تجاربه وأصعبها، وعلى الرغم من أنّه لم يتمتّع بجني ثمار صداه حيّاً، فإنّه نال به جائزتي الشهادة والخلود في آن واحد، وبذا كانت خواتيمه من أعظم ما يتمنّاه الكاتب المخلص لقضيته وأمته.

الغاية من تحقيق الكتاب

١ ـ بما إن الهدف من التحقيق، هو إثبات أو نفي المعلومة، فإننا وجدنا في هذا الكتاب ما يرقىٰ للخوض في العملية التحقيقية في بُعديها ـ الإثبات والنفي ـ وبعدما كان للكتاب من أثرٍ مهم في انتشاره، وتفاعل الناس مع مظلومية المؤلفرحمه الله كونه أُعدم بسببه.

٢ ـ الكتاب غنيٌ بقيمته الفكرية، بعد أن برّز المؤلف مواقف أهمية الحوار والسلم من سيرة الإمام عليعليه السلام، وهذا من أساسيات ما تتطلّع له الشعوب المسلمة في الوقت الحاضر، وما تؤكده الأقلام المؤمنة للإقتداء بالسيرة السلميّة للإسلام، والذي جسّدها علي بن أبي طالبعليه السلام بأروع مصاديقها قولاً وفعلاً. كما أمتاز الكتاب، بقيمته الفنية

المتمثلة بالأسلوب الأدبي الرائع الذي اختصّ به المؤلف، وبات اسلوبه المميّز به. مع ما استعرض به من القدرة في محاكاة القديم بأدوات الحاضر، وترابط الأحداث ومن ثم خلودية منهج الإمام عليه السلام وفاعلية الإسلام.

٣ ـ اعتمد المؤلف على مصادر حديثة (معاصرة) بشكلٍ غالب.

٤ ـ خلو الكتاب ـ في أغلبه ـ من الإشارة الى المصادر إلا بالقدر اليسير منه، وحتى في هذا اليسر لم يشر المؤلف رحمه الله الى رقم الجزء أو رقم الصفحة.

٥ ـ اعتمد المؤلف على بعض المشهور من الروايات دون التحقيق فيها أو حتى التعليق أو الإشارة الى ضعفها.

٦ ـ احتواء الكتاب على بعض الأخطاء المطبعية.

٧ ـ على قدر إطلاعنا، يُعتبر هذا الكتاب جهداً عراقياً فريداً يوازي ما قدمه الأُستاذ جورج جرداق اللبناني في موسوعته (علي بن أبي طالب... صوت العدالة الإنسانية) والأستاذ عبد الفتّاح عبد المقصود في كتاب (الامام علي بن ابي طالب ـ المجموعة الكاملة ـ) ورغم ما في هذه الجهود من ملاحظات فكرية وتاريخية، إلا أنها ـ بحق شكّلت أنجماً ساطعةً في عالم الكتابة والتأليف من أقلام المتأخرين عن سيرة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

منهجية التحقيق

١ ـ الوقوف بشكل رئيسي على جميع الروايات والأفكار والأقوال التي ذكرها المؤلف وإسترجاعها الى مصادرها التأريخية ـ القديمة ـ المعتبرة.

٢ ـ لم نعتمد على المصادر الحديثة التي أعتمدها المؤلف إلّا بالقدر المُتاح من الضرورة.

٣ ـ أوردنا جميع الإشارات أو الهوامش التي ذكرها المؤلف، وأشرنا إليها بكلمة (المؤلف)، انطلاقاً من حتمية الأمانة العلمية والدقة في ذكر كلّ ما ذكره المؤلف من

الطبعة الثانية لنسخة الكتاب المطبوع في (مؤسسة الانتشار العربي / بيروت).

٤ ـ أوردنا تكملة بعض الأقوال التي ذكرها المؤلف، والتي قد تبدو في بعضها ناقصة القيمة نحو الأكمل والأفضل في بيان الصورة عند القارئ، فجاءت التكملة لتضيف معانٍ أُخر تُستكمل فيها بلاغة الفكرة ونضوج المطلب.

٥ ـ سجلنا تعليقات على ما جاء به المؤلف من المشهور الروائي، وفق ما تستطلبه الفكرة، مُدْعَمةً بالمصادر المعتمدة عند علماء التحقيق.

٦ ـ أوردنا كلمة (المحقق) على كلّ ما جاء من جهدنا التحقيقي لغرض التمييز.

٧ ـ أفردنا ملحقاً خاصاً بالأخطاء المطبعية من أصل النسخة المعتمدة في تحقيقنا.

٨ ـ ذِكر جميع المصادر التي اعتمدها المؤلف ﷫.

٩ ـ وأيضاً، بدورنا اعتمدنا على بعض المصادر الحديثة القيّمة والمعتبَرة عند عُلماء التحقيق.

عبقات من الوفاء

ومن وفائنا المتواضع، لابد أن نقدم جزيل شكرنا وعظمة تقديرنا للأساتذة العلماء مسؤولي اللجنة العلمية في المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام لجهودهم المضنية في تقييم هذا الكتاب والوقوف على كُلّ الأبعاد الفكرية والعقائدية من مسار جهدنا التحقيقي وما تضّمنه من شروح وتعليق، ونخصهم بالذكر كُلّ من سماحة آية الله الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي العالم الفاضل والمؤرخ الموسوعي القدير، لجهوده المميّزة وتقيماته العلميّة الراقية وملاحظاته السديدة، فضلاً عما قدّمه من تقريض بليغ نَمّ عن صفاء نفسه ورحابة فكره، وسعة حلمه، وعظمة تواضعه دالاً بذلك عن صورة العالم الرباني الصادق الحريص على قول الحق ونشر الفضيلة مجسّداً حديث أهل الكمال : «**انظر الى ما قيل ولا**

تنظر الى من قال»[١] كما وأشكر سماحة المربي الفاضل والمحقق القدير آية الله الشيخ جعفر الهادي (دام ظلّه) وسماحة حجة الإسلام والمسلمين المؤلف البارع الشيخ عبد الكريم آل نجف (دام ظلّه) على عناءهم الطويل وصبرهم الجميل في قراءة الكتاب وما قدموه من تقييم خطي رائع وصادق يليق بهكذا جهد، كما وأشكر صديقي الأُستاذ المؤلّف الدكتور صائب محمد عبد الحميد الذي فرح كثيراً بهذا الجهد ويتواضع المملوءين الكبار أخذه بيده الكريمة، بعد أن قدّم عليه شرحاً وافياً معرِّفاً إيّاه الى اللجنة العلمية في المجمع العالمي.

وإن لم يحظ هذا الجهد نصيباً من النشر في دائرة المجمع، لأمور فنية، وكما أُخبرنا بالنص: لعدم وجود الأولوية كون ان هذا العام هو عام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. إلا أننا نكتفي بما قدمه لنا أعضاء هذه اللجنة من كرمٍ واعتزازٍ كبيرين وهم يسجلون تقيماتهم الرائعة وطلباتهم الملحة للقسم الفني في المجمع لنشر هذا الجهد ولكن دون جدوى... فلله دَرّهم وعليه اجرهم.

صادق جعفر الرّوازق

ثمّ بعونه تعالى في الأوّل

من شهر رجب المرجب عام ١٤٢٧ هـ ق

---

١ ـ انظر جواهر الكلام، للجواهري ١: ٣٥ ومثله للسيّد ابن طاورس الحسني في فرج المهموم: ٢٢٠.

إهداء المؤلف

رَحِمَ اللّهُ أبي كان يشطُر
رغيفَ الخبزِ بيننا وبين السائل
فكانَ نصيبُنا منه السهمَ الأقلّ!

«المؤلّف»

مقدّمة المؤلّف

في قرية (الغازية) ـ ناحية النصر حالياً ـ فتحتُ عينيّ على الدنيا، وكانت صورة علي بن أبي طالب رضي الله عنه معلّقةً على الحائط؛ تلك هي الصورة التقليدية الشائعة، بألوانها الساخنة، وبالمهابة المميّزة لوجهه الكريم، تُحيط برأسه هالة نور.

كانت الصورة شائعة، وهي رسم يد، لم نكن نعلم أنّها من تقدير الرسّامين وحدهم، مُتقرّبين ـ جهد الامكان ـ من معلومات وتصوّرات عن شخصية عليّ. كنت طفلاً، وكانت صورة (الإمام) حاضرة في البيت، مثل البيت، والأب والأم، والأخ، والأخت.

فلم يكن ممكناً أن يكون البيت بدون الصورة، هذا ما اعتدنا عليه حينذاك، وحينما غادرت إلى المدينة (الناصرية) للبدء في دراستي المتوسطة والاعدادية، انتقلت إلى عالم آخر، بعد أن خلفت ورائي عالم القرية، والذكريات، والصور الأولى.

وفي المدينة العريقة (الناصرية) ابتدأت رحلتي الدراسية، ومعها ابتدأت رحلتي في المعرفة مع (فولتير) و(جان جاك روسو) و(روبسبير)، ثم بدأت أتعرف على (نيتشه) و(شوبنهار) و(ديكارت) و(كانت) حتى وصلت ضفاف الفلسفة الأوروبية، حيث استطلعت، فرأيتُ ماركس، وهيجل، وفيورباخ، وانغلز، والفلاسفة الانكليز، كذلك تجولت في عالم تون بين، ولنكولن، والسياسيين، والروائيين، والمفكرين، وانقطعت عن عالمي الصغير، الأول.

بعد أكثر من ثلاثين عاماً، هي رحلة طويلة في الكدح والمعاناة الذهنية، أهديت لي صورة لعلي بن أبي طالب، مصوّرة عن متحف اللوفر بباريس، وهي صورة أقرب إلى حقيقة علي من سواها، وبخاصة من تلك الصور الأولى التي انتشرت في قرانا الآمنة، الكريمة.

وربما هي من رسم أحد الرهبان.

في الصورة شموخ عجيب، وقوة هائلة، واستقرار تاريخي. كان علي راكباً حصانه، حيث ظهر أعلاه من حجعة السرج، ولكنه بدا متبوئاً مقعداً تاريخياً شديد العلو، على الرغم من أن الارتفاع ـ من جهة الحصان والرّجْلَيْن ـ لم يكن ظاهراً.

كنتُ أنظر فأقدر، إنما كنتُ ـ في الواقع ـ أعاين ذلك العلو الذي كانت فيه الصورة. هل هو علو ماثل في الصورة فعلاً، من أحد إيحاءاتها؟ أم أنه كشف حال هي حالي... من شغفي القديم، وذكرياتي، وانطباعاتي؟

على كل حال، كانت الفترة الزمنية بين رؤيتي الصورتين لعلي بن أبي طالب، طويلة، تكاد تكون العمر، أغلبه!

ولكن لا يهم ذلك، فالعمر لا يُقاس بالسنوات، انه عمر نسبي، إذا لم يُقَس بالحقائق.. فالحقائق وحدها البديعة، الثمينة، وحدها العمر، ومن أي طريق يصل إليها المرء فليصل!

رأيت أن أتابع مشروعي الذي ابتدأته بكتاب (محمد ـ الحقيقة العظمى)، في اطار استعادة اهتمامات عربية فكرية، كنت أخشى عليها من الضياع، أوالاهمال، من قبلي! بل إنها أهْملت فعلاً لفترة من الزمن!

ثمة شيئان منفصلان، وان كانا على اتصال.

الكتابة عن علي، والاقتداء بعلي.

الكتابة عن علي بن أبي طالب صعبة غير أنها مركب مُستطاع.

أما الاقتداء بعلي، فانه أمر لايمكن التحدث عنه إلّا بالصعوبات التي تُذكّرك بالمحال، الذي يحتاج إذلاله إلى أعاجيب القدرة. عن الكتابة: نذكر أن الكثيرين من الكتّاب والباحثين والدارسين كتبوا عن علي بن أبي طالب، آلاف المجلدات والكتب والأعمال الأدبية. وأرى أن الكتابة صعبة لأن شخصية علي بالغة الثراء في جميع جوانبها. فالإحاطة ـ بكل هذه الجوانب ـ صعبة جداً، ولكن الجهود الإنسانية تتضافر

من أجل الوصول إلى كشف جوانب معيّنة من عظمة علي الانسانية الخالدة.

هذا أمر معروف، غير أن الاقتداء بشخصية علي هو الذي يذكرنا بالأعمال النادرة.

ثمة قادة عسكريون كبار، ومفكرون، وفقهاء عظماء، وبلغاء، وزهّاد، وعباقرة، وعلماء، وأدباء.

وفي التاريخ هناك الإسكندر العظيم، يعشق الفلسفة، فيأخذ معه (أرسطو) أستاذه، وهناك أفلاطون الفيلسوف وأستاذه سقراط، وهناك بوذا، وكونفو شيوس، وقادة الثورات، والمصلحون، كل متخصص في ميدانه، أما علي بن أبي طالب، فهو الحاوي على جميع سمات العبقريات المتعددة، فهو الخليفة القائد، وهو المحارب العظيم، وهو الفيلسوف، وهو الأستاذ في العدل والمؤسس لعلم النحو، وهو الفقيه، القاضي، العالم بالحساب والفلك، وهو أمير البلاغة والشاعر، والحكيم، والحافظ لتراث محمد رسول الله ﷺ وهو الأخلاقي الرفيع، والأنموذج في كل شيء.

يستطيع المرء أن يتعلم عنه أشياء كثيرة، ولكن لا يستطيع أن يكون مثله.

كان علي بن أبي طالب في زمنه وحيداً إلّا من قلة مخلصة إخلاصاً نادراً، ومن أنصار ومؤيدين، يتجمّعون ويتفرقون لأمر أوأمور كان علي أعلم بها من غيره.

وحين خذلته المحنة، في زمنه، أنصفه التاريخ، فإذا بأفواج المحبين من رجال الفكر والكفاح الانساني، والعدل، والمعرفة، يتصلون به بحسب الفكر والإيمان ونسبهما. أصبح حب علي بن أبي طالب حقيقة موضوعية، تاريخية، يُقرُّ بها المحب والمبغض.

كان وحيداً في عبقرياته، عجيباً في مسلكه، لذلك لم يكن جميع أعدائه، من طينة واحدة، فبعض الذين حاربوه كانوا يرون فيه عدوّهم الأكبر: عدو باطلهم، أوكفرهم، أوشركهم، أوظلمهم، وبعض الذين حاربوه، رأوا فيه المقياس الذي يكشف عن بُعدهم من الحق والعدل، رأوا ـ من خلاله ـ هُزالهم، في حين كانوا يحسبون أنفسهم مهمّين، فإذا بهم في الضآلة، بالمقارنة مع شخصية علي، وكانوا يهيئون أنفسهم لدور كبير بين أتباعهم، فيأفل نجمهم أمام شمس علي النيّرة، فحاربوه لافتضاحهم بالمقارنة،

ولعجزهم عن الارتفاع إلى مستوى الحق والصدق.

وبعض الذين تركوا معسكره ـ وهم كثرة ـ انما فعلوا ذلك لأنهم لم يطيقوا عدله، وحقّه وصدقه. سُئل الخليل بن أحمد العروضي الشهير، من قبل أبي زيد النحوي:

لِمَ حجر الناس علياً، وقرباه من رسول الله ﷺ قرباه وموضعه من المسلمين موضعه، وعناؤه في الإسلام عناؤه؟ فأجابه الخليل: بهر الله نوره أنوارهم، وغلبهم على صفو كل منهل، والناس إلى أشكالهم أميل، أما سمعت الأول حيث يقول:

وكل شكل لشكله أِلفُ ... أماترى الفيل يألف الفيلا

ويقول العقاد مفسّراً الظاهرة:

«وهكذا فُرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة في ديارها وبين آلها وأنصارها. فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة كانت علاقة الزمالة التي ينوب فيها الواجب مناب الألفة. والعلاقة بينه وبين الخُصوم كانت علاقة حسد غير مكفوف وبغض غير مكتوم. والعلاقة بينه وبين سواد العامة كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون إلى لبابه، وان قاربه الناس معجبين، وباعده أناس نافرين. تلك أيضا آية الشهيد».

لقد أحبّه ـ في زمنه ـ أُناسٌ حباً خارقاً، وبالغ بعضهم في الحب، فألّهوه وكفروا، فأمر بالقذف بهم في النار، وهم غير نادمين! وهذا أمر عجيب، نادر، يفرض نفسه في طلب التحليل لظاهرته الغريبة المثيرة.

هل كان ممكناً نجاح شخصية علي بن أبي طالب ـ في عصرها ـ نجاحاً سياسياً؟ وهو ما هو عليه (الحقّانية) التامة والعدل التام؟

وهل أن مستويات الناس الذهنية والنفسية، وحاجاتهم ومصالحهم كانت تسمح لهم بالانتماء إلى عالم علي بن أبي طالب ـ في عصرها ـ نجاحاً سياسياً؟ وهو ما هو عليه (الحقّانية) التامة والعدل التام؟

وهل أن مستويات الناس الذهنية والنفسية، وحاجاتهم ومصالحهم كانت تسمح لهم بالإنتماء إلى عالم علي بن أبي طالب، عالم المُثُل العادلة، والإنصاف والزهد؟

لقد حسم اغتيال الإمام علي المناقشة، وقطع الطريق أمام محاولته التصدي للهجمة المضادة، ووجد في الموت فوزه الأكبر، قائلاً وهو يرقب مغادرة روحه: **«لقد فزتُ وربِّ الكعبة»!** واستمر الناس فيما هم عليه من صراعات سياسية، ودنيوية، ودينية، ومصلحية.

لقد تحرّر علي بن أبي طالب ـ نهائياً ـ من شرنقة المنافقين، والمساومين، والمنتفعين، حلفاء المارقين، ووجد حريته في الملكوت الأعلى، وحين ظل الآخرون ـ الذين ناوأوه ـ في عالمهم، عالم المُلك والجور، فانه أضحى فوراً علماً أبدياً ترفعه البشرية، في كل العصور.

لقد كان شخصية خُلقت لأن تكون رمزاً للعدل والحق بمواجهة الخطيئة العامة، والانحراف، والظلم، والكفر، والضلالة. انه مثال أجمل من الجميل. فهو الانسان البسيط، الزاهد، المتواضع، وهو الانسان القوي، الشامخ، اللامع في شتى الألمعيات، والنادر في أغلى الندرات، والجامع لصنوف العلم، والأدب، والمعرفة، بحيوية قلَّ نظيرها في تاريخ البشر.

ان شخصية علي بن أبي طالب الموسوعية الهائلة، فكراً وسلوكاً، تدعو الأخيار، والشرفاء العادلين، إلى الاقتداء به، وحسبُهم ان عجزوا عن تحقيق أشياء وأشياء على طريق الاقتداء، فانهم يعوضون عن ذلك العجز بالحب.

فعلي بن ابي طالب جدير بالحب والاكرام من قبل كل انسان حر، ذي ضمير نجيب.

انه معلّم الحب، والعفو، الذي يرنو إلى التسامي فوق النظرات الضيّقة التي تُقسّم البشر إلى طبقات وفئات عنصرية، وطائفية، وعشائرية. انه المعلّم الذي ناضل من أجل علوّ الانسان فوق التقسيمات اللاإنسانية، التي لا تليق بمن استخلفه الله على أرضه.

حين كتبتُ هذه الأوراق، كانت في ذهني أفكار كثيرة عن علي بن أبي طالب، ولكن عظمة الجوانب الفكرية المتعددة في سيرة علي وحياته وضعتني في صعوبة مُتابعتها، فكلما كتبتُ فكرة، جاءت فكرة أخرى، وما أظن أن الكاتب الذي يكتب كتاباً عن الإمام علي، ويختتمه، إلّا أن يكون على ثقة تامة بأنه لم يفِ الموضوع إلّا بعض حقّه.

وحالما أردتُ غلق أفكاري المكتوبة بين دفتيّ هذا الكتاب، تَواردت أفكار وآراء أخرى، فالكتاب يتطلب اختتامه، والكتابة عن علي لا تُختتم!

وها هي كلمات علي وهو يوصي بها ابنه (الحسن) تُظلّل سماء روحي، وتكتنفني، فأسعدُ بها، وأجد فيها فائدة أكبر من كتابتي، أجد فيها ناموساً فكرياً وأخلاقياً، ودليلاً للضمير، ودستوراً للناس:

«يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ... »[1].

عزيز السيد جاسم / بغداد

١ ـ انظر نهج البلاغة، شرح محمد عبده ٣: ٤٥، وذكرها ابن شعبة الحراني في تحف العقول: ٧٤، دستور معالم الحكم لابن سلامة: ٦٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد ١٦: ٨٤، كنز العمال للمتقي الهندي ١٦: ١٧٢. وذكرها القندوزي في ينابيع المودة لذوي القربى ٣: ٤٤٠. (المحقق)

الفصل الأول

▣ مشيئة الرب

وراء تموّجات العالم المتجدد، المنطوي على ملايين الملايين من ظواهر الولادة والنمو تقف مشيئة الرب، التي لا يدركها القاصر.

فالقاصر الذي تسقط نظراته على النسبيّ والمحسوس، والمحدد، لا يستطيع أن يرفع قوس بصره إلى ما وراء حدود الأشياء، في حين تتدفّق موجات العالم الكونيّة تدفقاً ضخماً، موجة تحتوي أخرى، بلا هدنة، فكأن الدنيا مصممة على أن تظل أمام نظر الانسان لغزاً لا يُفصح عن شيفرته.

وفي صلة الدفقات الموجية للحياة القادمة من غبش الفجر الزمني الأقصى، ترتبط الولادات البسيطة والمعقّدة، والظواهر الاعتيادية والإعجازية ارتباطاً مصيرياً، متوحّداً في تجليات الخلق الإلهي، حيث يحتل كل شي مكانه في الحياة، مثلما يأخذ نصيبه المحتوم في الفناء.

وليس هناك ـ في حتميّة جدليّة تلك الصلة ـ وجود زائد، إذ أن الكائنات تشترك عموماً ـ بسيطها ومركّبها ـ في مشيئةالخلق، وكأنها كيان واحد مخلوق.

لكنما الكيان الواحد ـ وتلك حكمة الخلق ومبعث حيرة المخلوق ـ تختلف مستويات الأهمية الوظيفية لأعضائه ـ فقد يستغني الكائن الحي عن عضو (يُبتَر) دون أن توافيه المنية بسبب ذلك، في حين يؤدي مرض عضو (القلب) إلى موته مثلاً.

مثل اختلاف الأعضاء في الوظيفة والأثر ـ رغم اتحادها في الكائنية الواحدة ـ تختلف ولادات البشر، وظواهر حياتهم، وآجالها.

فمشيئة الخلق الإلهي التي لا تعتذر عن ولادة دون سواها، تضع العقل الانساني أمام أعاجيب، ومعجزات، وغرائب، ومفارقات، ومدهشات، فيستطيع تعليل ما يستطيع

تعليله من ظواهر ملموسة بمعرفته العلمية، ويترك ما يعجز عن تعليله إلى طريقته الشخصية في التحليل.

ومن المؤكد أن الإغراق في التبسيط هو المسؤول عن إظهار ولادة الكائنات الحية ونموّها ـ أمام النظر ـ بكيفية سهلة، اعتيادية. في حين أن واقع الحال ليس كذلك أبداً، فوراء الحيوات البسيطة، تكمن أيضاً قدرة الخلق الإعجازية.

لكن، نظراً إلى أن الناس اصطلحوا على تقسيم الكائنات الحية (والظواهر الكونية)، بسيطة ومركبة، اعتيادية ومعقدة، فقد فاتهم الانتباه إلى المعقّد، والمحيّر، والمدهش في وجود الكائنات البسيطة، ذلك الوجود المتناغم مع الحيوات غير البسيطة في موشور واحد.

وتظل علاقة ولادة الكائن الحي بالزمن ذات دلالة خاصة في الخلق الكوني، فثمة ولادة تخص المولود نفسه، في حين تخصّ ولادات معينة عالماً أوسع من حدودها الشخصية، ولا يستطيع العقل البشري أن يتوصل الى فهم أسرار تلك العلاقة، إلّا من خلال رصد تأثيراتها الموضوعية في الزمن.

فمعرفة العقل ـ هنا ـ تأتي (بعد)، خاصة اذا ما كانت ذات صلة بالتأريخ.

ففي اليوم الذي وُلد فيه علي بن أبي طالب، وُلد الألوف والملايين من البشر والكائنات المرتعشة بخفقة الحياة، بإرادة الخلق الإلهي الأزلية، لكن، لم تكن هناك ـ قطعاً ـ ولادة مثل ولادته.

ففي تلك الولادة، التي تجللت ـ على بساطتها الشديدة ـ بالأسرار، وتلبَّستْ ـ على عجائبيها ـ بالسهولة، كانت الحكمة الربّانية تضيف إلى مشيئة الخلق صوتاً ضارباً في التأريخ، باثّة في حادثتها ـ حادثة الولادة ـ آية للحق تنثال ـ على مرّ الأزمنة ـ عطاء نورانياً خالداً.

كان ميلاد علي بن أبي طالب مفارقة في المكان، وليس مفارقة في الزمان.

وقد أعطته مفارقة المكان المدهشة مفارقة مدهشة في الزمان، على امتداد صفحاته

التي لا تعداد لها.

فحيث وُلد ويُولد البشر في البيوت، وقد يُحاصر (الوضع) الحامل في مكان ما خارج البيت دون أن تحسب حساب ذلك، فتضع وليدها في حقل مثلاً، فان ولادة علي بن أبي طالب كانت مثار دهشة أبدية، فقد وضعت فاطمة بنت أسد (أمه) وليدها في البيت العتيق: الكعبة[١].

ومثلما كانت غرابة الولادة، تصدح بالاصوات القادمة للحق والعدل، فانها كانت تسجّل مأساة السنوات القادمة، مأساة الاستشهاد في محراب الله.[٢]

ففي بيت الله العتيق، الذي أعتقه الله من الطوفان القديم، ومن الرقّ، في محراب الله، وُلد (علي بن أبي طالب) مديراً ظهره للأصنام، فما كان البيت العتيق المليء بالاصنام الجامدة، البلهاء، إلّا بيتاً لله، فكانت ولادة علي بن أبي طالب حكمة الله، وطائر الحقيقة الأبدية.

«تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده وليد أكرمه الله بها، وأكرم أمه وأباه، فكان تكريماً لفرعي هاشم الذي انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبي طالب حفيدي الأصل الثابت الكريم»[٣].

---

١ ـ كفاية الطالب: ٤٠٥، كنز الفوائد ١: ٢٥٥، مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٤٥ / ٣: ٣٨، كشف الغمة ١: ٦٠، العمدة: ٨، الفضال لشذان بن جبريل القمي: ٥٦، الطرائف: ١٧، حلية الأبرار ١: ٢٣٠، بحار الأنوار ٣٥: ١٩، وفي كتاب (إزالة الخفاء) لأحمد بن عبد الرحيم المحدّث الدهلوي من أفذاذ علماء السنة ـ وهو عبد العزيز الدهلوي، صاحب مصنّف (التحفة الاثنا عشرية) في الرد على الشيعة ـ ذكر فيه: «قد تواتر الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّاً في جوف الكعبة، فإنه ولد يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر رجب، بعد عام الفيل بثلاثين سنة، في الكعبة ولم يُولد فيها أحدٌ سواه قبله ولا بعده» ٢: ٢٥١٢ ط، الهند. (المحقق)

٢ ـ طبقات ابن سعد ٣: ٣٨، أنساب الأشراف ٢: ٤٩٦، مناقب الخوارزمي: ٣٩١، المستدرك للحاكم النيسابوري ٣: ١٤٣، نظم درر السمطين للزرندي الحنفي: ١٣٩، والبداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٤ (المحقق).

٣ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الامام علي بن أبي طالب. (المؤلف)

و«أقبل القوم ـ حين انتهوا ـ يستبقون إلى السيدة، يعاونونها: ويأخذون بيدها، ويملأون الأبصار بطلعة ذاك الذى كان بيت الله مولده، وستر الكعبة ثوبه»[1].

وما كان مفارقة أذهلت الناس وأثارت لغط دهشتهم، كان موافقة إلهية وإيذاناً بانبثاق موعد مع البشر، ومع القدر، هو موعد ميلاد إنسان اشتمل بالحق، واشتمل به الحق، فتوحّدا مثل شعلة، ليس فيها شيء معزولاً عن شيء، بل هي شيء واحد، متوحد، ذابت أجزاؤه في كله.

وهكذا كانت الولادة العجيبة متضامنة مع الرجع البعيد للبيت المنذور للإله، فكانت خيبة الأصنام، بميلاد القادم الجديد، خيبة من يُستهان بعرشه بين ظهرانيه.

خارج البيت العتيق، كانت الإرادة الإلهية تُهيىء للناس رسولاً كريماً، يتحدّى عالم الأوثان، وفى داخل البيت العتيق، كانت الإرادة الإلهية قد هيّأت للمصطفى خليلاً[2]، أدار ظهره للأصنام منذ اللحظة الأولى للولادة.

ولو قُدّر للأصنام أن تنظر لكانت نظراتها تحمل أكبر من الشزر القادم الجديد، لكانت تُسلّط الشرر لتحرق الوليد فى المهد. ولو قُدِّر لها أن تنطق لتحدّثت عن الحرب فقط؛ الحرب ضدّ المتحدي الذي سيحمل في أعماقه جبروتاً من جبروت ابن عمه النبي العظيم...

لكن ما عجزت الأصنام عن فعله، والتحدّث به، ستباشر تنفيذه شياطين البشر الذين جنّدوا أنفسهم لإطفاء نور الله.

كانت الأعجوبة متكاملة: ولادة في بيت الله، لا في بيت الأهل، ورفضاً للأصنام في فضاء الأصنام، فألزم الله علياً بدلالة الولادة، منذوراً للحق، الذي هو بيت الله، الذي

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

٢ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله ـ بحقّ علي عليه السلام ـ : «هذا أخي ووليّ وناصري وصفّيي وذخري وكهفي وصهري ووصيّي وزوج كريمتي وأميني على وصيّتي وخليفتي»، انظر كشف الغمة ١: ٦٠، بشارة المصطفى: ٧. (المحقق)

يؤمّه البشر المسلمون، ومعه نذر أهله للحق.

فالذي وُلِدَ في بيت الله سار مع آل بيته تحت لواء النبي العظيم، على جادة الحق، دون أن يتزحزح عن ذلك[١]، حتى عاجله القاتل بالطعنات الغادرة، فكانت حياة نيّفت على الستين عاماً[٢]، لكنها في حساب التاريخ، ظلّت حياة بطول التاريخ، تزداد لمعاناً كلما ازداد المنقّب فيها تنقيباً، والمطّلع اطلاعاً.

وعكست البداية، والنهاية: بداية الولادة في بيت الله، ونهاية الاستشهاد في المسجد (بيت الله)، فرادة التماسك في تلك الشخصية الفذّة، في جميع أطوار حياتها، وفي جميع أيامها، وشهورها، وسنيها. فكانت له في كل لحظة من حياته، مهمة لحياة سواه، واتّحد بقضيته: قضية الحق والعدل اتّحاداً لا ثغرة فيه، ولا فجوة تراخٍ.

وصدق العقاد إذ قال: «**أي ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام. لقد وُلد ـ كما علمنا ـ في الكعبة، وضُرِبَ ـ كما علمنا ـ في المسجد... فأي بداية ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية!**»[٣].

التجاوب مع مشيئة الرب

قد تتكامل الفصول الصغيرة الأولى ـ وحدها ـ بدون تدبّر، ولكنها في سيرها على طريق الصواب تجعل اللاتدبّر بادياً أكثر من التدبر. وقد يكون للاختيار حضور قصدي

---

١ ـ يقول عليه السلام: «فَوَالَّذِي لَاإِلٰهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَىٰ جَادَّةِ ٱلْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَىٰ مَزَلَّةِ ٱلْبَاطِلِ.» انظر نهج البلاغة، شرح محمد عبده ٢: ١٧٢، وعيون الحكم والمواعظ: ١٦٩، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٧٩ و١٨٦. (المحقق)

٢ ـ ولد في مكة في البيت الحرام (الكعبة) يوم الجمعة الثالث عشر من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة، وقتل غدراً بالكوفة، ليلة الجمعة ٢١ رمضام عام ٤٠ هـ وله من العمر ٦٣ عاماً. انظر المقنعة للمفيد: ٤٦١، الطبري في تاريخه ٤: ١١٧، وتاريخ دمشق ٣: ٣٨٧ ـ ٣٨٨، والمستدرك ٣: ١٤٥، وذكره ابن أبي الحديد في شرح النهج ٤: ١٢٠ والخلاف للطوسي ٣: ٥٩٣.(المحقق)

٣ ـ عباس محمود العقاد: عبقرية الامام علي.(المؤلف)

مباشر، في ترتيب تلك الفصول الصغيرة، لكنه لا يُفصح عن نفسه، لأنه يظل محروزاً في النوايات المصمتة، فلا يُفصح عنها ولا يتولى شرحها أحد بالكلمات.

. مثل تلك الفصول التي يختلط فيها اللاتدبر بالقصدية، في روعة الفعل، كانت تسمية (علي بن أبي طالب). ربما أرادت أُمّه أن تعطيه اسم حيدرة[1] (وحيدرة من أسماء

---

١ ـ من كلام الامام عليه السلام وهو يعدد أسمائه: «وعند أمي حيدرة» يقول الشيخ الصدوق في معنى حيدرة: هو الحازم الرأي الخبير النقاب النظار في دقائق الأشياء. انظر معاني الأخبار للصدوق: ٥٩. وقال عطاء: إنّما سمّته أُمّه حيّدرة بدليل قوله عليه السلام يوم خيبر: «أنا الذي سمّتني أُمّي حيدرة» انظر أنساب الأشراف للبلاذري: ٥، والرياض النضرة ٢: ٩٦، وشرح نهج البلاغة ١: ١٢ و١٩: ١٢٧.

وللإمام علي عليه السلام ألقاب عديدة، منها:

١ ـ الانزع البطين:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي ان الله قد غفر لك ولأهلك ولشيعتك ومحبّي شيعتك، وإبشر فإنّك الأنزعُ البطين، منزوع من الشرك، بطين من العلم».

انظر الطبري في بشارة المصطفى: ١٨٤، والحموئي في فرائد السمطين ١: ٣٠٨.

وهو القائل عليه السلام: [لو ثنيّت لي الوسادة، لذكرت في تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم» حمل بعير] انظر مطالب السؤول: ٧٣، كشف الغمة ١: ١٢٨، ومثله في مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٤٣ «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير فاتحة الكتاب». وروى القندوزي في ينابيع المودة ١: ٢١٤ عن ابن عباس، قال: أخذ بيدي الامام علي ليلة مقمرة فخرج بي الى البقيع بعد العشاء، وقال: اقرأ يا عبدالله، فقرأت «بسم الله الرحمن الرحيم» فتكلّم لي في أسرار الباء الى بزوغ الفجر.

وفي علل الشرائع للصدوق ١: ١٥٩، جاء رجل الى ابن عباس، فقال له: أخبرني عن الأنزع البطين علي بن أبي طالب، فقد اختلف الناس فيه، فقال له ابن عباس: أيها الرجل، والله لقد سألت عن رجل ما وطئ الحصى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل منه، وإنّه لأخو رسول الله وابن عمّه ووصيّه وخليفته على أمّته، وإنّه الأنزع من الشرك، بطين من العلم، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من أراد النجاة غداً فليأخذ بحجزة هذا الأنزع» يعني علياً عليه السلام.

٢ ـ (يعسوب المؤمنين):

في الكامل لابن الأثير ٤: ٢٢٩، عن ابن عباس، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول وهو آخذ بيد عليّ: «هذا أوّل من آمن بي، وأول من يصافحني يوم القيامة، وهو فاروق هذه الأمّة، يفرق بين الحق

↵

الأسد) لأنّها فاطمة بنت أسد[1]، فأرادت أن تخلع عليه اسم أبيها، وفي ذلك تكريم

والباطل، وهو يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الظّلمة، وهو الصّديق الأكبر، وهو بابي الذي أوتي منه، وهو خليفتي من بعدي» ومثلها في تاريخ ابن عساكر (تاريخ دمشق) ١: ٨٧ وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣: ٢٢٨، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٠٢ وقريباً منه رواه ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان ٣: ٢٨٣ والاصابة ٤: ١٧١ وكنز العمال للمتقي الهندي ١٣: ١١٩ والبلاذري في أنساب الأشراف ٢: ١١٨.

٣ـ أسد الله:

ذكر القندوزي في ينابع المودة: ٢١٣، والتستري في احقاق الحق عن حسام الدين الحنفي المردي، قال: روى احمد بن حنبل وأبو سعد في شرف النبوة بإسناد عن أنس بن مالك، قال: صعد النبيﷺ المنبر فذكر قولاً كثيراً، ثم قال: «أين علي؟» فوثب إليه علي، فضمّهعليه السلام الى صدره وقبّلَ بين عينيه وقال: «يا معشر المسلمين، هذا أخي وابن عمي وختني، وهذا لحمي ودمي وسرّي، وهذا أبو السبطين الحسن والحسين سيّدي شباب أهل الجنّة، وهذا مفرّج الكرب عنّي، هذا أسد الله وسيفه في أرضه على أعدائه، وعلى مبغضيه لعنة الله ولعنة اللاعنين، والله منه بريء وأنا منه بريء، فمن أراد أن يبرأ من الله ومنّي فليبرّأ من عليّ، وليبلّغ الشاهد الغائب» ثم قال: «اجلس يا علي قد أمرني الله بتبليغ ذلك فبلّغته».

٤ـ «ذا القرنين»:

عن عليعليه السلام... عن رسول اللهﷺ قال له: «يا علي إن لك كنزاً في الجنّة وإنّك ذو قرنيها، فلا تُتْبع النظرة النظرة، فإنّما لك الأولى، وليست لك الآخرة» انظر مسند أحمد بن حنبل ١: ١٥٩، غريب الحديث ٣: ٧٨، مشكل الاثار للطحاوي ٢: ٣٥٠، الكوفي محمد بن سليمان في المناقب ٢: ٩٣، كنز العمال ٥: ٤٦٨، المستدرك للحاكم النيسابوري ٣: ١٢٣ وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٢٧، الزبيدي في تاج العروس ٩: ٣٠٧، ابن الأثير في النهاية ٤: ٥١ وابن منظور في لسان العرب ١٣: ٣٢٢، الزمخشري في الفائق ٣: ١٧٣، ومحب الدين الطبري في الرياض النّضرة ٣: ١٦١ والصدوق في معاني الأخبار: ٢٠٥ والراغب الاصفهاني فيمعجم مفردات القرآن: ٤١٧، والمنذري في الترهيب والترغيب ٣: ٣٥. (المحقق)

١ ـ والدته: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت قديماً، وهاجرت إلى المدينة وتوفّيت بها، سنة أربع من الهجرة، انظر تذكرة الخواص ١: ١٥٠، ومقاتل الطالبيين لأبي فرج الأصفهاني: ٤، وانظر الإصابة للعسقلاني ٤: ٣٨٠، والمناقب لابن المغازلي: ٦، والمناقب للخوارزمي: ٤٦، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١: ٢٢، أُسد الغابة لابن الأثير ٥: ٥١٧، وشرح نهج البلاغة لابن

أبي الحديد المعتزلي ١: ١٤، ومجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٠٠.

وعن ابن السبط: قال الواقدي: «شهد رسول الله جنازتها، وصلّى عليها، ودعى لها، ودفع لها قميصه فألبسها إيّاه عند تكفينها» انظر تذكرة الخواص ١: ١٥١.

وقال البلاذري في أنساب الأشراف ٢: ٣٥ «فدفع رسول الله صلى الله عليه وآله قميصه إلى علي فكفّنها فيه، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله في قبرها.

وقال أبو الفرج الاصبهاني في مقاتل الطالبيين: ٤ «حين حضرتها الوفاة، قبل وصيتها وصلى عليها، ونزل في لحدها، واضطجع معها فيه، وأحسن الثناء عليها ثم أضاف بعد ذلك باسناده عن ابن عباس: قال: لمّا ماتت أم علي بن أبي طالب ألبسها رسول الله صلى الله عليه وآله قميصه واضطجع معها في قبرها، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه المرأة؟ فقال: «إنّه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنّي إنّما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنّة، واضطجعت معها في قبرها ليهون عليها» وللمزيد من التفصيل على هذا الحدث والوقوف على دور هذه المرأة المؤمنة انظر الصدوق في آماليه الحديث ١٤ من المجلس ٥١ والمستدرك للحاكم النيسابوري ٢: ١٠٨، والمناقب لابن المغازلي: ٧٧، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري ١: ١٤٢، والمناقب للخوارزمي: ٤٧، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١: ٢٢ وأسد الغابة ٥: ٥١٧ وشرح النهج لابن أبي الحديد ١: ١٤، ومجمع الزوائد ٩: ٢٥٦ ـ ٢٥٧ والاصابة ٤: ٣٨٠ وكنز العمال للمتقي الهندي ١٢: ١٤٧ ـ ١٤٨، وإحقاق الحق للتستري تعليق المرعشي النجفي ١٥: ٧٦، وأنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٣٥.

وهي أول امرأة هاجرت من مكة إلى المدينة، ماشية حافية، انظر مناقب الخوارزمي: ٢٧٧، كشف الغمة للإربلي ١: ٣١٢ ومقاتل الطالبيين لأبي فرج الاصفهاني: ٥.

وعن الزهري: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يحشر الناس يوم القيامة عُراة حفاة فقالت، واسوأتاه! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: فاني اسأل الله عزّ وجل أن يبعثك كاسية.

وقال سمعته يقول أو يذكر عذاب القبر، فقالت: واضعفاه! فقال صلى الله عليه وآله: اني اسأل الله أن يكفيك ذلك. انظر الخوارزمي في المناقب: ٢٧٧، وكشف الغمة للإربلي ١: ٣١٢، وتذكرة الخواص ١: ١٥٣.

وهي أول هاشمية ولدت خليفة هاشمياً. ولا يعرف خليفة أبواه هاشميّان، سوى أمير المؤمنين علي عليه السلام ومحمد بن زبيدة ولد هارون الرشيد الملقّب بالأمين.

انظر المستدرك للحاكم النيسابوري ٣: ١٠٨، المناقب لابن المغازلي: ٦ ومناقب الخوارزمي: ١٦ وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١: ٢٢ ـ ٢٤ و ٢٨ وأسد الغابة لابن الأثير ٥: ٥١٧ وشرح نهج

للآباء، وأي تكريم. لكن علياً المنذور للحق، لم يكن مرهوناً ـ في الاسم ـ لتكريم الآباء فقط، بل لتكريم لقضية الكبرى: العدالة، وتكريم حملة لوائها، وجنودها في كل عصر. ظهرت الاستجابة للطف الله، في اختيار الاسم: «علي» لعلي بن أبي طالب. فمهما ارتفعت الأصنام على قواعدها الحجرية المتينة، ومهما شمخت بهيبتها التي تعاظمت بجهل عَبَدتها، فقد كان الوليد الجديد أشمخ و(أعلى) مقاماً.

قيل ان أبا طالب هو الذي اختار اسم علي[١]، وهو اسم لم يكن من الأسماء التي يتسمى بها عرب الجاهلية، الذين كانوا لم يألفوا التسمية باسم (محمد) أيضاً، إلّا بضعة أشخاص سُمّوا بمحمد، بين يدي البعثة النبوية، وبعد أن وُلد (محمد) ولعل تسمية النبي بهذا الاسم، كانت أشبه بإرهاص للعرب، أن يتخفّفوا من الجاهلية، وأن يستشرفوا مطالع الدعوة السماوية التي آذنت شمسها أن تطلع فيهم[٢].

كذلك، اسم (علي) لم يكن مما تتسمى به العرب في جاهليتها، ولم يحفظ التأريخ الجاهلي من تسمّى به قبل صاحبه، علي بن أبي طالب. انه كان كإسم (محمد) في لطفه وحسنه، وفي غفلة الجاهلية وضلالها عن تداوله والتنادي به[٣].

كما قيل: ان محمداً هو الذي أراد ذلك[٤]، ومن استقراء عناية النبي الكريم بالأسماء،

↩البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٣ ومجمع الزوائد للهيثمي ٩: ١٠٠ والاصابة لابن حجر العسقلاني ٤: ٣٨٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٥٥ و ٢٨١، وسير اعلام النبلاء للذهبي ٩: ٣٣٥. (المحقق)

١ ـ مناقب ابن المغازلي ٦: ٣، كشف الغمة ١: ٥٩، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٣٠. (المحقق)

٢ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب، بقية النبوة ـ وخاتم الخلافة. (المؤلف)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

٤ ـ يقول ابن حماد: إن الله سماه عليّاً، وأيضاً قال ابن حماد في ذلك شعراً:

سلام على أحمد المرسل	سلام على الفاضل المفضل
سلام على من علا في العلا	فسماه ربٌ علي علي

↩

يتبدّى التجاوب مع المشيئة الربانية، في اختيار اسم علي، من قبل ابن عمه محمد بن عبد الله، الذي كان يسبغ رهافة شعوره على الأسماء فيعيد اختيارها لتكون أكثر جمالية، أوأعمق دلالة.

لقد كان التمرّد على الجاهلية ماثلاً في التصدي لعقيدتها الوثنية، وفي مجابهة أخطائها المريرة. ولم يكن اختيار عرب الجاهلية للأسماء إلّا انعكاساً لضيق أفق الأذهان، ومحدودية البيئة، وقصور العقل،فكانت كثرة من الأسماء تدل على القسوة والغلظة والجلافة، وتقليد رموز وكائنات وصفات البيئة، فكثر التشبه بأسماء الأصنام (**عبد اللات، عبد يغوث، عبد العزى**)، وكذلك بأسماء الحيوانات، كما امتلأ قاموس الأسماء بما يدل على الحرب، والبأس، والبطش وغير ذلك.

وقد ثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه غيّر اسم **«عاصية»** وقال: **«أنت جميلة»!** وسمّى حرباً: سلماً، وسمى المضطجع: المنبعث[1]. وهكذا كان يفعل صلى الله عليه وسلم في الأسماء والكنى، للأشخاص والأماكن، والأشياء.. فينزع عنها كل اسم كريه، ينتسب إلى عقيدة فاسدة، أويضاف إلى خلق منكر، ثم يخلع عليها أسماء كريمة، تنتسب إلى الفضل والخير والاحسان. «**ولكأن الله ـ سبحانه ـ أراد لعلي أن يولد في الإسلام، قبل الإسلام، وأن يُربى في حجر النبوة، فكان ذلك حجازاً له عن الجاهلية وأباطيلها. فلما جاء**

وأيضاً قوله:

الله سماه علياً باسمه	**فسما علواً في العلا وسموقا**
وأختاره دون الورى واقامه	**علماً إلى سبيل الهدى وطريقا**
أخذ الاله على البريةِ كلها	**عهداً له يوم الغدير وثيقا**
وغداة وافى المصطفى أصحابه	**جعل الوصي له أخا وشفيقا**

انظر مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٣٠٣ ـ ٣٠٤. (المحقق)

١ ـ انظر كشاف القناع للبهوتي ٣: ٣٠، سنن أبي داود للسجستاني ٢: ٤٦٧، الاذكار النووية لابن شرف النووي:٢٩٢، العهود المحمدية للشعراني: ٧٥٦، وأحكام القرآن للجصاص ٣: ٥٣٨. (المحقق)

الإسلام استقبله بالفطرة السليمة، والإسم السليم»[١]. «فلعلّ (محمداً) هو الذي اختار لابن عمّه الوليد هذا الإسم، وأشار على عمّه وزوج عمّه أن يسمّوا وليدهم به!»[٢].

فحين نظر (محمداً) إلى وجه هذا الوليد وقع في نفسه أنه في الأعْلين من عباد الله، وأنه جدير بأن يكون في المقام الأعلى في الإسلام[٣].

ولا حقاً، بعد أن تدبّ السنون ويكتحل مرأى النبي وابن عمه علي بميلاد السبطين، يختار رسول الله لهما اسمي (الحسن والحسين)[٤] ضارباً أروع مثل في اختيار أجمل الأسماء، تلك التي كان الناس لم يألفوها. وما أكثرها! تلك الأشياء التي لم يألفها الناس، فيتصدى لها المتصدي، ويرضى بها الراضي.

حسب محمد رسول الله ﷺ، وهو يقود قافلة الحقيقة والإيمان، أنه كان يوطّد الحس الجمالي، ويوحّد بين الاسم والمسمى، كيما يكتشف الانسان جوهره الانساني، ويتطابق معه في الفكرة، والفعل.

فالتطابق كان مبتغى الرسول، كيما تتجسّد الحقيقة بين الناس، في أعمالهم، وفي علاقاتهم، وفي أسمائهم وفي تسمياتهم، وقد كان الخطر الداهم الذي عانت منه (وتعاني) البشرية خطر الزدواجية المقرفة، ازدواجية الادعاء بشيء، والفعل بشيء آخر. فكم جرت على ألسنة الناس كلمات: الحق، والحقيقة، والصدق، والأمانة، والشرف، والكرامة، والوفاء. لكن تلك الكلمات تتضيع في زحمة المصالح المادية، واستشراء الاستغلال، والاحتكار، والظلم، والعدوان.

وقد كان علي بن أبي طالب ربيب محمد، قد جاء الدنيا محبوّاً من الله ـ تعالى ـ بكينونة التطابق، وكأن المشيئة الإلهية أرادت إذلال الأصنام، فها هو انسان يُولد في

---

١ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب، بقية النبوة ـ وخاتم الخلافة. (المؤلف).
٢ ـ المصدر نفسه.(المؤلف) ٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)
٤ ـ أُنظر مسند أحمد ١: ١٥٩، مجمع الزوائد ٨: ٥٢، سير اعلام النبلاء ٣: ٢٤٧ ـ ٢٤٨، لواعج الأشجان للسيد محسن الأمين العاملي (معاصر ١٣٧١ هـ): ٧ طبعة بصيرتي.

ديوانها، بقلب مفتون بالله منذ المبدأ!

كان التقدير الدارج لعقول الناس الاعتياديين أن ولادة في ميدان الأصنام، قد تدفع الوليد إلى الاندماج بعالم الأصنام، والتزلف اليها، واكتساب القرب منها، والتمتع بفضل الولادة في المكان الذي نُصِبت فيه، في حياته القادمة، فمثل هذه الولادة ـ في عرف تلك العقول ـ دليل على اصطفاء الأصنام للوليد المحفوظ. لكن حرب الأصنام الذي يرونه كان في عرف (علي) حرم ابراهيم.

وحين أراد الصبية، ذات صباح، من (علي) الطواف في الكعبة، رفض ذلك، فكان الجواب التقليدي لأحدهم متوقّعاً، هو التذكير بولادته في الكعبة، قال صاحب له من بينهم:

ـ عجباً لك يا ابن أبي طالب «**تضعك أمّك في حرم الأصنام. و..**» فيبادر علي قاطعاً عليه استمرار حديثه:

«**في حرم أبي ابراهيم. أما صواحبكم تلك فأكرِّمُ عن مرآها وجهي**»[1].

وتكرّم وجهه منذ أول وهلة عن رؤية الأصنام، فما طاف في الهيكل، ولا توجّه إلى

---

١ ـ ذكر الشبلنجي في نور الابصار: ٧٦ ـ في ذكر مناقب علي عليه السلام وأمه فاطمة بنت أسد ـ :... نقل عنها أنها كانت إذا أرادت أن تسجد لصنم وعلي عليه السلام في بطنها لم يمكنها، يضع رجله على بطنها، ويلصق ظهرهُ بظهرها، ويمنعها من ذلك، ولذلك يقال عند ذكره: كرّم الله وجهه، أي عن أن يسجد للصنم. ونحوه في السيرة الحلبية ١: ٤٣٢. وقد روى الشيخ الصدوق في معاني الأخبار والأمالي عن ابن الوليد، عن الصفار، عن علي بن حسان، عن عبد الرحمن بن كثير الهاشمي قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: نزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد، ان الله جل جلاله يُقرئك السلام ويقول: إنّي قد حرّمت النار على صلب انزلك وبطن حملك، وحجر كفلك. فقال: يا جبرئيل، بيّن لي ذلك، فقال: أما الصّلب الذي أنزلك فعبد الله بن عبد المطلب، وأما البطن الذي حملك فآمنة بنت وهب، وأما الحجر الذي كفلك فأبوطالب بن عبد المطلب وفاطمة بنت أسد».

وذكر ابن السبط الجوزي عن عطاء عن عبد الله بن عباس، قال: كانت أمّه ـ أي أم الإمام عليه السلام ـ إذا دخلت على هبل لتسجد له وهي حامل به، ارتفع إلى أعلى بطنها وتقوّس، فيمنعها من السّجود، فسمّي عليّاً لهذا. نظر تذكرة الخواص ١: ١١٣. (المحقق)

صنم، منذ أن كان، وقبل الإسلام، فكانت نفسه خالصة لله وللحق. لقد وجد الحق فيه منذ الطفولة خامته التي تعهّدتها بالرعاية عائلة لم تكن في زحمة المضطرب التجاري والبدوي والوثني، إلّا عنواناً للشرف والاستقامة. وحين بلغ (علي بن أبي طالب) السادسة، انتقل من بيت أبيه أبي طالب بيت ابن عمه محمد بن عبد الله[١].

ولم يكن شظف العيش وحده السبب. نعم لقد ثقُلت الحياة بأعبائها على أبي طالب الذي كان يُعيل أكثر مما يستطيع، وحان الدور لأن يتولى محمد رعاية علي، بعد أن كان زواجه بخديجة فاتحة عيش أكثر تمكناً. ثمة ـ في الكون والحياة ـ موافقات تبدو مثل المصادفات، لكنها في جوهرها المكتوم ضرورات حاسمة، تنبيء عنها ـ فيما بعد ـ نتائجها المشهودة. كان محمد في عهدة أبي طالب، مثل أبناء عمه سواء، ومن بينهم علي. بعد ذلك، وحين يستقر محمد في بيت الزوجية، يُصبح قطب العلاقة، الذي يسحب علياً إليه من أبيه.

تلك كانت موافقة الضرورة، وذروة التهيؤ الخفي ـ الإلهي ـ للحدث العظيم الذي هزّ وجدان العرب أولاً والقسم الكبير من البشرية ثانياً. فمن غير الممكن أن تكون ولادة علي في البيت العتيق صدفة محض، كذلك من غير الممكن أن تكون تلك البداية التي تعمدت بالايمان، متصلة بحياة النبي حلقة إثر حلقة، وكأنها علاقة ليس أكثر. لقد كانت إصطفاءً[٢].

شهادة الإسلام

---

١ ـ قال ابن اسحق: «كان من نعمة الله عليه أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبوطالب ذا عيال كثيرة فقال يوماً رسول الله ﷺ لعمه العباس: يا عم، ان أباطالب كثير العيال، فانطلق بنا نخفّف عن عيال أبي طالب، فانطلقا إليه وأعلماه ما أرادا. فقال أبوطالب: اتركا لي عقيلاً، واصنعا ما شئتما.. فأخذ رسول الله علياً، وأخذ العباس جعفراً». (المؤلف)

٢ ـ وقد أجاد المؤلف في اختيار كلمة «اصطفاء» التي تتماثل مع كلمة (سبيلاً) من مفهوم الآية الكريمة: ﴿يَالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ الفرقان: ٢٧، والذي أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام: «يا ليتني اتّخذت مع الرسول علياً» انظر تفسير القمي ٢: ١١٣ وفيه: عليّاً ولياً. (المحقق).

«يا ابن عمي، اني سمعتُ وأجبتُ، واني أشهد بشهادة الإسلام، أن لا اله إلّا الله،وأنك لرسوله».

كانت هذه العبارة الحاسمة، نتيجة طبيعية لذلك الاصطفاء الذي اختارته العناية الإلهية، منذ البدء في البيت العتيق، حيث وُلِد علي بن أبي طالب.

من عادة العرب، في الجاهلية وفي الإسلام، استشارة الأبناء للآباء، واستشارة الآباء للأخوة وأبناء العم، وكانت الاستشارة علامة التضامن الاجتماعي وعنوانه.

وكان طبيعياً جداً يأخذ (علي) الرأي من أبيه أبي طالب، فيما لو شاء ذلك، لكن علياً الذي حمل في قلبه الشعلة المباركة، وسرت في دمائه وفي كيانه فكرة الإيمان، لم يكن محتاجاً إلى مشاورة أبيه، رغم أنه كان في العاشرة من عمره.

لقد صاحبته منذ الصبا صراحة الإيمان، والثقة العالية بالنفس، والشجاعة الضرورية لكل إرادة حقّانية، وبسبب ذلك خاطب رسول الله صلى الله عليه وآله : **«يا رسول الله ما كنت لأسمع لأبي طالب أوأشاوره في ديني»** وكانت عبارة: **«اني أشهد بشهادة الإسلام، أن لا اله إلّا الله وأنك لرسوله»** فاتحة عهد جديد، وحياة جديدة، ومصير جديد.

وهي عبارة، قد قالها آخرون، غير علي، فيما بعد، إلّا أنّها لم تملك ما ملكته عبارة علي من عظمة المنطلق، وضخامة المسؤولية، وعجائبية الرحلة، وحكاية سلطة الحق حرفاً حرفاً، وجملة جملة، وعبارة عبارة،وما من شك في أن الإيمان يختلف باختلاف المؤمن، فثمة مؤمن لا يتعدى الإيمان حدود طاقتهِ فيظل دوره ذاتياً محدوداً، وثمة مؤمن يلعب دوراً تاريخاً مؤثراً.

كذلك، تختلف طريقة الدخول إلى بيت الإيمان، فهي ـ أحياناً ـ تتقرر في ظل عوامل ذاتية وعامة طبيعية ـ مألوفة، وهي ـ أحياناً ـ تنبثق في النفس مثل شرارة مفاجئة، وهي ـ أحياناً ـ تنشأ وتنمو تدريجاً وبكل هدوء.

وفي جميع ضروب الإيمان، كانت قصص الإيمان المفاجيء تثير الدهشة.

فبينا يكون الانسان سادراً في معاداة كلمة الله، وإذا به يهمس في روحه صوت

إلهي، يقلب اتجاهه، فينتقل من ضلالة العداء، إلى حظيرة الإيمان، انتقالاً حاسماً، يغيّر مقاييس الذات بالنسبة إلى ذاته، ويغير ميزان القوى بالنسبة إلى سواه.

هكذا اهتدى (بولس) إلى (المسيح)، بعد أن أتقن مهمة مطاردة المسيحيين، وتحمل وزر القصاص منهم. لقد جاءه الهاتف وهو ذاهب دمشق كي يسوق المسيحيين هناك موثقين إلى أورشليم.

«سارت الخيل تطوي الأودية والجبال، فسلكت طريق السامرة الجليل، وحذا بحيرة طبريا، واجتازت الأردن، وأخذت تتراكض مسرعة في سهول حوران، حتى أصبحت على أبواب دمشق.. وكان بولس كلما اقترب من تلك المدينة العظيمة، ازداد غضبه اضطراماً، ويشتعل حماسة، وينظم خططاً للتشفي من أولئك الذين تبعوا (ذلك المضلّ) الذي يزعمونه أنه المسيح»(١).

وفي سهول دمشق **«وفيما هو منطلق، وقد قرب من المدينة، أبرق حوله بغتة نور من السماء، فسقط على الأرض، وسمع صوتاً يقول: شاول لمَ تضطهدني؟ فقال: من أنت؟ قال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. إنه لصعب عليك أن ترفس المهماز..»**(٢).

نهض شاول عن الأرض، ولم يكن يبصر شيئاً وعيناه مفتوحتان، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق، فلبث ثلاثة أيام لا يبصر ولا يأكل ولا يشرب(٣).

لقد هجم عليه الإيمان مثل صاعقة، اكتسحت وثنية نفسه من جذورها، اكتساحاً عنيفاً، وملأت روحه بأفكار المسيح.

كذلك، كان عمر بن الخطاب قاسياً على الإسلام، لكنه ارتعد وهو يسمع قراءة القرآن، في بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، التي أسلمت وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو العدوي(٤).

---

١ ـ المطران ميخائيل عساف: كتاب السّنكسار ـ المشتمل على سير القدّيسين. (المؤلف)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) ٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

٤ ـ المستدرك للحاكم النيسابوري ٤: ٥٩، فتح الباري ٧: ١٣٤، تفسير القرطبي ١١: ١٦٣، الثقات

كان صوت خباب بن الأرت وهو يتلو القرآن: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[1] قد بلبل نفس عمر بن الخطاب، ورغم غضبة الوثنية، التي دفعته ضرب المسلمين المتخفّين في البيت، فإن نداء القرآن قد تمكن من نفسه، فدخل إلى الإسلام بحماسة هائلة. وثمة صيغ للاستجابة للدعوة الإسلامية، متعددة، بتعدد العوامل المؤثرة والفاعلة، إذ تلعب الهداية دورها الخلاق، فتنقل المهتدي من الكفر والضلالة إلى الإيمان.

وفي تاريخ الذين اهتدوا مرحلتان: الأولى مرحلة الوثنية، الثانية مرحلة الإسلام، غير أن ميزة علي بن أبي طالب، التي انفرد بها عن سواه، وتفرد بها، أنه وُلِد في الإسلام مرة واحدة والى الأبد. فليس في حياته يوم للوثنية، كما ليس في منشأه ملمح من ملامح العهد الوثني وأفكاره.

في ذلك إشارة إلهية بليغة، تفسرها صفحات التاريخ في الأعوام والقرون الآتية.

وفي محراب الصلاة، كان علي بن أبي طالب أول من صلى مع النبي، فكانت البداية ممتلئة بالقوة، لأنها دمجت ذات علي بذات النبي القائدة دمجاً لا فجوة فيه، فكانت صورة الربيب متجسدة في السيرة، والسلوك، وفي الأفكار والحياة اليومية. وشهد غار حراء والشعب المجاورة فجر استماع علي بن أبى طالب للوحي، فكان أن أصبح ربيب الوحي، إذ تلقّاه من فم النبي، ملهماً ومرشداً، يملأ أجواء نفسه، ويؤسسها تأسيساً أبدياً.

لقد هبطت تأثيرات الآي الكريم، على نفسه الصافية، بقدومها الأول، إذ كان الوحيد الذي يرى رسول الله صلى الله عليه وآله في غار حراء[2]، ولايراه أحد غيره. فتتلمذ على القرآن

لابن حبان ١: ٧٢، أسد الغابة لابن الأثير ٣: ٢٥٦، تهذيب الكمال للمزي ١٠: ٤٤٩، تهذيب التهذيب ٤: ٣٠، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٣٣.

وقال الطبراني: «فاطمة بنت الخطاب بن نفيل تكنى أم جميل أخت عمر قديمة الإسلام أسلمت قبل عمر وكانت امرأة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنهما» انظر مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ٢٦٣. (المحقق)

١ ـ سوره طه: ١ ـ ٢. (المحقق)

٢ ـ من المسلمات التي يذكرها المؤرخون، وربما اتفق عليها أغلبهم أن علياً عليه السلام كان يرافق

الكريم أولاً بأول، فكانت غرسة نفسه الوحيدة غرسة القرآن، وتجذرت شجرة الحق، وأغصنت وأزهرت وأثمرت بهدي القرآن وحكمته التي صهرته صهراً جليلاً.

سأله أبوه يوماً:

ـ يا بني أين كنت وليس لك الشِعبُ بملعب؟

أجاب:

ـ به يا أبت.

ـ وفيم؟

ـ أقضي به حق ربي!

ـ أصبت لو أصَبْت!

ـ تبعته في صواب، وما عرف الناس عنه إلّا حقاً.

ـ أمحمداً عنيت؟

ـ هو يا أبتِ، وانه لرسول الله!

ـ فحدثني بما يمشي به عنه الناس، ما هذا الدين الذي أسمع أنه يدين به؟

ـ دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله. دين أبينا الخليل ابراهيم!

↩ النبي ﷺ ولا يفارقه ابداً حتى إذا خرج الرسول ﷺ إلى الصحراء أو الجبل أخذ علياً معه (انظر شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٠٨)، ولذا فإن ذهاب الرسول إلى غارحراء، كان علياً عليه السلام يستصحبه بالذهاب إلى الغار، وقد أكد هذا المعنى علي عليه السلام بنفسه من خطبةٍ له تسمى (القاصعة) إذ قال: «ولقد كان ـ ويقصد به الرسول ﷺ ـ يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري» (نهج البلاغة خطبة رقم ١٨٧). وروي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام، قال: كان علي عليه السلام يرى مع رسول الله ﷺ قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقد قال له النبي ﷺ: «لولا اني خاتم الانبياء لكنت شريكاً في البنوة فإن لا تكن نبياً فإنك وصي نبي ووارثه، بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء». انظر ابن أبي الحديد في شرح النهج ١٣: ٢١٠، ويقول الإمام علي عليه السلام: «**وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هٰذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هٰذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَىٰ مَا أَرَىٰ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلٰكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَيْرٍ**» انظر نهج البلاغة خطبة رقم ١٨٧. (المحقّق).

ـ وما لابن أخي به؟

ـ بعثه الله به رسولاً إلى الخلق كافة.

ـ يا بني أراك أتبعته؟

ـ آمنت بالله، وآمنت برسوله، وصدّقت بما جاء به: أي أبت! انه والله للحق وأنت. أحق من استمع إليه وأعان عليه. أي أبت فهلمَّ اليه!

أي بني! أما أنه لم يدعك إلّا لخير.. فالزمه!

كانت خيبة كبيرة لعلي، لكنها لم تسبب له أذى كبيراً، فقد ترعرع الصدق في أعماقه إلى الحدّ الذي بات يصنع الحدود بينه وبين الآخرين، سواء أكانوا من أهله وأقربائه، أومن سواهم، تلك هي حدود الحق.

لقد ابتدأ علي بن أبي طالب يؤشر تلك الحدود بثقة وبقوة. ولم يكن بيده غير ذلك.

وحين توفي أبو طالب، أقبل علي وفي خاطره كل هذا فيلقى رسول الله ويفضي بالنبأ إليه بكلمات قصار، لا مواربة فيها ولا مداجاة، وان آذى بها أباه[١]: **«يا رسول الله، ان عمّك الشيخ الضال قد مات»**[٢].

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: علي بن أبي طالب وهناك من لا يؤيد صحة هذا الخبر.(المؤلف)

٢ ـ وهذا من الإشكالات المهمّة على المؤلف المصري عبد الفتاح عبد المقصود، وربّما قد أشار اليها الشهيد السيد محمد باقر الصدر في لقائه معه، عندما احتفت المؤسسة العلمية في النجف الأشرف بزيارته (راجع كتابنا أمير المنابر الشيخ أحمد الوائلي): ٣٤٥ ـ ٣٤٦ وكتابنا «الحسين يكتب قصته الأخيرة» هامش رقم ١ صفحة ١٠١ ـ ١٠٢.

وقد ذكر المؤرخون ـ وبإختلاف طوائفهم ـ إيمان أبي طالب، بل هو من الأمور التاريخية التي لا يمكن إجحادها، ولو كان هناك شك فيها بالقدر اليسير، لِمّا فات معاوية بن أبي سفيان من اعلان هذه المثلبة بوجه علي عليه السلام، سيما وأن علياً عليه السلام قد أشبعه إذلالاً وتحقيراً في أغلب المواقف الجامعة بينهما. ولا يخفى من ذلك تبادل الرسائل في واقعة صفين وفي مرحلة الاستعداد لها وما فيها من امور المفاضلة وتطاول معاوية وتجاوزه الأخلاقي على علي عليه السلام. ولكن لم نجد لهذه المثلبة في خطاب معاوية، والتي لو كانت، لكان لمعاوية موقفاً أكثر صرامة وتجنياً وربما يقترب ☜

أمام العرب بالمفاضلة والمساوات في تهمة الشرك بين أبي سفيان وبين أبي طالب، إلى الحد الذي يُدخل البغض في نفوس أصحاب علي عليه السلام.

ويذكر السبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ١: ١٤٠ أبياتاً من الشعر لأبي طالب مخاطباً النبي بعد أن أرادت قريش منه محمد صلى الله عليه وآله ـ في بدء الدعوة ـ وهي تعكس ايمان أبي طالب وتمسكه بخبر السماء الجديد وصاحب الرسالة:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتّى أوسّد في التّراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر وقرّ بذاك منك عيونا

وعرضت ديناً لا محالة أنّه ... من خير أديان البريّة دينا

لولا الملامة أو حذار مسبّة ... لوجدتني سَمِحاً بذلك ضنينا

وأورد هذه الأبيات إبن إسحاق في السيرة: ١٥٥ وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٤: ٥٥، والقرطبي في تفسيره ٦: ٤٠٦، وابن كثير في البداية والنهاية ٣: ٤١، وابن حجر العسقلاني في الإصابة ٤: ١١٦، وذكرها العسقلاني أيضاً في فتح الباري ٧: ١٩٤.

أما المؤلف ـ عزيز السيد جاسم رحمه الله ـ وإن أشار في الهامش: إنّ الخبر غير متفق عليه، إلّا أنه وجد فيه مساحة واسعة للدخول إلى فرادة علي عليه السلام وعدم نصرته حتى من داخل بيته! فأراد المؤلف أن يُعرض حجم المحنة والمعاناة التي ابتُليَّ بها علي عليه السلام حتى من والده أبي طالب الذي رفض رسالة السماء ودعوة ابن أخيه!! والحق ان الخبر لا يمكن أن يثبت بعد استعراض موجز لأهم مواقف أبي طالب أو المواقف الأولى من السيرة النبوية. وهذا ما اتفق عليه أغلب المؤرخين وبالدلائل العلمية والمسار التحقيقي. وهذا ما يؤخذ على المؤلف في ذكر ما لم يتحقق منه روائياً وما تستقم عليه مسيرة الأحداث التاريخية.

ويكفي ما أجاد به ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤ في آخر بحثه عن ايمان أبي طالب:

ولولا أبو طالب وابنه ... لما مثُل الدين شخصاً فقاما

فذاك بمكة أورى وحامى ... وهذا بيثرب جسّ الحماما

تكفّل عبد مناف بأمر ... وأودى فكان عليّ تماما

فقل في ثبير مضى بعدما ... قضى ما قضاه وأبقى شماما

فلله ذا فاتحاً للهدى ... ولله ذا للمعالي ختاما

وما ضرّ مجدُ أبي طالب ... جهول لغا أو بصير تعامى

لقد عبّر علي عن انحيازه التام إلى قضية الإسلام، ووسم نفسه بميسم الحق، من صلب الحق، إذ لم يترك له القرآن خياراً آخر. فحين أصغى المسلمون الآخرون إلى القرآن وفي تاريخ حياتهم سنوات كثيرة خارج نطاق التأثير القرآني، قبل إشهارهم الإسلام، فإن علياً حقّق كينونته، في القرآن، فكانت صيرورته القرآنية من طراز الانتماء المطلق.

قسوة الطريق

كان علي بن أبي طالب يتحدث كثيراً، وبدقة الوصف، وبقوة الإيحاء، وبسعة التعبير عن قسوة الطريق، وكثرة مشاقة.

وتحمل كلمة الطريق دلالة فلسفية عظمى، مثلما تحمل معناها الكفاحي، فجميع المكافحين العظماء، من الأنبياء والأولياء والمجاهدين يقتطعون الطريق، ذاهبين من قرية الانطلاق إلى دار الحق، في سفرة الكفاح الدائب، والبرهان الأبدي على جدارة المعطيات الحقّانية.

إن الطريق إلى الحقيقه طويل، شديد الطول، ومعقد كثير التركيب. فالدنيا في عرف علي بن أبي طالب هي الطريق، والحق هو الغاية. والدنيا هي دار كفاح، مثلما هي دار فناء.

وقد تكون رحلة الكفاح المضنية، اجتياز الأماكن، كما هي رحلة النفس في اجتياز مدرجاتها، والصعود نحو الأعلى بتنقية النفس الدائمية من ضغط الشوائب.

كانت رحلة علي بن أبي طالب المبكرة خطوة التأسيس القوي لعقيدة في الطور الأول للكفاح المرير.

كانت قريش قد دبّرت المؤامرة في دار (الندوة) للقضاء على محمد، أعدّت له

كما لا يضرّ إياة الصباح ... من ظنّ ضوء النهار الظلاما

(المحقق).

مجموعة من الأشقياء العتاة، من عشائر مختلفة، كي يضيع دم الرسول بين جميع العشائر، فيصعب على بني هاشم أخذ الثأر[١].

وحين قرّر رسول الله مغادرة مكة إلى يثرب، كان لا بد أن ينام على فراشه شخص آخر كي لا يثير ارتياب المتآمرين المتربّصين.

وكان ـ لا بد ـ أن تتوفر في الشخص صفة أولى، هي صفة الفدائي الذي لا ينتظر ـ وهو على فراش الرسول ـ غير القتل.

وتحت صفة (الفدائية) تندرج كل الصفات الأُخرى: الشجاعة، والوفاء، والتضحية. واذا ما نجا الشخص الفدائي من القتل لسبب أولآخر، فإن المهمة التي حرص الرسول على تأديتها كانت تتطلب قدرة شجاعة على المجابهة، والتأدية. فثمة أمانات كثيرة، لا بد من إعادتها إلى ذويها في مكة وشعابها القريبة، فلم يقبل الرسول، وهو مغادر، لا يعلم ما تؤول إليه الأمور، أن تبقى الأمانات غير مردودة.

من هو الفدائي الذي تتساوى لديه الحياة والموت في وقفة الاختيار الإسلامي؟ ومن هو الفدائي الذي إذا ما نجا من ليلة القتل، فإنه لا يُسرع في استغلال النجاة، بل يتأنى ـ في المواجهة ـ والمجابهة، والتحدّي ـ ليؤدي الأمانات إلى أهلها؟

هو علي بن أبي طالب[٢]، الذي احتوى ـ في جنانه ـ الفدائية، والثقة العالية بالنفس.

---

١ ـ انظر مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ١٣٠، فتح الباري ٨: ٤٦٣، المصنّف لعبد الرزاق ٥: ٣٨٩، المعيار والموازنة لأبي جعفر الاسكافي: ١٨، المعجم الأوسط للطبراني ٢: ٣١٩، الفايق في غريب الحديث لجار الله الزمخشري ١: ١٩٧، تفسير العياشي ٢: ٥٣، تفسير القمي ١: ٢٧٥، التبيان في تفسير القرآن للطوسي ٥: ١٠٩، تفسير مجمع البيان للطبرسي ١: ٤٥٧، التفسير الصافي للفيض الكاشاني ٢: ٢٩٢، تفسير نور الثقلين للحويزي ٢: ١٤٥. (المحقق)

٢ ـ انظر البلاذري في أنساب الأشراف ٢: ١٠٦، الحاكم النيسابوري في المستدرك ٣: ١٣٢، الكنجي في كفاية الطالب: ٢٤٢، ابن عساكر في مدينة دمشق ١: ٢٠٣، الحموئي في فرائد السمطين ١: ٣٢٩، ابن حجر في الاصابة ٢: ٥٠٩، الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٩، محب ☜

فنام على فراش النبي، ليحمي هروبه المقدس من شر العصابة المجرمة. وحين لاح الفجر، ابتدأت معركة ثانية، هي معركة إرجاع الأمانات، التي كانت مهمة كبيرة، لا بد من تأديتها وإذا ما جاشت في أعماق علي مشاعر معينة، فهي مشاعر الاشتياق إلى النبي[١].

ورغم تلك المشاعر، ورغم اضطراب الجو بعوامل العداء والانتقام من قبل قريش، استطاع علي بن أبي طالب انجاز واجبه بدقة وانتظام. وهو يجمع حرارة الاشتياق، وسخونة المعركة إلى جانب برودة الانجاز المنتظم، وتلك كانت خصلة مركزية من خصاله المعروفة، فهو ـ في القتال ـ لا يُبعده الحماس والغضب الشجاع عن انتباهة العقل، ويقظته الهادئة. تلك الخصلة التي شخّصها وأشار اليها الحبشي **«وحشي»** حين استأجرته هند بنت عتبة **(زوجة أبي سفيان)** لقتل الرسول، أوحمزة، أوعلي، **«وأما علي فرجل حذر كثير الالتفات في الحرب»**[٢].

الدين الطبري في ذخائر العقبى: ٨٧ وفي الرياض النضرة ٢: ١٥٤، الخوارزمي في مناقبه: ١٢٦، ابن البطريق في العمدة: ٢٣٨، الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٩٨، الطبري في تأريخه ٢: ٣٧٢، ابن سعد في الطبقات ١: ٢٢٧، القرطبي في تفسيره ٣: ٢١، الرازي في تفسيره ٥: ٢٠٤، ابن هشام في السيرة النبوية ٢: ١٢٦، ابن الأثير في الكامل ٢: ١٠٣، ابن كثير في البداية والنهاية ٣: ١٧٤، الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٣: ١٩١، البيهقي في دلائل النبوّة ٢: ٤٦٤، الكوفي في مناقب أمير المؤمنين ١: ١٢٤، ابن شهرآشوب في مناقبه ١: ١٨٣، والسيرة الحلبية ٢: ٢٠٤. (المحقق)

١ ـ يقول ابن عباس: أنشدني أمير المؤمنين شعراً قاله في تلك الليلة (ويقصد بها الليلة التي بات فيها على فراش الرسول مضحياً بنفسه من أجله).

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصا	**ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجرِ**
رسول الإله خاف أن يمكروا به	**فنجّاه ذو الطّول العليّ من المكر**
وبات رسول الله في الغار آمناً	**موقىً وفي حفظ الإله وفي سترِ**
وبتّ أراعيهم وما يثبتونني	**وقد وطّنت نفسي على القتل والأسرِ**

انظر الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٤٨ ونور الأبصار للشبلنجي: ٨٦. (المحقق).

٢ ـ انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد ١: ٢٤٣، وأصل العبارة: «وأما علي فرجل حذر مرس،

بقي علي في مكة ثلاث ليال، ثم ابتدأ رحلته القاسية. («ولقد ظل في رحلته تلك ليالي أربع عشرة وحيداً يسبح في بحر لجي من الرمال تحته، ومن الأنجم والكواكب فوقه» و«لم يكن له مركب ولاظهر ابل، وانما سخّر قدميه وأمعن بهما في الرمال مستخفياً عن الأعين، ولم يكن له في رحلته صاحب». و«لعل هذه الآونة كانت أكثر الآونات في حياته أثراً وأبعدها غوراً حتى طبعت نفسه بطابعها مدى ما عاشه بعدها من سنيه»؛ و«كذلك نسي في رحلته لفح الهجير ولسع الزمهرير، ومضى قدماً صوب يثرب. وطبيعي أن متاعب الطريق وما لقيه من صعاب لم تكن لتستطيع أن تلقى من نفسه حرفاً من انتباهه وهو الذي لم يلق ـ قبل رحيله بثلاث ليالٍ ـ بالاً إلى عصبة التقُوا بداره في أيديهم الأسياف القواطع، يحومون حول فراشه على مبعدة خطوات فلا يعصمه من بطشهم عاصم إلّا ايمانه»[١]).

ولم تكن هذه الرحلة الأولى رحلة المكان: من مكة إلى يثرب، بل هي رحلة النفس، والزمان، والمكان، التي اتحدت فيها جميع ذرات كيان علي بن أبي طالب في انطلاقة العقيدة، وفي الفدائية التي كانت أقوى من قسوة الطريق والرحلة.

يقيناً، ان «علي بن أبي طالب» كان غير محتاج إلى اكتشاف نفسه بالحسابات العقلية الاعتيادية، في تلك الرحلة، لأن نفسه كانت أكبر من تلك الحسابات. فهو، إذ تحدّى قريش في قلعتها الحصينة، وإذ يطوي مسافات الوحشة، والغربة، والغموض، بصلابة، كان مثل طائر لا يحسب للعوائق أي حساب، تمنحه العقيدة قوة كبيرة، فتصبح نفسه الواحدة (بقوة عدة أنفس) قوية، متوثّبة، تتمرّس في مزاولة التحدي والصراع.

وحين وصل إلى منزل رسول الله ﷺ عند كلثوم بن الهدم[٢] في قباء قرب يثرب،

☜ كثير الالتفات في الحرب لا استطيع قتله» ويقال: رجل مرس، أي أنه شديد العلاج للأمور ١٣: ٢٨٣ و ١٥: ١١ وتفسير مجمع البيان للطبرسي ٢: ٣٧٨ والفيض الكاشاني في تفسير الصافي ١: ٣٧٦، وذكر السيد الطباطبائي في تفسير الميزان ٤: ١٢. (المحقق)

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: المصدر نفسه. (المؤلف)

٢ ـ انظر مناقب ابن شهر آشوب ١: ١٥١، ولما توفي كلثوم بن الهدم نزل ﷺ على سعد بن خيثمة، ☜

حصل على مكافأة الارتشاف من نور وجه حبيبه محمد، وكـان ذلك أقـصى آمـال الرحلة.

وتنمو بذرة الفدائية، في الصراع، فتكون الهجرة إلى يثرب، بعد تأدية الأمانات إلى أصحابها، فرصة علي لمعاينة قسوة الصراع وسعته، وعمقه، بين بضعة أفـراد يـقودهم (نبي)، وبين العالم الوثني الشديد البطش.

ويقيناً ـ حين كان وحده يجتاز المسافات القاسية والموحشة، أنه كان لا ينظر إلى الكون وكأنه عدوّ جبار، وهو بإزائه انسان بسيط، بل كان ينظربندّية عالية، فالعلو الذي تميز به علي كان علوّ القضية التي تشرّبها في روحه، وفي نفسه، وفي دمه، فكان «علي» الإسم والمسمّى.

---

(١) انظر معجم قبائل العرب ٣: ٨٣٤، ونهاية الإرب: ٣٤٢ وانظر فتح الباري لابن حجر ٢: ٢١٣ و٧: ٢٠٣، الفايق في غريب الحديث للزمخشري ٢: ٣٥٩، شرح نهج البلاغة ١٣: ٣٠٦، كنز العمال للمتقي الهندي ١٦: ٦٨٥ والطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٢٣٣ و ٣: ٩ و٨: ٣٤٩، الثقات لابن حبان ١: ١٣٢، وتاريخ مدينة دمشق ٤: ٢٩٨، أسد الغابة لابن الأثير ٢: ٢٧٦، سير أعلام النبلاء للذهبي ١: ٢٤٢، الاصابة لابن حجر ٣: ٤٦، أنساب الأشراف للبلاذري: ٩١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٤١، تاريخ الطبري ٢: ١١٧، البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٢١٣. (المحقق)

الفصل الثاني

▣ اصطفاء المصطفى

لعلي بن أبي طالب وريث العلم النبوي

لا يمكن استكمال فهم بداية علي بن أبي طالب، في عجيب ولادته، وفي عجيب اسلامه، ما لم يدخل في الاستيعاب اصطفاء الرسول العظيم لابن عمه علي.

ففي روح (النبي) كانت دعوة الاصطفاء اكراماً لعلي، وفي روح علي كانت الاستجابة حاضرة، مسرعة، متشوّقة.

وبين الاصطفاء والاستجابة تأسست عُرى علاقة من طراز خاص، هي من نوع علاقة موسى بهارون، علاقة المصطفى بالأخ، والصفيّ، والوصي[1].

حين دعا الهاتف القرآني محمداً إلى ابلاغ أهله وعشيرته بالدعوة الإسلامية؛ كان حشد بني هاشم وبني عبد المطلب، في دار، غير مصغٍ لكلمات محمد، وقد استقبلوها بالسخرية، واللامبالاة، كما عَدَّها بعضهم سحراً.

ونبست شفتا أبي لهب بذلك اذ قال:

«سحركم والله محمد»، وخاطب النبي:

«يا محمد ان لحديثك هذا لسحراً، وان له لموقعاً في الافهام وأثراً على الأحلام، ولكنه ما

---

١ ـ انطلاقاً من الحديث الشريف: «... أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبوّة بعدي؟» انظر مسند أحمد بن حنبل ١: ١٨٥ وسنن الترمذي ٥: ٦٣٨، ومحمد بن سليمان الكوفي ١: ٥٣٧، والنسائي في الخصائص: ١١٩، والحاكم النيسابوري في المستدرك ٣: ١٠٨ وابن الأثير في أسد الغابة ٤: ٢٥ ـ ٢٦، وفرائد السمطين ١: ٣٧٧ ونظم درر السمطين للزرندي: ١٠٧ وابن كثير في البداية والنهاية ٧: ٣٥٢ وابن حجر في الاصابة ٢: ٥٠٩ وفتح الباري ٧: ٧٤ والقندوزي في ينابيع المودة: ٥١ وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١: ٢٢٥ وابن الأثير في جامع الأصول ٨: ٦٥٠ والحسكاني في تفسير (آية التطهير)، في شواهد التنزيل ٢: ٣٥. (المحقق).

يغلبنا على ديننا سحر».

كان أبو لهب يقود الرفض، وكأنه والعشيرة يمثلون الحكمة والدين، ولا يمثل النبي الكريم ـ حاشاه ـ غير السحر والشعوذة والفتنة.

لم ييأس محمد، حين دعا أبو لهب بني هاشم وبني عبد المطلب مغادرة الدار قائلاً لهم: **«سمعتم أيها الناس فقوموا لايفتنكم الغلام» كان النبي ينشد الرحمة لأهله وعشيرته الأقربين:**

قد أمرني ربي أن أدعوكم إليه.. فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر، وأن يكون أخي، ووصيّي وخليفتي فيكم؟»[1].

---

١ ـ وهذا هو المعروف بحديث (الدار) وذكره المرتضى برسائله ٤: ٩٣ بهذا اللفظ «أيكم يؤازرني على هذا الأمر يكن أخي ووصي وخليفتي في أهلي ومنجز وعدي وقاضي ديني؟» فأحجم القوم جميعاً إلا علي عليه السلام» وروى في هذا المعنى أكثر من أن يحصى، ونذكر بعضاً من المصادر للتوثيق: الطبري في تاريخه ٢: ٣١٩، شرح الأخبار للمغربي ١: ١٠٧، الارشاد للمفيد ١: ٧، مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٢٤٩، الطرائف لابن طاووس الحسني: ٣٣، مناقب الشيرواني: ١٠٢، واللطيف أن الكاتب المصري محمد حسنين هيكل في كتابه (حياة محمد صلى الله عليه وآله) ذكر هذا الحديث في الطبعة الأولى من الكتاب، وحذف في الطبعة الثانية (١٣٤٥ هـ) والثالثة (١٣٥٨ هـ) قوله صلى الله عليه وآله: (وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم). وانظر الطبري في تفسيره ٩: ١١٢ طبعة عام ١٣٧٣ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، شبيه ماحصل في كتاب هيكل، ولكن في طبعة دار المعارف بمصر ٢: ٣٢١ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم، ذُكر الحديث بأكمله: «فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟...».

وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢: ٦٢ ـ ٦٣، معالم التنزيل للبغوي ٣: ٤٠٠ المناظرات في الامامة: ٤٥٩، كنز العمال للمتقي الهندي ١٣: ١١٤، التبيان في تفسير القرآن للطوسي ٨: ٦٧، جامع البيان للطبري (الشيعي) ١٩: ١٤٩، تفسير ابن كثير ٣: ٣٦٤، الدرجات الرفيعة لابن معصوم: ٥٩، ابن كثير في البداية والنهاية ٣: ٥٣، مناقب الخوارزمي: ٨، مسند أحمد بن حنبل ١: ١٥٩، كشف الغمة للإربلي ١: ٦٣، كشف اليقين للعلامة الحلي: ٩، السيرة الحلبية ١: ٢٨٥، الدر المنثور للسيوطي ٥: ٩٧، النور المشتعل للحافظ أبي نعيم الاصبهاني: ١٥٥ ـ ١٦٠، السيرة النبوية لابن كثير ١: ٤٥٩ وذكره ـ مؤخراً ـ الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه نشأة التشيع والشيعة: ١١٦ تحقيق الدكتور عبد الجبار شرارة. (المحقق)

فلا استجابة غير السخرية، التي تجسّدت في جواب أبي لهب الجاهز دوماً للرد الجارح، واتّباع الأسلوب اللعين: **«تزعم أن قد بعثك الله وتطلب منا النصر؟ ألا كفّ عنا دينك وربّك فأنّا لا نجيبك»**.

لو كان النداء في الوديان لكان أفضل نتيجة فيه، بين قومٍ لا يفقهون، وان فقهوا، ففقهاً وثنياً صادماً، تعيساً.

ومن بين جميع الأهل والأقربين، لم يتقدم مستجيباً إلى دعوة الرسول إلّا علي بن أبي طالب، الذي هبّ لنجدة رسول الله ﷺ، وكانت هبّة قوية، تبلورت، وتلخّصت فيها أبديّة الصلة، وخلاصة ملاحم السنوات الآتية، حيث الفتن والحروب والصراعات، التي خاضها علي استمراراً للصراعات التي خاضها النبي. هبَّ علي قائلاً:

«لا يحزنك والله اعنات فعليهم ضلالتهم، واني أنا يا رسول الله عونك.. أنا حرب على من حاربت!».

في ذلك المنفى الغريب، المنفى الفكري والاجتماعي، بين العشيرة والأهل، كان محمد شديد المرارة، والحزن، والاشفاق، كان وحيداً، وكانت وحدته أكبر كثيراً من العزلة عن الناس، كان ينتظر العون القريب، لكي يتصدى لقوافل الشرك القوية، الثرية، المدجّجة، بالأسلحة، لكنه لم.. يجد الاستجابة، وأراد قومه أن تذهب كلمات الله: **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** [1] سُدىً.

لكن علياً كان (قوماً) رغم أنه غلام. وكان جوابه ناصعاً، حاسماً: اني أنا عونك يا رسول الله.. أنا حربٌ على من حاربت».

بهذه التلبية أثمر الإصطفاء، بكل ما حمله من أنوار نبوية من جانب، وبكل ما تعرض له من عداوات وإحن من جانب آخر.

وتبارك التلبية أثمر الإصطفاء، بكل ما حمله من أنوار نبوية من جانب، وبكل ما

---

١ ـ سورة الشعراء، آية: ٢١٤. (المحقق).

تعرض له من عداوات واحن من جانب آخر.

وتبارك الإصطفاء الرسولي، باختيار علي، في لحظة مصيرية، بديلاً من النبي ليرقد في فراشه، حين آثر الرسول الهجرة إلى يثرب، فكان برد الرسول الأخضر عنواناً للإصطفاء، وتبريكاً للوصي، وحين رقد علي بن أبي طالب في فراش الرسول صلى الله عليه وآله، متدثراً ببرده الأخضر[1]، شعر أن اختيار الرسول له هو رسالة وأمانة، أكثر من كونها مدعاء افتخار.

«أكان لإلباس الرسول صلى الله عليه وآله شخصيته لعلي، تلك الليلة، ما يوحي بأن هناك جامعة تجمع بين الرسول وعلي، أكثر من جامعة القرابة القريبة التي بينهما؟ وهل لنا أن نستشفّ من ذلك، أنه اذا غاب شخص الرسول كان علي هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه، وتمثل شخصه، وتقوم مقامه»[2].

لقد كان اصطفاء الرسول لعلي بن أبي طالب أكبر وأبعد كثيراً من القرابة، وما تعنيه من دلالات معروفة في الأوساط العشائرية، والاجتماعية بعامة.

فالقرابة كانت من أعلى مستوى، لأنها رابطة أخ بأخيه من جدٍّ واحد هو عبد المطلب، فهي لا تحتاج إلى تأكيد لأنها ليست قرابة بعيدة، تعزَّز بتكرار التحدث عنها.

---

١ ـ عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله حينما اودع علياً عليه السلام على فراشه في تلك الليلة التي هاجر فيها الى المدينة، لقضاء ديونه وردّ الوقائع والأمانات التي كانت بحوزته فقال صلى الله عليه وآله له عليه السلام: «أتشح ببردي الحضرمي الأخضر فإنّه لا يخلص إليك منهم أحد ولا يصيبونك بمكروه» ويقول الطبري: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ينام في برده ذلك إذا نام. أنظر الطبري في تاريخه ٢: ٩٩، وابن كثير في البداية والنهاية ٣: ٢١٦، وسيرة ابن هشام الحميري ٢: ٣٣٣، عيون الأثر لابن سيد الناس ١: ٢٣٥ السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٢٢٩، جواهر المطالب لابن الدمشقي ١: ٢١٦، المسترشد للطبري الشيعي: ٣٦١، شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي (٣٦٣ هـ) ١: ٢٥٩، الاحتجاج للطبرسي ١: ١٦٠، مناقب ابن شهرآشوب ١: ٣٣٤، العمدة لابن البطريق: ٢٣٩، الطرائف لابن طاووس الحسني: ٣٧ وهي من اضافه محقق الكتاب هامش رقم ٢، حلية الأبرار للبحراني ٢: ١٣٣. (المحقق)

٢ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب...(المؤلف)

ولا هي بالقرابة المشكوك في أمرها، حتى يُسلَّط الضوء عليها كل حين.

إنها إصطفاء، وإعداد، وتوجيه: لعلي من أجل أن يحمل لواء المسؤولية، ولجمهرة المسلمين من أجل أن يقدروا قيمة الأخ والوصي والوالي.

وفي يثرب، بعد أن هاجر المسلمون المستضعفون هرباً من بطش قريش، أوعز النبي بتأسيس النواة الأولى للأخوية الإسلامية، وهي نواة البناء الإسلامي السياسي، وذلك باعتماد مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فحلّت العقيدة الإسلامية محل الرابطة العشائرية السائدة، فكانت صورة نادرة من صور التعبئة الفكرية، والوحدة الروحية، متجسّدة في البنيان الاجتماعي للمدينة.

قبل ذلك، كان الصراع داخل المدينة متوتراً بين الأوس والخزرج، ولكن الإسلام جعلهم موحّدين، أنصاراً. وبمؤاخاتهم مع المهاجرين تحققت للإسلام أرضية جديدة، كان مقدّراً لها أن تغيّر تاريخ المدينة، أولاً، وجزيرة العرب فيما بعد ثانياً. هنا، عند المؤاخاة، رفع النبي يد علي، قائلاً: «**علي أخي**»[1].

---

١ ـ عن فردوس الديلمي عن حذيفة، قال النبي: علي أخي وابن عمي.

وماجلس علي على المنبر إلّا قال: أنا عبد الله، وأخو رسول الله لا يقولها بعدي إلّا كذّاب.

وعن الصادق عليه السلام: ولما آخى رسول الله بين الصحابة وترك علياً فقال له في ذلك فقال له النبي: إنّما اخترتك لنفسي أنت أخي وأنا أخوك في الدنيا والآخرة، فبكى علي عند ذلك وقال:

أفديك بنفسي أيها المصطفى الذي — هدانا به الرحمن من عمه الجهل
وأفديك حوبائي وما قدر مهجتي — لمن أنتمي منه إلى الفرع والأصلِ
ومن ضمني منذ كنت طفلاً ويافعاً — وأنعشني بالبر والعل والنهل
ومن جده جدي ومن عمه عمي — ومن أهله أمي ومن بنته اهلي
ومن حين آخى بين من كان حاضراً — دعاني وآخاني وبين من فضلي
لك الفضل ان ما حبيت لشاكر — لاتمام ما اوليت ياخاتم الرُّسلِ

ويقول جابر بن عبد الله الأنصاري: سمعتُ علياً ينشد ورسول الله يسمع:

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي — معه ربيت وسبطاه هما ولدي

ﬞ

وتأبى الأيام إلّا أن تكون شاهداً على اصرار النبي على اختيار ابن عمه علياً صفياً فكان زواج علي بن أبي طالب من فاطمة بنت النبي البرهان الأكبر على عمق الاصطفاء وتاريخيته.

فقبل علي بن أبي طالب خطب مسلمون من أكابر قريش فاطمة، إلّا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُعرض عن ذلك، وقد خطبها ـ أيضاً ـ أبوبكر الصديق، ومن بعده الفاروق عمر بن الخطاب، فكان رفض الرسول هادئاً، وديعاً، مخبراً إياهما، أن أمرها موكول

جدي وجد رسول الله منفرد ... وفاطم زوجتي لا قول ذي فند
والحمدلله شكراً لا شريك له ... البرد بالعبد والباقي بلا أمد

قال: فتبسم رسول الله وقال صدقت. انظر مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٣٣ والمحتضر لابن سلميان الحلي: ١٤٦، وروى عن عمر أنه قال: لما عقد رسول الله صلى الله عليه وآله المواخاة بين أصحابه قال هذا علي أخي في الدنيا والآخرة، وخليفتي في أهلي، ووصيي في أمتي ووارث علمي، وقاضي ديني، ماله مني مالي منه، نفعه نفعي، وضرّه ضري، من أحبّه فقد أحبّني، ومن ابغضه فقد أبغضني).

انظر الكوكب الدري: ١٣٤ لمحمد صالح الترمذي الحنفي ،وذكرها نجم الدين العسكري في مقام الإمام علي عليه السلام: ٢٢، والقندوزي في ينابيع المودة: ٢٥١.

وينقل سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ١: ٢٣١ ـ معنعناً ـ عن زيد بن أبي أوفى، قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجده، فقال لي: «أين فلان؟ وأين فلان؟» فجعل ينظر في وجوه أصحابه ويتفقّدهم ويبعث إليهم حتى توافوا عنده، فحمد الله وأثنى عليه وآخى بينهم، فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام : «لقد ذهبت روحي يا رسول الله حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري، فإن كان هذا من الله فلك العتبى والكرامة». فقال له الرسول صلى الله عليه وآله : «والذي بعثني بالحقّ ما أخّرتك إلّا لنفسي، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى، وأنت أخي ووارثي»، «فقال: «يا رسول الله، وما أرث منك؟ قال: «ما ورث الانبياء قبلي»، قال: «وما ورثوا؟» قال: « كتاب الله وسنن أنبيائه، وأنت معي في قصري في الجنة، مع فاطمة ابنتي والحسن والحسين ابنيّ، وأنت رفيقي» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله : «إخواناً على سُررٍ متقابلين» سورة الحجر، آية: ٤٧، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣: ٢٠٦، ومناقب الخوارزمي: ١٥٠ وتاريخ مدينة دمشق ١: ١٢١ وفرائد السمطين للحموئي ١: ١١٢ والدر المنثور للسيوطي ٦: ٧٦ وكنز العمال للمتقي الهندي ١٣: ١٠٥، وسنن الترمذي ٥: ٦٣٦ والتاريخ الكبير للبخاري ٣: ٣٨٦. (المحقق)

إلى ربها[1].

وحين خطبها علي بن أبي طالب، وجد القبول لدى الرسولﷺ، ولدى فاطمة، وكان لا يملك غير سيفه ودرعه وناضحه (الناضح البعير الذي يحمل عليه الماء) فقال له رسول اللهﷺ: **«فأما سيفك فلا غنى بك عنه، تجاهد به في سبيل الله، وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به على نخلك وأهلك، وتحمل عليه حلك في سفرك، ولكني رضيتُ منه بالدرع»**[2].

فكان أن باع علي درعه بعدة دراهم، وكان ذلك مهر فاطمة[3]، مهر الفقراء.

---

١ ـ انظر رسائل المرتضى للشريف المرتضى ٤: ٩٥، وانظر الكوفي محمد سليمان في مناقبه ١: ٢٩٠ وهو يذكر قول فاطمةﷺ نقلاً عن ابن عباس: «خطب أبوبكر إلى النبيﷺ فاطمة فردّه وقال: لم أومر به. ثم خطبها عمر فرده وقال: لم أومر به، ثم خطبها علي فزوجها إياه فقالت فاطمة: يا رسول الله زوجتني رجلاً لا مال له ولا شيء له؟ فقال لها: يا بنية أما ترضين أن أكون زوّجتك أول المسلمين سلماً وأفضلهم حلماً وأعلمهم علماً؟ فقالت: رضيت بما رضي الله لي ورسوله». وفي المعنى، انظر ذخائر العقبى لأحمد بن عبد الله الطبري: ٣٠، جواهر المطالب لابن الدمشقي ١: ١٥٠، سنن النسائي ٦: ٦٢، ومستدرك الحاكم ٢: ١٦٧، السيرة الحلبية ٢: ٢٠٦، تاريخ الخميس ١: ٣٦١، كفاية الطالب: ٣٠٤، الفضائل الخمسة ٢: ١٣٣، الرياض النضرة ٢: ١٤٢ و ١٤٥، تاريخ دمشق: ٧٩ وأنساب الأشراف للبلاذري: ١٠٧ ـ ١٠٨، فضائل الأئمة لابن شاهين: ١٢٥ و١٣٦ و ١٤٠. وقال في الصفحة: ١٠٨: «قد اشتهر في الصحاح بالاسانيد عن أمير المؤمنين، وابن عباس وابن مسعود وجابر الأنصاري وأنس بن مالك والبراء بن عازب وام سلمة بألفاظ مختلفة ومعاني متفقة: أن أبا بكر وعمر، خطبا إلى النبيﷺ فاطمة مرة بعد أخرى، فردّهما». وانظر دلائل الصدق ٢: ٢٨٩ ـ ٢٩٢ و أسد الغابة ٥: ٥٢٠ واللالي المصنوعة ١: ٣٦٥، طبقات ابن سعد ٨: ١١ ومجمع الزوائد ٩: ٢٠٤ وشرح نهج البلاغة ١٣: ٢٨٨، الصواعق المحرقة ط عام ١٣٧٥، ١٣٩ و ١٤٠ و١٦١، كشف الغمة ١: ٣٥٣ و ٣٦٤ ومناقب الخوارزمي: ٢٤٧، وجلاء العيون ١: ١٥٨، كنز العمال ١٥: ١٩٩ و ٢٨٦ و ٢٨٨. (المحقق).

٢ ـ انظر مناقب الخوارزمي: ٣٤٦، كشف الغمة لابن أبي الفتح الإربلي: ٣٦٥. (المحقق).

٣ ـ هكذا ظهر مهر فاطمةﷺ في الحسابات الظاهرية الدنيويّة، وقد بارك سبحانه وتعالى بهذه القيمة المعدودة من الدراهم، وإن لم يذكر لنا التاريخ مهراً سبق لامرأة بهذا المقدار، فكيف وهي ☜

تجمعت في قبول النبي بزواج علي من فاطمة، وفي رضا فاطمة بذلك، معانٍ مهمة، وأساسية، تحمل أبعاداً فكرية وسياسية ومصيرية.

ويُدلّل ترحيب النبي بالزواج على ما كان يعقده عليه من آمال لحماية البيت النبوي،

سيدة نساء العالمين، وقد خصّها الله بما لم يكن لمثلها في العالمين. ولذا نرى في اقوال الرسول صلى الله عليه وآله ما ينبئه الباري من بركات هذا المهر، فقال صلى الله عليه وآله: «ولقد نحل الله(طوبى) في مهر فاطمة عليها السلام فجعلها في منزل علي. يقول ابن سيرين ـ الفلكي المفسر ـ: طوبى، شجرة في الجنة أصلها في دار علي وسائر أغصانها في سائر الجنة. ويقول السمعاني في الفضائل الخمسة عن الفضل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أول من يأكل من شجرة طوبى علي؟.

وهذا المعنى قال السيد الحميري:

وكفاه بأن طوبى له في — داره أصلها بدار الخلود
أيكة كل منزل لسعيد — فيه غصن منها برغم الحسود
تتدلى عليه منها ثمار — من جنى لينة وطلح نضيد

وله أيضاً:

ومن ذا داره في أصل طوبى — وتلقاه الكرام مصافحينا
وأنهار تفجر جاريات — تفيض الخمر والماء المعينا
وأنهار من العسل المصفى — ومحض غير محض الخافقينا

انظر مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٢، الامالي للصدوق: ٣٦٣ تفسير العياشي ٢: ٢١١، فهذه الدراهم المعدودة التي جمعت بين الزوجين الطاهرين الخالصين عند الله، شاء سبحانه وتعالى أن تكون نصف الدنيا كقيمة مادية في اعتبارية مادية الحساب، ويروى عن أبي ذرّ، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ضجت الملائكة إلى الله تعالى، فقالوا: إلهنا وسيدنا اعلمنا ما مهرها لتعلم وتبين، إنّها أكرم الخلق عليك، فاوحى الله إليهم: ياملائكتي وسكان سماواتي، أشهدكم ان مهر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله نصف الدنيا» انظر دلائل الامامة: ١٨ وفي روايات أخر: «خمس الدنيا» انظر الفتال النيسابوري في روضة الواعظين: ١٤٦ وهو يذكر: «قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: قد علمنا مهر فاطمة في الأرض، فما مهرها في السماء، فقال: سل ما يعنيك ودع مالا يعنيك، قيل هذا مما يعنينا يا رسول الله، قال: كان مهرها في السماء خمس الأرض، فمن مشى عليها مبغضاً لها أو لولدها مشى عليها حراماً إلى أن تقوم الساعة». وانظر أيضاً نوادر المعجزات للطبري الشيعي: ٩٠ ومدينة المعاجز للبحراني: ١٤٦ عن أبي ذر ومستدرك الوسائل ٧: ٢٩٦. (المحقق)

وآل البيت، وضمان استمرارية النّسب الطاهر.

ويكشف حبُّ محمد لفاطمة عن خصوصية تلك الآمال وعظمة قيمتها، والمغزى الإلهي في تحقق الزواج بصورته التي تمَّ فيها.

كان محمد النبي الكريم المحروم من الأُم، قد أسبغ على أنبل مشاعر الحب، حتى كانت تُسمّى «أم أبيها»[1]، ولطالما قبَّل يديها، وحين كان الناس يخاطبونه يا رسول الله، وكانت فاطمة تفعل مثلما يفعلون، طلب منها أن تدعوه «يا أبه»! لذلك أولى زواجها بعلي اهتماماً، خاصاً، فأقام حفلة فرح كبيرة[2].

وتمَّ نقلها إلى البيت علي على بغلته الشهباء، يمشي خلفها النبي وحمزة وعقيل وجعفر، ونساء النبي يرجزن فرحات مستبشرات، وهن يمشين قدامها، فأنشأت أم سلمة:

سرن بعون الله جاراتي	واشكرنه في كل حالات

---

١ ـ انظر تاج المواليد (المجموعة) للطبرسي: ٢٠ ويذكر قولاً عن الإمام الصادقعليه السلام: إنه قال لفاطمةعليها السلام تسعة اسماء عند الله تعالى: فاطمة، والصديقة، والمباركة، والطاهرة، والزكية، والراضية والمرضية، والمحدثة، والزهراء، وكنيتها: أم أبيها، ولقد لقبها النبيصلى الله عليه وآله سيدة نساء العالمين، وقد دّعيها أيضاً (بتولاً)، فسئل صلى الله عليه وآله عن معناه، فقال: هي المرأة التي لم تحض ولم تر حمرة قط، وان الحيض مكروه في بنات الأنبياءعليهم السلام...»: ٢٠. (المحقق)

٢ ـ يذكر ابن شهرآشوب عن تاريخ الخطيب، وكتاب ابن مردويه، وابن المؤذن وابن شيرويه الديلمي، بأسانيدهم عن علي بن الجعد عن ابن بسطام عن شعبة بن الحجاج، عن علوان عن شعبة عن أبي حمزة الضبعي عن ابن عباس وجابر: «انه لما كانت الليلة التي زفت فاطمةعليها السلام إلى عليعليه السلام كان النبي أمامها وجبرئيل عن يمينها وميكائيل عن يسارها وسبعون ألف ملك من خلفها يسبحون الله ويقدسونه حتى طلع الفجر».

وفي كتاب مولد فاطمةعليها السلام عن ابن بابويه في خبر: «أمر النبي بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة وأن يفرحن يرجزن ويكبرن ويحمدن ولا يقولن ما لا يرضي الله، قال جابر: فأركبها على ناقته، وفي رواية: على بغلته الشهباء ،وأخذ سلمان زمامها وحولها سبعون حوار والنبي وحمزة وعقيل وجعفر وأهل البيت يمشون خلفها مشهرين سيوفهم ونساء النبيصلى الله عليه وآله قدامها يرجزن» انظر مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٣٠. (المحقق)

واذكرن ما أنعم ربّ العلي   من كشفِ مكروه وآفاتِ
فقد هدانا بعد كفر وقد   أنعشنا ربّ السماواتِ
وسرنَ مع خير نساء الورى   تُفدى بعمّات وخالاتِ
يا بنت من فضّله ذوالعلى   بالوحي منه والرسالاتِ[1]

وقالت عائشة:

يا نسوة استرنَ بالمعاجر   واذكرن ما يحسنُ في المحاضر
واذكرن رب الناس اذ خصّنا   بدينه مع كل عبدٍ شاكر
والحمد لله على أفضاله   والشكر لله العزيز القادر
سرنَ بها فالله أعطى ذكرها   وخصَّها منه بطهر طاهر[2]

وقالت حفصة:

فاطمة خير نساء البشر   ومن لها وجه كوجه القمر
فضّلكِ الله على كل الورى   بفضل من خُصَّ بآي الزمر
زوَّجك الله فتىً فاضلاً   أعني علياً خير من في الحضر
فسرنَ جاراتي بها فانها   كريمة بنت عظيم الخطر[3]

وقالت معاذة أم سعد بن معاذ:

أقول قولاً فيهَ ما فيهِ   وأذكر الخيرَ وأبديهِ
محمدٌ خيرُ بني آدمٍ   ما فيهِ من كِبْرٍ ولاتيهِ
بفضله مع بنت نبيّ الهدى   ذي شرفٍ قد مكنت فيهِ
في ذروةٍ شامخةٍ أصلها   فما أرى شيئاً يُدانيهِ[4]

---

١ ـ انظر مناقب ابن شهرآشوب ٣: ١٣٠. (المحقق)

٢ ـ نفس المصدر. (المحقق)

٣ ـ انظر ابن شهر آشوب في مناقبه ٣: ١٣١. (المحقق)

٤ ـ نفس المصدر. وذكرها الأنصاري في اللمعة البيضاء، تحقيق هاشم الميلاني: ٢٦٨. (المحقق)

وبعد دخول الدار قال النبي:

«يا علي هذه فاطمة وديعتي عندك. ثم أضاف: اللهم اجمع شملهما، وألّف بين قلوبهما، واجعلهما وذرّيتهما من ورثة جنة النعيم، وارزقهما ذرّية طاهرة، طيّبة مباركة، واجعل في ذريتهما البركة، واجعلهم أئمة يهدون بأمرك الى طاعتك ويأمرون بما يرضيك. اللهم انما أحب خلقك إلي، فأحبّهما واجعل عليهما منك حافظاً وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم».

ثم خرج إلى الباب وهو يقول:

«طهركما وطهر نسلكما، أنا سلم لمن سالمكما، وحرب لمن حاربكما، استودعكما الله، وأستخلفه عليكما»(ج).

ج ـ السيد محمد كاظم القزويني: علي عليه السلام من المهد إلى اللحد. (المؤلف)

وباتت عندهما أسماء بنت عميس أسبوعاً بوصيّة خديجة إليها فدعا لها النبي صلى الله عليه وآله في دنياها وآخرتها، ثم أتاها النبي صلى الله عليه وآله في صبيحتهما، وقال: السلام عليكم، أدخل رحمكم الله؟ ففتحت أسماء الباب وكانا نائمين تحت كساء، فقال: على حالكما، فأدخل رجليه بين ارجلهما فأخبر الله عن اورادهما (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية، فسأل علياً: كيف وجدت أهلك؟ قال: نعم العون على طاعة الله. وسأل فاطمة فقالت: خير بعل، فقال: اللهم أجمع شملهما وألف بين قلوبهما واجعلهما وذريتهما من ورثة جنة النعيم وارزقهما ذرية طاهرة طيبة مباركة، واجعل في ذريتهما البركة واجعلهم ائمة يهدون بأمرك الى طاعتك ويأمرون بما يرضيك، ثم أمر بخروج أسماء وقال: جزاك الله خيراً، ثم خلا بها بإشارة الرسول صلى الله عليه وآله.

وروى شرحبيل باسناده قال: لما كان صبيحة عرس فاطمة جاء النبي صلى الله عليه وآله بعس فيه لبن فقال لفاطمة: اشربي فداك أبوك، وقال لعلي: اشرب فداك ابن عمك. انظر مزيد من التفاصيل في مناقب ابن شهرآشوب ٣: ١٣١ ومناقب الخوارزمي: ٣٥٢، وفي كشف الغمة للإربلي: «قال علي: ومكث رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك ثلاثاً لا يدخل علينا، وجاء في صبيحة اليوم الرابع» ١: ٣٧١، والفرق التاريخي بين ابن شهرآشوب (٥٨٨ هـ) وابن أبي الفتح الاربلي (٦٩٣) أكثر من مئة عام، فالفارق الزمني قد يرجح لنا صحة الرواية هذا أولاً، ثم ان ما تعارف عليه الناس من طبائع الزواج أن يأتي أهل الزوجة صبيحة اليوم الثاني للزواج، ولذا نرجح رواية ابن شهرآشوب لهذين السببين. (المحقق)

وشاءت النعمة الإلهية أن تُسعد علياً وفاطمة بالنسل الطاهر الذي انتظره النبي انتظار الملهوف، اذ أنجبت فاطمة الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم ومحسن الذي مات اجهاضاً بعد وفاة النبي، وبعد أن أحاقت الآلام بروح فاطمة وجسدها الرقيق، والتي لم تمهلها إلّا قليلاً فماتت عن عمر يتجاوز الثماني عشرة سنة بأشهر، وكفى بذلك بياناً عن شدة الأحزان ودورها في قصف الأعمار![1]

---

١ ـ بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وعدم مبايعة علي عليه السلام لأبي بكر بالخلافة كان علي عليه السلام في البيت ومعه جماعة من أصحابه، فأرسل أبوبكر جماعة ومعهم عمر بن الخطاب إلى دار علي عليه السلام، فناداهم عمر، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص، إن فيها فاطمة؟ قال: وإن، فخرجوا فبايعوا إلّا علياً فإنه زعم أنه قال: حلفت أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن، فوقفت فاطمة عليها السلام على بابها، فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا اسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردوا لنا حقاً.

بعد ذلك رجع عمر إلى أبي بكر وأرسلا قنفذ وهو مولى لأبي‌بكر بابلاغ علياً عليه السلام بالحضور، مخاطباً علياً عليه السلام: يدعوك خليفة رسول الله، فقال علي عليه السلام: لسريع ما كذبتم على رسول الله، فرجع قنفذ فأبلغ الرسالة، فبكى أبوبكر، فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة، فعاد قنفذ إلى علي وقال له: خليفة رسول الله يدعوك لتبايع، فرفع علي صوته، فقال: سبحان الله؟ لقد ادعى ماليس له، فرجع قنفذ فأبلغ الرسالة فبكى أبوبكر طويلاً، ثم قام عمر فمشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة، فدقوا الباب، فلما سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها: يا أبتِ يا رسول الله، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها، انصرفوا باكين، وبقي عمر ومعه قوم، فأخرجوا عليّاً، فمضوا الى أبي‌بكر، فقالوا له بايع... وبعد حوار طويل لم يبايع علي عليه السلام. وذهبا أبو بكر وعمر إلى فاطمة، فأستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلماه، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها، حولت وجهها الى الحائط، فسلما عليها، فلم ترد عليهما السلام، فتكلم أبوبكر... فقالت لهما: ارأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم. فقالت: انشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟» قالا: نعم، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله. فقالت: فإني أشهد الله

⇦

أصبح النبي، بعد النعمة الإلهية هذه، حريصاً على حياة علي بن أبي طالب، الباحث عن الحياة الحقيقة في غمرات القتال.

كان علي بن أبي طالب الفارس المتقحّم، الذي يزدري الموت، وفي كل معركة كان

وملائكته انكما اسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لاشكوتكما إليه.

انظر الامامة والسياسة ١: ٣٠ تحقيق الشيري، ١: ١٩ تحقيق الزيني، والشهرستاني في الملل والنحل (بلفظ مقارب) ١: ٥٦ والمسترشد للطبري الشيعي: ٢٢٤، الاحتجاج: ٥١، شرح نهج البلاغة ١: ٣٤، تاريخ الطبري (٣١٠ هـ) ٣: ٢٠٢، تاريخ أبي الفداء ١: ١٥٦، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٠٥، أعلام النساء ٣: ٢٠٥، مروج الذهب ١: ٤١٤، أنساب الأشراف للبلاذري ١: ٥٨٦ ومات لها ولد يُسمى (محسناً)، (مات صغيراً) على رواية ابن الأثير في البداية والنهاية ٣: ٤١٨.

وذكر أحمد بن عبد الله الطبري في ذخائر العقبى (فهلك محسن صغيراً): ٥٥.

ومن ذلك يتضح إنّها عاشت عليها السلام معاناة قاسية بعد وفاة والدها الرسول صلى الله عليه وآله فكانت أول من لحق به عن عمر «ثمانية عشر وشهران وخمسة وعشرون يوماً»، كما في رواية الخصيبي في الهداية الكبرى: ١٧٦، بعد وفاة الرسول بستة أشهر، وفيها اختلاف، انظر نظم درر السمطين للزرندي: ١٨١، وتُنبأ وفاتها عليها السلام المبكرة عن هول المصائب والخطب التي صُبتْ عليها بعد رحيل أبيها الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، يقول علي عليه السلام: «ان فاطمة عليها السلام جاءت إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله فوقعت عليه، ثم أخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد — أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبّت عليَّ مصائب لو أنها — صبت على الأيام صرن لياليا»

رواه ابن الجوزي في الوفاء وابن سيد الناس في السيرة النبوية ٢: ٣٤٠ والحنفي الزرندي في نظم درر السمطين: ١٨١. وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢: ١٣٤، دستور معالم الحكم لابن سلامة: ١٩٩. وأحمد زيني دحلان في السيرة النبوية ٣: ٣٩١، وعمر رضا كحالة في اعلام النساء ٣: ١٢٠٥، والقاري في شرح «الشمائل» ٢: ٢١٠، والخطيب الشربيني في تفسيره ١: ٣٤٩، والقسطلاني في «إرشاد الساري» ٢: ٣٩٠، والمعتبر للعلامة الحلي ١: ٣٤٥ وابن شهر آشوب في مناقبه ١: ٢٠٨، روضة الواعظين للفتال النيسابوري: ٧٥ والشرح الكبير لعبد الرحمن بن قدامة ٢: ٤٣٠، والمغني لعبد الله بن قدامة ٢: ٤١١، ومغني المحتاج لمحمد الشربيني ١: ٣٥٦، والجواهري في جواهر الكلام ٤: ٣٦٥ والشيخ يوسف البحراني في الحدائق الناضرة ٤: ١٦٩، والشهيد الأوّل في «الذكرى»: ٧٢ والعلامة الحلي في منتهى المطلب ١: ٤٦٦، وذكرها الشهيد محمد باقر الصدر في «فدك في التاريخ»: ٤٣. (المحقق)

يخوضها يرفع رسول الله يديه بالدعاء إلى الله وهو يلهج بالآي الكريم: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(١).

لم يكن رسول الله ضنيناً بآل بيته على الاستشهاد، بل كان اذا ما اشتد القتال، وأصاب الروع بعض المسلمين يقدّمهم إلى الاستشهاد حاثّاً، دافعاً، لحماية المسلمين، وصدّ المشركين، وفي ذلك قال علي بن أبي طالب:

«**وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ؛ إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ** (أي اشتد القتال)، **وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَىٰ بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَٱلأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ ٱلْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جعفر يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ ٱسْمَهُ** (يريدُ بذلك نفسه رضي الله عنه) **مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلٰكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، مَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ.**»(٢).

وقد خاض علي بن أبي طالب غمرات القتال في جميع الرسول، إلّا في غزوة تبوك،

---

١ ـ سورة الانبياء: ٨٩.

وعن أم عطية، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ان بعث علياً عليه السلام في جيش وهو رافع يديه، يقول: «اللهمّ لا تمتني حتّى تريني علياً عليه السلام».

انظر سنن الترمذي ٥: ٦٤٣، ورواه البخاري في كتابه الكنى: ٢٠ برقم ١٤٩ المطبوع بذيل التاريخ الكبير المجلد ٨، وابن المغازلي في مناقبه: ١٢٢ والبغوي في مصابيح السُنة ٤: ١٧٦، والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٣: ١٧٢٢ وابن الأثير في أُسد الغابة ٤: ٢٦ والمحب الطبري في كتابيه: الرياض النضرة ٢: ١٦٩ وذخائر العقبى: ٩٤ والزرندي الحنفي في نظم درر السمطين: ١٠٠ وابن كثير في البداية والنهاية ٧: ٣٧٠، والقندوزي في ينابيع المودة: ٩٠ و ٢١٥ والخوارزمي في مناقبه: ٧٠ وابن البطريق في العمدة: ٢٨٧. (المحقق)

٢ ـ ثم يستطرد الامام عليه السلام بقوله: فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسمع بقدمي، ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها إلا أن يدعي مُدعٍ ما لا أعرفه، ولا أظن الله يعرفه والحمد لله على كلّ حال. انظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤: ٤٧، أنساب الأشراف للبلاذري: ٢٨١، وقعة صفين لابن مزاحم المنقري: ٩٠، جواهر المطالب لابن الدمشقي ١: ٣٦٠، وذكرها من المعاصرين جعفر مرتضى العاملي في الصحيح من السيرة ٥: ٤٩. (المحقق)

اذ خلفه النبيّ وصيّاً على بيته[١].

وكانت فرصة المنافقين للتقوّل والكذب، واهتبال الفرصة لبثّ الشائعات والادّعاء بأن الرسول استثقل صحبة علي، وكره رفقته في الحرب. إلّا أن الرسول الكريم كان ـ في تلك الغزوة ـ يحرص كل الحرص على أن تكون وصيته لعلي تأخذ موقعها في التطبيق، بعد أن وصلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة القوة والانتشار، وأوشكت رسالة محمد أن تصل مختتمها.

وجاء ـ عن ذلك ـ في طبقات ابن سعد:

أخبرنا روح بن عبادة قال: أخبرنا عون، عن ميمون، عن البراء بن عازب، وزيد بن أرقم، قالا: لما كان عند غزوة جيش العسرة، وهي تبوك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب: «انه لا بد أن أقيم أوتقيم، فخلّفه، فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله غازياً، قال ناس: ما خلّف علياً إلّا لشيء كرهه، بلغ ذلك علياً، فاتّبع رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى انتهى اليه، فقال له: ما جاء بك يا علي؟ قال: لا، يا رسول الله، إلّا أني سمعتُ ناساً يزعمون أنك خلّفتني لشيء كرهته مني، فتضاحك رسول الله صلى الله عليه وآله رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال: «يا علي. أما ترضى أن تكون مني كهارون من موسى، غير أنك لست بني؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فانّه لكذلك»[٢].

---

١ ـ الهداية، الشيخ الصدوق: ١٦٢ ويذكر الصدوق قول علي عليه السلام للرسول صلى الله عليه وآله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ وانظر رسائل المرتضى، الشريف المرتضى ٣: ٢٠، الرسالة، الإمام الشافعي: ٣٦٦.

٢ ـ ابن سعد، طبقات ابن سعد، ووردت الرواية في سيرة ابن هشام، وفي كتب السيرة والتاريخ (المؤلف) وانظر مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل ١: ١٧٥، ١٨٢ و٣: ٣٣٨، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨، صحيح مسلم، مسلم النيسابوري ٧: ١٢٠، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢: ٣٣٧ و٣: ١٣٣، مجمع الزوائد، الهيثمي ٩: ١٠٩، فتح الباري، ابن حجر ٧: ٦٠، مسند سعد بن أبي وقاص: ١٠٣، المعجم الأوسط، الطبراني ٨: ٤٠، ومسند أبي داود الطيالسي: ٢٩، حلية الأولياء ٧: ١٩٥ ـ ١٩٦، السنن الكبرى للبيهقي ٩: ٤٠، تاريخ بغداد ١١: ٤٣٢، المناقب لابن المغازلي: ٣٢، مناقب الخوارزمي: ١٥٨، كفاية الطالب للكنجي: ٢٨٣، ابن كثير في البداية والنهاية ٥: ٨، ينابيع المودة

ان علياً الذي اختار القتال دفاعاً عن رسالة محمد، حتى أصبح القتال ميدانه، وامتيازه، وأكثر أخباره، وجملة حياته، لم يجد الحرص المذكور من قبل الرسول، في تخلّفه عن تبوك، إلّا لكي تأخذ الوصاية مجراها التطبيقي، لحماية بيت النبي، ركن الإسلام الركين، وقيادته الطليعية.

وقد كانت بصيرة النبي النافذة، تخترق الزمن، فترى المأساة التي ستحل بعلي بن أبي طالب وأهله، تلك المأساة التي ستكون مأساة الإسلام بالذات. وبعض صدقية ذلك، أن (علي بن أبي طالب) حين برز إلى عبد بن ودّ العامري المقاتل الشجاع والشهير، في حرب الخندق، قال عنه الرسول: **«الآن برزَ الإسلام كله إلى الشرك كله»**[1].

كان الرسول يرى بعين الرؤيا أن **«أبا الريحانتين»** ـ أبا الحسن والحسين ـ سيذهب ركناه: **«الرسول وفاطمة»** وستهبّ بوجهه الأعاصير السياسية والفتن، كما ستهبّ ـ فيما بعد ـ بوجه الريحانتين: الحسن والحسين، فيتعرّض الإسلام باستشهاد الحسين وغالبية آل البيت، إلى أخطر عدوان، من داخل بنيته السياسية التقليدية.

قال الرسول لعلي بن أبي طالب:

«سلام عليك يا أبا الريحانتين، فعن قليل يذهب ركناك، والله خليفتي عليك»، فلما قبض

للقندوزي: ٤٩، مناقب محمد سليمان الكوفي ١: ٥١٣ والسيرة النبوية لابن هشام ـ في عنوان غزوة تبوك ـ ٤: ١٦٣، صحيح البخاري ٢: ٣٠٠ وسنن ابن ماجه ١: ٤٢؛ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١: ٣١٨، عمدة القاري للعيني ١٦: ٢١٨، فتح الباري لابن حجر ٧: ٧١، شواهد التنزيل ١: ١٥٠، اسد الغابة لابن الأثير ٤: ٢٥ ـ ٢٧. فرائد السمطين ١: ١٢٢، ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري: ٦٣، كنز العمال للمتقي الهندي ١١: ٦٠٧، أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٩٥، طبقات ابن سعد (الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد) ٣: ٢٤ ـ ٢٥. (المحقق)

١ ـ كنز الفوائد، ابوالفتح الكراجكي وبعبارة (برز الايمان كله إلى الشرك كله). والطرائف لابن طاووس الحسني: ٣٥، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي ١: ٢٠٥، كشف اليقين، العلامة الحلي: ١٣٢ وهو الوحيد من المصادر التي توافرت لدينا ذكرها بعبارة «خرج الإسلام كله إلى الشرك كله». ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي ١: ٢٨١، احقاق الحق ٩: ٨ والبحار ٣٩: ١، شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري ٢: ٢٨٨. (المحقق)

رسول الله ﷺ قال علي: هذا أحد الركنين الذي قال ﷺ، فلما ماتت فاطمة، قال: هذا الركن الأخير الذي قال ﷺ[١].

كانت الرؤيا الرسولية تزيح سدف الأزمنة، ولكن الرجاء الإلهي لا يمكن إبطاله. فقد سرت الرؤيا إلى حيث ستكون المأساة، ولكن الرجاء الإلهي كان يدعو بالرحمة.

وكلما قرُب مختتم الرسالة المحمدية، امتدت الرؤيا النبوية مشخّصة مأساة المصير، فكان الرسول يزداد حرصاً على وجود علي بن أبي طالب، الوصيّ، لرعاية سلالة النبي الممثلة في الريحانتين: الحسن والحسين. فقد كان، في علي بن أبي طالب، وفيهما، نور النبي وإرثه الفكري، وكان السبطان وابنا محمد ريحانتيه.

فعبّر علي بن أبي طالب، (وهو الذي اعتاد القاء نفسه بين أشداق الردى غير متهيّب) عن أمنية الرسول وأمله، ورجائه، بحرص كبير على حياة السبطين، لأنه في ذلك يحفظ الأمانة المحمدية، أمانة محمد كأب، وأمانته الجليلة كنبي.

وأعلن ذلك علي بن أبي طالب في بعض أيام (صفّين) حينما كان الحسن يتسرّع إلى الحرب، قائلاً:

«أَمْلِكُوا عنِّي هٰذَا ٱلْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ (أي أضن وأبخل) بِهٰذَيْنِ - يَعْنِي ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ عليهما السلام عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ، لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ»[٢].

وقد بلغ حرص علي بن ابي طالب على حفظهما مبلغاً كبيراً، حتى أصبح ذلك الحرص مسؤولية كبرى، يغذيها التخوف عليهما من عداء وغدر الأعداء، فقال:

«اللهم اني استعديك على قريش، فانهم أضمروا لرسولك ﷺ ضروباً من الشر والغدر، فعجزوا عنها، وحلت بينهم وبينهما، فكانت الوجْبَةُ بي والدائرة علي. اللهم احفظ حسناً

---

١ ـ عبد الكريم الخطيب: المصدر المذكور. (المؤلف) وأنظر العمدة، ابن البطريق: ٣٠٨. (المحقق)

٢ ـ عبد الكريم الخطيب: المصدر المذكور. (المؤلف) نهج البلاغة، محمد عبده ٢: ١٨٦، شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ١١: ٢٥، بحار الأنوار المجلسي ٣٢: ٥٦٢ و٤٣: ٢٣٤، وحياة الامام الحسين عليه السلام باقر شريف القرشي ٢: ٦٢. (المحقق)

وحسيناً، ولاتمكّن فَجَرة قريش منهما ما دمت حياً، فاذا توفيتني فأنت الرقيب عليهما، وأنت على كل شيء شهيد»(١).

ان (علي بن أبي طالب)، يُحافظ ـ في ذلك ـ على فكر النبي، وليس على مجرد سلالته، وتلك مسؤولية من طراز خاص، لأنها تستوعب أسباب الصراع بين الأفكار التي تحمي مصالح السلطة ورأس المال، والأفكار الطليعية التي تحمي الحق، وتذود عن تطبيقاته.

فآل محمد هم شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومعادن العلم، وينابيع الحكمة، وهم حجج الله. وهم الذين قال فيهم علي نفسه: «**نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ، [وَلَا] تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً. فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمٰنِ، إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا**»(٢).

وقد يُفسر البعض اصطفاء الرسول المصطفى لعلي بن أبي طالب، في زواجه بفاطمة، وفي تخلفه عن غزوة تبوك لرعاية بيت النبي، بأنه من نوع اصطفاء القرابة، والتكليف العائلي، ولكن التاريخ يؤكد على اصطفاء أشمل من وصيّة القرابة، فهي تضمنها، ولكن بمحتوى أكبر انسانية، وأكثر تأريخية، بمقدار تطابق الوصية مع المبررات الموضوعية لها.

وفي تأريخ الأنبياء والرسل والديانات ترد الوصية والاصطفاء بصورة لا لبس فيها، كما عبّر ذلك القرآن الكريم، اذ قال: ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾(٣) وفي قوله: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ**

---

١ ـ عبد الكريم الخطيب: المصدر المذكور. (المؤلف) شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٩٨، المسترشد للطبري: ٤١٦، المناظرات في الإمامة، عبد الله الحسن: ٤٦، الدرجات الرفيعة، علي بن معصوم: ٣٨، مكاتيب الرسول، الأحمدي الميانجي ١: ٥٧٩ (معاصر). (المحقق)

٢ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة (المؤلف) نهج البلاغة: ٢١٥ برقم ١٥٤، وذكرها في كتاب الأربعين، محمد طاهر القمي الشيرازي: ٤٣٨، وطرق حديث الأئمة الإثنا عشر، الشيخ كاظم آل نوح: ٦. (المحقق)

٣ ـ سورة البقرة: ١٣٢. (المحقق)

يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهاً وَٰحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١].

فأوصى آدم لولده شيث، وأوصى نوح لولده سام، وأوصى ابراهيم لولده اسماعيل، وأوصى موسى لأخيه هارون، وليوشع بن النون ابن أخيه. وكذلك أوصى داود لولده سليمان، وحزقيل لابن أخيه أرميا، وعيسى لشمعون الصفا ابن خالته[٢].

ويغلب على الوصاية من النوع المذكور طابعها الفكري، أكثر مما يحمله الطابع العائلي من دلالة. وهي ـ بهذا المعنى ـ ثمرة تدريب وإعداد فكري وتربوي وتطبيقي عال، يرتفع فيه (الموصى) إلى مستوى المهمة الملقاة على عاتقه.

ويؤخذ بعين الاعتبار أن اطمئنان الأنبياء والرسل إلى اعتماد أسلوب إعداد الوصي، نابع من قلقهم الشديد من تخلف المجتمعات القبلية، وبُعدها عن الحق، وعن الثورة الفكرية، وعن قواعد الإصلاح الجديد.

فالوثنية المسيطرة لم تكن وثنية (قَبْلية ـ أي من قبل) بل هي محصّلة طبيعية للتطور البطيء والمتدني للواقع المادي والفكري على حد سواء. إن الشروط المادية والفكرية المحدودة، لحياة المجتمعات القبلية الأولى تصنع معبوداتها على صورتها المحدودة، فكانت الأصنام والأوثان طبعات مادية بدائية لأفكار مستوحاة من الطبيعة المادية البدائية للواقع الحياتي للناس. وحينما كانت تقوم ثورات دينية، كانت عملية الصراع بينها وبين الشروط المادية للوجود الاجتماعي (القبلي والتجاري) معقدة، تهدأ طوراً، وتسخن طوراً آخر. وهي تعبّر عن نفسها بصورة مباشرة حيناً، وبصور مُقنَّعة حيناً آخر. لذلك لجأ الأنبياء والرسل إلى تلقين علومهم ومبادئهم للأوصياء والأئمة والأولياء الحافظين لها والذين يرعونها رعاية حق وصدق.

فثمة فرق شاسع بين رواة العلم ورعاته، كما قال علي بن أبي طالب، وهو يذكر

---

١ ـ سورة البقرة: ١٣٣. (المحقق)

٢ ـ علي بن محمد الوليد: كتاب تاج العقائد ومعدن الفوائد. (المؤلف)

فضائل آل البيت:

«هُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ، وَمَوْتُ ٱلْجَهْلِ، يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ ٱلْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، هُمْ دَعَائِمُ ٱلْإِسْلَامِ، وَوَلَائِجُ ٱلْإِعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ ٱلْحَقُّ فِي نِصَابِهِ، وَٱنْزَاحَ ٱلْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ ٱلْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ»[١].

ومن الواضح أن التأريخ العربي ـ في أطول مراحله ـ هو تأريخ القبيلة، وكانت تجربة مؤاخاة الأنصار والمهاجرين في (المدينة) على يد النبي هي أول تجربة تتصدى لسلطان القبيلة. وقد تعمّقت الأخوية الإسلامية، بعد مرحلة المؤاخاة في المدينة، في المرحلة الإسلامية الأكبر، وهي مرحلة الفتح الإسلامي الأول.

وعبر تأريخ العرب القبلي، كانت العلاقة بين الأفكار المؤثرة، ومركز ثقل القبيلة هي التي تقرّر إلى مدى بعيد مسار حركة التأريخ. ففي بيئة قرشية مثلاً، لم يكن بمقدور أي مصلح كبير من خارج قريش أن يكون أميراً.

ومن باب الأمثلة ليس غير، لم يكن ممكناً أن يكون أبوذرّ الغفاري (المصلح والثائر الكبير) أميراً لقريش، كذلك لم يكن ممكناً أن يكون الصحابي سلمان الفارسي أميراً في الطائف.

ذلك أن العوامل المسيطرة التي تقرّر المسار السياسي للواقع الاجتماعي، هي العوامل القبليّة بشروطها المادية والفكرية السائدة، والتي كانت تخلق على صورتها، طُرُز التفكير السياسي المناسبة.

لذلك، وعبر التأريخ، كانت التيارات المصطرعة ذات طابع زُمَريّ (من الأهل،

---

١ ـ عليّ بن أبي طالب: نهج البلاغة (المؤلف) وانظر شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢: ٢٣٢ رقم ٢٣٩، وذكرها الكليني في الكافي ٨: ٣٩١ وابن شعبة الحراني في تحف العقول: ٦، والفتّال النيسابوري في روضة الواعظين: ٤، وابن ادريس الحلي في مستطرفات السرائر: ٦٤٠، والليثي في عيون الحكم والمواعظ: ٩٢. (المحقق)

والأقرباء، من القبيلة). فكانت فئات القرابة ذات حضور واقعي يعكس سياسياً وأيديولوجياً طبيعة القوانين التي تصوغ حياة المجتمعات القبلية؛ فأهل الخير، وأهل الشر يعكسان الصراع بين الخير والشر (وهو صراع أبدي)، ولكن من خلال النسيج الاجتماعي، وهيئته السائدة.

واذ يوجّه (البعض) النقد إلى الصيغةالوراثية لبعض أشكال عمليات الإصلاح الديني أوالسياسي ـ حينذالك ـ من منطلق الدفاع عن حق الإرادة الشعبية في تقرير صيغ وأطر حياتها السياسية، فان هذا البعض يتناسى ثقل العوامل الأساسية التي تمسك بلجمة الواقع المادي للمجتمعات القبلية، التي تفرّخ نفسها بنفسها في عدة صور وانعكاسات متقاربة.

ولم تكن الفاعليات القيادية الرائدة ـ خارج الأطر القبلية والطبقية السائدة، قادرة على تحقيق السيطرة السياسية، إلاّ في حالات نادرة ومحدودة. لكن الرسالة المحمدية، حققت ـ لأول مرة ـ تغييراً واسعاً على المستوى القومي العربي، وعلى المستوى الإنساني، متجاوزاً الحدود والأطر القبلية. ومع ذلك، من الناحية العملية، كانت عبقرية محمد تتجه إلى الأهل والعشيرة، حينما هتف به الوحي القرآني: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[1] لأنه كان يبحث عن مناصرين لدين الإسلام، من وسط اجتماعي خبير بطبيعة محمد النجيبة؛ محمد الأمين، الصادق، وكذلك هو الوسط الذي يعرفه محمد معرفة جيدة، فكان أن بادر إلى دعوة بني هاشم وبني عبد المطلب، رغم علمه بأنه سينال ما يكره[2].

---

١ ـ سورة الشعراء: ٢١٤. (المحقق).

٢ ـ منتهى المطلب، العلامة الحلي ٢: ٨٩٧، مجمع الفائدة، المحقق الأردبيلي ٤: ٣٣٧، ذخيرة الميعاد، المحقق السبزواري ٣: ٤٨٥، الحدائق الناضرة، المحقق البحراني ١٢: ٤٠٦، وكشف الغطاء، جعفر كاشف الغطاء ١: ١٠، جواهر الكلام، الشيخ الجواهري ١٦: ٩٢، مصباح الفقيه، رضا الهمداني ٣: ١٤٧، علل الشرائع، الصدوق ١: ١٧٠ وله في عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٠٩، وروضة الواعظين، الفتال النسيابوري: ٥٢. (المحقق)

وبصورة عامة فإن انتساب الناس إلى معسكر الحق، هو المهم[١]، لكن ذلك يتم ـ في الغالب ـ وفقاً لموازين القوى والعلاقات الاجتماعية، وتأثيراتها الملموسة، أو غير الظاهرة.

بعبارة أخرى، فإن طبيعة القوى الاجتماعية وأفكارها، هي مركز الثقل الأساسي في تقرير أنماط الحركة السياسية؛ وبتغيّرها، تحصل متغيرات ملائمة.

وفي السياق المذكور كان اصطفاء النبي الكريم لعلي بن أبي طالب محكوماً بعوامل الدين والقرابة والمسؤولية بكل متطلباتها الموضوعية.

فامتلك الاصطفاء بعده الديني والسياسي و(الهاشمي)، الذي جمعته كلمة (آل البيت) وكانت كلمات النبي عند غدير خم، بعد الأوبة من حجة الوداع، وفي الطريق إلى المدينة، مشيرة بالمباشر إلى بُعد الاصطفاء بكل ما ينطوي عليه من دلالات.

هتف الرسول بصوت عال:

«.. يا أيها الناس من أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟».

فأجاب الحشد الكبير:

«الله ورسوله أعلم».

فقال الرسول:

«إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولىٰ بهم من أنفسهم» ثم أخذ بيد (علي) حتى رؤي بياض آباطهما، وقال: **«فمن كنتُ مولاه فعلي مولاه.. اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه»**[٢].

---

١ ـ المؤثرات الثقافية والسياسية أسرع فعالية داخل العائلة، والعشيرة (سابقاً) وفي الوسط المهني الواحد (مثل المعمل، المزرعة)، وفي الصف الدراسي (حديثاً)، وتظل التأثيرات العائلية المتبادلة ـ عامة، قديماً وحديثاً ـ أسرع من سواها، في ظل شروطها المعيّنة. (المؤلف)

٢ ـ الغارات، ابراهيم بن محمد الثقفي ٢: ٦٥٨، الايضاح، الفضل بن شاذان الأزدي: ٥٣٧، مسند أحمد ٤: ٢٨١، سنن ابن ماجة ١: ٢٨ و٢٩، خصائص النسائي: ١٦، وتاريخ بغداد، الخطيب ←

كذلك كان الاصطفاء بالغ الوضوح، حينما نزلت سورة «براءة»، وكان أبوبكر الصديق أميراً للحج، فأرسل الرسول الكريم **«علي بن أبي طالب»** مُبلّغاً، أن لا يدخل الجنة كافر، ولايحجّ بعد العام مشرك، ولايطوفَ بالبيت عريان، ومن كان له عند الرسول عهد فهو إلى مدته.

قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حُنيف عن أبي جعفر، محمد بن علي ـ رضوان الله عليه ـ أنه قال: لما نزلت «براءة» على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبابكر ـ رضى الله عنه ـ ليقيم للناس الحج، قيل له يا رسول الله، لو بعثت بها لأبي بكر! فقال: «لايؤدي عني إلّا رجل من أهل بيتي»، ثم دعا علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال له: «اخرج بهذه القطعة من صَدر براءة، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمِنى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولايحجّ بعد العام مشرك، ولايطوف بالبيت عريان.. ومن كان له عند رسول الله عهد فَهو له إلى مدته» فخرج علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ على ناقة رسول الله ﷺ «العصباء» حتى أدرك أبابكر بالطريق، فلما رآه أبوبكر بالطريق قال: أمير، أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبوبكر للناس الحج، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ فأذّن في الناس بالذي أمر به رسول الله ﷺ»(١).

والملاحظ هو فيقول رسول الله ﷺ: **«لا يؤدي عني إلّا رجل من أهل بيتي»** فان ذلك يعني أن العهود والمواثيق التي يعقدها الرسول ﷺ هي مما يُحسب في ذمة الشخص

البغدادي ١٤: ٢٣٦، وتفسير الطبري ٣: ٤٢٨، الاستيعاب، ابن عبد البر ٢: ٤٧٣، الرياض النضرة، محب الدين الطبري ٢: ١٦٩، مناقب الخوارزمي: ٩٤، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢٥، ذخائر العقبى للمحب الطبري: ٦٧، كفاية الطالب، الحافظ الكنجي الشافعي: ١٤، تفسير الفخر الرازي ٣: ٦٣٦، تفسير النيسابوري ٦: ١٩٤، نظم درر السمطين لجمال الدين الزرندي :٧٧، ٩٥، ١٠٩، ١١٢، الجامع الصغير ٢: ٥٥٥. (المحقق)

١ ـ ابن هشام السيرة. (المؤلف) سيرة النبي، ابن هشام الحميري ٤: ٩٧٢، وانظر ايضاً فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٣: ٢٦٥، الدر المنثور، جلال الدين السيوطي ٣: ٢٠٩، الفصول في الأصول، الجصاص ٢: ١١٧. (المحقق)

يتولاها المرء بنفسه، أومن هو بمنزلة نفسه، ولهذا كان انتداب أحد من أهل بيت الرسول أمراً لازماً في هذا الأمر، إذا لم يكن الرسول نفسه هو الذي يقوم به(١).

وذلك أن هذه العهود كانت بين الرسول وبين بعض القبائل التي لم تكن قد دخلت الإسلام. وقد تخيّر النبي لذلك خير أهل بيته، ليؤدي عنه ما كان عليه أن يؤديه هو بنفسه.

وقد يسأل سائل: لماذا كان هذا الموقف بالذات هو الذي يقوم فيه النبي بنفسه وشخصه، أومن هو كنفسه(٢)، وكشخصه، وقد كان الرسول يبعث بأصحابه، مبشرين

---

١ ـ وفي حديث الرسول صلى الله عليه وآله «لا يؤدّي عنّي إلّا علي».
وذكر أهل السيّر والمؤرخون إن النبيّ صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر يحج بالناس سنة تسعة من الهجرة، وقال له: «ان المشركين يحضرون الموسم ويطوفون بالبيت عُراة ولا أحب أن أحجّ حتى لا يكون ذلك» وأعطاه أربعين آية من صدر سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم، فلما سار أبا بكر دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام علي عليه السلام وقال له: «أخرج بهذه الآيات من صدر براءة وآذن بها إذا اجتمع الناس في الموسم» ودفع إليه ناقته العضباء ـ والعصباء على رواية ـ . فذهب علي عليه السلام وأدرك أبا بكر في الطريق في قرية «بذي الحليفة» ـ وهي قرية تبعد ستة أميال أو سبعة عن المدينة ـ فأخذ منه الآيات، ورجع أبو بكر الى الرسول صلى الله عليه وآله فقال له: بأبي وأمي، هل نزل فيّ شيء؟ فقال صلى الله عليه وآله : لا، ولكن لا يبلّغ عنّي غيري» وفي رواية «أو رجل مني».
انظر مسند أحمد بن حنبل ١: ١٥٠ ـ ١٥١، طبقات ابن سعد ٢: ١٦٨، السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٨٨، مناقب الخوازمي: ١٦٤، ذخائر العقبى: ٦٩ والرياض النضرة ٢: ١١٨، سنن الترمذي ٥: ٢٧٥، الكامل لابن الأثير ٢: ١٩١، تفسير فرات الكوفي: ١٥٨ ـ ١٦٢، شواهد التنزيل للحسكاني ١: ٣٠٥، خصائص النسائي: ١٤٤، الدر المنثور للسيوطي ٤: ١٢٢، تفسير القرطبي ٨: ٦٧، تفسير البغوي ٢: ٢٦٧، تفسير ابن كثير ٢: ٣٣٣، تفسير الطبري ١٠: ٤٤، تفسير البيضاوي ١: ٣٩٤، تفسير الرازي ١٥: ٢١٨، تاريخ ابن كثير ٥: ٣٣، مجمع الزوائد ٧: ٢٩، فتح الباري لابن حجر ٨: ٣١٨، شرح صحيح البخاري ١٨: ٢٦٠، السنن الكبرى للبيهقي ٩: ٢٢٤، سنن الدارمي ٢: ٦٦، تاريخ الخميس ٢: ١٤١، أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ١٥٤، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٢: ٣٧٦، احقاق الحق ٣: ٤٢٨ ـ ٤٣٨، الغدير للأميني ٦: ٣٣٨، العمدة لابن البطريق: ١٦٠. (المحقق)

٢ ـ انظر الأمالي للصدوق: ٦١٨، تحف العقول، ابن شعبة الحراني: ٤٢٩، المحتضر لحسن بن

ومنذرين، ومبلّغين رسالته، إلى القبائل. فَلِمَ هذا الموقف بالذات؛ لا يرضى فيه النبي إلّا أن يكون مبعوثه واحداً من أهله؟

والجواب هو أن النبيﷺ كان قد عقد مع أقوام عهوداً ومواثيق، وهو ضامن في صحبه لتلك العهود وهذه المواثيق، لا باعتبار أنه نبي، بل على أنه عربي في مواجهة عربي. إذ لم يكن المشركون يتعاملون مع النبي باعتبار أنه نبي، وانما على أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

«وإذن فهذه العقود التي بين النبي وبين مشركي قريش، كانت عقوداً شخصية، في ذمّته هو أولاً وقبل كل شيء، وعلى هذا فان من تعاقدوا مع النبي من المشركين، لا يرضون أن يُحلّهم من هذه العقود إلّا من كان طرفاً معهم في عقدها، أومن يقوم مقامه من خاصة أهله، فاذا جاء ابوبكر أوغيره من صحابة رسول اللهﷺ، يعلن قبيلة أوجماعة أوفرداً من المشركين، يحلّ العقد الذي عقده الرسول، فانما يكون ذلك باعتبار أنه واحد في الجماعة الإسلامية، التي تؤمن برسالة محمد وتدين له بالولاء والطاعة.

والمشركون لا يعترفون بهذا، إذ لم يتعاقدوا مع محمد بصفته تلك التي يجتمع عليها المسلمون حوله. ولهذا كان قول رسول اللهﷺ في هذا الموقف **«لا يؤدي عني إلّا رجل من أهل بيتي»** انما هو وضع للأمر في موضعه الصحيح، الذي لا يقبل غيره في هذا الموقف.

سليمان الحلي: ٥٦، بحار الأنوار للمجلسي ٢١: ٢٨٢ و ٢٨٣، ٢٥: ٢٢٤، كتاب الأربعين، الماحوزي: ٢٣٨، الغدير، العلامة الأميني ١: ٣٩٤، مطالب السؤول لابن ابي طلحة الشافعي: ٧، مسند الإمام الرضاعليه السلام، عزيز الله عطاردي ٢: ١١٦، المباهلة، عبد الله الحسيني: ٩٢، تفسير الفخر الرازي ٨: ٩٠ (ط دار الفكر ـ بيروت)، تفسير الصافي، الفيض الكاشاني ١: ٣٤٣، تفسير كنز الدقائق، الميرزا محمد المشهدي ٢: ١١٣، تفسير الميزان، الطباطبائي ٣: ٢٢٩، بشارة المصطفى، محمد بن على الطبري: ٣٥٢، ينابيع المودة، القندوزي ١: ٤٣، والتاج الجامع للأصول، ناصف ٣: ٣٣٤، تاريخ الخلفاء، السيوطي: ١٦٩، نشأة التشيع والشيعة، محمد باقر الصدر: ١٢٢، وذكر الترمذي في صحيحه قال الرسولﷺ: «إن علياً منّي وأنا منه» ٥: ٥٩٤. (المحقق)

وانظر ماذا يكون الحال، لو بعث النبي بشخص ليس من خاصة قرابته، فأبرم باسمه عقداً، ثم ارتدَّ هذا الشخص عن الإسلام، وأصبح في جماعة المشركين، وهذا أمرٌ ليس بعيد الوقوع، إذ ارتدَّ بعض المسلمين في عهد النبي، كعبد الله بن أبي السرح، الذي كان يكتب الوحي مع من يكتبون للنبي، فمن يحمل تبعة هذا العمل؟ ان لهذا المتعاقد باسم النبي أن يحل نفسه من كل إلتزام.. لأنه تعاقد بصفة قد زالت عنه بارتداده.

والأمر يقع على غير هذا تماماً، لو أن شخص المتعاقد باسم النبي من أهله خاصة، ثم ارتدَّ مشركاً.. انه في تلك الحال ضامن الوفاء بما تعاقد عليه، باعتباره عصبيّة محمد، وليس لمحمد ولا لعصبية محمد أن تحل نفسها من هذا العقد»[1].

«هذا ويلاحظ أننا في هذا التقدير انما ننظر إلى أمرين:

أولهما: الطرف الآخر، من طرفي العقد، وهو طرف المشركين الذين لا يعترفون بالاسلام، ولا يقرّون الرابطة التي تجمع المسلمين بعضهم ببعض، ثم تضيفهم جميعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

وثانيهما: الأمة العربية وما كانت تخضع له يومذاك من أحكام العصبية والتزاماتها. ولعلنا نستحضر هنا موقف بني هاشم جميعاً، مسلمهم ومشركهم في المقاطعة التي فرضتها قريش عليهم، كسلاح من الأسلحة التي تُحارب بها محمداً، ودعوة محمد»[2].

وقد استمر الاصطفاء الروحي ـ الأخوي أكثر من ثلاثين عاماً، عاشها علي بن أبي

١ ـ عبد الكريم الخطيب، علي بن أبي طالب... (المؤلف)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

وربما يعتقد القارئ أن المؤلف بحث مسألة بعث علي عليه السلام دون أبي بكر، من جانب اجتماعي محض، وقد يتوارد إلى الذهن أيضاً أن المؤلف قد غفل عن هذا الأمر كونه أمراً إلهياً!! والحق نرى أن المؤلف استغرق في هذا التفسير وفق استحضاره لحديث الرسول وواقعية البحث الإلهي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وعلى ما يبدو أن المؤلف حاول توضيح صورة الواقع بين ما يتناصفه المسلمون والمشركون على حدٍ سواء. لغرض إحاطة القارئ بواقعية الصورة وشدة المحنة التي واجهة الرسالة في بادئ أمرها. (المحقق)

طالب بتمامها في فلك الرسول، وفي اصطفائه، وتربيته، وتدريبه، واعداده، فكانت حياته منذ البدء، في حجر النبوة، وكانت آخر لحظة في حياة النبي ـ قبل اللحد ـ قد قبضت، ورأس (النبي) على صدر علي[1].

فكأن الاصطفاء أبى إلاّ أن يتم أعظم صفحاته، في التسليم الأخوي المطلق لعلي بن أبي طالب لنداء الاِصطفاء التأريخي.

ألم يكن الاصطفاء، والاستجابة متلازمين، فكان الاِصطفاء دعوة ونداء، وكانت الاستجابة امتثالاً مثالياً فريداً؟!

وهكذا تولى علي بن أبي طالب غسل الجسد الطاهر للرسول، ووضع جثمانه على فراشه على شفة القبر في الحجرة النبوية[2].

وحين ووري الجثمان الطاهر التراب، وأصبح الواقع المرّ، واقع موت النبي، حقيقة، أحسّ علي بن أبي طالب ـ وهو يفقد حبيبه ـ كم أن الوحدة الدامية الهائلة، قد تتمّ هكذا في لحظة أو لحظات.

كان النبي العظيم يملأ قلبه، وعقله، ووجدانه، وحياته بسعادة العيش في كنف النبوة، والأخوة، والجلال الذي كان ينشىء فوق غبراء جزيرة العرب، وفي غبراء نفوس المشركين جمالاً يعطي للحياة معناها الصحيح.

وبوقتٍ فاصل، خاطف، يختفي الحضور النبوي العملاق الذي ملأ الأجواء، كلها: أجواء النفوس، وأجواء الجزيرة، ويُوارى ـ هكذا وبكل سرعة! ـ تحت التراب، وكأن الفقدان سهل، وأسهل من السهل، في عرف قانون الحياة العضوية.

---

١ ـ نهج البلاغة محمد عبده ٢: ١٧٢. (المحقق).

٢ ـ جواهر الكلام، الشيخ الجوهري ١٢: ١٠٣، الوسائل باب ٢ حديث ١٤، مستمسك العروة الوثقى، السيد محسن الحكيم ٤: ١٣٧، مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ٢: ٤٩٤، بحار الأنوار، المجلسي ٢٢: ٥٢٧ و٧٨: ٣٧٤، البداية والنهاية، ابن كثير ٥: ٢٨٢، سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي ١٢: ٣٢٣، البيهقي في الدلائل ٧: ٢٤٩، نهج السعادة، الشيخ المحمودي ١: ٣٣ . (المحقق)

لكنه ـ بالنسبة إلى علي كان يعني حلول الوحدة المحزنة، اللانهاية، لقد تشظت، وتطايرت الغبطة البديعةالتي كانت له هدية النبي في العلاقة الخالدة.

ولم تكن أقرب إلى نفس علي (قلبه وعقله) من كلماتها نفسها! فهو أمير الكلام، الذي تصنعه روح علي الصحيحة، ألم يكن يقول: «**وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ**»؟[1] تُرى ماذا قال واصفاً حزنه، وهو يُحدّق إلى القبر، بحزن من هجرته طلعة النبي التي عاقرها مصبحاً وممسياً طوال سنوات العمر؟

وبأية لغة، كان يُلبي ألم القلب، ومدركات العقل، في تعاسةلم تبارح النفس أبداً؟

خاطب ـ بكلمات ـ نبيّه الحبيب، المسجّى تحت التراب.

«**إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ، وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ**»[2].

كانت هذه خاتمة ثلاثين عاماً، ملأى ـ يومياً ـ بأخبار قصة طويلة وتفاصيلها، هي قصة إصطفاء نبي لصفيّة، وأخيه.

قصة علي بن أبي طالب الذي وضعه النبي في حجره وهو وليد[3]، فوضع هو النبي في قبره، وهو مقبوض إلى الله.

قال علي بن أبي طالب، في وصف البداية:

«**وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي**

---

١ ـ انظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٢٢٦، تحف العقول للحراني: ٧، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ١٢، ويكمل قوله عليه السلام واصفاً حقيقة الناس في كلّ زمان ومكان: «واعلموا رحمكم الله أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل». (المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة، محمد عبده ٣: ٢٢٤، مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ٢: ٤٤٥، بحار الأنوار للمجلسي ٨٢: ١٣٤ ح ١٨. (المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة، محمد عبده ٢: ١٥٧، العمدة، ابن البطريق: ٩، خلاصة عبقات الأنوار، حامد النقوي ٤: ٣٠٥، أمان الأمة من الاختلاف، لطف الله الصافي: ١٠٢. (المحقق)

فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وليدٌ يَضُمُّنِي إِلَىٰ صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ [أَنْ] كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ ٱلْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ ٱلْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ ٱتِّبَاعَ ٱلْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاَقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَىٰ نُورَ ٱلْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ»[١].

وقال في وصف الخاتمة:

«وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي.

وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَىٰ وَجْهِي.

وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ﷺ وَٱلْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَٱلأَفْنِيَةُ، مَلأٌ يُهْبِطُ، وَمَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ»[٢].

قام الإصطفاء ـ إذن ـ على أساس مادي وروحي، عائلي وديني، تأريخي ومبدئي، وهذا ما كان يقرُّ به الصحابة والتابعون.

وبوحي منه، كان عمر بن الخطاب، الذي كان أعظم أمانيه الدخول في سلك النسب النبوي، قد تقدم إلى علي بن أبي طالب يخطب منه ابنته أم كلثوم، فكلمات الرسول لا تزال تملأ جوانحه: «**كل نسب وسبب مُنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي. وكنتُ قد صحبته**

---

١ ـ علي بن أبيَ طالب: «نهج البلاغة»: (المؤلف).
نهج البلاغة، محمد عبده ٢: ١٥٧، شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي ١: ٢٧٠، مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٢٨، العمدة لابن البطريق: ١٠، شرح مئة حكمة لابن ميثم البحراني: ٢٢٠، والطرائف، ابن طاووس الحسني: ٤١٤، وبحار الأنوار ١٤: ٤٧٥ و ٣٢: ١٧. (المحقق)
٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

فأحببت أن يكون لي هذا أيضاً»[١].

كان عمر بن الخطاب خليفة المسلمين، والرجل الأكثر شهرة، والأقوى سطوة في زمانه، إلّا أن أمنيته القديمة، لا تزال أقوى من كل رغباته الأخرى، تلك هي أمنية مصاهرة الرسول، والتي لم تتحقق حينذاك.

فكانت مصاهرة علي بن أبي طالب، مصاهرة للرسول، وهكذا قال فرحاً، بعد أن تحقّقت الرغبة العتيدة:

«رفئوني ... رفئوني».

ـ بمن يا أمير المؤمنين؟

ـ بابنة علي بن أبي طالب.

فما كانت تغيب عن نظر الخليفة العادل عمر بن الخطاب استمرارية النسب النبوي والسبب النبوي، في علي بن أبي طالب وذرّيته[٢].

---

١ ـ انظر تاريخ اليعقوبي ٢: ١٤٩، الطبقات الكبرى، ابن سعد ٨: ٤٦٣. (المحقق)

٢ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ٨: ٤٦٣، وهذه الرواية فيها أقوال، منها أربعة أقوال قالت بها الشيعة:

١. عدم وقوع التزويج، وهذا ما ذهب إليه الشيخ المفيد في المسائل السرورية (المسألة العاشرة) وكذا في المسائل العكبرية (المسألة الخامسة عشر) والسيد مير ناصر حسين واللكهنوي الهندي في كتابه (افحام الاعداء والخصوم بتكذيب ما افتروه على سيدتنا أم كلثوم) والشيخ محمد جواد البلاغي في كتابه (تزويج أم كلثوم بنت أمير المؤمنين وانكار وقوعه).

٢. وقوع التزويج لكنه كان على إكراه، وهذا ما قال به المرتضى في الشافي ٣: ٢٧٢ وتلخيص الشافي ٢: ١٦٠ للطوسي، وتنزيه الانبياء: ١٩١ وغيرهم.

٣. ان المتزوج منها هي ربيبة الامام لا أبنته. أي أنها ابنة اسماء بنت عميس زوجة الامام علي عليه السلام أي أنها بنت أبي‌بكر. انظر الشيخ النقدي في الانوار العلوية: ٤٢٦ وإحقاق الحق ٢: ٣٧٦ و ٣: ٣١٥.

٤. ان عليّاً زوّج عمر جنّيه تشبه أم كلثوم، انظر الخرائج والجرائح للقطب الراوندي ٢: ٨٢٥ ـ ٨٢٧ (ونراه قول لا اعتبار له)... ومن الأقوال الأخرى.

٥. انكار وجود بنت لعلي اسمها أم كلثوم، وقد ذهب إلى هذا القول جمع من أهل السنة والشيعة، ↩

وريث العلم النبوي

انّ رفقة علي بن أبي طالب لابن عمّه رفقة خالدة، من نمط نادر، ذلك لأنّها الرفقة التامّة التي إنصهرت فيها مختلف أشكال العلاقة. فثمة أنواع وأشكال من الرفقة التي تمثّلها طُرُز منوّعه من العلاقات، منها الرفقة السياسية[1]، والرفقة

انظر السنن الكبرى للبيهقي ٧: ١٦٧، وفتح الباري ٩: ١٢٧ وتهذيب التهذيب ٨: ٣٢٤ ومن الشيعة الشيخ المامقاني في تنقيح المقال ط قديمة ٣: ٧٣ وعبد الرزاق المقرّم فيكتابه السيدة سكينة: ٣٨.

٦. ان أم كلثوم لم تكن من بنات فاطمة بنت محمد ﷺ بل كانت من أم ولد، وقد اجمع على ذلك بعض علماء السنة والشعية انظر مواليد الأئمة: ١٥ ونور الأبصار: ١٠٣ ونهاية الإرب ٢٠: ٢٢٣.

٧. والقول بتزويجها من عمر، لكن عمر مات ولم يدخل بها. وهذا ايضاً ما أجمع عليه بعض علماء الفريقين، انظر البحار ٤٢: ٩١، ومناقب آل أبي طالب ٣: ٨٩ والأنوار العلوية: ٤٣٥.

٨. والقول أن عمر تزوج بأم كلثوم ودخل بها وأولدها زيداً ورقية، وهذا هو القول المشهور عند أهل السنة والجماعة.

وللمزيد من التفصيل انظر كتاب (زواج أم كلثوم) قراءة في النصوص للسيد علي الشهرستاني، اصدار مركز الابحاث العقائدية، وإنّه من الدراسات العلمية الأكاديمية الموضوعية التي تُلزم الباحث معرفة خلفيات هذا التناقض الروائي، وقد قدّم الكاتب قراءة رائعة في مجمل النصوص وفق ثلاث محاور:

١ ـ الجانب التاريخي ٢ ـ الجانب الفقهي ٣ ـ الجانب العقائدي.

وجاءت الدراسة بكامل الموضوعية ـ في طبعتها الثانية ـ ودون التخندق إلى أحد الفريقين أو ما يعتقده البعض من إثارات طائفية بغيضة، حتى ان الكاتب نفسه لم ينتهي إلى القول الفصل في تبني أحد هذه الأقوال الثمان، وينتهي بالقول: «فالقضية من البدء إلى الختام محل نقض وإبرام ويحتاج إلى وقت كثير للخروج بنتيجة». (المحقق)

١ ـ هاجر الرسول إلى المدينة، فاختار علياً يبيت في فراشه، مسند أحمد ٥: ٢٦.

بعث رسول الله أبا بكر بسورة براءة أميراً على الحج، ثم بعث خلفه علياً فأخذها منه فعاد أبوبكر النبي ﷺ وقال: أحدث فيّ شيء، يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «لا، ولكني أُمرتُ ألا يبلّغ عنّي إلا أنا أو رجل منّي!»

انظر مسند أحمد ١: ٣، سنن الترمذي ٥ ح / ٣٧١٩، سنن النسائي ٥ ح / ٨٤٦١، الخصائص /

العسكرية[١]، والرفقة الأيديولوجية[٢]. وثمة علاقة الأب بالابن[٣] والأستاذ بالتلميذ، والقائد بالجندي، الخ.

ومن العلاقات ما هو طويل الأمد، وما هو قصير.

ولكن علاقة علي بن أبي طالب بالنبي الكريم كانت جامعة، شاملة، متنوعة، غنية، متكرسة، ومتعمقة في التجربة.

وإذا كان المسار المحمدي تطبيقاً حيّوياً لتلك العلاقة بين الأفكار والواقع، في الحرب والسلم، في سرّية الدعوة الإسلامية، وفي بدء علانيتها، في الهجرة إلى يثرب،

بتخريج الأثري ح / ٢٣، ٧٢، ٧٣، وصحّحها جميعاً، البداية والنهاية ٧: ٣٧٤، ٣٩٤، تفسير الطبري ١٠: ٤٦، كتاب الأموال: ٢١٥ ح / ٤٥٧. (المحقق)

١ ـ في سائر حروب الرسول صلى الله عليه وآله كان لواؤه صلى الله عليه وآله أو راية المهاجرين بيد علي عليه السلام. انظر تاريخ الإسلام للذهبي ـ الخلفاء الراشدين: ٦٢٥، الاصابة للعسقلاني ٢: ٣٠.

ويذكر ابن أبي شيبة في مصنّفه: وفي خيبر بعث الرسول أبا بكر بالراية، فرجع ولم يصنع شيئاً، فبعث بها عمر، فرجع ولم يصنع شيئاً، فقال: «لأعطين الرايه رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، لا يخزيه الله أبداً، ولا يرجع حتى يفتح عليه» فدعا علياً ودفع إليه الراية ودعا له، فكان الفتح على يديه. انظر المصنّف لابن أبي شيبة ج٧ ـ فضائل علي ـ ح١٧، سنن النسائي ٥ ح / ٨٤٠٢، الخصائص / بتخريج الأثري ح / ١٤، المستدرك ٣: ٣٧، سيرة ابن هاشم ٣: ٢١٦، تاريخ الطبري ٣: ١٢، الكامل في التاريخ ٢: ٢١٩، البداية والنهاية ٧: ٣٧٣. (المحقق)

٢ ـ اصطفى الرسول صلى الله عليه وآله علياً لنفسه فقال: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» أو «أنت أخي وأنا أخوك» انظر مسند أحمد ١: ٢٣٠، سنن الترمذي ٥ ح / ٣٧٢٠، مصابيح السنّة ٤ ح / ٤٧٦٩، الطبقات الكبرى ٣: ٢٢، البداية والنهاية ٧: ٣٧١، دلائل النبوة / البيهقي ٤: ٢٠٩.

وأيضاً يوم أنذر عشيرته الأقربين، رفع شأن علي عليهم جميعاً، وخصّه بمنزلة لا يشركه فيها غيره، وهو ما يسمى بحديث الدار، وكان حينها يتطابق علي مع الرسول في كلّ ما يُبلّغه بأمر الرسالة، واستمر حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وآله. (المحقق)

٣ ـ يقول علي عليه السلام: «وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره.. وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلةً في فِعل، ولقد كنت اتّبعه اتّباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به. انظر نهج البلاغة، شرح صحبي الصالح ـ خطبة ١٩٢.

وفي بناء دويلة المدينة، في فتح مكة، وفي الفتح الإسلامي الأوسع، فإن (علي بن أبي طالب) كان في كل ذلك الأخ، والرفيق، والابن، والتلميذ، الذي عاش تفاصيل التجربة الإسلامية، مغترفاً من الفكر الإسلامي أصوله البكر، قبل سواه.

ذلك لأن الوحي القرآني الهادي، والحديث النبوي، هما كنز المعرفة الإسلامية ومنهله الغزير العطاء. وقد تجسدا في المعرفة النبوية تجسّداً خلاقاً كانت الثورة الإسلامية الجذرية والشاملة، المعطى المباشر له.

ان صلة علي بن أبي طالب التامة بنبيّه العظيم كانت صلة روحية تامة، وصلة فكر ثرّ، متجذّر في التجربة. بمعنى أن أفكار علي بن أبي طالب التي اكتسبت غناها المتجدد في حضرة الفكر النبوي لم تكن أفكاراً نظرية، وتأملات، بل هي فلسفة واسعة ذات بُعدين متكاملين: البعد النظري والبعد التطبيقي.

إن أكثر من ثلاثين عاماً لنشأة علي بن أبي طالب تحت وهج الأنوار المحمدية تعني ما تعني من اصطفاء الرسول لعلي بن أبي طالب اصطفاءً معرفياً، وكذلك تعني ما تعني من استقبال علي بن أبي طالب لذلك الإصطفاء بروح الفكر، والمعرفة. وفي واقع عرب الجاهلية، كان مقدّراً للمعرفة أن تلعب دوراً نادراً لايرقى إلى مستواه دور المعرفة في تغيير أوروبا. ذلك لأن أوروبا كانت ـ باقتصادها وبمدارسها، وبتنظيماتها العسكرية والاجتماعية ـ ذات مؤسسات وأوتاد وأركان مادية للتطور توفّر فرصاً واسعة للتأثير السريع.

في حين كانت البيئة الجاهلية متباينة أشد التباين في وتائرها الاقتصادية والاجتماعية، في اطار عام للتخلّف، والتباعد، والتشرذم، يصعب توحيدها في ظل غياب القاعدة المادية والاجتماعية للتطور القومي الموحد.

فكان للمعرفة الدور المعقد، والمسؤولية المضاعفة، التي تعوّض بنفسها من غياب العوامل الضرورية للتطور العربي، ولم تكن للمعرفة أوعية وأدوات منظّمة، بل كانت تفاعلاً بين الناس غير مجهّز بشروط مشجّعة.

لذلك كانت المعرفة النبوية تصل إلى العرب عبر كلمات الرسول صلى الله عليه وآله، فكانت فعلاً قوياً مباشراً، فيما يكسبه من أنصار، وفيما يثيره ويستثيره من عداوة، أي أن المعرفة اختطت طرقها في التجربة، من أجل أن تدخل في الواقع كواقع أقوى، يهدف إلى التغيير الإسلامي للواقع.

ومن خلال تلك العلاقة الجدلية الخصبة، كان الواقع والمعرفة يقدمان ـ في التجربة ـ تطويرات فذة متلاحقة، ذات فوائد جمّة.

وقد نبّه علي بن أبي طالب على ذلك في كتاب له إلى أبي موسى الأشعري قال فيه: «فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ»[1].

بمثل تلك الأهمية القصوى للمعرفة، كانت لوامع المعرفة المحمدية، التي قلبت الواقع الجاهلي، وأنشأت منه الواقع الإسلامي الزاهر، تصل إلى علي بن أبي طالب، أولاً بأول، فقد أفرغ الرسول معرفته النبوية، وأفكاره، وثمار تجربية المدهشة في أذن علي، ورأسه.

لذلك، ما كان يُجانب الصدق شعرة وهو يقول مخاطباً جمعاً من الناس:

«فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا نَبَّأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا.... وَٱللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلٰكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله.

أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى ٱلْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذٰلِكَ مِنْهُ.

وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَٱصْطَفَاهُ عَلَى ٱلْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذٰلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ، وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَهُ

---

١ ـ نهج البلاغة، شرح محمد عبده ٣:٣٧١، شرح نهج البلاغة ١٨: ٧٤، بحار الأنوار ٣٣: ٣٠٤، ميزان الحكمة ٢: ١٤٧٨ و ٣: ٢٠٤٢، (المحقق).

فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَىٰ بِهِ إِلَيَّ»[١].

ولم يكن تسلُّمُه المعرفة عن النبي الكريم تسلُّم الساكت، بل كان يسأل ويستفسر عن كُلّ شيء، كي تتبلور الأفكار في ذهنه، وتحفظها ذاكرته حفظ استرشاد ومسؤولية، وأمانة:

ولقد قال في ذلك:

«... وليس كل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ من كان يسأله ويستفهمه... وكان لا يمرّ بي من ذلك شيء إلّا سألته وحفظته»[٢].

---

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف) وانظر نهج البلاغة، شرح محمد عبده (طبعة قديمة) ١: ٣٤٥ و٣٤٦، بحار الأنوار ٤٠: ١٩١، مستدرك سفينة البحار، علي النمازي ٨: ٤٩، لمحات، لطف الله الصافي: ١٤٤. (المحقق)

٢ ـ شرح نهج البلاغة ١١: ٣٩، مجموعة الرسائل، لطف الله الصافي ٢: ٩٠. (المحقق)

الفصل الثالث

■ شجاعة علي عليه السلام :

البدء المتطابق

جاء إلى الدنيا، منذ البدء متطابقاً في الولادة المنذورة لله ولرسوله، بالحق.

والبداية بذرة، تتكوّن شجرتها الآتية من جوهرها الخفيّ. وكانت بذرة علي، بذرة وحدة الصفات النبيلة المتّحدة في جبلة الطبيعة. بذلك نطقت المفاجأة التي شهدها البيت العتيق، والفترة التالية.

وللبذرة قرار عميق، لا يمكن لطبيعة الشيء أن تنشأ خارجه. فقد يكون ضعيف البنية قادراً ـ فيما بعد ـ على تعهّد جسده بالرياضة حتى تقوى بنيته، لكنما السمات النبيلة هي في عمق الطبيعة والطبع، وليست صفات خارجية، وهي سمات تتصل بالبذرة، وبالأصل، وبالأصول القريبة والبعيدة.

ليس معنى ذلك أن اكتساب العادات النبيلة لا طائل من ورائه، أوأنه أمر غير ممكن، وإنما معناه أن أصالة الطبع أقوى من الاكتساب. وأية تربية لا تنشأ على أصالة أصل، فإنها قشرة خارجية في أحسن حالاتها.

لذلك لم يكن جميع الذين أسلموا مؤمنين، ولم يُحافظ جميع الذين أسلموا على جوهر الإسلام، فمنهم من ارتدّ ارتداداً مكشوفاً، ومنهم من كانت ردّتُه خفية، أوحتى لا شعورية.

مع أن الإسلام، في زمن الابتداء، كان ذروة التربية، وثورة التربية. فالأصول تأخذ مجراها في خط سير السلوك، أوأنها تتسرب هنا، وهناك، لتنشر بعض ملامحها، وعدداً من فعالها. ليس ذلك إقراراً نهائياً بسيطرة الأصول، لكنما هو تقرير بواقع التأثر الظاهري والباطني بضغط الأصول.

ولا بدّ أن تكون التجربة التربوية شديدة القوة، بحيث تطغى على سلطة الأصول،

فتنشيء المبتدأ الجديد، للأصل الجديد.

لذلك، فإن الضعف والقوة ليساكالجبن والشجاعة. فالأولان يتّصلان بالاكتساب، أما الآخران فيرجعان إلى الأصول وإلى التمرس الذي يحمي الأصول.

ولا بُدّ من التوضيح بأن الأصل المعطى في نمو الانسان منذ البداية، هو أصل فردي وجماعي في الآن نفسه. فهو ذاتي من خلال السمات الحقيقة للإنسان، في نموه الأول. وهو جماعي، من خلال وراثة الانسان بعض خصائص الأبوين والأسلاف. وتبثّ الإرادة الإلهية خارج هذا وذاك (خارج الأصل الذاتي، والجماعي) قبسها هنا، أوهناك، في بدء الانسان، أوفي وقت آخر من عمره، فيكون التجلي العادل انبثاقاً مثل المعجزة.

امتلك علي بن أبي طالب، الذاتي والموضوعي، والعامل الوراثي في نشوء جبلة الشجاعة، والبذرة الأولى لها. وكل ذلك محوط بالقبس الإلهي، والنعمة الإلهية الظاهرة، في كنف الأنوار المحمدية.

كانت أصول علي بن أبي طالب، المثبتة، في وحدة الفضائل الفكرية والروحية، ترتكز ـ جميعاً ـ على الشجاعة، التي هي (الأسُّ) الواحد، والمتين، لجميع مزاياه المتعددة.

في البداية، كان التطابق الذاتي مع النفس، مثل كتلة واحدة منصهرة في الإيمان الإسلامي، فكانت شجاعة النفس مثاله الأول، الذي انطلق منه في دروب الحياة والموت، في شجاعة متكاملة، موصوفة.

وعلى الطريق القاسي، بعد تأديته الأمانات إلى أهلها، والتوجّه نحو يثرب[1]، رأى أن النفس الشجاعة هي التي تقدر على نفسها، وقد قدر عليها فعلاً، منذ أن برأها،

---

١ ـ بعد اشتداد الأزمة بين الرسول صلى الله عليه وآله ومشركي قريش، هاجر الرسول إلى المدينة وترك علي عليه السلام ان يبيت على فراشه ويؤدي الأمانات إلى أهلها ثمّ يلحقه مع سائر النسوة من بني هاشم. انظر الخلاف للطوسي: ٥٩٤. (المحقق)

وكرّمها من رؤية الصنم، ومن ذكره.

ورغم صغر عمره، كانت نفسه كبيرة، تكبر في العقيدة وفي الكفاح من أجل العقيدة، وكان (النبي) ينتظره بحنان!

ولم تترك له شجاعة النفس مجالاً زمنياً واسعاً للتدرب على القتال، إذ دهمت المعارك الإسلام، سريعاً، فدخل علي بن أبي طالب معركة (بدر)[1]، قبل أن يأخذ من الزمن عدّته للتمرين والممارسة.

لقد دخل أول معركة خطيرة بين الشرك والإسلام وهو فتى، فكأن ولادته العجيبة في (الكعبة) حكمت عليه بأن يظل ابن المعجِبات![2]

ولادة ثانية في ظل السيف

في معركة بدر، وُلدت شجاعة السيف، وكان السيف أداة الاضطرار في دفاع المسلمين عن النبوة والإسلام.

ولم يكن انتداب الرسول ـ ليلة بدر ـ علياً من أجل الماء، إلّا عرفاناً بشجاعة علي في الملمّات، حتى اذا ما حلّ صباح المعركة، كان المشركون من قريش ينادون الأنداد، من قريش نفسها، لأن معقال الكفر والوثنية تكره أشد الكراهية الثائرين من داخلها، ولا

---

١ ـ وقعت معركة بدر صبيحة الجمعة السابع عشر من رمضان الخير بعد ثمانية عشر شهراً من الهجرة.
انظر الخلاف للطوسي ١: ٤٠٥. النسخة المحققة لمؤسسة النشر الإسلامي من هامش رقم ١ من الجزء الأوّل: ٤٠٥ والمأخوذ عن الإصابة ١: ٤٢٢ و ٣: ٣٣، السيرة النبوية ٢: ٣٧٧ و٣٦٤ والطبقات الكبرى ٣: ١٦٧ و ٥٣٤، نهاية الإرب ١٧: ٤٤، الروض الأنف ٥: ٢٩٨ وشرح النووي لصحيح مسلم ٣: ٢٤٠ ـ ٢٤٧. (المحقق)

٢ ـ كشف الغطاء، الشيخ جعفر كاشف الغطاء ١: ١٢، خصائص الأئمّة، الشريف الرضي : ٣٩، روضة الواعظين : ٨١، مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب ٢: ٤٥، حلية الأبرار ١: ٢٣٠، الحافظ الكنجي في كفايته : ٢٦١ (كفاية الطالب)، السيرة الحلبية ١: ١٣٩، شرح مسلم، النووي ٢: ١٤٢، شرح النهج ١: ١٤ والغدير ٦: ٢٢. (المحقق)

تحسب للثائرين من قبائل أخرى حساباً بمستوى تلك الكراهية.

ولم يتوانَ النبي العظيم، وكانت المعركة تجربة الحرب الأولى، إلاّ أن يدفع بأقربائه الخلصاء إلى ساحة القتال، رغم أن الأنصار كانوا في أتمّ الحماس والاستعداد للمنازلة[١].

استجاب علي بن أبي طالب مع عمه الحمزة أسد الله وأسد رسوله، ومعهما عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فتجندل في الجولة ثلاثة صرعى من كبار قريش هم عتبة وأخوه شيبة، وابنه الوليد.

وكان حكم السيف الهادر لعلي ـ دفاعاً عن الحق ـ قد صرع سبعة وعشرين من المشركين القرشيين[٢]، وحسمت المعركة لصالح الإسلام فزاد نفوذاً.

وفي تلك المعركة، التي بلغ قتلى المشركين فيها سبعين قتيلاً، وكان الأسرى سبعين[٣]، قال السيد الحميري في شجاعة علي بن أبي طالب:

أقسم بالله وآلائهِ والمرء عما قال مسؤولُ

ان علي بن أبي طالب على التقى والبرّ مجبولُ

كان اذا الحرب مرتها القنا وأحجمت عنها البهاليلُ

يمشي إلى القرن وفي كفه أبيضُ ماضي الحدّ مصقولُ

مشي العفرنا بين أشباله أبرزه للقنص الغيلُ

١ ـ في أغلب المعارك، كان الرسول يقدم علياً عليه السلام لأغلب المهمات الصعبة ففي معركة بدر كان علي عليه السلام صاحب الراية وقتل من صناديد المشركين من قتل وحدث ذلك يوم أحد وقال الطبري... ثم سمعوا صوتاً يهتف: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي» انظر الطبري ٢: ٢٥ و٦٥ ـ ٦٦ طبعة المكتبة العلمية ـ بيروت. (المحقق)

٢ ـ مناقب ابن شهر آشوب ٢:٣١٢، وعدهم المفيد في الارشاد (٣٥) مشركاً ١:٧٢ وعدهم الطبرسي في مجمع البيان بـ(سبعة وعشرين). (المحقق)

٣ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام «وقتلنا من المشركين سبعين وأسرنا سبعين»، انظر المناقب لابن شهرآشوب ٢:٣١٢. (المحقق)

ذاك الذي سلَّم في ليلة عليه ميكالُ وجبريلُ
ميكال في ألفٍ وجبريلُ في ألفٍ ويتلوهم سرافيلُ
ليلة بدرٍ مدداً أنزلوا كأنهم طيرٌ أبابيلُ[١]

وفي معركة (أُحد)، كان المتحدي من قريش طلحة بن أبي طلحة العبدري من بني عبد الدار الذي نادى: «**يا معشر محمد تزعمون أنكم تجهزوننا بأسيافكم إلى النار ونجهزكم بأسيافناالى الجنة، فمن شاء أن يلحق بجنته، فليبرز**»[٢].

فكان علي بن أبي طالب قد ردَّ على التحدي، فكان أن ضربه ضربة قاضية، وصرع أشقاءه واحداً بعد الآخر، فانهزم المشركون، حتى اذا ما أغرت الغنائم الرماة المسلمين، فغادروا مواقعهم، انقلبت المعركة لصالح المشركين، فانهزم الناس عن الرسول، إلّا قلة من المؤمنين البسلاء في المقدمة منهم علي بن أبي طالب، وكان الرسول في الغضب

---

١ ـ الأمالي للطوسي: ١٩٨، بشارة المصطفى، محمّد بن علي الطبري: ٩٥، كشف الغمة ٢: ١٩، بحار الأنوار للمجلسي ١٩: ٣٠٦. (المحقق)

٢ ـ برز له علي عليه‌السلام وهو يقول:

يا طلح ان كنتم كما تقول لكم خيول ولنا نصول
فاثبت لننظر أينا المقتول وأينا أولى بما تقول

انظر بحار الأنوار للمجلسي ٢٠: ٥٠، تفسير القمي ١: ١١٢، ويورد القمي هذين البيتين أيضاً، ويكملهما:

فقد أتاك الأسد الصؤول بصارمٍ ليس به فلول
ينصره القاهر والرسول

فأجابه طلحة: من أنت يا غلام؟
قال: أنا علي بن أبي طالب.
قال: قد علمت يا قضيم، انه لا يجسر عليّ أحد غيرك، وقد سئل الإمام الصادق عن معنى «قضيم» فقال عليه‌السلام: إن أمير المؤمنين عليه‌السلام كان يحمي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إذا تعرض له الصبيان وكان يقضمهم في وجوههم وآنافهم وآذانهم، فكانوا يرجعون إلى آبائهم ويقولون: قضمنا علي، قضمنا علي، فسمي «القضيم». انظر تفسير القمي ١: ١١٤ وحياة أمير المؤمنين عن لسانه ١: ١٥١، واليوسفي في موسوعة التأريخ الإسلامي ٢: ٢٧٦. (وهم من المتأخرين). (المحقق).

الشديد، فقال له:

ما لك لم تلحق ببني أبيك؟ فقال علي: يا رسول الله أكفرٌ بعد إيمان؟ إن لي بك أسوة! فقال له: أما الآن فاكفني هؤلاء.

وكان يقصد في ذلك المشركين المتدافعين من أجل قتل الرسول، فاستطاع علي بن أبي طالب دحرهم، وأصيب في تلك المعركة بتسعين جرحاً.

وفي تلك المعركة قيل: «**لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي**»[١].

كانت خسائر معركة بدر جمّة، فقد خسر المسلمون أسد الله الحمزة، وتعرّض النبي إلى محنة كبيرة بعد فرار الكثير من المسلمين، لذلك كانت قريش الظافرة، تتصوّر أنها انتقمت لنفسها، فكان أبو سفيان يقول: «**يوم بيوم بدر.. أعل هبل!.. أعل هبل!**»[٢].

لكن المؤمنين الصابرين صاحوا بصوت مدوٍ: «**الله أعلى وأجلّ ـ لا سواه! الله أعلى وأجلّ**».

وكان الانتصار النسبي للمشركين، قد حفزهم نحو المعركة الكبرى، معركة الخندق،

---

١ ـ أُنظر الطبري ٢: ٢٥ و ٦٥ ـ ٦٦ طبعة المكتبة العلمية ـ بيروت. شرح نهج البلاغة ١١: ٢١٧، ١٣: ٢٩٣، نظم درر السمطين: ١٢٠، تفسير مجمع البيان للطبرسي ٢: ٣٧٩، التفسير الصافي للفيض الكاشاني ١: ٣٧٧، تفسير نور الثقلين ٣: ٤٣٣، لسان الميزان لابن حجر ٤: ٤٠٦، مناقب الخوارزمي: ٣٠١، تاج العروس للزبيدي ٣: ٤٧٤، الكافي ٨: ١١٠، المسترشد: ٣٤٨، الارشاد للمفيد ١: ٨٤، الاحتجاج للطبرسي ١: ١٦٦، العمدة لابن البطريق: ٣٨٢، الطرائف لابن طاووس الحسني: ٤١٤، ذخائر العقبى: ٧٤، الجواهر السنية للحر العاملي: ٢٩٨، حلية الأبرار للبحراني ٢: ١٢٥، بحار الأنوار ٢٠: ٧٢، كتاب الأربعين للماحوزي: ٤٣٤، ومحمد باقر الصدر في نشأة التشيّع والشيعة تحقيق عبد الجبار شرارة: ١٢٧، الصحيح من السيرة ٦: ١٤٨ (المحقق)

٢ ـ الخصال للصدوق: ٣٩٧، مسند أحمد ١: ٤٦٣، صحيح البخاري ٤: ٢٧ / ٥: ٣٠، المستدرك ٢: ٢٩٧، مجمع الزوائد ٦: ١١١، مقدمة فتح الباري لابن حجر: ١٩٥، فتح الباري ٧: ٢٦٧، المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٤٩٢، الفائق في غريب الحديث لجار الله الزمخشري ٣: ٣٨٧، شرح نهج البلاغة ٦: ٢٩٠، بحار الأنوار للمجلسي ٢٠: ٢٣ و ٤٥ و ٥٦ و ٦٧ و ٩١، الغدير للأميني ٤: ٢٥٣ و ١٠: ٨٠. (المحقق)

بعد أن تحالفت قريش مع القبائل الأخرى، ومع اليهود، فكانت حملة الأحزاب ذات توقيت خطير[١]، تمَّ فيه استثمار النصر النسبي في معركة أحد لتهيئة أكبر تعبئة قتالية ضد المسلمين.

وفعلاً ضربوا الطوق حول المدينة، وكانت خطة المشركين جهنمية لولا أن كان (الخندق) أسلوباً جديداً في إحراج المهاجمين.

وكالعادة، ابتدأت المناوشات، ولكنها هذه المرة، من نوع آخر فقد عبر الخندق عمرو بن ود العامري كبير الشجعان، مُستولياً عليه الغضب، فلقد أثار الخندق سخطه، وقلب تقديراته التي حسب فيها أنه سيأكل المسلمين ـ بسيفه ـ أكلاً. لكن المانع الجديد، الخندق، قد استبدل السهولة الهجومية بصعوبة مفاجئة.

وحين عبر الخندق، كان هياجه شديداً، وكذلك غروره بعد انتصار العبور وتحدّي ظنون من يظن أنه غير قادر على العبور. فصاح:

ألا رجل يُبارز؟.

فتقدّم علي بن أبي طالب، قائلاً لرسول الله ﷺ: أنا له يا رسول الله.

فقال له الرسول ﷺ: انه عمرو.. اجلس!.

ونادى عمرو الثانية، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إبعاد علي بن أبي طالب عن سيف عمرو الفاتك.

كان علي يتوسّل رسول الله، السماح له بمبارزة عمرو، في حين كان عمرو تيّاهاً، فخوراً، متبجّحاً، متهجماً:

أين جنّتكم التي تزعمون أنكم داخلوها إذا قُتِلتم؟ أفلا يريدها أحد منكم؟» ثم نادى الثالثة، قائلاً:

---

١ ـ انظر تفسير الفخر الرازي ٨:١٥٧ ط ١ الخيرية ١٣٠٨ مصر، والكشاف للزمخشري ٤:٨١١ وذكر ذلك السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر في نشأة التشيع والشيعة: ٢٦ تحقيق عبد الجبّار شرارة. (المحقق)

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفتُ إذ جبن المشجع ... موقف البطل المناجز

إني كذلك لم أزل ... متسرعاً نحو الهزاهز

إن السماحة والشجا ... عة في الفتى خير الغرائز[1]

فقال علي:

أنا له يا رسول الله.. أيذن لي؟!.

انه عمرو...

وأنا علي بن أبي طالب!.

أذن له الرسول صلى الله عليه وآله، وألبسه درعه ذات الفضول، وعمّمه بيده، وودّعه بالدعاء «**اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه**»[2].

لقد فقد النبي عمّه الحمزة، وفقد عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وها هو علي بن أبي طالب يصرُّ على منازلة الضرغام الكبير عمرو بن ود.

فالله لكِ يا فاطمة، وأنت ترين علياً، الذي جاء من معركة أحد ممزّقاً بالجراح، يدخل الآن حلبة الموت، دفاعاً عن نبيّه ودينه.

---

١ ـ تفسير القمي ٢:١٨٣، موسوعة التأريخ الإسلامي ٢:٤٩٠، وفي مناقب الخوارزمي: ١٦٩ يذكر فيه رد علي عليه السلام رجزاً:

لا تعجلن فقد أتا ... ك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نية وبصيرة ... والصدق منجا كلّ فائز

اني لارجو أن أقيم ... عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ... ذكرها عند الهزائز

(المحقق)

٢ ـ الثقات لابن حبان ١:٢٦٨، الاصابة ٤:٦٠٢، الاعلام للزركلي ٥:٨١، المحبر لمحمّد بن حبيب البغدادي: ١٧٥، وذكر الطبرسي حواراً بين علي عليه السلام وعمرو بن عبد ود، انظر تأريخه ٢:٢٣٩، البداية والنهاية ٤:١٢٠، وتفسير القمي ٢:١٨٣، اعلام الورى بأعلام الهدى ١:١٩٢، مناقب الخوارزمي: ١٦٩. (المحقق)

كان حزن محمد حزناً لا شبيه له، فهو حزن على أخيه وصفيّه، وهو حزن فاطمة على بعلها، وهو حزن النبي القائد على مصير الشاب المقاتل.

وانفلت الحزن كله في نجواه:

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

«برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[2].

كان علي يحمل سيفاً تتقرّر به مصائر عظيمة فتقدم قائلاً:

لاتــعجلن فــقد أتــا ... ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نــيّة وبــصيرةٍ ... والصدق منجي كل فائز
انــي لأرجــو أن أقيم ... عــليك نــائحة الجــنائز
مــن ضــربةٍ نــجلاء يبقى ... ذكــرها عــند الهــزاهز[3]

ويندهش عمرو بن ود:

ـ ومن أنت؟

ـ علي؟!

ـ من عبد مناف؟

ـ ابن أبي طالب؟

فأخذت عمرو الشفقة:

ـ ابن أخي! كان أبوك صديقاً لي!

---

١ ـ سورة الأنبياء، آية: ٨٩. (المحقق)

٢ ـ مناقب أمير المؤمنين لمحمّد بن سليمان الكوفي ١:٢٢٣، كنز الفوائد: ١٣٧، الطرائف: ٣٥، شرح النهج ١٣: ٢٦١، البحار ٢٠:٢١٥، ارشاد القلوب ٢:١٤٤، شجرة طوبى ٢:٢٨٨، السقيفة للمظفر: ٦٢، مواقف الشيعة ٣:١٢٣. (المحقق)

٣ ـ مناقب الخوارزمي: ١٦٩، شرح الأخبار ١:٣٢٣، كنز الفوائد: ١٣٧، مناقب ابن شهرآشوب ٢:٣٢٥، بحار الأنوار ٢٠:٢٠٣ / و٣٩: ٥/ و٤١:٨٩، شجرة طوبى ٢:٢٨٨، المناظرات في الإمامة: ٣٤١، المستدرك ٣:٣٢. (المحقق)

ـ يا عمرو!

ـ أي ابن أخي!

ـ ان قريشاً تتحدّث عن أنك قلت: لا يدعوني أحد إلى ثلاث، إلّا أجبته الى واحد.

ـ نعم، هذا عهدي.

ـ اني أدعوك إلى الإسلام.

ـ دع هذه!

ـ فاني أدعوك إلى أن ترجع بمن يتبعك من قريش إلى مكة.

ـ تكفّ عني وأرجع؟ وتتحدث العرب بفراري!

ـ فاني أدعوك إلى البراز راجلاً.

ـ ولمَ يا ابن أخي؟ غيرك من أعمامك من هو أسنُّ منك، وانّي أكره أن أهريق دمك!

ـ ولكني والله لا أكره أن أهرق دمك!

يا للغضب، ما كان عمرو يظن أحداً من العرب يتحدّاه هكذا.. فكيف الأمر والمتحدي هذا الفتى؟!

ثم نزل، فعقر فرسه، ثم قصد علياً، وضربه علي بالسيف على رأسه، فقطع السيف الدرقة ووصل إلى الرأس. وبخفة هائلة ضربه علي ضربة عظيمة، وما انجلى الغبار إلّا وأصوات التهليل تشقّ الجوزاء[١].

---

١ ـ ولما قتل رثته أُمّه قائلةً:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... ما زلت أبكي عليه دائم الأبدِ

لكن قاتله من لا يقاد به ... من كان يدعى أبوه بيضة البلدِ

انظر ذيل تاريخ بغداد: ١٩٨، رسائل المرتضى ٤:١١٩، ويذكر فيه أنها أبنته مع تغيير في الألفاظ وبعض المعنى:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكنت أبكي عليه آخر الأبد

لكن قاتله من لا يعاب به ... وكان يدعى قديماً بيضة البلد

روافقه الشيخ المفيد في الفصول المختارة: ٢٩٢ والارشاد ١:١٠٨، والأمالي للمرتضى ٣:٩٥، ومناقب ابن شهرآشوب ١:١٧١. (المحقق)

كان النزال قد حسم فاتحة المعركة، وأصابت نتيجته المجيدة المشركين بالذعر، وقال ـ في ذلك ـ حذيفة بن اليمان:

«لو قسّمت فضيلة علي بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوَسِعَتهم!»[1].

وفي معرض الرد على القائلين بتهوين شأن عمرو بن ود ـ وبخاصة الجاحظ في الرسالة العثمانية ـ ذكر أبو جعفر الإسكافي تفنيد قول القائلين، أن أمر عمرو بن ودّ أشهر وأكثر من أن يُحتج له، فليتلمح كتب المغازي والسير، ولينظر ما رثته به شعراء قريش لما قُتل.. فمن ذلك قول سافع بن عبد مناف بن زهرة بن حذافة بن جمح، يبكي عمرو بن ودّ:

عمرو بن عَبدٍ كان أول فارسٍ جَزَعَ المُزار[2] وكان فارسَ مَليَلِ
سمحُ الخلائقِ ماجدٌ ذومِرَّةٍ يبغي القتال بشِكَةٍ لم ينكلِ
ولقد علمتُم حين وَلّوا عنكمُ أن ابنَ عبدٍ منهمُ لم يعجَلِ
سألَ النزال هناك فارسُ غالب بجنوبِ سَلعٍ ليته لم ينزلِ
فاذهب عليُّ ما ظفرتَ بمثلها فخراً ولو لاقيت مثل المِعْضَلِ[3]

وقال هُبيرة بن أبي وهب المخزومي يعتذر عن فراره من علي بن أبي طالب وتركه عمراً يوم الخندق:

لعمرك ما ولّيتُ ظهري محمداً وأصحابَهُ جُبناً ولا خيفة القتلِ
ولكنّني قلّبتُ أمري فلم أجد لسيفي غناءً ان وقفتُ، ولا نَبلي
فلا تَبعَدَنْ يا عَمْرُ حياً وهالكاً فقد مُتَّ محمود الثنا ماجدَ الفعلِ
كَفَتْك عليٌّ لن ترىٰ مثل موقفٍ وقفتَ على شلو المقدمُ كالفحلِ

---

١ ـ الغدير للأميني ٧: ٢١٢، وقال ابن عباس في قوله تعالى (وكفى الله المؤمنين القتال) (الأحزاب / ٢٥) قال بعلي بن أبي طالب، انظر شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٨٤. (المحقق)

٢ ـ جَزَعَ المُزار: قطع الخندق عرضاً. (المؤلف)

٣ ـ المِعضَل: الأمر المتناهي في الشدة. (المؤلف). انظر الفصول المختارة: ٢٩٣، شرح النهج ١٣: ٢٨٨. (المحقق)

فما ظفرتْ كفّاك يوماً بمثلها　　أمنتَ بها ما شِئت من زلّةِ النعلِ[١]

وقال هبيرة أيضاً:

لقد علمت عُلْيا لؤي بن غالب　　لَفارسُها عمروٌ إذا نابَ نائبُ
وفارسها عمروٌ إذا ما يسوفه　　عليٌ، وإن الموت لا شك طالبُ
عشيّةَ يدعوه عليٌّ وانه　　لفارسها إذ حام عنه الكتائبُ[٢]

وقال حسّان بن ثابت:

لقد شَقِيَتْ بنو جُمَح بن عمروٍ　　ومخزومٍ وتيمٍ ما تَقيلُ
فتىً من نسل عامر أريحَيّ　　تطاوله الأسنّة والنصولُ
دعاه الفارسُ المقدام لما　　تكشّفت المقانب والخيولُ
أبو حَسَنٍ، فقنّعَهُ حُساماً　　جُزاراً لا أذلّ ولا نكولُ
فغادَرهُ مُكبّا مُسلَحِبّا[٣]　　على عَفراء..لا بَعُد القتيلُ[٤]

---

١ ـ انظر سيرة ابن هشام ٣: ٣٠١ ـ ٣٠٢ (طبعة قديمة)، شرح النهج ١٣: ٢٨٩، أُسد الغابة لابن الأثير ٥: ٦٢٤، سيرة النبي لابن هشام ٣: ٧٤١ تحقيق محمّد محي‌الدين عبد الحميد، عيون الأثر ١: ٣٧٨ / ٢: ٤٧، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٢٧، الصحيح من السيرة، جعفر مرتضى العاملي ٩: ٣٧٧ و٣٨٧. (المحقق)

٢ ـ سيرة ابن هشام (ط قديم) ٣: ٣٠١، شرح النهج ١٣: ٢٨٩، والصحيح من السيرة ٩: ٣٨٨. (المحقق)

٣ ـ مُسْلَحِبّاً: ممداً. (المؤلف)

٤ ـ عبد الكريم الخطيب: المصدر نفسه. (المؤلف) وأنظر سيرة ابن هشام ٣: ٣٠٤، الصحيح من السيرة ٩: ٣٨٨، وشرح النهج: ٢٩٠، ولحسان بن ثابت أقوال كثيرة في هذا الحادث وهو ينتصر للإسلام ومنها:

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغي　　بجنوب يثرب غداة لم تنظر
فلقد وجدت سيوفنا مشهورة　　ولقد رأيت جيادنا لم تقصر
ولقد لقيت غداة بدرٍ عصبة　　ضربوك ضرباً غير ضرب الحسر
أصبحت لا تدعي ليوم عظيمة　　يا عمرو أو لجسيم أمر منكر

انظر الفصول المختارة: ٢٩٣، سيرة ابن هشام (طبع قديم) ٣: ٣٠٤، شرح النهج ١٣: ٢٩٠. (المحقق)

كذلك: «ولما وصل خبر مقتل عمرو إلى أخته، قالت: من ذا الذي اجترأ عليه؟ فقالوا: علي بن أبي طالب. فقالت: لم يعد موته إلّا على يد كفوٍ كريم، لا رقأت دمعتي ان هرقتها عليه، قاتل الأبطال وبارز الأقران، وكانت منيّته على يد كفو كريم من قومه، ما سمعتُ بأفخر من هذا يا بني عامر، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله   لكنتُ أبكي عليه آخر الأبدِ
لكنَّ قاتله من لا يُعاب بهِ   وكان يُدعىٰ أبوه بيضة البلدِ[١]

بعد صلح الحديبية بعشرين ليلة قضاها الرسول والمسلمون في المدينة، كان التوجّه إلى (خيبر) للغزو ضرورة أملتها مؤامرات اليهود المتكررة، ومحالفتهم لقريش في معركة الأحزاب (الخندق).

وكانت (خيبر) قلعة حصينة، عصيّة على المهاجمين. وقد كانت الأيام الخمسة والعشرون، قد مرّت سدى، لم يحقق فيها الحصار نتائج عملية، فاضطر المسلمون إلى الهجوم.

وقد حمل الراية كبار الصحابة، فبذلوا أكبر جهد، لكن حصانة الحصن، أعيت المهاجمين.

ومرّ يومان، لم يثمر الهجوم شيئا. وفي اليوم الثالث، دعا الرسولﷺ علياً وقال له:

---

١ ـ انظر ذيل تاريخ بغداد: ١٩٨، الارشاد ١: ١٠٨، آمالي المرتضى ٣: ٩٥، ولها أيضاً من القول:

أسدان في ضيق المكر تصاولا   وكلاهما كفو كريم باسل
فتخالسا مهج النفوس كلاهما   وسط المدار مخاتل ومقاتل
وكلاهما حفر القراع حفيظلة   لم يثنه عن ذاك شغل شاغل
فاذهب علي فما ظفرت بمثله   قول سديد ليس فيه تحامل
فالثار عندي يا علي فليتني   أدركته والعقل مني كامل
ذلت قريش بعد مقتل فارس   فالذل مهلكها وخزي شامل

ثمّ قالت: والله لاثارت قريش بأخي ما حنت النيب.

انظر الفصول المختارة: ٢٩٣، مناقب ابن شهرآشوب ١:١٧٢، كشف الغمة ١:٢٠٦، الأنوار العلوية: ١٩٣، بحار الأنوار ٢٠:٢٦١ / ٤١:٩٨، الصحيح من السيرة ٩: ٣٨٦ ـ ٣٨٧. (المحقق)

«خذ هذه الراية فامضِ بها يفتح الله عليك»[1].

وكان القتال شديداً، إذ تمرّس يهود خيبر، فكانت لهم في تلك المعركة صولات قوية.

وحين وقع الترس من يد علي بن أبي طالب تكاثر عليه المقالعة اليهود، وبدا لهم هدفاً سهلاً. وفوق إدراك الجمعَيْن، من المسلمين واليهود، حصلت الأعجوبة. إذ استطاع علي بن أبي طالب الاستعاضة عن ترسه بترس جديد، هو باب حصن خيبر، الذي اقتلعه بقدرة نادرة، أذهلت الأعداء الذين سرعان ما تساقطوا صرعى تحت وطأة ضرباته المميتة. وبالذكاء الذي رافق القوة، في طبيعة علي وطبعه، جعل باب الحصن جسراً عبر عليه إلى داخل الحصن، فتحقق الفتح.

لم يكن باب الحصن باباً اعتيادياً، بل كان حجراً منقوراً في صخر، حاول بضعة عشر رجلاً من أصحاب علي زحزحته من مكانه بعد القتال، فعجزوا، والى ذلك أشار ابن أبي الحديد مخاطباً ـ في قصيدة ـ علياً:

يا قالع الباب الذي عن هزّه   عجزتْ أكفُ أربعون وأربع[2]

ولكن علياً بن أبي طالب، كان ذا قوة بدنية هائلة، وكانت طبيعة بنائه الجسدي تخدم عملية الاقتلاع، فقد كان ضخم عضلة الساق، أميل إلى القصر، فهو بصفتيه هاتين أثبت في مواطىء قدميه وأشد رسوخاً، مليء عضلات الأعضاد مكتّلها، حتى يستطيع أن يخطف بذراع واحدة فارساً عن فرسه، وإن كان دارعاً في الحديد، فيجلد به الأرض كما تضربها بسوط، ثم يقذف به كالكرة إلى أينما شاء[3].

إن امتياز علي بن أبي طالب بشجاعته الجسدية، لم يكن ليعني شيئاً لديه، مثلما يعني

---

١ ـ انظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٤٢: ٨٩، البداية والنهاية ٧: ٣٧٣، كشف الغمة ١: ٢١١، عيون الأثر ٢: ١٣٩. (المحقق)

٢ ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. (المؤلف). انظر شرح مئة كلمة لابن ميثم البحراني: ٢٥٧. (المحقق)

٣ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: علي بن أبي طالب. (المؤلف)

لدى سواه، من الذين يغترّون بقوة الجسد، ذلك لأن تلك القوة الجسدية خاضعة ـ لدى علي بن أبي طالب ـ لشجاعته الروحية، ونقائه الروحي.

وكل قوة بدنيّة بدون نقاء الروح، وشجاعة الروح، لن تكون غير قوة حيوانية، تتجه إلى الغلظة والفظاظة، وتبحث عن ميادين لتجريب نفسها، فتنزلق ـ بالفظاظة ـ منزلق العدوانية التي تلحق الضرر بالضعفاء قبل الأقوياء من صنفها.

و«**كان الاعتداد بالنفس الذي ميّزه في بطولته المادية صاحب الأثر الأكبر في تشكيل بطولته المعنوية. كان يرى الناس من خلال صفاته هو، ويزن أعمالهم على النمط الذي يودّ منهم أن يزنوا أعمالهم على منواله. ميزاته دائماً الحق الأسمى لأنه رجل وهب حياته للذود عن الحق يحاسب بنفسه دواماً، وألزمها سبيله.**

لهذا لم يعرف مطلقاً كيف يُهادن أويُداور، بل كان يلقي بالرأي صريحاً، واضحاً، قاطعاً كالسيف..!»(١)

من الواضح، أن بطولة علي بن أبي طالب في جميع تلك المعارك، كانت تعبيراً بليغاً عن تمكّن الإيمان في نفسه، والجهاد في سبيل الإسلام، والبحث عن الشهادة، وكم مرة كان يخرج من المعركة منتصراً، ولكنه مثخن بالجراح، فكان أسفه أنه لم ينل الشهادة، وحين زار الرسول علياً في داره (بعد معركة أحد)، بكى علي قائلاً: **يا رسول الله أرأيت كيف فاتتني الشهادة؟** فأجابه الرسول: **إنّها من ورائك يا علي!**(٢).

جدلية اشهار السيف واغراره

يتجنى المتجني، وهو يحسب معارك علي بن أبي طالب، بعد مبايعته بالخلافة، نزوعاً للقتال متأصلاً في نفسه، وهو استمرارية لقتاله في معارك (بدر) و(أحد) و(الخندق) و(خيبر) و(حنين).

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: علي بن أبي طالب (المؤلف).

٢ ـ انظر سعد السعود لابن طاووس الحسني : ١١٢.

فالقتال ـ في جميع أحوال الإسلام ـ كان وسيلة الإسلام للدفاع عن نفسه، أولنشر عقيدته. وبالنسبة إلى علي بن أبي طالب، لم يكن القتال بعيداً عن هذا المنظور الإسلامي؛ لكن ثمة فارقاً كبيراً جداً بين قتالين: القتال في معارك الإسلام ضد المشركين، في زمن النبي، والقتال في زمن خلافته.

ففي زمن النبي كان مقاتلاً، فدائياً، مأموراً ومتطوعاً، وكان النبي هو الذي يقرر ويخطط لمعارك العقيدة ضد الشرك، فهو القائد والموجّه والمشرف، الذي يتولى بنفسه قيادة العمليات الحربية الإسلامية والإشراف عليها.

وكان للمعارك الأولى ـ في زمن النبي ـ الفضل الرئيسي في انتصار الإسلام، وانتشاره، وثباته، واتساع رقعته.

يقول أبو جعفر في ردّه على الجاحظ:

«وكيف يقول الجاحظ: لا فضيلة لمباشرة الحروب، ولقاء الأقران، وقتل أبطال الشرك؟ وهل قامت عمد الإسلام إلّا على ذلك؟ وهل ثبت الدين واستقر إلّا بذلك؟ أتُراه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾[1] والمحبة من الله تعالى هي: إرادة الثواب، فكل من كان أشد ثبوتاً في هذا الصف، وأعظم قتالاً كان أحب إلى الله، ومعنى الأفضل الأكثر ثواباً، فعلي اذاً هو أحب المسلمين إلى الله، لأنه أثبتهم قَدَماً في الصف المرصوص، لم يفرّ قط، بإجماع الأمة، ولا بارزه قرن إلّا قتله. فموقف الناس في الجهاد على أحوال، وبعضهم في ذلك أفضل من بعض، فمن دلف إلى الأقران واستقبل السيوف والأسنة، كان أثقل على أكتاف الأعداء، لشدة نكايته فيهم ممن وقف في المعركة وأعان ولم يُقدِم. وكذلك من وقف في المعركة وأعان ولم يُقدِم، إلّا أنه بحيث تناله السهام والنبل ـ أعظم غناء وأفضل ممن وقف بحيث لا يناله ذلك»[2].

---

١ ـ سورة الصف، الآية: ٤. (المحقق)

٢ ـ انظر التفصيل في الغدير ٧: ٢١٠، والمناظرات في الإمامة: ٢٩٤، وشرح نهج البلاغة ١٣: ٢٨١. (المحقق)

ويقول:

و«أنت اذا تأملت أمر العرب وقريش، ونظرت السّيَر، وقرأت الأخبار، عرفت أنها كانت تطلب محمداً ﷺ، وتقصد قصده، وتروم قتله، فإن أعجزها وفاتها، طلبت علياً وأرادت قتله، لأنه كان أشبههم بالرسول حالاً، وأقربهم منهم قرباً، وأشدهم عنه دفعاً، وأنهم متى قصدوا علياً فقتلوه أضعفوا أمر محمد ﷺ، وكسروا شوكته، إذ كان أعلى من ينصره في البأس والقوة، والشجاعة، والنجدة والإقدام والبسالة»[١].

أما كيف عبّر علي بن أبي طالب عن قتاليته العالية، بصيغة نظرية موجزة اختصرت كل سلوكه، فهو حين سمع الآية: **﴿وَمَامُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ﴾**[٢].

صاح علي بن أبي طالب:

«والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله. ولئن مات أوقُتل، لأقاتلنَّ على ما قاتل عليه حتى أموت!»[٣].

وطوال عمر «علي» في حياة الرسول وبعد وفاته، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته، وإنها لتلحُّ على وجدانه إلحاحاً دائباً وعجيباً. فهو دائماً يذكرها فيتلوها، ويتبع تلاوته لها بكلماته التي سمعناها الآن[٤].

---

١ ـ شرح النهج ١٣:٢٨٢، والمقصود بـ (قال أبو جعفر) هو أبو جعفر الإسكافي محمّد بن عبد الله، ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥:٤١٦، وقال عنه: أحد المتكلمين من معتزلة البغداديين... وله تصانيف معروفة مات عام ٢٤٠ هـ، انظر النهج ١٣:٢١٩ ـ هامش ـ. وهو أشهر من رد على أفكار الجاحظ أبو عثمان في كتابه المعروف «العثمانية». (المحقق)

٢ ـ سورة آل عمران: ١٤٤. (المحقق)

٣ ـ الاحتجاج للطبرسي ١:٢٩١، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢:٦٥٢ ح ١١١٠، العمدة لابن بطريق: ١٦٨، المستدرك ٣:١٢٦، نظم درر السمطين، الزرندي الحنفي: ٩٧، تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي ١:٤٠١. (المحقق)

٤ ـ خالد محمد خالد: في رحاب علي. (المؤلف)

وأي كلمة تعبّر عن طبيعة **«المقاتل»** سوى كلمة **«سأقاتل»**؟

قلنا ان **«علياً»** يحمل في جنبيه **«طبيعة المقاتل»**، وسجاياه. فهل هذه منقبة توضع في ميزان فضائله، ومزاياه؟

وبتعبير آخر: هل وجود طبيعة المقاتل في انسان أمر يُشرِّف ذلك الإنسان؟ أما بالنسبة لابن أبي طالب فنعم!

إن كون طبيعة المقاتل في أعماقه، لمما يزيده شرفاً، ورفعة، وكمالاً. ذلك أن **«طبيعة المقاتل»** فيه قد بلغت من الإستقامة، ومن العدالة، ومن الشرف، المدى الذي أفاءه عليها القرآن، والرسول والإسلام. فهي ـ عند الإمام ـ لا تمثّل عدواناً.. ولا تشكل بهتاناً.. ولا تنطلق وقوداً لأغراض دنياه وأطماع نفس.. وهي بهذا، ولهذا، تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة، كما أن **«البطولة»** عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة.

و**«الرجولة»** عنده ليست اندفاعاً عارماً تُزجيه طاقاته الجبارة إنما هي **«التزام»** يكاد يكون مطلقاً لمنهج الرسول الذي آمن به. والدين نفسه حمل رايته. وهكذا نرى **«البطل»** و**«الرجل»** و**«المسلم»** يلتقون في شخصية **«الإمام علي»** أصدق لقاء[١].

وينبغي التمييز بين نوعين من القتال: الأول في زمن الرسول، والذي سبق التحدُّث عنه، والثاني في زمن خلافته. ففي زمن الرسول، وفي المعارك والغزوات الكبرى، كان علي بن أبي طالب يُهرول قائداً الهجوم الصاعق، ضارباً بقوة حاسمة، لأنه يوجّه ضربته نحو الشرك. لذلك كان في هجماته يمثّل صولة الإسلام، وضربة الإسلام.

لكنه في المعارك التي جرت، في زمن خلافته ـ كان ينتهج أسلوباً آخر. لأن القتال الدائر كان بين المسلمين أنفسهم، مع ما يختلط في ذلك من مؤثرات مختلفة. ورغم أن الفرق والفئات التي أعلنت الحرب، كانت في مباداتها وابتدارها، في ذروة التصميم على نهجها القتالي، إلّا أن **«علي بن أبي طالب»** لم تحكمه ردود الفعل، فاختار الدعوة إلى الموادعة، والصلح، والسلم، مشفقاً على المسلمين من دمار الحرب الأهلية، ومن إراقة

---

١ ـ خالد محمد خالد: في رحاب علي. (المؤلف)

الدماء، ومن اتّساع نطاق الفتنة. إن مغزى ذلك ماثل في عقائدية علي بن أبي طالب، العالية، والتي تخضع لها الحسابات كافة في السلم والحرب.

ولم تستطع طبيعته النقالية المعروفة والمعهودة، أن تفرض حضورها المباشر، على قوة التحدّيات القتالية، التي تستثير نقيضها القتالي.

فالقتال ـ إذن ـ لم يكن غريزته، بل كان أداته العقلية، وأسلوبه العقائدي، الذي يلجأ إليه مضطراً.

لقد عرف التأريخ صوراً عديدة من القادة المقاتلين، الذين تتحرك لديهم فوراً غريزة القتال، حالماً يجبههم جابه التحدي، فيردّون الصاع صاعين أوأكثر. ففي الاحتدامات يتصرف الناس يدفع أكثر صفاتهم قوة. لكن «**علي بن أبي طالب**» مختلف عن أولئك كثيراً، فلم تحرصه قتاليته العاتية على إشهار السيف بوجه الذين أعلنوا عليه الحرب، مع أن قتاليته كانت من أبرز صفاته؛ ذلك لأن هناك ما هو أعظم منها، وأكثر شمولاً واشتمالاً عليها، نعني به عقائديّته[1].

تلك العقائدية النادرة، التي انتظمت كيانه العقلي والروحي والجسدي انتظاماً عجيباً لم تفلت منه ذرّة من كيانه.

ولم يستطع التمرد المسلح الواسع النطاق أن يخلق خللاً في معادلة علي بن أبي طالب الذاتية، التي كانت ـ في جوهرها ـ معادلة الحق الإسلامي. كان يقدم درساً نادراً، لم يكن يقصده درساً تعليمياً، لأنه كان يعبّر عن نفسه بأفعاله، وبكلماته، بالتطابق الذي وُجد فيه، ونما، وشبَّ عليه. ولا بد أن يدفع الثمن، في عالم تتخطّفه المصالح والأطماع، والمحن، والمناورات، والأكاذيب. لا سيما أن أعداءه فهموا طبيعته، التي كانت جليّة أتم الجلاء. فاستثمروا ذلك الفهم استثماراً سيئاً.

---

١ ـ يقول علي بن أبي طالب: «فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحقَ بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبُ إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوءُ بآثامها»، انظر نهج البلاغة شرح صبحي الصالح خطبة ٥٥، ص ٩١. (المحقق)

ومهما كانت النتائج السلبية التي نجمت عن انعدام التوازن بين حقّانية علي بن أبي طالب، واضطراب الأجواء السياسية للمسلمين، فإن تلك النتائج كانت سلبية في حينها، لكنها ـ في التأريخ ـ دخلت في الدرس الذي لقّنه علي بن أبي طالب للخصوم.

لقد كان الدرس أكبر من كل التفاصيل؛ تفاصيل الربح والخسارة، بالمعنى الذي تعرضه السلطة، والسياسية على نحو عام. فما قيمة الربح الذي كسبه خصم علي بن أبي طالب بإزاء الدروس، والحكم، والمآثر، والأدلة الباهرة، التي كسبتها (وتكسبها) البشرية من علي بن أبي طالب؟

ومن بين تلك الدروس والمآثر، القوة على قوة النفس، والشجاعة على شجاعة النفس، والسير ـ والحرب في غلواء ابتدائها ـ على هدى السلم، ايثاراً لحقن دماء المسلمين، لا طلباً للعافية.

وسنرى تلك الجدلية المحكمة لعقائدية السلم، في سلوك بطل مرموق، في ثلاث حروب: حرب الجمل، وحرب صفّين، والحرب مع الخوارج.

مصداقية الدرس في حرب الجمل

في البصرة، كان معكسر الجمل قد باشر الحرب فعلاً، وذلك بقتل خمسمائة شيخ من بني عبد القيس، وتقييد والي البصرة «**عثمان بن حنيف**» بالحديد، وقتل حراسه، وأصبحت دار الامارة ودار الأموال والمسجد في حوزة رجال المعسكر، وتفاقمت الفتنة، واخترمت الحرب الأهلية البصرة[1].

---

١ ـ الايضاح للفضل بن شاذان الأزدي: ٥١١، المسترشد: ٤٢٠، الارشاد للمفيد ١:٢٥٨، مناقب ابن شهرآشوب ٢:٣٢٧، وقد ذكر قول عثمان بن حنيف وهو يصف هول يوم الجمل:

شهدت الحروب فشيبنني ... فلم أر يوماً كيوم الجمل
أشد على مؤمن فتنةً ... وأقتل منهم لحرق بطل
فليت الظعينة في بيتها ... ويا ليت عسكر لم يرتحل

كانت أنباء الاستيلاء على المرافق الحيوية في البصرة، وقتل أنصار الوالي قد انتشرت، ولم يكن علي بن أبي طالب بعيداً، وملأت نفسه اقشعراراً تلك المجزرة الرهيبة التي فتكت بأنصاره وأنصار عثمان بن حنيف. لكنه ـ رغم ذلك ـ كان يُفكر بخطورة المجابهة الحربية بين المسلمين أنفسهم، وكان مشغولاً بأهمية التفاهم، والصلح.

ما كانت ـ طوال حياته ـ كلمة تحنقه مثل كلمة المهادنة، وكان قد اعتاد على الحق الصراح، متّجهاً إليه مباشرة بلا التواء، لكنه ـ في هذه المحنة ـ كان ينظر إلى العذاب الهائل الذي تسبّبه الدماء المراقة، دماء المسلمين المتنازعين، وكان ينظر ـ أيضاً ـ نظرة التأريخ، إلى ما ستدشّنه هذه الحرب، في تواريخ المسلمين الآتية، من صراعات مأساوية.

وأبداً، كانت نظراته في اللحظ الواحد: نظرة الآن، ونظرة الـ(ما بعد)؛ نظرة المناسبة الواقعية، ونظرة التأريخ. فكان يزن كل شيء بميزان النظرتين اللتين تتواصلان ـ لديه ـ نظرة واحدة، ليس أحدَّ منها وأثقب، وأدقّ.

أزاح انفعاله الشريف، وهو يسمع أخبار المجزرة الدموية التي مزّقت هدوء البصرة، وترك الحكم لإرادة السلم، وقرار العقل، فاختار ايفاد (السفارة) من قبله إلى قيادة معسكر الجمل[1].

وأيضاً كشف المحجة لثمرة المهجة للسيّد ابن طاووس: ١٨٣، الصراط المستقيم لعلي بن يونس العاملي ٣: ١٦٤، الجمل لضامر بن شدقم المدني: ٣٣ و ١٠٩، مروج الذهب ٢: ٣٦٧ ـ ٣٧٧، كتاب الأربعين لمحمّد طاهر الشيرازي: ٣٢٠. (المحقق)

١ ـ أُرسل علي عليه السلام بعبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل موصياً إياه «لا تلقينَّ طلحة. فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة، فقل له يقول ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا ممّا بدا!» شرح نهج البلاغة ١: ١٦٩، فكان جواب الزبير: «إنّا مع الخوف الشديد لنطمع» يقول ابن أبي الحديد: قال أبو إسحاق: سألت محمّد بن علي بن الحسين عليهما السلام ما تراه يعني بقوله هذا،

لقد كان يبغي الوفاق، رغم أن جعجعة السلاح تجاوزت حدود كواهل البشر. فأوفد مبعوثه القعقاع. ودار الحوار مع عائشة:

«أي أمّه!..».

«أي بنيّ..».

«ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟».

«اصلاح بين الناس».

«فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي مني ومنهما!».

فطلبت عائشة إحضارهما.

قال القعقاع:

«اني سألتُ أم المؤمنين، ما أشخصها؟ فقالت: إصلاح بين الناس. فخبّراني ما تقولان، أمتابعان أنتما أم مخالفان؟».

«متابعان».

«فما وجه هذا الاصلاح؟ والله لئن عرفناه لنصلحنّ..».

قتلة عثمان.

قتلة عثمان.

نعم.. فان هذا ان تُرِكَ كان تركاً للقرآن، وان عُمِل به كان إحياء للقرآن...

قد قتلتما (قتلة عثمان من أهل البصرة!) وأنتم قبل قتلهم أقرب الاستقامة منكم اليوم.. قتلتم ستمائة إلّا رجلاً فغضب لهم ستة آلاف، واعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم.. وطلبتم ذلك الذي أفلت، فمنعه ستة آلاف.. فان تركتموه كنتم تاركين لما تقولون.. وان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم.

ـ فتقول أنت ماذا؟ (سألته عائشة).

فقال: (أما والله ما تركت ابن عباس حتّى سألته عن هذا، فقال: يقول إنا مع الخوف الشديد ممّا نحن عليه نطمع أن نلي مثل الذي وُلّيتم» شرح النهج ٢: ٤٩٩. (المحقق)

أقول: هذا أمر دواؤه التسكين.. انكم أحميتم مضر وربيعة، من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم نصرة لهؤلاء القوم الذين أغضبتم، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحديث العظيم.. فاذا سكن الأمر احتلجوا..» وأكمل القعقاع:

إن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة، ودرك بثأر الرجل، وعافية لهذه الأمة... وان أنتم أبيتم إلّا مكابرة هذا الأمر واعتسافه فعلامة شر وذهاب الثأر. فآثروا العافية يا قوم تُرزقوها، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم..

ـ نعم القول، فقد أحسنت وأصبت.. ارجع يا قعقاع، فان قدم علي وهو على مثل رأيك صَلُح الأمر[1]...

وكانت هذه الكلمات موافقة على الهدنة، والتفاوض.

غير أن أعداء المصالحة، كانوا يشكّلون ثقلاً اجتماعياً وعسكرياً ومادياً كبيراً، هذا وان لكل حرب ـ علاوة على أسبابها الظاهرة ـ أسباباً خفيّة.. كذلك تُشتَحدث أسباب جديدة، مع الحرب، يوماً بعد يوم، فكان أن حصلت مداهمات ومصادمات عسكرية، أفشلت الوساطات جميعاً. ولم يستطع ابن عباس ـ بدهائه ـ أن يتوصل إلى التفاهم.

ولكن علياً لم يكفّ عن مساعي السلم، فبعث اليهم من يناشدهم الله في الدماء، وقال: علامَ تقاتلونني؟ فأبوا إلّا الحرب، فبعث إليهم رجلاً من أصحابه يقال له: «مسلم» معه مصحف يدعوهم إلى الله، فرموه بسهم فقتلوه، فحُمِل إلى علي، وقالت أمه:

يا ربِّ إن مسلماً أتاهمُ   يتلو كتاب الله لا يخشاهمُ

فخضبّوا من دمه لحاهمُ   وأمه قائمةٌ تراهُم[2]

حتى إذا كان القتال لا بد منه، أمر علي بن أبي طالب جيشه أن لا يبدأوهم بقتال، ولا

---

١ ـ البداية والنهاية ٧: ٢٦٥. (المحقق)

٢ ـ الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي: ١٦٩، الدرجات الرفيعة: ٣١٠، تاريخ الطبري ٣:٥٢٢، الجمل للمفيد: ١٨٢، جواهر المطالب لابن الدمشقي ٢:٣٢، مروج الذهب ٢:٢٤٦. (المحقق)

يرموهم بسهم، ولا يضربوهم بسيف، ولا يطعنوهم برمح، وفي ذلك انضباط نادر، وتضحية كبيرة، لكن سهام معسكر الجمل لم ترحم جند علي، فجاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي من الميمنة بأخٍ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمي بسهم، فقتل، حينذاك، قال علي: اللهم اشهد، واعذروا إلى القوم.

واشتد اصرار معسكر الجمل على القتل، وكثرت السهام، ولولا قوة انضباط خيرة أصحاب علي بن أبي طالب، وقوة سيطرتهم على معسكرهم، لكان التمرد نتيجة متوقعة.

ولم يألُ علي بن أبي طالب جهداً من أجل السلم لم يقدم عليه، فكان أن أعلن توصياته قبل الالتحام، فقال:

«أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولّياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تقربوا شيئاً من أموالهم إلّا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أوكُراع، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله».(١)

وقبل أن يلتحم العسكران، آثر علي أن يدعو الزعيمين الزبير وطلحة، فهما اللذان نكثا البيعة، فلربما وجد في الحوار وإياهما مخرجاً لآلاف المسلمين من هذه المهلكة الدامية.

وبكل ثقة بالنفس، وإرتكان إلى شجاعته الأصيلة، خرج حاسراً على بغلة رسول الله لا سلاح لديه، فنادى: يا زبير، اخرج إليَّ فخرج إليه الزبير شاكاً في سلاحه، فقيل ذلك

---

١ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجواهر. (المؤلف)، انظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ١٥، الكافي ٥:٧، دعائم الإسلام للقاضي المغربي ١: ٣٩٤، الخصال للصدوق: ٢٧٦، تحف العقول لابن شعبة الحراني: ٢٩٠، تهذيب الأحكام للطوسي ٤:١١٦، وسائل الشيعة للحر العاملي ١٥: ٢٧.

مروج الذهب ٢:٣٧١ وفي ط بيروت ٢:٣٦٢ ومثله مع الزيادة في الدر النظيم: ١١٥ و١١٩، الأخبار الطوال: ١٥١، أنساب الأشراف ١:٣٦٠، الطبقات الكبرى لمحمّد بن سعد ٣:١١٢. (المحقق)

لعائشة، فقالت: واثُكلَكِ يا أسماء! فقيل لها: ان علياً حاسر، فاطمأنت، واعتنق كل واحد منهما صاحبه. فقال له علي: ويحك يا زبير! ما الذي أخرجك؟ قال: دم عثمان! قال: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ في بني بَياضه، وهو راكب حماره، فضحك إلي رسول الله، وضحكت إليه، وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ﷺ ما يدع علي زهوه، فقال لك: «**ليس به زهو، أتحبّه يا زبير؟**» فقلت: إني والله لأحبّه. فقال لك: «**إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم**» فقال الزبير: استغفر لله، والله لو ذكرتها، ما خرجت! فقال له: يا زبير ارجع، فقال: وكيف أرجع الآن وقد التقت حَلَقتا البِطان؟ هذا والله العار الذي لا يغسل، فقال: يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار، فرجع الزبير وهو يقول:

اختَرتُ عاراً على نارٍ مؤجّجةٍ ... ما إن يقوم لها خلقٌ من الطينِ

نادى عليٌ بأمرٍ لستُ أجهله ... عارٌ لعمرك في الدنيا وفي الدينِ

فقلتُ: حسبُك مَن عذل أبا حَسَنٍ ... فبعضُ هذا الذي قد قلت يكفيني(١)

فقال ابنه عبد الله (وهو ابن أخت عائشة): أين تذهب، وتدعنا؟ فقال: يا بني أذكرني أبوالحسن بأمر كنت قد نسيته. فقال: لا والله، ولكنك فررت من سيوف بني عبد المطلب، فإنها طوال، حداد، تحملها فتية أنجاد. قال: لا والله، ولكني ذكرت ما أنسانيه الدهر، فاخترت العار على النار، أبالجن تعيّرني، لا أبالك؟ ثم أمال سنانه، وشدَّ في الميمنة، فقال علي: اخرجوا له فقد هاجوه، ثم رجع فشدَّ في الميسرة، ثم رجع فشدَّ في القلب، ثم عاد إلى ابنه، فقال: أيفعل هذا جبان؟ ثم مضى منصرفاً عن الحرب، متوجهاً إلى وادي السباع.(٢)

---

١ ـ كفاية الأثر: ١١٦، الجمل للمدني: ١٣٢، بحار الأنوار ٣٦:٣٢٤، جواهر المطالب ٢:٣٢، النصائح الكافية لمحمّد بن عقيل: ٤٨، مروج الذهب ٢:٢٤٧. (المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، أُنظر الطبري ٥:١٩٩ و٢٠٤، وط اوربا ١:٣١٧٥، الأغاني ١٦:١٢٦ ↵

ثم نادى علي طلحة: يا أبا محمد! ما الذي أخرجك؟

قال: «**الطلب بدم عثمان**».

قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: **اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأنت أول من بايعني ثم نكث، وقد قال الله عزّوجل: ﴿فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾**[1].

فقال: «**استغفر الله، ثم رجع!**»[2].

فكان مروان بن الحكم بانتظاره، وقد هاله أن النصر للصلح حاصل لا محال. فرمى طلحة بسهم في أكحله فقتله[3].

وأبو مخنف على رواية ابن أبي الحديد عنه كما في شرح النهج ١:٧٨، وتاريخ ابن أعثم ١:٣١٤، ٢٨١ ط حيدر آباد الدكن، وتاريخ مدينة دمشق ٥:٣٦٤، وورد تذكير علي للزبير قول الرسول له ورجوعه عن الحرب في الاستيعاب: ٢٠٣، أسد الغابة ٢:١٩٩، تاريخ ابن الأثير ٣:٩٤ ـ ٩٥، العقد الفريد ٤:٣٢٢ ـ ٣٢٣، والمستدرك ٣:٣٦٦ ـ ٣٦٧، والكنز ٦:٨٢ ـ ٨٣ و ٨٥ منه الحديث ١٢٨٣ و ١٢٩٠ و ١٢٩١ و ١٣١٨ و ١٣١٩ و ١٣٢٠، والذهبي في النبلاء ١:٣٨ ـ ٣٩، وتاريخ اليعقوبي ٢:١٥٨. وقتله ابن الجرموز من جماعة الأحنف بن قيس الذي اعتزل القتال. وكان القتل غدراً ومكراً بعد أن استأمنه، فحز رأس الزبير وأتى به علياً عليه السلام فقال علي عليه السلام: قاتل الزبير في النار.

يقول ابن قتيبة: لما ندم الزبير ورجع إلى عسكره تاركاً القتال، عاد الإمام عليه السلام لأصحابه يبشرهم، ففرح أصحابه بذلك، وقالوا «الحمد لله يا أمير المؤمنين، ما كنا نخشى في هذه الحرب غيره، ولا نتّقي سواه، إنه لفارس رسول الله ﷺ وحواريه، ومن عُرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب. فإذا قد كفانا الله فلا تعدّ مَن سواه إلّا صرعى حول الهودج» الإمامة والسياسة ١:٦٧ ـ ٦٨.

ويقول ابن قتيبة في موضع آخر: لما رجع الزبير قال لعائشة: «يا أماه ما شاهدت موطناً قطّ في الشرك ولا في الإسلام إلّا وليَ فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنه لا رأي لي فيه ولا بصيرة، وإني لعلى باطل» فقالت له: «خفت سيوف بني عبد المطلب» الإمامة والسياسة ١: ٦٧ ـ ٦٨. (المحقق)

١ ـ سورة الفتح: ١٠. (المحقق)

٢ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. (المؤلف)

٣ ـ الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ١٥٨، النصائح الكافية: ٤٨، الكنى والألقاب ١:٢٣٩. (المحقق)

واحتدمت المعركة من قبل أصحاب الجمل، فحملوا على ميمنة علي وميسرته فكشفوها، وعلي بن أبي طالب يخفق نعاساً على قروس سرجه، فقال له بعض ولد عقيل: **«ياعم، قد بلغت ميمنتك وميسرتك حيث ترى، وأنت تخفق نعاساً؟»**، قال: **«اسكت يا ابن أخي، فان لعمك يوماً لا يعدوه، والله ما يبالي عمك وقع على الموت، أووقع الموتُ عليه»**[١].

وجاءت اللحظة المذهلة، بعد أن كانت الرماح والنشّاب حائلاً يحول دون تقدم محمد بن الحنيفة، الذي قلّده أبوه الراية، فأخذها علي بن أبي طالب، وتقدم إلى الحرب، فما كان القوم إلّا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف»[٢].

ولقد كانت هذه لحظة فذّة في تأريخ الشجاعة ليس لها مثيل قط: أن يخوض امرؤ فرد جيشاً برمته، فيشقّه، كما يشقّ أديم التربة سكين المحراث!.. ولكنه ابن أبي طالب، لا عجب فيما يأتيه وإن حارت العقول في تفهمه وأعياها إدراكه، وإن عزَّ شبيهه عن طاقة غيره من المحاربين الأبطال ـ إن إقدامه هو الذي كان يفتح له في صفوف عدوّه المكتلة ـ المأثور عندهم من جرأة قلبه الفريدة قبل شفرة السيف! فكأنه كان صاعقة فجأت الجموع المدلّة بنصرها منذ قليل، لم يكن إلى اجتنابها سبيل، وكأنه نازلة القدر الداهم بطشت بمن اعترضها، لم تترك جَلداً ثبت لسيلها المجتاح، أورعديداً نكل وآثر السلامة من خلال الفرار!

شق جيش العدو وحده، وفتح ثغرة عميقة في بنيانه المرصوص، والرقاب تتهاوى على حد حسامه، والناس يسقطون صرعى بين يديه وكأنهم أوراق الشجر وهو هبّة قارسة من رياح الخريف! ولولا أن نبا سيفه عن الطعان فانثنى في يمينه لما كفَّ ولا عاد.

---

١ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) وأنظر المسترشد: ٣٦٧، مناقب ابن شهر آشوب: ٣٨٥، الجمل لابن شدقم المدني: ١٤٠، حُلية الأبرار للبحراني ٢: ٦٣، وذكره المعاصر المحمودي في نهج السعادة ١: ٣١٧. وللحديث طرق متعددة يطول حصرها. (المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

والتفَّ به بنوه وأجلّة صحبه، وفيهم الأشتر وعمار يهتفون: **«نحن نكفيك يا أمير المؤمنين...»**.

فلم يجب، وما ردَّ إليه بصره، بل مسح بكُمه قطرات العرق التي بللت مُحيّاه، ومد يده إلى إناء دفع به إليه أحد رجاله ليطفيء غلة عطشه ببعض ما فيه: وقال بعد أن حسا حسوة: **«... ان عَسَلك هذا لطائفي...»**.

«نعم .. وعجباً منك والله يا أمير المؤمنين أن تعرف الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر؟».

فابتسم وقال بهدوء:

«يا ابن أخي، انه والله ما ملأ صدر عمك شيء قط، ولا هَمَّه شيء..»[١].

وأمسك بسيفه المحني فأقامه بركبته، وهب فجأة كالإعصار على عسكر أعدائه يغوصُ في صفوفهم كما يشقّ سجف الظلمة السوداء شهاب!»[٢].

ثم أعاد الهجمة كالأسد الهصور. وتقرّرت نتيجة المعركة، بعد أن حُسمت في حلقات القتال الرئيسية، ولكن (الجمل) لا زال ذا رغاء.

الجمل وفورة الناس

يبتدىء بعض الناس، الذين لم يكونوا على دين، بالوثنية، فإذا ما تحرروا من الوثنية بالدين، دخلوا عالم الإيمان بالعاطفة قبل العقل، أوبكثير من العاطفة، وبقليل من العقل.

وفي أثناء ذلك يحرصون على العبادات الإلهية، ودون شعور منهم تظهر في نفوسهم نوازع التقديس لبشر صالحين، وتتّسع تلك النوازع فتشمل تقديس الأشياء ذات الصلة

---

١ ـ الإمامة والسياسة ١:٩٦ تحقيق الشيري و١: ٧١ تحقيق الزيني، جواهر المطالب ٢:٣٤. (المحقق)

٢ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الامام علي بن أبي طالب. (المؤلف)

بالبشر الصالحين.

وقد تجري المبالغة بالتقديس للأشياء، فتصبح رموزاً غالية بالغة القداسة، وتحتلّ حيّز الأسبقيّة، فتطغى الفروع على الأصول، والثانويات على الرئيسيات، فتعود الوثنية بشكل جديد، أو بأشكال.

وكان لحرب الجمل ـ بعد مصير الزبير وطلحة ومقتل الكثير من معسكر الجمل ـ أن تتوقف، فيتوقّف النزيف الهائل لدماء المسلمين، لكن (الجمل) أصبح الرمز، وأصبح الناطق الوحيد، والآمر الوحيد الذي تلبّي جموع مقاتلي معسكر (الجمل) أمره، وهو لا يعرف غير الرغاء أو الصمت الحائر.

فقد حَمِيَتِ الغريزة البشرية، متّحده بالرمز الذي أعطوه للحيوان، فنسوا أن الجمل قد يقود إلى هلاك أم المؤمنين، في فوضى الحرب، وفي إحاطتهم الحامية به.

ولولا حكمة علي بن أبي طالب وبعد نظره، لكانت للرماح والسهام رشقات ورشقات فوضوية تصيب ما تصيب من هذه الكتلة البشرية التي يتوسطها الجمل، ولربما كان من بين تلك الرشقات ما يصيب من في هودج الجمل. كان علي بن أبي طالب مدركاً أن المعركة محسومة، لكن نظره يمتد الى من في الهودج، إلى زوج الرسول الكريم، إلى عائشة التي حرص كل الحرص ـ أن لا يصيبها سهم طائش[1].

وكان رغاء الجمل يثير الحماس، والحماس يستثير الحماس، فلا تسعر غير الغريزة، وكل غريزة حامية، ما هي إلّا مثل غضبة حيوان قوي يائس. وهنا لا تكون لحكمة العقل مكانة، في إعصار القتل، ودوّامته الكبرى.

كان حسب مقاتلي معسكر الجمل أنهم يستشرسون إلى حد الموت، وهذا هو همُّهم الأوحد.

ولا يمنع ذلك من إثارة التطرُّف المقابل، باتجاه القتل الأعمى.

---

١ ـ مناقب ابن شهرآشوب ٣٨١:١، الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ١٧٣. (المحقق)

تنبّه علي ـ وهو اليقظ دوماً ـ إلى جسامة المحنة، وكان (الجمل) أمام ناظريه سلطان الفتنة، فصاح:

ـ اعقروا الجمل .. فإنه إن عقر تفرّقوا![1]

وهكذا كان عقر الجمل إنقاذاً لعائشة.

ثم أمر بقتله وحرقه، وذرّ رماد جثته مع الريح، وهو يقول:

«**لعنة الله من دابّة، فما أشبهه بعجل بني اسرائيل**»[2].

وإذ كانت عيناه اللامعتان تتابعان الرماد المتطاير مع اتجاهات الريح تلا:

﴿**..وَٱنظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفاً..**﴾[3].

بكاء المنتصر

انتصر علي بن أبي طالب في معركة الجمل، وكان قد فرغ من القتال والسيطرة على مقاليد الأمور، قد عاد إلى نفسه التي لم تعرف نشوة النصر. فقد كان الرجل الذي اكتسح بسيفه أفواجاً هائجة من المحاربين، قد اكتسحته الأحزان.ها هو ذاك، علي بن أبي طالب، الذي كان!

حمل ـ منذ البدء ـ علو النفس، علو المعرفة، علوّ المقام!

عادة المنتصرين، هي الفرح المتجبّر، والسرور الأخّاذ الذي يصنع الاحتفالات. لكن علياً ما كانت له عادة، بل كانت له نفس عارفة.

---

١ ـ مناقب ابن شهرآشوب ٢:٣٤٦، شرح النهج ١:٨٩، جمهرة الأنساب: ٣٨٩، النهاية: ٣٩٧، العقد الفريد ٤:٣٢٨، فتح الباري ١٣:٤٨، المصنّف لابن شيبة ٨:٧٢٠، أنساب الأشراف: ٢٤٨، تاريخ ابن خلدون ق ٢ ج ٢:١٦٣، جواهر المطالب ٢:٢٤، وقعة الجمل لمحمّد بن زكريا: ٤٤، بحار الأنوار ٣٢:١٨٢، شجرة طوبى ٢:٣٢٤، مواقف الشيعة ٣:٥. (المحقق)

٢ ـ شرح نهج البلاغة ١:٢٦٦، الأنوار العلوية: ٢٢٠، وقعة الجمل: ٤٥، شجرة طوبى ٢:٣٢٤ (المحقق)

٣ ـ سورة طه: ٩٧، انظر شرح نهج البلاغة ١:٢٦٦. (المحقق)

وقد كان ـ في أول الالتحام ـ من يظن أن علياً، وهو يناشد الزبير وطلحة حقن الدماء، يُمارس لعبة تدل على ضعف، أو على مكر.

وإلاّ كيف يفعل ذلك، والطرفان آتيان من مكة والمدينة إلى البصرة، عبر المسافات الطويلة، والمشاقّ الكبيرة، والتحشيدات والتجهيزات الحربية الكثيفة؟ قطعاً، ما كانت تلك جولة الأخوة الأعداء، جولة اللعب أو التمثيل.

وفي (الخريبة ـ وهي بين الزبير والبصرة، ويقال لها الحزّ) كانت قد استقرت النفوس الهائجة على الالتحام الهائل، بعد طول عناء، وسبق تدبّر، وحين اصطفّ الفريقان للقتال، تقدم علي بكلماته، التي فسَّرَها من فسَّرها من معسكر الجمل ما شاء له التفسير.

«**تكتيك**» من قبل علي بن أبي طالب؟!

خدعة حرب، أو أسلوب تفرقة، أو علامة ضعف تسترها الحيلة؟

هذه تصورات راودت الأذهان، في أوّل المواجهة على خط النار. لكن، فيما بعد، وحين أصبح النصر بيد علي بن أبي طالب، تبدّدت تلك التصورات من أذهان أولئك الذين بقوا أحياء، وشاهدوا الخاتمة، خاتمة الحرب العجيبة، الغريبة.

ابتدأت عجيبة وغريبة، وانتهت بصورة أعجب!

هي حرب الأخوة، الحرب الخطأ، التي أثَّرت على مصير المسلمين تأثيراً خطيراً. فقد بلغ قتلاها خمسة وعشرين ألف قتيل: ستة آلاف من أصحاب علي، والباقون من أصحاب الجمل.[1]

وامتلأت أرض (الخريبة) بأربعة عشر ألفاً من الأيدي والأرجل المقطّعة.

كان بطل الانتصار حزيناً، رفيعاً في حزنه، لم يحتقر الذين قاتلوه، بل حزن من أجلهم، وبكى أمرّ البكاء، «**وظل يرثي قتلاهم، وينشر من أمجادهم على الناس ما أباحه وقته**

---

١ ـ يذكر المسعودي غير ذلك، فيقول: «ان الذي قتل من أصحاب علي في ذلك اليوم خمسة آلاف نفس، ومن أصحاب الجمل وغيرهم من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً، وقيل غير ذلك». (المؤلف)

القصير. بل قد صلى على الموتى منهم ومن أجناده على السواء. وأمر بقبرٍ كبير أن يُحفر ليحتوي الأطراف الكثيرة المقطوعة من الأيدي والأقدام».

وخاطب طلحة، والدموع تتدافع في عينيه:

«أعزز علي أبا محمد أن أراك معفّراً تحت نجوم السماء.. وفي بطن هذا الوادي! أبعد جهادك في الله، ودفعك عن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب..»(١).

ولم يبخس حق قتلاه، فلم يلجأ إلى التكفير والشماتة، بل كان مُنصفاً، فوق حدود التصوّر، وهو في موقفه ذاك. فحين رأى جثة محمد بن طلحة، غالب دمعه، وهو يخصّه بالتكريم:

ـ **«رحمك الله يا محمد، لقد كنت في العبادة مجتهداً، قوّاماً آناء الليل، صوّاماً في الحدود...»**(٢).

ـ هذا رجل قتله برّ أبيه!».

كان علي حزيناً على القتلى من الفريقين، فكان سمّوه الأخلاقي، سموّاً للفطرة وللعقيدة على حد سواء.

ولقد لخّصت امرأة من عبد القيس بشاعة حرب الجمل، بعد أن طافت في القتلى، فوجدت ابنتين لها بين القتلى، وكان قد قتل زوجها واخوان لها فيمن قتل في مجزرة البصرة قبل مجيء علي بن أبي طالب اليها قالت:

شهدت الحروب فشيّبتني   فلم أرَ يوماً كيوم الجملِ
أضرّ على مؤمنٍ فتنة   وأقتله لشجاعٍ بطل
فليتَ الضغينة في بيتها   وليتك عسكرُ لم ترتحل(٣)

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١١: ١٢٣. (المحقق)

٢ ـ الإمامة والسياسة ١: ٩٨ تحقيق الشيري / ١: ٧٢ تحقيق الزيني. (المحقق)

٣ ـ ذكر ابن شهرآشوب في مناقبه ان هذه الأبيات لعثمان بن حنيف ٢: ٣٤٧.

أن مسلك علي بن أبي طالب في رثائه قتلى معسكر الخصم، ظاهرة فريدة، كان مقدراً لها أن تكون فاتحة وعي جديد في التعامل بين الفرقاء المتنازعين من المعسكر الإسلامي، لا في أسلوب التعامل بعد انتهاء الحرب فقط، بل وقبل بدء الحرب، أو في بدئها.

فدلالة المسلك المذكور ذات بُعد عقائدي، ثقافي، أخلاقي متميز، يصلح أن يكون (سُنّةً) متبعة، لو كان المجتمع صحيحاً من حيث الوعي والالتزام. لأن مثل هذا المجتمع لا يفرّط بهذه الأمثولة المهمة التي تُعد أمثولة فريدة في ظاهر الظاهرة نفسها، وفي أسبابها العميقة.

إن من المحال أن يقدم شخص على ما أقدم عليه علي بن أبي طالب في رثائه القتلى وحزنه عليهم، بوحي من خاطر اللحظة، بل هو مسلك متجذّر في العمق الوجداني له. إنه طبيعة مجبولة على الحب، والسلم، والعدل.

ولكن، لم يُحسن أحد الإفادة من ذلك الدرس الجديد على المجتمع العربي (القبائلي). فقد اعتاد عرب الجاهلية على المفاخرة، قبل الحرب، وفي الحرب قبل النصر، فإذا ما تحقّق انتصار لهم على بعضهم، كان للفخر والحماسة والمديح قصائد طويلة، تصِمُ الخصم المغلوب بأسوأ النعوت.

وكان السبي صورة شائعة من صورة الانتقام والإذلال.

وقد يعمد البعض إلى التمثيل البشع، مثلما فعل (أبو سفيان) بجثة الحمزة عم النبي، وهو يدفع رمحه إلى شدق الشهيد ويقول متشفياً: **«ذق عُقَقْ!»**[1].

⮪ أما ضامر بن شدقم المدني في كتابه (الجمل): ١٤٨ فينسبها لهذه المرأة من عبد القيس.

أما السيّد الخوئي في معجم رجال الحديث يتبنى قول ابن شهرآشوب ١٢: ١١٧.

ويذكرها البلاذري لابن حنيف، أنساب الأشراف: ٢٧.

أما المسعودي فيقول لهذه المرأة ٢: ٣٦٩. (المحقق)

١ ـ تاريخ الطبري ٢: ٢٠٦، البداية والنهاية ٤: ٤٣، سيرة ابن هشام ٣: ٦٠٩ تحقيق محمّد محي ⮫

وفي الواقع، لم يتحرّر المجتمع العربي ـ حتى بعد الإسلام ـ من نـزعات التشـفي، والانتقام، والشماتة، والتمثيل ـ أحياناً ـ بصور مختلفة.

وذلك ناجم عن قوة الحركة الأفعوانية للقبلية، والتي كرستها العصور المختلفة تحت جلد الواقع المتغيّر ظاهرياً، وما هو إلّا غطاء تلك الحركة الأفعوانية القبلية ذات العمر الطويل العجيب.

إن تكريس الوجود العربي للقبيلة، لا يوازيه تكريسٌ مماثل في العالم، من حيث الامتداد الزمني لعمر هذه الظاهرة.

ففي الوقت الذي وصلت فيه القبائلية في (أوروبا) إلى خاتمتها التأريخية على يد البورجوازية، وحلَّ محلها حضور التاريخ الأسري، وتكريس العائلة. فـإن المـجتمع العربي ظل منحنياً على الأساس القبلي له. بشروطه الفكرية، والنفسية، والمادية، ولم تصبه إلّا متغيرات محدودة، وبسيطة، لا تتعدى حدود القشرة الخـارجـية له، أوأكـثر أوأقل من ذلك.

إن ذهنية: «ذُق عُقَق» ظلت الذهنية السائدة رغم العديد من المتغيّرات التي عـاشها واقع العرب. لقد كان درس علي بن أبي طالب درساً للحاضر وللتأريخ. وهو الدرس الموجّه إلى جماعته، وأنصاره، وجنده، الذين كانوا ـ بعد النصر ـ مزهوّين. وكان الزهو مزيجاً من الفرح العسكري، والغبطة الدينية، وبعض بقايا الفخر الجاهلي. وأي قائد ـ سواه ـ لا يمكن أن يُعاكس الزهو الجماعي، لأنه القائد، الذي تجيش في نـفسه بـعد الانتصار في حرب طاحنة، ما تجيش في نفوس أصحابه وجنده، لأنه ـ القائد سوى

الدين عبد الحميد. اعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٨١، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٧٥، سبل الهدى والرشاد ٤: ٢١٨، كتاب العين، لأحمد الفراهيدي، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي و د. مهدي المخزومي: ٦٤، غريب الحديث للهروي ١: ٤٤، الصحاح للجوهري ٤: ١٥٢٨، النهاية في غريب الحديث لابن كثير ٢: ١٧٢، لسان العرب ١٠: ١١٢ و٢٥٧، ومختار الصحاح لمحمّد بن عبد القادر: ٢٣٤، تاج العروس للزبيدي ٧: ١٧، الصحيح من السيرة ٦: ٢٤١. (المحقق)

علي ـ من ذات النسيج.

لكن علياً بن أبي طالب، لم يكن يعرف غير نداء الحقيقة الذي امتلأت به نفسه. انه ذروة الانسجام مع ما رآه الحق، فلم تترك له طبيعته الفكرية ـ وكان فكراً يشفُّ عن فكر ـ أي مجال للمجاملة، مجاملة

جنده المنتصرين[1].

انه يسبح في صدقه، مهما كانت اللحظات دقيقة الوصف، مثلما كان ينعس على فرسه[2]، في بعض آفات الحرب وثوراتها.

وحين كانت ممارسات علي بن أبي طالب، تتوارد على نحو طبيعي جداً فإنها كانت تثير حيرة جمهرة كبيرة من الناس، مثل حيرة عمرو بن جرموز الذي قتل (الزبير) في الصلاة، وكان مجتازاً وادي السباع.

وقد أتى بسيف الزبير وخاتمه. فقال علي:

---

١ ـ أعتاد العرب في الجاهلية على نهب الأموال والممتلكات وسبي النساء، وإباحة كُلّ ما هو غير إنساني في غزواتهم، بل ان المنتصر فيهم لا يجعل معلماً من معالم الحياة عند الطرف الخاسر المنهزم، فليس من السهولة أن يتبعوا منهج علي عليه السلام وهو يوصيهم قائلاً: «إذا وصلتم إلى رحال(١) القوم، فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، إلّا بأذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، إلّا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذىً، وإن شتمن أعراضكم، وسببن(٢) أمراءكم وصلحاءكم، فإنّهن ضعاف القوى والأنفس(٣).

---

(١) الرحال: الموضع الذي فيه المؤن والسلاح والذخائر.

(٢) وفي وقعة صفين: وتناولن.

(٣) وردت الرواية في تاريخ الطبري ٤:٢٦، وفي وقعة صفين: ٢٠٣ وبهذا الاسناد: نصر: عمر بن سعد، حدّثني رجل عن عبد الله بن جندب عن أبيه. (المحقق)

٢ ـ عن عبد الرحمن بن عوف، قال: ألقي علينا النوم يوم أحد، وعن ابن عباس، قال: آمنهم الله تعالى يومئذٍ بنعاس غشاهم، وإنما ينعس من يأمن. وعن ابن مسعود قال: النعاس عند القتال أمنة من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان، أُنظر سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي: ٤ ٢٠٤ (المحقق)

سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، لكنه الحيْنُ ومصارع السوء، وقاتل ابن صفيّة في النار. (فجائزته ـ إذن ـ النار!). فيذعر ابن جرموز، ويندهش، محتاراً، متسائلاً وهو متعجّل في الفرار من غضبة علي: «عجباً. نقتل أعداءهم ويبشروننا بالنار!»[1].

وكذلك قال في أبيات شعر:

أتـيتُ عـلياً بـرأس الزبـير ... وقد كـنتُ أرجـو مـنه الزلفةْ

فـبشّر بـالنار قـبل العِيان ... وبـئس بشـارة ذي التـحفه

لسـيّان عـندي قـتل الزبـير ... وضرطة عنزٍ بذي الجحفه[2]

وأصبح ـ بعد ذلك ـ من أعداء علي بن أبي طالب، من الخوارج، وقتله علي يوم النهروان[3].

فساد شهوة النصر

شأن العجائب الأخرى التي رافقت علياً بن أبي طالب، كانت هناك عجيبة أخرى هي من المعضلات الشاقة التي امتحنَ بها. وهي عجيبة لأنها من طراز مثير، نادر. وهي

---

١ ـ كان ابن الجرموز من قاتل مع عائشة أوّلاً وقتل من أصحاب علي عليه السلام وما أن رأى كفة الربح في معسكر علي عليه السلام ذهب إلى الأحنف بن قيس الذي ترك القتال والانضمام إلى أحد الفريقين، وبعد ان سمع صوت الأحنف قائلاً: «ما عسيت أن أصنع بالزبير إن كان بوادي السباع، وقد جاء فقتل الناس بعضهم ببعض وفتنهم ثمّ انطلق سالماً إلى المدينة» يقول الشيخ المفيد «فعلم القوم انه إنما رفع صوته ليعلمهم بذلك وأنه يعجبه قتله» فذهب إليه ابن الجرموز وصحبه في الطريق حتّى أمنه الزبير وأطمأن إليه فاغتفله بطعنة رمح فقتله ثمّ نزل فحز رأسه.
فاستحقاقه النار يتأتى من أمنه للزبير وقتله له بعد الأمان ثمّ باغتياله أيضاً، راجع الفصول المختارة للشيخ المفيد: ١٤٥، ومن المعلوم أن الغدر والمكر والخديعة والارهاب ليست من الإسلام، فضلاً عن وصية الإمام لعسكره: «لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح...». (المحقق)

٢ ـ الجمل، ضامر بن شدقم المدني: ١٣٧، طبقات ابن سعد ٣: ١١٠، مروج الذهب ٢: ٣٧٣، وشرح نهج البلاغة ١: ٢٣٦، العقد الفريد ٤: ٣٢٣، تنزيه الأنبياء: ٢٠٩. (المحقق)

٣ ـ الفصول المختارة: ١٤٥. (المحقق)

معضلة لأنها كانت تضع له العثرات وهو في طريقه إلى مواجهة المعضلات المجابهة: تلك هي معضلة (وعجيبة) علاقته بأتباعه، وهي ما يمكن تأطيرها بعلاقة القائد بالناس الذين يشكّلون معسكره.

فحين كان علي بن أبي طالب يتوجه في الحروب (وغير الحروب) نحو مواجهة معضلات مصيرية، كانت تبرز معضلات من داخل معسكره، تبدو ثانوية، إلاّ أنها ليست كذلك، في جوهرها، أوفي تطوّرها اللاحق.

وفي حرب الجمل، لم يكن هوس المقاتلين في معسكر الجمل، دفاعاً عن (الدابة)، تعبيراً وحيداً عن الانحراف السايكولوجي للجماعة البشرية، ففي معسكر (علي) برز انحراف لا يقل خطورة، إن لم يكن يزيد على ذلك.

فبعد عربدة الانتصار، تدافع جمع من المعسكر لنيل ثمن هذا الانتصار. من الغنائم. فكأن غريزة التملّك هي مكافأة لغريزة القتل. ولم يكن البحث عن قبض الثمن إلاّ أسوأ وجه غريزة التملّك. وأسوأ من ذلك كله، استرقاق البشر.

لقد قسّم علي بن أبي طالب غنائم السلاح والمتاع والحيوان، إلاّ أن بعضاً من الذين ثارت فيهم ثائرة جنون الاسترقاق، أرادوا قسمة أخرى؛ قسمة المغلوبين عبيداً لهم.

لقد أخذ كل واحد من معسكر علي خمسمائة درهم، لكن ذلك لم يُرضِ جشع أولئك الذين تنادوا بامتلاك البشر واسترقاقهم.

وحين واجههم علي بن أبي طالب بجرأة الحق، قالوا:

«كيف تحلُّ علينا دماؤهم وتحرم علينا سبيهم؟»[١].

فأجاب: **«كيف تحلّ لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام؟»**[٢].

وأوضح حدود المبدأ الذي أراد:

«أما ما أجلب به القوم عليكم في معسكرهم فهو لكم مغنم. وأما ما وارت الدور وأُغلقت عليه

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١: ٢٥٠. (المحقق)

٢ ـ شرح النهج ١: ٢٥٠، شجرة طوبى ٢: ٣٢٥. (المحقق)

الابواب فهو لأهله ... وما كان لهم من مال في أهليهم، فهو ميراث على فرائض الله، لا نصيب لكم في شيء منه..».

فغضب الطامعون أشد الغضب، فما كان لعلي الحكيم إلّا أن يدعم عدله بحكمته، فلجأ إلى الأسلوب الذي يعجز عن إتيانه أي قائد غيره في وضعه النفسي الذي أبانَ عنه خير إبانة، وهو بتوجّه إلى الله شاكياً:

أشكــو اليك عُــجَري وبُــجَري   شفيتُ نفسي وقتلت مـعشري[1]

في ذلك الوضع النفسي من الترحم والألم، والبكاء والرثاء في قتلى معركة الجمل، كان بعض أصحابه يريدون استرقاق الأحياء من معسكر الجمل.

قال لهم، وهو يكتم هدفه:

«اقترعوا ... هاتوا سهامكم!».

فجذبتهم الفرحة جذبة شديدة: إذن قبل علي بن أبي طالب باقتسام أحياء معسكر الجمل عبيداً وإماءً!

فلما تكاثروا عليه، قال:

«فأيكم يأخذ أمه في سهمه؟ أقرعوا على عائشة لأدفعها من تـصيب القـرعة!»فكـان أن غرقوا في الخجل الذي لا يوصف، مدركين بشاعة المنزل الذي تورّطوا فيه.

«نستغفر الله يا امير المؤمنين»[2].

---

١ ـ الفتنة ووقعة الجمل، سيف بن عمر الضبي: ١٦٧، جواهر المطالب ٢: ١٧، تاج العروس للزبيدي ٧: ٢٥٤.

وذكره الطبري بهذه الصيغة:

إليك أشكـو عـجزي وبـجري   ومعشراً غشـوا عـلي بـصري

قـتلت مـنهم مـضراً بمضري   شفيت نفسي وقتلت مـعشري

انظر تاريخه ٣: ٥٣٤. (المحقق)

٢ ـ مناقب أمير المؤمنين لابن سليمان الكوفي ٢: ٣٣١، شرح نهج البلاغة ١: ٢٥٠، أوائل المختار: ☜

ومشوا مطأطئي الرؤوس!

ويقيناً، أن علي بن أبي طالب، الذي لم يُبطره النصر، لأنه كما قال بعد أن وقف على عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص: «**شفيت نفسي وجدعت أنفي**»[١]،كان في تلك اللحظة، التي استغفر الله فيها أتباعه، يدرك عمق الأزمة التي ستنبثق منها ـ في كل حين ـ ضروب من الأزمات، والانفجارات، التي ستكلف الإسلام كثيراً.

فكان أن تراكبت ـ داخل نفسه ـ طبقات من الحزن، فلا عجب أنه كان ـ وهو في ذروة الانتصار ـ أكثر الناس وحدة!

إكرام عائشة

ما كانت عائشة ـ في عرف علي ـ قائداً مغلوباً، بل كانت أم المؤمنين، ولم تكن حرب الجمل، إلّا كابوساً ولّى[٢].

١٢٢، نهج السعادة ١:٣٧٦ ط ٢، تيسير المطالب في ترتيب أمالي السيّد أبي طالب: ٦٢ ط ١. (المحقق)

١ ـ وذكرها المفيد في إرشاده. بالعبارة التالية (جدعت أنفي وشفيت نفسي) ١:٢٥٤، وفي كتابه الجمل ذكر فقط (جدعت أنفي): ٢٠٩. (المحقق)

٢ ـ ومع ما كان يطمح علي عليه السلام للحفاظ على منزلة أم المؤمنين، أراد ـ أيضاً ـ أن يخبرها بفضل الإسلام عليها وعلى أبيها أبي بكر، مع إشارات تربوية سريعة في النصح لاتباع الحقّ والكفّ عن الضغينة والحقد. فأرسل خير من يوصل هذا المعنى ودون أن يوصيه، فأرسل إليها ابن عمه عبد الله بن عباس، يقول ابن عباس: (فأتيتها فدخلت عليها، فلم يوضع لي شيء أجلس عليه، فتناولت وسادة كانت في رحلها فقعدتُ عليها، فقالت يا ابن عباس أخطأت السنّة قعدت على وسادتنا في بيتنا بغير إذننا» فأجابها: «ليس هذا بيتك الذي أمرك الله أن تقرّي فيه، ولو كان بيتك ما قعدت على وسادتك إلاّ بأذنك» ويقول ابن عباس «ثمّ قلت: ان أمير المؤمنين أرسلني إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة» فقالت: «وأين أمير المؤمنين ذاك عمر» فقال لها: «عمر وعلي» قالت: «أبيت» فرأى ابن عباس ضرورة أفحامها، فاندفع قائلاً: «أما والله ما كان أبوك إلاّ قصير المدة عظيم المشقة قليل المنفعة ظاهر الشؤم بيّن النكد، وما عسى أن يكون أبوك، والله ما كان

وكان علي بن أبي طالب، في حرصه على إكرام عائشة، مبدئياً، أميناً على ميراث الرسول، وقد عبّرت عائشة، حين وصلت إلى المدينة، بعد سؤالها: كيف رأيت مسيرك؟ عن عناية علي بها، فأجابت:

«كنت بخير والله، لقد أعطى علي بن أبي طالب فأحثر، ولكنه بعث معي رجالاً أنكرتهم».

وكان علي قد بعث معها أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر وأربعين امرأة من ذوات الدين من عبد القس وهمدان، وهنَّ بملابس الرجال.

وحين كشفن لها عن حقيقتهن، بعد الوصول إلى المدينة، سجدت عائشة، وقالت: **«ما ازددتَ والله يا ابن أبي طالب إلّا كرماً، وددت أني لم أخرج»**[1].

⇐أمرك إلّا كحلب شاة حتّى صرتِ لا تأمرين ولا تنهين ولا تأخذين ولا تعطين، وما كنتِ إلّا كما قال أخو بني أسد:

ما زال إهداء الصغائر بيننا ... نثّ الحديث وكثرة الألقاب

حتّى نزلت كأن صوتك بينهم ... في كلّ نائبة طنين ذباب

قال: فبكت حتّى سُمع نحيبها من وراء الحجاب، ثمّ قالت: إني معجّلة بالرحيل إلى بلادي إن شاء الله تعالى، والله ما من بلد أبغض إليَّ من بلد أنتم فيه» فقال: «ولِمَ ذاك فوالله لقد جعلناك للمؤمنين أُمّاً، وجعلنا أباك صّديقا» قالت: يا ابن عباس أتمنّ عليَّ برسول الله؟ فأجابها ابن عباس: ما لي لا أمنّ عليك بمن لو كان منك لمننت به عليّ» ثمّ يقول ابن عباس «أتيت علياً فأخبرته بقولها وقولي، فسرّ بذلك وقال لي: «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» آل عمران: ٣٤، وفي رواية ابن أبي الحديد قال علي ﷺ: «أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك» شرح نهج البلاغة ٢: ٨٢.

هذا ولا يخفى ان ابن عباس من أشد المخلصين لابن عمه علي ﷺ، حتّى ان علياً ﷺ كان يرى قتاله في الجمل وهو يشق بين الصفين في احتدام القتال وأشده، فقال: «أقر الله عين من له ابن عم مثل هذا» البداية والنهاية ٨: ٢٩٩.

وينقل ابن الأثير في تأريخه ٣: ١٢٨ أمر علي ﷺ بحمل هودج عائشة من بين القتلى، وقيل إن الذي تولّى حمله أخوها محمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر، وقال لأخيها: اضرب عليها هودجاً «وانظر هل وصل إليها شيء من جراحة؟ فأدخل أخوها رأسه في هودجها، فقالت: من أنت؟ فقال: أبغض أهلك إليك، قالت: ابن الخثعميّة؟ قال: نعم، قالت: يا بأبي، الحمد لله الذي عافاك» وقيل: إنها قابلته وقابلها بجفاء لا يخلو من قسوة. (المحقق)

١ ـ الجمل، ضامر المدني: ١٤٩، النصائح الكافية لمحمّد بن عقيل: ٤٩. (المحقق)

وكان بعض الكرم الذي ذكرته عفوه عن عبد الله بن الزبير ابن اختها، والذي بالغ في عدائه لعلي بن أبي طالب وأقذع في شتمه، حين تقدم في يوم الجمل، قائلاً:

«.. قد أتاكم الوغد اللئيم علي بن أبي طالب!»[1].

كذلك، لم تغضبه صفيّة ابنة الحارث، حين زار عائشة في بيت عبد الله بن خلف، وكانت تبكي زوجها القتيل، وتصيح:

«يا علي! يا قاتل الأحبّة.. يا مفرّق الجمع! أيتم الله بنيك منك كما أيتَمت ولد عبد الله منه..».

فلم يقل أكثر من هذه الكلمات، متوجهاً بها إلى عائشة:

«جبهتنا صفيّة.. أما أني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم..»[2].

وعندما أراد أحد رجاله معاقبتها، ردّ غاضباً:

«لا يبلغني عن أحد عَرَض لامرأة فأنكل به شرار الناس!..»[3].

ومن إكرامه لعائشة أنه غض النظر عن أولئك المختبئين في الغرف المغلقة، في دار عبد الله بن خلف،

«فعندما فرغ من زيارته، وهمّ أن يخلف مثاب عائشة، لم يملك أن يردّ بسمة ساخرة لعب طيفها على ثغرة... أفحسب أن القوم قد خدعوه؟ انما غرّهم الوهم إذ ظنّوه طعمة هينة وظنّوا سكوته عليهم غفلة!

فمن اللحظة الأولى التي اجتاز فيها الدار كان يعلم ما يكنّون. ثمة في جو المكان شيء قد علق مع الأنفاس، له رائحة الغدر أوالخديعة، أوالمؤامرة حيك نسيجها على حياته. الأبواب المغلقة نفسها كأنها كشفت عن سرّها له، وأبدت ما ضمّته الحجرات.. ومع ذلك فإنه استمسك

---

١ ـ كان علي عليه السلام يقول: مازال الزبير رجلاً منها أهل البيت حتى شب عبد الله، فظفر به يوم الجمل، فأخذه أسيراً، فصفح عنه، وقال: اذهب فلا أرينك، لم يزده على ذلك، وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة وكان له عدواً، فاعرض عنه ولم يقل له شيئاً.
انظر كتاب الأربعين: ٤١٧، شرح نهج البلاغة ١: ٢٢. (المحقق)

٢ ـ الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ١٧٩، الطبري في تأريخه ٣: ٥٤٣. (المحقق)

٣ ـ تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، نهج السعادة ١: ٣٣١. (المحقق)

بأناته، وأغضى عينه، وكتم عن مضيفته أنه فهم ما أخفته الدار.

ولما وَدَّعَ السيدة، وغدا على مبعدة من مثابها قليلاً، ألقى نظرة عابرة على الأبواب المغلقة وراءه وهو يشير نحوها واحداً بعد الآخر، وقال:

«أما لهممت أن أفتح هذا الباب فأقتل من فيه.. ثم هذا فأقتل من فيه..». فلقد كانت الحُجَر تضم طائفةمن أعدائه، جرحى أصحابه، ضاق بهم فرارهم، فآوتهم عائشة سراً لديها دون أن تُعلمه. فمنذ أكان يدريها أن أحدهم لا تهيجه مواجده ولا يطلق سهماً على حين غرّة من خلل أحد الأبواب إلى ظهر ضيفها فيرديه؟»(١).

وقد ظلّت عائشة إلى آخر يوم من حياتها، تحزن حزناً شديداً اذا سمعت ذكر يوم الجمل، ولقد قالت:

«وددت لو أني كنت جلستُ كما جلس صواحبي، فكان ذلك أحبَّ اليَّ من أن أكون وَلَدتُ من رسول الله بضع عشرة، كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومثل عبد الله بن الزبير»(٢).

وكانت إذا قرأت الآية القرآنية: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾(٣) تبكي حتى تبلّ خمارها(٤).

ويرى أنها رصدت لابن عمر من يُعلمها به، اذا مرَّ بها، فلما مرَّ بها وعلمت به، قالت:

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الامام علي بن أبي طالب. (المؤلف)

يقول الشيخ المحمودي في نهج السعادة ١:٣٣١، ورواية الطبري وإن كانت ضعيفة السند جداً، ومتنها أيضاً قد خلط غثه بثمينه، إلّا أن القطعة التي ذكرنا منها ـ مقرونة بالصواب عدا قوله: «فأخبر علي بمكانهم عندها فتغافل عنهم» فإنه عليه السلام لم يكن غافلاً عنهم وعن مكانهم عند عائشة، بل آمنهم في قوله مراراً قبل الحرب وبعدها: لا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن». وإنما قلنا بأعتبار هذه القطعة لكونها مروية عن غيره أيضاً ويساعدها الاعتبار. (المحقق)

٢ ـ أُسد الغابة ٣: ٢٨٤، طبقات ابن سعد ٥:٦، والفتوح لابن أعثم ٢:٣٤١ ـ ٣٤٢. (المحقق)

٣ ـ سورة الأحزب: ٣٣. (المحقق)

٤ ـ الدر المنثور ٥:١٩٦، طبقات ابن سعد ٨:٨١. (المحقق)

ادعوه، فدعوه، فقالت:

يا أبا عبد الرحمن.. ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟

قال: رأيت رجلاً قد غلب عليكِ! وظننتُ أنكِ لا تخالفينه (يقصد ابن الزبير).

قالت: أما أنك لو نهيتني ما خرجت!![1].

ويروى كذلك، عن أبي جندب، قال:

دخلتُ عائشة رضي الله عنها بالمدينة.

فقالت: من أنت؟

قلت: رجل من الأزد، أسكن الكوفة!

قالت: أشهِدتنا يوم الجمل؟

قلت: نعم

قالت: لنا أم علينا؟

قلت: عليكم!

قالت: أفتعرف الذي يقول: يا أمّنا يا خيرَ أمٍ نعلمُ؟[2].

قلت: ذاك ابن عمّي.

---

١ ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. (المؤلف) وأنظر مسند ابن راهويه ٢: ٣٤، نصب الراية للزيعلي ٥: ٤٨، تاريخ مدينة دمشق ٣١: ١١٠، سير أعلام النبلاء ٢: ١٩٣، النصائح الكافية: ٤٩. الاستيعاب: ٣٥٤ بترجمة عبد الله المرقمة ١٥١٨ وشرح النهج ٤:٤٨١ ط قديمة ٢٠: ١٠٧ طبعة دار إحياء الكتب العربية. نصب الراية للزيعلي جمال الدين ٥:٤٨ تحقيق ايمن صالح شعباني دار الحديث القاهرة ١٩٩٥ م. تاريخ دمشق ٣١:١١٠، المناقب للخوارزمي: ١٨٢. (المحقق)

٢ ـ هذا من رجز به الحارث بن زهير الأزدي، وكان في جيش علي، وذلك حين رأى قومه يسقطون قتلى، وهم يتهافتون على خطام الجمل، وهذا الرجز هو:

يـا أمـنا خـير أمٍ نـعلمُ — أما ترينَ كم شجاعٍ يُكلمُ

وتختلى هامة والمعصم

(المؤلف)

فبكت حتى ظننتُ أنها لا تسكت![١].

---

١ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك (المؤلف) وانظر المصدر نفسه ٣: ٥٢٩، وذكره العلامة العسكري في كتابه أحاديث أمّ المؤمنين عائشة ١: ٣٤٧. (المحقق)

الفصل الرابع

▣ دلائل الشجاعة في حرب صفين

تجلّت شجاعة علي في تكاملها بذاتها، أي بجميع أشكالها وصنوفها، مثلما تجلّت في وحدة علاقتها مع مبادئه الانسانية. فكانت شجاعته انتماء إلى تلك المبادىء، وكانت تلك المبادىء إنتماءً إلى الشجاعة. وكلا الاثنين ـ المبادىء والشجاعة ـ من نسيج واحد، يتحركان ويعملان في فلك واحد.

ولم تكن الشجاعة، صنفاً واحداً، في أي وقت، بل هي أصناف، وليست شجاعة القتال إلّا صنفاً واحداً من بين تلك الأصناف. وقد يوجد صنف من الشجاعة فوقها، وصنف آخر تحتها.

فمراتب الشجاعة قائمة، مع أصنافها وأنواعها.

وكانت شجاعة علي بن أبي طالب لاتحتاج إلى من يدل عليها. فحسب معاوية بن أبي سفيان أنه قال، حينما اقترح علي بن أبي طالب اختصار المعركة وحسمها بالمنازلة بينهما: **«إن علياً لم يبارزه رجل قط إلّا قتله أو أسره.»**

رُويَ في ذلك أن علياً نادى:

«يا معاوية، علامَ يُقتل الناس بيني وبينك؟ هلم أحاكمك إلى الله، فأيُّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور»، فقال له عمر بن العاص: «قد أنصفك الرجل» فقال له معاوية: «ما أُنصفت، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلّا قتله أوأسره. فقال له عمرو: وما يجمُل بك إلّا مبارزته، فقال له معاوية: طمعتَ فيها بعدي!»[1].

---

١ ـ البداية والنهاية ٧: ٣٠١ تحقيق علي شري، وينقل ابن شهرآشوب في مناقبه ٢: ٣٦٠ إن علياً عليه السلام بعد ان ابلى في القتال نادى معاوية وقال أسألك ان تحقن الدماء وتبرز إليّ وابرز إليك فيكون ←

ولم يكن من الشجاعة في عرف علي التقحُّم في القتال، بدون النظر طبيعة القتال، والمتقاتلين، فكانت رؤيته التي تربط الدنيا بالدين، والسياسة بالحق، والقتال بالمبادىء والقيم، هي التي تتحكّم بخطوته التي يخطوها(١).

وكما كانت حرب الجمل الانشقاق الدامي الرهيب بين المسلمين، كانت حرب صفّين نسخة أخرى من اقتتال المسلمين مع فارق بارز، في القيادة.

ففي حرب الجمل كانت قيادة عائشة وطلحة والزبير قيادة إسلامية ذات تأريخ مشهور، في حين كانت قيادة معاوية بن أبي سفيان ذات حضور إسلامي متأخّر. فمعاوية وأبوه من (الطلقاء) الذين عفا الرسول الكريم عنهم في فتح مكة، فأطلق له الحرية، والسراح.

فمعاوية لم يكن من الصحابة الأولين، ولا من المجاهدين، ولم يكن ـ بعد إسلامه ـ ليرقى، فيما بعد، إلى عضوية مجلس الشورى(٢).

ومع قوة الفارق المذكور وأهميته، فان الحرب كانت حرباً إسلامية ـ إسلامية. فقد

الأمر لمن غلب فبهت معاوية ولم ينطق بحرف ثمّ قاتل علي وهو ينشد:

فهل لك في أبي الحسن علي ... لعلّ الله يمكن من قفاكا

دعاك إلى البراز فكعت عنه ... ولو بارزته تربت يداكا

... (المحقق)

١ ـ يقول علي عليه السلام: «فوالله ما دفعتُ الحربَ يوماً إلّا وأنا أطمعَ أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحبّ إليّ من أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها». من خطبة ٥٥ نهج البلاغة شرح صبحي الصالح: ٩١. (المحقق)

٢ ـ نقل ابن سعد عن عمر بن الخطاب قائلاً: «لا تصلح الخلافة لطليق، ولا لولد طليق، ولا لمسلم الفتح» طبقات ابن سعد ٣:٣٤٢ وعنه في وضوء النبي للشهرستاني ١:٢٤٥. ومن المعلوم ان معاوية لم يسلم إلّا تحت ضلال السيوف وأسنة الرماح وان رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح مكة أطلق سراحهم وعفا عنهم بقوله: أنتم الطلقاء. انظر كتاب الأمّ للشافعي ٧:٣٨٢، والمبسوط للسرخسي ١٠ز٤٠، الجوهر النقي للماردیني ٩:١١٨، سبل السلام لابن حجر العسقلاني ٢:١٩٧ / ٤:٤٥، نهج البلاغة، محمّد عبده ٣:١٧. (المحقق)

كان معسكر معاوية خمسة وثمانين ألف مقاتل[١]، يقودهم هو، وأركان قيادته: في المقدمة أبو الأعور السُّلمي، وعلى الساقة بُسْر بن أرطأة، وعلى لخيل عبيد الله بن عُمر، وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

وكان معسكر علي بن أبي طالب أكثر من تسعين ألف مقاتل، وأركان قيادته الأشتر النخعي على المقدمة، وشريح بن هانىء على الساقة، ومحمد بن أبي بكر على المهاجرين والأنصار، وعبد الله بن عباس على أهل البصرة، وعبد الله بن جعفر على أهل الكوفة، وعمار بن ياسر على الخيل، والحسن بن علي على القلب[٢].

ان هذه الحشود الضخمة هي كل قوى الإسلام، التي لم يتخلّف عنها إلّا القليل.

وكانت نظرة علي بن أبي طالب، إلى هذه الحرب نظرة المتألم، المشفق، المدرك لحقيقة أن ضحايا الحرب هم ضحايا الإسلام، فالإسلام هو الخاسر الوحيد.

لذلك لم يكن تعبير الشجاعة لديه بالتوجه المطلق للحرب، بكل ما يعنيه ذلك التوجّه من قتل، وضراوة، وسحق.

فهو ليس مثل القادة العسكريين الذين يجعلون الحرب وكأنها هدف في ذاتها، لأنهم لا يدركون قيمة للمبادىء الإنسانية، ولا للحق ولا للسلم. لقد جعل أمثال أولئك القادة الحرب اكتساحاً، لا مراجعة فيه للضمير. لكن علياً بن أبي طالب، الذي كان أكبر من قائد، لأنّه صاحب أمانة الرسول، ووريث علمه، وحقّه، كان يتقدم إلى الحرب مضطراً، لأن معاوية بن أبي سفيان أعلن العصيان، ورفض بيعة المسلمين العلنية له. ولذلك عمد قبل إعلان اللحظة الفاصلة، إلى إرسال الوفود والرسائل، حقناً لدماء المسلمين، وحفاظاً على وحدة الصف الإسلامي.

---

١ ــ مروج الذهب ٢:٤١٦. (المحقق)

٢ ــ وقعة صفين : ٢٠٦، فتوح ابن أعثم ٢:٤٣٧، الأخبار الطوال : ١٦٧، الإمامة والسياسة ١:١٢٣. (المحقق)

ولم تكن الدعوة إلى وحدة الصف الإسلامي حماية للإسلام وجوهره، من داخل المجتمعات الإسلامية فقط، بل كانت هناك ضرورة لحماية الإسلام من تربّص أعدائه الخارجيين له. في حين كان معاوية بن أبي سفيان متوجهاً الى الحرب بكليّته، مستعداً لمساومة العدوالخارجي، من أجل فوزه في الحرب الداخلية. فكان أن أرسل مالاً إلى ملك الروم لمصالحته، وللتفرغ لحرب علي.

وكما فعل علي بن أبي طالب في حرب الجمل. بعث بـ(جرير بن عبد الله)[1] إلى (معاوية)، ضمن سياسته الهادفة إلى الموادعة والسلم. لكن إصرار معاوية على الحرب، كان قد دفعه إلى ابتداع أساليب متنوعة عن إبطال مفعول سياسة السلم التي انتهجها علي بن أبي طالب. وكان مكره في شراء الذّمم، والتزوير، قد أفلح في سحب بعض الرسل إلى جهته، فكان أول مبعوث لعلي قد خرج إلى بلاد قرقيسيا والرحبة من شاطىء الفرات، ثم استدعاه معاوية اليه. وكان سيل الرسائل والكتب قد استمر نحو سنة، ولم تكن رسائل معاوية إلّا لتزيد الضرام ضراماً، فكانت مادة اشتعال أكثر من كونها رسائل حوار، لأن الحرب كانت هدفه الثابت، الذي جنّد كل طاقاته السياسية، والعسكرية، والمالية والنفسية.

كتب علي إلى معاوية:

«أما بعد، فان القضاء السابق، والقَدَر النافذ، ينزل من السماء، كقطر المطر، فتمضي أحكامه عزّ وجل، وتنفذ مشيئته، بغير تحابّ المخلوقين، ولا تراضي الآدميين.. وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله، وبيعة الناس عامة، إياي، ومصارع الناكثين لي، فادخل فيما

---

١ ـ وهو ممّن استطاع معاوية شرائهم، وروى الحارث بن حصين ان رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبد الله نعلين من نعاله، وقال: «احتفظ بهما، فإن ذهابهما ذهاب دينك» فلما كان يوم الجمل ذهبت احداهما، فلما أرسله علي عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأُخرى ثمّ فارق علياً عليه السلام واعتزل الحرب. وهذا ما قال به ابن أبي الحديد ٤: ٧٤ ـ ٧٥ وينقل البلاذري في أنساب الأشراف ٢: ٣٨٦ ان جريراً بن عبد الله رجع اعرابياً بعد أن دعا عليه أمير المؤمنين عليه السلام بسبب كتمانه لحديث الغدير. (المحقق)

دخل الناس فيه، وإلّا فأنا الذي عرفتَ، وحولي من تعلمه.. والسلام»[١].

وكان الحق يدعو إلى أن يُسمي علي بن أبي طالب الأشياء بأسمائها، ويُرجع كلاً إلى نصابه، بعد أن وجد أن معاوية ممعن في التمرد، مصمم على الحرب.

فكتب إليه رسالة جوابية:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتَ مِنَ ٱلْأُلْفَةِ وَٱلْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَٱلْيَوْمَ أَنَّا ٱسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرْهاً، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ ٱلْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ حرباً.

وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ ٱلْمِصْرَيْنِ! وَذٰلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ، فَلَا عَلَيْكَ، وَلَا ٱلْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ.

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، وَقَدِ ٱنْقَطَعَتِ ٱلْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ (يعني عمرو بن أبي سفيان، المأسور في بدر)، **فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ**[٢]**، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذٰلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ ٱللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ! وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ:**

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ ... بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدِيَ السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ[٣]**، وَإِنَّكَ وَٱللهِ مَا عَلِمْتُ ٱلْأَغْلَفُ ٱلْقَلْبِ، ٱلْمُقَارِبُ ٱلْعَقْلِ، وَٱلْأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ لَكَ: إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا فِي مَعْدِنِهِ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ!! وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقَاوَةُ، وَتَمَنِّي ٱلْبَاطِلِ، عَلَىٰ ٱلْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً، بِوَقْعِ سُيُوفٍ مَا خَلَا مِنْهَا ٱلْوَغَىٰ، وَلَمْ تُمَاشِهَا ٱلْهُوَيْنَىٰ.**

---

١ ـ الإمامة والسياسة ٨٢:١ط مصر / ١٠٢:١ تحقيق الشيري، والمختار (٢٨) من كتب مستدرك النهج والمختار (٣٧٧) من جمهرة رسائل العرب ٣٨٥:١. (المحقق)

٢ ـ استرفِه: استرح، لا تعجَل، فأنا القادمُ إليك. (المؤلف)

٣ ـ وهم على التوالي: عتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وحنظلة، وهم قتلى سيف علي في معركة بدر. (المؤلف)

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ، فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ.

وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ»[1].

وكتب معاوية:

«أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان، كنتَ كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذّلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلّا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان... فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين!».

«وكان أهل الحجاز الحكام على الناس، وفي أيديهم الحق، فلما تركوه صار الحق إلى أهل الشام!! ولعمري.. ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، ولا حجّتك عليَّ كحجتك على طلحة والزبير.. لأن أهل البصرة بايعوك، ولم يُبايعك أحد من أهل الشام، وان طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعك.. وأما فضلك في الإسلام وقرابتك من النبي ﷺ، فلعمري ما أدفعه ولا أنكره»[2].

فكان جواب علي:

«أما بعد، فقد جاءني منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاستقاده.. زعمت أنك انما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان! ولعمري، ما كنتُ إلّا رجلاً من المهاجرين، أوردتُ كما أوردوا، وأصدرتُ كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضربهم بالعَمَى.. وما أمرتُ فيلزمني خطيئة عثمان، ولا قتلتُ

---

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)

(في أوّل الفصال) انظر نهج البلاغة شرح محمّد عبده ٣: ١٢٤، الاحتجاج ١: ٢٦٥ وذكر ابن شهرآشوب العبارة (فإنها خدعة الصبي عن اللبن ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك...)مناقبه ٢: ٣٥٠. (المحقق)

٢ ـ شرح النهج ٣: ٨٨، الإمامة والسياسة ١: ٨٧ ط قديمة / ١: ١٢١ تحقيق الشيري، وقعة صفين لابن مزاحم المنقري: ٥٦، الغدير للعلامة الأميني ١٠: ٣١٩. (المحقق)

فيلزمني قصاص القاتل!

«وأما قولك إن أهل الشام هم الحكام على الناس، فهات رجلاً من أهل الشام يقبل في الشورى، أوتحلُّ له الخلافة، فإن سمّيتَ كذّبك المهاجرين والأنصار، وإلّا أتيتك به من قريش الحجاز.

«وأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان.. فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى به منك! فإن زعمت أنك أقوى على ذلك، فادخل في الطاعة، ثم حاكم القوم اليَّ!».

«وأما تمييزك بين الشام والبصرة، وذكرك طلحة والزبير، فلعمري ما الأمر إلّا واحد.. إنها بيعة عامة، لا يُثني فيها النظر، ولا يُستأنف فيها الخيار».

«وأما ولوغك بي في أمر عثمان، فوالله ما قلتَ ذلك عن حق العيان ولا عن يقين الخبر.

«وأما فضلي في الإسلام، وقرابتي من رسول الله عليه السلام، وشرفي في قريش، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته!»[1].

ومن رسائل معاوية إلى علي رسالة تكشف عن جذر الحقد الذي يكنُّه معاوية لعلي، والذي امتزج بشعار المطالبة بدم عثمان امتزاجاً مكشوفاً، وهي تقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب.

«أما بعد فان الله اصطفى محمداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه، ثم اجتنى له من المسلمين أعواناً أيّده بهم. فكانوا في المنازل عنده عليّ قدر فضائلهم في الإسلام، وكان أنصحهم لله ورسوله خليفته ثم خليفة خليفته، ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان.

«فكلهم حسدتَ وعلى كلهم بغيتَ. عرفنا ذلك في نظرك الشزْر، وقولك الهُجر. وتنفسُّك الصُعداء، وإبطائك على الخلفاء. في كل ذلك تُقاد كما يُقاد الجمل المخشوش ولم تكن لأحد

---

١ ـ وقعة صفين: ٥٧ ـ ٥٨، العقد الفريد ٤: ٣٣٣، الفتوح لابن أعثم ٢: ٤٣١ ـ ٤٣٢، الكامل للمبرد ١: ٤٢٨، الإمامة والسياسة ١: ١٢٢ تحقيق الشيري. (المحقق)

منهم أشد حسداً منك لابن عمتك. وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله، فقطعت رحمه، وقبّحت حسنه، وأظهرت له العداوة، وأبطنت له الغش، وألّبت الناس عليه، حتى ضُربت آباط الإبل إليه من كل وجه، وقُيّدت الخيل من كل أفق، وشُهر عليه السلاح في حرم رسول الله ٩ فقُتل معك في المحلة وأنت تسمع الهائعة لاتدرأ عنه بقول ولافعل. ولعمري يا ابن أبي طالب، لو قمتَ في حقه مقاماً تنهى الناس فيه عنه، وتُقبّح لهم ما اهتبلوا منه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً، ولمحا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة له والبغي عليه. وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفّان ظنين، إيواؤك قتلته، فهم عضدُك ويدك وأنصارك، وقد بلغني أنك تنتفي من دم عثمان وتتبرأ منه. فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به، ثم نحن أسرع الناس إليك، وإلّا فليكن بيننا وبينك السيف، ووالذي لا إله غيره لنطلبنّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أوتلحق أرواحنا بالله والسلام»[1].

ويعلّق د. طه حسين:

«وأنت ترى من كتاب معاوية أنه لم يكن يريد سلماً ولا عافية. وإنما كان يريد أن يعذر نفسه عند أصحابه من أهل الشام، وعند المترددين، والمتأثمين منهم خاصة. فطالب السلم والعافيةلا يكتب إلى خصمه ليؤذيه ولا ليحفظه ولا يغيظه ويثير في نفسه الموجدة والشنآن».

و«قد أبلغ معاوية في التحدي حتى زعم لعلي أنه إن دفع إليه قتلة عثمان أسرع وأسرع معه أهل الشام إلى بيعته وطاعته، ومعاوية كان يعلم حق العلم أن علياً لن يقبل هذا التحدي ولن يُسلِّم إليه قتلة عثمان، وهو يتحدّى السلطان ويُنذره على هذا النحو، وإنما كانت سبيله، لو قد آثر السلم والعافية، أن يبايع ويطيع أولاً ثم يتقدم إلى الخليفة طالباً أن ينصفه من الذين قتلوا ابن عمه، وأن ينصف أبناء عثمان من الذين قتلوا أباهم».

«ثم كان معاوية يعلم حق العلم بعد هذا كله أن علياً لو قدر على قتلة عثمان لأقاد منهم في المدينة، حين تحدث إليه في ذلك من بايعه من المهاجرين والأنصار، فكيف وقد صار إلى

---

١ ـ البلاذري: أنساب الأشراف. (المؤلف)، مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٣٤٩، الأنوار العلوية: ٢٢٣. (المحقق)

العراق وأقام بين أظهر الكثرة التي ثارت بعثمان حتى قتلته»(١).

فكان جواب علي كافياً، يستوعب البعد التاريخي للمسألة، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان.

«أما بعد، فان أخا خولان قدم علي بكتاب منك تذكر فيه محمداً وما أكرمه الله به من الهدى والوحي، فالحمد لله الذي صدق له الوعد، ومكّن له في البلاد، وأظهره على الدين محلّه، وقمع به أهل العداوة والشنآن من قومه الذين كذّبوه وشنّعوا عليه وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه، وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون. فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه إلّا قليلاً ممن عصم الله. وذكرت أن الله جلّ ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعواناً أيّده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم خليفته وخليفة خليفته من بعده. ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم وإن المصاب بهما لرُزء جليل. وذكرت أن ابن عفان كان في الفضل ثالثاً، فان يكن عثمان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزي بها، وان يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره. واني لأرجو إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت المسلمين. ان الله بعث محمداً ﷺ فدعا الإيمان بالله والتوحيد له، فكنّا أهل البيت أول من آمن وأناب. فمكثنا وما يعبد الله في ربع سكن من أرباع العرب أحد غيرنا. فبغانا قومنا الغوائل، وهمّوا بنا الهموم، وألحقوا بنا الوسائط واضطرونا إلى شعب ضيق وضعوا علينا فيه المراصد، منعونا من الطعام والماء العذب، وكتبوا بينهم كتاباً ألّا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يبايعونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا أوندفع اليهم نبيّنا فيقتلوه أويمثلوا به، وعزم الله لنا على منعه والذبّ عنه وسائر من أسلم من قريش أخلياء مما نحن فيه، منهم من حليف ممنوع وذي

---

١ ـ د.طه حسين: الخلفاء الراشدون، المجلد الرابع. (المؤلف)، نفس المصدر، طه حسين: صفحة ٤٩٤ ـ ٤٩٥ طبعة بيروت، دار الكتاب اللبناني الطبعة الأُولى ١٩٧٣ م. (المحقق)

عشيرة لاتبغيه كما بغانا قومنا، فهم، التلف بمكان نجوة وأمن. فمكثنا بذلك ما شاء الله ثم أذن الله لرسوله في الهجرة وأمره بقتال المشركين. فكان إذا حضر البأس ودُعيت نَزَال قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه، فقتل عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وجعفر يوم مؤته، وتعرّض من لو شئتُ أن أسمّيه سميتُه، لمثل ما تعرّضوا له من الشهادة، لكن آجالهم حضرت ومنيّته أخرت. وذكرت إبطائي عن الخلفاء وحسدي لهم، فأما الحسد فمعاذ الله أن أكون أسررته أوأعلنته. وأما الإبطاء فما أعتذر إلى الناس منه. ولقد أتاني أبوك حين قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وبايع الناس أبابكر، فقال: «أنت أحقّ الناس بهذا الأمر، فابسُط يدك أبايعك» وقد علمتَ ذلك من قول أبيك، فكنتُ الذي أبيت ذلك مخافة الفرقة، لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية. فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تُصب رشدك، وإلّا تفعل فسيغني الله عنك. وذكرت عثمان وتأليبي الناس عليه، وإن عثمان صنع ما رأيت فركب الناس منه ما قد علمت وأنا من ذلك بمعزل، إلّا أن تتجنّى ما بدا لك. وذكرت قتلته بزعمك وسألتني دفعهم إليك، وما أعرف له قاتلاً بعينه. ولقد ضربتُ الأمر إلى أنفه وعينيه فلم أرَه يسعني دفع من قبلي ممن اتهمته وأظننته إليك. ولئن لم تنزع عن غيك وشقائك لتعرفن الذين تزعم أنهم قاتلوه طالبين لا يكلفونك طلبهم في سهل ولا جبل، والسلام»[١].

صيحة الحرب

لم تكن هناك جدوى من الرسائل، ودعوات السلم، والعودة إلى وحدة الصف الإسلامي، ولم يجد علي بن أبي طالب أمامه غير سبيل التوجه إلى الشام، هناك حيث أنشأ معاوية سلطانه بقوة، وأناة[٢].

---

١ ـ وقعة صفين: ١٠٢، العقد الفريد ٢:٢٨٦، نهج البلاغة ٣: ١٠، شرح ابن أبي الحديد ٣:٤٠٩، مناقب الخوارزمي: ١٧٥، أنساب الأشراف: ٢٨٢. (المحقق)

٢ ـ لم يقتنع معاوية بالسلم، لان في السلم يصعب عليه أن يبقى في ولايته وسلطانه وهو يعلم ذلك جيداً فضلاً عن طموحه لإمارة المسلمين جميعاً، كما وإن حقده على علي عليه السلام وآل الرسول ☜

وما كان من معاوية، وهو يسمع بتقدّم عسكر علي، إلّا أن يلاقيه؛ فالتقى الجمعان في صفّين[1] قرب الفرات، وكان دهاء معاوية الذي رافقه في خطواته الصغيرة، والكبيرة، قد أوحى له بأن يجتاز (الشريعة) على الفرات ليحول بين جيش علي وبين ماء الفرات: كان يروم إماتة الجند عطشاً!

ولم تنفع سفارات علي بن أبي طالب في إباحة الماء للجميع، بل أوغل معاوية إصراراً، فكثّف من حراسته المسلّحة على الشريعة، حتى بات الاصطدام محتوماً: اذ، ماذا يفعل المحاربون القادمون من حرب الجمل تواً، والذين لم يمكثوا في الكوفة إلّا أشهراً معدودة، بعد اقتطاع المسافات البعيدة، وهم يجدون حصار العطش الضاري في انتظارهم؟!

كانت الهجمة الأولى، من أجل فتح الطريق إلى شريعة الماء، قد برهنت ـ بلا لبس ـ على أن القوة هي الحل الوحيد.

وانحسرت قوة حراسة معاوية أمام الهجمة، وأصبحت شريعة الماء تحت سيطرة جيش علي بن أبي طالب[2].

جميعاً جعله أكثر انتقاماً ورغبة لخوض الحرب. وقد أشار الزبير بن بكار ـ وهو الكاتب الأموي المعروف ـ إلى هذا الحقد، فعن المطرف بن المغيرة عن أبيه من حديث طويل جاء فيه انه قال لمعاوية في إحدى خلواته به: «انك قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات... أي ذكرٍ أرجو بقاءه، ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل أبو بكر، ثمّ ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا ان هلك حتّى هلك ذكره إلّا أن يقول قائل عمر، وإن ابن أبي كبشة!! ليصاح به كلّ يوم خمس مرات: أشهد أن محمّداً رسول الله، فأي عمل يبقى، وأي ذكر يدوم بعد هذا ـ لا أباً لك ـ لا والله إلّا دفناً دفناً». الموفقيات: ٥٧٧. (المحقق)

١ ـ صفين: وهو موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وبالس والرقة مناطق من بلاد الشام. معجم البلدان للحموي ١: ٣٢٨ ـ ٣٢٩. (المحقق)

٢ ـ شرح نهج البلاغة ١: ٢٣، الإمامة والسياسة ١: ٩٤ (ط قديم). (المحقق)

وهنا تتجسد ـ مرة أخرى ـ شجاعة علي الإنسانية، التي يعلو بها على سواه من الشجعان: فهو لم ينتقم من معسكر معاوية بالحيلولة بينه وبين الماء، بل جعله حقاً للطرفين، فلا انتقام ولا معاملة بالمثل[١].

وكان ذلك الأسلوب الإنساني الرفيع، الذي يدل على شرف المعدن وطهر النفس، قميناً أن يحمل للمتحاربين مصابيح الهداية، فيرفع الغلّ، لكن المخطط كان عميق الجذور، بعيد المدى، شديد الاستحكام في النفوس، فضاعف نزاهة المعاملة في كدر القلوب المضطرمة بالنزاع[٢].

قبل ذلك، كانت توصيات علي ساطعة، مثل توصياته قبل حرب الجمل، وأثناءها: عدم المبادأة بالهجوم. وكان في ذلك يرسم الاطار العام لمعاملة إنسانية لا تسمح للحرب بأن تتجاوز حدودها المفروضة بين الفرقاء المسلمين.

إنه ـ وهو بدافع عقائدية نهائية الرسوخ ـ معني بوضع الضوابط الصحيحة كي يلجم الاندفاعات الغريزية الهوجاء التي تطلقها وحشية الحرب.

ورغم أن الحرب ابتدأت، وهي تشير إلى خطورتها، فإنه كان حريصاً على أن لا تنطلق حرباً عامة، فكان يُعالجها بالتجزئة، وبالاقتتال المحدود، فتقاتل الفرقة الفرقة، ويبارز الفرد الفرد، عسى أن لا تفلت الحرب فتصبح حرباً شاملة لا علاج لها. **«فلما استيأس علي من خصمه عبًا أصحابه على راياتهم وجعلت فرقهم تخرج إلى فرق معاوية. تخرج فرقة في هذا اليوم من أصحاب علي، فتخرج لها فرقة من أصحاب معاوية، فتقتتل**

---

١ ـ انظر الفخري في الآداب السلطانية: ٨٠. (المحقق)

٢ ـ وصدق القائل: سعد بن محمّد بن سعد بن صيفي الملقّب بشهاب الدين والمعروف بالحيص بيص والمكنّى بأبي الفوارس

ملكنا فكان العفو منا سجيةً	**فلما ملكتم سال بالدمِ أبطح**
وحللتم قتل الاسارى وطالما	**غدونا عن الأسرى نعف ونصفح**
وحسبكم هذا التفاوت بيننا	**وكلّ إناءٍ بالذي فيه ينضح**

انظر ترجمة محمّد حسين كاشف الغطاء في شعراء الغري ٨: ١٣٣، طبعة مكتبة المرعشي النجفي رحمه الله (المحقق).

الفرقتان نهارهما أووجهاً من نهارهما ثم تتحاجزان. وعلي لا يتجاوز ذلك إلى الحرب العامة رجاء أن يثوب خصومه إلى رشدهم وأن يفيئوا إلى أمر الله ويؤثروا العافية بين المسلمين. ومضى الأمر على هذا أياماً عشرة أوأقل أوأكثر من آخر ذي الحجة، ثم أظلّ الناس شهر المحرم، وهو شهر حرام، فتوادعوا شهرهم كله وأمن بعضهم بعضاً، وسعت بينهم السفراء سعياً متصلاً، ولكنهم أنفقوا شهرهم كله دون أن يصلوا إلى صلح أوشيء يشبه الصلح، واستبان لأولئك وهؤلاء في غير شك ولا لبس أن ليس بدّ من أن يصطدم الجمعان»[١].

هبت الحرب القوية، باحتدامها الذي ينطوي على أعمق أسبابها، وكان جيش علي يحمل علامات النصر، سيما أن عقائدية مقاتليه، كانت تستحضر صور قتال الإسلام ضد الشرك في زمن الرسول.

وكان حضور عمار بن ياسر دافعاً قوياً في تصعيد الحماسة الإسلامية، وفي اعطاء تخريج عقائدي لهذه الحرب[٢]، لا يبعد أن يكون مقتبساً من تحليل علي بن أبي طالب، أوأنه يتشابه وإياه في وحدة المنطلق والفهم. وقد أوجز تخريجه لفكرة الحرب الآن بأنها بسبب تأويل القرآن، فيما كانت الحرب سابقاً على تنزيله.

كان عمار بن ياسر يُحارب عمروبن العاص، مرتجزاً:

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقيلِهِ   ويُذهلُ الخليلَ عن خليله

---

١ ـ د.طه حسين: الخلفاء الراشدون، المجلد الرابع.(المؤلف)، نفس المصدر، ط حسين: ص٤٩٩ ـ ٥٠٠. (المحقق)

٢ ـ قال رسول الله: (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) انظر الخلاف للطوسي ١:٦٥٧ والاقتصاد للطوسي: ١٨١. وننقل بعض ممّا نقله ابن أبي الحديد من حوار بين عمّار وعمرو بن العاص، فقال له عمّار: «سأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك، إن رسول الله ﷺ أمرني أن أقاتل الناكثين فقد فعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين وأنتم هم، وأمّا المارقون فلا أدري أدركهم أو لا. أيها الأبتر ألست تعلم أن رسول الله ﷺ قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، فأنا مولى الله ورسوله وعلي مولاي بعدهما» شرح النهج ٢:٢٧١. (المحقق)

أويُرجع الحق إلى سبيله[١]

وعلم أصحابه منه أنه قاتل عمرو بن العاص ثلاث مرات في زمن الرسول، وها هي الرابعة. لاشك أن حضور عمار بن ياسر الذي نيّف على التسعين، وهو في صحة جيدة، وذوقدرة عالية في القتال، قد أثار ذكريات إسلامية لاتُنسى، تلك الذكريات التي جعلت (الزبير) في حرب الجمل يُناقش نفسه بلا رحمة.

كان الرسول ﷺ يقول: **«يا عمّار تقتلك الفئة الباغية»**[٢]، فكان وجوده في أي معسكر مقياساً على أن المعسكر المعادي هو الفئة الباغية، وقد كان عمّار مع علي بن أبي طالب دائماً، حتى استشهد في معركة صفّين[٣].

---

١ ـ المبسوط للسرخسي ٣٩:١٠، الاختصاص للمفيد: ١٤، مناقب ابن شهرآشوب ٣٥٩:٢، كتاب الأربعين للقمي الشيرازي: ٦٠٠، بحار الأنوار ٣٣٧:٢٠، سنن الترمذي ٢١٧:٤، سنن النسائي ٢٠٢:٥ و٢١٢ والسنن الكبرى للبيهقي ٢٢٨:١٠، مجمع الزوائد للهيثمي ١٤٧:٦، فتح الباري ٣٨٤:٧. (المحقق)

٢ ـ انظر سنن الترمذي ٦٦٩:٥ حديث ٣٨٠٠، صحيح مسلم ٢٢٣٦:٤، أُسد الغابة ٤٣:٤، العبر ٢٧:١، تنقيح المقال ٣٢٠:٢، الخلاف للطوسي ٦٥٧:١، الاقتصاد للطوسي: ١٨١. (المحقق)

٣ ـ «ولما استشهد قال لا تغسلوا عني دماً ولا تنزعوا عني ثوباً فأني التقي ومعاوية بالجادة...» انظر المبسوط للسرخسي ٥٠:٢.

واستشهد وله من العمر ٩٠ عاماً، انظر الإمام الصادق ﷺ لعبد الحليم الجندي: ٤٤ وعجيبٌ ايمان هذا الرجل، ينقل ابن الاثير في تأريخه ١٥٥:٣: «خرج عمار بن ياسر على الناس فقال: اللّهم إنك تعلم أني لو أعلم ان رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللّهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبّة سيفي في بطني، ثمّ أنحني عليها حتّى تخرج من ظهري لفعلته، وإني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته، والله إني لا أرى قوماً ليضربنكم ضرباً يرتاب منه المبطلون، وأيم الله لو ضربونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هَجَر، لعلمت أنا على الحقّ وأنهم على الباطل».

يقول حبّة بن جوين العرني (قلت لحذيفة بن اليمان: حدّثنا فإنا نخاف الفتن فقال: عليكم بالفئة التي فيها ابن سميّة، فإن رسول الله ﷺ قال: تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق، وإن آخر رزقه ضياح من لبن ـ وهو الممزوج بالماء من اللبن ـ قال: فشهدته يوم قتل وهو يقول: ائتوني بآخر ﴿

وصلت الحرب إلى مرحلة مهمة تنذر بتحوّلها النهائي لصالح معسكر علي بن أبي طالب. وأوشك معاوية نفسه على الهرب، إذ دعا بفرسه، ووضع رجله في الرّكاب، ولكنه ـ كما يذكر ـ كان قد حفظ من الشعر الذي يتحمّس له ما جعله يتراجع عن الفرار، ويصمد.

لقد استعاد أبيات شعر عمرو بن الطنابة:

أبت لي همتي، وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمنِ الربيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانكِ تُحمدي أوتستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعدُ عن عِرضٍ صحيحِ[1]

كانت الهزيمةُ قد دفعت معاوية من دهاء عمرو بن العاص، فرفعت المصاحف على الرماح من قبل أهل الشام، ونادى المنادي منهم: «**هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته، الله الله في العرب، الله الله في الإسلام، الله الله في الثغور، مَنْ لثغور الشام إذا هلك أهل الشام؟ ومن لثغور العراق إذا تفانى أهل العراق؟**»[2].

فكان التحكيم ـ الخدعة!

رزق لي في الدنيا، فأتي بضياح من لبن) تاريخ ابن الأثير ٣:١٥٥ ـ ١٥٦.

والغريب في قتل عمار ان يصرّح معاوية (مستفهماً): أنحنُ قتلناه إنما قتله من جاء به!! يقول ابن الأثير: فخرج الناس يقولون إنّما قتل عماراً من جاء به... ويعلق.. فلا أدري من كان أعجب أهو أم هم) تاريخ ابن الأثير ٣:١٥٧.

وعندما سمع ابن عباس قول معاوية هذا، قال: فقد قتل رسول الله ﷺ حمزة لأنه جاء به إلى الكفّار!! انظر دلائل الصدق ٣:٢٠٩. (المحقق)

١ ـ شرح نهج البلاغة ٢:٢٢٣، تاريخ مدينة دمشق ٣٧:٤٣٧ / ٥٩ : ١٣٨، سير أعلام النبلاء ٣:١٤٢، بحار الأنوار ٣٢:٥٠٨ و٥٣٦ / ٥٩:٨ / ١٨:٢٠٣. (المحقق)

٢ ـ وقعة صفين لابن مزاحم المنقري: ٤٧٨ / ٥٤٦ ـ ٥٤٧، الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١:١٤٤ (محققة)، جواهر المطالب لابن الدمشقي ٢:٤٩، ينابيع المودة للقندوزي ٢:١٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٢:٢١٢. (المحقق)

معطيات المبدأ والسياسية في حرب صفين

كان رفع المصاحف من قبل معسكر معاوية خطة سياسية بارعة، وليست احتكاماً حقيقياً خالصاً للقرآن الكريم.

وكانت الخطة من الذكاء والدقة بحيث استطاعت تغيير موازين القوى بسرعة مذهلة، بعدأن كانت تميل – بقوة – لصالح معسكر عليّ بن أبي طالب.

فقد أعلنت غالبية معسكر علي تأييدها للتحكيم دون أن تتساءل لماذا ـ اذن ـ كانت الحرب؟ ولماذا رُفِعَ شعار التحكيم بعد أن أصبح النصر قاب قوسين أو أدنى لها؟[١]

وحقيقة الأمر أن أسلوب التحكيم بالقرآن الكريم هو أسلوب إسلامي صحيح فيما إذا جرى اتباعه بالصورة الإسلامية الصحيحة. وكان علي بن أبي طالب نفسه يلجأ إلى اتباع هذا الأسلوب مثلما فعل في حرب الجمل. إلّا أن ذلك كان يحصل – حسب الأصول – قبل الالتحام في الحرب[٢].

---

١ ـ وقد خاطبهم مالك الأشتر، والنصر الوشيك من بين يديه ـ: «يا أهل العراق، يا أهل الذلّ والوهن! أحين علوتم القوم وظنّوا أنّكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟! وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها، وسنّة من أنزلت عليه! فامهلوني فواقاً، فأني قد أحسستُ بالفتح!

قالوا: لا.

قال: أمهلوني عَدْوَ الفرس فإني قد طمعتُ في النصر!

قالوا: لا ندخل معك في خطيئتك!

قال: وَيحَكمُ! كيف بكم وقد قُتل خياركم وبقي أراذلكم! فمتى كنتم محقّين، أحين كنتم تقاتلون أم الآن حين أمسكتم؟ فما حال قتلاكم الذين لا تُنكرون فضلهم، أفي الجنّة أم في النار؟!» انظر الكامل في التاريخ ٣:٣١٧ ـ ٣١٨، الأخبار الطوال: ١٩٠ ـ ١٩١. (المحقق)

٢ ـ في معركة الجمل وقبل التحام الفريقين قال أمير المؤمنين (من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إليه وهو مقتول وأنا ضامن له على الله الجنّة؟» وقام حينها غلام من عبدالقيس يقال له مسلم، فدفع إليه المصحف وقال: (امض إليهم واعرضه وادعهم إلى ما فيه). انظر الجمل الضامر بن شدقم المدني: ١٢٦، مروج الذهب ٢:٣٧٠، مصنّفات الشيخ المفيد ١:٣٤٠، شرح الأخبار ↲

ولقد تفجّرت – في حرب صفين – متناقضات كبيرة في معسكر علي بن أبي طالب لم يتفجر مثلها(أو أقل منها بكثير) في حرب الجمل، رغم أن الوجوه القيادية البارزة في معسكر الجمل(عائشه وطلحة وزبير) كانت وجوها ذات ثقل تأريخي معروف وبخاصة عائشة أم المومنين.وكان يُفترض أن تثار التساؤلات والشكوك عن جدوى الحرب بين المسلمين أنفسهم وفي ظل قيادات تأريخية مرموقة.

فلماذا ـ اذن – أثيرت متناقضات حادّة في معسكر علي في حرب صفّين لم يثر مثيل لها في حرب الجمل؟

ان المؤثرات الدينية في حرب الجمل مدعومة بالذكريات الإسلامية القريبة قد خلقت انعطافا لصالح علي بن ابي طالب في معسكر أعدائه نفسه. فلم يكن تذكير علي للزبير بحديث النبيﷺ (تقاتله وأنت ظالم له)[1] إلّا استعادة قوية لروح الإسلام وللذكريات الإسلامية. وكذلك أدّى حوار علي مع طلحة إلى مراجعة طلحة لنفسه. وقبل ذلك وعند قدوم عائشة إلى البصرة نبحتها كلاب في المنطقه يقال لها (الحوأب) فصرخت: ردّوني ردّوني. لأنها تذكرت كلمات الرسولﷺ وهو يقول: (كأني بإحداكنّ قد نبحتها كلاب الحوأب وإياك ان تكوني انت يا حميراء)[2].

↩ ١: ٣٩٤، وفي شرح النهج يقول ابن أبي الحديد: بعث علي عليه السلام بعبدالله بن عباس إلى طلحة والزبير معاً، ومعه كتاب الله يدعوهما إليه، يقول ابن عباس: «بعثني علي يوم الجمل إلى طلحة والزبير، وبعث معي بمصحف منشور، وإن الريح لتصفّق ورقه، فقال لي: قل لهما هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فما تريدان؟ فلم يكن لهما جواب إلّا أن قالا: نريد ما أراد، كأنهما يقولان المُلك، فرجعتُ إلى علي فأخبرته» شرح نهج البلاغة ٢: ٤٩٩. (المحقق).

١ ـ انظر المسترشد لمحمد بن جرير الطبري الشيعي: ٤٢٢، شرح الأخبار ١: ٣٨٨، مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٤٠، المستدرك ٣: ٣٦٦، الأخبار الطوال: ١٤٧، سير أعلام النبلاء ١: ٥٨، أنساب الأشراف: ٢٥٢، بحار الأنوار ٣٢: ١٧٣ وهذا الحديث له طرق غير محصورة. (المحقق)

٢ ـ الخرائج والجرائح ٢: ٩٣٤، مناقب ابن شهر آشوب ٢: ٣٣٥، الجمل: ٤٢ و ١٠٥، الإمامة والسياسة ١: ٥٦، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٧، جمع الجوامع كما في ترتيبه ٦: ٨ وصححه نقلاً عن ↩

اذن كانت في الأذهان والنفوس ذكريات إسلامية على عهد النبي وكانت الروح الإسلامية تحوم في الرؤوس وفي الأجواء دون ان تكون صافية لوحدها لما قامت الحرب وإنّما خالطتها الاعتبارات السياسية والقبلية والمصالح المادية. لكن الغلبة كانت لتيار الإيمان الإسلامي فانحسمت الحرب ـ بالنتيجة ـ لصالح معسكر علي.

أما في حرب صفّين فقد كانت الغلبة للاعتبارات السياسية. فبرزت –لاول مرة في الإسلام– قضية الصراع بين المبدأ والسياسة بصورة سافرة وأنموذجية في تطورها.

قبل صفّين كانت المسألة السياسية – الدينيّة هي التي تقود جملة العوامل الأخرى المتداخلة في الصراع، فكانت هى الاستراتيجية الأساسية وما عداها كان اقتضاءات لها. ولقداسة المسألة الدينية لم يستطع أحد استخدامها لأغراض تكتيكية مكشوفة إلاّ في حالات استثنائية حصل فيها تلابس شديد بين الدين والسياسة في مواقف دقيقة جداً، ولم تكن السياسة في اغلب الاحوال بعيدة من دلالتها الدينية[1].

أما في حرب صفين فقد كان التحكيم انتصاراً للتكتيك السياسي على المدنيّة وكان القبول بالتحكيم بعد تظاهرة رفع القرآن الكريم على الرماح، قدحال دون إتمام انتصارعلى بن ابى طالب، والذي كان قد وصل إلى مرحلته الاخيرة، فوفر لمعاوية بن ابي سفيان فرصة نادرة لالتقاط أنفاسه[2] واعادة ترتيب قواه المقاتلة. وكان من الآثار السلبية الخطيرة للقبول بالتحكيم تصدّع معسكر علي وبدء قيام حركات انشقاقية لم تهدأ أبداً[3].

علاوة على ذلك كان المغنم السياسي لمعاوية كبيراً، بمساواته مع الخليفة في حين

(*) الغدير ٣: ١٨٩، بحار الأنوار ٣٢: ١٥٤ و١٦٣، النص والاجتهاد للسيد شرف الدين: ٤٣٠. (المحقق)

١ ـ وللاسف الشديد لم يذكر المؤلف مصداقاً لقوله، وهل كان يقصد زمن الرسول أم في حكومة الإمام عليه السلام ؟ (المحقق)

٢ ـ انظر المجموع لمحي الدين النووي ١٩:٢١٨، نيل الأوطار للشوكاني ٧:٣٣٩. (المحقق)

٣ ـ ومنها حركات الخوارج التي أتعبت الإمام عليه السلام كثيراً. (المحقق)

كان علي بن أبي طالب يرفض ولاية معاوية ابتداءً.

لقد كان التحكيم قفزة تكتيكية ذكية، لاعلاقة لها بسياق الأحداث.

فحرب صفّين لم تكن فورة مفاجئة أو قتالاً اعتباطياً بل كانت ثمرة التطور الطبيعي للصراع الدائر بين معاوية وعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين. فقد أعلن معاوية موقفه الرافض لبيعة علي وأعلن ثورته تحت شعار المطالبة بدم عثمان، وكانت تلك المطالبة عملية، وواقعية، لو تّمت في إطار الخلافة الإسلامية لا في تحدّيها وتحت منطق القصاص الإسلامي.

وكان الدهاء السياسي لمعاوية بعيداً جداً، لذلك لم يقف موقف الدفاع عن عثمان في ايام الفتنة، وكان من الواجب أن يفعل ذلك بوساطة حرسه وقواته المسلحة[١].

وحين استنجد عثمان به لم يفعل ما يقتضيه واجبه، لأنه كان يَنتظر تأزّم الفتنة إلى أعلى درجاتها، كي يستثمرها استثماراً واسعاً بمستوى طموحه السياسي العريض الذي كان يتجاوز حدود كونه والياً: كان يريد سلطاناً أكبر من سلطان الشام، ومن المؤكد أنه كانت تداعب مخيلته منذ بعيد أحلام الملوكية[٢].

وإن كلمات أمه هند لا تزال ترنّ بأذنه، حينما قال لها عرّاف: **«إن هذا الغلام سيسود قومه!»**. فأجابته: **«ثكلتُه إذن إن لم يسُد غير قومه!»**[٣].

---

١ ـ أنظر تاريخ الطبري ٤: ٣٣٨. (المحقق)

٢ ـ طلب عثمان المساعدة من معاوية، فجاء معاوية بجيش كبير تركه على حدود الشام، وجاء الى عثمان منفرداً متذرعاً بالإستطلاع، فقال لعثمان: قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فاجيئك بهم، فيجيبه عثمان: لا والله، ولكنك أردت أن أقتل فتقول: انا ولي الثأر! ثم غاب معاوية ولم يعد إلا بعد مقتل الخليفة!! انظر تاريخ اليعقوبي ٢: ١٧٥، هكذا كان موقف معاوية الذي دافع عثمان عنه كثيراً حتى إنّه لم يقبل بنصائح علي عليه السلام، فمرةً قال لعلي عليه السلام هل تعلم ان عمراً ولي معاوية خلافته كلّها؟ فقال علي عليه السلام محذراً من تصرفات معاوية: هل تعلم إنّ معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر؟ قال: نعم، قال علي عليه السلام: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس: هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية؟ انظر تاريخ الطبري ٤: ٣٨٨. (المحقق)

٣ ـ انظر بلاغات النساء لابن طيفور: ١٤٢. (المحقق)

وكانت تقول عن دهائه: **«والله لو جُمعت قريش من أقطارها ثم رمي به في وسطها لخرج من أي أعراضها شاء»**[١].

وحين شخص معاوية من الشام مرة، سمع الحادي يرجز، وكانت محنة عثمان على أشدّها:

قد علمت ضوامر المطيّ	**وضمَّرت عوج القسيّ**
إن الأمير بعده علي	**وفي الزبير خلف رضيّ**[٢]

فرد عليه أحد رجال معاوية: كذبت، بل يلي بعده صاحب البغلة الشهباء، وهو يعني معاوية.

لقد كان رجاله يعرفون طموحه الملكي، الذي أخلص له إخلاصاً شديداً حتى حقّقه. ومنذ الخطوة الأولى التي جَنَّد فيها مئة ألف مسلح تحت راية (قميص عثمان) وأصابع نائلة الفرافصة (زوج عثمان)، كان يغزل غَزْله السياسي بأساليب دينية ـ سياسية متقنة.

وحينما بحث عن تزكية دينية لخطواته السياسية بعث برسائله إلى مكة والمدينة، وإلى شخصيات إسلامية مرموقة. فكتب إلى أهل مكة والمدينة:

«أما بعد، فانه مهما غاب عنا لم يفت علينا أن علياً قتل عثمان، والدليل على ذلك أن قتلته عنده، وانما نطلب بدمه حتى يدفع الينا قتلته، فنقتلهم بكتاب الله تعالى، فان دفعهم الينا كففنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين، على ما جعلها عمر بن الخطاب. أما الخلافة فلسنا نطلبها، فأعينونا برحمكم الله، وانهضوا من ناحيتكم»[٣].

فكان الجواب حاسماً لا شبهة فيه:

---

١ ـ نفس المصدر. (المحقق)

٢ ـ الفتنة ووقعة الجمل: ٥٢، تاريخ الطبري ٣٤٣:٤، تاريخ مدينة دمشق ٣٠٧:٣٩، البداية والنهاية ١٩٠:٧، جواهر المطالب ١٨٥:٢. (المحقق)

٣ ـ ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، (المؤلف)، وأنظر الإمامة والسياسة ٨٨:١، كتاب صفين: ٧٠ ـ ٧١ ط قديم / ٦٣ تحقيق عبدالسلام محمّد هارون، شرح نهج البلاغة ١٠٩:٣، الغدير ١٠: ٣١، مواقف الشيعة ٤٥٣:٢. (المحقق)

«أما بعد فإنك أخطأت خطأً عظيماً، وأخطأت مواضع النصرة، وتناولتها من مكان بعيد، وما أنت والخلافة يا معاوية، وأنت طليق، وأبوك من الأحزاب، فكفّ عنا، فليس لك قبلنا ولي ولا نصير»[١].

وكان الذي أجاب عنهم المسوّر بن مخرمة.

وعمل معاوية على مواصلة إرسال كتبه بدون ملل، مبرهناً على قوة صبره في متابعة أهدافه السياسية المرحلية، باتجاه الهدف الأكبر الذي يملأ جوانحه، فكتب إلى (عبد الله بن عمر) كتاباً خاصاً يعلله بالآمال، ويداعب فيه مشاعر الامارة، بلغة تجمع في طياتها اللوم، والوعد، وطلب العون، وتخاطب كوامن النفس، بلغاتها، فهي لغة الدين التي تخاطب مشاعر النفس الدينية، وهي لغة السياسة التي تخاطب مشاعر النفس السياسية، وهي تخاطب الزهد بالزهد، فإذا كان هناك طمع خفيّ، فلا بأس من إيصال وعد خفي، أوظاهر؛ وقد جاء في الكتاب:

«أما بعد، فإنه لم يكن أحد من قريش أحبّ إليّ أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان، فذكرت خذلك إياه، وطعنك على أنصاره، فتغيّرت لك، وقد هوّن ذلك عليّ خلافك على علي، وطعنك عليه، وردّني إليك بعض ما كان منك، فأعنّا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم، فإني لستُ أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك، فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين»[٢].

فكان جواب (ابن عمر) حاسماً مثل أهل مكة والمدينة:

«أما بعد، فإن الرأي الذي أطمعك في هذا هو الذي صيّرك إلى ما صيّرك، تركت علياً في المهاجرين والأنصار، وتركت طلحة والزبير وعائشة، وأتبعك فيمن أتبعك؟ وأما قولك إني طعنت على علي فلعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة، ومكانه في رسول الله ﷺ، ولكن أحدث أمراً لم يكن إلينا فيه من رسول الله ﷺ عهد، ففزعتُ إلى الوقوف، وقلت: إن كان هذا

---

١ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، أنظر الإمامة والسياسة ١: ٨٨، الغدير ١٠: ٣١. (المحقق)

٢ ـ أنظر الإمامة والسياسة ١: ١١٩. (المحقق)

فضلاً تركته، وإن كان ضلالة فَشَرٌ منه نجوتُ، فأغنِ عني نفسك»[١].

وكتب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص، وهو من بقية أهل الشورى:

«أما بعد، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، والذين أثبتوا حقَّه، واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر والشورى، ونظيراك في الإسلام، وخفّت لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهنَّ ما رضوا، ولا تردنَّ ما قبلوا، فإنما نردُّها بين المسلمين»[٢].

فكان جواب سعد بن أبي وقاص:

«أما بعد، فأهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه، غير أن علياً كان من السابقة، ولم يكن فينا ما فيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقّنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير لله تعالى التي صرفتها عنه، حيث شاء لعلمه وقدره. وقد علمنا أنه أحق بها منا، ولكن لم يكن بد من الكلام في ذلك والتشاجر، فدع ذا. وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره، وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما. والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين»[٣].

وكتب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري، وكان فارس الأنصار، وذا النجدة فيهم:

«أما بعد، لم أكتب اليك وأنا أرجو مبايعتك، ولكني أذكرك النعمة التي خرجت منها، أنك كنت فارس الأنصار، وعدّة المهاجرين، فادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وآله أمراً لم تستطع فيه الإمضاء، فهذا أعني، وعن قتال أهل الصلاة، فهلا نهيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً؟

---

١ ـ ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة. (المؤلف)، الإمامة والسياسة ١:٨٩. (المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) وأنظر وقعة صفين (طبع قديم) ٨٣ وذكر معاوية أبياتاً

ألا يا سعد قد أظهرت شكاً وشك المرء في الأحداث داء

وانظر شرح نهج البلاغة ٢:١١٤، تاريخ اليعقوبي ٢:١٨٧، والإمامة والسياسة ١:١٢٠.(المحقق)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) وأنظر النصائح الكافية: ٣٧، الإمامة والسياسة (طبع قديم) ١:٨٦ / ١:١٢٠ تحقيق الشيري، الغدير ١٠:٣٣٣. (المحقق)

أوَترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين؟ وأما قومك الأنصار فقد عصوا الله تعالى، وخذلوا عثمان، وسائلهم وسائلك الله تعالى عن الذين كان يوم القيامة».

فكان جواب محمد بن مسلمة الأنصاري:

«أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله ﷺ مثل الذي في يدي، وقد أخبرت بالذي هو كائن قبل أن يكون، فلما كان كسرت سيفي، ولزمت بيتي، واتّمت الرأي على الدين، إذ لم يصبحّ لي معروف آمر منه ولا منكر أنهى عنه، ولعمري يا معاوية ما طلبتَ إلّا الدنيا، ولا اتبعتَ إلّا الهوى، ولئن، كنت نصرت عثمان ميتاً، لقد خذلته حياً، ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب»[1].

باءت رسائل معاوية وكتبه بالفشل الذريع، ولم يتحقّق له أي نجاح في الحصول على تزكية دينية لسياسية، من قبل الصالحين المعروفين.

ان حرمان معاوية من السند العقائدي الإسلامي، من كبار المسلمين، لا يعني فشله على أصعدة أخرى، ذلك لأنه استخدم التكتيكات الدينية لخدمة أهدافه السياسية، بمؤازرة أساليبه الأخرى في كسب الحلفاء والمؤيدين، وخاصة أسلوب الإغراء وتقديم الأعطيات المالية، والإقطاعات، وتقليد المناصب الرسمية، فقد كان يتعامل مع الناس بأثمان مادية، في سياق تكتيله لهم تحت شعار الأخذ بثأر عثمان. لذلك كان معسكر معاوية موحداً، لأنه أشبع النوازع المادية في الإطار التقليدي لسياسته.

---

١ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، الإمامة والسياسة ١:١٢١، الاصابة: رقم ٧٨٠٠.

ويقول ابن قتيبة الدينوري: «ذكروا أن معاوية كتب إلى علي، أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برئ من دم عثمان، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلّا قتالك، حتّى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين...» ويتضح من رسالة معاوية إصراره العنيد على خوض الحرب تحقيقاً لرغباته وحُلمه في الملوكية، وإن أدى ذلك إلى سفك دماء الأبرياء ما دام أهل الشام لا يفرقون بين الناقة والجمل! فهم الواسطة التي يحقق بها معاوية غرضه. المصدر ١:١٢١. (المحقق)

ومن المؤكد أن ذكاء معاوية المتميّز، ومعايشته أهل الشام منذ زمن عمر بن الخطاب، بعد أن أصبح والياً في الشام، وفّرا له خبرة مكينة في قيادة مجتمع الشام.

والواقع أن الشام التي أصبحت المختبر الناجح للدهاء السياسي لمعاوية، كانت ميدان معاوية، وأسلافه من قبله.

وقصة نفي (أمية) إلى الشام، هي بداية العلاقة المتينة للأمويين بأهل الشام. فقد خسر أمية في منافرته عمه هاشم، وغادر مكة إلى الشام عشرة أعوام. «**وهكذا سارت به الأيام في دار غربة مالبثت أن غدت دار صحبة، كان حديث الناس فيها عنه مقياس بذله. وكلما تقلّص الزمن زاد ثروة ثم زاد منعة ثم فوق هذا زاد حفيظة**».

وبعد ذلك أصبحت الشام ميدان تجارة الأمويين، ومعمل صناعتهم السياسية.

بذور الثورة المضادة في معسكر علي

كان علي بن أبي طالب يرفض الموادعة، إلّا أن الكثيرين من أنصاره كانوا لا يرون رأيه، ولذلك كانت خطبته مشبعة بالمرارة، إذ قال: «**أيها الناس، إنه لم أزل من أمري على ما أحب حتى قدحتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وهي لعدوّكم أنهك، وقد كنتُ بالأمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهياً، فليس لي أن أحملكم على ما تكرهون**»[1].

وعندما أعلن علي بن أبي طالب عن محاكمته معاوية بالسيف، كان يروم إسدال الستار على آخر فصل من مسرحية الحرب، وقد كان يحتاج في ذلك الى هجمة أخيرة، فخطب قائلاً:

«**أيها الناس، إنه قد بلغ بكم وبعدوّكم ما قد رأيتم، ولم يبقَ منهم إلّا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين، حتى بلغوا منكم ما بلغوا، وأنا**

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١١: ٢٩. (المحقق)

غادٍ عليهم بنفسي بالغداة فأحاكمهم بسيفي هذا إلى الله»[١].

وكان معاوية، الذي هرب من وجه علي في الحرب، قد بلغه ما قاله علي، فاسترشد بعمرو بن العاص، قال له: يا عمرو، إنما هي الليلة، حتى يغدو علينا علي بنفسه، فما ترى؟ قال عمرو: إن رجالك لا يقومون لرجاله، ولست مثله! أنت تقاتله على أمر، ويقاتلك على غيره، وأنت تريد البقاء، وعلي يريد الفناء، وليس يخاف أهل الشام من علي ما يخاف منك أهل العراق وإن هلكتم. ولكن ادعهم إلى كتاب الله، فإنك تقضي منه حاجتك، قبل أن ينشب مخلبه فيك»[٢] فأمر معاوية أهل الشام أن ينادوهم، فنادوا في سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة، يقولون: يا أبا الحسن!! مَن لذرارينا من الروم ان قتلتنا...الخ»[٣].

فأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على الرماح، وقلّدوها أعناق الخيل، والناس على راياتهم قد أصبحوا للقتال..

كانت الفترة الزمنية الكائنة بين الدعوة إلى الموادعة، ورفع المصاحف، قد كشفت لعلي بن أبي طالب مظاهر الفرقة والانشقاق في معسكره[٤].

---

١ ـ انظر وقعة صفين: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ١٠٨ و١٤٣. (المحقق)

٢ ـ أنظر الإمامة والسياسة ١: ١٤٤. (المحقق).

٣ ـ ابن قتيبة الدينوري: الامامة والسياسية. (المؤلف)

٤ ـ نجح ابن العاص في مكيدته هذه، فقد استطاع ان يشق جيش العراق إلى نصفين... نصف يرى الحرب ويرى أن هؤلاء ليسوا أهل دين، وإنّما هي مكيدة لجؤوا إليها ليسلموا من فشل الهزيمة، وقسم يرى أن يجابوا إليه، وعلى رأسهم الأشعث بن قيس، ويرى د. طه حسين ان موقف الأشعث لم يكن طبيعياً في ذلك اليوم، وربّما اتهمه بالتآمر مع ابن العاص على ذلك فهو يقول: «فما أستبعد أن يكون الأشعث بن قيس وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً، ودبروا ان يقتتل القوم. فإن ظهر أهل الشام فذاك، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب علي وجعلوا بأسهم بينهم شديداً». انظر الفتنة الكبرى (علي وبنوه): ٨٩.

وقد لعب (**الأشعث بن قيس الكندي**)[1] دوراً خطيراً في شق المعسكر. ولم يكن الأشعث صحيح الإسلام، بالأصل، بل كان خالط إسلامه الغشّ، فكان أن أسلم في زمن النبي ثم ارتدّ بعد وفاته، وأدخل قومه في حرب لا رأي لهم فيها، ثم استسلم تائباً، تاركاً قومه في الورطة[2].

«فلم يعصم دمع من أبي بكر فحسب، ولكنه أصهر إليه وتزوج أخته أم فروة. ثم خُمل في أيام عمر وظهر في أيام عثمان فتولّى له بعض أعماله في فارس. فلما همَّ علي أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته، ويقال انه طالبه بشيء من مال المسلمين، ثم استصحبه واستصلحه، فلما رفعت المصاحف ودُعي إلى التحكيم كان أشد الناس على علي في الدعاء إلى قبول التحكيم»[3].

واذا كانت النظرة السليمة تفترض تنقية المعسكر من العناصر الانقسامية، وذات الماضي المريب، فإن قوة الأشعث، بقومه كانت ـ من جانب آخر ـ تفترض الحفاظ على العلاقة الإيجابية معه.

ولم يغب عن دهاء معاوية، ضرورة الاتصال ببعض أصحاب علي، في فترات توقّف القتال، وفي الهدنة، وبخاصة العناصر التي يلمس فيها ضعفاً، فأرسل آخاه عقبة بن أبي سفيان إلى الأشعث بن قيس، وقال له: «**إلقَ الأشعث، وألقِ له كلاماً، فإنه ان رضي بالصلح**

ولكن كان علي عليه السلام يقول: «ما رفعوها لكم إلا خديعةً ودهاءً ومكيدة» انظر الغارات للثقفي ١: ٣١٣، المسترشد للطبري (الشيعي): ٤٢٧، مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٣٦٤، وقعة صفين: ٤٨٩، المعيار والموازنة لأبي جعفر الإسكافي (٢٢٠ هـ): ١٩٨، أنساب الأشراف: ٣٤٩، تاريخ الطبري ٤: ٣٤، البداية والنهاية ٧: ٣٠٣، الامامة والسياسة ١: ١٣٥ تحقيق الزيني، تنزيه الأنبياء للمرتضى: ١٩٧. (المحقق)

١ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: إن الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام وابنته جعدة سمت الحسن عليه السلام ومحمّد ابنه شرك في دم الحسين عليه السلام انظر الكافي للكليني ٨: ١٦٧. (المحقق)

٢ ـ الخصال للصدوق: ١٧٢، المسترشد: ٢٥٣. (المحقق)

٣ ـ د. طه حسين: الخلفاء الراشدون المجلد الرابع. (المؤلف)

رضيت به العامة»[1] وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أهمية مقام الأشعث، وقدرته المؤثرة في معسكر علي بن أبي طالب.

قال عتبة للأشعث:

«أيها الرجل.. إن معاوية لو كان لاقياً أحداً غيرك، وغير علي لقيك! إنك رأس أهل العراق، وسيّد أهل اليمن، ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل.. ولست كأصحابك! أما الأشتر، فقتل عثمان! وأما عدي، فخصّص! وأما سعد بن قيس، فقلد علياً دينه، وأما شريح بن هانىء، وزحر بن قيس، فلا يعرفان غير الهوى! وأما أنت فحاميت عن أهل العراق تكرماً! وحاربت أهل الشام حميّة، وقد والله بلغنا منك ما أردنا، وبلغت منا ما أردت! وإنّا لا ندعوك إلى ما لا يكون منك، من تركك علياً، ولا نصرة معاوية، ولكنا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا!»[2].

«هذا ضربٌ فريد من الحنكة والذكاء، ونمط عال من السياسة والدهاء!»[3].

ووردت في كتاب الأشعث الجوابي إشارات منها أن القتال حميّة: **«نحن نقاتل حميّة.. عليٌ بيننا فوجب أن نُحامي عنه!»** أي أن قتال الأشعث ليس عن إيمان، و**«ان أحبّ معاوية أن أجمع بينه وبين علي فذلك أمر في يدي»**.

وفي ذلك بهتان وافتئات مُدِل على قوة.

قال الأشعث:

«يا عتبة.. أما قولك إن معاوية لا يلقى إلّا علياً، فلو لقيني ما زاد ولا عظم في عيني، ولا صغرت عنه! ولئن أحب أن أجمع بينه وبين علي لأفعلن! وأما قولك: اني رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، فالرأس الأمير، والسيد المطاع، وهاتان لعلي. وأما ما سلف إليّ من عثمان، فوالله ما زادني صهره شرفاً، ولا عمله غنى! وأما عيبك أصحابي فإن هذا الأمر لا يقربك مني!

---

١ ـ الإمامة والسياسة ١:١٣٦.(المحقق)   ٢ ـ أنظر الإمامة والسياسة ١:١٣٧.(المحقق)

٣ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب. (المؤلف)

وأما محاماتي عن العراق، فمن نزل بيننا حميناه، وأما البقية، فلسنا بأحوج منها إليكم»[١].

كانت رسائل معاوية تهدف إلى تعميق التناقضات داخل أركان قيادة معسكر علي، وظهرت داخل المعسكر رغبات متعارضة، بعضها ينادي باستمرار الحرب وتحقيق الظفر، وبعضها الآخر يدعو إلى الاستجابة إلى التحكيم.

وتبدو حالة معسكر علي غريبة فعلاً، فرغم أن جيشه كانت له الغلبة على جيش معاوية، فإنه كان ـ من حيث الواقع ـ منكسراً نفسياً، فهل أن هناك أصابع متآمرة في داخل قوات علي؟

يقول د. طه حسين:

«يجب أن نذكر أيضاً أن علياً لم ينهض إلى الشام بأهل الكوفة وبمن تابعه من أهل الحجاز وحدهم، وإنما نهض كذلك بألوف من أهل البصرة كان منهم من وفى له يوم الجمل، وكان منهم من اعتزل الناس في ذلك اليوم، وكان منهم من ذلك كثير من الذين انهزموا بعد مقتل طلحة والزبير منهم إذاً كانوا عثمانية «لا يقاتلون مع علي عن رضى وصدق، وإنما يقاتلون معه كارهين، وهم، إذاً، كانوا واجدين عليه لأنه قتل منهم من قتل واضطرهم الهزيمة اضطراراً».

«لم يكن أصحاب علي إذاً كلهم مخلصين له مؤمنين به، وإنما كان منهم المخلص والمدخول. وقد قدّمنا أن الفريقين كانا يلتقيان في أمن ودعة أثناء شهر المحرم الذي توادعا فيه، ونضيف الآن أن القتلى كثروا ذات يوم، فطلب علي هدنة موقوتة ليدفن الناس قتلاهم، وأُجيب إلى ما طلب. وإذاً فقد كان أهل الشام وأهل العراق يلتقون ويختلطون في غير موطن. ولم يكن من العسير أن يتناجوا ولا أن يأتمروا بينهم بما يشاؤون، فما استبعد أن يكون الأشعث بن قيس، وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم، قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ٨:٦٢، وقعة صفين: ٤٠٩ (على خلاف في اللفظ)، الإمامة والسياسة ١:١٣٧. ويتضح من سير التحقيق ان المؤلف أعتمد في بحثه على كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري بشكل رئيسي. (المحقق)

وداهيتهم، ودبّروا هذا الأمر بينهم تدبيراً»[١].

ان خطب علي بن أبي طالب المشبعة بالإدانة لجيشه تُفصح أيّما إفصاح عن واقع متردٍ لذلك الجيش، بصورةٍ لا تتلاءم مع ما حققه من انتصار. كما أنها تشير إلى ظاهرة أغرب من التردّي، وكأنها في بعض جوانبها مدبّرة سراً، رغم أن علياً لم يصرح بذلك. قال في إحدى خطبه:

«أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هؤُلاَءِ ٱلْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَىٰ بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي.

وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ ٱلأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي. ٱسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا.

شُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ! أَتْلُوا عَلَيْكُمُ ٱلْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالمَوْعِظَةِ ٱلْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَىٰ جِهَادِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَىٰ آخِرِ قَوْلِي حَتَّىٰ أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا، تَرْجِعُونَ إِلىٰ مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ ٱلْحَنِيَّةِ، عَجَزَ ٱلْمُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ ٱلْمُقَوَّمُ.

أَيُّهَا الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، ٱلْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، المُبْتَلَىٰ بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ، صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ ٱللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي ٱللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ، لَوَدِدْتُ وَٱللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!»[٢]

«وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَىٰ الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً!»[٣]

---

١ ـ المصدر السابق. (المؤلف)، انظر الخلفاء الراشدون، طه حسين، المجلد الرابع (المجموعة الكاملة): ٥٠٩. (المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة، محمّد عبده ١٨٨:١، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٠. (المحقق)

٣ ـ من قوله: (والله ما كذبت) إلى آخره، مروي عن الإمام علي عليه السلام بطرق مختلفة وفي أوقات ☜

«ٱنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَٱتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدىً، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدىً»(١).

وتتكرر تشخيصات علي بن أبي طالب لقومه والقائلة باجتماع أبدانهم، واختلاف أهوائهم، وتصل إلى مستوى الاتهامات القاسية التي لا بد أن علياً كان مستكملاً أسباب إطلاقها، وكان ـ في ذلك ـ متحدثاً عن عمق معاناته منهم، وعن شدة شقائه بهم، فلولا أنه مجبول على الشجاعة، والإقدام، لكان يأسه منهم نهائياً. قال لهم مرة:

«أَيُّهَا النَّاسُ، ٱلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلامُكُم يُوهِي الصُّمَّ ٱلصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ ٱلْأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي ٱلْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلَا ٱسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ»(٢).

«أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ ٱلْمَغْرُورُ وَٱللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ ٱلْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ.

أَصْبَحْتُ وَٱللهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوعِدُ ٱلْعَدُوَّ بِكُم.

مَا بَالُكُم؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟»(٣).

«في هذه المشاعر التي كان يعيش فيها الإمام في الجيش الذي يُحارب معه، جاءت خديعة المصاحف، يرفعها أهل الشام على أسنّة الرماح، وينادون من أهل العراق، بالاحتكام إلى كتاب

وأماكن متفرقة، ورواه بسند آخر ابن عساكر في الحديث (١٠٣٣) من ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام من تاريخ دمشق ٥٨:٢٨، وشواهد التنزيل ٣٦٤:١، وذكره الشيخ المحمودي في نهج السعادة ٢٢٢:٢. (المحقق)

١. علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)، نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح: ١٤٣ والسمت: الطريق أو الحال أو القصد. انظر نهج البلاغة ١٨٩:١ شرح محمّد عبده (الخطبة ٩٣). (المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة ٧٤:١ لمحمّد عبده، الغارات ٤٢٦:٢، شرح الأخبار ٧٣:٢، الارشاد للمفيد ٢٧٣:١، الأمالي للطوسي: ١٨٠، الاحتجاج للطبرسي ٢٥٥:١، المعيار والموازنة لأبي جعفر الإسكافي: ٩٩، شرح نهج البلاغة ١١١:٢، أنساب الأشراف: ٣٨١، كنز العمال ٣٥٥:١١.(المحقق)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، أنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ٧٤ ـ ٧٥، شرح نهج البلاغة ١١١:٢. (المحقق)

الله، والفيء إلى السلم والعافية!»[١].

وكانت الخصائص الديمقراطية المثالية لعلي بن أبي طالب، في علاقته بمعسكره، جعلته وكأنه واحد منهم، وكانت قد أطلقت الحوار في كل شيء، بما في ذلك القرارات الكبرى[٢].

وكان المنهج المذكور جديداً، على أقوام اعتادت الأسلوب القبلي في حياتها السياسية والاجتماعية، وفي الحرب، بما يتضمنه ذلك الأسلوب من إتباع التشاور، ولكن في حدوده المؤثرة.

ولم يكن تأريخ الأقوام القبلية؛ إلّا تأريخ الفرد المتحكم فهو الصورة المتكررة لشيخ القبيلة، بأزياء سياسية مختلفة.

وقد جُبلت نفسية الأقوام على ما هو أكثر من الاستجابة للقيادة الفردية، ووصاية الشيخ (الزعيم، البطل، الخ..)، أي أنها جُبلت على الانتماء اليها، والحاجة إليها، بسبب ظروفها الخاصة، وعدم حصول تغييرات جذرية في بيئتها الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية العامة. لذلك، فهي تخلق ـ أحياناً ـ دكتاتورها الخاص بها، من خلال تأريخها المديد، التي تشربت به فكرة الزعيم الفرد.

وكان أنموذج علي بن أبي طالب القائد، نقيض ما اعتادت عليه مجتمعات القبائل، فكان يتداول الأفكار والسياسات، ويعرضها تحت الضوء، بلا أسرار.

---

١ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب. (المؤلف)

٢ ـ لاحظ خطاب قومه له واصرارهم على مخالفته، فهو عليه السلام أراد تعيين عبد الله بن عبّاس بدلاً من أبي موسى الأشعري في مسألة التحكيم التي قبلها علي عليه السلام على مضض، فأصر القوم على رفض رأيه والإصرار على الأشعري، فقال عليه السلام لهم: «إنكم قد عصيتموني في أول الأمر ـ ويقصد رضوخهم إلى ترك القتال بعد رفع المصاحف ـ فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن اولّي أبا موسى»، وعلّل لهم ذلك بقوله: «إنه ليس لي بثقة، قد فارقني وخذّل الناس عني، ثمّ هرب مني حتّى آمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نولّيه ذلك، قالوا: ما نبالي إنك كنت أم ابن عباس، لا نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر» انظر تاريخ الطبري ٦:٢٨. (المحقق)

لذلك كان معاوية بن أبي سفيان، يذكر أن من أسباب تفوّقه ـ حسب رأيه! أن علياً ليس لديه أسرار، في حين كان هو، يكتم سره(١).

فقد كان علي بن أبي طالب يلتزم المنهج الإسلامي الصريح، داخل المجتمع الإسلامي، الذي يردُّ إليه مقاليد أموره، فلم يرتضِ القيادة الفوقية المتعالية، التي تتعامل مع الناس بالأوامر فقط.

وفي مناخ الحرية الواسعة، ورغم اشتداد الأزمة التي فجّرتها خدعة رفع المصاحف، تحدث بعض أصحاب علي، محبّذين السلم.

قال كردوس بن هانيء:

«أيها الناس، إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه، ولا تبرأنا من علي منذ تولّيناه، وإن قتيلنا لشهيد، وإن حيّنا لفائز، وإن علياً على بيّنة من ربه، وما أجاب القوم إلّا إنصافاً، وكل محق منصف، فمن سلّم له نجا، ومن خالفه هوى!»(٢).

وقال سفيان بن ثور:

«أيها الناس.. إنّا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله، فردّوه علينا! فقاتلناهم عليه، وانهم دعونا إلى كتاب الله، فإن رددناه عليهم حلَّ لهم منا، ما حلَّ لنا منهم، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله. وإن علياً ليس بالراجع الناكص، وهو اليوم على ما كان عليه بالأمس! وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلّا في الموادعة»(٣).

---

١ ـ يقول معاوية:

* كان علي بن أبي طالب يُظهر سرّه، وكنت كتوماً سري.
* كان في أخبث جند وأشد خلافاً، وكنت في أطوع جند وأقله خلافاً.
* كنت أحب إلى قريش منه.

انظر الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» ٢:٩٤، وانّ جميع ما قاله معاوية لا يرقى الى الحقيقة، وقد ناقشنا ذلك في كتابنا المعدّ للطبع «أخلاقيّة الحوار في خطاب أمير المؤمنين عليه السلام». (المحقق)

٢ ـ وهو كردوس بن هاني البكري، انظر شرح نهج البلاغة ٢:٢٢٠، والإمامة والسياسة ١:١٣٩، وقعة صفين: ٤٨٤، نهج السعادة ٢:٢٥٥، للمحمودي ـ معاصر ـ. (المحقق)

٣ ـ تاريخ الطبري ٦:٥٧ بسنده عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه، صفين: ٥٥٣ ـ ٥٥٤ / ٥٦١

وقال عثمان بن حنيف:

«أيها الناس.. اتهموا رأيكم.. فقد كنا والله مع رسول الله ﷺ بالحديبية يوم أبي جندل، وإنا لنريد القتال، إنكاراً للصلح، حتى ردّنا عنه رسول الله. وإن أهل الشام دعوا إلى كتاب الله اضطراراً، فأجبناهم إليه إعذاراً. فلسنا والقوم سواء! إنّا ـ والله ـ ما عَدَلنا بالحيّ، ولا القتيل بالقتيل، ولا الشامي بالعراقي، ولا معاوية بعلي، وإنه لأمر منعه غير نافع، وإعطاؤه غير ظائر! وقد كلّت البصائر التيكنا نقاتل بها، وقد حمل الشك اليقين الذي كنا نؤول إليه! وذهب الحياء الذي كنا نُماري به! فاستظلوا في الفيء، واسكنوا في هذه العافية! فإن قلتم نقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس... هيهات! هيهات! ذهب والله قياس أمس، وجاء غدا!»[١].

وقال عبد الله بن حجل:

«يا أمير المؤمنين.. إنك أمرتنا يوم الجمل بأمور مختلفة كانت عندنا أمراً واحداً فقبلنا بالتسليم.. وهذه مثل تلك الأمور! ونحن أصحابك.. وقد أكثر الناس في هذه القضية، وأيم الله ما المكثر المنكر بأعلمَ منها من المقلّ المعترف! وقد أخذت الحرب بأنفاسنا، فلم يبقَ إلّا رجاء ضعيف.. فإن تجب القوم إلى ما دعوك اليه، فأنت أوّلنا إيماناً، وآخرنا بنبي الله عهداً.. وهذه سيوفنا على أعناقنا، وقلوبنا بين جوانحنا، ولقد أعطيناك بقيّتنا، وشرحت بالطاعة صدورنا، ونفذت في جهاد عدوك بصيرتنا، فأنت الولي المطاع، ونحن الرعية الأتباع، أنت أعلمنا بربنا، وأقربنا بنبيّنا، وخيرنا في ديننا، وأعظمنا حقاً فينا. فسدّد رأيك نتبعك، واستخر الله تعالى في أمرك، واعزم عليه برأيك.. فأنت الوليّ المطاع»[٢].

وقال المنذر بن الجارود:

«يا أمير المؤمنين.. اني أرى أمراً لا يدين له الشام إلّا بهلاك العراق، ولا يدين له العراق إلّا

ﷺ و ٥٦٤ (طبع قديم) / ٤٨٥ تحقيق عبدالسلام محمّد هارون، شرح نهج البلاغة ٢:٢٢٠، ينابيع المودة ٢:١٥. (المحقق)

١ ـ انظر الإمامة والسياسة ١:١٠٦ / ١:١٤١. (المحقق)

٢ ـ الإمامة والسياسة ١:١٠٧ / ١:١٤٢. (المحقق)

بهلاك الشام، وقد كنا نرى أن ما زادنا نقصهم، وما نقصنا أضرّهم، فإن ذلك أمران.. فإن رأيت غيره، قضينا والله ما يُفَلّ به الحد، ويُرَدّ به الكَلِب، وليس لنا معك إيراد ولا صدر»[1].

ويتضح من كلام المنذر بن الجارود وآخرين، أن المنطق الإسلامي الذي توحّدت به الجزيرة العربية، والعراق، والشام، ومصر قد أخلى الساحة أمام صراعات إقليمية (بين العراق، والشام، ومصر، والجزيرة)، وصراعات قبلية متعاظمة.

ويتداخل المنطقان الإقليمي والقبلي، ويتلابسان، ويتّحدان، ويعير الواحد منهما حججه، ونهجه، فيبدوان وكأنهما ينهلان من نبع فكري وسياسي واحد يتعارض مع المنهج الإسلامي العربي.

ويتفاقم المنطق القبلي ـ الإقليمي، فيعطي لنفسه صبغة عربية على حساب وحدة الأمة العربية، بمختلف أقاليمها.

ولأنه منطق غير إسلامي، جوهرة قبلية مفخمة، فإن الشوفينية مدّت سياستها، بتأجيج الصراعات بين العرب، والأمم والقوميات الأخرى التي دخلت الإسلام، وكرستها تكريساً عنصرياً.

ويرد تساؤل: هل يمكن تحميل حرب صفين كل هذه التحليلات ذات الطبيعة الأيديولوجية والسياسية التي تخص الدولة الإسلامية، أكثر مما تخص حرباً لا شيء فيها غير منطق الحرب ونتائجها؟

ان التساؤل ـ على نحو عام ـ صحيح. ذلك لأن الدولة ـ أية دولة ـ توضع قيد المناقشة والنقد، ببرامجها وسياساتها الاقتصادية، والثقافية، ولكامل مفاهيمها وخططها النظرية والتطبيقة، ومن غير الجائز مناقشة طبيعة نظامها من خلال حرب معينة، وتحميل الجزء صفة الكل.

لكن هذا الاقرار يتعلّق بالدول الأكثر استقراراً ونظامية، والأكثر قدرة على التعايش مع سواها من الدول.

---

١ ـ الإمامة والسياسة ١٤٢:١. (المحقق)

في العصر الإسلامي الأول، كان الإسلام يعني الفتوحات، فكان المجتمع الإسلامي العربي ودولته، مجتمعاً متحركاً، في حالة الغزو الدائم، بصورة أساسية. فكانت موارد المسلمين العرب الأساسية من ثمار الغزو وعائداته، المضافة إلى الموارد الاقتصادية الأخرى. وكانت مسألة التوفيق بين العمل الإنتاجي المستقر والغزو معضلة أساسية، سيكون لها تأثيرها اللاحق على نوعية التطور السياسي والاجتماعي، وعوامله المحركة.

ففي حرب صفين ـ مثلاً ـ كان المعسكران المتقابلان يستقطبان مئات الآلاف من الناس، بكل قياداتهما، وعلى رأس ذلك الخليفة في معسكر علي، وأمير الشام معاوية في معسكر معاوية.

أي أن الحرب استقطبت الدولتين، والنظامين، فكان ما يجري في المعسكرين، في الحرب وفي الهدنة، هو التجسيد الواقعي لأيديولوجية النظامين وطبيعتهما الحقيقية. وكان معسكر علي يضم أجنحة سياسية متباينة، ففيه جناح الأشتر وعمار بن ياسر وهو الأمين على أفكار علي بن أبي طالب، وفيه جناح الثورة المضادة الذي يمثله الأشعث بن قيس، وهناك جماعة إسلامية عقائدية، وهناك طائفة من الانتهازيين، ومما لا شك فيه أن هناك (طابوراً خامساً) لمعاوية بن أبي سفيان في ذلك المعسكر.

ولا يغيب عن البال أن مكاسب الغزو الإسلامي في الفتوحات قد خلقت فئة طفيلية ذات مصلحة مباشرة في الحروب لإحراز المنافع المالية والمادية. وعلى امتداد الفترات الزمنية للغزو الإسلامي، والفتوحات، تمكنت النفعية من نفوس كثرة كاثرة من الناس، وكان طبيعياً أن تعبّر تلك النفعية عن نفسها، بصور شتى من الأفكار والممارسات على نحو ظاهر، أومقنّع.

إن الكثيرين من الناس ـ بصورة عامة ـ يكونون أقرب إلى النتائج، منهم الى الأسباب والدواعي، بمرور الوقت، فإذا كانت محصلات الحرب ومكاسبها المادية هي النتائج، فإنهم يلتفون حولها، ويتناسون (وينسون) دوافع الحرب الجهادية.

ولا شك بأن بعض أسباب ذلك تعود إلى قوة تأثير الحوافز المادية على الناس، وإلى نقص مستوى الوعي الثوري الحقيقي، وعدم تمكّنه من النفوس، فكراً وسلوكاً.

هنا، يبدو تساؤل (العقاد) مهماً:

«ألا يخطر على البال أن ضربة من الضربات القاضية كانت تنجح في هذا العنت المكرب حيث لا تنجح العقوبة الشرعية أو الأحابيل السياسية؟ ماذا لو أن الإمام جرّد سيفه بين أولئك المشاغبين وطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه ثم ولّى على الفور من يقوم مقامه، في رئاسة قومه ويكفل له الطاعة بينهم لأمره؟

أكان بعيداً أن تفعل الرهبة فعلها فيسكن المشاغب ويهاب المتطاول ويجتمع المتفرق ويقل الخلاف، بعد ذلك، على الإمام وعلى الرؤساء عامة؟ لم يكن ذلك ببعيد، لكنه كذلك، لم يكن بالمحقق، ولا بالمأمون.

فهي مجازفة ذات حدّين تصيب بأحدهما، وقد تصيب بهما معاً.. وقد يكون الحد الذي تصيب به هو الحد الذي من قبل الضارب دون الحد من قبل المضروب. وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق أن الإمام رضي الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التي اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدابرين.

ولم يضرب بالسيف قط كأنه يقذف بالقداح إما إلى الكسب وإما الخسارة، وإنما كان يضرب به ضربة الجندي الذي يلتمس الغَلَب بقوته وقوة إيمانه ولا يلتمسه من جولات السهم، وفلتات الغيب. على أننا ـ وقد سجلنا هذه الملاحظة ـ نفرض أنه رضي الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التي عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل بين العهود. ونفرض أنه عمد إليها فنفعته في عسكره، وطوّعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشيعين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله. فماذا عسى أن يغيّر هذا كله من طبيعة الموقف الذي أجملناه؟

يكون المخرج بين سياسة الملك كما يطلبها العصر وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية؟

أيسوس الإمام دولته ملكاً دنيوياً أم يسوسها خليفة نبوة؟»[١].

إن العقاد ينطلق في تصوراته من فكرة الصراع المحتوم بين السلطة الدينية (الخلافة الإسلامية) والسلطة الدنيوية التي يمثلها معاوية. وإن سياسة علي هي السياسة التي كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه، وهي السياسة التي لم يكن له محيد عنها، ولم يكن له أمل في النجاح إن حادَ عنها إلى غيرها[٢].

يعرض العقاد لفكرته بالاتجاه (المانوي) في تفسير الصراع بين الخير والشر، على أساس أنه صراع مصيري محتوم.

ولتلك الفكرة صحة بادية، إلّا أنها من الناحية الفلسفية مثالية تقريباً. ذلك لأنها لا تغوص في العمق الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ النفسي للوجود البشري الذي يشكل معسكر علي.

فمن الواضح من خطب علي بن أبي طالب أن المصيبة كبيرة جداً، ولا بد ـ والحالة هذه ـ أن جذرها وأساسها الماديين، من الكبر والأهمية بمكان: ونظرة إلى انحراف (ابن عباس) ابن عم علي بن أبي طالب [الذي أشركه في أمانته، والذي لم يكن في أهل بيته رجل أوثق منه في نفسه، حسبما كان علي ـ نفسه ـ يقول]، تكفي دليلاً على أن الانحراف كان متفشياً، بين الناس، حتى وصلت عدواه إلى الفاضلين.

ولم يكن (ابن عباس) مجرد عامل لعلي بن أبي طالب على البصرة، بل كان عالماً ضليعاً بأمور الدين والدنيا، ذا مكانة عظيمة بين المسلمين، لذلك كان انحرافه أمراً خطيراً!

لقد وضع يده على أموال كثيرة من بيت المال في البصرة، وفرّ بها إلى مكة، وهناك اشترى القصور، والجواري، وتخلق بأخلاق الارستقراطية القرشية المرفهة[٣].

---

١. عباس محمود العقاد: عبقرية الامام علي. (المؤلف)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

٣ ـ ومع ما نتفق مع المؤلف على هذه الظاهرة الانحرافية المتفشية والتي سجل فيها بعض الفاضلين ⇦

ارقاماً كبيره من الأموال والممتلكات، أمثال عبد الرحمن بن عوف الذي ترك ذهباً (قُطع بالفؤوس حتّى ملجت أيدي الرجالَ منه) انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ق ٩٦:١، كما قُدرت ثروة الزبير بن العوام (إحدى وخمسين أو اثنتين وخمسين ألف ألف) نفس المصدر: ٧٧، وكانت غلّة طلحة في العراق (في كلّ يوم ألف وافٍ درهمٍ ودانقين) نفس المصدر ١٥٧:٣ أما زيد بن ثابت فقد (خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس. عدا متروكاته من الأموال والضياع) انظر مروج الذهب ٢٢٣:٢.

إلّا أننا نختلف مع المؤلف بخصوص إتباعه لما هو المشهور، دون التحقيق والتدقيق في قضية عبد الله بن عباس ولم نَرَّ أفضل ممّن برأ ساحة هذا الرجل، سوى السفر الخالد للمرحوم السيّد محمّد تقي الحكيم (عبد الله بن عباس، شخصيته وآثاره) بعد أن جمع مجمل الروايات المختصة بهذه الفريّة التي دبّرها بني تميم (أخواله) في محاولة للإنتقام لأنفسهم منه بعد ذهاب السلطة من يده ـ بعد عملية الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان ـ لموقفه الصارم منهم بعد عودته من الكوفة، وقد أخفقوا في إشاعة هذه التهمة في حينها، إلّا أن بعض المؤرخين المغرضين لعلي ومحاولة الطعن بأصحابه ولأقربهم منه لأمورٍ لا تخفى على القارئ! فلو كان لها مصداقاً لما توانى معاوية وأصحابه من القذف بعلي عليه السلام وبعبدالله بن عباس نفسه، كما ولم يتوانى العدو اللدود لابن عباس والذي اشتهر بعداءٍ فاضح له، وهو عبد الله بن الزبير، وقد تجرأ الأخير يوماً بذكرها فما كان من ابن عباس إلّا أن يفحمه فما أعادها عليه إلى آخر حياته. يقول ابن عباس: كان لنا حقّ في بيت المال فأخذنا دون حقنا. فالمسألة ليست مسألة سرقة وتخوين كما أُريد لها أن تكون! فهي قراءة ناقصة، يجب قراءة الوجه الآخر للحادثة. سيّما وإن أغلب المؤرخين قد أشار إليها وفق المشتهيات والأغراض .والقليل منهم من نفى، والحقّ إننا لم نجد أبلغ من تحليلات العلّامة الحكيم في كتابه (عبد الله بن عباس، شخصيته وآثاره) وهو يدفع التهمة عن صاحبه بواقع روائي واستنتاج منطقي. ومن ذلك ما نقله الحكيم من حوارٍ بين معاوية وابن عباس في حشدٍ من القريشيين، وقد اعتلى الحوار شيئاً من حرارة التهديد والوعد في لهجة معاوية وهو يقول له: «... فحتى متى أغضي الجفون على القذى، وأسحب الذيول على الأذى، وأقول: لعلّ الله وعسى، ما تقول يا ابن عباس!) فيجيبه ابن عباس بنفس اللباقة المعروفة عنه، الإجابة على كلّ كلمة بكلمة أمضّ منها، بتعالٍ يشعر بهوان خصمه عليه، وينتهي إلى ذكر خيانة بسر بن أرطاة عامل معاوية على اليمن. فيقول الحكيم «وما كان أيسر على معاوية ـ لو كان لاسطورة بيت المال نصيبها من الصحّة بالشكل الذي عرضه بعض المؤرخين ـ أن يجبهه وهو يعرّض بهذه اللهجة المتعالية بخيانة

إن الانحراف المذكور يكشف عن بروز التأثير الكبير للعوامل المادية، أي أن المجتمع الإسلامي كان يتعرض بسبب الابتعاد عن نقاوة الأيديولوجية الإسلامية وابتعاد العهد عن زمن النبوة، والصحابة، إلى ظاهرة النمو الرأسمالي الفتي، فكانت الشروط الاقتصادية شروطاً معاكسة للمسار الإسلامي الناصع الذي كان يمثله (ويقوده) علي بن أبي طالب.

وقد كانت المغانم والمكاسب الحربية، تضاعف من مراكمة رؤوس الأموال العائدة من واردات الاقطاعات الكبيرة، ومن نشاط الرأسمال التجاري، والعسكري، والذي لعبت فيه أركان الدولة ورموزها دورها القيادي. فكان عالم المنافع المادية والمالية متعاظماً، في حين كان عدل علي بن أبي طالب يجعله فئة قليلة، من حيث الواقع، لا من حيث الظاهر. فمن بين الآلاف المؤلفة لجيشه كانت حصته الحقيقية، مجموعته المخلصة له، والمؤمنة بنهجة ايماناً ثابتاً لا يتزعزع.

فما من غرابة ـ إذن ـ في أن توقيت رفع المصاحف، كان أكثر تلاؤماً مع الواقع الحقيقي للانشقاق الداخلي (الخفيّ) في معسكر علي، أكثر من كونه دليلاً على انخذال معاوية.

فوجدت الكثرة الكاثرة من عسكر علي التجاوب مع صيحة أهل الشام، بتحكيم كتاب الله، وتطايرت الحقائق الأساسية للانتصار المغدور. قبل التحكيم، كان علي بن أبي طالب يفتتح طريق الحسم وهو يقدُّ فرسان الخصم، فارساً فارساً، وجنده يصلون إلى قبة معاوية، فلا يجدونه. وعلي يقول:

أضـــــربهم ولا أرى مـــــعاويه الأخـزر العـين العـظيم الحـاويه

تهدي به في النار أمٌّ هاويه[1]

أصحابه بقوله: وأنت تقول ذلك ولك بطوله بيت المال بالبصرة، وخيانتك لصاحبك وموقفك منه لا تعدلها خيانة، وبذلك ينتقم لنفسه من هذا الخصم المتعالي عليه أمام هذا الحشد من القريشيين: ٤٢٢ ـ ٤٢٣. (المحقق)

١ ـ شرح نهج البلاغة ٨: ٥٩، كتاب العين للخليل الفراهيدي ٣: ٣١٨، تاج العروس للزبيدي

وفي ليلة الهرير كان جملة من قتل علي بكفّه في يومه وليلته خمسمئة وثلاثة وعشرين رجلاً أكثرهم في اليوم، وكان إذا قتل رجلاً كبَّر إذا ضرب، ولم يكن يضرب إلّا قتل.(١)

وكان الأشتر يرتجز مُدِلاً

نحن قتلنا حوشبا	**لما غدا قد أعلما**
وذا الكلاع قبله	**ومعبداً إذ أقدما**
إن تقتلا منا أبا اليقظان	**شيخاً مسلما**
فقد قتلنا منكمُ	**سبعين رأساً مجرما**
أضحوا بصفّين وقد	**لاقوا نكالاً مؤلما**(٢)

وحين ارتفعت صيحة التحكيم، كان الأشتر، على ميمنة علي، وقد أشرف على الفتح، فحلّت البلبلة، وضاع النصر.

قال علي:

«ما رفعوها لكم إلّا خديعة ودهاء، ومكيدة»(٣) فأصر أكثر معسكره على قبول التحكيم،

١٠٤:١، بحار الأنوار ٣٢: ٥٩٠. (المحقق)

١ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. (المؤلف)

٢ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. (المؤلف) انظر شرح نهج البلاغة ٤٢:٨ وفيه «لاقوا نكالاً مؤثما».

ومثلها في كتاب صفين: ٣٦٤، ومن روائع القول في هذا الحادث ما قاله عامر بن الأمين السلمي:

كيف الحياة ولا أراك حزينا	**وغيرت في فتنٍ كذاك سنينا**
ونسيت تلذاذ الحياة وعيشها	**وركبت من تلك الأُمور فنونا**
ورجعت قد أبصرت أمري كله	**وعرفت ديني إذ رأيت يقينا**
أبلغ معاوية السفيه بأنني	**في عصبة ليسوا لديك قطينا**
لا يقضيون لغير ابن نبيهم	**يرجون فوزاً، إن لقوك، ثمينا**

انظر وقعة صفين: ٣٦٤. (المحقق)

٣ ـ أُنظر الغارات للثقفي ٣: ٣١٢، وقعة صفين لابن مزاحم: ٤٨٩، المعيار والموازنة لأبي جعفر

مناقضين أسبابهم في دخول الحرب أصلاً. ففرضوا عليه القبول بالتحكيم أولاً. ثم فرضوا عليه أبا موسى الأشعري ممثلاً لهم، فقال لهم علي: **«قد عصيتموني في أول هذا الأمر، فلا تعصوني الآن، اني لا أرى أن أولي، أبا موسى الأشعري، فقال له الأشعث ومن معه: لا نرضى إلّا بأبي موسى الأشعري، قال: ويحكم! هو ليس بثقة، قد فارقني وخذّل الناس مني، ثم إنه هرب شهوراً حتى أمنته. لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك، فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فينا مضريان. قال علي: فالأشتر! قالوا: وهل هاج هذا الأمر إلّا الأشتر؟ قال: فاصنعوا الآن ما أردتم، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه»**[1].

إن القبول بالتحكيم، كان يمثل إرادة أكثرية المعسكر، تلك الإرادة التي تجمعها مع إرادة معاوية (معسكر الخصم) وحدة المنطلقات المادية والسياسية السرية والعلنية.

ولم يكن الملل من القتال إلّا واحداً من الدوافع لقبول الموادعة، وليس أهمها اطلاقاً.

وقد هيأت وحدة المنطلقات التدبير المشترك، والتآمر، وكما ذكر د. طه حسين: **«وأكبر الظن عندي كذلك أن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد وإنما تجاوزته إلى ما هو أشد منه خطراً، وهو اختيار الحكمين. فلأمرٍ ما ألحَّ الأشعث ومن تبعه من اليمانية في أن يختار علي أبا موسى الأشعري، ولم يطلقوا له الحرية في اختيار حكم يثق به ويطمئن إليه. وهم يعلمون أن أبا موسى قد خذل الناس عن علي في الكوفة حتى عزله عن عمله. فقد كان علي إذاً مُكرهاً على قبول التحكيم، ومكرهاً على اختيار أحد الحكمين. ولم تأتِ الأمور مصادفة وانما جاءت عن ائتمار وتدبير بين طلّاب الدنيا من أصحاب علي وأصحاب معاوية»**[2].

۞الإسكافي: ١٩٨، أنساب الأشراف للبلاذري: ٣٤٩، تاريخ الطبري ٤: ٣٤، البداية والنهاية لابن كثير ٧: ٣٠٣، الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٣٥ تحقيق الزيني، مناقب ابن شهرآشوب ٢: ٣٦٤، تنزيه الأنبياء للمرتضى: ١٩٧، المسترشد للطبري (الشيعي): ٤٧٢. (المحقق)

١ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٩، بحار الأنوار ٣٣: ٥٤٠. (المحقق)

٢ ـ د. طه حسين: الخلفاء الراشدون المجلد الرابع (المؤلف) والمصدر نفسه: ٥٠٩ ـ ٥١٠. (المحقق)

نص وثيقة التحكيم*

أثمر الاتفاق بين الفريقين نص الوثيقة الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، إنّا ننزل عند حكم الله، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا، ونميت ما أمات. فما وجد الحكمان في كتاب الله فإنهما يتبعانه، وما لم يجداه مما اختلفا فيه في كتاب الله نصّاً أمضيا فيه السنّة العادلة الحسنة، الجامعة، غير المفرّقة. والحكمان عبد الله بن قيس وعمروبن العاص، وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكّما بما وجدا في كتاب الله نصّاً، فما لم يجداه في كتاب الله مسمى، عملاً فيه بالسنّة الجامعة غير المفرّقة.

وأخذا من علي ومعاوية، ومن الجندين كليهما وممن تأمّرا عليه من الناس عهد الله ليقبلن ما قضيا به عليهما. وأخذا لأنفسهما الذي يرضيان به من العهد، ومن الثقة بالناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما، وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به على علي ومعاوية، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما، وأن على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يُصلحا بين الأمة ولا يردّاها إلى فرقة ولا حرب، وأن أجل القضية إلى شهر رمضان، فان أحبّا أن يعجلاها دون ذلك عجلاً، وان أحبّا أن يؤخراها عن غير ميل منهما أخّراها، وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فإن أمير كل شيعة وشيعته يختارون مكانه رجلاً، لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإقساط، وأن يكون مكان قضيتهما التي يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز، لا يحضرهما فيه إلّا من أراداه فإن رضيا مكاناً غيره فحيث أحبّا أن يقضيا، وأن يأخذ الحكمان من كل واحد من شاءا من الشهود ثم يكتبا شهادتهم في هذه الصحيفة أنهم أنصار على مَن ترك ما فيها:

اللهم نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أوظلماً..»[1].

وكان شهود أهل العراق عشرة، وهم عبد الله بن عباس، والأشعث بن قيس، وسعد بن قيس الهمداني، وورقاء بن سُمي، وعبد الله بن طُفيل، وحُجر بن عديّ الكندي، وعبد الله بن حَجَل الأرحبي البكري، وعُقبة بن زياد، ويزيد بن حُجية التميمي؛ ومالك بن كعب الأرحبي. أما الشهود العشرة من أهل الشام فهم: أبو الأعور بن سفيان السُلمْي وحبيب بن مسلمة الفِهري والمُخارق بن الحارث الزبيدي، وزَمْل بن عمرو العُذري، وحمزة بن مالك الهمداني، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، وسُبَيْع بن يزيد الحضرمي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، وعتبة بن أبي سفيان ويزيد بن الحر العبسيّ[2].

ويلفت الانتباه أن الوثيقة حددت أموراً عديدة، لكنها لم تحدد قضية الخلاف التي يجب الفصل فيها، أوكما يقول د. طه حسين:

«..الخطير كما قدمنا هو أن الفريقين قد حددا في صحيفتهما كل شيء إلّا هذا الموضوع الذي اختلفا فيه والذي يجب أن يقضي فيه الحكمان. ففيم كانا يختلفان بالفعل؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان ويريد أين يُسلم علي قتلة الخليفة المظلوم. وكان علي لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه، ولا يقدر على أن يسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قتل. أفكان الفريقان يريدان من الحكمين أن يفصلا في هذه القضية؟ وإذاً، فما بالهما لم ينصّا عليها بل لم يذكرا عثمان وقتله في الصحيفة أصلاً؟ وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير، وبعد أن استحصد أمره واشتد بأسه أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين، وكان علي يرى أنه قد بويع كما بويع الخلفاء من قبله، بايعه أهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد، وبايعه أهل الأمصار إلّا الشام. فقد اجتمعت له إذا بيعة الكثرة الكثيرة من المسلمين عامة، ومن المهاجرين والأنصار خاصة، ولم يبق لمعاوية إلّا أن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويدخل معه أصحابه من

---

١ ـ البلاذري: أنساب الأشراف. (المؤلف)، أُنظر أنساب الأشراف، تحقيق محمّد باقر المحمودي: ٣٣٥، معجم البلدان ٤:١٠٨، تاريخ الطبري ٦:٢٩. (المحقق)

٢ ـ أنساب الأشراف، تحقيق المحمودي: ٣٣٥، شرح الأخبار ٢:١٣٥، الأخبار الطوال: ١٩٤، وقعة صفين: ٥٠٦ ـ ٥٠٧ (طبع قديم)، الطبري ٦:٢٩، معجم البلدان ٤:١٠٩. (المحقق)

أهل الشام، فإن لم يفعلوا فهم الفئة الباغية التي أمر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح وكرهت العافية حتى تفيء إلى أمر الله.

وإذاً، فما بال الفريقين لم ينصّا على ذلك في صحيفتهما، بل لم يذكرا الخلافة ولا الشورى في الصحيفة أصلاً؟ والغريب أن هذه الصحيفة التي رواها المؤرخون قد أرضت الفريقين المختصمين، لم ينكرا فيها غموضاً ولا عموماً ولا ابهاماً، مع أنها من أشد ما كتب المسلمون غُموضاً وإبهاماً فيما يتصل بموضوع القضية التي كان يجب أن يُحدّد تحديداً لا لبس فيه»[١].

ويرى الدكتور طه حسين أن السبب في ذلك أن أطراف الفريقين كرهوا الحرب وسئموا القتال وتعجلوا السلم، قائلاً: «وأكبر الظن أن الذين كتبوا الصحيفة من الفريقين لم يحفلوا بدقة ولا بتحديد، وإنما كرهوا الحرب وسئموا القتال، وتعجلوا السلم. وكان أصحاب معاوية يكفيهم أن تنحسر الحرب عنهم وأن يختلف أهل العراق، وكانت عامة أهل العراق يكفيهم أن يثوبوا إلى السلم وكان الماكرون منهم إن استقام الفرض الذي افترضته آنفاً، تعنيهم أن تكون القضية غامضة غير بيّنة الحدود، يرون ذلك أنفع لمعاوية وأضرّ لعلي، وأحرى أن ينيلهم من السلطان ومتاع الدنيا ما يريدون»[٢].

ومن أجل التحديد بدقة أكثر، لا بد من القول إن الطابع العام للوثيقة، وهو الطابع العمومي، التسووي، لم يكن دالاً على الغربة في السلم الثابت، كما لم يكن دالاً على الإيمان الثابت.

فكان التهرب من عرض القضايا الخلافيّة الأساسية ليس الغاية منه تحقيق أكبر قدر من التوفيقية بين الطرفين، بل كان مقصوداً لإتمام حلقات المخطّط التآمري، ضد نهج الإمام علي بن أبي طالب، بالنسبة إلى الضالعين فيه[٣]. أما أولئك الذين لم يكونوا على مستوى من التبصّر السياسي اللازم، فقد وقعوا في الشرك، فساروا في النهج التوفيقي

---

١ ـ د. طه حسين: الخلفاء الراشدون المجلد الرابع (المؤلف) المصدر نفسه: ٥١٣. (المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، د. طه حسين: الخلفاء الراشدون المجلد الرابع: ٥١٣. (المحقق)

٣ ـ كان أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) يدعوا إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان عمرو بن العاص يدعوا إلى معاوية بن أبي سفيان. انظر الأخبار الطوال: ٢٠٠. (المحقق)

الظاهري، الذي لم يكن في جوهره، وفي نتائجه الواقعية، غير ردة كبرى وتمهيد واسع لانفجار الثورة المضادة[١].

وكانت العودة بعد التحكيم، قوة لجيش معاوية، وضعفاً لجيش علي، الذي عاد إلى الكوفة بعد يومين من توقيع الوثيقة، دُفِنَ فيهما القتلى، فشهدت العودة انقساماً خطيراً بين الصفوف، فقد

«تباغض القوم جميعاً، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض: يتبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه». و«تضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف، وتسابّوا، ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه»[٢].

وخرج الخوارج الحرورية، منحازين على علي بن أبي طالب، فلحقوا بحروراء، قرية من قرى الكوفة، وكانوا ـ كما يقال ـ اثني عشر ألفا من القراء وغيرهم[٣] وقد ذكر يحيى بن معين، فقال: حدثنا وهب بن جابر بن حازم، عن الصلت بن بهرام، قال: لما قدم على الكوفة جعلت الحرورية تناديه، وهو على المنبر: جزعت من البلية، ورضيت بالقضية، وقبلت الدنيّة. لا حكم إلّا الله، فيقول: حكمَ الله انتظر فيكم، فيقولون: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**﴾، فيقول علي: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لاَيُوقِنُونَ**﴾.

وكانت الصفحة الخطيرة، التي أعقبت الاتفاق، هي صفحة اصدار القرار الذي توصلت إليه المحكمة، وسنرى أن القرار لم يستند إلى مقدماته، وأسبابه، كما أنه لم يمتلك صفة القرار التحكيمي الذي توصّل إليه الاثنان: أبوموسى الأشعري، وعمرو بن العاص.

الالتقاء في دومة الجندل

«في سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل، وقيل بغيرها. وبعث علي بعبدالله

---

١ ـ وهو ما تمثل لاحقاً بحركات الخوارج. (المحقق)

٢ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. (المؤلف)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

ابن العباس وشريح بن هانيء الهمداني في أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعري، وبعث معاوية بعمروبن العاص ومع شرحبيل بن السمط في أربعمائة، فلما تواتى القوم من الموضع الذي كان فيه الاجتماع، قال ابن عباس لأبي موسى: إن علياً لم يرضَ بك حكماً لفضل عندك والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبوا غيرك، وإني لا أظن ذلك لشرٍ يراد بهم، وقد ضمَّ داهية العرب معك، إن نسيت فلا تَنْسَ أن علياً بايعة الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة. ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى، فقال له: يا أبا عبد الله، إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضمّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأخِّر الحزَّ وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله. فلما التقى أبو موسى وعمرو، قال عمرو لأبي موسى: تكلم وقل خيراً، فقال أبو موسى: بل تكلم أنت يا عمرو، فقال عمرو: ما كنتُ لأفعل وأقدم نفسي قبلك، ولك حقوق كلها واجبة، لسنّك وصحبتك رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنت ضيف، فحمد الله أبو موسى، وأثنى عليه، وذكر الحدث الذي حلَّ بالإسلام، والخلاف الواقع بأهله، ثم قال: يا عمرو، هلمَّ إلى أمر يجمع الله به الألفة، ويلم الشعَث، ويصلح ذات البين».

واستمر الحوار، حتى قال عمرو: أما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين، فقُم، فاخطُب الناس، واخلع صاحبينا معاً وتكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه، فقال أبو موسى: بل أنت قم، فاخطب؛ فأنت أحق بذلك، قال عمرو: ما أحب أن أتقدّمك، وما قولي وقولك للناس إلّا قول واحد، فقم راشداً». فقام أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله، ثم قال: أيها الناس إنّا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح، ولمّ الشعث وحقن الدماء وجمع الإلفة خلعنا علياً ومعاوية، وقد خلعت علياً كما خلعتُ عمامتي هذه، ثم أهوى الى عمامته فخلعها. وقام عمرو مكانه فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: أيها الناس، إن أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع علياً وأخرجه من هذا الأمر، الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإني قد خلعت علياً معه، وأثبتُّ معاوية عليَّ وعليكم....

فقال أبو موسى: **«ما لك لا وفقك الله غدرتَ وفجرتَ؟ إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً،**

فقال له عمرو: بل إياك يلعن، كذبت وغدرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث...»[١].

وتختلف الروايات في التفاصيل إلّا أنها تتفق في ذكر الخدعة، فأصبح التحكيم وكأنه مقلب، أومبارزة في الدهاء بين اثنين، ومعهما وبانتظارهما، جماهير المسلمين الغفيرة، مثل أية ضحية مسكينة![٢]

ثمة أمر غير معقول إلى حدٍ عجيب، ومعيب!

ذلك هو انعدام العلاقة بين الاتفاق وصيغة الإعلان عن الاتفاق. فجرى التمسك بصيغة الإعلان عن الاتفاق، وتركت قضية التحكيم التي خصص لها المسلمون فترة عام للوصول إلى الوحدة والإلفة، فبدت الخدعة (اللعبة، المقلب، البهلوانية في الحوار) وكأنها أساس الحل والعقد عند المجتمع الإسلامي بطائفتيه المتنازعتين. فخرج معاوية ـ بوساطتها ـ خيفة.

كيف يمكن ـ إذن ـ للإرادة الإسلامية، وللوعي الإسلامي أن يتقبّل جريان أخطر

---

١ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. (المؤلف) وأنظر الاخبار الطوال: ٢٠١، أنساب الأشراف ٢: ٣٥١. (المحقق)

٢ ـ ومن تعليق بليغ، يقول العلّامة محمّد تقي الحكيم: «وبذلك أنتهت المفاوضات... فإذا سألت وأين موقع هذا الحكم من الكتاب والسنّة؟ ومتى كان النزاع في أحقية معاوية في الأمر من علي؟ ومتى شك في شرعية خلافة علي عليه السلام، وقد بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان؟ وبيدهم الحلّ والعقد ـ كما كانوا يرون ـ وهل تجاوزت دعوى معاوية اتهام الإمام عليه السلام بإيواء قتلة عثمان، ورغبته للدخول فيما دخل فيه الناس إذا سُلّموا إليه؟! وكان المجري الطبيعي للدعوى أن يبحث في استحقاق معاوية للمطالبة بدمه وعدمها، ومدى شرعيّة طلبه، قبل أن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويرفع قضيته إلى الإمام عليه السلام، ولكن الحكمين ـ كما رأيتم ـ تناسوا كلّ ذلك ابتداءً، وتكشفت نفسياتهما بأبشع صورها، أما أبو موسى فقد خضع لرواسبه، فتناسى إمامه، والمهمة التي اختير طرفاً للنظر فيها، ووجّه كلّ همّه لترشيح صاحبه عبد الله بن عمر والعمل له، وأما ابن العاص فقد طمع في جرها إلى ولده عبد الله، بعد أن أفحمه أبو موسى في ردّه لمؤهلات معاوية وتقديم الإمام عليه السلام بهذا الميزان، ثمّ انتهيا إلى هذه النهاية الغريبة» انظر عبد الله بن عباس، شخصيته وآثاره: ٣٥٨ ط ١ / ٢٠٠١م ـ ١٤٢٢هـ. (المحقق)

المواقف وأكثرها مصيرية، بالحيلة، وتذهب إرادة التحكيم، عبثاً، وكأنها لم تكن شيئاً؟!

كان الحد الأدنى من الإرادة الشعبية والوعي الإسلامي ملزماً بالتزام ما جرى عليه التعاقد بالتحكيم. فلماذا يحصل خلاف ذلك، وتنجم عنه متغيّرات سياسية خطيرة، دون أية ردة فعل؟

إن التعليل الوحيد هو أن الخدعة كانت أسلوب إخراج، وشرك للمغفلين والسذّج، إلاّ أن التخطيط التآمري هو الأصل والأساس في تعليل تسلسل الصفحات المتتالية من الحروب، والتكتيكات، والمخادعات، والاغراءات، والوسائل المتنوعة، لمهاجمة سلطة الحق؛ سلطة علي بن أبي طالب الإسلامية.

ومن الثابت أن صيغة الإعلان على الاتفاق لم تكن معبرة عن مضمون الاتفاق التحكيمي على سلبيته الخطيرة. نظراً إلى أن التشاجر بين الحكمين الأشعري، وابن العاص كان شديداً بعد أن أعلن عمروبن العاص ما خالف به روح الاتفاق ومحتواه. وبلغ التشاجر إلى حد تبادل الضرب.

وهجر أبو موسى الأشعري ـ إثر ذلك ـ منطقة الكوفة (وقد كانت خطته وأهله وولده بها) وهاجر إلى مكة، وآلى أن لا ينظر إلى وجه علي ما بقي.

وقد رأى البعض من الكتّاب الغموض في التحكيم المعلن، والموقف منه.

يقول ابراهيم الأبياري:

«ولكن الشيء الغامض الدقيق، أن الناس عدوا تزكية عمرولأبي موسى في خلع علي أمراً صحيحاً، وعدوا تثبيت عمرولمعاوية على الرغم من أن أبا موسى لا يثبته شيئاً صحيحاً. قد يكون هناك اتفاق بين عمرووأبي موسى على شق من الأمر، وهو خلع علي، ولكن أين هذا الاتفاق بين الاثنين على تثبيت معاوية؟ وحكم الحكمين لايصح أن يمضي ولا يصح أن يقبله الناس إلّا اذا كان هناك اتفاق على شقيه واتفاق عليه جملة. أما أن ينتهز عمروشيئاً قد اتفق عليه مع أبي موسى فيجيزه، وينتهز عمروشيئاً آخر لم يتفق عليه مع أبي موسى فيجيزه، ويخرج بحكم ملفق لم يأخذ صورته الاجتماعية الحقيقية، فهذا شيء لا نكاد نفهمه ولا نكاد نسيغ أن الناس فهموه، وما نظن أن عقلاً ما يكاد يسيغه. فالصورة التي صورها المؤرخون

عن هذا التحكيم في وضعه الأخير صورة زائفة باطلة، تبرىء العقول التي اجتمعت لتسمع الحكم من أن تجيزه، وأن تعد الأمر قد انتهى بخلع علي وتثبيت معاوية، وتجعل هذا حكماً للحكمين، ثم تجعل هذا دهاء من عمرو بأبي موسى.

وما نظن في الأمر دهاء، وما نظن أن في الأمر تغريراً، فقد شاء أحد الحكمين أن يقول شيئاً لم يُتفق عليه، وإذا وقع هذا فالرد عليه يسير، أي غير مستصعب، هو أن الحكم الذي انتهى إليه الحكمان باطل ويجب أن يُعاد النظر فيه. ولكن أن يأخذ الناس في وصف عمروبالدهاء، ووصف عمرو بالتغرير بأبي موسى، ثم أن يرى الناس أن علياً قد خلع، وأن معاوية قد ثبت، نتيجة لموقف عمروو وكلامه، فهذا شيء لا نكاد نفهمه»[1].

إن العرض المذكور سليم من الناحية المنطقية، ولكن كيف يُصار تكذيب القصة؟ إن الكاتب الابياري يرجع في تفنيده لها إلى (الناس) و(العقول)، ذاكراً: **«لا نكاد نسيغ أن الناس فهموه»** وما نظن أن عقلاً ما يكاد يسيغه و**«نبرىء العقول التي اجتمعت لتسمع الحكم من أن تجيزه..»**.

والحال أن المشكلة هي مشكلة (الناس) و(العقول) بالنسبة إلى علي بن أبي طالب، فالناس هم الذين فرضوا عليه التحكيم، وهم الذين فرضوا عليه الأشعري رغم عدم ارتياحه واطمئنانه إليه.

والناس هم الذين أعلنوا العصيان عليه عندما قبل بالتحكيم. والناس هم الذين انفضّوا عنه حينما أعلن الجهاد ضد محصلة التحكيم. ومن المؤكد أن سايكولوجية الكثرة الجماهيرية، في مناوأة علي بن أبي طالب، تُفسّر مقاطع أساسية في خلافة علي بن أبي طالب، وبخاصة في مراحلها الحاسمة.

فكانت محنة علي بن أبي طالب من نوع معقد، فهو يقود تلك الكثرة الجماهيرية، التي كانت تُعارضه علناً وسراً.

ولذلك كان يردد قول الشاعر دُريد بن الصمة:

---

١. ابراهيم الابياري: معاوية. (المؤلف)

أمــــرتُهم أمــــري بـــمنعرج اللــوىٰ فلم يستبينوا الرُشد إلا ضُحى الغدِ
فـلما عَـصَوني كنت مـنهم وقـد أرى غـــوايـــتهم وأنــني غـير مـهتدي
وهــــل أنــا إلا مــن غـزية إن غـوت غَــويتُ وإن تـرشد غَـزيةُ أرشـدِ(١)

بفعل تلك المحنة الخالصة، والدقيقة، لم تكن شجاعة علي بن أبي طالب ـ موضوع البحث في هذا الفصل كله ـ قادرة على أن تفعل شيئاً محدداً. فهو لا يستطيع أن يقهر الكثرة الجماهيرية على شيء، ولا يمكن أن يستسلم أمام إرادتها كما ترى وتشاء، كما أنه لا يمكن أن يعتزل، فأعلن موقفه الصريح ـ بعد أن أتت المحنة أُكُلَها لمعاوية ـ فقال في خطبة له بعد أن سمع ما كان من أمر أبي موسى الأشعري وعمرو:

«إني كنتُ قد تقدمت إليكم في هذه الحكومة، ونهيتكم عنها، فأبيتم إلا عصياني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي؟ والله إني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه (يريد بذلك الأشعث بن قيس والله أعلم)، وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بني خثعم:

أمــــرتُهم أمــــري بـــمنعرج اللــوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضُحى الغدِ

من دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قتله الله ولو كان تحت عمامتي هذه، ألا إن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله، وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة، ولا حق معروف. فأماتا ما أحيا القرآن، وأحييا ما أماته، واختلفا في حكمهما كلامهما، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، فتأهبوا للجهاد، واستعدوا للمسير، وأصبحوا في عساكركم، ان شاء الله تعالى»(٢).

---

١ ـ النصائح الكافية: ٢٤٣.

وينطلق علي عليه السلام بهذا المفهوم وفق قوله تعالى: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» الحشر: ٩، وهذا شبيه قوله عليه السلام: «لاسالمن ما سلمت أمور المسلمين». (المحقق)

٢ ـ انظر مروج الذهب قبيل قصة النهروان: ٤١٢ ط مصر، وط بيروت: ٢: ٤٠٢، وتذكرة الخواص: ١١٠ نقلاً عن الشعبي، أنساب الأشراف ٢:٣٦٥ الطبعة الأولى، وفي المخطوطة ١: ٣٩٤، وقريب ⇦

وردّ علي بن أبي طالب على زعم قريش بأن علياً شجاع ولكن لا علم له بالحروب، فقال:

«وقد زعمت قريش أن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحروب، تبّت أيديهم! وهل فيهم أشد مراساً لها مني؟ لقد نهضتُ فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد أربيت على نيف وستين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع»[1].

لقد كان مدركاً لموضوعة أساسية، وهي أنه لا يمكن حمل الناس ـ أكثرية الناس ـ بالقوة على ما يراه حقاً، فكيف إذا كان الحق ـ موضوع الصراع ـ حقه هو في الخلافة؟

إن الشجاعة تتنازل أمام قداسة الموقف الذي وقفه علي بن أبي طالب، والذي كان يفوق في حضوره فعل البشر وتصور البشر، لذلك كان ـ وظل ـ عصيّاً على الفهم.

مسالمة الخوارج

خرج (الخوارج) على التحكيم، وأعلنوا أنهم يلتزمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق. وكان بدء خروجهم إضراباً واعتكافاً، أوجزته عبارة عبد الله بن وهب الراسبي: **«فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالمة أهلها، إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدعة المضلّة، والأحكام الجائرة»**[2].

لكن الانكار لم يكن شعاراً يكتفون به، فقرنوه بالجهاد في سبيل الله، بعد اجتماعهم في منزل زفر بن حصين الطائي، إذ قال:

منها في مناقب محمّد بن يوسف بن محمّد البلخي كما في تلخيصه: ١٢١، عن نهج السعادة ٢: ٣٤٤. (المحقق)

١ ـ المهذب للقاضي ابن البرّاج ١: ٣٢٤، نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ٧٠، الكافي ٥: ٦، دعائم الإسلام للنعمان المغربي ١: ٣٩١، معاني الأخبار للصدوق: ٣١٠، الغارات ٢: ٤٧٧، الارشاد للمفيد ١: ٢٨٠، الاحتجاج للطبرسي ١: ٢٥٦. (المحقق)

٢ ـ الطبري ٥: ٧٤، الإمامة والسياسة ١: ١٢١ / ١: ١٦١ تحقيق الدكتور طه محمّد الزيني. (المحقق)

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[١] فاشهدوا على أهل دعوتنا أن قد اتّبعوا الهوى، ونبذوا حكم القرآن، وجاروا في الحكم والعمل، وأن جهادهم على المؤمنين فرض، وأقسم بالذي تعنو له الوجوه، وتخشع دونه الأبصار لو لم يكن أحد على تغيير المنكر، وقتال القاسطين مساعداً، لقاتلتهم. يا إخواننا اضربوا جباههم ووجوههم بالسيف، حتى يطاع الرحمن عزّ وجل، فإن يطع الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له، الآمرين بأمره، وإن قُتلتم فأي شيء أعظم من المسير إلى رضوان الله وجنّته. واعلموا أن هؤلاء القوم خرجوا لإقصاء حكم الضلالة فاخرجوا بنا إلى بلد نتعدّى فيه الاجتماع من مكاننا هذا، فإنكم قد أصبحتم بنعمة ربكم، وأنتم أهل الحق بين الخلق، إذ قلتم بالحق، وصمدتم لقول الصدق ـ فاخرجوا بنا إلى المدائن نسكنها، فنأخذ بأبوابها ونخرج منها سكانها، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة، فيقدمون علينا»[٢].

وكانت الترجمة العملية لأفكارهم ممارسة القتل وتبريره، محدثين بذلك خرقاً فاضحاً للعقيدة الإسلامية.

ولم تكن خطورة الخوارج بسيطة من الناحية الموضوعية، ذلك لأنهم عرقلوا جهد علي بن أبي طالب، في التوجه إلى حرب معاوية، ففتحوا له جبهة ثانية، الأمر الذي أبعدهم كثيراً عن هدفهم المعلن، وهو محاربة التحكيم.

ذلك لأن علي بن أبي طالب، الذي رفض التحكيم منذ البدء مدركاً ما وراءه من ضلال ومكيدة، قد أعلن أن (الحكمين) قد خالفا القرآن، فقال في خطبة له:

«أما بعد، فإن معصية العالم الناصح، تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنتُ أمرتكم في هذين الرجلين، وفي هذه الحكومة، بأمري، فأبيتم إلّا ما أردتم، فأحييا ما أمات القرآن، وأماتا ما أحيا القرآن، واتّبع كل واحد منهما هواه، يحكم بغير حجة، ولا سنّة ظاهرة، واختلفا في أمرهما وحكمهما، فكلاهما لم يرشد الله، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، فاستعدّوا

---

١ ـ سورة المائدة، من الآية: ٤٤. (المحقق)

٢ ـ البداية والنهاية ٧:٣١٦، الإمامة والسياسة ١:١٦٢ تحقيق الشيري و١:١٢٢ تحقيق طه الزيني. (المحقق)

للجهاد، وتأهبوا للمسير...»[١].

ولو كان الخارجية يهدفون المجاهدة حقاً، لكانت الفرصة مؤاتية لهم، بعد هذه الخطبة. كذلك أرسل علي بن أبي طالب رسالة لهم، جاء فيها:

«أما بعد، فإن هذين الرجلين الخاطئين الحاكمين، اللذين ارتضيتم حَكَمَيْن، قد خالفا كتاب الله، واتّبعا هواهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنّة، ولم ينفّذا للقرآن حكماً، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، إذا بلغكم كتابنا هذا فأقبلوا إلينا، فاننا سائرون الى عدوّنا وعدوّكم، ونحن على الأمر كما كنا عليه»[٢].

لكن الخارجة لم ينثنوا عن عزمهم، فساروا في الاتجاه الذي اختطّوه لهم.

كانت المعركة الرئيسية، من وجهة نظر علي بن أبي طالب، تجديد صفّين. أما الخوارج فلم يكن يحسب لهم حساباً مهماً، وإذا ما تطوّر الصراع معهم فهو لا يعدو كونه معركة ثانوية.

وقد أبلغ عن وجهة النظر هذه، في خطبته في أهل الكوفة، وهو يحثّهم على التوجه إلى الشام، إذ قال:

«فقد بلغني قولكم: «لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت علينا، فبدأنا بهم، إلّا أن غير الخارجة أهمّ على أمير المؤمنين، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا في الأرض جبّارين، ملوكاً، ويتّخذهم المؤمنون أرباباً، ويتّخذون عباد الله خولاً، ودعوا ذكر الخوارج»[٣].

لم يستفد الخوارج من هذا السلوك الإسلامي، بل أمعنوا في التمرد، واختاروا القتل

---

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:٨٥، الإمامة والسياسة ١:١٦٣ تحقيق الشيري و١:١٢٣ تحقيق الزيني، تاريخ الطبري ٤:٥٧، مروج الذهب ٢:٣٥، والكامل لابن الأثير ٣:١٤٦ وذكره ابن الاثير في تاريخه ٧:٢٨٦، شرح نهج البلاغة ٢:٢٠٤، أنساب الأشراف: ٣٦٦، جواهر المطالب ٢:٧٣، بحار الأنوار ٣٣:٣٢٢. (المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٤:٥٧. (المحقق)

٣ ـ نهج السعادة ٢:٣٦٣ عن الطبري في تأريخه ٤:٥٤ وقريباً من صدر الكلام رواه أيضاً الحافظ بن محمّد ابن يوسف بن محمّد البلخي في مناقبه كما في تلخيصه: ١٢٣. (المحقق)

أسلوباً لهم. وتحت لواء **«لا حكم إلّا لله»** فتكوا بالمسلمين الضعفاء فتكاً شنيعاً. وكان مسلك الخوارج فاتحة مرحلة جديدة، أصبح فيها السيف مسلطاً على رقاب الناس المسلمين، بفوضوية مارقة، تتخذ من أفكارها الدينية الخاصة بها منطلقاً وحجة للتكفير والبطش.

لقد أعطوا لأنفسهم سلطاناً لا حقَّ لهم فيه، وكان مثالهم السيىء، هو المثال الذي يكشف عن مأساة اعطاء الاجتهاد الفكري سلطة السيف، والتجاوز والاعتداء على حق الناس في الاجتهاد أيضاً.

لقد كان النبي العظيم محمد ﷺ، وفي أقسى المعارك، وأكثرها خطورة، لا يكفّ عن الترديد: **«إنما أنا رحمة مهداة»**[1]، لكن الخوارج أخذوا يعتسفون اختيار الحجج التي تتناسب مع ثورتهم الهوجاء، فكانوا ـ رغم البهرج الظاهر لأُطروحاتهم ـ الأب الشرعي لكل إرهاب ديني ـ سياسي، في تاريخ الإسلام.

كذلك، لم تكن إرهابية محاكم التفتيش في أوروبا المسيحية إلّا صورة من نهج الخوارج، ولكن من موقع السلطة الكهنوتية ـ الزمنية، في حين كان الخوارج ينفّذون أحكامهم، خارج الدولة والنظام، في هيأة غوغائية عنيفة.

ازداد بطش الخوارج بالمسلمين الضعفاء، وخشي أصحاب علي بن أبي طالب، أنهم سيحاصرون من الجبهة الخلفية، وهم يتقدمون إلى (صفّين)، قائلين لعلي: **«يا أمير المؤمنين، تدع هؤلاء القوم وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا، سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم نهضنا إلى عدوّنا في الشام»**[2].

---

١ ـ فقه السنّة، الشيخ سيد سابق ١٠:١ و٥٩٥:٢، الطبقات الكبرى ١٩٢:١، سنن الدارمي ٩:١، المستدرك ٣٥:١، مجمع الزوائد ٢٥٧:٨، المصنّف لابن أبي شيبة ٤٤١:٧، بحار الأنوار ١١٥:١٦ و٣٠٦. (المحقق)

٢ ـ ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة. (المؤلف)، الإمامة والسياسة ١٦٨:١ تحقيق الشيري، و١٢٧:١ تحقيق الزيني. (المحقق)

الجريمة المروعة

استفحل خطر الخوارج، وازدادوا تلاعباً بالجدل، الذي يسنده السيف. فكانوا يتحرشون بالذاهبين والآتين، تحرّكهم لجاجة السفسطة، يُريدون أن يلغوا ـ عبثاً ـ وجود البشرية، إلّا على مقاساتهم.

وكانت لهم جرائم قتل عديدة، من أبرزها قتل عبد الله بن خباب بن الأرث، ابن صاحب رسول الله ﷺ.

كان يسوق امرأته على حمار له، «**فعبروا إليه الفرات، فقالوا له: من أنت؟**».

قال: أنا رجل مؤمن!

قالوا: فما تقول في علي بن أبي طالب؟

قال: أقول: إنه أمير المؤمنين، وأول المسلمين إيماناً بالله ورسوله، قالوا: فما اسمك؟

قال: أنا عبد الله بن خباب بن الأرث، صاحب رسول الله ﷺ.

قالوا له: أفزعناك؟

قال: نعم!

قالوا: لا روع عليك، حدّثنا عن أبيك بحديث سمعه من رسول الله ﷺ، لعل الله أن ينفعنا به!

قال: نعم، حدثني عن رسول الله ﷺ أنه قال: ستكون فتنة بعدي، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً!

فقالوا: لهذا الحديث سألناك، والله لنقتلنّك قتلة ما قتلناها أحداً. فأخذوه، وكتّفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى مُتِمّ، حتى نزلوا تحت نخل، فسقطت رطبة منها، فأخذها بعضهم فقذفها في فيه، فقال له أحدهم: بغير حل، أوبغير ثمن، أكلتها، فألقاها من فيه. ثم اخترط بعضهم سيفه فضرب به خنزيراً لأهل الذمة، فقتله، فقال له بعض أصحابه: إن هذا من الفساد في الأرض. فلقي الرجل صاحب الخنزير، فأرضاه من خنزيره.

فلما رأى عبد الله بن خباب منهم ذلك، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، ما عليَّ

منكم بأس، ووالله ما أحدثت حدثاً في الإسلام، وإني لمؤمن، وقد أمّنتموني، وقلتم لا روع عليك.

فجاؤوا به وبامرأته، وأضجعوه على شفير النهر، على ذلك الخنزير، فذبحوه فسال دمه في الماء، ثم أقبلوا إلى امرأته، فقالت: إنما أنا امرأة أما تتّقون الله؟ فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة، فيهن أم سنان وقد صحبت النبي ﷺ»[1].

من الناحية الموضوعية، كان الخوارج قد أعلنوا إباحة دم الذي يكفّرونه، فعملوا على نشر القتل. كذلك، كان معسكر معاوية قد أعلن إباحة الدم والقتل، بغزو المدن والقرى، والفتك بأهلها. أي أن ثمة ظروفاً موضوعية مشجّعة للعنف، والاستخدام الأهوج للسيف.

بمواجهة ذلك، كان علي بن أبي طالب يسنُّ مبادىء الموادعة، والسلم، والمصالحة، والحوار ـ وتجنّب العنف، بأقصى التزام، دعماً لصورة المسلم الحقيقي الذي يصون كرامته وحرّيته، من خلال حماية كرامة المجتمع، وحقوقه العادلة. وحين توجّه علي بن أبي طالب إلى المدائن، وعسكر قرب (النهروان)، آثر أن لا يؤذنهم بالمقاتلة، فبعث اليهم:

أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم، لنتّخذ القصاص العادل.

فبعثوا إليه، إنا كلنا قتلناهم، وكلنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم. ثم أتاهم علي، فوقف عليهم، فقال: «**أيتها العصابة، إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً، وأنتم صرعى بإزاء هذا النهر، بغير برهان، ولا سنّة، ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة، وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أعرف بهم منكم، قد عرفتهم أطفالاً، وعرفتهم رجالاً، فهم شرّ رجال، وشرّ أطفال، وهم أهل المكر والغدر، وأنكم إن فارقتموني ورأيي جانبتم الخير والحزم، فعصيتموني وأكرهتموني، حتى حكمت. فلما أن**

---

١ ـ أُنظر الإمامة والسياسة ١:١٦٧ تحقيق الشيري و١:١٢٦ تحقيق الزيني، ابن أعثم في الفتوح ٤:١٩٨. (المحقق)

فعلت شرطت واستوثقت، وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا، وخالفا حكم القرآن والسنّة، وعملا بالهوى، فنبذنا أمرهم، ونحن على أمرنا الأول، فما نبأكم ومن أين أتيتم؟ قالوا: إنا حيث حكّمنا الرجلين أخطأنا بذلك، وكنا كافرين، وقد تبنا من ذلك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، وتبت كما تبنا وأشهدنا، فنحن معك ومنك. وإلّا فاعتزلنا، وإن أبيت، فنحن منابذوك على سواء. فقال علي: «أبعد إيماني بالله وهجرتي وجهادي مع رسول الله ﷺ، أبوء وأشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللتُ إذا وما أنا من المهتدين. ويحكم! ثم استحللكم قتالنا، والخروج من جماعتنا أن اختار الناس رجلين، فقالوا لهما: انظروا بالحق فيما يصلح العامة، ليعزل رجل ويوضع آخر مكان آخر، أحلّ لكم أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم، تضربون بها هامات الناس، وتسفكون دماءهم، إن هذا لهو الخسران المبين»[1].

وكانت الحرب لا بد منها.

وانطلاقاً من نهجه السلمي، وإعطاء الفرصة للخوارج للعودة، إلى صواب السلم، أوعز برفع راية أمان لهم مع أبي أيوب الأنصاري[2]؛ فمن جاءهذه الراية فهو آمن، ومن دخل المصر فهو آمن، ومن انصرف، ومن خرج من هذه الجماعة، فهو آمن.

وكعادته المجيدة، التي هي دليل الشجاعة والمبدئية، قال لأصحابه: كفّوا عنهم حتى يبدأوكم!

«وأقبلت الخوارج حتى إذا دنوا من الناس نادوا: «**لا حكم إلا لله**»[3]. ويروى أن علياً لما سمع نداءهم هذا قال: «**كلمة عادلة يُراد بها جور**» ثم نادوا: «**الرواح الرواح إلى الجنة**».

---

١ ـ ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة. (المؤلف)، الإمامة والسياسة ١:١٦٨ تحقيق الشيري و١:١٢٧ تحقيق الزيني. (المحقق)

٢ ـ الكنى والألقاب لعباس القمي ١:١٣. (المحقق)

٣ ـ أُنظر الغارات ١:٣٠ و ١١٦، الاحتجاج للطبرسي ١:٢٧٥، العمدة لابن البطريق: ٤٦٣، المناظرات في الإمامة: ٧٩، صحيح مسلم ٣:١١٦، السنن الكبرى ٨:١٧١، شرح مسلم للنووي ٧:١٦٩، فتح الباري ١٢:٢٥٢، نظم درر السمطين: ١١٦، لسان الميزان لابن حجر ٣:٣٢٩، تاريخ الطبري ٤:٥٢، تاريخ ابن خلدون ق ٢ ج ٢: ١٧٨، معجم الفرق الإسلامية لشريف الأمين: ٩٤ ومقالات الإسلاميين للأشعري: ١٢٧ ـ ١٢٨. (المحقق)

فشدّدوا على أصحاب علي شدة رجل واحد، والخيل أمام الرجال، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل، فخمدوا.

قال الثعلبي:

لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز اتّقت المطر بقرونها، ثم عطفت الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض علي في القلب بالسيوف والرماح، فلا والله، ما لبثوا فواقاً حتى صرعهم الله، كأنما قيل لهم موتوا، فماتوا! وأخذ علي ما كان في عسكرهم من كل شيء، فأما السلام والدواب فقسمه بيننا، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم الكوفة ردّه على أهله»(١).

السيف والروح

مهما حكم السيف، فانه ينحني أمام الروح، لأن الروح هي الغالبة، وفي، ذلك كان (نابليون) صادقاً، إذ قال: **«تتنازع العالم قوتان: السيف والروح، ولكن الروح وحدها الغالبة»** وقد جمع علي بن أبي طالب غلبة الروح، وغلبة السيف، إلاّ أن الروح ظلت صاحبة السلطة، والقرار.

وليس مفهوم الروح ـ هنا ـ فردياً، مثالياً، مجرداً، بل هو أعظم من ذلك، ذلك لأنه يشمل جملة المبادىء الأساسية التي تشكّل بنية عالم علي بن أبي طالب وأصحابه الصالحين. وتلك البنية هي النقيض الكلّي لعالم معاوية بن أبي سفيان وجماعته.

إن العالم الأموي الموجود قبل الإسلام ـ في زمن الجاهلية ـ والذي دحره الإسلام في زمن النبي والمرحلة المشرقة التي ظل فيها الخلفاء يستلهمون أفكار الإسلام وتوجيهات الرسول، انبعث بصورة جديدة أكثر قوة، وأكثر تماسكاً.

فكانت سلطة معاوية الانبعاث الجديد ـ في حينه ـ بصورة السلطة الملكية العربية

---

١ ـ تاريخ الطبري ٨٦:٥، تاريخ ابن الأثير ٤٠٦:٢، فتوح ابن أعثم ١٢٥:٤، الإمامة والسياسة ١٦٩:١ تحقيق الشيري و ١٢٨:١ تحقيق الزيني. (المحقق)

الأولى ذات التركيبة القبلية ذات الطبيعة السياسية الوراثية. وقد استفادت من خصائص الحكم الفارسي، وحكم الروم، في استجلاب مزايا جديدة، أسهمت في إعداد حكم معاوية كأنموذج جديد.

وقد التفت عمر بن الخطاب إلى المظاهر الكسروية المبكرة، حينما شاهد بنفسه كيف أحاط معاوية نفسه بمظاهر الامارة كما سنذكر ذلك لاحقاً.

بعبارة أخرى، إن عالم معاوية بن أبي سفيان، كان يتبلور، ويتّسع، في فعالية نشطة للشروط الموضوعية لتكوّنه.

فهو ـ إذن ـ حتمية موضوعية قائمة بقوانينها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية السائدة. وقد عبّر عن ذلك (الحسن بن علي)، حينما لامه أنصاره على بيعته لمعاوية، فقال: «**ان أبي يحدّثني أن معاوية سيلي الأمر، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر، ما شككتُ أنه سيظهر، ان الله لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه..**»(١).

---

١ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك عن سفيان بن أبي الليل، انه أتى حسناً عليه السلام بالمدينة حين انصرف من عند معاوية فوجده بفناء داره، فلما انتهى إليه قال: السلام عليك يا مذل المؤمنين، قال: قال: وما ذكرك هذا؟ قال: فذكرته الذي كان منه من تركه القتال ورجوعه إلى المدينة!! فقال له الحسن: يا سفيان أما أني سمعت علياً عليه السلام يقول: لا تذهب الليالي والأيام حتّى يجتمع أمر هذه الأمّة على رجل واسع السرم ضخم البلعوم يأكل ولا يشبع لا يموت حتّى لا يكون له في السماء عاذر ولا في الأرض حامد وانه معاوية وأني قد عرفت أن الله بالغ أمره.
انظر تاريخ دمشق ١٢: ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ط ١، مناقب أمير المؤمنين لمحمّد بن سليمان الكوفي ٢: ١٢٨ ومثل ذلك مع حجر بن عدي، انظر دلائل الإمامة: ١٦٦ والثابت عند الفريقين هو سفيان ابن أبي ليلى الهمداني كما في الاختصاص للمفيد: ٨٢ وتاريخ بغداد ١٠: ٣٠٥، وتاريخ دمشق ١٣: ٢٧٩، ميزان الاعتدال للذهبي ٢: ١٧١، وسير أعلام النبلاء ٣: ١٤٧.
وفي نهج البلاغة، شرح صبحي الصالح قال عليه السلام: «أما إنّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد، فأقتلوه، ولن تقتلوه! ألا وإنّه سيأمركم بسبي والبراءة مني، فأما السب فسبوني فإنه لي زكاة، ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني، فإنّي ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة»: ٩٢. (المحقق)

ولم يكن بزوغ عالم معاوية الصاعد دليلاً على غُروب عالم علي بن أبي طالب[١]، ولكنه كان ترجمة أمينة لميلان كفّة الصراع لصالح معاوية، من خلال الشروط الموضوعية، وليس من خلال الشروط الذاتية.

وليس هناك خطأ مثل خطأ كتّاب التاريخ من الكلاسيكيين، العرب، في سردهم أخبار التاريخ، وتحليلها، من زاوية أخبار الأشخاص. فهم يركّزون على دهاء معاوية ودهاء عمروبن العاص، وآخرين، معطين لذلك الدهاء دوره الفعّال في ادارة دفّة الاحداث[٢].

---

١ ـ وهذا ما لا يمكن أن يكون بعد أن سجل التاريخ البشري حكمته العظيمة، في بقاء القيم وأنتصارها لأصحابها. فضلاً عن روعة مصاديقها في سيره علي بن أبي طالب الذي بات بحقّ منظومة قيم خالدة. وملاذاً للمستضعفين والفقراء.(المحقق)

٢ ـ أُنظر ما كتبه الاستاذ حسنين كروم في بحثه «المثالية والسلطة»

فهو يرى الاستاذ حسنين: إن علياًﷺ الذي كان ملاصقاً للرسولﷺ لم ينتبه إلىٰ سياسته. الذي مارس فيها السياسة الديناميكية المتعددة الوجوه، ومنها عمليات اغتيال او عمليات ارهاب ضد بعض الخصوم كان ابرزها اغتيال كعب بن الأشرف اليهودي. كما ان الرسول كان يشتري من يمكن شراؤهم من ذوي النفوذ او رشوتهم بمعنى آخر كأجراء مرحلي.. ونعني بهم المؤلفة قلوبهم.. ويبرر الاستاذ حسينين ان هذه السياسة (النبوية) هي التي مكنت في حقيقة الأمر المسلمين من تحطيم اعدائهم ومن وصولهم إلىٰ السلطة وتصفية خصومهم. (انظر كتاب «علي بن أبي طالب... نظرة عصرية» مجموعة كتّاب: ٨١)

نقول:

١ ـ ان فترة الرسول تختلف عن فترة علي بن أبي طالب، حيث كان الرسولﷺ يقاتل الكفار ولم يقاتل المسلمين.

٢ ـ ان قتل الرسولﷺ لكعب اليهودي، فان الرجل قد أسلم ثم ارتد عن الإسلام واخذ يحرّض قريش ضد النبيّ، ولا يخفى على الكاتب ان حكم المرتد في الإسلام هو القتل، فضلاً عن عمله التحريضي ضد الرسول والذي يصل أحياناً الى تعبئة القبائل.

٣ ـ كان الرسولﷺ يسعى لاستلام السلطة. وكان الناس يومذاك تعيش العقلية الجاهلية ولم يكن للاسلام حضوة في عقولهم، فكان لابد له ان يتجنب شرور ذوي النفوذ ويحببهم إلىٰ الرسالة

↵

(٣) الجديدة كي يستفيد من اوضاعهم ولذا كان يعطي اموالاً كثيرة لهؤلاء واستمر العطاء لهم حتىٰ في عهد ابي‌بكر ونعني بهم... المؤلفة قلوبهم. كون ان الوضع السياسي يتطلب جذبهم من حيث:
١ ـ كثرة عددهم وخوفاً من خلق فتنة في المجتمع الإسلامي الجديد.
٢ ـ استمرار العطاء لهم حتىٰ وفاة ابي‌بكر، كونهم لم يساهموا في عمل يعرقل مسيرة الرسالة.
٣ ـ ان الإسلام جاء إلىٰ المجتمع رحمة وليس نقمة. فإعطائهم من مال الدولة كونهم اصبحوا جزءً منها.

اذن فسياسة الرسول ﷺ لم تكن سياسة ميكافيلية هدفها الوصول إلىٰ السطة المشوبة بالأساليب المفتقرة للقيم كما أراد ان يصوّرها الاستاذ حسنين، وهو يرغب في علي عليه السلام ان يسلك سياسة الرسول ﷺ بما وصفها ـ هو ـ من حيث الارهاب وعمليات الاغتيال وعدم العدالة في توزيع المال!!

بل ان سياسة الإمام عليه السلام هي عين سياسة الرسول ﷺ ولكن لم يلتفت الكاتب إلىٰ الفارق الزمني واختلاف الظروف. فعلي عليه السلام لم يسعى لاستلام السلطه، بل كان هو في السلطة بعد البيعة الشعبية له بعد مقتل عثمان، وهذا مما لا يستوجب ان يمارس الارهاب والاغتيال مع المخالفين له من المسلمين ولاندري كيف خط قلم الكاتب كلمة الإرهاب وهو يؤكد على ان الرسول مارسها مع الاعداء دون ان ينظر إلىٰ الحكم الاسلامي الشرعي بحق المرتد!! وقد غفل الاستاذ كروم ان الاغتيال والخديعة والمكر والارهاب محرّم في الإسلام، ولا يتم القتل إلا في ساحات الحروب، ولم يذكر الاستاذ كروم مثالاً تاريخياً من هذا الارهاب الذي يعتقده هو، سوى انه اكتفى بحادثة كعب اليهودي!!

كما ان المتتبع للتاريخ يرى ومن كل رسائل الإمام إلىٰ معاوية، وحتىٰ في كل احاديثه المأثورة، لم يصف فيها معاوية بالكفر، ولكنه كان يؤكد على انحرافه وارستقراطيته وخبثه واعتياشه باسم الإسلام خادعاً المسلمين مضللاً عليهم باعلام فاسد.

ونرى ان رؤية الكاتب الاستاذ حسنين تتماشا مع نصيحه المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس، ولكي نؤكد خطأ هذه النصيحة نوضح ما يلي:
١ ـ ابقاء معاوية بضعة أيام يوجب على علي عليه السلام ارسال كتاب له يقرّه فيه، وهذا دلالة على اعتراف علي عليه السلام به والاعتراف بسياسته السابقة، فيكون بوسع معاوية أن يأخذ كتاب علي عليه السلام الذي أقره فيه بالحكم كوثيقة يحتج بها لصلاحيته للخلافة، لأن من يصلح للولاية يصلح للخلافة. وبذلك يحارب الإمام بنفس السلاح الذي يريد الإمام محاربته به. ثم ان هذا الكتاب يضخم من
(٣)

ورغم أهمية الدور الذي يلعبه المكر، فانه لا يستطيع انجاز عملية تحول تأريخي مهم، ما دام لم تتوفّر له العوامل الموضوعية الأساسية المغيّرة.

فكانت العوامل المحرّكة والمولدة لعصر معاوية الجديد تتقدّم، فيما كانت تنحسر العوامل الموضوعية للخلافة الإسلامية بشخص علي بن أبي طالب، انحساراً جلياً. ومع انحسار العوامل الموضوعية لعصر الخلفاء الراشيدين وورثة فكر النبي العظيم، كانت تنحسر ـ أيضاً ـ معالم البطولة الفردية المميّزة، التي كان علي بن أبي طالب وريثها، وسليلها، ورمزها الأصيل(١).

شعور معاوية بمدى اهميته. فان مثل علي عليه السلام وما عرف عنه من صلابة المبدأ وشيوع القيم لا يمكن ان يخضع لمجاملة معاوية، وعدم مواجهته مباشرة يعتبر جبن في حساب النفوس الصلبة.

٢ ـ لم يكن هناك مبرر ديني على ابقاء معاوية يوماً واحداً والياً على الشام، طالما ان الرسول صلى الله عليه وآله وصف الأمويين بالقردة وفق تفسير الآية: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ...**﴾.

٣ ـ ان النظرة في سياسة معاوية في الأموال والدماء والكرامات لا يترك أي مبرر للامام لابقائه بالولاية.

٤ ـ كلّ تغيير في رأس السلطة لابد ان يصاحبه تغيراً في الولايات، لأن القائد أو الخليفة يحتاج إلى كادر ينسجم معه في تصريف الأعمال، فكيف بعلي عليه السلام وهو يطمح ان يحقق سياسته العادلة إلى كل المسلمين، فهل مثل علي عليه السلام ان ينسجم مع ارستقراطية معاوية وأخلاقياته؟!

٥ ـ ان تصرفات معاوية كانت تعبر عن خلاصة لمزاج اموي قبلي، تصدى له الإسلام بشخص الإمام وحده. فان قيل بقاء معاوية في الولاية كان أولى فأن ذلك يعني لا فرق بين علي ومعاوية ولا فرق بين الإسلام والأمويين وهذا يعني لا قيمة لأي مضمون مبدئي دين خلقي ولا أي وازع يتصل بالعقيدة والشرف والمثل العليا في الحياة التي كانت ومازال تقام من أجلها أعظم الحروب. (المحقق)

وقد ذكرنا ذلك تفصيلاً في كتابنا «أخلاقية الحوار.. قراءة استدلالية في خطاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام».

١ ـ وهو القائل عليه السلام ـ مجسداً عمق المفهوم الإسلامي والتحول العظيم في أخلاقية القيم ـ: «ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا... ثمّ قال: ان ولي محمّد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وان

وعلى المستوى الواقعي لأية نظرة تأريخية مدركة، كان الواضح أن عصر الخلافة الإسلامية الرشيدة، كان قد أجهز عليه التحوّل الجديد الذي قادته الارستقراطية الأموية، منذ زمن. إلّا أن البطولة المشهودة لعلي بن أبي طالب، قد أطالت عمر تلك الخلافة.

إن مرحلة الخليفة الرابع انتهت سياسياً، ولكنها استمرت زمنياً طوال فترة خلافة علي بن أبي طالب ـ الخليفة الرابع ـ بقوة البطولة الفردية المدهشة له: بطولة الروح وشجاعة السيف.

ولم يكن التفاوت ـ إذن ـ تفاوتاً بين دهاء معاوية ودهاء علي، إنما كان تفاوتاً في موازين القوى وفعالية الشروط المؤثرة جدّياً.

وكان معروفاً أن دهاء معاوية لا يُقاس بذكاء علي، إلّا أن دهاء معاوية مرتبط بوسائليته التي لا تتراجع عن القيام بأية ممارسة من أجل تحقيق أهدافه، فهو دهاء لا يتعفّف عن المكر، والفجور، والغدر، والدسّ، والخيانة، وعدم الالتزام بالعهد[1].

ولم يكن معاوية الأمير المترعرع مع بطانته في أحضان الشام محتاجاً الى معلم من طراز (مكيافللي)، لأنه كان الأمير ـ المعلّم. لقد كان مكيافللي نفسه، الذي توحّدت فيه الأمارة السياسية، ووظيفة تعليم فنون الأمارة والسيطرة، فكان يُعلّم نفسه بنفسه، في ميدان التجربة، دون أن يسمح لأي عائق ديني أوأخلاقي بعرقلة سيره على الدرب الذي اختطه له.

وحين كان معشر من المسلمين يرى في رفع المصاحف في حرب صفين، وفي

عدوّ محمّد من عصى الله وإن قربت قرابته ! نهج البلاغة لمحمّد عبده ٤: ٢٢ إذن هي القيم وليست القرابة، وهي الاستقامة وليس النسب. (المحقق)

١ ـ يقول علي عليه السلام: «**وَٱللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى ٱلنَّاسِ، وَلٰكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ. وَٱللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ**». نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢: ١٨٠، تحف العقول: ٩٩، الصوارم المهرقة للتستري: ٤٧. (المحقق)

التحكيم، مواثيق وعهوداً مقدسة، كان هو يسخر (في نفسه) من تلك السذاجة، لأنه كان يخضع كل تلك المواثيق والعهود لخطته السياسية المحكمة.

قال علي بن أبي طالب يصف معاوية ذاكراً نفسه:

«وَٱللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلا كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ ...»[١].

طبعاً، كان معاوية على معرفة تامة بأن (علي بن أبي طالب) يلتزم بالعهود والاتفاقيات، فهي أمانات، وحسب علي أن أول معركة خطيرة له مع قريش كانت معركة إعادة الودائع إلى أهلها نيابة عن النبي الكريم، بعد الهجرة إلى يثرب.

ولا شأن لمعاوية بقيم من هذا النوع، وهو يسعى ـ فقط ـ من أجل استثمارها، وتوظيفها عملياً لصالح غاياته المرسومة.

لذلك ـ مثلاً ـ لم تكن فترة الهدنة بين إيقاف القتال في حرب صفّين، وإعلان قرار التحكيم، فترة التزام حقيقي بالهدنة، إلّا من قبل علي بن أبي طالب. أما معاوية فقد استثمر فترة الهدنة جيداً لتوجيه ضرباته إلى مواقف إسلامية مهمة، لإضعاف دولة الخلافة الإسلامية، والتمهيد لبسط السيطرة عليها.

فكانت الهجمات المسلّحة لقوات معاوية تتزايد، فأغار على (عين التمر) النعمان بن بشير بألف رجل، وكان بها مسلحة لعلي فيها مئة رجل، فكسروا جفون سيوفهم، واقتتلوا أشد القتال، وجاءهم خمسون من القرى المجاورة، فلما رآهم أهل الشام ظنوا أن لهم مدداً، فانهزموا عند المساء[٢].

---

١ ـ انظر الصوارم المهرقة: ٤٧، وشبيه هذه العبارة: **«وَٱللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ...»** انظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢: ١٨٠. (المحقق)

٢ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك. (المؤلف). ويذكر صاحب الغارات ٢: ٤٥١ «ان النعمان بن بشير غار على عين التمر بألفين رجل». وكذلك الطبري في تأريخه: (بعث معاوية النعمان بن بشير في ألفين فأتوا عين التمر...) ٤: ١٠٢. (المحقق)

وأغار على (هيت) سفيان بن عوف الغامدي، وأمره معاوية أن يأتي (الأنبار) و(المدائن)، فيوقع بأهلها، وكان مما أوصاه به: اقتل من لقيته ممن ليس هو على رأيك واخربْ كل ما مررت به من القرى، وأحرز الأموال، فإن إحراز الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب[١].

فأتى (الأنبار) وبها مسلحة لعلي فيها مئة رجل. فقتلوا منهم ثلاثين، واحتملوا ما كان في الأنبار من أموال، ورجعوا إلى معاوية[٢].

وقد كان هذا الحدث موجعاً للإمام علي، فخطب في أصحابه خطبة قال فيها: «**وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ ٱلْأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا.**

وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى ٱلمَرْأَةِ ٱلمُسْلِمَةِ، وَٱلأُخْرَىٰ المُعَاهَدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا، وَرِعَاثَهَا، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ، ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً.

فَيَا عَجَباً! عَجَباً ـ وَٱللهِ ـ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن ٱجْتِمَاعِ هٰؤُلَاءِ القَوْمِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ!»[٣].

ووجّه معاوية الضحاك بن قيس ومعه ثلاثة آلاف رجل، وأمره أن يمر بأسفل واقصة، وأن يغير على من يمر به، ممن هو في طاعة علي من الأعراب، فمرّ على التعلبية، وأخذ أمتعتهم، وقتل من لقي من الأعراب، ثم لقي عمروبن عميس بن مسعود، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله ﷺ، فقتله في طريق الحاج، وقتل معه ناساً من أصحابه»[٤].

---

١ ـ الغارات ٢:٧٨٣، الأمالي للطوسي: ١٧٣، شرح نهج البلاغة ٢:٨٥، مستدرك سفينة البحار ٨:٣٦. (المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه. (المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:٦٨، شرح نهج البلاغة ٢:٧٤. (المحقق)

٤ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة وانظر عبد الكريم الخطيب.(المؤلف). أُنظر نهج البلاغة لمحمّد

بعث معاوية بُسر بن أرطأة، في جيش إلى المدينة، فقتل بها ناساً من أصحاب علي، وأهل هواه، وهدم بها دوراً، ومضى إلى مكة فقتل نفراً من آل أبي لهب، ثم أتى السراة، فقتل بها من أصحابه، وأتى نجران فقتل عبد الله بن المدان الحارثي، وكانا من أصهار بني العباس، ثم أتى اليمن، وعليها عبد الله بن عباس، وكان غائباً، وقيل بل هرب لما بلغه خبر بسر، فلم يصادفه بسر، ووجد ابنين له صبيّين، فأخذهما بسر وذبحهما بيده، بمدية كانت معه، ثم انكفأ راجعاً إلى معاوية.

قالوا: فقالت امرأة له:... يا هذا.. قتلت الرجال، فعلامَ تقتل هذين؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية والإسلام! والله يا ابن ارطأة.. إن سلطاناً لا يقوم إلّا بقتل الصبي الصغير، والشيخ الكبير، ونزع الرحمة، وعقوق الأرحام لسُلطان سوء»[1].

مقابل ذلك، كانت مبدئية علي بن أبي طالب تحول دون انتهاج الأساليب الشائنة، التي تتعارض مع طبيعته الإنسانية العميقة، التي لم يخرج منها قيد شعرة، مهما كانت تستدعي ذلك ضرورات احتدام الصراع والحرب.

إن الخروج على طبيعته الإنسانية العادلة، والصارمة، (للحظات، لأوقات بسيطة) كان سيكفل له إلحاق الهزائم بخصومه، لكنه كان يأنف من ذلك، لا من باب الأنفة، وإنما

↩ عبده ١:٧٥، الغارات ١:٣٢٢. وفي الغارات ٢:٤١٦ يقول الثقفي: كانت غارة الضحاك بن قيس هي أول غارة على أهل العراق وكانت بعد حكم الحكمان وقبل قتل أهل النهر، (والمقصود معركة النهروان). (المحقق)

١ ـ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني. (المؤلف). وانظر مقاتل الطالبيين: ٤٢، وبسر بن أرطأة هو شبيه عمرو بن العاص فقد طمع في قتل علي، فضربه أمير المؤمنين عليه السلام فاستلقى على قفاه وكشف عن عورته فانصرف عنه علي.

فقال عليه السلام: «ويلكم يا أهل الشام أما تستحون من معاملة المخانيث لقد علمكم رأس المخانيث عمرو». واللطيف في الأمر أن معاوية يخاطب عمرو بن العاص:

الحمد لله الذي عافاك   واحمد استك الذي وقاك!

انظر مناقب ابن شهرآشوب ٢:٣٦٠، وتفسير ابن جرير ٤:٢٧، ومجمع الزوائد ١٠:٣٦٤ ـ ٣٦٥، وراجع ترجمة بسر بن أرطأة في كنز العمال ٦:٤٢٤، ٧:٢٢٤ ـ ٢٢٥. (المحقق)

بحكم طبيعته القاهرة.

فقد كان قادراً على حجر الماء عن جيش معاوية في بدء وقائع صفّين، لكنه لم يفعل ذلك، لأن مبدئيته ترفض قتل الناس عطشاً، فالماء ملك الناس جميعاً وهم شركاء فيه، في السلم أوفي الحرب، ولو فعل ذلك، لكان ميزان القوى سيتغير لصالحه منذ أول حين.

وكذلك الأمر حين قطع زحر بن قيس الميرة عن الشام، في الحرب عينها.

ومن المشهور عن علي بن أبي طالب أنه يطبق مبادئه الشخصية في القتال، مثلما يطبّق مبادئه الإنسانية. فحين اضطر معاوية عمروبن العاص إلى مبارزة علي بن أبي طالب، بعد أن جبن هو عن ذلك، وقع عمروبن العاص صريع الضربة الأولى لسيف علي، ولم ينقذه من الموت إلّا إبراز سوأته! فأعرض عنه علي بن أبي طالب، وعفَّ عنه.

وفعل مثل ذلك مع بُسر بن أرطأة القاتل الشرير، الذي سرعان ما أجهز عليه علي بن أبي طالب فصرعه، فلم يُصب النجاة إلّا بكشف سوأته! وفي ذلك العار، والجبن، وتوسل النجاة باخزاء النفس. قال الحارث بن النضر السهمي:

أفي كل يوم فارسٌ تندبونه ... له عورةٌ وسط العجاجةِ باديهْ

يكفُّ لها عنه عليٌّ سنانه ... ويضحك منها في الخلاء معاويهْ

بدت أمسِ من عمروفقنّع رأسه ... وعورةُ بُسر مثلها حَذْوَ جاذِيَهْ[1]

إن طبيعة علي هذه، والمتأصلة في نفسه تماماً، كان من الممكن لها -لو تغيّرت- أن تعطف بالحرب إلى حيث يربحها، لأن قتل عمروبن العاص وبُسر بن أرطأة، كان سيترتّب عليه تحوّل كبير في مسار الحرب، نظراً إلى أن دورهما - وبخاصة عمروبن العاص -كان قيادياً خطير الشأن في معسكر معاوية.

---

١ ـ وقعة صفين: ٤٦٢، الاستيعاب ١:٦٧، شرح نهج البلاغة ٢:٣٠٠، مطالب السئول: ٤٣، تاريخ ابن كثير ٤:٣٠، نور الأبصار: ٩٥، الاصابة ١:١٦٢ و١٦٣، شرح نهج البلاغة ٨:٩٦، المناقب للخوارزمي: ٢٤١، الغدير ٢:١٦٦، ودراسات في الحديث والمحدثين هاشم معروف الحسني: ٩٧. (المحقق)

قراءة لوجه عمرو بن العاص

وقد كشف علي بن أبي طالب - في كلام له يذكر فيه عمرو بن العاص - عن طبيعة العناصر المناهضة له، والجامع الذي يجمعها[١]، فهي تتّحد في الأطماع، والطموحات السياسية، وفي فقدان المثل الأخلاقية والدينية. فمن المعروف أن معاوية لم يكسب عمرو بن العاص إلى صفّه إلّا بوعده بتعيينه والياً على مصر، وكانت ولاية مصر أهم طموحات عمرو بن العاص.

وحسب ادّعاءات معاوية بن أبي سفيان، بمطالبته بدم عثمان، فإن عمرو بن العاص ينبغي أن يكون خصماً لمعاوية، لأنه خاصم عثمان بن عفان، وبالغ في التأليب عليه، وخاصة بعد أن عزله عثمان عن ولاية مصر.

فابن العاص كان في ذلك الزمان **«عبداً لنوازع الشر التي ملأت نفسه. فلغير غرض نبيل ناجز عثمان وراح يؤلّب عليه، ولغير عاطفة كريمة قام يناضل عن دمه، أو يبدو كمن يعمل جاهداً ليثأر له. بل انطلق في البدء جامحاً تستعبده المادة أيضاً، فمضى يستنهض الدموع والبكاء ليثأر لضحيته كمن دفعه الولاء والوفاء»**[٢].

«هذا الرجل أخضع النبل الإنساني للغرض الشخصي حتى لم يعد هناك نبل معلوم يجيش بصدره، ولم تعد بقلبه عاطفة كريمة ينبض بها عرق واحد فيه. بل هو كافح لتدعيم النفعيّة لأنها

---

١ ـ ويقصد المؤلف (بين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان). (المحقّق).

٢ ـ أُنظر تاريخ الطبري ٥:١٠٨، ٢٠٣، أنساب الأشراف ٥:٧٤، الإمامة والسياسة ١:٤٢، ابن أبي الحديد في شرح النهج ١:٦٣، تاريخ ابن كثير ٧:١٧٠، الاصابة ٣:٣٨١، وقد أجمع المؤرخون على أن عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر واستعمل عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرحه، فجاء ابن العاص إلى علي ﷺ يؤلبه على عثمان ويأتي الزبير وطلحة يخبرهم بإحداث عثمان. ومن قوله: هذا منبر نبيكم، وهذه ثيابه، وهذا شعره لم يبل فيكم وقد بدلتم وغيرتم! (الأنساب ٥:٨٨) وعند حصار عثمان (الأوّل) خرج في فلسطين فلم يزل بها حتّى جاءه خبر قتله، فقال: «أنا أبو عبد الله أني إذا أحل قرحة نكاتها، إني كنت لاحرص عليه حتّى اني لأحرص عليه من الراعي في غنمه»، فلما بلغه بيعة الناس لعلي كره ذلك وتربص حتّى قُتل طلحة والزبير لحق بمعاوية. (المحقق)

أجدى عليه من قداسة الخلق الفاضل وصفاء النفس الشفافة. كان صورة أخرى لسيّده معاوية كأنهما أصل وخيال. لم يدع كلاهما إلّا الغرض الذي يدر عليه الربح المنشود، ولم يلتزما في حياتهما العامة المقاييس الخلقية الشريفة لأنهما علماها عند قياس المادة تبوء بخسران»[١].

استدعاه عثمان، حينما قدم المدينة، وكانت قالته فيه قد تفاقمت، فقال له:

– يا ابن النابغة ما أسرع ما تمل جربان جبّتك.. إنما عهدك بالعمل عاماً أول.... أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر؟

– إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل، فاتق الله في رعيتك يا أمير المؤمنين.

– والله، لقد استعملتك على ظلمتك وكثرة القالة فيك!

– قد كنت عاملاً لابن الخطاب ففارقني وهو غنيّ راضٍ!

– وأنا، والله، لو آخذتك بما آخذك به عمر لأستقمت.. ولكني لنتُ عليك فاجترأت عليَّ.. أما والله لأنا أعزُّ منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان!

– دع عنك هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وهدانا به.. قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك![٢]

«ومع ما بلغ من تهافته آونة على الاعتذار، وإمعانه ثانية في الانتصار لنفسه من التهم التي كالها له الخليفة، فإن الرجل لم يرعوِ عن غيّه، بل اندفع يحدوه حقه الذي أبى عليه أن يغفر

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب المجلد ٣ – ٤. (المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٢:٦٥٦ (ط. بيروت) حوادث عام ٣٥ وأخرى، ٣:٣٩٢ نسخة محققة نشر الأعلمي بيروت، تاريخ مدينة دمشق ٥٥:٢٦.

وجاء فيها: (يا ابن النابغة ما أسرع ما قمل جربان جربتك)

وكذا في نسخة ابن عساكر وأيضاً في نهج السعادة للمحقّق المحمودي ٢:٥٩. (معاصر)

وفي لحظة إنهماكِنا في التحقيق ونحن نتصفح كتاب نهج السعادة، اذاع تلفزيون الجمهورية الإسلامية ـ قناة قم ـ نبأ رحيل الشيخ المحمودي ﷺ في مستشفى آية الله الكلبايكاني في يوم الثلاثاء ١٨ ربيع أوّل ١٤٢٧ هـ. سائلينه تعالى ان يتغمده برحمته الواسعة، لمّا تركه من آثار علمية تستحق التبجيل، إنا لله وإنا إليه راجعون. والعاقبه للمتقين. (المحقق)

لعثمان عزله عن منصبه. وراح يملأ النفوس بالتذمّر ويبذر فيها - انتقاماً لنفسه - بذور السخط على أمير المؤمنين. لم يسلم من بثّه أحد كان بالمدينة حتى ابن أبي طالب والزبير وطلحة، ثم أخذ ينطلق في موسم الحج فيختلط الناس الآتين من كل فجّ وقطر فينفث فيهم سمومه، ويعترض سبيلهم ينبئهم بأخطاء عثمان». ولعل خير صورة ترسم لنا جهوده المعادية ما قاله هو عن نفسه غبّ مقتل عثمان: «... **إن كنتُ لأحرّض عليه حتى إني لأحرّض عليه الراعي في غنمه برأس الجبل».**

بهذه النفسية عمل عمرو، وبها حارب الخليفة، ثأراً لمنصب الإمارة بالفسطاط، ولهذا المنصب نفسه راح بعد المصروع يبدو أمام الناس داعية يريد أن ينتصف لعثمان»[1].

لقد واصل عمرو بن العاص دوره الخبيث والخطير، بعد مصرع عثمان، ولكن من موقع أعلى، وذلك بالتنسيق مع أمير الشام معاوية بن أبي سفيان، الذي كان يخطّط لرئاسة الدولة الإسلامية، وتحويلها إلى دولة أموية. إن قراءة وجه عمرو بن العاص تكشف عن سمات المتصارعين مع علي بن أبي طالب، وعن الفارق الكبير بين نهجين يتجاوز حدود الأفراد القياديين، وإن كانوا يمثلونه كلاً أو بعضاً.

إن عمرو بن العاص الذي كشف سوأته بعد أن صرعه علي بن أبي طالب على ساحة المعركة، كان في مسلكه المخزي ذاك، يُعبّر عن تمام طبيعته الفكرية، والنفسية[2].

ولا شك أن المسألة تمتد إلى ما هو أبعد من الحدود الشخصية لتلك الطبيعة، طبيعة عمرو بن العاص، وإلى ما هو أبعد من العلاقة التضامنية المتشابهة بين عمرو بن العاص

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب المجلد ٣ - ٤. (المؤلف)

٢ ـ رحم الله الفقيه الشافعي والشاعر المشهور (حيص بيص) حين قال:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدمِ أبطحُ
وحللتم قتل الاسارى وطالما ... غدونا على الاسرى نعفو ونصفحُ
وحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكُلّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

انظر شرح نهج البلاغة ١:٢٣. (المحقق)

ومعاوية بن أبي سفيان، إنها تمتد إلى النطاق الواسع الذي تعنيه مسؤولية السلطة التي يمثّلها الاثنان.

إن كون حكم مصر من قبل عمرو بن العاص (الوالي)، مكرمة معاوية لعمرو ثمناً لدهائه السياسي، يعني أن مصير مصر مرتبط بتلك الطبيعة التي عُرف بها ابن العاص: طبيعة التضحية بالمبادىء الأخلاقية، (والدينية بالضرورة)، من أجل المكاسب الشخصية.

فولاية مصر، تلك المسؤولية السياسية والاقتصادية والخطيرة، كانت ستكون نهب إرادة شخص لا مانع لديه من كشف سوأته إنقاذاً لنفسه من ضرب سيف علي.

إنه لم يتجرّد فقط من الشجاعة الواجبة في المبارزة، بل تجرّد – وذلك أخطر – من القيم الأخلاقية، فلا يدري أحد ما هو قائل لابنه وللجند في المعسكر، بعد أن بان الخزي الذي ما بعده خزي!

وكان حقيقاً به، أن يختفي عن الأنظار بعد ذلك، وهذا أبسط ما يستطيع فعله، وهو فعل الإنسان العادي إذا ما مرَّ بالموقف نفسه. لكن الغريب أنه يقفز – وهو الوجيه: من ذلك العار والشنار إلى ولاية مصر.

ربما كان آخرون – من وجهاء المعسكر – يفعلون الفعلة نفسها، مثلما حصل ذلك لـ (بُسر بن أرطأة)، لكن: كيف استقبل الناس تلك الصورة من الإخزاء المزدوج: إخزاء نفسه وإخزائهم؟!

أم هل رانَ على قلوب الكثيرين من الخزي الأكبر، ما جعلهم لا يقيمون وزناً لخزي من ذلك النوع الذي حصل؟!

ولقد كان نوع الظروف العامة حينذاك، مؤدياً إلى تغيير الكثير من الأفكار، والعادات، والقيم، فأصبح للشجاعة تعريف آخر، ليس هو التعريف الحقيقي لها.

وتغيرت معاني الكثير من الفضائل، وربما أصبحت تعني نقيضها، ذلك لأن الانقلاب العام في ظروف المجتمعات العامة، يرافقه انقلاب – غير بسيط – في معاني (الفضائل) ودلالاتها.

وها هو ابن العاص، يتعرى تحت نظر الإمام علي بن أبي طالب، وكلماته الثاقبة، ومعه يتعرى معسكره، وزمنه.

قال علي بن أبي طالب:

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ: أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِماً.

أَمَا ـ وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ؛ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سُبَّتَهُ (أي أن يكشف سوأته للإمام).

أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّىٰ شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَىٰ تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً.[1] ..»[2].

ومن كتاب منه إلى عمرو بن العاص، قال:

«.. فَإِنَّكَ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ (يقصد به معاوية)، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ، اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ، يَلُوذُ إِلَى مَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَىٰ إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ! وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ، فَإِنْ يُمَكِّنِ اللهُ مِنْكَ وَمِنِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا، وَالسَّلَامُ»[3].

---

١ ـ المقصود بالعطية والرضيخة ولاية مصر.(المؤلف)

٢ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب المجلد ٣ - ٤.(المؤلف). وأنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:١٤٧، الايضاح: ٨٥، الغارات ١:٣١٨ و٢:٥١٤، الأمالي للمفيد: ٦٣، والأمالي للطوسي: ١٣١، الاحتجاج للطبرسي ١:٢٦٩. (المحقق)

٣ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب المجلد ٣ - ٤.(المؤلف) وأنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ٣:٦٤، الاحتجاج ١:٢٦٨.(المحقق)

أُنسُ علي بن أبي طالب بالموت وشجاعته

تتصل الشجاعة بعد خشية الموت، في الإقدام على تحقيق قضية مبدئية، ومنازلة العدو. ويمتلىء معسكر المؤمنين – عادة – بالفدائيين الذين يعشقون الشهادة، في حين يمتلىء معسكر الطامعين، والنفعيين بالجبناء الذين يخشون التضحية.

وقد دخلت فكرة الموت في أفكار علي بن أبي طالب، وفي حياته العملية، مثل المحور الذي تنبعث عنه حقائق أساسية.

فالموت أولاً حقيقة حتمية، وهو في الدين الإسلامي انتقالة من الحياة القصيرة – الحياة الدنيا للفرد – إلى الحياة الأبدية.

وهو بهذا الملحظ ليس خاتمة حياة الفرد، بل بداية حياته الأخرى.

ولذلك تؤكد الديانة الإسلامية على أن العمل الصالح في الدنيا ضرورة قطعيّة للفلاح في الآخرة.

ويكاد الضابط المذكور أن يكون مركز تفكير علي بن أبي طالب بن أبي طالب في الدعوة إلى الحق، والعدل، والدفاع عنهما بشجاعة، إلى الاستشهاد.

ويرتبط هذا الضابط بالرقيب الإلهي الذي يحصي أعمال الإنسان في دنياه، فيكون الحساب جارياً وفقاً للميزان.

وقد دارت أفكار علي حول ذلك، فقال في خطبة له:

«أَلَا وإِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا، وَلَا يُنْجَىٰ بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا، ٱبْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً، فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي ٱلْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّىٰ قَلَصَ، وَزَائِداً حَتَّىٰ نَقَصَ.»[1].

وحدّد العلاقة بين الآجال والأعمال في خطبة أخرى، فقال:

«وَاتَّقُوا ٱللهَ عِبَادَ ٱللهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَٱبْتَاعُوا مَا يَبْقَىٰ لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ،

---

١ ـ السابغ: الممتد، ونعمة سابغة أي واسعة، وقلص الظل أوالفيء: انقبض، وقلص الغدير ذهب ماؤه (نهج البلاغة). (المؤلف) وأنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:١٠٩، عيون الحكم والمواعظ: ١٤٨، حسن الظنّ بالله، لابن أبي الدنيا: ١٢٣، بحار الأنوار ٧٠:١١٩. (المحقق)

وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ.

وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ، وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ»[1].

فالموت حق، وهو لدى المؤمنين قضاء حاتم يشدّهم إلى الإيمان والعمل الصالح، ويحفزهم لمحاسبة النفس في كل كبيرة وصغيرة.

فالباب الأول – إذن – هو أن الموت يجب أن ينقل عهد المؤمن إلى ربه، استناداً إلى القول الرباني: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**[2].

وتتجلى الشهادة – هنا – بأبلغ تعبيراتها الإسلامية، ذلك لأن صدق المصير، وحسن الأوبة، يعنيان اختيار طريق الحق، ولا طريق سواه. وانطبقت على علي بن أبي طالب والصدّيقين الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...﴾[3].

وكانت مصداقية علي بن أبي طالب ساطعة كضوء الشمس في جميع المعارك التي قامت بين الإسلام والشرك في زمن الرسول الكريم.

وكان علي بن أبي طالب – في معركة أحد – يبكي لأن الشهادة فاتته! أي أن جذر الشجاعة نابت في كيان إنساني مؤمن بالحق، والحياة الأخرى، والجنة التي خُلقت للأخيار والأبرار والتقاة والذين عملوا صالحاً.

---

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ١١٠، بحار الأنوار ٧٥: ٧٠. (المحقق)

٢ ـ سورة الأحزاب، آية: ٢٣. (المحقق)　　٣ ـ سورة التوبة، من الآية: ١١١. (المحقق)

وكان – في جميع فصول حياته – قد وضع حياته على كفّه، لأنه يرى أن أجله لا تقديم فيه ولا تأخير، في حرب أوفي سلم. فالأجل حارس، كما قال في خطبة له:

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ ٱللهِ جُنَّةً حَصِينَةً، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي ٱنْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي؛ فَحِينَئِذٍ لَا يَطِيشُ السَّهْمُ، وَلَا يَبْرَأُ ٱلْكَلْمُ»[١][٢].

إن رجلاً هذا شأنه (**هو علي بن أبي طالب**) يمتلك فهمه عن الموت، بضوء الفهم الإسلامي، والشهادة، كان يعاقر الموت حتماً في المعارك، فأصبح حجة في هذا الميدان.

ولقد أَنِسَ – فعلاً – بالموت، وهو آنس به من الطفل بثدي أمه. وذلك ما أفصح عنه بانسياب لغة الصدق والحق، من أعماق نفسه، فقال:

«أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ ٱلفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ ٱلـمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ ٱلـمُفَاخَرَةِ.

أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ ٱسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ، مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا، وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ.

فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى ٱلـمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ ٱلمَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي! وَٱللهِ لَابْنُ أَبِي‌طَالِبٍ آنَسُ بالمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ ٱنْدَمَجْتُ عَلَىٰ مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ ٱضْطِرَابَ ٱلْأَرْشِيَةِ في الطَّوِيِّ البَعِيدَةِ!»[٣][٤].

---

١ ـ الجُنّة بضم الجيم – الوقاية، والكَلْم: الجرح. (المؤلف)

٢ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:١٠٨ و٤:٤٦. ولذا قيل (الأجل جنّة حصينة) انظر شرح الأخبار ٢:٥. (المحقق)

٣ ـ عرّجوا: ميّلوا، أجن الماء تغير لونه وطعمه فأصبح كريه المذاق. الأرشية: جمع الرشاء – بكسر الراء – الحبل. الطويّ: البئر. (المؤلف)

٤ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:٤٠ـ٤١، شرح نهج البلاغة ١:٢١٣، بحار الأنوار ٧١:٥٧.

وهو القائل عليه السلام: (إن أحب ما أنا لاقٍ إليّ الموت) من خطبه ١٨٠.

وهو القائل عليه السلام عندما ضربه ابن ملجم «فزت وربِّ الكعبة».

وهو القائل عليه السلام: «فوالله إني لعلى الحقّ، وإني للشهادة لمحب» شرح النهج ٦:١٠٠. (المحقق)

وإذ يدعو علي بن أبي طالب إلى الجهاد في سبيل الله، والسعادة الأخروية فإنه لا يفصل دعوته تلك عن الجهاد ضد الجور والظلم. فالجهادان – في سبيل الله، وفي سبيل الحق والحياة الكريمة – هما جهاد واحد لا فصل في جانب منه عن الجانب الآخر. ولم يكن تذكره بالموت مراراً إلّا لمواجهة الجبناء العاجزين، مذكراً إياهم أن الموت سيصل إليهم مهما توهموا أنهم هاربون. فالتذكير بالموت مدعاة إلى المجاهدة، ومقاومة الظلم.

إنه يعطي الموت معناه بضوء رؤيته الثورية، ومسيرته الكفاحية الصامدة. إن الموت هو أن يعيش الإنسان حياته مقهوراً فذلك هو موت الروح والخذلان الأكبر.

في حين ينال الموتى حياة مجيدة، حينما يموتون قاهرين أعداءهم الظالمين. فالحياة مع الذلّ موت، وتلك هي فكرة الفدائيين والمضحّين والمقاتلين من أجل الحرية، عبر التاريخ. وهي فكرة علي بن أبي طالب الذي قال في خطبة له، في موقعة صفّين، حينما حجز جيش معاوية الماء عن أنصاره:

«قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ ٱلْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَىٰ مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ ٱلْمَاءِ، فَالمَوْتُ في حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَٱلْحَيَاةُ في مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ.

أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ ٱلْغُوَاةِ وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ ٱلْمَنِيَّةِ»[1][2].

---

١ ـ استطعموكم القتال: طلبوه منكم. لُمَة – بضم اللام وفتح الميم – جماعة قليلة. عَمَّس: أخفى وتجاهل. الأغراض: الأهداف. (المؤلف)

٢ ـ نهج البلاغة، محمّد عبده ١:١٠٠، شرح نهج البلاغة ٣:٣٢٥، بحار الأنوار ٣٢:٤٤٢. (المحقق)

الفصل الخامس

▣ السياسة العسكرية لعلي بن أبي طالب عليه السلام

إن التحدُّث عن السياسة العسكرية لعلي بن أبي طالب - في زمن خلافته - أمر صعب جداً، بل هو معقد تعقيداً خاصاً!

لماذا؟

لأن السياسة العسكرية لأمير المؤمنين - الخليفة - أو لأي قائد دولة هي سياسة وضعيّة عمليّة، تترجم نظرة دنيوية، سياسية، قائمه على حماية الملك، وإحلاله، وتوسيعه وصدّ مخاطر أعدائه.

وهي - بالدقة - تتعامل - كسياسة براغماتية بالنهاية - مع الواقع كموضوع، تُجري عليه مخطّطها النظري، في تطبيقات متتالية، تهدف إلى تحقيق النجاح للفعاليات العسكرية.

ومن ألفباء السياسة العسكرية، أن المخطط العسكري النظري يدخل في حيّز التطبيق بالتوجّه الكلي نحو الهدف، ولا شيء غير الهدف.

فحين نتناول أمثلة لاحقة في القيادة العسكرية، مثل (الاسكندر المقدوني)، و(يوليوس قيصر) و(نابليون بونابرت)، لا نجد في سيرتهم غير الاندماج الكلي لحياتهم بالوظيفة العسكرية، وبالفتوحات، دونما توقّف.

فالحرب هي الحرب، في عرفهم، وهي طريقهم لتحقيق الانتصارات، والأمجاد التاريخية. ورغم أنها - كما تبدوفي وجهات النظر - وسيلة لتحقيق أهداف موسّعة، فهي تتحول لدى أولئك القادة المتمرّسين إلى قضيّتهم النهائيّة، فهم يلتحمون وإياها وكأنها هدف لا يمكن التخلي عنه.

وليس هناك مبالغة في القول، لو أن الانتصارات تتاح للأولئك العسكريين العظماء

بدون حرب، لما طمعوا بتلك الانتصارات. فالحرب أصبحت اختصاصهم، ومبدأهم، وفنّهم، وخبرتهم، وتبريرهم الوحيد في الحياة، إلّا في حالات خاصة، أوفي ممارسات قادة ميدانيين لكنهم غير تأريخيين.

وقد تكون البداية العسكرية، أي بداية القيام بالحرب، خاضعة لغرض سياسي، لكنها - بمرور الزمن - وبالتوغل في مسالك الحرب، وأجوائها، تصبح نزوعاً يحقّق الهدف السياسي بواسطة الحرب، ثم تُصبح الحرب خياراً وحيداً. هكذا كانت صورة الإسكندر المقدوني مثلاً، وكذلك يوليوس قيصر، ونابليون بونابرت، وغيرهم.

وإن اختيار أسمائهم بالذات - دون هولاكو وجنكيز خان وسواهما - لأنهم الأكثر تأريخية، والأكثر وعياً بالتأريخ.

إن لديهم المقدرة والموضوع، والمخطط، والفعالية. فلا توجد ثغرة للتفلّت من تلك الركائز الأساسية لمواصلة الحروب، وانتهاج السياسات العسكرية المناسبة، لقدرات كل واحد منهم.

فيما يتعلّق بعلي بن أبي طالب، الذي كان مثالاً نموذجياً للقائد العسكري وللمقاتل وللفدائي فقد كانت مفارقته الأساسية هي أنه رغم امتهانه القتال كمقاتل عظيم، من طراز نادر، فإنه لم يكن يهوى القتال، من أجل القتال[١].

لم يكن تعوزه القدرات القتالية، فهو صاحب قدرة قتالية خارقة. كذلك كانت أسباب الحرب قوية، تخص مصير الإسلام. فما الذي يعوزه إذن، لكي يكون من طراز الإسكندر المقدوني، على ما هما عليه من فارق كبير؟

لقد كان علي بن أبي طالب - وهذا بعض الجواب - إلهياً وإنسانياً. إلهياً فيما يتعلق بانتمائه إلى العالم الآخر، عالم الروح، والملكوت، والعدل الصافي، وإنسانياً، فيما

---

١ - يقول علي ﷺ : «فوالله ما وقعت الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع في أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي... وذلك أحبُّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها...» انظر شرح نهج البلاغة ٤:١٢. (المحقق)

يتعلق بانتمائه إلى العالم الأرضي، عالم البشر، وضرورات الكفاح من أجل إحقاق الحق، وتطبيق العدل في حياة متموضعة بالجور والاستبداد والظلم والسرقة. لذلك كان – بإزاء أية قضية حربية – يفكر على جميع الاتجاهات بتوافق مع الجانبين الإلهي والإنساني.

وكان يفكر بالخصم، المسلم باجتهاده السياسي أوالديني – ويحسب جميع الحسابات للعناية به، خشية الظلم، ودفعاً للنزاع، وإعطاء للفرصة.

إن تصميمه على تطبيق نهجه العادل، في تجنّب الحرب، وتأسيس قاعدة العدل، ومساعدة المخطيء على اجتناب خطأه، علاوة على فضائله في التألم من أجل أعدائه، وفي الصفح، والتسامح[1]، وغير ذلك من الصفات التي امتاز بها، تجعل من الصعب علينا تناول سياسته العسكرية، بصورة مستقلة. لأنه لم يكن مريداً لتلك السياسة، أومخلصاً لتحويلها إلى نظرية عسكرية. لقد دهمته المتغيّرات الجديدة التي جعلته يستذكر المشابهة بين المقاتلة على التأويل، والمقاتلة على التنزيل.

كذلك يستذكر المشابهة بين مقاتلته القرشيين الكافرين، ومقاتلته المفتونين.

قال: «**مَالي وَلِقُرَيْشٍ! وَٱللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ**

---

١ – يقول ابن أبي الحديد: لما ملك علي عليه السلام الماء بصفين سمح لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يعطفوا إليه واستمالة قلوبهم واظهاراً للعدالة وحسن السيره فيهم، وعندما استبطأ القتال، قال له أهل العراق: يا أمير المؤمنين، خلفنا ذرارينا ونساءنا بالكوفة وجئنا إلى أطراف الشام لنتخذها وطناً! ائذن لنا بالقتال، فإن الناس قد قالوا: قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: ان الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهية للموت، وان من الناس من يظن أنك في شك من قتال أهل الشام، فقال عليه السلام: ومتى كنت كارهاً للحرب قط! إن من العجب حبي لها غلاماً ويفعا، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاد العمر وقرب الوقت! وأما شكي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة، والله لقد ضربت هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلّا القتال أو أن أعصي الله ورسوله، ولكني أستاني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي يوم خيبر: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس. انظر شرح النهج ٤: ١٣. (المحقق)

بِالأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ اَلْيَوْمَ!»[1].

وكانت أسباب القتال جليّة، ثابتة، وحاسمة، لكنه، مع ذلك كان شديد العدل مع نفسه، ومع سواه، فكان يستحضر - كل لحظة - القرآن لتسديد الموقف، وتحديد الخطأ، وتأشير الاتجاه، والتدقيق في الرمية. إن العدالة التي جعلت منه إنساناً أرقى من الواقع فكراً وسلوكاً، كانت تقوده إلى القضية الإلهية لا إلى القضية بمعناها الوضعي.

وفي المفهوم الإلهي، قد يكون التخلي عن ربح معركة، أوقضية سياسية، هو الأهم لصالح المثل التأريخي.

فالبشرية لم تكن - أبداً - محتاجة إلى الحروب، بل هي محتاجة إلى المَثَل والمثال. لذلك عبرت أسماء القادة العسكريين التاريخيين مثل طيوف تستذكر وتُستحضر، حسب الحاجة الدراسية، لكن (علي بن أبي طالب) ظل رمزاً شامخاً لكل الفضائل البشرية العليا، التي تُكافح البشرية من أجل تحقيقها.

ولقد رأينا كيف عفَّ علي عن عمرو بن العاص، وهو في قيادة معسكر معاوية، وكان قد صرعه، وكيف حجز شريعة الماء عن جيش معاوية، ثم سمح لهم بالماء، وغير ذلك من الأمثلة النادرة التي لا تصلح في أن تمثل سياسة عسكرية، ونهجاً حربياً، بقدر ما تصلح أن تكون مُثُلاً عليا تستحق الوفاء.

إن سيرة علي بن أبي طالب في الحروب، هي التي تُبعدنا عن متابعة سياسته العسكرية، ذلك لأنه يجعلنا - حتماً - نتابع مثاليته العذبة وعظمته الفكرية، وعدالته النادرة، التي تُقصي إلى الوراء كل التسميات والمواصفات الأخرى من قبيل السياسة العسكرية والدبلوماسية، والتكتيك، الخ....

لقد ارتاضت نفسه بالعدل والزهد، وتربّت فيهما، فكانت غرستهما، وكانا صورتها،

---

١ - نهج البلاغة : ٧٧ ضمن خ ٣٣، ونهج البلاغة شرح محمّد عبده ١:٨١، الارشاد للمفيد ١:٢٤٨، الجمل : ١١٢، وشرح نهج البلاغة ٢:١٨٥، الأوائل لأبي هلال العسكري ١:٣١٦ و٣١٧، بحار الأنوار ٣٢:٧٦، نهج السعادة ١:٢٥٠.(المحقق)

فما كانت النجاحات السياسية والعسكرية العابرة، بأساليب لا علاقة لها بالعدل والزهد، لتعنيه.

هذا المدخل الضروري، للحديث عن السياسة العسكرية لعلي.

وثمة نقطة جوهرية تفرض نفسها على السياسة العسكرية لعلي بن أبي طالب - الخليفة - تلك هي طبيعة الحرب وأطرافها.

إن حرب الجمل، وحرب النهروان وحرب صفين، وهي الحروب الرئيسية الكبرى في زمن الخليفة، كانت حروباً داخل الوسط الإسلامي في إطارها العام. فهي حروب إسلامية - إسلامية.

فكانت ممارسات علي بن أبي طالب مبدئية، وأخلاقية، وإسلامية بالمعنى العام، أكثر من كونها ذات فعالية عسكرية محدودة المعنى.

ومن تلك الممارسات:

١. عدم المبادأة بالقتال لإثبات الحجة على الخصم مرتين: الأولى: بإعلان الخَصم الحرب (حرب الناكثين، وحرب القاسطين..) والثانية: بابتداء القتال من قبل الخصم نفسه.

٢. انتهاج كل الأساليب الممكنة من أجل كسب بعض عناصر الخصم إلى السلم.

٣. التورّع عن إحراز النصر بوسائل غير صحيحة، فلم يُوافق على حبس الماء عن جيش معاوية، رغم أن معاوية كان أول من اتّبع الأسلوب نفسه ضد جيش علي.

٤. عدم إباحة أملاك الخصم ونسائه عند الانتصار، والاقتصار على الغنائم الحربية الموجودة في ساحة المعركة.

٥. عدم قتل الجريح، ولا الأسير، ولا المُدْبر، ولا المُعْوِر (من أظهر عورته) وعدم الإساءة إلى النساء وإن شتمن الأعراض.

وتجمل توصياته سياسته هذه، كما واضح في بعض خطبه، وفي بعض كتبه.

ففي وصايته لجارية بن قداحة السعدي، الذي بعثه لملاقاة بُسر بن أرطأة، قائد

معاوية:

«وكان قد قتل الصبيان والنساء، بعد إغارته على همدان، قال له: «لا تقاتل إلّا من قاتلك، ولا تجهز على جريح، ولا تسخِّرن دابة، وإن مشيت ومشى أصحابك! ولا تستأثر على أهل المياه بمياههم، ولا تشربنَّ إلّا فضلهم عن طيب نفوسهم - ولا تشتمنَّ مسلماً ولا مسلمة، ولا تظلمن معاهداً ولا معاهدة.. واسفك الدم في الحق، واحقنه في الحق»[١].

وتبدو سياسة علي نقيضاً مباشراً لسياسة العدو، التي جسدتها مجازر بُسر بن أرطأة وأمثاله.

وكانت سياسته في حرب صفّين، مثالاً للعقائدية الإسلامية المتينة، وهي - عموماً - جوهر سياسته في الحروب المشابهة، أي الحروب الإسلامية - الإسلامية.

فحين استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين، قال لهم:

«.. فَوَٱللهِ مَا دَفَعْتُ ٱلْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَىٰ ضَوْئِي، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَىٰ ضَلَالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا...»[٢].

كذلك قال:

«ٱللَّهُمَّ.. إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَىٰ عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا ٱلْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَٱعْصِمْنَا مِنَ ٱلْفِتْنَةِ»[٣].

وكان إصراره على عدم المقاتلة حتى يبدأ الخصم ذلك، محاولة صبوراً لإعطاء الفرصة لأعدائه، فقال قبل التحام صفّين:

«لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَأُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَىٰ حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةٌ

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٠ وذكرها المحمودي (المعاصر) في نهج السعادة ٨: ٣٦٧ وفيه تكملة قوله عليه السلام: (... واحقنه في الحق، ومن تاب ما قبل توبته، وأخبارك في كلّ حين بكلّ حال، والصدق الصدق فلا رأي للكذوب).(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة، محمّد عبده ١: ١٠٤، شرح نهج البلاغة ٤: ١٢.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢: ٨٤، شرح نهج البلاغة ٩: ٣٠١، مستدرك الوسائل ١١: ١٠٩.(المحقق)

أُخْرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ ٱلْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ ٱللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَىٰ جَرِيحٍ، لَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذىً، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ»[1].

ويتّضح من هذه الالتزامات العالية، أن النزعة الإنسانية (الإسلامية) أقوى – كثيراً، من النزعة العسكرية العملية، التي لا تعرف للحرب غير قوانين الحرب، وقد كان الخصم يستثمر هذه الالتزامات العالية، لكي يَفْجُر، ويفتح، ويُخرب في ظلها.

فحين كان علي يلتزم بالمعاهدة الإسلامية، كان خصمه يشدّد الهجمات العسكرية ضد مراكز أنصاره، وهلمّ جراً... بمعنى أن ما يشكل التزاماً مبدئياً لدى علي بن أبي طالب وأشياعه، كان يَحسبُه الخصم ثغرة. ومن الناحية العسكرية المنطقية، ليس من صالح الجبهة العسكرية إعطاء أية ثغرة للعدو، مهما كانت المبررات.

ومن الصعوبة بمكان ضبط العلاقة بين المبادىء الأخلاقية والإنسانية العالية، ومبادىء الحرب وقواعدها في نظرية عسكرية شاملة، أوفي سياسة عسكرية ثابتة تخدم المسألة العسكرية في العالم. لأن التعارض بين مجموعتي المبادىء قد يكون متسبباً في أضرار عملية على صعيد العمليات العسكرية.

وبالنسبة إلى قيادة علي بن أبي طالب، تندمج المبادىء الأخلاقية – بالضرورة – بنهجه العسكري، لكن إلى أي مدى يمكن تعميم ذلك بالنسبة إلى التجارب العسكرية في العالم؟ ذلك ما لا يمكن تحديده ضبطاً.

وإذا تجاوزنا هذه الخصوصية المشهودة في سياسة علي بن أبي طالب العسكرية، فيمكن استخلاص أسس عامة في تلك السياسة العسكرية، يمكن الإفادة منها، في الخبرات العسكرية للبشرية، وهي:

أولاً: تولى علي بن أبي طالب – نفسه – قيادة جيشه، وهو أمير المؤمنين. فهو لم يتصرّف وفق سياسة الفصل بين قيادة الدولة، وقيادة الجيش، باعتبار قيادة الجيش داخلة ضمن

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ٣:١٤ـ١٥، الكافي ٣٨:٥، بحار الأنوار ٤٥٨:٣٣، مستدرك الوسائل ٨١:١١، مستدرك سفينة البحار ٣٤٨:١٠.(المحقق)

تراتبية القيادات الواقعة تحت قيادة الخليفة.

ولم تكن قيادة الخليفة – نفسه – للجيش، في الحروب، تقليداً ثابتاً، وكان الغالب أن يوعز الخليفة إلى قادته العسكريين بتولي المهمات الحربية، غير أن (علي بن أبي طالب) المسترشد بقيادة النبي محمد، والمترعرع تحت رايته، كان قد تتلمذ على قيادة النبي نفسه للغزوات العسكرية. فكان أن باشر القيادة المباشرة لجيشه في الحروب الكبرى.

وكان في نهجه هذا، يقود الجهاد بنفسه، فالجهاد، كما قال: **«بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ، فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ ٱلْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ، وَشَمِلَهُ ٱلْبَلَاءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلْقَمَاءَةِ، وَضُرِبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلْجِهَادِ، وَسِيمَ ٱلْخَسْفَ، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ...»**[1] وهو يرفض الكف عن الجهاد ما دام على يقين من ربه، وعلى غير شبهة من دينه، قال، وهو سائر لقتال معسكر الجمل، وقد ذكر بعثة النبي الكريم ﷺ: **«أَمَا وَٱللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، مَا عَجَزْتُ، وَلَا جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسِيرِي هٰذَا لِمِثْلِهَا، فَلَأَنْقُبَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ ٱلْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ»**[2].

ثانياً: التأكيد على الرد على العدوان، قبل أن يستفحل. لأن التيّقن من خطورة العدوان يجب أن يقود إلى امتلاك زمام المبادرة، والطرق على أبواب العدو، لإجهاض هجومه العدواني، وردّه من حالة الهجوم إلى حالة الدفاع.

وفي حروب علي بن أبي طالب، برزت تلك السياسة بصورة واضحة، ففي معركة الجمل، قدم من المدينة متوجهاً لمجابهة الناكثين في البصرة، قاطعاً مسافات طويلة.

---

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف) وأنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ٦٧ـ٦٨، الغارات ٢: ٤٧٥، روضة الواعظين: ٣٦٣، وسائل الشيعة ١٥: ١٤ و١٨ / ١١: ٨ و١١، بحار الأنوار ٩٧: ٨. (المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف). وأنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ٨١، شرح نهج البلاغة ٢: ١٨٥.(المحقق)

كذلك، تقدم إلى (المدائن) والنهروان في محاربة الخوارج الذين تحشّدوا هناك. كما توجّه إلى الشام لمواجهة جيش معاوية، فالتقاه في صفّين. فكانت سرعة الرد على التمرد المسلح، في التوجه إليه في موقعه، ممارسة عسكرية أصيلة تُحافظ على حيوية الحركة العسكرية، كاستمرارية لنهج الغزوات والفتوحات وأسلوبها في زمن النبي ﷺ، وبعده. ولم يكن التزام علي بعدم المبادأة في الهجوم، في ساحة المعركة، ليؤثر على نهجه المعروف في المبادأة بمعناها العسكري الاستراتيجي. سيما أن مناشدات السلم لم تكن قد سببت له الهزيمة.

فقد انتصر في حرب الجمل، وانتصر في حرب النهروان، وانتصر في حرب صفّين انتصاراً عسكرياً مرموقاً. لكنه في صفّين ابتلعت سياسة التحكيم الإنهزامية ثمار النصر العسكري، في إطار الخلل العام في اتجاه إرادة الناس.

ولقد قال مخاطباً جماهيره التي لم ترتفع إلى مستوى الموقف – الحق، خذلته في أهم المناسبات:

«..أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ قِتَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرّاً وَإِعْلَاناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: ٱغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَٱللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ ٱلْغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَوْطَانُ.

وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ ٱلْأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا.

وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ، وَٱلْأُخْرَىٰ الْمُعَاهَدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا، وَرِعَاثَهَا، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ، ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِن بَعْدِ هٰذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً.

فَيَا عَجَباً! عَجَباً ـ وَٱللهِ ـ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن ٱجْتِمَاعِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَىٰ: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ،

وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ، وَيُعْصَى ٱللّٰهُ وَتَرْضَوْنَ!

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي أَيَّامِ ٱلحَرِّ قُلْتُمْ: هٰذِهِ حَمَارَّةُ ٱلقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا ٱلحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هٰذِهِ صَبَارَّةُ ٱلقُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا ٱلبَرْدُ، كُلُّ هٰذا فِرَاراً مِنَ ٱلحَرِّ وَٱلقُرِّ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ ٱلحَرِّ وَٱلقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَٱللّٰهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!»[1].

إن الفكرة العامة المستنبطة من نهج علي هي أن العدو إذا ما كان يُبيِّتُ ضربة عدوانية، فإن ابتداره بالضربة الوقائية، أوبالاستعداد الحربي المناسب، ضرورة عسكرية ملحة للدفاع عن الحق، أوعن الوطن. وكانت مشكلة علي بن أبي طالب، أن حرية حركته الطليعية العسكرية المقدامة، كان يعرقلها تردد أكثرية جيشه، أومعارضته، أوبطوءه في التنفيذ.

ثالثاً: بُعد نظر علي بن أبي طالب في تشخيص القوى المهاجمة لقواته الإسلامية. فهو لا يُساوي – أولاً – بين الحرب ضد الشرك، والحرب الإسلامية الداخلية. وهو يُميّز – ثانياً – بدقة بين الفئات والأطراف التي تدخل عموماً في التسمية الإسلامية، مثل تلك الفئات التي اشتركت في حروب الناكثين، والقاسطين، والمارقين.

وهو لا يألو جهداً في تثقيف أفراد معسكره بخطبه المباشرة، في التشخيص المذكور، وثمة ثوابت تشخيصية لا يتنازل عنها أي تنازل بسيط.

إن تشخيص الخصم بدقة، والعمل بضوء التشخيص، يعنيان تأمين مستلزمات الصراع، وطرائق العمل، والحيلولة دون حصول أخطاء التذبذب والبلبلة الناجمة عن فقدان الرؤية.

وكما قلنا مراراً، فإن الظروف الخاصة (والعامة) في معسكر علي لم تكن – أصلاً – مؤاتية بانسجام مع رؤيته، وذلك أمر يقع خارج نطاق تحكمه. ورغم كل ذلك، فإن

---

١ ـ أُنظر نهج البلاغة ١:٦٩، الكافي ٥:٦، معاني الأخبار للصدوق: ٣١٠، الغارات ٢:٤٧٦، شرح الأخبار ٢:٧٥، شرح نهج البلاغة ٢:٧٥، الأخبار الطوال: ٢١٢، أنساب الأشراف: ٤٤٢.(المحقق)

رؤيته النافذة في التشخيص والإدانة، لا تقبل اللبس. فهو يمتلك تحديداً تشخيصياً لطبيعة معاوية بن أبي سفيان مثلاً، مُختلفاً عن تحديده التشخيصي للخوارج. فهو يحتفظ بتشخيصه لمعاوية قبل الحرب وأثناءها، ولم يتراجع عنه. ذاكراً عنه أنه (طليق، وابن الطلقاء)، وغير ذلك من الصفات التي أطلقها عليه.

وقد رافق التشخيص المحدّد هذا موقف ثابت من معاوية، فهو لم يقبل إبقاءه على ولاية الشام غير نصائح أقرب الناصحين إليه، وخاصة (ابن عباس). كذلك ضرب، عرض الحائط - أثناء الحرب - أية دعوة لمراجعة الموقف، والإبقاء على معاوية في الشام.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن (علي بن أبي طالب) يحدّد موقفه في مواجهة ظروف متداخلة، ومتشابكة، فتكون مسؤوليته الصعبة ذات تنوع يُقابل التشابك المقابل له. فالمسؤولية ليست موقفاً واحداً دائماً، فقد تكون عدة مواقف متلازمة، توحّدها أمامة المسؤولية وعظمتها.

والواقع أن طرازاً من هذا السلوك الموقفي لا يتوفّر إلّا للنفوس الكبيرة، القادرة على الخروج عن نطاقها الذاتي إلى نطاقها الكوني الملتزم. فعلي مدرك تماماً - وهو يشخص طبيعة معاوية - أن في معسكر معاوية أناساً مسلمين، من مختلف الأمصار، رغم من الدعامة الرئيسية أهل الشام. وثمة مسلمون، بدرجات مختلفة، فمنهم من أسلم حديثاً - كأهل الشام بعامة. ومنهم من أسلم قبل ذلك. لذلك كان حريصاً على المخاطبة المزدوجة؛ مخاطبة معاوية (الطليق ابن الطلقاء) ومخاطبة الجمهرة الإسلامية، التي تشكل قاعدة معسكر معاوية، والتي يُخاطب فيها إسلاميتها، إن هي كانت مستجيبة لذلك، ويخاطب فيها روح حقن الدماء، إن كانت تقدر ذلك.

ولما كان حرصه على حقن الدماء ثابتاً، فإنه رغم كل فراسته وتشخيصه لمعاوية، كان يدعوه إلى أن «يتقي الله» قائلاً له:

«فَاتَّقِ ٱللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَٱنْظُرْ في حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَٱرْجِعْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ

لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ، مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ.

فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَىٰ غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، وَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْحَلَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ»(١).

ولم يكف عن تذكرة لمأساة الآخرين، وتذكيره معاوية بمسؤوليته في ذلك، قائلاً لمعاوية:

«وَأَرْدَيْتَ (أي أهلكت) جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً، خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، تَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَارُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَىٰ أَحْسَابِهِمْ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَهَرَبُوا إِلَىٰ اللهِ سُبحانَهُ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَىٰ الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ.

فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ»(٢).

إن قراءة خطب علي بن أبي طالب وكتبه، ومقارنتها بموقفه الثابت منه، تُبيّنان وحدة المفهوم والموقف والسلوك، رغم ما يُخالط ذلك من اعتبارات العناية الممكنة بالمسلمين المضلّلين.

ويمتلىء التشخيص بالفهم الواسع والمتكامل، لمعاوية، بالنظرات الأوسع والأشمل، فظاهرة معاوية أكبر من معاوية نفسه، لأنها تمثل تبلور الظاهرة الأموية بمعناها الطبقي الجديد.

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف) رأنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ٣:٣٦، شرح نهج البلاغة ١٦:٦، بحار الأنوار ٣٣: ٨٣.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ٣:٥٧، بحار الأنوار ٣٣:٨٥. وذكرها من المعاصرين الشيخ شمس الدين في أنصار الحسين: ١٨٧ والمحمودي في نهج السعادة ٤:٢٠٣.(المحقق)

فمعاوية ـ كما يرى علي ـ خارج من الملّة، قائم على الضلّة، وهو من صلب قوم «**ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسرّوا الكفر**»[١].

ويتوصل علي بن أبي طالب في ذلك إلى تجذير تشخيصاته في فهم أيديولوجي وسياسي، لطبقة عائلية يقودها معاوية، وهي رأس هرم الوضع السياسي الجديد في الشام. وقد منحه بُعد النظر التشخيصي، معرفة سياسية بالمستجدات الغريبة القادمة. فهو ـ وإن كان يُجابه معاوية ـ كان يستشرف المرحلة القادمة، وكأنها حكم صرفٌ للأمويين.

وقد كان ذلك الاستنتاج السياسي عبقرياً، لأنه رأى ما وراء الفرد (أي ماوراء معاوية)، وأدرك ما بعد الآن، من خلال تقصّياته للظاهرة، بجذورها، وبحيثياتها، وبمظاهرها، وبأبعادها. لذلك كان كثير التحدث عن فتنة «**بني أمية**»، قائلاً للناس من خطبة له:

«**وَأيْمُ ٱللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوْءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ...**»[٢] وقائلاً أيضاً عن بني أمية، متنبئاً بنوع الحكم القادم، وهو حكمهم:

«**وَٱللهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّىٰ لَا يَدَعُوا للهِ مُحَرَّماً إِلَّا ٱسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتَّىٰ يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ ٱلْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِٱللهِ ظَنّاً...**»[٣].

---

١ ـ انظر علل الشرائع للصدوق ١:٢٢٣.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:١٨٣، كتاب سليم بن قيس، تحقيق المحمودي: ٢٥٨، الغارات ١:١٠ / ٢:٦٧٧، وتكملت الحديث واصفاً إياهم.

«... كالناب الضروس تعض بفيها وتخبط بيديها وتضرب برجليها وتمنع درها لا يزالون بكم حتى لا يتركوا في مصركم إلّا تابعاً لهم أو غير ضار ولا يزال بلاؤهم بكم حتّى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلّا مثل انتصار العبد من ربه إذا رآه أطاعه وإذا توارى عنه شتمه...». (المحقّق).

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) وأنظر الغارات ٢:٤٨٨، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام لابن عساكر:

وقد أوجز علي بن أبي طالب، جملة الظواهر السياسية المتشابكة، وجملة المتناقضات، في تنبؤ بليغ، دقيق، وفي تأثير الموقف بصورة تناقضية تُحلل كل تلك المتشابكات والمتناقضات، وتفسرها تفسيراً سياسياً.

فهو يتنبأ، ويحدد نوع الحكم الآتي، ويعيّن الموقف منه، ولكنه يُقدّر أن الظاهرة السياسية الغالبة (بمحتواها الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ الفكري) سوف تحبط الموقف. ففي خطبة له، يكشف للناس، من الذي سيحكم بعده [يقصد معاوية] ويدعو إلى قتله [فاقتلوه]، ولكن مجرى المرحلة التاريخية أكبر من أن يسمح للموقف بالنجاح [ولن تقتلوه].

كل هذه الوحدات الفكرية والسياسية الثلاث: [التنبؤ بنوع الحكم القادم، والدعوة إلى موقف حاسم، والتنبؤ بالخيبة أمام قوة الظاهرة]، وجدت تعبيرها الأشد تركيزاً في خطبة قصيرة، لكنها غنيّة بالدلالات، قال:

أما إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ[١]، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ! أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرَاءَةِ مِنِّي؛ فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ،وَلَكُمْ نَجَاةٌ؛ وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ فَلَا تَتَبَرَّأُوا مِنِّي، فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ[٢].

ما يهمّنا هنا استطراد وحدة التشخيص ووحدة الموقف، على طول الخط، وإلى ما وراء ذلك، أي إلى ما وراء (الآن) بالمعنى السياسي. مقابل هذا الاستطراد الواحد في الرؤية والتشخيص والموقف، كان علي بن أبي طالب، ينظر إلى (الخوارج) نظرة أخرى، فكان يدعوهم إلى التوبة، مذكراً إياهم بسوء العاقبة، فقال لهم في إحدى خطبه:

۲۰۹.(المحقق)

١ ـ بطن مندحق: ناتيء وبارز.(المؤلف)

٢ ـ نهج البلاغة الخطبة: ٥٧، ١٠٥:١، فرحة الغري للسيّد عبد الكريم بن طاووس: ٥، ينابيع المودة ٢٠٦:١، أمالي الصدوق: ٣٦٤ الرقم ٧٦٥، شرح نهج البلاغة ١١٤:٤، بحار الأنوار ٣١٧:٤١ الرقم ٤١.(المحقق)

«أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ، أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ! لَقَدْ ﴿ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾! فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ، وَارْجِعُوا عَلَىٰ أَثَرِ الْأَعْقَابِ، أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلّاً شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمونَ فِيكُمْ سُنَّةً». فأكّد علي بن أبي طالب على عبارة «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي...»[١].

ولم يُرد سوء مصيرهم على يديه.

وحين حاور ابن عباس الخوارج قائلاً فيما قال: ماذا تنقمون من علي وهو أول من آمن برسول الله ﷺ؟ «ورجع منهم عشرون ألفاً، وبقي أربعة آلاف»[٢].

وحذّر علي بن أبي طالب أنصاره من قتل الخوارج بعده قائلاً: «لَا تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ»[٣] مؤشراً بذلك، الفارق بين الخوارج ومعاوية.

ومع أن الخوارج ـ حسب بُعد نظر علي بن أبي طالب ـ كانوا سيتوالدون مسبّبين للإسلام محناً كثيرة، إلّا أن الوصية تؤكد على عدم قتل الخوارج، حسبما ورد ذلك في نص الخطبة نفسها:

«كَلَّا وَاللهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ، لَا تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي»[٤]... إلى آخر الخطبة.

رابعاً: إعلاء شأن الجنود، والعناية التامة بأوضاعهم المادية، والاهتمام العادل بأهليهم،

---

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١٠٦:١، الغارات ٤٨٣:٢، المسترشد: ٦٧٢، شرح الأخبار ٧٤:٢، الأمالي للطوسي: ١٨١، مناقب ابن شهرآشوب ١٠٧:٢، ذو النضار لابن نما الحلي: ١٤٥، بحار الأنوار ٣٦٠:٣٣.(المحقق)

٢ ـ أنظر الفتوح لابن أعثم ٤: ٩٠ ـ ٩٧ من حوار طويل لابن عباس مع الخوارج.(المحقق)

٣ ـ انظر جواهر الكلام ٣٣٣:٢١، نهج البلاغة لصبحي الصالح: الكلمة ٤١٢، علل الشرائع ٢١٨:١، وسائل الشيعة ٨٤:١٥، نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢٠٤:٣، شرح نهج البلاغة ٧٨:٥، بحار الأنوار ٣٩:٩٧،، در المنضود السيّد الكلبايكاني: ٢٥٦.(المحقق)

٤ ـ المصادر السابقة، نهج البلاغة لمحمّد عبده ١٠٨:١.(المحقق)

حتى ينصرفوا إلى الجهاد انصراف المطمئن، ناعم البال عليهم، ويشدّد من أهمية الاستحقاق، وتقدير الجهد، لأن الجنود هم عماد الأمة، وقوة الجهاد، وأساس الردع، فكلما تحسّنت أوضاعهم المادية والمعنوية كان النصر مضموناً. كما دعا إلى حسن اختيار رؤوس الجند ضماناً للالتزام بحقوق الجند. قال علي في كتاب له لمالك الأشتر عامله في مصر:

«وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ بِمَا يَسَعُهُمْ يَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ.

[وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ ٱلْوُلَاةِ ٱسْتِقَامَةُ ٱلْعَدْلِ فِي ٱلْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ، وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ،] وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ عَلَىٰ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ ٱسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِبْطَاءِ ٱنْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ.

فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَىٰ ذَوُو ٱلْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

ثُمَّ ٱعْرِفْ لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَىٰ، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ ٱمْرِىءٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ ٱمْرِىءٍ إِلَىٰ أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلَاضَعَةُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَاكَانَ عَظِيماً»(١)

ونظر إلى مستلزمات الوظيفة العسكرية، وضرورات تطويرها، نظرة فاحصة، فكان يُعاين وضع الجندي، معيشياً، وجهادياً، ونفسياً معاينة متلائمة مع تزويده بالتوصيات التي تقوّي قدرته العسكرية، وتنهض به في القتال نهضة ذي الخبرة.

فعلي بن أبي طالب، المقاتل التاريخي، لم يتوانَ في تزويد جنوده بما يناسبهم من

---

١ ـ أنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ٣: ٩٢، مستدرك الوسائل ١٣: ١٦٤، بحار الأنوار ٣٣: ٤: ٦٠، ومن المعاصرين: دراسات في نهج البلاغة لمحمّد مهدي شمس الدين: ٥٩، نهج السعادة للمحمودي ٥: ٧٦. (المحقق)

خبرته العريقة، وبما ينفعهم في الظروف الملائمة، فكان يحث على تطوير فنون القتال، وآدابه، لأنها ـ في نظره متكاملة ـ على أساس وحدة المبادىء المقررة للجهاد، أولمجابهة القاسطين:

ومن كلام له في ساحة الحرب بصفّين:

«وَأَيُّ آمْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَىٰ مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ ٱلْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَايَفُوتُهُ ٱلْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ ٱلْمَوْتِ ٱلْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ آبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ»[١].

ومنه:

فَقَدِّمُوا ٱلدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا ٱلْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى ٱلأَضْرَاسِ فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ لِلسُّيُوفِ عَنِ ٱلْهَامِ[٢].

---

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢:٢، شرح نهج البلاغة ٧:٣٠٠، مستدرك الوسائل ١١:٨٧، بحار الأنوار ٣٣:٤٥٥ / ٩٧: ٤٠ (المحقق).

٢ ـ أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ٨ : ٣.(المحقق)

الفصل السادس

▣ تأريخ لأوليات سياسية
أوليات قديمة لجذر الصراع بين
معاوية وعلي بن أبي طالب

كان معاوية بن أبي سفيان يرفع شعار التمرّد ضد الخلافة الإسلامية التي مثّلها علي بن أبي طالب، وهو شعار المطالبة بالثأر لدم (عثمان) ومعاقبة القتلة. ولا شك في أن الشعار كان يحمل غرضاً سياسياً، وعشائرياً ـ نسبياً ـ في إطار إيديولوجية جديدة للسلطة التي كان معاوية يؤسس ـ بانتظام ـ قواعدها الأولى.

ومن منطلق التحليل التأريخي، والرؤية السياسية، لا يمكن استبعاد مؤثرات جذور قديمة في العلاقات المتصادمة، استبعاداً نهائياً.

غير أن المحلّل لا يستطيع إعطاء الجذور الأولى للصراع صفة الأسباب الكليّة المسيطرة، إذ إن تأثير الجذور لا يتحدّد بصورة قطعية، فهو قد يكون تأثيراً واعياً واسع المفعول، أومحدود الأثر، وقد يكون التأثير لا واعياً. وكلما كانت جذور الصراع القديمة، منطابقة (أومتقاربة) مع معطيات واقع سياسي حاضر، كان فعل الاستمرارية وارداً بقوة. وفيما عدا ذلك فإن التكهن، والتقدير يلعبان دوراً ملموساً في استكمال التحليل، ما يُبعده عن المنطلقات الواقعية الأمنية للرؤية التاريخية.

على كل حال، لا يمكن إغفال وجود أوليات الصراع وجذوره القديمة، وإن كان ذلك يفترض الحذر في تناول مبدأ الأسباب والعلل على نحوها المباشر. ومن المؤكد أن اللوحة الاجتماعية العامة للكثير من الصراعات في زمن الجاهلية، كانت تشير إلى صراعات اقتتالية بين أبناء العمومة، في العشيرة الواحدة. بل إن أشهر الحروب وأخطرها، كانت حروباً من النوع المذكور. فحرب (البسوس) التي استمرت ما يقارب الأربعين عاماً كانت حرباً بين «بكر» و«تغلب» ابني وائل، بسبب ناقة كانت تملكها امرأة

عجوز من بكر تدعى البسوس[١]. وكذلك كانت حرب (داحس والغبراء) وهي حروب قيس، بين بني عبس وذبيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان، واستمرت ـ أيضاً ـ أربعين عاماً[٢].

وهناك في الزمن القديم، حين كان (قصيّ) سيد قريش لا يزال حياً، كان (عبد مناف) يستقبل ولادة التوأم: عبد شمس، وعمرو، استقبالاً مأساوياً. فقد التصقت قدم أحدهما بجبهة الآخر وكأنها نسيج واحد.

وحين أعلن الكاهن العجوز من خزاعة: **«ما أرى إلّا أن ينفصلا بالدم!»**، كان يواصل ربط عملية الفصل الدامية بين جسدي التوأم، بإمدادات العرافة والتنبؤ.

كان يربط الواقعي، المرئي، بالغيب، قائلاً: **«إلّا أنها والله لآية لمن علم، وليكونن بين**

---

١ ـ وأوّل شرارة الحرب هو مصرع «كليب بن ربيعة» الذي قتله «جساس» فهاجت بمقتله الحرب، وسميت حرب البسوس، انظر الأمالي للمرتضى ٢:٦٥.
والبسوس (اسم بنت) لمنقذ من بني تميم، زارت أختها أم جساس ابن مرة، ومع البسوس جار لها من جرم يقال له: سعد بن شمس ومعه ناقة له، فرماها كليب بن وائل لما رآها في مرعى قد حماه، فأقبلت الناقة إلى صاحبها وهي ترغو وضرعها يشخب لبناً ودماً، فلما رأى ما بها انطلق إلى البسوس فأخبرها بالقصة، فقالت: واذلاه واغربتاه، وأنشأت تقول:

لعمري لو أصبحت في دار منقذ ... لما ضيم يعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة ... متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل ... فإنك في قوم عن الجار أمواتي
ودونك أذوادي فخذها وآتني ... بها حلة لا يغدرون ببيناتي

(وكانت العرب تسمي هذه الأبيات، أبيات الفناء)، فلما سمعها ابن أختها جساس، فقال لها: أيتها الحرة أهدئي فوالله لأقتلن بلقحة جارك كليباً، ثمّ ركب فخرج إلى كليب فطعنه طعنة أثقلته فمات منها ووقعت الحرب بين بكر وتغلب، فدامت أربعين سنة، انظر الغدير ٤:١٢١.(المحقق)
٢ ـ داحس والغبراء أسماء فرسين استخدما للرهان أو غير ذلك على مختلف الروايات، راجع خزانة الأدب للبغدادي ٨:٥٢٨، تفسير جوامع الجامع للطبرسي ٢:٣١٨، مجمع الأمثال ٢:١١٠ـ ١١٨، تاريخ مدينة دمشق ١٠:٣٩٩، وذبيان ابني بغيض هما من فزارة كما ذكر أغلب المؤرخون راجع الاصابة ٦:٤٤٧ وفهرست ابن النديم: ١١٠.(المحقق)

ولديهما خصومة ودم» وشبّ الأخوان، في إطار الصراع الدائر بين أبناء العمومة: بني عبد مناف، وبني عبد الدار، حول الحجامة، والرفادة، والسقاية، واللواء، والندوة، التي امتلك بنو عبد الدار الحق فيها بوصية من (قصي). كانت كلمات (قصي) صريحة، بمثابة الوصية، والبلاء، والأمر، وهي لا تزال ترن في ذاكرة المتنافسين أبناء العمومة. قال قصيّ مخاطباً عبد الدار:

«إنما شرف عبد مناف، وذهب في زماني كل مذهب، وارتحل عبد العزى وحلّ فأصاب من الدنيا وأصابت منه، وتخلفت أنت يا بني، أما والله لألحقنك بالقوم: لا يدخل رجل الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواء حرب إلّا أنت بيدك، ولا يشرب أحد بمكة إلّا من سقايتك ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلّا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلّا في دارك..»[1].

فما أسرع ما تبدّدت تلك الوصية أمام ضغط المصالح، والمطامح، والمتناقضات، وعلت صيحة الحرب بين أبناء البيت الواحد، ومن عجب أنهم كانوا يقرنون (الطيب) بـ (الدم)، ويوظفون (الطيب) في خدمة الحرب الدامية.

وكان من حسن حظ أبناء العمومة، أن تدَّخل المصلحون، فتداركوا الفتنة وهي في أعلى درجات احتدامها، بعد أن اتفقوا على قسمة الوظائف في البيت الحرام. وشاءت تلك المقدمة الدراماتيكية للحرب أن توفر لـ(عبد شمس) ـ وهو أبو أمية ـ أن يُجرّب جدارته في الصراع، كما جدارته في التجارة، وقد نجح ـ حقاً ـ في توفير مستلزمات خوض الصراع إلى مداه البعيد والقريب، لكنه لم يحقّق ما أراد من رئاسة على بني مناف.

ـ يا بني عبد مناف، هذه غنيمتكم، قد احتلبناها من بني عبد الدار احتلاباً، وإني والله...

---

١ ـ سيرة ابن هشام ١٣٦:١ ـ ١٣٧، تاريخ اليعقوبي ٢٤٢:١.(المحقق)

ـ بل عاد إلينا بعد ما ترك قصي، ولنحن أهله، ولم نبتزّ أحداً حقّه!

ـ فهذا، وهلمّوا أمركم بينكم، فانظروا.

ـ إنه لأمر بين، قوموا فادفعوا بهما إلى خير بني قصي فما ترى يا أبا يزيد؟ (يقصد عمرو).

ـ أرى رأيكم!

فصاح صوت:

يا بني عبد مناف، ألا تهتدون وفيكم عمرو!

وقال آخر:

ـ يا عمرو الحيا أنت لها، فوالله ما طعمت مكة ولا سقيت من يدين أبسط من كفيك!

أجاب عمرو:

ـ بل هذا أخي أبو أمية، ادفعوا إليه الأمر...

فردّ عليه (المطلب) كبيرهما:

ـ وما لعبد شمس وهذا الأمر؟ إنه قام فينا فأحسن القيادة. وأسلسنا المقادة.. وإنما الأمر اليوم لصاحب دار بلا باب، وفيض بلا حساب، وإنه والله لأنت!

وهكذا أصبح عبد شمس في موضع الصمت تلقاء حضور (عمرو) الذي طفا كرمه الفطري فاحتوى مكة وأطرافها، واحتاز السمعة احتياز الطبيعة لأشيائها.

فكان في زمن القحط، حجة، وملجأ، وإنقاذاً، وعلماً، فلا عجب أن استحوذت تسمية الكرم على أصل الاسم، فأصبح عمرو(هاشماً)، لأنه هشم الثريد بكفّيه الطاهرتين[1]، فكان جوده يحمل نوع طبيعته وطبعه.

---

١ ـ المجموع ١٥: ٤٧٠، معجم لغة الفقهاء، محمّد قلعجي: ٤٩١، المحاسن للبرقي ٢: ٤٠٢، الكافي ٦: ٣١٧، الطبقات الكبرى ١: ٧٦، الشعر والشعراء: ١٣٢، وسائل الشيعة ٢٥: ٦٤ / ١٧: ٤٥، مستدرك الوسائل ١٦: ٣٥٣، الأمالي، المرتضى ٤: ١٨٠ وذكر فيه هذين البيتين من الشعر

☜

لقد وفّر نفسه للعطاء، واختار محاربة القحط، والفاقة، والحرمان، فدخل عالم التجارة، من أجل هدف إنساني لم يحرز فيه ربحاً شخصياً. لقد استوفى بذل الذات حدوده القصوى، فما كانت بين (هاشم) والناس مسافة إلّا مسافة الشمل العائلي ـ الاجتماعي، الذي كان قوامه المشترك. فلم يكتنز من عائدات التجارة، لأن حياة التشارك في العيش كانت النسخة الوحيدة لحياته، فيما كان عبد شمس يقتني ويجمّع الثروة، باحثاً عن الصيت، وشتان ما بين الشهرة لأجل الشهرة، والشهرة الحقيقية التي تفرضها حقيقة الإيمان بحق الناس في العيش الكريم، والأمن. وإذ كانت في (عبد شمس) حكمة الشيوخ، وبقايا من الرجع شبه القريب، شبه البعيد لحكمة (قصي)، فإن (أمية) ابنه تغافل عن ذلك الجانب، مندفعاً، في تطوير خصيصة المنافسة كأنه وريث تلك الصفة، لا سواها. وهكذا قُدِّر عليه أن يُغالي فيغلو، متحدياً عمه في المنافرة. هداه عقله إلى أن يختار الكرم والسخاء طريقاً إلى الشهرة، والمنافسة، لكنه طريق الافتعال الذي لم يكن اختيار الضمير الصافي، كانت الشهرة تجذبه جذباً، وهو إليها مشوق، يستبطن نزوعاً كبيراً للسلطة بأية طريقة كانت، وبأية صورة.

وفضح الأعرابي ـ يوماً ما ـ الفارق بين الشهرة المفتعلة، والشهرة الحقيقية، الصادقة. قال لأمية:

ـ فيك من أجواد العرب، والله، لَسمات!

ـ فمن أجوادها؟

ـ قريش!

ـ فمن خير قريش؟

عمرالعلا هشم الثريد لقوم ورجال مكة مسنتون عجاف

وهو الذي سن الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأضياف

وانظر أيضاً مناقب ابن شهرآشوب ١:١٣٤، عمدة الطالب لابن عنبة: ٢٥، الأنوار البهية للقمي: ٢٨. (المحقق)

ـ أصحاب البطاح، جيرة الحرم، منابع الكرم!

ـ أصبت، أصبت!

ـ فمِن أيِّها؟

ـ من قصيّ!

ـ صاحب البيت واللواء؟

ـ وثلاثٍ أخر!

ـ فمِن أي ولده؟

ـ من عبد مناف!

ـ أعفُّهم لساناً، وأعلاهم بياناً، وأقواهم جناناً!

ـ وكان هذا وغيره للشيخ.

ـ فأنت إذن أوسط قريش داراً، وأعزُّها جاراً، وأذكاها ناراً: هاشم وخلاك ذمّ!

فكانت لكلمات الأعرابي الأخيرة وطأة ـ وأية وطأة ـ على نفس أمية، الذي نفث غيظه:

«تعس أمه! أخطأ الإحسان وأصاب الإساءة!»

حينما أقدم (أمية) على منافرة عمه (هاشم) كان منساقاً إلى قدره الشخصي، قدر صنع الشهرة بالثروة، وأخذ السلطة بالثروة. وقد كان في ذلك القدر الشخصي قَدَرٌ آخر، هو قدر جغرافي ـ سياسي، متبلور عن امتخاضات سياسية، كانت في رحم الزمن الآتي تتكامل ملامحها. لقد اختار المنافرة المحبطة سلفاً مع عمه هاشم، وإذ فشل محكوماً بالنفي خارج مكة وضواحيها، ملتجئاً إلى الشام، كان ذلك الفشل نجاحاً سياسياً في طيّات السجل القادم.

لم يُدرك (أمية) أن الكرم سجيّة وليس صنعة.

الكرم، شأنه شأن الحب، والصدق، والشرف، والحق، والحقيقة، والعمل الصالح: مزايا ماثلة في النفس الشريفة، لا تُصطنع، ولا تُبتدع، ولا تصنعها الدعايات،

والرشاوى، والهبات، وشراء الذمم.

أراد (هاشم) الحكيم أن يردّه إلى صوابه:

ـ يا ابن أخي، إن لي سناً، وإن لي عليك حقاً، وقد بلغني ما أحب أن أدفعه عنك، فاتق الله في قالتك عني..

ـ ما تكلّمتُ إلّا حقاً!

ـ إنما شرفي شرفك... وإن تمسّه لا تُعز!

ـ تعزّني كفي هذه، وقد والله فعلتْ:

ـ على قدرها يا بُنيّ!

ـ وإنها لَخيرُ الأكفّ!

ـ في بني أبيك!

ـ وفي عبد مناف.. فنافرني!

ـ افعل!

ـ فاختر حكماً!

ـ اختر لي ولك، وإني لراضٍ!

وحين الاقتراب من الحكم قال العم:

ـ يا ابن أخي، إنك تأبى إلّا المضي لما استبطنت، وإني والله ما دعوت وما رضيت، ولكنني لا آخذك بما قلت، فإن شئت أن ترجع!

ـ ما لهذا أتيت!

ـ فشأنك، وإني إذن أنافرك على ثلاث!

ـ فقل!

ـ أُنافرك على خمسين من الإبل سود الحدق!

ـ رضيت!

ـ وأنافرك على أن لا يأخذها أحد بل تُذبح ببطن مكة ويُخلى بينها وبين الناس!

ـ وهذه!

ـ وأنافرك على أن تخرج عنا عشر سنين، لا تراك البلدة الحرام ولا تراها إن نصرتُ عليك! فإن أحببت فشأنك، وإن أحببت أن ترجع عما دفعتني إليه، فإني والله لا آخذك بما قلت!

ـ بل أقبل!

وكانت نتيجة المنافرة خُسراناً مبيناً لأمية، وسار في طريقه إلى الشام؛ المنفى الذي أصبح دار اتجار، ثم دار سلطة. وفي ظل المجتمعات القبلية تحصل أنساق متكررة من السمات، لأنها مجتمعات مغلقة تتوارث صفاتها المشتركة، ما دام التجديد الجذري [أوالتغيير الجذري] لم يهجمها، لذلك كانت المنافرة تتكرر ثانية عبر شخصية حرب بن أمية، بمواجهة عبد المطلب بن هاشم، بعد سنين!

وإن الوراثة التي تأخذ ـ أحياناً أوغالباً ـ حضورها الفسلجي في الأبناء [نقلاً عن الآباء والجدود]، تأخذ ـ أحياناً حضورها في الصفات العقلية والخلقية. وضمن هذا الفهم كانت المنافرة الثانية، التي كان الحكم فيها (نفيل بن عبد العزّى)، الذي لم يتلكأ في دحض حرب ابن أمية:

ـ يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً، وأطول منك مذوداً؟ أما والله إنك لمبطل كما كان أبوك!

فأجابه حرب:

ـ فدع أبي عنك يا نفيل، فإنه ليس بشرّ من أبيه.

ـ هيهات أن يقرنا، أو تقرنا:

أبوك معاهر وأبوه عفٌّ ... وذاد الفيل عن بلدٍ حرامِ[1]

---

١ ـ انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥:٢٠٧.(المحقق)

فثار حرب قائلاً:

ـ إنّ من انتكاث الزمان أن جعلناك حكماً!

من الجلي أن أبناء العمومة كانوا يشتركون في النشاط التجاري، إلّا أن الثروة التي لدى بني عبد شمس كانت ثروة سلطة وجاه وامتياز، فيما كانت لدى هاشم وبنيه ثروة تخدم الخير والمعروف والفضيلة، فكان الإطار الطبقي إطار افتراق، ومنافسة، وصراع، منذ البدء.

وحين آذنت إرادة الحق بالبعثة النبوية، كان النبي الكريمﷺ ـ من سلالة هاشم ـ يعمل من أجل تغيير المجتمع المكّي، ومجتمع شبه الجزيرة العربية تغييراً إسلامياً جديداً، في حين كان أبو سفيان منساقاً وراء دافعه الطبقي، وأيديولوجيته الجاهلية والكفر.

إنه ـ شأن كثيرين سواه ـ لم يكن قادراً على التحرر من إطاره الأيديولوجي ـ الطبقي ـ القبلي [بحدوده الضيّقة]، لذلك لم يستطع عقله المحدود استيعاب الدلالة النبوية العظيمة في الآيات القرآنية التي سمع، وصحبه، تلاوتها من قبل (محمد) في دار المؤمنين المتكتمين.

فخاطب صاحبه أبا ثعلبة:

«والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يُراد بها..»[1].

وكانت حتماً ألّا يتوصل الفعل المحدود بمدركاته الجاهلية إلى فهم التحول الجديد، الذي نطقت به الآيات القرآنية التي أنصت إليها سراً، فأحال مسموعاته إلى تحليله السلفي، التقليدي: المنافسة والصراع، بين بني أمية وبني هاشم بحسبانه استمراراً

١ ـ تفسير الميزان للطباطبائي ١٣:١٢٥، تفسير ابن كثير ٢:١٣٤ / ٣:٤٨، الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ٤:١٨٧، سيرة ابن هشام ١:٢٠٨، عيون الأثر ١:١٤٦، سبل الهدى والرشاد ٢:٣٥٢.(المحقق)

تقليدياً للصراع بين عبد شمس وعمرو[هاشم]. قال أبو سفيان موضحاً ذلك:

«ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه»(١).

يمكن متابعة مسار التأثيرات القديمة في أفكار (أبي سفيان) وسلوكه بصورة واضحة، ذلك لأنه نتاج مرحلة بأكملها، هي مرحلة نشوء الارستقراطية القرشية، وتطلّعاتها السياسية المتعاظمة، وقد كان أبو سفيان علماً بارزاً في قيادة الصراع ضد الإسلام، بوحي من منطلقات تلك الأرستقراطية الكافرة وأفكارها ومصالحها. وكشفت معركة (أحد) عن طبيعة أبي سفيان.

فحين رأى جثة (حمزة بن عبد المطلب) عم النبي مشوّهة على ساحة المعركة، لم يتمالك نفسه لإخفاء الحقد والشماتة، فخاطبه: **«يا أبا عماره، دار الدهر، وحال الأمر، واشتفت منكم نفسي»** وكان بيده رمح، فأخذ يضرب به شدق الجثة مردّداً مثل مجنون: **«ذق عقق!.. ذق عقق..»**.

وفاجأه رئيس الأحباش (الحليس) مبهوتاً، وهو يعرف ما يفعله الأسياد: **«سيد قريش يصنع بابن عمه ما أرى ـ لحماً!»** فأجابه أبو سفيان مضطرباً، معتذراً: **«اكتمها عني، فقد كانت زلة!»**(٢).

---

١ ـ مناقب ابن شهرآشوب ١:٤٧، بحار الأنوار ٩:٢١٠ / ١٨: ٢٣٤ و ١٨:٢٣٥.(المحقق)

٢ ـ أُنظر تاريخ الطبري ٢:٢٠٦، البداية والنهاية ٤:٤٣، سيرة ابن هشام ٣:٦٠٩، اعلام الورى ١:١٨١، السيرة النبوية لابن كثير ٣:٧٥، وأما هند فقد أعتلت صخرة وصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر	**والحرب بعد الحرب ذات سعر**
ما كان عن عتبة لي من صبر	**ولا أخي وعمه وبكري**
شفيت نفسي وقضيت نذري	**شفيت وحشي غليل صدري**

لم يستطع أبو سفيان، وهو رأس الارستقراطية القرشية أن يرتفع فوق طـبيعته، لأن وعيه كان انعكاساً مباشراً لحقيقته الطبقية ـ القبلية، المحددة، رغم ما هو عليه من دهاء وحكمة أحياناً.

ورغم أن مرحلة ما بعد فتح مكة، كانت تعني بداية جديدة في وعي أبي سفيان، إثر إسلامه، وما ناله من حظوة النبي عند الفتح «.. **ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن**»[1]، إلّا أن جذور الوعي التقليدي كانت تسحب شخصية أبي سفيان إلى اتجاهاتها أكثر مما يفعله الوعي الناشيء عن الدخول في حظيرة الإسلام، وهو وعي مستحدث قد يكون ناشئاً بفعل الاضطرار، والمواكبة، أوبفعل التجريب.

ومهما تكن درجة صدق الوعي المستحدث أوزيفه إبان فتح مكة، فإن أبا سفيان قد أماط اللثام عن نوع إسلامه، فيما بعد، في معركة (حنين). وحين كانت باكورة المعركة انخذالاً للمسلمين أمام هجمة (هوازن) المستشرسة. فقد قال مُستسرّاً بعض أصحابه المكّيين:

«**والذي يحلف به أبو سفيان لا تنتهي هزيمتهم دون البحر!**».

فأجابه جبلة بن الجنيد مغتبطاً: «**بلى قد بطل سحر محمد اليوم!**».

لكن صفوان بن أمية سرعان ما زجر جبلة مغضباً: «**اسكت، فضَّ الله فاك!**».

رغم أنه لم يُعلن إسلامه، ثم التفت إلى أبي سفيان قائلاً: «**ويحك يا أبا حنظلة! لأن يربّني والله رجل من قريش لأحبُّ إليَّ من أن يربّني رجل من هوازن!**»[2].

فشكر وحشي علي عمري حتّى ترم أعظمي في قبري

(المحقق)

١ ـ انظر الطبراني في الكبير ٨:٩، المجمع ٦:١٧٢، وصحيح مسلم فيباب الجهاد (٣١، ٨٤، ٨٦) وأبوداود في الخراج باب ٢٥، وأحمد ٢:٢٩٢، ٥٣٨ والبيهقي ٦:٩، وابن أبي شيبة ١٤:٤٧٥ وعبدالرزاق (٩٧٣٩) والطبراني في الصغير ٢:٧٢ والدارقطني٣:٦٠ والطحاوي في المعاني ٣:٣٢١ والبيهقي في الدلائل ٥:٣٢، ٣٧، ٥٦.(المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٢:٣٤٧،البداية والنهاية ٤:٣٧٤، سيرة ابن هشام ٤:٨٩٤، عيون الأثر ٢:٢١٦،

ومع أن الزمن تقادم بأبي سفيان، فشاخ وفقد ضياء ناظريه، إلّا أنه كان أميناً على أطروحاته الأولى، التي لم تتزحزح أمام المؤثرات الإسلامية الكبرى.

حقاً، كان ذلك المسلك (والوعي) من طراز عجيب في انسجامه مع نفسه وفي تماسكه، وهو يحمل جدارة شخصية متحدّية من حيث الطابع الشخصي، علاوة على تجاوب ذلك المسلك مع جانب خفي [سيبرز رويداً رويداً] من الواقع الموضوعي، وهو جانب نشوء ارستقراطية جديدة ــ قديمة بزيٍّ إسلامي.

ففي مجلس خاص، في زمن الخليفة عثمان بن عفان، جاشت بأبي سفيان طموحاته القديمة، ولم ترهبه استدعاءات القبر، والتزوّد بالعمل الصالح، فأعلن أفكاره كلها في اختصار بليغ يعكس الأبعاد السياسية والاقتصادية لتجربته، قائلاً:

«يا بني أمية.. تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلتُ أرجوها لكم.. ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة!»[١].

وقال مثل ذلك، حين مرّ بقبر الحمزة عم النبي: **«يا أبا عمارة! إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا يتلقّبون به!»**[٢].

لا يخفى أن الطبيعة القبلية السائدة في مجتمع الجزيرة العربية طبيعة عامة. فأبو سفيان ليس وحده ينطلق منطلقاً أموياً بل كانت اللوحة العامة لوحة قبليّة تفرض شروطها على السياسات والأفكار بأشكال متباينة، وبدرجات مختلفة. وقد أفاد

☜السيرة النبوية لابن كثير ٣:٦١٩، سبل الهدى والرشاد ٥:٣١٩، النصائح الكافية: ١١٠، تاريخ اليعقوبي ٢:٦٢، تفسير الميزان ٩:٢٣٥.(المحقق)

١ ـ تاريخ الطبري ٨:١٨٥، النزاع والتخاصم للمقريزي: ٥٩، الاحتجاج ١:٣٤٩، مروج الذهب ١:٤٤٠، بحار الأنوار ٣١:١٩٧، ومن المعاصرين / دراسات في الحديث والمحدثين لهاشم معروف الحسني: ٩٠، معالم المدرستين للعسكري ٣:٣١٧.(المحقق)

٢ ـ شرح نهج البلاغة ١٦:١٣٦، قاموس الرجال ١٠:٨٩ / ٥: ١١٦، بحار الأنوار ٣٣:٨٩، ومن المعاصرين / الصحيح من السيرة، جعفر العاملي ٦:٢٥٥، وأحاديث أم المؤمنين عائشة للعسكري ١:٢٩٣.(المحقق)

الإسلام ـ في البدء ـ من الدلالة الاجتماعية للعشيرة والأهل، رغم أنه كان قد جاء لاستبدال تلك المقاييس بأخرى إنسانية. فكان بنو هاشم سنداً للرسول بمواجهة الهجمة القرشية. وقد نال بنو هاشم حصّة كبيرة من المعاناة والعذاب، دفاعاً عن الرسول الكريم، وخاصة بعد المقاطعة. ومن المؤكد أن العديد منهم لم تكن دوافعه ـ في المجابهة ـ إسلامية. لكن من المؤكد أيضاً أن الاصطفاف العشائري تراجع أمام الاصطفاف الإسلامي الذي كان الصورة التقدمية للتغيير الاجتماعي العام. وبعامة، يمكن القول إن هناك نوعين من التجمع القبلي، أحدهما بطابعه التقدمي الذي كان يخدم طموحات أرستقراطية قديمة أوجديدة. فوقوف بني هاشم في جانب النبي قبل المقاطعة، وأثناءها، وبعدها، يختلف ـ من حيث المعنى والاتجاه ـ عن الاصطفاف العشائري لأبي سفيان وبني أمية، حينذاك. فالأول يكتسب دلالة تأريخية، أما الثاني فلا يكتسب غير بعده الطبقي التقليدي المضاد لحركة التأريخ.

إنَّ المتشابهات الكميّة [في الاصطفافات القبلية والعشائرية المتباينة، والمتناحرة] لا تعني وجود التشابه النوعي، أي التشابه في المؤشرات الفكرية، وفي الأهداف.

في السياق المذكور لأصول الصراع وجذوره، لا بد لنا أن نضع في موضع الفهم، أن علياً بن أبي طالب صرع في معركتي بدر وأحد ومعارك أخرى العديد من كبار رؤوس قريش.

وكان الوعي الجاهلي يُكرّس الاعتبارات العائلية تكريساً نهائياً، وكثيراً ما كان الدم طريقاً لذلك التكريس.

وبالمستطاع إدراك مدى الحقد الذي كان يكنُّه أبو سفيان، وهند بنت عتبة (زوجه) للحمزة ولعلي بن أبي طالب اللذين أطاحا برؤوس أحبّتهما. فقد قال جندل علي بن أبي طالب حنظلة بن أبي سفيان بن حرب (أخا معاوية) والوليد بن عتبة بن ربيعة (خال معاوية)، وعتبة بن ربيعة (جد معاوية). وقد ذكر علي بن أبي طالب ذلك في رسالة منه إلى معاوية:

«...فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ [لَهُمْ] بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾»[١].

وفيما يتعلق بهند (أم معاوية) فقد كانت قويّة الشرك، فأضاف غضبها لمقتل أبيها وأخيها وابنها، حقداً ثأرياً فوق الشرك لم تنسه لحظة. وقد كانت منسجمة مع طبيعتها حينما رفضت موقف زوجها أبي سفيان يوم فتح مكة، إذ أخذت بشاربه وقالت: «**اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قُبح من طليعة قوم!**»[٢].

لقد حافظت على شركها، وعلى حقدها.

أما الأمر بالنسبة إلى معاوية بن أبي سفيان، فإنه يختلف من حيث المنظور عن أبيه وأمه، فأبو سفيان وهند كانا من جيل الكفر والضلالة، وكانت التحولات الأخيرة، في آخر حياتهما (منذ الفتح الإسلامي لمكة) خفيفة وليست بذات شأن يُذكر، وهي لا تتجاوز أكثر من الإفادة من سماحة الرسول العظيم، وصفحه النادر.

فهند التي لاكت كبد الحمزة عم النبي بعد أن اشترت (وحشي) لمهمة قتله، كانت قد وجدت في موقف الرسول منها – في الفتح – نوعاً رفيعاً من الخلق والكرم المذهل،

---

١ ـ سورة هود، الآية : ٨٣، وورد النص في:
نهج البلاغة لمحمّد عبده ٣:٣٥، الاحتجاج ١:٢٦٣، مناقب ابن شهرآشوب ٢:٣٥١، عيون الحكم والمواعظ: ١٦٦، شرح نهج البلاغة ١٤:١٣١ / ١٥:١٨٤، نظم درر السمطين: ٩٧، جواهر المطالب لابن الدمشقي ١:٣٧٥، ينابيع المودة ٣:٤٤٧، بحار الأنوار ٣٣:٦٠.(المحقق)

٢ ـ الحميت: الرجل السمين، والدسم: الكثير الورق، والأحمس: الشديد الشحم، فهي تشبهه بالزق لسمنه وضخامته.(المؤلف)، أنظر مجمع الزوائد ٦:١٦٧، شرح معاني الآثار لأحمد بن محمّد بن سلمة ٣:٣٢٢، شرح نهج البلاغة ١٧:٢٧٢، الثقات لابن حبان ٢:٤٨، البداية والنهاية ٤:٣٣٢، سيرة ابن هشام ٤:٨٦٣، عيون الأثر ٢:١٨٩، السيرة النبوية لابن كثير ٣:٥٥١، سبل الهدى والرشاد ٥:٢٢٣.(المحقق)

لكن ذلك لم يتبلور في ذهنها وفي نفسها بصورة تربوية مفترضة. لأن التأريخ المديد، تاريخها وتاريخ أبي سفيان، كان مقطعاً كبيراً من تأريخ بنية اجتماعية جاهلية ذات رفعة ارستقراطية متعالية.

لم يكن معاوية من الجيل نفسه، إذ إنه وُلد سنة عشرين قبل الهجرة النبوية، فيما يُذكر.

وليست في حياته المبكرة أخبار تُروى عنه، سيما أن إسلامه جاء في يوم الفتح. مع أن ما يقارب الثمانية والعشرين عاماً من حياته [كان فيها مشركاً]، كانت حياة عادية، ليس فيها أمور مشهورة، أوأخبار معروفة.

وبعد إسلامه أصبح معاوية كاتباً من كتّاب الوحي (النبي)، فهو أحد سبعة عشر كاتباً ليس في الإسلام غيرهم. وهم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد (أخوه)، وأبو حذيفة بن عتبة، ويزيد بن أبى سفيان، وحاطب بن عمروبن سعد بن أبي صخر، وحويطب بن عبد العزي، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية (ولده)، وجهيم بن الصلت. ثم: أصبح من كتّاب النبي، وهم عشرة: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد بن العاص، وأبو سعيد بن العاص، وعمروبن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وزيد بن ثابت، والعلاء بن الحضرمي[1].

وظل معاوية كاتباً للنبي إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى[2].

---

١ ـ ومن كُتّاب الرسول ﷺ ـ أيضاً ـ أُبي بن كعب بن قيس (الاستيعاب ١:٢٧، الاصابة ١:٣١) وثعلبة بن عمرو بن الخزرج الأكبر (الاستيعاب ١:٢٧، الاصابة ١:٣١) وحنظلة بن الربيع (المعارف: ١٣٠، تهذيب تأريخ ابن عساكر ٥:١٤)، وحنظلة بن الكالب الأسدي (كنز العمال: ١٦٩٧، ١٦٩٩، ١٢٢١) وعبدالله بن الأرقم (تهذيب الكمال ٢١:٤٠٧) وذكر ابن النديم البغدادي في فهرسته (علي بن أبي طالب): ٤٦.(المحقق)

٢ ـ والحق أننا لم نعثر على هذه المنقبة، ولاشك أنها من صنع الأمويين.

إن الموازنة بين المؤثرات العائلية والمؤثرات الإسلامية اللاحقة دقيقة وصعبة، غير أنه من غير الممكن تجميد دور المؤثرات العائلية (وبخاصة مؤثرات أبيه: أبي سفيان، وأمه هند)، طوال السنوات قبل إسلامه، سيّماً أن طاعة معاوية لأبيه كانت مشهودة.

وتوضح ذلك خير توضيح قصة ضرب عمروبن العاص (والي مصر) لمعاوية (وإلى الشام) في حضرة الخليفة عمر بن الخطاب، قال عمر بن الخطاب مخاطباً عمرو: تالله ما رأيتُ رجلاً أسفه منك، قم يامعاوية واقتصّ منه.

فما كان من معاوية إلّا أن أجاب: **«إن أبي أمرني ألا أقضي أمراً دونه»**.

إن سلطة أبي سفيان الواسعة على ابنه معاوية، وتأثيرات أمه هند الكبيرة، خلقت - بلا شك - خزيناً من الأفكار والعواطف في شخصية معاوية في مرحلته ما قبل الإسلامية. وبما أن إسلام معاوية جاء بعد فتح مكة، فإن ثقل ذلك الخزين أمر يمكن التوصل إلى تقديره، ذلك لأنه المكوّن الأساسي للأفكار في غياب أيديولوجية متماسكة. فمن غير المنطقي أن مرحلة ما قبل إسلام معاوية كانت فراغاً أيديولوجياً، أوفراغاً من أفكار أساسية.

ذلك لأن الأيديولوجية الوثنية، أوأيديولوجيا الشرك، واقترانها بالطبيعة الارستقراطية لأسرة أبي سفيان، تحدّد إلى مدى بعيد إتجاهات أفكار معاوية نفسه.

وإذا ما أضيفَ إلى ذلك نوع الأحزان التي مرت بها أمه (وأبوه) بمصرع رؤوس بارزة في الأسرة (أخيه، وخاله، وجده، وغيرهم)، فإن الأحقاد ستملك سلطة نفسية قوية، نظراً إلى غياب الأيديولوجيا المطهّرة، الإسلام، والتي كانت ستتيح له الارتفاع فوق الأحقاد والضغائن.

فعلي بن أبي طالب لم يصرع رؤوساً أموية بارزة في المعارك والحروب الإسلامية ضد الشرك والكفر والضلالة، بل صرع -أيضاً - رؤساً عديدة من بني عمومته.

فالإسلام كان المقرّر الوحيد لاتجاهات العلاقات السياسية والاجتماعية سلماً أوحرباً بالنسبة إلى علي بن أبي طالب والصحابة والمؤمنين.

من جانب معاوية، كانت الخصائص الشخصية له (الكتمان، والصبر خاصة) ذات قيمة خاصة لترسيخ بعض الأفكار والأحقاد والرغبات التي كان يحملها، لا سيما أنه كان مهيّأ لرئاسة بني أمية، بعد أبيه، لو لم يأتِ الإسلام فيغيّر المعادلة في حينها.

إن الرجال الذين ينطوون على الأحقاد والثارات، ولكن يرتفعون بالانتقام إلى مستوى أكبر من الحدود الشخصية للانتقام، هم عادة الرجال ذووالتصميم العالي. فالثأر لديهم يتحول إلى فعاليّة سياسية كبرى تتجاوز الانتقامات الصغيرة، إلى محصلة كبرى، وهي الانتصار السياسي، وإحراز الهيمنة أمام سمع الخصوم والأعداء وبصرهم.

وقد أسهمت خصائص معاوية الشخصية في تقوية التصميم، أوأن التصميم المسبق نفسه أسهم في بناء تلك الخصائص وتطويرها، وفي كلتا الحالتين كان التضافر بين الغايات المخطط لها، وبين الخصال الذاتية صورة بارعة للقدرة، التي دعمتها ظروف مؤاتية.

فبعد موت يزيد بن أبي سفيان (أخي معاوية) وكان أميراً من أمراء الجيوش الإسلامية لفتح الشام، كان معاوية (الذي عمل تحت لواء أخيه) جاهزاً لنيل مكانة أخيه التي أعدّها له. واستقر معاوية في الشام والياً فتوافقت الشروط الموضوعية والذاتية لتمكين سلطانه في الشام.

ولا يُدرى مدى صحة أبيات الشعر المنسوبة إلى معاوية، وهو يخاطب أباه حين أوشك على الدخول في الإسلام قائلاً:

يا صخرُ لا تُسْلِمَنْ فتفضحَنا ... بعد الذين ببدرٍ أصبحوا مِزَقا
خالي، عمي، وعمُّ الأم ثالثهم ... وحنظل الخير، قد أهدى لنا الأرقا
لا تركُنَنَّ إلى أمرٍ تقلدنا ... - والراقصات - به في مكة الخَرَقا
فالموتُ أهون من قول العداةِ لنا ... حادَ ابنُ حربٍ العُزّى إذا فَرقا[1]

---

١ ـ أنظر شرح نهج البلاغة ٦: ٢٨٩، الغدير للعلامة الأميني ١٠: ١٦٩ (معاصر).(المحقق)

الإطار الطبقي والسياسي للمتغيرات الجديدة

إن إشكاليات الصراع في المجتمعات الإسلامية، وبخاصة الصراع الذي اندلع في زمن الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمتغيرات السياسية والاقتصادية، التي استطاعت استنهاض الجذور الاقتصادية والأيديولوجية القديمة، وبعثها وتطويرها، وإلحاقها بالطبقية الجديدة، التي ترعرعت باسم الإسلام، وهو منها براء.

وتشمل الطبقة الجديدة المنتفعين، والمحتكرين، والمثرين، والطامحين والمستغلّين من كل صنف. وهي ليست كتلة واحدة متجانسة، بل هي ظاهرة سياسية – طبقية واسعة تشمل عدة مجموعات، وأفراد، متباينين في منطلقاتهم، وفي أفكارهم، وفي غاياتهم. وكان النبي الكريم محمد ﷺ قد حذّر برؤيته الثاقبة – من نشوء تلك الظاهرة التي أدرك خطورة ظهورها، ومخاطر تطورها. وكان ذلك – بأتمّ الإشارة – بعد خطبة الوداع[1].

«كان يشير إلى موته القريب، رأى بأم عينه بقاء الوثنية المالية، وثنية الذهب والفضة، والذين يكنزونهما، وكان ذلك في مكة، فجرحته الظاهرة. كان ذلك، بعد تلاوته: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

---

١ ـ قال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب، أنكم ستلقون من بعدي من ظلمة قريش وجهال العرب وطغاتهم تعباً وبلاء وتظاهراً منهم عليكم واستذلالاً وتوثباً عليكم وحسداً لكم وبغياً عليكم، فاصبروا حتّى تلقوني....

يا بني عبد المطلب، أني رأيت على منبري اثني عشر من قريش، كلهم ضال مضل يدعون أُمّتي إلى النار ويردونهم عن الصراط القهقري، رجلان من حيين من قريش عليهما مثل إثم الأمّة ومثل جميع عذابهم، وعشره من بني أمية، رجلان من العشرة من ولد حرب بن أمية وبقيتهم من ولد أبي العاص بن أمية...

انظر كتاب سليم بن قيس، تحقيق المحمودي: ٤٢٦، مناقب أمير المؤمنين للكوفي ٢: ١٧١.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم معاوية على منبري فأقتلوه» المناقب للكوفي ٢: ٣٠١، وتهذيب التهذيب ٥: ١١٠، والسمعاني في الأنساب ٣: ٩٥، وتاريخ بغداد ١٢: ١٨١، وكتاب صفين: ٢١٦.(المحقق)

دِينا﴾[١]، فلا عجب أن يكون ما شاهد من ترف مثيراً للألم، لأكبر الألم.. «مالَ إلى الكعبة، فجلس في ظلها... وهناك وجد مظاهر الغنى تبدوعلى بعض الناس، ومظاهر الفقر تميّز الباقين، وجاءه أبو ذر، فوجده يتلو: **﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[٢].. ثم مال إلى أبي ذر وصاح: **«هم الأخسرون ورب الكعبة»** فسأله أبو ذر: من هم؟ فقال: الأكثرون أموالاً.. ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلّا جاءت يوم القيامة أعظم مما كانت وأسمى، تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها، كلما نفدت أخرى، عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس»[٣].

ويأتي الاحتجاج النبوي، إبان حجة الوداع، وبعد خطبة الوداع، بعد مرحلة (ومراحل) تثقيفية، وتربوية، وتطبيقية شاقّة بخطر نشوء طبقة استغلالية مترفة، بضوء ما جاء به القرآن من حكم خالدة مستخلصة من تاريخ الأقوام حيث كانت الطبقات الثريّة المرفّهة، والمترفة، عدوة الرسل والأنبياء، وسبب دمار القرى والأقوام أيضاً.

أي أن المجتمع الإسلامي كان على وعي بالتجربة من خلال الآي الكريم، والحديث النبوي: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾**[٤]، و**﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾**[٥]... إلخ.

بعد وفاة النبي كانت الردة قد شمّرت عن ساعدها، وكان لقريش استعدادها لذلك:

---

١ ـ سورة المائدة، الآية: ٣.(المحقق)

٢ ـ سورة براءة، الآية: ٣٦.(المحقق)

٣ ـ عبد الرحمن الشرقاوي: محمد رسول الحرية. (المؤلف)، وأنظر صحيح مسلم ٣: ٧٤، مسند أحمد ٥: ١٥٢، صحيح البخاري ٧: ٢١٩، سنن الترمذي ٢: ٦٣، سنن النسائي ٥: ١٠، السنن الكبرى للبيهقي ٤: ٩٧، فتح الباري ١١: ٢٢٢، المصنّف لابن شيبة ٨: ١٣٧، المعجم الأوسط ٢: ٢٠٠، شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٤٠، كنز العمال ٦: ٣٠٤، مستدرك الوسائل ٧: ٢٠، بحار الأنوار ٩٣: ١١.(المحقق)

٤ ـ سورة سبأ، الآية: ٣٤ ـ ٣٥.(المحقق)

٥ ـ سورة الاسراء، الآية: ١٦.(المحقق)

«وكأنها كانت تتلبث بالزمن الذي قهرها على أن تدين للإسلام كرهاً حتى جاءها النبأ بوفاة رسول الإسلام.. وما كان أعجب هذه النفوس التي بدت من قبل كأن قد ملأها الإيمان ثم تكشفت اليوم عن أضغان هتكت ستر هذا الإيمان! لقد قامت تَهُمُّ أن تخذل محمداً في مماته بعد أن أعياها أن تخذله إبان حياته، ونهضت تجيّش شراذمها بمكة، داعية لخلع رداء الإسلام. وانتشرت الفتنة هناك، وقويت شوكتها حتى خشيها عتاب بن أسيد، عامل رسول الله على البلدة الحرام ففرَّ منها يتلمّس النجاة، ولكن الله أبى إلّا أن يعز دينه ويعلي كلمته على القوم الضالين فضربهم ثانية على الإسلام كما ضربهم في حياة محمد عليه. فإذا سهيل بن عمرو- رجلهم يوم الحديبية - يقف بينهم، بعد فرار عتاب، محذراً، متوعداً، يقول:

«يا أهل مكة! كنتم آخر من أسلم في الناس فلا تكونوا أول من ارتدّ من الناس.. يا أهل مكة.. والله ليتمكن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله، ومن رأينا ضربنا عنقه!»[1].

فخشيت الرقاب، وعاود العقول الصواب[2].

في سياق ذلك، كان هناك خطر الطامحين، المنتفعين.

وكانت حصافة أبي بكر الصديق الخليفة الأول، قد اغتنت بالتحذير من الفتنة القادمة، وهي حصافة إسلامية قوامها المبدئية، والفطنة، والحرص على المستقبل الإسلامي، فكانت وصيته إلى عمر بن الخطاب: **«إحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، الذين انتفخت أوداجهم وطمحت أبصارهم»**. وكان أبو بكر يشخص ظاهرة - داخل الإسلام - أخطر على الإسلام من أعدائه الخارجين، وهو - أيضاً - كان يشخص محنة الأحقاب الإسلامية القادمة، إذ تنشأ القوى المضادة، من داخل الكيان الإسلامي، ومن تحت بطانة القيادة.

واستطاع عمر بن الخطاب - الخليفة الثاني - أن يُباشر بحزم عدالة ثابتة في هذا الميدان، بتصدّيه للردّة الخفيّة التي تختلف عن الردّة العلنية، وتفوقها خطورة.

---

١ ـ سيرة ابن هشام ٤: ١٠٧٩، السيرة النبوية لابن كثير ٤: ٥٥٤، البداية والنهاية ٥: ٣٠٠. (المؤلف)

٢ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. (المحقق)

فالردّة العلنية كانت واضحة، وكانت الحرب ضدها واضحة، ومباشرة، وسريعة الانتصار. لكنما الردّة الخفية هي من طراز الثورة المضادة التي تتكون داخل الكيان الإسلامي نفسه.

وكانت شدة عدل عمر بن الخطاب شدة بأس الحق، فقرن النقد بالممارسة، وقال: **«إن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا!»**.. وهتف **«إني قائم دون شعب الحرة، آخذاً بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار!»**[1]...

ومن رؤيا عمر وذكائه النادر أنه كان يقول لعثمان بن عفان (وهو على فراش الموت) **«كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً!»**[2]...

إن كل هذه الإشارات، والانتباهات، والتشخيصات، كانت استيعاباً لمخاطر ظاهرة خطيرة، في طور النشوء وسرعة التصاعد. وهي - عموماً - ظاهرة أكبر من النوايا الطيبة، ذلك لأنها بمجرد أن تُقوّي جذورها، وتؤسس أساسها، وتعمّق تلاحم أجزائها، فإنها ستمتلك قوانينها الفعالة في التطور والاستمرارية.

ويمكن القول إن الظاهرة المضادة لروح الإسلام ولحقيقته العادلة، استندت على أربعة أركان كانت سبب الهزة في زمن الخليفة عثمان بن عفان:

---

١ ـ تاريخ مدينة دمشق ٣٠٢:٣٩ / ٤٠: ٣١، كتاب الفتن لنعيم بن حمّاد المروزي: ٢٢، البداية والنهاية ٢٢٧:٦، غريب الحديث لابن سلام ٢٨:٤، النهاية في غريب الحديث لابن أثير ١: ١٥٤، لسان العرب ٦٨:١١، تاج العروس ٢٣٥:٧. والفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر الضبي: ٧٥، شرح ابن أبي الحديد ١١: ١٢، كنز العمال للمتقي الهندي ١٤: ٧٦، تاريخ المدينة لابن شبه النمري ٢: ٧٧٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٨، تاريخ الطبري ٣: ٤٢٦. (المحقق)

٢ ـ الايضاح: ١٦٥، المناظرات في الإمامة: ١٨٥، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٦، بحار الأنوار ٣٨٩:٣١، الأربعين: ٥٦٨، النصّ والاجتهاد للسيّد شرف الدين (معاصر): ٣٩٥، عمر بن الخطاب لعبد الرحمن أحمد البكري: ٣٠٨.(المحقق)

أولاً: الثروة المتعاظمة التي أصابت بعض ذوي السابقة في الإسلام، وبعض المقرّبين إلى القيادة، من ذهب، وفضة، وأملاك، وأطيان، وقصور، ومواشٍ.

وتزامن تنامي الثروات الشخصية، مع تنامي موارد الدولة الإسلامية الآخذة بالاتساع، والتي ضمّت تحت جناحيها ممالك ودولاً عديدة، ذات غنى وفير. فالذي أغرى الناس بالترف وحب الثراء:

«طبيعتهم البشرية التي حضتهم على التملك، وظروف الدولة الفتية التي انفسحت رقعتها في أعوام معدودة، فضمّت تحت جناحيها نصف العالم الخصيب. وما أحسب بدوياً نبت خلال جدوبة الصحراء، وعانى مرارة الحرمان في رمالها المستعرة، إلّا يعمل قدر وسعه – وقد تفتحت أمامه الأبواب – على جمع المال الذي يجنّبه الفاقة والشظف وسوء الحال»[1].

ولقد زاد عثمان بن عفان عطاء الناس مئة درهم منذ اليوم الذي امتلك فيه مقاليد الحكم، وذلك استجابة لاتساع موارد الدولة الإسلامية المتنامية. وانطلقت العناصر المنتفعة في اندفاعة جمع الثروات واكتناز الذهب والفضة، وتحقيق النزف الزائد، وكان ذلك يجري – بالضرورة – على حساب أموال المسلمين، وحقّهم في العيش الرغيد. فنشأت البورجوازية الجديدة، والاقطاع الاقتصادي الذي سرعان ما اتجه لتكوين اقطاع سياسي، تولدت عنه استقطابات متعارضة، وكان من بين الولاة من هم أسرعُ إثراءاً وانتفاعاً، فلم يلتزموا بكتاب الخليفة عثمان بن عفّان الذي تمسك بالنهج الإسلامي الثابت في توصيته للولاة، قائلاً لهم: **«... إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة»**[2]، ذلك لأن مصالحهم الجديدة، المتنامية أنستهم الحدود الإسلامية، فجعلتهم يقفزون فوقها، مستبدلين إياها باجتهاداتهم الشخصية.

ثانياً: ثقل علاقة القرابة داخل العلاقة القبلية، واستثمارها من قبل الأقرباء الذين هم في مركز السلطة باتجاه تركيز المنافع، والمصالح، على حساب المبادىء الإسلامية،

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

٢ ـ تاريخ الطبري ٣:٣٠٦.(المحقق)

ومصالح الجماعة الإسلامية.

غير أن الخلل التقليدي في المجتمعات القبلية، هو أن منطق القرابة يصبح منطقياً استحواذياً انتفاعياً، انحيازياً، بدون استحقاق.

وما كان الإسلام يرى فيه عناية بالرحم وذوي القربى، بالمنظور الإسلامي، كان بعض الأقرباء يحولونه إلى فتنة، وذلك بالاستغلال اللامشروع، والعمل من وراء ظهر الرعاة.

إن الإسلام الذي أوجد وحدة إسلامية واسعة للعرب، وجد نفسه معرضاً لمحنة عودة العشائرية، والصراعات العائلية، التي كانت من قسمات العصر الجاهلي. يقيناً، إن عثمان بن عفان، المعروف بالرأفة والسماحة والعطف على الأهل والأقرباء، لم يكن على وفاق مع أية دعوة عشائرية، أموية كانت أوغير أموية. ودليل ذلك أنه نَهَرَ أبا سفيان وانتهره حينما سمعه يقول مُخاطباً الحاضرين في مجلس خاص: «**يا بني أمية.. تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم.. ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة!**»[1]..

كان بعض أقرباء عثمان بن عفان – من الأمويين – خارج الإسلام، أوفي خط معاداته، وقد أسلم من أسلم متأخراً بقوة السيف، أومن المؤلفة قلوبهم.

فيزيد بن أبي سفيان أشهر سيفه بوجه المسلمين بعد أن فتحت مكة أبوابها أمام النبي، حتى أسر. أما الحكم بن أبي العاص (عم عثمان) الذي أفحش بحق رسول الله ﷺ فقد

---

١ ـ ... حدّثني المغيرة محمّد المهلبي قال: ذاكرت إسماعيل بن إسحاق القاضي، عند الحديث وأن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنة، ولا نار، وكان الزبير حاضراً فقال عثمان لأبي سفيان: أعزب، فقال: يا بني أهاهنا أحد؟ قال الزبير: نعم والله لأكتمها عليك، قال فقال إسماعيل: هذا باطل، قلت: وكيف ذلك؟ قال: ما انكر هذا من أبي سفيان، ولكن انكر أن يكون سمعه عثمان ولم يضرب عنقه.
انظر السقيفة وفدك للجوهري: ٣٩ و٨٧، شرح الأخبار ٢:١٤٧، الاحتجاج ١:٣٤٩، مروج الذهب ١:٤٤٠، تاريخ مدينة دمشق ٦:٤٠٧، بحار الأنوار ٣١:١٩٧.(المحقق)

نُفيَ بأمر الرسول إلى الطائف، وظل في المنفى في عهد أبي بكر وفي عهد عمر بن الخطاب، وحين راجعه عثمان راجياً العفو عنه أجابه عمر: **«يُخرجُهُ رسول الله صلى الله عليه وآله وتأمرني أن أردّه؟ إياك يا ابن عفان أن تعاودني فيه بعد اليوم!»**[1].

أما (ابن أبي سرح) فقد أسلم نكاية بالإسلام، وحين أوكل إليه الرسول صلى الله عليه وآله كتابة بعض الوحي، لجأ إلى التحريف، والحذف، والتغيير في التنزيل، خائناً الأمانة، فأهدر الرسول دمه، ولم يَعْفُ عنه إلّا في عام الفتح. كذلك، كان من الأقرباء الوليد بن عقبة الذي جاءت فيه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾**[2]، وذلك بعد فرية افتراها حينما بعثه الرسول صلى الله عليه وآله إلى بني قريظة بعد إسلامهم، فادّعى أنهم أرادوا أن يفتكوا به، وكادت الحرب أن تشتعل[3].

إن بعض الأقرباء كانوا يحملون جذور الشرك والضلالة، والعداء القريب للإسلام، فكان إسلامهم ضعيفاً، فالوليد بن عقبة (وهو أخو عثمان بن عفان لأمه)، الذي عيّنه الخليفة عثمان والياً على الكوفة، قد وقع في الفسوق بعد أن شرب الخمرة بمجلس سمر بدار الإمارة.

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ٣: ٣١، جواهر الكلام ٣٠: ١٤٣، كتاب الأربعين للقمي: ٥٨٢، بحار الأنوار ٣١: ١٧٢.(المحقق)

٢ ـ سورة الحجرات، الآية: ٦.(المحقق)

٣ ـ الاصابة ٦: ٦٣١، أسباب النزول للواحدي: ٢٩١. والرواية تؤكد على أن الرسول صلى الله عليه وآله بعثه إلى بني المصطلق، فلما رأوه أقبلوا نحوه، فهابهم، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: إنهم ارتدوا عن الإسلام، فبعث النبي صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد، فعلم عملهم، وأمره أن يتثبت، وقال له: انطلق ولا تعجل، فانطلق حتّى أتاهم ليلاً، وانفذ عيونه نحوهم، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمع أذانهم وصلاتهم، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه، فرجع إلى الرسول صلى الله عليه وآله فأخبره، فنزلت هذه الآية. انظر شرح نهج البلاغة ١٧: ٣٨.

والوليد بن عقبة هو أخو عثمان من أمّه، عيّنه والياً على الكوفة، وصلى بالناس الصبح أربع ركعات وقال هل من مزيد! وكان مشهوراً بشرب الخمر، وجلد في زمن عمر بن الخطاب بأمر من علي بن أبي طالب عليه السلام. وجلده عبد الله بن جعفر. انظر المسائل الصاغانية للمفيد: ١٣٥.(المحقق)

وكان الحطيئة، الشاعر الهجاء قد قال فيه:

شهد الحطيئةُ يوم يلقى ربه — أن الوليد أحقُ بالعذرِ

نادى وقد تمت صلاتهم: — أأزيدكم؟ ثملاً وما يدري

ليزيدهم أخرى.. ولو قبلوا — منه لقادهم إلى عشرِ

فأبوا، أبا وهب[١]، ولو فعلوا — لقرنت بين الشفع والوتر

حبسوا عنانك في الصلاة ولو — خلّوا عنانك لم تزل تجري[٢]

ثالثاً: الطموح السياسي: وهو طموح قد يكون متأتياً عن المرتكزات المصلحية الجديدة، أوعن القرابة نفسها، ولا يوجد فاصل بين مشروعية الطموح ولا مشروعيته غير العقيدة، والمبادىء.

بالنسبة إلى ذوي السابقة اللا إسلامية، يُعد الطموح السياسي لارتقاء سُلّم المسؤوليات في الدولة الإسلامية غير مشروع، وفقاً لأسس الدولة الإسلامية ومنطلقاتها وأيديولوجيتها.

وإن توفر الظروف المناسبة لانتعاش الطموح المذكور، يعني توفر الفرص للثورة المضادة، وللردة.

وبغية تجنّب الطامحين العقبات الفعلية التي يصدُّهم بها الإسلام، ويحول دون ولوجهم عالم السياسة، فإنهم يرتدون الزيّ الإسلامي، ويتذرّعون بالمنطق الإسلامي، لمجاراة الوسط الإسلامي، والسعي الحثيث لتحقيق الأطماع السياسية لهم.

وثمة ألوان عديدة من الطموح السياسي، منها طموح شخصيات مسلمة ذات سابقة، أوذات جدارة، وهي شخصيات لا تستطيع تجاوز أعلام الإسلام من أصحاب النبي،

---

١ ـ ويقصد به: الوليد بن عقبة حيث كان يُكنى بـ(أبو وهب).(المحقق)

٢ ـ السقيفة وفدك للجوهري: ١٢٣، الأغاني ٤: ١٧٩، فتح الباري ٧: ٤٧، شرح نهج البلاغة ٣: ١٨ / ١٧: ٢٢٩، التبيان للطوسي ١: ٣٥٢، جامع البيان للطبري الشيعي ١: ٥٩٠، بحار الأنوار ٣١: ١٥٢.(المحقق)

وبخاصة الخلفاء الراشدين، فتظل مترقبة الفرص، أومشدودة إلى طموحاتها، فتظهر لها أدوار علنية أوخفية في أيام الفتن، وقد تُراجع نفسها مُنتقدة مسلكها، عند الإخفاق، أوفي حالات الصحو. ومن الثابت أن مغريات السلطة في الدولة الإسلامية المتعاظمة، كانت مغريات كبيرة جداً، لذلك كان البحث عن (الولاية) و(الإمرة) تعبيراً عن ظاهرة جديدة هي ظاهرة بروز السلطة كإغراء كبير، بعيداً عن حاجات العدل الإسلامي ومتطلباته.

ففي الإسلام، على عهد النبي والخلفاء الراشدين، ليست السلطة إلّا أداة الإسلام الفعالة لتطبيق التصورات الإسلامية، والتمسك بها. لكن الطامحين، وأعضاء الطبقة الجديدة، نظروا إلى السلطة بحسبانها هدفاً بذاتها.

والتالي، فإن جميع الممارسات النظرية والتطبيقية تؤدي إلى حماية (السلطة) وتركيزها. فالسلطة هي الهدف الثابت، أما الأفكار والممارسات فهي الخطوط، والخطوات المتحركة، والمتغيرة، والمتقلبة. ولا يستطيع الطامعون، والطامحون، تحقيق غاياتهم وآمالهم السياسية وهم أفراد معزولون، محدودون.

إذ لا بد من توفّر شروط موضوعية - سياسياً واجتماعياً وثقافياً - تتجانس، أوتتجاوب مع طموحات الطامحين وأطماع الطامعين، فتتكون كتلة متحركة في الوسط السياسي - الأيديولوجي - الاجتماعي نفسه، بالمنطق وبالأدوات المستخدمة والشائعة، ولكن باستدراك الظروف نحو عوامل الصراع التي تخدم ذوي الطموحات العالية، والباحثين عن الإمارة.

وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان كانت طموحات ذوي القرابة تستثير الطموحات المناقضة لها، في سياق حركة مجتمع تتجه طليعته نحو الرفاه، بوتائر متباينة. فنجم عن ذلك نشوء الركن الرابع وهو الردة المقنعة التي وضعت المبادىء الإسلامية في المرتبة الثانية وراء المرتبة الأولى وهي السلطة، والمكتسبات المادية والمالية المتصلة بها. أي أن الردة كانت ماثلة - عملياً - في سلوك الفئة الاقطاعية - المالية المتحصّنة بمراكز

وظيفية في الدولة الإسلامية، على حساب الخلافة الإسلامية، ومصالح الأمة. وكانت هذه الردّة تظهر علنياً بالصورة الانشقاقية، والانقسامية على نحو حاد، متصاعد الحدة، وباتجاه دموي.

وهكذا تجلت تلك الظاهرة في زمن الخليفتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وإن بشكلين مختلفين.

وتشير الفتنة في زمن الخليفة عثمان بن عفان إلى فعالية الظاهرة الطبقية، التي كانت تتحدى - بنعومة - توجيهات الخليفة نفسه وتوصياته، فبينما كان يحث الرعاة على العدل، كانت تتأسس أوتاد للحكم يهمها الحكم نفسه والغنائم، والمكاسب، السيطرة، أكثر مما تهمها مبادىء الإسلام، وتوصيات الخليفة.

وكان مروان بن الحكم بن أبي العاص رمز الظاهرة الجديدة، التي نشأت في حضن الخلافة الإسلامية، دون أن تستجيب لقيمها وتوجيهاتها التاريخية.

ويمكن القول إن مروان بن الحكم غدر بابن عمه عثمان بن عفان، غدراً سياسياً وفكرياً، قبل أي انتكاث آخر.

هذا لا يعنى أن مروان قليل الوفاء لابن عمه الخليفة عثمان، فقد أثبتت محنة الخليفة شجاعة مروان في الذود عن ابن عمه، لكن الوفاء مفهوم - هنا - في إطاره العائلي والقبلي، وقد عبّر مروان عن حبّه لابن عمه الخليفة، لا بالمبدئية الإسلامية، بل برؤيته الخاصة، وبطريقته الخاصة. وتحت خيمة الخلافة الإسلامية، نشأت ظاهرة الحكم الحقيقي الذي يُمارسه رجل الظل، المتسلّم لأعلى مقاليد السلطة بعد الخليفة.

وتأريخياً، يمكن أن يرى المحللون التأريخيون في سلطة مروان بن الحكم، بكونها سلطة داخل السلطة الإسلامية، جذراً لكل أشكال الحكم التي يبرز فيها رجل الظل على حساب القيادة الحقيقية للسلطة، في مختلف الدول الإسلامية، وفي مختلف العصور والعهود.

ورجل الظل - هنا - لا يعني الشخصية الثانية الخفية، بل هو يعني الدلالة على مراكز

القوة الفعالة التي تنشأ وتنمو في ظل إرادة الحاكم الأول واختياره، ثم تترعرع وتقوى بقانونها الذاتي الخاص، بعيداً عن الضوابط الأساسية لعدل الحكم، ولمصالح الأمة.

وقد يبلغ تطور حكم الظل من القوة درجة يصعب معها على الحاكم الحقيقي معالجة الأمر معالجة جذرية، فيكتفي بالزجر، أوبالعقوبات الآنية البسيطة. ولقد كانت توريطات مروان بن الحكم للخليفة عثمان غير مقصودة لذاتها، كتوريطات، لأن مروان كان يتصرف بوحي من طبيعته الفكرية والسياسية، وبوحي من مصالحه التي تداخلت مع رؤيته تداخل التكامل. فالإخلاص الشخصي شيء، ودلالته السياسية وآثاره الموضوعية شيء آخر. كان مروان - إذن - يُدافع عن الخليفة بطريقته هو، لا بطريقة الخليفة، معطياً لنفسه حرية التصرف، رغم أنه لا حقَّ له في ذلك، ما دام الخليفة موجوداً.

وما يقبله الناس من تقريع الخليفة لا يقبلون مثله من مروان، وهذا أمر كان يزيد الناس نقمة.

جلس عثمان بن عفان ذات مرة على المنبر، فقال:

أما بعد، فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة، وعاهة هذه النعمة، عيّابون طعّانون يُرونكم ما تحبون، ويُسرّون ما تكرهون، يقولون لكم ما تقولون، أمثال النعام يتبعون أول ناعق، أحبُّ مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلّا نَغَصاً ولا يردون إلّا عَكَراً، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور، وتعذّرت عليهم المكاسب. ألا فقد والله عبتم عليَّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدِنتم له على ما أحببتم أوكرهتم، ولنتُ لكم، وأوطأتُ لكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليَّ. أما والله لأنا أعزُّ نفراً، وأقرب ناصراً، وأكثر عدداً، وأقمنُ إن قلت هلمَّ أتِيَ إليَّ، ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلتُ عليكم فضولاً، وكشرتُ لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلقاً لم أكن أحْسِنه، ومنطقاً لم أنطق به، فكفّوا عني ألسنتكم، وطعنكم وعيبكم على وُلاتكم، فإني قد كففتُ عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصّرتُ في بلوغ

ما كان يبلغ من كان قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه، فَضَل فَضْلٌ من مال، فمالي لا أصنع في الفَضْل ما أريد؟ فلِمَ كنتُ إماماً!؟»(١)..

فما كان من مروان إلّا أن تحيّن الفرصة، وشده الخطاب، فكشف عن طبيعته النزقة، الحادة، فقال: «**إن شئتم حكمنا والله بينا وبينكم السيف، نحنُ والله وأنتم كما قال الشاعر:**

فَـرشنا لكـم أعـراضـنا فـنَبَتْ بكـم   معارسُكُم تَبنونَ في دِمَنِ الثَـرى(٢)..

إن تدخله – هنا – كان يُفضي إلى التصعيد لا إلى حسن المعالجة، ولم يغب الأمر هذا عن فطنة عثمان، فنهره قائلاً:

«**اسكت لاسكتَّ، دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا؟ ألم أتقدم إليك ألّا تنطق؟**»(٣).

كانت طبيعة مروان نقيض طبيعة الخليفة عثمان، وكانت سبباً في التصعيد المستمر للشقاق، وإضرام الفتنة. وكانت طبيعة عثمان السخيّة، المعطاء، الرقيقة قادرة على كسب ودّ الناس الهائجين، بل إن بعض خطبه كانت تستثير بكاء بعض الناقمين وخاصة تلك الخطبة التي أعطى فيها الناس من نفسه التوبة، والتي قال فيها:

---

١ – تاريخ الطبري ٣:٣٧٧، الإمامة والسياسة ١:٤٦ تحقيق الشيري، الجمل للمفيد: ١٠١، جواهر المطالب ٢:١٨٤، أنساب الأشراف ٥:٦١، شرح نهج البلاغة ٩:٢٣ / ٩: ٢٦٥، تفسير أبي حمزة الثمالي: ٢٤، اعجاز القرآن للباقلاني: ١٤٢.(المحقق)

٢ – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك الجزء الرابع. (المؤلف). وأنظر الجمل للمفيد: ١٠١، تاريخ الطبري ٣:٣٧٧ / ٥: ١٠٠ في بعض النسخ، البداية والنهاية ٧:١٨٩، الكامل لابن الأثير ٣:١٥٣.

وشبيه هذا البيت:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

ويضرب للرجل الذي يظهر المودة وفي قلبه العداوة، انظر الصدوق في (من لا يحضره الفقيه) ٣:٣٩١، والمستدرك ٣:٥٥١، مجمع الزوائد ٧:٢٥٣، شرح نهج البلاغة ٦:١٦٤، تفسير القرطبي ٢٠:١٦.(المحقق)

٣ – المصدر نفسه الجزء الرابع. (المؤلف) وأنظر شرح نهج البلاغة ٩:٢٦٥، تاريخ الطبري ٣:٣٧٨، البداية والنهاية ٧:١٨٩.(المحقق)

«أما بعدُ أيها الناس، فوالله ما عابَ من عابَ منكم شيئاً أجهله، وما جئتُ شيئاً إلّا وأنا أعرضه! ولكنني فتنتني نفسي وكذبتني، وضلَّ عني رشدي، ولقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من زلَّ فليتُبْ، ومن أخطأ فليتُبْ، ولا يتماد في الهلكة إن من تمادى في الجور كان أبعد عن الطريق»، فأنا أول من اتعظ، استغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب؛ فإذا نزلتُ فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم، فوالله لئن ردّني الحق عبداً لأستنّ بسنّة العبد، ولأذِلّنّ ذل العبد، ولأكوننّ كالمرقوق، إن مُلِكَ صبر، وإن عُتِقَ شكر، وما عن الله مذهب إلّا إليه. فلا يعجزنَّ عنكم خياركم أن يدنوا إليَّ لئن أبَتْ يميني لتتابعني شمالي[1].. **«قال: فَرَقَّ الناس له يومئذٍ، وبكى منهم، وقام إليه سعيد بن زيد، فقال: يا أمير المؤمنين، ليس بواصل لك من ليس معك، الله الله في نفسك!»**[2]..

وعلى الضد من نهج عثمان، وأسلوبه، أدلى مروان بدلوه، فأعقب كلمات عثمان، بكلماته القاسية، وبمعانيها المرفوضة من قبل المسلمين. فحوّل أجواء التصالح إلىٰ أجواء متكهربة، وهاج الناس من جديد. قال مروان مُخاطباً الناس المجتمعين بكثافة، وهم يركب بعضهم بعضاً، خارج المنزل:

«ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب! شاهت الوجوه! كل إنسان آخذ بأذُن صاحبه. ألا من أريدَ! جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! أخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غبَّ رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا»[3].

وترد في كلمات مروان تعبيرات صريحة عن الخلافة وكأنها ملك خاص بالعائلة والأقرباء، أما الناس الناقمون فكأنهم قادمون لنهب. ما من شك في أن أفكار مروان

---

١ ـ المصدر نفسه الجزء الرابع.(المؤلف)

٢ ـ أنظر تاريخ الطبري ٣:٣٩٦، الجمل للمفيد: ١٠٢، الغدير ٩:١٧٣ عن الطبري.(المحقق)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) وأنظر تاريخ الطبري ٣:٣٩٧، تاريخ ابن خلدون ق ٢١: ١٤٧، الجمل للمفيد: ١٠٣، شرح نهج البلاغة ٢:١٤٦، الغدير ٩:١٧٤.(المحقق)

وأسلوبه لم يكونا يخدمان وحدة الصف الإسلامي، ومستلزمات الحفاظ على الخلافة الإسلامية، وبالعكس من ذاك كان مروان يلقي في نار الفتنة المزيد من الحطب، قبل أن ينجح مسعى الخليفة عثمان في إطفاء تلك النار.

وحين استثيرت الفتنة العامة، وقد اشترك فيها أناس متعددوالمشارب، ومن مختلف الأمصار، وحُصِرَ الخليفة المغدور في داره، كانت طبيعة مروان الحامية قد دفعته إلى معصية الخليفة، الذي طلب منه أن يجلس، ولا يخرج. فعصاه مروان وقال: **«والله لا تُقتل، ولا يُخلص إليك، وأنا أسمع الصوت»، ثم خرج إلى الناس بسيفه وهو يتمثل بالشعر:**

قد عَلمتْ ذاتُ القُرونِ الميلِ ... والكـفُّ والأنـاملِ الطّفولِ

أنّـــي أرُوعُ أوَّل الرعــيلِ ... بقارِهِ مِـثْل قَطَا الشَـليلِ[1]

ثم صاح من يبارز؟ وقد رفع أسفل درعه، فجعله في منطقته. فيثب إليه ابن النّباع فضربه ضربة على رقبته من خلفه فأثبته حتى سقط، فما ينبض منه عرق، فادخلته بيت فاطمة بنت أوس جدة إبراهيم بن العَدِي -وكانت أرضعت مروان وأرضعت له- فقالت: إن كنت إنما تريد قتل الرجل فقد قتل، وإن كنتَ تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح. قال: فكفَّ عنه، فما زالوا يشكرونها لها، فاستعملوا ابنها إبراهيم بعد»[2].

«فكانت الحميّة المروانية قد تناولت وحدها الزمان ووجد الناس فيها جسراً للعنف فعبروا عليه. فإذا الموقف في لحظات قليلات ينتكث فيقابل الكيد بالكيد، والصمام الذي حكم حتى الآن يفضاء الثوار يفسد فلا يمسكها شيء.

«الحماقة المروانية أجّجت النار النائمة تحت الرماد، حتى فتح على نفسه وصحبه باباً للفتنة ليس ثمة من يستطيع أن يسده اليوم، وانطلقت الجموع إليه مشتعلة النفوس تزأر

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣: ٤١٢، الغدير ٩: ٢٠١.(المحقق)

٢ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك: الجزء الرابع (المؤلف) وأنظر المصدر نفسه ٣: ٤١٣.(المحقق)

وتصخب.. وتنادت من كل جانب تطلب الثأر، وتطلب قبله الظفر..»[١].

«أما عثمان فقد أوشك صوته أن يضيع في ضجة المكان وهو يصيح بمواليه: «من **أغمد سيفه فهو حر أيها الناس.. نشدتكم الله.. من أغمد سيفه..»**[٢].

وكان التصعيد قد وصل إلى نتيجته القصوى التي سجّلت خاتمة حياة ثالث الخلفاء الراشدين بقتلة بشعة تنمُّ عما هو أكثر من الهمجية.

وثمة ممارسات مشبوهة خطيرة، كانت تعمد إلى تصعيد الفتنة وإيصالها إلى حدها الفاصل، وهي ممارسات تعقب كل جهد إصلاحي كان يبذله الخليفة عثمان، بدعم من علي بن أبي طالب والصالحين الأخيار، فتنسف تلك الممارسات خطوات الإصلاح المتقدمة، وتعيد الفتنة من جديد. وبصورة أكثر غلوائية.

من بين تلك الممارسات، كتابة رسالة مزورة بتوقيع خاتم الخليفة تدعو إلى قتل المصريين الناقمين والذين أرضاهم الخليفة فعادوا إلى مصر. جاء في تاريخ الطبري:

«... ثم رجع الوفد المصريون راضين، فبينا هم في الطريق إذا هم براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم ويتبيّنهم، قالوا له: ما لك؟ إن لك لأمراً! ما شأنك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه إلى عامله بمصر، أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

قال: فأقبلوا حتى قدموا المدينة، فأتوا علياً، فقالوا: ألم ترَ إلى عدو الله! إنه كتب فينا بكذا وكذا؛ وإن الله قد أحلَّ دمه، قم معنا إليه، قال: والله لا أقوم معكم، إلى أن قالوا: فلم كتبتَ إلينا؟ فقال: والله ما كتبتُ إليكم كتاباً قط؛ فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قال بعضهم لبعض: ألهذا تقاتلون، أو لهذا تغضبون.

قال: فانطلق علي، فخرج من المدينة إلى قرية. قال: فانطلقوا حتى دخلوا على عثمان، فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا! فقال: إنما هما اثنتان: أن تقيموا عليَّ رجلين من المسلمين، أو يميني بالله

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

٢ ـ لسان الميزان ٤: ١٢٦.(المحقق)

الذي لا إله إلّا هو ما كتبت ولا أمللْتُ ولا علمتُ. وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل، وقد يُنقش الخاتم على الخاتم. فقالوا: فقد والله أحلَّ الله دمك. ونقضت العهد والميثاق، فحاصروه»[١].

ويبدو من أخبار كتب التأريخ أن هناك رسالة مزورة أخرى: يذكر ابن قتيبة:

«ذكروا أن أهل مصر، جاءوا إلى المدينة، يشكون ابن أبي سرح، عاملهم، فكتب إليه عثمان كتاباً يُهدده فيه، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان، وضرب بعض من أتاه به من قبل عثمان من أهل مصر، حتى قتله[٢]!

«فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل، فنزلوا المسجد - مسجد رسول الله ﷺ - وشكوا إلى أصحاب رسول الله ﷺ في مواقيت الصلاة ما صنع بهم ابن أبي سرح.. فقال طلحة فتكلم بكلام شديد، وأرسلت عائشة إلى عثمان فقالت له: قد تقدم إليك أصحاب رسول الله ﷺ، وسألوك عزل هذا الرجل فأنصفهم من عاملك!

«ودخل عليه علي، وكان متكلم القوم، فقال له: إنما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادّعَوْا قِبَلَه دماً، فاعزله عنهم، واقضِ بينهم، فإن وجبَ لهم عليه حق، فأنصفهم منه..» فقال: اختاروا رجلاً أوليّه عليهم، فقالوا: استعمل محمد بن أبي بكر، نكتب عهده، وخرج معه عدد من

---

١ ـ أبوجعفر الطبري: تاريخ الأمم والملوك الجزء الرابع. (المؤلف) تاريخ الطبري ٣:٣٩١، مجمع الزوائد ٧:٢٢٩، المصنّف لابن شيبة ٨:٦٨٨. موارد الظمآن للهيثمي: ٥٤١، تاريخ خليفة بن خياط للعصفوري: ١٢٥، الثقات ٢:٢٥٩، تاريخ مدينة دمشق ٣٩:٣٢٤ / ٣٩: ٤١٨، تاريخ المدينة للنمري ٤:١١٥، البداية والنهاية ٧:١٩٥ و٢٠٨. (المحقق)

٢ ـ عبد الله بن سعد بن أبي سرح: كان أبوه من المنافقين. وأسلم عبد الله قبل الفتح، وكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدّ مشركاً، عاد إلى مكة يحدث قريشاً الكذب عن رسول الله ﷺ، ويقول: إني كنت أصرّف محمداً حيث أريد.. كان يُملي عليَّ: «عزيز حكيم» فأقول: «أوعليم حكيم»، فيقول: نعم، كلٌّ صواب! نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً...﴾ أهدر الرسول دمه يوم الفتح، وشفع له فيما بعد، أخوه بالرضاعة عثمان بن عفان، شفاعة الاستبقاء على حياته لا غير. (المؤلف). انظر الإمامة والسياسة ١:٥٥ تحقيق الشيري. (المحقق)

المهاجرين والأنصار، ينظرون فيما بين أبي سرح وأهل مصر!

«فخرج محمد ومن معه، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليالٍ في المدينة، إذا هم بغلام أسود على بعير، يخبط البعير، كأنه رجل يَطلب، أويُطلب، فقال له أصحاب محمد: ما قصتك؟ وما شأنك؟ كأنك طالب، أوهارب! فقال: أنا غلام أمير المؤمنين! وجهني إلى عامل مصر!

فقال له رجل: هذا عامل مصر معنا!

قال: ليس هذا أريد!

فأخبر محمد بأمره، فبعث في طلبه رجلاً، فجاء به إليه:

فقال له: غلام من أنت؟

فأقبل مرة: يقول أنا غلام مروان، ومرة يقول: أنا غلام أمير المؤمنين! حتى عرفه رجل أنه لعثمان!

فقال له محمد: إلى من أرسلك؟

قال: إلى عامل مصر!

قال: بماذا؟

قال: برسالة!

قال: أما معك كتاب؟

قال: لا.

ففتشوه، فلم يجدوا معه كتاباً!

وكانت معه إداوَة، قد يبست، فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج، فلم يخرج، فشقوا إداوته، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار، ثم فضَّ الكتاب بمحضر منهم، فقرأه، فإذا فيه: «إذا أتاك محمد بن أبي بكر، وفلان، وفلان، فاقتلهم، وأبطل كتابهم، وقرَّ على عملك، حتى يأتيك رأيي![1]

---

١ ـ الإمامة والسياسة ١:٥٦ تحقيق الشيري. (المحقق)

فلما رأوا الكتاب، فزعوا منه، ورجعوا إلى المدينة، وختم محمد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه، ودفعه إلى رجل منهم، ثم قدموا المدينة، فجمعوا طلحة والزبير وعلياً، وسعداً، ومن كان من أصحاب رسول الله، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبرهم بقصة الغلام، وأقرأهم الكتاب، فلم يبقَ أحد من أهل المدينة إلّا حَنَقَ على عثمان. وقام أصحاب النبيﷺ فلحقوا بمنازلهم، وحصر الناس عثمان، وأحاطوا به، ومنعوه الماء والخروج ومن كان معه، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر»[١].

ويقدم عبد الكريم الخطيب تعليقاً حاذقاً، قائلاً: «إنها فتنة تُحركها أيدٍ خفية، وتُلقي في النار الخامدة وقوداً، تنفخُ فيه بخبث ودهاء! وقصة الغلام – إن صَحَّت – كانت دليلاً على براءة عثمان، وعلى تلك النوايا السيئة، التي كانت تدبِّر الشر، وتبيت السوء، وتفسد ما بين المسلمين! وعثمان – فوق أنه أبعد من أن ينقض عهداً – يأبى عليه دينه أن يبيح دم مسلم، وقد آثر – رضي الله عنه – أن يلقى الله شهيداً، وأن ينظر إلى قاتليه بعينيه، دون أن يسمح لأحد بالدفاع عنه، وإراقة قطرة من دماء المسلمين من أجله. فكيف يطلب إلى ابن أبي السرح أن يقتل محمد بن أبي بكر وفلاناً.. من المسلمين؟

ثم هذا الغلام، الذي يعترض ركب محمد بن أبي بكر، ويتحكك بالناس، وكأنه يريد أن يقول لهم: إن في الأمر شيئاً أو إني أحمل سرّاً خطيراً، عليكم أن تكشفوه، وتعرفوه، ألا يدل بفعلاته تلك على أنه موعز إليه بما فعل، وأنه مطلوب منه أن يلعب تلك اللعبة، حتى يُعرف أمره، ويُعلم السرّ الذي بين يديه.. فيوقع الناس في فتنة، ويحدث من ورائها ما قد حدث!»[٢].

بصرف النظر عن تعدد الروايات، فإنها تتفق في أمر الرسالة[٣] وخطرها المفاجئ، في إفشال المصالحة، وتأجيج الفتنة.

ومن الواضح أن الخليفة لا علم له بالرسالة، كما أن ليست له مصلحة فيها، تُرى من

---

١ ـ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. (المؤلف)، الإمامة والسياسة ١:٥٦ تحقيق الشيري.(المحقق)

٢ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب. بقية النبوة وخاتم الخلاف. (المؤلف).

٣ ـ أو الرسالتين. (المؤلف)

هذا الذي يستطيع القيام بهذه الممارسة الخطيرة؟ بالتأكيد لا يقوى على فعل هذه الفعلة إلّا واحد من كبار الحاشية، ذلك لأن الثقة العالية في إنجاز الفعلة، وتدبيرها، والقدرة على اختيار غلام الخليفة، والجمل العائد له، وخاتم الخليفة، من إمكانات أحد كبار المقرّبين إلى الخليفة، ومن المسؤولين الكبار، وأوّل ما تتجه الشبهات إلى مروان بن الحكم بسبب ما يتمتع به من قدرات تنفيذية عالية، وكذلك بسبب انسجام مضمون الرسالة مع طبيعته الشخصية، ومع آرائه ومسلكه الخشن.

فإذا لم تكن الفعلة من ممارسته المباشرة، فإنها ـ بالأقل ـ من نتائج الجو الخاص المحيط بالخليفة، والذي كان مروان مسؤوله الأول، وهو بذلك ـ يتحمل مسؤولية الرسالة بصورة غير مباشرة.

وهناك رأي آخر، يرى أن معاوية بن أبي سفيان هو المدبّر الأساسي لهذا التدبير، وسواه، يقول عبد الكريم الخطيب: «**كان لمعاوية بن أبي سفيان تدبير كهذا التدبير للإيقاع بين أعدائه**»[١].

ويستند في رأيه إلى ما يقوله المبرد في كتابه «**الكامل**» للبرهنة على مسؤولية معاوية من خلال السوابق: «**وحُدّثتُ أن معاوية كان إذا أتاه عن بطريق من بطارقة الروم كيد للإسلام، احتال فأهدىٰ إليه، وكاتبه، حتى يغري به ملك الروم!**».

«فكانت رسله ـ أي رسل معاوية ـ تأتيه، فتخبره بأن هناك بطريقاً يؤذي الرسل ويطعن عليهم، ويسيء عشرتهم، فقال معاوية: أيُّ ما في عمل الإسلام أحبُّ إليه؟

فقيل له: الخِفاف الحُمر، ودُهن البان!

فألطفه بهما، حتى عُرفت رسله باعتياده.

ثم كتب (معاوية) كتاباً إليه، كأنه جواب منه! يقول فيه: إنه وثق بما وعده من نصره وخذلانه ملك الروم! وأمر الرسول بأن يتعرض للروم، حتى يضعوا يَدَهم على الكتاب!

---

١ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب. بقية النبوة وخاتم الخلافة.(المؤلف)

«فلما ذهبت رسل معاوية في أوقاتها ثم رجعت إليه، قال: ما حَدَثَ هناك؟ قالوا: فلان البطريق، رأيناه مقتولاً مصلوباً! فقال: وأنا أبو عبد الرحمن[١].

إن هذا الأسلوب البشع الذي لا يتورع عن تدمير البطارقة، أمر لا علاقة له بالإسلام، بل هو عداء صريح للإسلام وللإنسانية، وإنما هو نوع من (الوغادة) التي لا يهمها الإسلام وأي دين آخر بإزاء الأغراض السياسية الخاصة.

فهذا التدبير الذي يُقال إن معاوية قد اصطنعه مع البطريق حين أرسل بكتاب كأنه جواب على كتاب منه، وأمر حامل الكتاب بأن يحتال، لا لكي يصل الكتاب إلى البطريق، بل لكي يقع في يد رجال ملك الروم، وكأنه إنما غُلِب على أمره، وأنه انكشف منه السرُّ الذي كان معه نقول إن هذا التدبير هو من هذا التدبير نفسه، الذي اتخذ في شأن الكتاب المرسل إلى عامل مصر، مقصوداً به أن يقع بيد محمد بن أبي بكر ومن معه!

ولا نقول إن معاوية هو صاحب هذا التدبير... وإنّما الذي يمكن أن نقوله هنا، هو أن الذين دبّروا هذا الكيد في أيام عثمان كانوا بطانة لمعاوية، وأنهم هم الذين أشاروا على معاوية في شأن البطريق، بأن يسلك معه هذا المسلك الذي عرفوه، وعرفوا آثاره، مع عثمان ومحمد بن أبي بكر، وقد أفاد معاوية من مثل هذا الكيد في إفسادها ما بين علي ـ كرّم الله وجهه ـ وبين أهل العزم والنجدة من أصحابه»[٢].

ويُقدم «عبد الكريم الخطيب» حجة لاحقة سواء أنها تؤكد تضلّع معاوية في اتباع أسلوب الرسائل المزورة للإيقاع، أم أنها تعني إفادة معاوية من مثل هذا الأسلوب للمكايدة، يقول: «**وقد أفاد معاوية من مثل هذا الكيد في إفساد ما بين علي ـ كرّم الله وجهه ـ وبين أهل العزم والنجدة من أصحابه**».

«كان قيس بن سعد الأنصاري، من الأركان القوية، التي يستتند اليها الامام علي، في دفع الفتن الثائرة عليه. وقد ولّاه علي «مصر» وكان معاوية يحرص على أن يستميل إليه قيس بن

---

١ ـ المبرد: الكامل. (المؤلف)

٢ ـ عبد الكريم الخطيب: عليّ بن أبي طالب، بقية النبوة وخاتم الخلافة.(المؤلف)

سعد هذا، لما يعلم من مكانته في الأنصار، ولما اشتملت عليه نفسه من عظمة، قلَّ أن تجتمع في الرجال.. وقد استنفذ معاوية في ذلك جهده، فلم يبلغ من قيس شيئاً، بل كان في كل مرة يَجبَه معاوية، ويرّده ردّاً مرّاً قاسياً»[١].

فكانت لعبة الرسائل المزورة جاهزة، فكتب كتاباً منسوباً إلى قيس موجهاً إلى معاويه، يذكره الطبري:

بسم الله الرحمن الرحيم

«للأمير معاوية بن أبي سفيان.. من قيس بن سعد، سلام عليك.. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو..

أما بعد، فقد كان قتل عثمان حدثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرتُ لنفسي وديني، فلم أرَ أنه يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً، محرماً، برّاً تقيّاً.. فنستغفر الله عزّ وجلّ لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا.. ألا وإني قد ألقيت اليكم بالسّلم، وإني أجبتك إلى قتال قتلة عثمان، إمام الهدى المظلوم.. فعوّل عليَّ بما أحببت من الأموال والرجال، أعجله إليك إن شاء الله، والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته»[٢].

«وقد فعل هذا الكتاب المدسوس فعله، إذ كان من التدبير أن يقع الكتاب بيد علي، ليعلم منه خروج قيس عن طاعته، وولاءه لمعاوية، وبهذا استطاع معاوية أن يكيد لقيس، وأن يفسد ما بينه وبين علي!»[٣].

إن مغزى القصة المذكورة (أو القصتين!) واضح تماماً، فالخليفة عثمان الذي كان يتوصل إلى المصالحة وكسر شوكة الفتنة بالتفاوض السمح، وبالمعالجات الضرورية، كان يتعرض إلى ضغوط داخلية، ومناورات، يصل بعضها إلى مستوى المؤامرة.

وكان المعسكر المقابل، الناقم على الخليفة، يجمع الناقدين والناقمين، الثائرين

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس. (المؤلف)

٣ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب، بقية النبوة وخاتم الخلافة. (المؤلف)

والطامعين، ومما لا شك فيه أن أفراداً معينين من بطانة الحكم كانوا مثار النقمة بالدرجة الأولى، فتحمّل الخليفة وزر ذلك.

هنا، في إطار الملحمة السياسية، كان شخص معاوية بن أبي‌سفيان الوالي على بلاد الشام يتميز بخصوصية وضعه، فقد استطاع تكوين دولة شبه مستقلة، هي جزء من الدولة الإسلامية، لكنها متمتعة باستقلالية خاصه، وكانت الظروف قد أتاحت لمعاوية أن يوطّد مسؤوليته لا كعامل في بلاد الشام، بل كأمير.

وقد انتبه إلى ذلك عمر بن الخطاب نفسه، حين زار الشام، فرأى مظاهر الإمرة الكسروية بادية على معاوية، فقال حين رأى معاوية: هذا كسرى العرب! بعد أن تلقاه معاوية في موكب عظيم.

قال له: أنت صاحب الموكب العظيم؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين!

قال: مع ما يبلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك!

قال معاوية: مع ما يبلغك من ذلك.

قال عمر: ولم تفعل هذا؟

قال معاوية: نحن بأرضٍ جواسيس العدو بها كثيرة فيجب أن نُظهر من عز السلطان ما نرهبهم به، فإن أمرتني فعلت؛ وإن نهيتني انتهيت.

قال عمر: لئن كان ما قلت حقاً، إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب!

قال معاوية: فمرني يا أمير المؤمنين!

قال عمر: لا آمرك ولا أنهاك.

وكان عبد الرحمن بن عوف حاضراً فقال: **«يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه»، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جشمْناه ما جشمناه»**[1].

---

١ ـ أنظر شرح نهج البلاغة ٨: ٣٠٠، تاريخ مدينة دمشق ٥٩: ١١٢، سير أعلام النبلاء ٣: ١٣٣، البداية والنهاية ٨: ١٣٣. (المحقق)

إن السيادة الكسروية كانت تنمو مع تاريخ معاوية السياسي، وهي ذات أصل طبقي أرستقراطي قرشي، وهو أصل متطور في استقلاليته الأولى في حكم الشام التي منحته فرصة مزدوجة لتعزيز تلك السيادة المستقلة. وهي فرصة جغرافية المكان.

إن بعد الشام عن المدينة عاصمة الدولة الإسلامية أتاح له تكوين سيادته بتؤدة، وثقة، واطمئنان، بعيداً عن رقابة الخليفة، والرعيل الأول من المسلمين، الذين كانوا ينفرون - أشد النفرة - من الوجاهة الارستقراطية. وإن قرب الشام من بلاد الروم، واستيحاءها من عادات الروم وتقاليدهم في تفخيم ملوكهم، ما يسهم في تشجيع أجواء مناسبة لتلك العادات والتقاليد قد وفّر استعدادات مماثلة للنظر إلى الإمارة بما تستحق من تفخيم، خاصة وأن الشام كانت لاتزال تحمل بعض الآثار الثقافية الباقية من الروم منذ زمن سيطرتهم على الشام.

وفي مرحلة الخليفة عثمان بن عفان تعزّزت سيادة معاوية بن أبي سفيان في بلاد الشام، وكان رجلاً يسعى إلى السيادة منذ نعومة أظفاره بصمت. وقد خَبر - بسبب ذلك المسعى العجيب والدؤوب والمثمر - جميع أنواع الحيل السياسية، والتكتيك.

هنا، يمكن تلمّس مدى مصداقية معاوية في رفعه شعار الثأر لدم عثمان بن عفان الخليفة المقتول.

إن علاقة القرابة الوطيدة لم تكن قليلة القيمة في نظر معاوية، لكن هذه العلاقة وسواها لم تكن منظورة من قبل معاوية إلّا من زاوية حرصه على السيادة والملك. وبذلك لم يكن معاوية ضالاً عن مبادئه الشخصية، ونهجه في تطوير حكمه. لقد أجمع الثقات على أن طلب معاوية من علي بن أبي طالب تسليمه قتلة عثمان - وهم كثرة كاثرة تنطوي على مجهولين انطواءها على معلومين! - وهو غير مبايع له أصلاً، نوع من التعجيز والإحراج، والتمهيد للثورة المضادة. وإذا كان مفيداً إلقاء الضوء على الصفحات الماضية لمعرفة حقيقة الصفحات التالية في الممارسة السياسية، فإن هناك حالتين - لمعاوية - تكشفان عن طبيعة ولاء معاوية لعثمان:

الأولى: عدم نجدته لعثمان حين ألمّ به الناقمون قبل الحصار وأثناءه. ولقد ترك معاوية الخليفة مهدداً، دون أن يفعل له شيئاً، إنما قال لبعض المهاجرين (ومن بينهم علي بن أبي طالب وطلحة والزبير):

«إني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكاتفوه، تكونوا منه بذلك..»[1].

وكان ذلك أضعف موقفاً مُقاساً إلى ما يتطلبه الولاء من أمانة والتزام. وحين اشتدت الازمة، كتب عثمان بن عفان إلى معاوية بن أبي سفيان، وهو بالشام قائلاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«أما بعد فإنّ أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة، ونكثوا البيعة، فابعث إليَّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول»[2].

فلما جاء معاوية الكتاب تربّص به، وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله ﷺ، وقد علم اجتماعهم، فلما أبطأ أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز، وإلى أهل الشام يستنفرهم ويعظّم حقه عليهم، ويذكر الخلفاء وما أمر الله عزّوجلّ من طاعتهم ومناصحتهم ووعدهم أن ينجدهم جند أوبطانة دون الناس، وذكّرهم بلاءه عندهم وصنيعه إليهم، فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل، فإن القوم مُعاجليّ..»[3].

وكان أن قُتِل الخليفة، ومعاوية ينتظر الأخبار.

وقد عرف معاوية بدهائه السياسي أن الأزمة كانت في غليانها الشديد موصلة إلى نتيجتها المحتومة، وقد كان مقتل عثمان ينفعه سياسياً أكثر من بقائه حيّاً.

وبهذه البصيرة السياسية العالية كان ينظر إلى مَدياتٍ أبعد، فلايحشر نفسه في التفاصيل التي يراها بسيطة، لأنه كان يتعامل مع الأحداث (الحالية)، بالقدر الذي يركز

---

١ ـ أنظر تاريخ الطبري ٣: ٥٥٠، البداية والنهاية ٧: ٢٨٠.(المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٥: ١١٥ ـ ١١٦ / ٣: ٤٠٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٥٢، الكامل لابن الأثير ٥: ٦٧، الغدير ٩: ١٩٠.(المحقق)

٣ـ تاريخ الطبري ٣: ٤٠٢. (المحقق)

فيه على الأحداث (القادمة) التي تخدم أهدافه الخاصة.

وفي الوقت الذي كان فيه المهاجرون والأنصار، مستغرقين في الحوارات الساخنة حيناً، والهادئة حيناً آخر، بما كانت تحمله تلك الحوارات من أزمات وفتن، كان معاوية بن أبي سفيان ينصب لنفسه مكاناً (من عل) ليرى ويسمع تلك الاحتدامات دون أن يسمح لنفسه بالغوص فيها والانجرار إلى مجرياتها، مثل كثيرين، فتوفرت له بذلك إمكانية تحديد النقط السياسية المهمة، والخطوط التي يربط بها تلك النقط، وهو في الشام.

لقد توفّرت له دراسة الواقع السياسي المتناقض والمحتدم، في زمن الخليفة عثمان، فكان ينتظر تصاعد الأزمة السياسية، بعد مقتل الخليفة، انتظار من يعدّ المتواليات الحسابية. وكانت فطنته السياسية قد أوصلته إلى التوقّعات عن الانفجار القادم، فهو مدركٌ أن العلاقة بين علي بن أبي طالب، وعائشة، وطلحة، والزبير، سوف تنفجر، في إطار الصراع حول الخلافة، وهو مدرك أن ثمة عوامل أساسية للانفجار لا يمكن إبطال فعاليتها، وهي مدعومة بعوامل ثانوية لا تقل عنها شأناً.

فكان السياسي الأريب يتعامل مع الزمن ببرودة الداهية الذي ينتظر ما تأكله نيران الانفجار من قوى مُتناحرة، موسعاً بذلك نطاق ممارسته، بكيفيات ملائمة، باتجاه تصفية القوى التي تحول دون تحقيقه سيادة المُلك مستقبلاً.

الثانية: فهي في تعامله مع عمرو بن العاص. فالمعلوم أن معاوية عقد تحالفاً مع عمرو بن العاص، واعداً إياه بمكافأة ثمينة: أن يعقد له الولاية في مصر(1).

---

١ ـ أنظر نهج البلاغة شرح محمّد عبده ١:١٤٨، أنساب الأشراف ١:٤٩٨، نهج السعادة ٢:٦٨، شرح نهج البلاغة ٢:٧٩ / ١٦: ١٦٠، الطبقات الكبرى ٤:٢٥٨، تاريخ مدينة دمشق ٤٦:١٧٤، سير أعلام النبلاء ٣:٧٣ / ١٤:٢٢٤، أنساب الأشراف : ٢٨٣، العقد الفريد ٣: ١١٣، بحار الأنوار ٣٢:٢٢٢، وعمرو بن العاص... لما أتاه كتاب معاوية وهو في فلسطين، دعا أبنيه عبد الله ومحمّداً فأستشارهم، فقال له عبد الله : أيها الشيخ ان رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وهو راض عنك ومات أبو بكر

لو كان معاوية أميناً في ولائه لعثمان بن عفان، لكان جديراً به أن يتصدى لعمرو بن العاص الذي أعلن عداءه الصريح للخليفة عثمان وبالغ فيه، وسعى من أجله سعي الموتور، الحاقد، المحرّض وسبق ذكر بعض البيّنات التي تكشف عن نوع ذلك العداء ومداه.

لو كان معاوية يتصرف بدافع الولاء لعثمان بن عفان، لكان يحسب عمرو بن العاص خصماً له. ولكن، نظراً لأن معاوية كان يتصرف بدافع المصلحة السياسية، فإن تحالفه مع عمرو بن العاص كان موقفاً لاتفريط فيه رغم معرفته التامة بطبيعة عمرو بن العاص الانتهازية، والنفعيّة.

ولا بأس من التذكير – هنا – بأن جذر عمرو بن العاص ليس كثير الاختلاف عن جذر الطلقاء. فقد كان رسول قريش إلى ملك الحبشة لتحريضه ضد المسلمين الأوائل المهاجرين إلى هناك. وجاء إسلامه متأخراً، إذ أسلم قبل الفتح بأشهر[1].

وتجسّد تحالف معاوية مع عمرو بن العاص وفقاً للمصالح المشتركة، وبضوء منطلقات إن لم تكن مشتركة، فهي متقاربة فكان عمرو بن العاص مع معاوية في حرب صفين، مُخططاً، وموجهاً، وهو صاحب الخدعة الشهيرة، خدعة التحكيم، والتي أنقذت جيش معاوية من الهزيمة المحققة[2] عمرو بن العاص، كان أبوه (**العاص**) من المستهزئين (**الغمّازين اللمّازين**) بالرسول، وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ**

وعمر وهما عنك راضيان، فأياك ان تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها من معاوية، فتكب كباً في النار (البلاذري ١:٤٣٤ عن المدائني، ونهج السعادة ٢:٦٨).

واللطيف في الأمر، ان ولده محمّد وبعد ان خرجا من معاوية ـ على الاتفاق على ولاية مصر ـ قال لأبيه: وما مصر في سلطان العرب، فقال ابن العاص لابنه: لا أشبع الله بطن من لم تشبعه مصر. (أنساب الأشراف: ٢٨٣). (المحقق)

١ ـ شذرات الذهب ١:٥٣، أُسد الغابة ٤:١١٦، المستدرك ٣:٤٥٢ و٤٥٤، أحاديث أم المؤمنين عائشة للعسكري (معاصر) ١:١٠١، منتهى المطلب للعلّامة الحلي ١:١٤٩. (المحقق)

٢ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب، بقية النبوة وخاتم الخلافة. (المؤلف)

آلأَبْتَرُ﴾[١].

وأمه النابغة بنت حرملة العنزي، سُبيت من بني جيلان بن عتيك، وبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم انتقلت إلى عبد الله بن جُدعان، ومنه إلى العاص، فولدت له عمراً[٢].

أسلم عمرو سنة ثمانٍ من الهجرة، مع خالد بن الوليد، قبل الفتح بستة أشهر[٣].

وثمة حقيقة واقعية ذات أهمية خاصة - بالتأكيد - وهي أن معاوية بن أبي سفيان بعد أن استولى على السلطة، كفّ عن رفع شعار القصاص من قتلة عثمان.

و«لو كان دم عثمان هو الذي حرَّك الثائرين على علي، لكان معاوية بعد أن حارب علياً تحت راية قميص عثمان، وبعد أن استولى على الحكم والسلطان، قد بادر بالقصاص من القتلة، وشفى ما في نفسه، بالثأر ممن وتروه بابن عمه. ولكن معاوية لم يفكر في هذا ولم يلتفت إليه... وكأن عثمان لم يُقتل!»[٤].

يقول صاحب العقد الفريد:

«قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة، فدخل بيت عثمان بن عفان، فصاحت عائشة ابنة عثمان، وبكت، ونادت أباها: واعثماناه... تحرّض بذلك معاوية على الطلب بدمه، والقصاص من قاتليه!

«فقال معاوية: يا ابنة أخي.. إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحت غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحت حقد! ومع كل إنسان سيفه، ويرى موقع أصحابه، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون الدائرة أم لنا؟

---

١ ـ سورة الكوثر: الآية ٣. (المحقق)

٢ ـ أُسد الغابة ٤:٨٣ و١١٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٢:١٣٦، المستدرك ٣:٤٥٣. (المحقق)

٣ ـ أُسد الغابة ٤:١١٦، المستدرك ٣:٤٥٤، الموطأ ١:٢٣ حديث ١٤، المجموع ١:١٧٣ و١٧٤. (المحقق)

٤ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب. بقية النبوة وخاتم الخلافة. (المؤلف)

ولئن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين، خير من أن تكون امرأة من عُرض الناس!»[١].

وهكذا يسوّي معاوية الحساب في دم عثمان!

حتى ابنة الخليفة يقودها إلى الرضا عن مقتل أبيها، وترك المطالبة بدمه، مادامت الخلافة قد عادت إلى قومها بني أمية، وإنه لا ضير عليها أن تكون ابنة عم الخليفة، بعد أن كانت ابنة الخليفة[٢].

«على الخلافة إذن يختلف القوم، ومن أجلها يقتتلون... أما دم عثمان فلم يكن إلّا ذريعة يتذرّع بها إلى هذا الصراع، الذي لابد أن يتكيء إلى سبب، ولم يكن ثمة من سبب أقوى من المطالبة بدم الخليفة الشهيد.

وأكثر من هذا...

فإنه لم يكن الطلب بدم عثمان مجرد دعوة إلى القصاص من قتلته، ولكن كان دعوة إلى الثأر له!! والقصاص شيء، والثأر شيء آخر!

القصاص... عن قضاء يُردّ الأمر فيه إلى حكم الله، وإلى شريعة الله!

والثأر... عن انتقام يُحتكم فيه إلى عصبية الجاهلية، وشريعة الجاهلية، وقد جرت كلمة «**الثأر**» لدم عثمان منذ الأيام الأولى لخلافة علي[٣].

وقد كان علي بن أبي طالب يدين أطروحة الثأر قائلاً: «**هذا الأمر أمر جاهلية**». وتؤكد الوقائع السياسية، أن علياً بن أبي طالب، لم يجد كل ذلك العداء، وكل تلك المجابهة، باسم دم عثمان، إلّا بسبب قبوله البيعة بالخلافة. ولولا ذلك، لما كان أحد يجرؤ على النيل منه واتّهامه بدم عثمان، لأن الحقائق كانت واضحة في نظر جميع المسلمين، وجميعها تشير إلى براءة علي من دم عثمان، وبالعكس من ذلك كان أقرب إلى عثمان

---

١ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد.(المؤلف) وأنظر تاريخ الطبري ٦:١٣٥، تاريخ ابن الأثير ٣:٢٠١، العقد الفريد لابن عبد ربه ٣:١٢٦ ط مصر، تاريخ ابن كثير ٨:١٣٢، البيان والتبيين للجاحظ ٢:١٨٢.(المحقق)

٢ ـ المصدر السابق. (المؤلف)

٣ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب. بقية النبوة وخاتم الخلافة. (المؤلف)

من سواه، لكن قربه منه كان قرب الناصح الأمين، والناقد الصريح.

قال ابن سيرين: «ما علمتُ أن علياً اتُّهم بدم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتّهمه الناس»[١].

«فلما أصبح علي خليفة على المسلمين، تعلّق به دم عثمان!

فلما انتظر القصاص حتى تهدأ الثورة، وتسكن النفوس، وتتضح له الرؤية، ويملأ يده من سلطان الخلافة – لم يكن في ذلك مقنع أورضى، لمن نزعوا إلى خلاف الخليفة، وطلبوا المعاذير للخروج عليه، ونصب الحرب له. ولو أن علياً – كرّم الله وجهه – لم يكن الخليفة بعد عثمان، لما وقع في نفس أحد، من بني أمية أوغيرهم، أن لعلي شأناً في أمر عثمان...»[٢].

القاعدة المادية للبناء السياسي في الشام

إن المكانة السياسية لإمارة معاوية بن أبي سفيان داخل الدولة الإسلامية، كانت تتّسم بشبه استقلالية، يمكن القول عنها بأنها استقلالية فعلاً.

ليس معنى ذلك أنه مقطوع الصلة بمركز الخلافة الإسلامية، مستقل عنه، بل إنما كان يتمتع بعلاقة فريدة، فهو – في علاقته بالخلافة – ليس خاضعاً مثل سواه للمساءلة والمحاسبة، فكان أن حاز – في ذلك – مزايا الاستقلالية، وحرية التصرف النسبي (الواسعة)، لكنه، من الجانب الآخر كان يحظى بدعم الخلافة دعماً سياسياً واسعاً.

ولم يكن ذلك الدعم مجرد صورة من صور حسن الحظ، بل كان مزيجاً من النجاحات والمكافآت التي أحرزها بسبب ذلك، وإضافة إلى ما لحسن الحظ من دور فيه.

وقد استطاع معاوية تدعيم مركزه، بفعل العوامل المتوفرة له، وبإسناد مركز الخلافة الإسلامية، فقد بدأ والياً للخليفة على دمشق في زمن عمر بن الخطاب، ثم أصبح والياً

---

١ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد. (المؤلف) وأنظر العقد الفريد ٤: ٣٠٥، المصنّف لابن شيبة الكوفي ٧: ٢٧٩. (المحقق)

٢ ـ عبد الكريم الخطيب: علي بن أبي طالب. بقية النبوة وخاتم الخلافة. (المؤلف)

على الأردن بعد وفاة والي الخليفة عليها (يزيد بن أبي سفيان)، ثم ضمَّ إلى الولاية فلسطين بعد وفاة عاملها عبد الرحمن بن علقمة الكناني، وحين مرض عمير بن سعد الأنصاري العامل على حمص، ضُمّت حمص إلى ولاية معاوية، الذي أصبح والياً على أرض الشام كلها. وكان ضم فلسطين وحمص إلى ولاية معاوية في زمن الخليفة عثمان استمراراً لنهج عمر بن الخطاب في احتضان معاوية، قد وفّر لمعاوية سلطاناً سياسياً واسعاً، وممتازاً، لا يُقارن به سلطان أي عامل آخر في أي مصر من الوهلة الأولى على القوة العسكرية، بفعل طبيعة الاندفاع الإسلامي (العسكري) إلى الشام، وبمواجهة الروم، ومواصلة الفتوحات الإسلامية.

فكانت (الأجناد) الأربعة التي عسكرت في دمشق، والأردن، وحمص، وفلسطين، والتي تمركزت بيد معاوية، قوة عسكرية منظمة، متميّزة عن سواها في الدولة الإسلامية.

بكلمة ثانية فإن الجيوش التي كانت بقيادة معاوية كانت أقوى الجيوش العربية وأكثرها تنظيماً وحيوية.

واستند السلطان السياسي والعسكري لمعاوية على إمكانات مالية واقتصادية مُتنامية، أطلقتها الأعمال العسكرية، والغزوات الكثيرة التي وفّرت لمعاوية الغنائم الكثيرة والفيء الكبير الذي كان يُلبّي حاجات معاوية وبناءه السياسي والعسكري، ويُقدّم للخليفة أسباب الرضا.

ولقد استطاع معاوية بتلك المكاسب الكبيرة، حماية الثغور البرّية، وتقوية نفوذ الدولة الإسلامية، مثلما استطاع كسب الجيش والناس معاً. لقد وضع كل دهائه في العناية باثنين: (الجيش) و(بيت المال) فتمكن من تأسيس بناء عسكري - اقتصادي هو القاعدة المادية لملوكيته القادمة.

و«ليس من شك في أن عثمان هو الذي مهّد لمعاوية ما أُتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان وتثبيتها في بني أمية. فعثمان هو الذي وسّع على معاوية في الولاية، فضمّ إليه

فلسطين وحمص، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادةالأجناد الأربعة، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين، ثم مدّ له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر. فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عمداً وأقواهم جنداً وأملكهم لقلب رعيته»[١].

ويوضح د. طه حسين رأيه قائلاً:

«وقد كان عثمان يستطيع، لو أراد أن يحتفظ بسيرة عمر، أن يقرّ معاوية على دمشق والأردن، ويحتفظ بحمص وفلسطين ولايتين تتبعان المدينة مباشرة، ولو قد فعل ذلك لاحتفظ بسيرة عمر أولاً، ولأتاح للنابهين من شيوخ الصحابة وشباب العرب أعمالاً تحول بينهم وبين الفراغ، وتحول بينهم وبين السخط، وتحول بينهم وبين الغضب والثورة أوالتحريض على الثورة، ولو قد فعل ذلك لحال بين معاوية وبين ما أقدم عليه من الاستئثار حين أضرمت نار الفتنة. ولأتاح للمسلمين أن يحتفظوا بالأمر شورى بينهم، ولكن هذا المُلك الضخم الواسع المتصل مكّن لمعاوية في الأرض، ويسّرَ له أن يرسل إلى مصر من يقطعها عن عاصمة الخلافة، وأن يرسل إلى الحجاز ثم إلى بلاد العرب من يجتازها من دون علي، وأن ينظر علي ذات يوم فإذا معاوية قد استأثر من دونه بخير ما في الدولة من الأمصار والأقاليم، وليس لذلك مصدر إلّا مهارة معاوية أولاً، وضخامة ولايته ثانياً»[٢].

لذلك كان معاوية يُوازن مسألة (الولاء) لعثمان موازنة دقيقة، بالقدر الذي ينتفع منها انتفاعاً سياسياً يخدم خطته المحبوكة جيداً. وكان من غير المنطقي – بالنسبة إليه – وهو يرى اتساع أبعاد ملكه، أن يخوض مغامرة إنقاذ عثمان، وتعريض (ملكه) للخطر. كذلك، كان يرى ببصيرته الثاقبة أنه يستطيع دفع حكمه من درجة (الوالي) العامل للخليفة إلى (الخليفة)، وتأسيس حكم أموي صرف، ينتقل وراثياً إلى أبنائه وأحفاده.

---

١ ـ د. طه حسين: الخلفاء الراشدون – المجلد الرابع (المؤلف) والمصدر نفسه: ٣١٥. (المحقق)

٢ ـ د. طه حسين: الخلفاء والراشدون – المجلد الرابع. (المؤلف) والمصدر نفسه: ٣١٥ ـ ٣١٦. (المحقق)

وبدهائه، كان يرى أن الحمية لمساعدة عثمان قد تعني الخسران، فاختار التريّث، وانتظار ما تُسفر عنه المأساة الدامية كي يُمارس دهاءه.

ولا يمكن – من وجهة نظر موضوعية – ايلاء العوامل الفردية أهمية أكبر من وزنها الواقعي. فدهاء معاوية – وهو العامل الذاتي – لم يكتسب القدرة على التحرّك والفعل، إلّا ضمن شروط موضوعية أساسية.

وقد كان نمو شخصية معاوية، يحصل في سياق النمو الرأسمالي الذي خلق انقلاباً اقتصادياً مفاجئاً للمسلمين المؤمنين، في الحجاز وفي الأمصار الإسلامية المختلفة. (وهو نمو رأسمالي بمواصفات المرحلة وشروطها طبعا).

ومع أن ظاهرة النمو الرأسمالي هذه كانت عامة، وشاملة، فإنها جرت في الشام على وتيرة مخالفة للوتيرة التي جرت عليها في المدينة ومكة وفي البصرة والكوفة.

في الشام كانت الظاهرة أنموذجاً لتطوّر رأسمالي أولي منظّم من أعلى مستوى في قيادة الدولة إلى المراتب الدنيا في هيكلها.

وكان وعي معاوية يقود بناء الظاهرة، وتتجاوب معه الشروط السائدة للتطور السياسي والعسكري والاقتصادي، في حين كان التطور المماثل في المدينة والأمصار الإسلامية يتعرض إلى الرفض والقبول من قبل تيارات اجتماعية وفكرية متباينة. فهناك من يدين الظاهرة الرأسمالية المتنامية، وهناك من يندمج بها.

وبوجه كل من امتلك الاقطاعات، والقصور، والأموال، والذهب، والفضة، كان يقف العديد من الرافضين، والناقمين.

كما أن معسكر الرفض ليس متجانساً، فهناك رفض المؤمنين الذين يتصدّون للظاهرة بمبادىء الإسلام، وبالنهج المحمدي الذي لايزال تمتلىء به عقول الأحياء من أصحاب الرسول وقلوبهم، وكبار المهاجرين والأنصار، والذي يُدوّي به الرأي الكريم، وأحاديث النبي، وأخبار عدل الخلفاء الراشدين.

وهؤلاء المؤمنون كانوا – أيضاً – على مراتب، أعلاها مرتبة أبي ذر الغفاري

الصحابي الجليل، والزاهد الأصلي، والذي كان يصرخ محذراً، مردداً كلمات الله عن سوء منقلب الذين يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقون في سبيل الله، ومن بينهم صحابيون آثروا الصمت لأنهم كانوا يحدسون خطورة الفتنة. هنا، تظهر أهمية ما تعرض له أبو ذر الغفاري من مأساة[١].

القصة المفجعة لأبي ذر الغفاري

إن القصة المفجعة لأبي ذر الغفاري، كانت وجهاً بارزاً لطبيعة الصراع الناشب بين الاتجاه العقائدي الإسلامي، والاتجاه السلطوي الجديد. وقد دخلت شخصية أبي ذر في الصراع المذكور مدعومة من جمهرة المسلمين والعبّاد، والزهّاد، والقرّاء، فيما عدا الذين استطاعت السلطة كسب ودّهم.

وكان أن استدعاه عثمان بن عفان يوماً فقال له:

- إنتهِ عمّا بلغني عنك!

- وما بلغك عني يا أمير المؤمنين؟!

- بلغني أنك تحرّض الناس عليَّ!

- وكيف ذلك؟

- إنك لا تقرأ في المسجد إلّا ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ...** ﴾.

- أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله؟ وينهاني عن عيب من ترك أمر الله؟ فوالله، لأن أرضي الله بسخط عثمان، أحبُّ إليَّ وخير من أن أسخط الله برضاه..»[٢].

---

١ ـ أبو ذر الغفاري هو جندب من جنادة. (المؤلف)

٢ ـ الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي (المتوفي ٣٥٢ هـ) ١:٥٥.

وأبو ذر هو جندب بن جنادة الصحابي المشهور الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

وقال صلى الله عليه وآله: «أبو ذر في أُمّتي شبيه عيسى بن مريم في زهده وورعه».

واحتدم الأمر، حتى وصل إلى الانفجار، فطلب الخليفة عثمان من أبي ذر الذهاب إلى الشام، حتى يتولى أمره معاوية بن أبي سفيان، بدهائه وبشدّته.

لكن أبا ذر لم يتوقّف عن قراءة: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ...**﴾[1].

غير أن معاوية لم يُعالج الغضب بالثورة، وكان لديه رصيد من الخطط والحيل البارعة، فارتأى أن يتوجه إلى الفتح، فنادى أحد غلمانه: ادعُ أبا ذر..

ويجيء أبو ذر وفي خاطره أن معاوية سيحاول أن يصب على ضرام ثورته ركاماً من التهديد والوعيد، فيتهيّأ لحوار هادىء رزين. وما إن يستقر المقام بأبي ذر حتى يتوجه معاوية إلى من في مجلسه قائلاً: «كتبتُ إلى عمر في شأن فتح قبرص، فأبى، ولقد عُدت وألححتُ على عثمان في فتحها، فأجابني: «**على خيار الناس، وطوعهم**»، ثم قال: والأمر الآن إليكم فاختاروا ما ترون» كان في المجلس من صحابة الرسول ﷺ: عبادة بن الصامت، وشدّاد بن أوس الخزرجي، وأبو الدرداء عويمر بن مالك الخزرجي وغيرهم. ويصمت الجميع..

ومن سكينة الصمت ينبثق صوت أبي ذرّ فيقول: «**رباط يوم في سبيل الله، خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل، لقد دُعينا إلى الجهاد في سبيل الله، فما علينا إلّا تلبية النداء**».

ويضحك معاوية في سرّه.

ويسرع أبو ذرّ إلى الالتحاق بالجيش، ومعه آلة حربه[2] كان الهدف واضحاً أمام أبي

أخرجه عثمان من المدينة إلى الشام فجعل يذكر هناك مساوىء معاوية ومخازيه ويبين ما جاء به معاوية من البدع، فطلب معاوية إلى عثمان استرداد أبي ذر من الشام، فأمره عثمان بالرجوع إلى المدينة ثمّ نفاه إلى الربذة، فمات فيها عام ٣١ أو ٣٢ هـ. وصلّى عليه عبد الله بن مسعود مع نفر من أصحابه وكانوا مقبلين من الكوفة. (المحقق)

١ ـ القرآن الكريم: سورة التوبة، ٢٥ (المؤلف) والصحيح سورة التوبة: الآية ٣٤ ـ ٣٥. (المحقق)

٢ ـ الطبري: تاريخ الامم والملوك، الجزء الخامس. (المؤلف)

ذرّ، فهو ثائر متمرد على السلطة الحاكمة من أجل إنصاف المعذّبين في الأرض. وإذا هو ترك قيادة الثورة حيناً من الزمن، فإنما يتركها ليذهب إلى حرب تنصف المحرومين هناك، وتجعل كلمة الله هي العليا.

وكان هدف معاوية واضحاً أيضاً.. إنه يرمي إلى التخلّص من أبي ذر بوسيلة لا تلقي دمه في عنقه(١).

ولكن أبا ذرّ يعود حتى من الحرب الثانية التي دعاه معاوية إليها عام (٢٧ هـ) لغزو قبرص.. يعود معصوب الجبين بأوراق الغار، ليتولى بعث الحياة في ثورته الجماهيرية(٢).

أخذ يُصارع من أجل أفكار الإسلام، وكان معاوية يأكله الغضب. قال أبو ذرّ مرة:

- يا معاوية! ما يدعوك أن تُسمي مال المسلمين مال الله؟

- يرحمك الله يا أبا ذرّ، ألسنا عباد الله والمال مال الله؟

- فلا تقله، ولكن قل: مالُ المسلمين، إن أموال الفيء من حقوق المسلمين، وليس لك أن تختزن منها شيئاً.. ولكنك خالفت الله ورسوله، وكنزتها لك ولبني أميّة..

- يا أبا ذرّ! إني أدّخر المال لأصرفه في وجوه المصالح العامة، وإني لا أبخل المال على المسلمين...

- يا معاوية! لقد أغنيت الغني، وأفقرت الفقير.

- يا أبا ذرّ ارجع عما أنت فيه، فإنك تقود الناس إلى فتنة عمياء، لا يعلم مداها إلّا علّام الغيوب.

- والذي نفسي بيده، لا أرجع حتى يبذل الأغنياء المعروف... وحتى توزّع الأموال على الناس كافة».

واتبع معاوية حيلة أخرى: إرسال صرّة النقود إلى أبي ذرّ، فباءت الحيلة بالفشل.

---

١ ـ محمد علي أسبر: هل قرأت أبا ذر؟ (المؤلف)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

كان أبو ذرّ يسير إلى غايته، وكان معاوية سائراً على نهجه، فلم يتورّع عن القول، وهو يخطب في المسجد الكبير:

«... إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، فمن شئنا أعطيناه، ومن شئنا حرمناه!»[١].

وتملأ خطب أبي ذر وحواراته الأجواء، ويختنق معاوية، من هذا العبء، وهو يريد تأسيس سلطته في الشام بعيداً عن متاعب كهذه، رآها جديرة بالمدينة لا بالشام. فما همُّه، أن تحترق المدينة، أوسواها؟ فالمهم أن يظل صفو السلطة له، في الشام كـاملاً. فكتب إلى عثمان محرضاً:

«إن أبا ذرّ يُصبح إذا أصبح، ويُمسي إذا أمسى، وجماعة من الناس كثيرة، عنده، وقد ضيّق علي وأعضل بي، ولا آمن أن يُفسدهم عليك، فإن كان لك بأهل الشام حاجة، فاحمله، فإنه قد صَرّفَ قلوبهم عنك، وبَغّضهم بك، وهم لا يستفتون غيره، ولا يقضي بينهم إلّا هو!».

وأتت الرسالة أكلها، فجاء جواب عثمان:

«إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها، ولم يبقَ إلّا أن تثب، فلا تنكأ الجرح، وجَهِّز أبا ذرّ إليَّ على أغلظ مركب وأوعره ثم أبعث به مع مَن ينخش به نخشاً عنيفاً حتى يقدم عليَّ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت، فإنما تمسك ما استمسكت»[٢].

وتتفاقم الأزمة في المدينة، ويُحاكم الخليفة عثمان أبا ذرّ، ثم ينتهي الأمر بنفيه إلى الربذة، وهو في آخر شيخوخته[٣].

وكانت المقاطعة قراراً، فلم يُسمح لأحد أن يزوره أويودّعه، لكن علياً بن أبي طالب ودّعه، ومعه ولداه الحسن والحسين، وأخوه عقيل وبعض بني هاشم، وكذلك عمّار بن

---

١ ـ تاريخ مدينة دمشق ٥٩:١٦٨، ميزان الاعتدال ٢:٣٢٩، النصائح الكافية : ١٣١، مجمع الزوائد ٥:٢٣٦، مسند أبي يعلى الموصلي ١٣:٣٧٤، المعجم الكبير للطبراني ١٩:٣٩٤. (المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٣:٣٣٥، معالم المدرستين ١:٢٨٠ عن الطبري. (المحقق)

٣ ـ الاستغاثة ١:٥٥، سبل الهدى والرشاد ١٠:١٠٢، معجم البلدان ٤:٣٩٨، كمال الزيارات لابـن قولوية : ١٥٣، الطرائف : ٤٩٦، مروج الذهب ٢:٣٤١، شرح نهج البلاغة ٣:٥٢، كتاب الأربعين للقمي : ٥٨٦.(المحقق)

ياسر(١).

شاء مروان بن الحكم أن يطبّق أمر المقاطعة والمنع، فقال للحسن، وكان إلى جوار أبي ذرّ يُحادثه في الركب:

«إيه يا حسن.. ألا تعلم أن أمير المؤمنين نَهى عن كلام هذا الرجل؟ ألا إن كنت لا تعلم فاعلم ذلك.

فما كان من علي إلّا أن ضرب بسوطه رأس دابّة مروان قائلاً له: تَنَحَّ أخزاك الله – إلى النار..».

وحين حانت ساعة الوداع، تحدّث علي مخاطباً أبا ذرّ: «يَاأَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ، إِنَّ ٱلْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَىٰ دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَٱهْرُبْ مِنهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ؛ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ، وأَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ ٱلرَّابِحُ غَداً، وَٱلأَكْثَرُ حُسَّداً. وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقَى ٱللهَ، لَجَعَلَ ٱللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا ٱلْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا ٱلْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ» ويبكي أبو ذرّ، يقول:

«رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة. إذا رأيتكم ذكرتُ بكم رسول الله. ما لي بالمدينة سكنٌ ولا شجنٌ غيركم، إنّي ثقلت على عثمان بالحجاز، كما ثقلت على معاوية بالشام، وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين، فنفاني، إلى حيث لا ناصر ولا معين إلّا الله»(٢).

وهناك مات في منفاه في (الربذة) وحيداً إلّا من ربه.

إن قصة أبي ذرّ الموجعة تحمل دلالات مهمة، تتصل بمكانة النبي و(النبوة)، ذلك

---

١ ـ السقيفة وفدك للجوهري: ٧٨، كتاب الأربعين للقمي: ٦٠٢، أنساب الأشراف ٥: ٥٢ ـ ٥٤، طبقات ابن سعد ٤: ٢٣٢، عمدة القاري ٤: ٢٩١، مسند أحمد ٥: ١٩٧، حلية الأولياء ١: ١٥٦، تفسير جوامع الجامع ١: ٥١١، أعيان الشيعة ٤: ٢٣٦، الغدير ٨: ٢٩٢ ـ ٣٨٦. (المحقق)

٢ ـ السقيفة وفدك: ٧٨، كتاب الأربعين للقمي: ٦٠٣، الدرجات الرفيعة: ٢٤٨، مستدرك الوسائل ١٢: ١٩٨. (المحقق)

لأن النبي الكريم، قال في أبي ذرّ ما جعله مزكّى في الدنيا، وفي الآخرة، في السماء وفي الأرض.

ورد في الروايات أنه:

مرَّ أبو ذرّ يوماً على محمد رسول الله ﷺ، وعنده جبريل أمين الوحي، فلا يُسلِّم، فيقول جبريل للرسول ﷺ: **«هذا أبو ذرّ لو سَلَّم لرددنا عليه».**

فيقول النبي ﷺ: **«أتعرفه يا جبريل؟**

- والذي بعثك بالحق نبياً، لهو في ملكوت السماوات السبع أشهر منه في الأرض»[١].

ومن أقوال النبي فيه:

«الجنة تشتاق إلى أربعة هم: علي، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان الفارسي»[٢].

و**«يا أبا ذرّ! أنت رجل صالح»**[٣].

و**«أبو ذرّ في أمتي كعيسى بن مريم في قومه»**[٤].

ويمنحه الرسول إقراراً أبدياً بالصدق، بقوله:

«ما أظلَّت الخضراء، ولا أقلَّت الغبراء، أصدق من أبي ذرّ»[٥] وكأن الغيب يفكُّ أسراره أمام عين النبي، فيقول لأبي ذرّ، مشيراً إلى مصيره وعظمة نهايته: **«يا أبا ذرّ، يرحمك الله،**

---

١ ـ الكافي ٢:٥٨٧، الأمالي للصدوق: ٤٢٦، ربيع الأبرار: باب ٢٣، المستطرف للأبشيهي ١:١٦٦، بحار الأنوار ٢٢: ٤٠٠ / ٩٢: ٣٥٤. (المحقق)

٢ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١:٧٢. الخصال للصدوق: ٣٠٣، روضة الواعظين: ٢٨٠، كتاب سليم بن قيس: ٢٧٠، شرح الأخبار ١:٤٩١، الاحتجاج ١:١٥٠، ذخائر العقبى: ٨٩، سنن الترمذي ٥:٦٦٧، مناقب الشيرواني: ٣٨١، مجمع الزوائد ٩:٣٣٠، بحار الأنوار ٢٢:٣٢٥ و٣٤١ / ٣١: ١٨٦ / ٣٩:٢٤٥.(المحقق)

٣ ـ الاحتجاج ١:٢٢٧. (المحقق)

٤ ـ لم نجد هذا القول في حقّ أبي ذر، وإنما كان بحقّ علي عليه السلام، انظر مائة منقبة لمحمّد بن أحمد القمي: ٨٠ نقلاً عن غاية المرام: ٥٠٨ ح ٨ وأخرجه في ينابيع المودة: ٦٤ و١٢٧ عن صاحب المناقب وابن المغازلي بإسنادهما إلى الإمام الصادق عليه السلام. (المحقق)

٥ ـ مجمع الزوائد ٩: ٣٣٠، الإصابة ٤: ٦٣، كنز العمال ٨: ١٥. (المحقق)

تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك»[1].

وكفى بذلك تقويماً وتنزيهاً لأبي ذرّ.

موقف علي بن أبي طالب من دم عثمان بن عفان

طوال فترة خلافة عثمان بن عفان كان علي بن أبي طالب، يقف موقفاً صعباً، ومحرجاً، فهو إذ يستند الخليفة ويدعمه ناصحاً، فإنه كان يشدّد الهجوم على مروان بن الحكم، ومعاوية بن أبي سفيان، وآخرين، من أركان الدولة. وكان هجومه نقدياً لا يخلو من حدة.

وبإزاء موقف كهذا، يكون من الصعب، - أيضاً - استقرار العلاقة بين علي بن أبي طالب، والخليفة عثمان على نحو ثابت. ذلك لأن العلاقة ليست محصورة بينهما فقط، بل كانت قائمة في خضمّ التوتر الضعيف الذي شهده المجتمع الإسلامي. وهو توتّر متفاقم، أسهمت التفاوتات الطبقية الحادة في تصعيده باستمرار. فعلاقة الاثنين، هي علاقة السابقة في الإسلام، ومصاهرة الاثنين للنبي الكريم، وصلة القرابة، من الأم - بخاصة - ومن الأب، ثم علاقة المسؤولية نحو خليفة المسلمين، كانت متأثرة بجريان الأمور المحتدمة، وبالغليان السياسي والاجتماعي.

وتكشف رسالة بعض أصحاب النبي إلى عثمان بن عفان الخليفة، عن نوع الأزمة السائدة، يقول ابن قتيبة:

«ذكروا أن اجتمع ناس من أصحاب النبي ﷺ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه

---

١ ـ تاريخ الطبري ٢:٣٧١، سيرة ابن هشام ٤:٩٥١، عيون الأثر ٢:٢٥٧، سبل الهدى والرشاد ١٠:١٠٢، شرح نهج البلاغة ٣:٤٤، تفسير القمي ١:٢٩٥، التفسير الصافي للفيض الكاشاني ٢:٣٨٥، تفسير الميزان ٩:٣٠٢، الطبقات الكبرى لابن سعد ٤:٢٣٥، تاريخ مدينة دمشق ٦٦:٢١٦، سير أعلام النبلاء ٢:٧٨.

وقال رسول الله ﷺ: «رأيتُ أصحابي فما رأيت لأبي ذر شبيهاً» أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩:٣٣١.(المحقق)

عثمان من سُنّة صاحبيه، وما كان من هِبَتِه خمس أفريقيا لمروان، وفيه حق الله ورسوله، وذوي القربى واليتامى والمساكين. وما كان من تطاوله في البنيان، حتى عدّوا سبع دور بناها في المدينة، داراً لنائلة (زوجه) وداراً لعائشة (ابنته) وغيرهما من أهله وبناته، وبنيان مروان القصور بذي خُشُب، وعمارة الأموال بها، من الخمس الواجب لله ولرسوله، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه، من بني أميّة، وهم أحداث، لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة، إذ صلّى بهم الصبح، وهو أمير عليها، سكران، أربع ركعات، ثم قال: «إن شئتم إن أزيدكم صلاة!» وتعطيه إقامة الحد عليه... وتأخيره ذلك عنه وتركه المهاجرين والأنصار، لا يستعملهم على شيء، ولا يستشيرهم، واستغنى برأيه عن رأيهم، وما كان من الحِمَى الذي حَمَى حول المدينة..

قال: ثم تعاهد القوم ليدفعنَّ الكتاب في يد عثمان، وكان ممن حضر الكتاب عمّار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وكانوا عشرة، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان، والكتاب في يد عمّار، جعلوا يتسلّلون عن عمّار، حتى بقي وحده، فمضى حتى جاء دار عثمان، فاستأذن عليه، فأذن في يوم شاتٍ، فدخل عليه، وعنده مروان بن الحكم، وأهله من بني أميّة، فدفع إليه الكتاب، فقرأه، فقال له:

– أنت كتبتَ هذا الكتاب؟

– نعم!

– ومن كان معك؟

– إن معي نفراً تفرّقوا فرَقاً منك!

– من هم؟

– لا أخبرك بهم!

– فلِمَ اجترأت علي من بينهم؟

فتدخل مروان: يا أمير المؤمنين: «إن هذا العبد الأسود قد جرّأ عليك الناس، وإنك

إن قتلته، نكّلتَ به من وراءه[١]!

وكان أن لقي عمّار ضرباً شديداً حتى أصابه الفتق[٢].

إن مروان يتدخّل في كل صغيرة وكبيرة، للحيلولة دون إقامة جسور الحوار بين الخليفة، والمسلمين المعترضين، الذين ربما كانت اعتراضات بعضهم مبالغاً بها، إلّا أن ذلك لا يعني أن الأزمة كانت يسيرة. فقد كانت البطانة تستثمر ما تحصل عليه من ثروات موفّرة لنفسها نعيماً عالياً وترفاً كبيراً، حين يُقارَن به بؤس البؤساء والمحتاجين، مدعاة للإغاظة والمعارضة.

كما أن المسلمين الذين عاشوا عدل عمر بن الخطاب، وشدّته في رفض التنعّم والإتراف، احتجوا على الظاهرة الجديدة، بمبادىء الإسلام، وبسيرة عمر ومن قبله أبي بكر.

وكان علي بن أبي طالب، في موقع صعب، بين طرفي الأزمة المستفحلة، فلعثمان عليه حق، ولأصحاب النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين عليه حق.

فكان – في الحالين – يستوحي أفكاره من مبادىء الإسلام، واجتهاد رأيه، وظلّ – على طول الخط – ناصحاً للخليفة عثمان، ولكن نصحه لم يكن هيّناً، ليّناً، باتّجاه

---

١ ـ ابن قتيبة: الإمامة واليساسة. (المؤلف) وأنظر الإمامة والسياسة، ابن قتيبة ١:٥٠، تحقيق الشيري / ١:٣٥ تحقيق الزيني وأوردها الأميني في الغدير ٩:١٧، والأحمدي الميانجي في مواقف الشيعة ٢:٣٧٠.(المحقق)

٢ ـ كشف الغطاء ١:١٨، الأمالي للمفيد: ٦٣، وصول الأخيار إلى أصول الأخبار للعاملي: ٧٧، كتاب الأربعين للقمي: ١٤١، الشافي للرضي ٤:٢٨٩، بحار الأنوار ٣١:١٩٣، الأنساب للبلاذري ٥:٤٨١، شرح نهج البلاغة ٣:٤٨ وفيه تفصيل حول ضرب عمّار بن ياسر من قبل عثمان وقول ابن ياسر: قتلناهُ كافراً.

ويذكر ابن أبي الحديد: ان عمّاراً نازع الحسن بن علي عليه السلام في أمر عثمان، فقال عمّار: قتل عثمان كافر، وقال الحسن عليه السلام: قتل مؤمناً، وتعلق بعضهما ببعض، فصارا إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقال: ماذا تريد من ابن أخيك؟ فقال: إني قلت كذا، وقال كذا، فقال له علي عليه السلام: أتكفر برب كان يؤمن به عثمان! فسكت عمّار. (المحقق)

المداراة، والمناورة، بل كان نصحاً حراً، صادقاً، جريئاً مخلصاً. وحين كلّفه المهاجرون، أن يكلم عثمان، كانت النغمة السائدة هي العودة إلى المدينة والجهاد، وكانت تلك النغمة ضد السياسة السائدة، وهي الجهاد في الفتوحات البعيدة، التي تنضاف إلى الفتوحات القريبة.

فكانت نصيحة علي، قياساً إلى خطورة الشعار الجديد الذي طرحته المعارضة، حرصاً على الخليفة، والإسلام معاً، وكانت دعوة إلى المراجعة، ومعالجة الأمر قبل أن يصل الاستفحال إلى ما هو أكثر ضراوة.

خاطب علي عثمان:

«إِنَّ النَّاسَ وَرَائي، وَقَدِ ٱسْتَسْفَرُوني بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَٱللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لا تَعْرِفُهُ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَىٰ شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ٱبْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ٱبْنُ ٱلْخَطَّابِ بِأَوْلَىٰ بِعَمَلِ ٱلْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا.

فَاللهَ ٱللهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ ـ وَاللهِ ـ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً، وَلَا تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ...(١)

«فقال عثمان: والله لو كنتَ مكاني ما عنّفتك، ولا أسلمتك، ولا عتبتُ عليك أن وصلتَ رَحِماً،

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣٧٦:٣ ويستكملها الطبري :... وان الطريق لواضح بين وأن أعلام الدين لقائمة تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة فوالله إن كلاً لبين وان السنن لقائمة لها أعلام وان البدع لقائمة لها أعلام وان شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فامات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتي يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقي في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثمّ يرتطم في غمرة جهنم، وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم وأحذرك أن تكون إمام هذه الأُمّة المقتول فإنه يقال يقتل في هذه الأمّة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة وتلبس أُمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحقّ لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجا.(المحقق)

وسددت خِلّة، وآويت ضائعاً، ووليت من كان عمرو يوليه! نشدتُك الله... ألم يُولّ عمر المغيرة بن شعبة، وليس هناك؟

قال: نعم.

قال: فلِمَ تلومونني إنْ وليتُ ابن عامر في رَحِمه وقرابته؟

قال علي: سأخبرك... إن عمر بن الخطاب، كان كلما ولّى والياً يطأ على صماخه إن بلغه حرف جلبه، ثم بلغ به أقصى الغاية... وأنت لا تفعل، ضعفت، ورفقت على أقربائك!

«قال عثمان: هم أقربائك أيضاً!

«فقال علي: لعمري إن رَحِمهم فيَّ قريبة، ولكن الفضل في غيرهم.

«قال ألم يُولّ عمر معاوية؟

«فقال علي: إن معاوية كان أشد خوفاً وطاعة لعمر من يَرْفأ [غلام عمر]، وهو الآن يبتزّ الأمور دونك، ويقطعها بغير علمك، ويقول للناس: هذا أمر عثمان، ويبلغك، فلا تُغيّر!»[1].

ومعروف – حسب جميع المصادر التاريخية المتخصصة – أن الأمور إذا احتدمت، واشتدت، كان الخليفة عثمان يرسل إلى علي بن أبي طالب، الحاضر دوماً للنجدة، والنصيحة، حتى أصبح علي مُحرجاً من ذلك، فالخليفة عثمان يعطي العهود، متجاوباً مع حل المشكلات حلاً يُرضي جمهرة الثائرين، ولكن (مروان) كان يدفع بالمشكلات إلى مشكلات أشد استعصاء، بسبب طيشه.

قال علي – في ذلك:

«عياذ الله، يا للمسلمين.. إني إن قعدت في بيتي قال لي تركتني وقرابتي وحقّي؟ وإني إن تكلّمت فجاء ما يريد، يلعب به مروان، فصار سيقة له، يسوقه حيث شاء، بعد كبر السن، وصحبة رسول الله صلى الله عليه وآله!

«قال عبد الرحمن بن الأسود: فلم يَزُل حتى جاء رسول عثمان... ائتني، فقال علي بصوت

---

١ ـ أبو جعفر الطبري: تاريخ الأمم والملوك: الجزء الخامس (المؤلف) والمصدر نفسه ٣: ٣٧٧. (المحقق).

مرتفع عالٍ مغضب: قل له: ما أنا بداخل عليك ولا عائد!»[١].

وكانت صراحة علي بن أبي طالب في آرائه النقدية الجريئة الناصحة ذات فعل مزدوج، إذ كان بعض الثائرين يجد فيها عوناً له في إبداء الرأي، وفي الجرأة، وفي تصليب الموقف، كما كان بعض الأمويين.. يجد فيها تحريضاً على الخليفة.

وقد قال بنو أمية ذلك بلا مواربة لعلي بن أبي طالب، حينما دخل على عثمان وكان مغشياً عليه. قال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟

فأجابوه: يا علي أهلكتنا، وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين! أما والله لئن بلغت الذي تُريد، لُنمرّن عليك الدنيا، فقام علي مغضباً»[٢]. وكان علي – في الحق – لا يطلب إثارة الناقمين، ولا التحريض على الخليفة.

وفي توضيح ذلك، وتأكيده يقول ابن عباس:

«قد كان علي والله له – أي لعثمان – صاحب صدق، حتى أوغَر نفس علي عليه.. جعل مروان، وسعيد، وذووهما يحملونه على علي، فيتحمل، ويقولون: **«لو شاء ما كلمك أحد!»** وذلك أن علياً كان يكلّمه، وينصحه، ويغلظ عليه في المنطق، في مروان وذويه، فيقولون لعثمان: هكذا يستقبلك؟ وأنت إمامه، وسلفُه، وابن عمّه، وابن عمّته؟ فما ظنّك بما غاب عنك منه؟ فما زالوا بعلي حتى أجمع ألّا يقوم دونه»[٣].

وظل علي بن أبي طالب – رغم كل شيء – حريصاً على الإجابة إلى عثمان فيما إذا طلبه. أخرج الطبري:

«كتب أهل مصر بالمدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة، ويحتجّون له، ويقسمون بالله لا يمسكون عنه أبداً، أو يعطيهم ما يلزمهم من حق الله، فلما خاف القتل شاور

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣٩٨:٣، الكامل لابن الأثير ٩٦:٣، الغدير ١٧٥:٩ (معاصر). (المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه. (المؤلف). وأنظر تاريخ الطبري ٣٩٩:٣، أحاديث أمّ المؤمنين للعسكري ١٥٢:١ (معاصر).(المحقق)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) تاريخ الطبري ٤٣٣:٣.(المحقق)

نصحاءه وأهل بيته، فقال لهم: قد صنع القوم ما رأيتهم، فما المخرج؟ فأشاروا عليه أن يرسل إلى علي بن أبي طالب، فيطلب إليه أن يردّهم عنه، ويعطيهم ما يرضيهم، ليطاولهم حتى يأتيه إمداده!

«فقال: إن القوم لن يقبلوا التعليل، وهم مُحَملي عهداً، وقد كان في قَدْمتهم الأولى ما كان، فمتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به! فقال مروان بن الحكم: «**يا أمير المؤمنين.. مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب، فأعطهم ما سألوك، وطاولهم ما طاولوك، فإنما هم بَغَوْا عليك فلا عهد لهم**». فأرسل إلى علي، فدعاه، فلما جاءه قال: «يا أبا حسن، إنه قد كان من الناس ما رأيت، وكان فيَّ ما قد علمت، ولستُ آمنهم على قتلي، فارددهم عني، فإن لهم الله عزّوجل أن أعتَبهم من كل ما يكرهون، وأن أعطيهم من نفسي ومن غيري، وإن كان في ذلك سفك دمي!

«فقال علي: الناس إلى عدلك أحوجُ منهم إلى قتلك، وإني لأرى القوم لا يرضون إلّا بالرضا، وقد كنتَ أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعنَّ عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك، ثم لم تفِ لهم بشيء من ذلك: فلا تغرّني هذه المرة من شيء، فإني معطيهم عليك الحق.

«قال: نعم، فأعطهم، فوالله لأفيَنَّ لهم.

«فخرج علي إلى الناس، فقال: أيها الناس... إنكم إنما طلبتم الحق فقد أُعطيتموه، إن عثمان زعم أنه منصفكم من نفسه، ومن غيره، وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه، ووكِّدوا عليه!

«قال الناس: قد قبلنا، فاستوثق منه لنا، فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل!».

فقال لهم علي: ذلكم لكم.

ثم دخل عليه فأخبره الخبر.

«فقال عثمان: أضرب بيني وبينهم أجلاً، يكون لي فيه مهلة، فإني لا أقدر على رد ما يكرهون في يوم واحد.

قال علي: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه، وما غابَ فأجَلُلُ وصولُ أمرك. قال: نعم، أجِّلني ثلاثة أيام.

قال علي: نعم!

«فخرج إلى الناس، فأخبرهم بذلك، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجَّله فيه ثلاثاً، على أن يردّ كل مظلمة، ويعزل كل عاهل كرهوه، ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه، من عهد وميثاق، وأشهد عليه ناساً من المهاجرين والأنصار، فكفَّ الثائرون عنه ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه»[1].

ولقد ساءت العلاقة بين عائشة أم المؤمنين وعثمان، ومهما قيل في تفاصيل فساد العلاقة، فمن المؤكد أن توجّهها إلى الحج، حين كان عثمان محاصراً قد كان له تأثيره على بعض الناس الذين تصوّروا أنها غير مكترثة لمصير الخليفة. وقد حاول مروان بن الحكم، وعبد الرحمن بن عتّاب أن يثنياها عن التوجه إلى مكة، وكان ذلك بإيعاز من عثمان، فقالا لها:

«لو أقمتِ! فلعلَّ الله يدفع بكِ عن هذا الرجل!»...

فأجابت عائشة:

«قد قَرَنتُ ركائبي، وأوجبتُ الحج على نفسي، ووالله لا أفعل»[2] ربما أرادت عائشة إبعاد نفسها عن الفتنة المستحكمة، وربما كانت لها أسبابها الخاصة، إلّا أن (العامة) الهائجة، كانت تتَّخذ الذرائع لتصعيد جيشانها.

وكانت الجموع قد تكاثرت على بيت عثمان وسدَّت عليه المنافذ جميعها وأضيفت إلى الجموع الأولى حشود جديدة، فالأشتر النخعي يقوم بألف رجل من أهل الكوفة، ومحمد بن حذيفة يجيء ومعه أربعمائة رجل من مصر، وكان استيلاء طلحة بن عبيد الله على بيت المال، ووضع المفاتيح بيده، قد أعطى لعامة الناس نوعاً من التزكية لثورتهم

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣: ٤٠٣ ـ ٤٠٤ . (المحقق) ٢ ـ الغدير ٩: ٧٨ عن الطبري. (المحقق)

المتصاعدة.

و«لما رأى عثمان استيلاء طلحة على بيوت الأموال، واشتداد الحصار عليه بعث عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب بهذا البيت إلى علي:

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكلي　　　وإلا فأدركني ولما أُمزَّق[1]

وكان علي عند حصر عثمان، وقد استأذن في الخروج إلى خيبر، فأذن له! فلما جاء كتاب عثمان قدم إلى المدينة، والناس مجتمعون عند طلحة، وكان ممن له فيه أثر، فلما التقى علي بعثمان، قال له عثمان:

«أما بعد فإن لي حقَّ الإسلام، وحق الإخاء، والقرابة والصهر، ولو لم يكن من ذلك شيء، وكنّا في الجاهلية، لكان عاراً على بني عبد مناف أن ينتزع أخو بني تيم - يعني طلحة - أمرهم!!».

فقال له علي:

- سيأتيك الخبر..!

ثم خرج إلى المسجد، فرأى أسامة فتوكّأ على يده حتى دخل دار طلحة وهي رجاس من الناس (أي ملأى من الناس الذين تعالى صياحهم) فقال له:

- يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعتَ فيه؟

فقال:

- يا أبا الحسن، بعد ما مسّ الحزام الطبيين!

فانصرف علي، ولم يَحْرِ إليه شيئاً، حتى أتى إلى بيت المال، فقال: افتحوا هذا الباب، فلم يعثر على المفاتيح، فقال: اكسروه، فكسروا باب بيت المال، فقال: أخرجوا المال، فجعل يعطي الناس، فبلغ الذين في دار طلحة ما صنع علي، فجعلوا يتسللون إليه حتى

---

١ ـ كمال الدين وتمام النعمة للصدوق: ٥٤٦، معاني الأخبار: ٣٥٨، كنز الفوائد للكراجكي: ٢٦٤، الأمالي للطوسي: ٧١٢، بحار الأنوار ٥١: ٢٣٢، الجمل للمفيد: ٤٠، العقد الفريد ٢: ٢٧٨، شرح نهج البلاغة ٢: ٤٠٠، أنساب الأشراف ٥: ٧٨. (المحقق)

تُرك طلحة وحده. وبلغ عثمان الخبر، فسُرَّ بذلك، ثم أقبل طلحة يمشي عائداً إلى دار عثمان، فلما دخل عليه، قال: يا أمير المؤمنين.. استغفر الله وأتوب إليه.. أردتُ أمراً فحال الله بيني وبينه، فقال عثمان: إنك والله ما جئت تائباً، ولكنك جئت مغلوباً... الله حسيبك»[١].

وروى البلاذري، «**إنه لم يكن أحد من أصحاب النبيﷺ أشدّ على عثمان من طلحة**»[٢].

واستمر الحصار على الخليفة المغدور أربعين ليلة، وطلحة يُصلي بالناس[٣] قد عمد المحاصرون إلى جريمة منع الماء عن الخليفة عثمان، وقال عثمان: «**اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله، فإنه حمل عليَّ هؤلاء، وألَّبهم.. والله إني لأرجو أن يكون منها صَفِراً، وأن يُسفك دمه.. إنه انتهك مني ما لا يحلُّ له**».

ولما مُنع الماء عن عثمان، صعد على القصر، واستوى في أعلاه، ثم نادى: أين طلحة؟ فأتاه فقال: يا طلحة، أما تعلم أن بئر رومة كانت لفلان اليهودي، لا يسقي أحداً من الناس قطرة منها إلّا بثمن.. فاشتريتها بأربعين ألفاً، فجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين. لم استأثر عليهم؟

قال: نعم!

قال: فهل تعلم أن أحداً يُمنع أن يشرب منها اليوم غيري؟ لم ذلك؟

قال: لأنك بَدَّلت، وغيَّرت!

---

١ ـ ابو جعفر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس.(المؤلف). الله حسيبك يا طلحة، انظر الجمل للمدني: ١٧، بحار الأنوار ٣٢: ٥٨، تاريخ الطبري ٦: ١٥٤ (طبعة قديمة) / ١: ٣٠٧١ / ٣: ٤٥٣، الكامل لابن الأثير ٣: ٧٠، شرح نهج البلاغة ١: ١٦٥ / ٢: ١٤٨ (ط قديم)، تاريخ ابن خلدون ٢: ٣٩٧، تاريخ المدينة ٤: ١١٩٩. (المحقق)

٢ ـ البلاذري: أنساب الأشراف.(المؤلف) ، أنساب الأشراف ٥: ٨١، العقد الفريد ٢: ٢٦٩، ومن المعاصرين : أحاديث أمّ المؤمنين للعسكري ١: ١٦٩، الغدير ٩: ٩٦.(المحقق)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف) وأنظر تاريخ الطبري ٥: ١١٧، وط اوربا ١/ ٢٩٨٩، والعسكري في أحاديث أمّ المؤمنين عائشة ١: ١٦٩.(المحقق)

قال: فهل تعلم أن رسول الله ﷺ قال: من اشترى هذا البيت، وزاده في المسجد، فلهُ به الجنّة، فاشتريتُه بعشرين ألفاً وأدخلته المسجد؟

قال طلحة: نعم!

قال: فهل تعلم اليوم أحداً يُمنع فيه من الصلاة غيري؟

قال: لا!

قال: لِمَ؟

قال: لأنك غيّرت وبَدَّلت!

ثم انصرف عثمان، وأرسل إلى علي، يُخبره أنه مُنع من الماء، ويستغيث به، فبعث إليه ثلاث قرب، مملوءة ماء... فما كادت تصل إليه!

فقال طلحة لعلي: ما أنتَ وهذا؟ وكان بينهما في ذلك كلام شديد[1].

ولم يكتفِ علي بذلك، بل بعث بابنيه الحسن والحسين اللذين كان يبخل عليهما في المعارك حرصاً على نسب رسول الله ﷺ الطاهر، وقال لهما: **«اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، ولا تدعا أحداً يصل إليه»**[2] وأشرف عثمان من القصر قائلاً:

---

١ ـ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. (المؤلف) وأنظر الإمامة والسياسة ١:٥٧ تحقيق الشيري / ١:٤١ تحقيق الزيني.(المحقق)

٢ ـ الثقات ٢:٢٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٣٩:٤١٨، الإمامة والسياسة ١:٥٩ تحقيق الشيري / ١:٤٢ تحقيق الزيني، ومن المعاصرين: الأميني في الغدير ٩:٢٣٦، وأحاديث أُمّ المؤمنين للعسكري ١:١٧١.

إن رواية وقوف الحسن والحسين عليهما السلام على باب عثمان والدفاع عنه، لا يمكن أن تنهض مع مستوى الحدث التاريخي، وربما قد تكون هذه الرواية من وضع الأمويين أنفسهم وللأسباب التالية:

١ ـ الحفاظ على منزلة عثمان كونه أحد أصحاب رسول الله ﷺ!

٢ ـ وقوفهما عليهما السلام في الدفاع عن عثمان يعني الاعتراف بسياسته!

٣ ـ انتزاع صفة مشروعيّة الثورة عن القائمين بها، وبذلك تصدق عليهم صفة المتمردين أو

ه

«يا معشر المسلمين، أذكركم الله... ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ، طلب دار بني

الغوغائيين!

٤ ـ جلّ المهاجرين والأنصار في المدينه لم يقفوا موقف الدفاع عن عثمان ولم يستنكروا ثورة الأمة ضده، لأنهم كانوا يرون في سياسته خلافاً واضحاً لكتاب الله وسُنّة نبيّه وحتى خلاف سُنّة الشيخين.

يقول ابن قتيبة: قال معاوية لأبي الطفيل عامر بن وائلة: أكنت ممن قتل عثمان أمير المؤمنين؟ قال:لا، ولكن ممن شهده فلم ينصره، قال: ولِمَ؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار!! انظر الامامة والسياسة ١: ١٥٨، مروج الذهب ٢: ٦٢، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٢٠١، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٣٣. ولذا من المستبعد أن يقف علي عليه السلام موقف الدفاع عن عثمان وهو يرسل له ولداه ـ ريحانتي الرسول ﷺ ـ مع ما كان يجلّهما اجلالاً عظيماً لأنهما أبناء الرسول ﷺ، بل وصفهما لولده محمد بن الحنفية، بعد أن قال له: لماذا ترسلني أو تبعث بي الى الحروب ولم تبعث بالحسنان؟ فأجابه علي عليه السلام: لأنهما أولاد رسول الله ﷺ، وأنت ولدي، وهما عيناي وأنت يدي التي أدافع بها عن عيناي، أو أحمي بها عن عيناي، وبعد معرفة هذا الحرص الكبير لا يمكن أن يرسلهما علي عليه السلام في قضية خاسرة لم يؤمن بها علي عليه السلام نفسه. وبعد أن غضبت الأمة بأجمعها على عثمان. فوقوفهما على باب عثمان على أبسط التقادير يعني موتهما مع هذا الموج الهائج من البشر. يقول ابن مزاحم في «وقعة صفين» يقدر عدد الثائرين أكثر من عشرين ألفاً: ٢١٣ وكلهم يصرخون نحن (قتلة عثمان)، وأما موقف الامام علي عليه السلام، فيقول: «ما أحببت قتله ولا كرهته، ولا أمرت به ولا نهيت عنه» أنظر البلاذي في أنساب الأشراف ٥: ١٠١، والمجلسي في بحار الأنوار ٣١: ١٦٤، ومن قول له أيضاً: «والله الذي لا إله إلا هو ما قتلته، ولا مالأت على قتله، ولا ساءني» انظر أنساب الأشراف ٥: ٩٨ والبحار ٣١: ١٦٤، وعن ابن عباس يقول سمعت علياً عليه السلام يقول: «الله قتله وأنا معه» انظر الشافي للمرتضى ٤: ٢٣٠، وشرح النهج ٢: ١٢٨ والمفيد: «والله ما غاضني قتل عثمان، ولا سرني، ولا أحببت ذلك ولا كرهته» أنظر الجميل للشيخ المفيد: ١٠١.

ومن ذلك يتضح أن علياً عليه السلام معتزلاً الأمر برمته. فكيف يرسل ولداه لحماية عثمان!! فلو كان له في الأمر رأياً لبان، فإما أن يكون مع الثائرين وهذا ما لم يسجله التاريخ، وأما أن يكون مع عثمان، وبدلاً من أن يرسل ولداه، كان الأولى أن يقف هو بنفسه! ولا يخفى على المتتبع لحوادث التاريخ أن سياسة عثمان وصلت الى درجة من الإنحطاط والفوضى في مصائر الناس واستعبادهم، فليس من العجب أن تحصل الثوره على عثمان، بل العجب كلّ العجب إن لم تحصل الثورة. ولكن سجل علي عليه السلام مواقف انسانية في هذا الحدث وهو يرسل الماء الى عثمان المحاصر بقوة الثائرين، وجنون طلحة في قيادة الثورة. (المحقق)

فلان، ليوسع بها للمسلمين في مسجدهم، فاشتريتها من خالص مالي، وأنتم اليوم تمنعوني أن أصلّي فيه؟ أذكركم الله يا معشر المسلمين: ألستم تعلمون أن بئر رومة كانت تباع القربة منها بدرهم، فاشريتُها من خالص مالي، حتى أنني ما أفطر إلاّ على ماء البحر؟ «ألستم تعلمون أنكم نقمتم عليَّ أشياء، فاستغفرت الله، وتبتُ إليه منها؟ وتزعمون إني غيّرت وبدّلت، فابعثوا عليَّ شاهدين مسلمين... وإلاّ فأحلفُ الله الذي لا إله إلاّ هو، ما كتبتُ الكتاب، ولا أمرت به، ولا أطلعت عليه، «ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أوقوم هود أوقوم صالح!

«يا قوم.. لاتقتلوني، فإنكم إن قتلتموني كنتم هكذا: [وشبك بين أصابعه].

«يا قوم.. إن الله رضي لكم السمع والطاعة، وحذّركم المعصية والفرقة فاقبلوا نصيحة الله، واحذروا عقابه».

ثم قال:

«وإني أخبركم أن قوماً أظهروا للناس أنهم يدعونني إلى كتاب الله تعالى والحق، فلما عُرض عليهم الحق رغبوا عنه، وتركوه.. وطال عليهم عمري، واستعجلوا القَدَر بي، وقد كانوا كتبوا إليهم أنهم قد رضوا بالذي أعطيتهم، ولا أعلم أنني تركت من الذي عاهدتم عليه شيئاً! وكانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود وترك المظالم، وردّها إلى أهلها، فرضيتُ بذلك، وقالوا يُؤمّر عمروبن العاص، وعبد الله بن قيس، ومثلهما من ذوي القوة والأمانة، وكلّ فعلت... فلم يرضوا، وحالوا بيني وبين المسجد، فابتزّوا ما قدروا عليه بالمدينة، وهم يخيّرونني بين إحدى ثلاث: إما القَوَد بكل رجل أصبت خطأً أوعمداً، وإما أن أعتزل عن الأمر، فيؤمّروا أحداً وإما أن يرسلوا إليَّ من طاعهم من الجنود وأهل الأمصار، فأرسلوا إليكم، فأتيتم لتبتزوني من الذي جعل الله لي عليكم من السمع والطاعة، فسمعتُم منهم وأطعتموهم، والطاعة لي عليكم دونهم، فقلت لهم: أما إقادة من نفسي، فقد كان قبلي خلفاء، ومن يتولى السلطان يخطىء ويصيب، فلم يستفد منهم أحد، وقد علمت أنهم يريدون بذلك نفسي. وإما أن أتبرأ من الأمر، فإن يصلبوني أحب

إليّ من أن أتبرّأ من جُنّة الله تعالى وخلافته، بعد قول رسول الله ﷺ لي: يا عثمان إن الله تعالى سيُقمّصُك قميصاً بعدي، فإن أرادك المنافقون على خلعه، فلا تخلعه حتى تلقاني...»[١].

وإلى جانب شجاعة عثمان بن عفان الروحية العالية، ضمّت روحه سمواً نادراً، بأن طلب من الذين يدافعون عنه أن يكونوا في حلٍّ من بيعته، حتى لا يحتمل ضميره مسؤولية قتل أحد منهم في سبيله.

قال عثمان، (بعد أن انتشرت النار تلتهم الدار) مخاطباً جميع من في الدار:

«أنتم في حلٍّ من بيعتي، لا أحب أن يُقتل فيَّ أحد!»[٢].

وحين دخل عليه المغيرة بن شعبة قائلاً:

«يا أمير المؤمنين.. أن هؤلاء قد اجتمعوا عليك، فإن أحببت فالحق بمكة، وإن أحببت أن نخرق لك باباً من الدار فتلحق بالشام، ففيها معاوية وأنصارك من أهل الشام، وإن أبيت فاخرج ونخرج ونحاكم القوم إلى الله تعالى!».

فقال عثمان:

«أما ما ذكرت من الخروج إلى مكة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يُلحد بمكة رجل من قريش، عليه نصف عذاب هذه الأمة، من الإنس والجن، فلن أكون ذلك الرجل إن شاء الله! وأما ما ذكرت من الخروج إلى الشام، فإن المدينة دار هجرتي، وجوار قبر النبي ﷺ، فلا حاجة لي في الخروج من دار هجرتي، وأما ما ذكرت من محاكمة هؤلاء القوم إلى كتاب الله، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمّته بإهراق الدم.. ثم قال: «إني رأيت أبابكر وعمر أتياني الليلة، فقالا لي: صُم، فإنك مفطر عندنا الليلة، وإني أصبحتُ صائماً.. وإني أعزم على من كان

---

١ ـ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. (المؤلف) وأنظر تاريخ مدينة دمشق ٣٩:٢٧٦، تاريخ المدينة للنمري ٤:١١٦٤، الإمامة والسياسة ١:٦٠ تحقيق الشيري / ١:٤٣ تحقيق الزيني.(المحقق)

٢ ـ تاريخ مدينة دمشق ٣٩:٣٩٤، الإمامة والسياسة ١:٥٨ تحقيق الشيري.(المحقق)

يؤمن بالله واليوم الآخر. إلّا خرج من الدار سالماً...»[1].

وبعد أن هجم الثائرون، وشبَّ القتال غير المتكافيء، أصيب **(الحسن)** بسهم طائش من تلك السهام المنطلقة، فشجّه، وخضّب وجهه بالدم. وكذلك شُجَّ **(قنبر)** مولى علي[2].

وحين بلغ مقتل عثمان علياً، وطلحة، والزبير، ومن كان بالمدينة، خرجوا، وقد ذهبت عقولهم، فدخلوا عليهم واسترجعوا، وأكبّوا عليه يبكون، ويُعوِلون، حتى غُشيَ على **(علي)**، ثم أفاق فقال لابنيه: كيف قُتِل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ورفع يده، فضرب الحسن والحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير، وخرج علي وقد سُلب عقله، لا يدري ما يستقبل من أمر،

فقال طلحة: ما لك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟

فقال: يا طلحة.. يُقتل أمير المؤمنين، ولم تُقم عليه بيّنة ولا حُجّة؟ فقال طلحة: لو دفع مروان لم يُقتل!

فقال علي: لو دفع مروان، قُتِل – أي مروان – قبل أن تقوم عليه حكومة!

فخرج علي، فأتى منزله، وأغلق الباب...»[3].

---

١ ـ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة. (المؤلف) وانظر تاريخ مدينة دمشق ٣٩:٤٢٩، البداية والنهاية ٧:٢٢١، الإمامة والسياسة ١:٥٩ تحقيق الشيري / ١:٤٢ تحقيق الزيني. (المحقق)

٢ ـ الإمامة والسياسة ١:٦٢ تحقيق الشيري. (المحقق)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، الإمامة والسياسة ١:٤٥ تحقيق الزيني. (المحقق)

الفصل السابع

▣ سلطة الحق في رفض السلطة

«أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلَا حُضُورُ ٱلْحَاضِرِ، وَقِيَامُ ٱلْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ ٱللهُ عَلَى ٱلعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَىٰ كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَىٰ غَارِبِهَا...»[1].

علي بن أبي طالب

يُعدّ موضوع السلطة من الموضوعات البالغة الأهمية، وفيما إذا وُضِعت (السلطة) موضوع التحليل من الجانب الفردي (أي من جانب الحاكم لا من جانب الطبيعة الموضوعية لها)، فإن مُداخلات عديدة تجعل من الصعب الوصول إلى تحديدات دقيقة في صوابها، بدون الأمانة التاريخية، والأخلاقية. فكل حاكم يدّعي أنه زاهد بالسلطة، وأنه يستخدمها لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولتقديم الخدمات السياسية والاقتصادية والأمنية للمجتمع. ويشترك في الإدعاء المذكور الحكام من مختلف الأصناف: الملكية والجمهورية، القديمة والحديثة، الدينية واللادينية.

ولا يكون الحاكم فرداً بالمعنى المعروف للفردية، ذلك لأنه يمثّل مصالح فئة معينة داخل الدولة وخارجها، وسواء أكانت هذه الفئة قديمة أوجديدة، فإن التلابس بين مصالح الفرد الحاكم، والجماعة التي تتصل مصالحها بمصالحه، يحمل قدراً كبيراً من الامتزاج، مع ما يعتور ذلك من تناقضات.

غير أن ما يقرّرُ - بالنتيجة - معنى سلطة الحاكم، وقيمتها، النتائج الواقعية التي يسطّرها سجل التأريخ.

---

١ ـ نهج البلاغة، شرح محمّد عبده ١:٣٦. (المحقق)

ولا يهمّ البشرية، أن يُقال هذا حاكم قوي، وذاك حاكم ضعيف. فقد حفل التأريخ الإسلامي – مثلاً – بآلاف الأمثلة في ذلك، دونما فائدة تُذكر.

إن البشرية بحاجة إلى حاكم النبراس الذي يُقدّم للمجتمعات ثماراً أبديّة في العدل، وفي الفكر، وفي الممارسة.

أي أن المقياس، في تقويمات كهذه، هو مقياس موضوعي يخص الفوائد الوطيدة للبشر، وليس مقياساً فردياً، كما يجنح عادة – بعض الكتّاب والمؤرخين إلى تفصيل الخصائص الشخصية، والعائلية للحاكم.

وتلعب الأهواء دوراً كبيراً، في المبالغة، والتفخيم، وإبراز الأقوال الصغيرة كمآثر حكمية نادرة، وإبراز الأعمال الصغيرة كمنائر مجيدة في الإنجاز.

لكن الحقائق التأريخية الكبرى تفرض نفسها، لأنها تدخل الوعي التأريخي بقوة حضورها الفعلي، الواسع والشامل، والذي لايمكن تقطيعه، وبعثرته، والتمويه عليه. وسلطة علي بن أبي طالب، تأتي في إطار التقويم التأريخي أنموذجاً من السلطة، مختلفاً كثيراً عن نماذج السلطة البيزنطية، والفارسية، والعربية المقلّدة لهما.

هو أنموذج الاحتذاء والاهتداء بطرائق الرسول العظيم – بلا شك – لكن في ظروف الصراع الشديد، التي كان فيها اقتتال الاخوة في الذروة.

ومن المعلومات التأريخية الواصلة، تبدو السلطة في زمن علي بن أبي طالب، وكأنها من طراز السلطة اللاسلطة: السلطة كما تبدو من وجه، واللاسلطة كما تبدو من وجه آخر.

وقد دفع هذا الوضع البالغ الخصوصية العديد من المؤرخين الغربيين النقّاد إلى تصوير علي بن أبي طالب بمظهر المتردّد أحياناً على ما هو عليه من شجاعة وحدّية. إن مبعث ذلك أنهم آثروا التسجيل الخارجي لبعض الممارسات التي كان علي بن أبي

طالب يصيخ فيها لنداء الحق مع نفسه، مصيغاً في الوقت نفسه لنداء أصحابه[1].

وفي الواقع، كان هناك نوع من الجدل الغريب في سلطة علي بن أبي طالب، فقد كان لا يقرّ المركزية المتعجرفة، ويستهين بالأستقراطية، وهما -أي المركزية والأستقراطية - قوام السلطة تأريخياً.

كان يبني سلطة عادلة، قوامها الإدارة الذاتية للجماهير المؤمنة، وبكلمة أخرى، كان يصنع سلطة متحررة من أدواتها التراتبية، والقمعية، المستعلية على المجتمع، في الوقت الذي كانت فيه المجتمعات العربية وغير العربية، قد بدأت تستقبل أشكالاً متطورة من السلطة المهيمنة تتّسع باتساع الموارد الاقتصادية لتلك المجتمعات، وتتعاظم بتعاظم المسوؤليات السياسية والأمنية لها.

إن ضخامة الدولة الإسلامية المتحققة في الفتوحات، كانت تُظهر تجربة علي بن أبي طالب، وكأنها حكم إسلامي لأمصار محدودة، أي كأنها حكم الكوفة، أوالبصرة، أوالمدينة، وغير ذلك، وليست حكم دولة إسلامية واسعة لما فيها من البساطة العادلة، والطراز السياسي غير المعقّد.

إن تجربة السلطة في زمن علي بن أبي طالب كانت تجربة إسلامية شفّافة، وكان بمواجهتها كيان رأسمالي (عسكري -اقتصادي)، لم يكن قائماً بصورته الوضعية خارج هيئات الدولة، بل كان ينشيء معه تأسيسات جديدة للسلطة، بدلالة رأسمالية مماثلة، ومطابقة لمستويات متعددة [بصورة أولية كما قلنا] وكان ينشيء معه تصورات جديدة عن محتوى السلطة وشكلها، فالنجاحات الاقتصادية المتراكمة، في حالة توقّف الفتوحات، كانت ترتدّ إلى الداخل كمراكمات رأسمالية واقتصادية (متميّزة)، مفروزة عن واقع الفقراء والموالي والأرقاء، وأهل الذمة، وبسطاء الناس من الأعراب

---

١ - يرى كتاب الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي لدومنيك وجانين سورديل (ج ١)، أن هذا الشخص (علياً) البالغ التواضع، الشجاع، كان قليل الحنكة! كما يرى ذلك - خطأ - كتاب غربيون آخرون.(المؤلف)

والبدو والقبائل البعيدة عن المدن.

وكانت النجاحات العسكرية، في حالة توقّف الفتوحات، تتحوّل في الداخل إلى سلطة للقوة العسكرية، والقمع، في إطار الصراعات الداخلية في المجتمعات الإسلامية، أوفي إطار تعزيز هيبة الدولة.

إن الفرز الطبقي - السياسي - العسكري، كان ينعكس على بنية السلطة، ويستضيف لها تصورات جديدة لا تخلّ بالإطار الديني الرسمي، ولكنها لا تمنع التأويلات التي تستجيب للمتغيّرات الجديدة.

في هذه الوضعية، كان علي بن أبي طالب، يقيم سلطة مثالية، هي أقرب إلى (اليوتوبيا) التي حلم بها - فيما بعد - اشتراكيّو أوروبا، الذين كانت فكرة إنقاذ الإنسانية عن طريق (الجمهورية الفاضلة) الفكرة التي نذروا أنفسهم لها، ومن ثم اشتهروا بها.

ولم تكن سلطة علي تكويناً سياسياً قائماً من وحي الساعة، بعد اختياره خليفة للمسلمين، بل هي محصّلة مؤكدة لأفكاره عن السلطة، ودورها في تجسيد مصالح المسلمين ومجتمعات الدولة الإسلامية، بالحق والعدل والإنصاف.

إن تكامل رؤية علي بن أبي طالب ليس مجرّد تكامل نظريّ، مُسطّر في مبادىء إسلامية كان مشتهراً بها، بل هو تكامل نظري مصحوب بطرائق سياسية، وبممارسات لا تنفصل عن تصوراته في طبيعة السلطة، ونوع مهماتها.

ويمكن إحالة موقف علي من سلطته إلى الأصول الأساسية في ذلك، أي إلى الجذور.

وتلخّص الجذور، واستمرارية الموقف إلى نتيجته الأخيرة، مقولة واحدة هي: زهد علي بالسلطة مع إصراره على حقّه فيها.

والحق أن زهده بالسلطة هو واحد من التعبيرات الرئيسية عن طبيعته الزاهدة، إلّا أنه - مع ذلك - لا يمكن التقليل من فاعلية إدراكه لدور السلطة في بناء المجتمع

الإسلامي.

إن ثنائية الزهد بالسلطة، والإقرار بالأهمية الكبرى لدورها، هي الثنائية التي كانت تجابه تصلّبات حادة معبّرة عن مصالح رأسمالية السلطة وبيروقراطيتها. ولم تكن تلك التصلّبات المناوئة لتصوراته وطرائقه في بناء السلطة وحدها التي تجابهه، فقد كان أنصاره يتمنّون أن يستبدل الحمار الذي يركبه في أسواق الكوفة، بجواد مطهّم.

كانت تستهويهم الأبهة المنتشرة، وتجرف أحاسيس العديد منهم، سيما أن أنموذج معاوية بن أبي سفيان في طرازه الكسروي أوالهرقلي كان يثير دهشة البدو وإعجابهم، وخاصة في المناطق التي تحادّ الشام(١).

---

١ ـ والحقّ إنها طبيعة بشرية لم تختص بمجتمع البداوة لوحده، فالناس بشكل عام جبلوا على احترام المظاهر الفخمة، ولا نرى ناسنا في الوقت الحاضر تختلف عن أُناس ذلك العصر. حتّى ان ميكافيلي في نصائحه للأمير، قال: «ان من أفضل للأمير أن يكون محترماً مهيب الجانب بدلاً من أن يكون محبوباً». لأن الناس قد يجرأون على المحبوب ويسيئون إليه ويعصون أمره ولكنهم لا يفعلون ذلك مع المحترم المهيب الجانب. ولكن يبقى الاستثناء عند من يمتلك الوعي من الناس ودرجته العالية في التمييز بين من يخدم الأُمّة وبين من يعيش على تعاستها بهذه المظاهر الفخمة التي تنطوي تحتها عوامل الرهبة والتهديد والاقحام، فهي لا شك مظهراً من مظاهر قمع الرأي المعارض وإسكات الناس عن حقّهم. ورغم ما كان علي بن أبي طالب عليه السلام متواضعاً ترابياً شعبياً كان شديد المهابة عند أصحابه.

قال صعصعة بن صوحان وهو من شيعة علي عليه السلام وأصحابه واصفاً علي عليه السلام: كان فينا كأحدنا لين جانب وشدة تواضع وسهولة قياد، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه.

ومن المعلوم أن المهابة التي يفهمها معاوية وأضرابه من الناس تختلف عن المهابة التي يفهمها عقلاء القوم وأصحاب المبادئ والقيم، فقد قال معاوية ـ مرةً ـ لقيس بن سعد: رحم الله أبا الحسن فلقد كان هشاً بشاً ذا فكاهة، قال قيس: نعم كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ويبتسم إلى أصحابه، وأراك تسرحسو في ارتغاء وتعيبه بذلك! أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى، تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك طغام أهل الشام. أنظر شرح نهج البلاغة ١: ٢٥.(المحقق)

شعبية البيعة

حين وافى الرسول الكريم أجله المحتوم، كانت اهتمامات الناس منصبّة على اختيار الشخص الذي يخلفه في حكم المسلمين وقيادتهم.

ولم يكن علي بن أبي طالب بعيداً عن دائرة الاختيار، فتقدم أبو سفيان وهو في دار الرسول مبايعاً إياه، قائلاً: **«يا أبا الحسن.. هذا محمد قد قضى إلى ربه، وهذا تراثه لم يخرج عنكم فابسط يدك أبايعك فإنك لها أهل»**[1].

وكان علي يدرك تماماً اللعبة السياسية التي سوف تدور في فلك المسلمين بعد أن فقدوا الرسول، فكان جوابه:

«يا أبا حنظلة، هذا أمر ليس يُخشى عليه..».

وكان عمه العباس مؤيداً رأي أبي سفيان شيخ بني أمية، فقال له:

يا ابن أخي... هذا شيخ قريش قد أقبل فامدد يدك أبايعك ويبايعك معي.. فإنّا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشي، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد في العرب»[2].

كان علي بن أبي طالب يكره المناورات السياسية، وبخاصة تلك التي تجري من وراء ظهر الناس، بين أفراد مشهورين في مكانتهم السياسية أوالدينية أوالاجتماعية، فيتريّث برهة يفكّر: هذا حقاً منطق الرجل النهّاز - يقصد أبا سفيان - الذي تعنيه الغاية ولا تعنيه الوسيلة، وكان هو غير ذاك. إنه ليعلم أنه للبيعة أهل ولكنه يرى لزاماً عليه أن يتخيّر الوسيلة الصالحة إلى هدفه. وقد عرف للبيعة حقاً يجب توفّره لتكون بيعة صحيحة ترضيه وتوافق ما جبلت عليه طبيعته المثالية.. كان معنياً دائماً بالتماس الكمال واحتذائه فلا يميل إلى الحلول التي يمليها الارتجال أوالزمعة أوتحيُّن الفرصة. وإنه

---

١ ـ أنظر تاريخ الطبري ١٥: ١٥٥، الدرجات الرفيعة: ٩٧.(المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٥:١٥٥، الصوارم المهرقة: ١١٠، الكامل لابن الأثير ٣:٣٠٥، شرح نهج البلاغة ١:١٦٠، كتاب الأربعين للقمي: ٣٩٧، بحار الأنوار ٢٨:٢٨٩، المستدرك ٣:١١٥ .(المحقق)

لعلى ثقة من نفسه ومن قدره، تقدّم له أبو سفيان أولم يتقدّم. ولكنه كان حريّاً أن يعرف أن الإمام جدير به ألّا يملك سلطان الناس مشورة منهم وبعيداً عن أعينهم، بل الأولى به والأبين على صحة بيعته أن يكون هذا على رؤوس الأشهاد حتى لا يفصل بين أحد وبين الاعتراض لو شاء الاعتراض.. ولم يكن العباس هو كل الناس، ولم يكن شيخ قريش كذلك - بل هما رجلان مفردان وإن علت أقدارهما بين القوم.. ولذلك نراه يغضي عن كفّ أبي سفيان[1] المبسوطة إليه ويغضي عن كفّ عمّه، ويهزُّ رأسه لهما وهو يقول بالمأثور من صراحته وشدة التزامه نهجه الأمثل:

«لا والله يا عمّ! فإني أحب أن أصحر بها، وأكره أن أبايع من وراء رتاج!»[2].

كان في جواب علي الحاسم، إبانة تامة عن أفكاره، فهو يعي أن مقاصد أبي سفيان ليست مقاصد الحرص على وحدة الصف الإسلامي ومصالح المسلمين، ومهما كان انسجام أبي سفيان مع نفسه في رأيه، فإنه - واستناداً إلى تأريخه البعيد والقريب - يُمارس لعبة سياسية خطيرة بالتأكيد، أوربما كان يتلاءم مع أمر واقع في تصوّره. كذلك، كان علي مؤمناً بأن إمارة المسلمين يجب أن تكون معبّره عن إرادة أغلبية المسلمين، بالبيعة الصريحة، وليس من وراء الأبواب.

كما أن زهد علي بالسلطة كان حاضراً، لأنه في صميم طبيعته وطبعه. وإذ توجّه الناس إلى (السقيفة) يتنادون لاختيار خليفة للمسلمين، ظل علي منتمياً إلى حزنه على الرسول ﷺ، ذلك الحزن الذي شغل عقله وقلبه ونفسه، ولم يعد يفكر بغير الذاهب الخالد. لقد أتمّ غسله، وهو في ذروة الحزن، قائلاً والدمع يغطي وجهه، وقلبه ينخلع عن مكانه:

«بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وأَخْبَارِ السَّماءِ، خَصَصْتَ حَتَّىٰ صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَمْتَ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَواءً، وَلَوْ لَا

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. (المؤلف)

٢ ـ شرح نهج البلاغة ٩:١٩٦ / ١١:٩. (المحقق)

أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ! وَلٰكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!»[1].

بيعة علي

وبعد مقتل عثمان بن عفان، ظل الناس في هياجٍ شديد لغياب الخلافة، وقد آثر علي بن أبي طالب الانزواء، وأقبل عليه عامة المسلمين إقبالاً متشدّداً خوفاً من أن تأكل الفتنة العارمة ما تأكل، وتدمّر ما تدمر من عرش الإسلام.

وكانت الجموع الزاخرة قد قرّرت فرض اختيار الخليفة على الشخص الذي يقع عليه الرأي، فذلك أولى من ترك المسلمين بلا خلافة، وكان الثائرون الذين نالوا من عثمان، قد أعلنوا – بلا مواربة – أنهم سيمهلون أهل المدينة يومين، بعد أن مرّت أيام هوجاء قبل ذاك. وهتف أحد الثائرين:

«.. يا أهل المدينة، إنكم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة، وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تَبَع»..

فصاح الناس: **«علي بن أبي طالب.. نحن به راضون»**.

«فدونكم، وإنّا لمؤجّلوكم يومين اثنين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلنّ غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً من رجالكم كثيرين..».

وانطلق الناس، ومن بينهم (الزبير) و(طلحة) إلى دار علي بن أبي طالب، حيث كان معتزلاً، وخاطبوه:

«يا أبا الحسن، إن هذا الرجل قد قتل، ولابد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحقُّ بهذا

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢:٢٢٨، الأمالي للمفيد: ١٠٣، بحار الأنوار ٢٢:٥٢٧، الأنوار البهية للقمي: ٤٥، أنساب الأشراف ١:٥٧١ ط مصر الحديث (١١٧٥). (المحقق)

الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب من رسول الله ﷺ»[١].

وكان زهد علي بن أبي طالب، الذي تجلى في سلوكه، طوال السنين الماضية، في خلافة الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، قد جاء ناصعاً في أقل الكلمات، أراد أن يظل الوزير الناصح، الموجّه، المربّي، وأن يكون الأمير غيره؛ قائلاً لهم:

«أَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً».

فتهافت الناس: **«أنت لنا رضىً»**، فأصرّ على ما قال:

«لا حاجة لي في أمركم أيها الناس، أنا معكم، فمن اخترتم فقد رضيت به».

ثم كرّر الرفض:

«دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ؛ لَا تَقُومُ لَـهُ ٱلْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ ٱلْعُقُولُ»[٢].

ما هو ذلك الأمر الذي لا تثبت عليه العقول، ولا تقوم له القلوب؟ إنه الإنشقاق الرأسي الذي أصاب الإسلام من أعلى أركانه حتى القاعدة. لقد كان علي بن أبي طالب شاخصاً إلى الواقع الإسلامي ببصيرة مدركة لفاجعيّة السنوات القادمة.

ففي تلك الكلمات، كانت النبوءة سياسية!

لكن كبار المؤمنين عرفوا أن الفتنة هائلة، ولا بد من حلٍ عاجل يجري به تطويق الفتنة:

«ننشدك الله، ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى ما حدث في الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟»[٣].

---

١ ـ تاريخ الطبري ٥:١٥٢ ـ ١٥٣ وط اوربا ١:٣٠٦٦، ابن الأثير ٣:٧٦، وابن اعثم: ١٦١، والرياض النضرة ٢:١٣١ ـ ١٣٢، وكنز العمال ٣:١٦١ الحديث (٢٤٧١).(المحقق)

٢ ـ أنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:١٨١ رقم النص: ٩٠، مناقب ابن شهرآشوب ١:٣٧٨، الصراط المستقيم ٣:١١٢، بحار الأنوار ٣٢:٨ / ٣٢:٢٣ و٣٥ / ٤١:١١٦، دراسات في نهج البلاغة لشمس الدين: ٢٠٦، الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ٩٣، تاريخ الطبري ٣:٤٥٦.(المحقق)

٣ ـ تاريخ الطبري ٥:١٥٢، الفتنة ووقعة الجمل: ٩٣، شرح نهج البلاغة ١١:٩.(المحقق)

كانت كلمات (الأشتر) مؤثرة، وهي كلمات المسلمين الأوائل، والجمهور الفقير من المسلمين، كانت إرادة الأكثرية، التي لا بد من التجاوب معها قبل الاستجابة لها.

قال علي:

«وَٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ وَعَتْبِ ٱلْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ»[١].

وحصرت عبارة **«إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ»** كل التحذير الذي لا بد أن يقوله، فهو هو، بعدالته التي لا يحيد عنها، سلطة الحق التي لا تُراوغ ولا تُهادن.

ليس علياً من نوع الزعماء الذين يُعلّلون الناس بالأماني، فها هو يصدمهم منذ اللحظة الأولى، وإذ اشتد إصرار المسلمين على البيعة، فإنه يكرّر من جديد رفض البيعة من وراء رتاج، وكأن ذلك اليوم الذي عرض فيه (أبوسفيان) عليه البيعة في دار الرسول صلى الله عليه وآله، وجسده الكريم مسجى هناك، يعيد نفسه، ولكن من غير أبي سفيان ولا ذريّة أبي سفيان.

إن تكرار الموقف رغم تبدل الزمان والمكان، بالصورة نفسها، أوبما يماثلها أويقاربها في القياس، هو صفة إنسان متّحد بذاته وبأفكاره اتّحاد الملآن الواثق من نفسه، ومتوحّد في تلك الفرادة الإنسانية العالية.

ليس هناك دهاليز، وأرتجه. بل ينبغي أن تكون البيعة علنية، ديموقراطية، وفي المسجد، بعيداً عن الضغط والابتزاز.

ولقد أوضح ذلك قائلاً:

«إن كان لابد من ذلك، ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلّا عن رضا المسلمين، وفي ملأ وجماعة»[٢].

---

١ ـ تاريخ الطبري ٥:١٥٢، شرح نهج البلاغة ١١:٩. (المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٣:٤٥٠، كنز العمال ٣:١٦١ الحديث ١٤٧١، ابن اعثم في الفتوح : ١٦٠ ـ ١٦١، ومعالم المدرستين للعسكري ١:١٤١.(المحقق)

وكان طلحة أول من بايعه، وكان ذا يد شلّاء، فتطيّر حبيب بن ذؤيب، وكانت طيرته تنبؤاً: «**إنا لله وإنا إليه راجعون، أول يد بايعت أمير المؤمنين شلّاء؟ لا يتم إذن هذا الأمر**»[1].

كذلك بايع (الزبير). وأصبحت البيعة عامة شهدتها الأكثرية الكاثرة. وكان موقف علي بن أبي طالب من الذين لم يُبايعوه مثالاً للسلوك الديمقراطي الرفيع، القائم على الصفح الإنساني الكريم.

ففي ذلك الحين الذي كانت فيه بيعة المسلمين بصورتها العنفوانية، كان أي تردّد في مبايعة علي بن أبي طالب خليقاً به أن يُعرّض أصحابه إلى غضب الناس العارم، فلقد خرجوا من أزمة الغضب، إلى هياج الفرحة بالبيعة، أي أنهم في لحظة فاصلة انتقلوا من احتدام إلى احتدام من نوع آخر.

يذكر (الطبري):

خرج علي إلى المسجد، فصعد المنبر وعليه إزارٌ وطاق، وعمامة خز، ونعلاه في يده، متوكّئاً على قوس، فبايعه الناس. وجاؤوا بسعد (ابن أبي وقاص)، فقال علي: بايع، قال: لا أُبايع حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس. قال: خلّوا سبيله.

وجاؤوا بابن عمر، فقال: بايع، قال: لا أُبايع حتى يُبايع الناس، قال: ائتني بحميل (أي كفيل)، قال: لا أرى حميلاً، قال الأشتر: خلِّ عني أضرب عنقه. قال علي: دعوه، أنا حميلُه، إنك – ما علمت – لسيىء الخلق صغيراً وكبيراً[2].

وورد في (تاريخ الطبري) أيضاً:

«**لما قُتِلَ عثمان رضي الله عنه بايعت الأنصار علياً إلّا نُفيراً يسيراً، منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلّد، وأبوسعيد الخُدْري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خُديج، وفضالة بن عُبَيد، وكعب بن عُجْرة، وكانوا عثمانية. قال: أما**

---

١ ـ أنظر الفتنة ووقعة الجمل، للضبي: ٩٤. (المحقق)

٢ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك الجزء الرابع. (المؤلف) وأنظر تاريخ الطبري ٣: ٤٥١، البداية والنهاية ٧: ٢٥٣. (المحقق)

حسان فكان شاعراً لا يُبالي ما يصنع، وأما زيد بن ثابت فولّاه عثمان الديوان وبيت المال. فلما حُصِرَ عثمان، قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصاراً لله... مرتين! فقال أبو أيوب: ما تنصره، إلّا أنه أكثر لك من العِضدان (جمع عضيد، وهي النخلة لها جذع يتناول منه المتناول). فأما كعب بن مالك فاستعمله على صَدَقة مُزَيْنة، وترك ما أخذ منهم له...»[1].

بويع علي يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة – والناس يحسبون من يوم قُتِل عثمان رضي الله عنه – فأول خطبة خطبها علي حين استخلف، حمد الله وأثنى عليه، فقال:

«إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ ٱلْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَٱصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.

ٱلْفَرَائِضَ ٱلْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى ٱللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ. إِنَّ ٱللهَ تَعالَى حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، [وَأَحَلَّ حَلَالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ]، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ ٱلْمُسْلِمِ عَلَىٰ ٱلْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَذَىٰ ٱلْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ.

بَادِرُوا أَمْرَ ٱلْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ ٱلْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

ٱتَّقُوا ٱللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّىٰ عَنِ ٱلْبِقَاعِ وَٱلْبَهَائِمِ، أَطِيعُوا ٱللهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ ٱلْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2].

إن وحدة الحق في سلطة علي بن أبي طالب شملت الناس (والعامة منهم بخاصة)

---

١ ـ تاريخ الطبري الجزء الرابع. (المؤلف) تاريخ الطبري ٣: ٤٥٢. (المحقق)

٢ ـ القرآن الكريم: سورة الأنفال.(المؤلف)، أنظر الآية: (٦٢) من سورة الأنفال وأنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢: ٨٠، الفتنة ووقعة الجمل: ٩٥، شرح نهج البلاغة ١: ٣٠١ / ٩: ٢٨٨، تفسير مجمع البيان ٤: ٤٠، تفسير نور الثقلين ١: ٧١١، تاريخ الطبري ٣: ٤٥٧، الأنوار العلوية: ٤٧٨، بحار الأنوار ٦: ١٣٥ / ٣٢: ٩.(المحقق)

والبقاع والبهائم، لأن العدل شامل، متكامل، يتغذى من معرفة العقل، ومن نور القلب.

وعدل كهذا لايعرف المناورة، والتقديم والتأخير، وممارسة الحيل السياسية، لهو عدل صريح، ثابت.

رأي علي في حقّه بالخلافة

إن زهد علي بن أبي طالب بالسلطة، والذي رأينا امتداده التأريخي منذ موت الرسول العظيم، كان يُرافقه رأي بأحقيّته بها. ولم يكن يخفي رأيه هذا أبداً.

كذلك كان الخلفاء الراشدون – وهم الشخصيات الجليلة المجيدة[1] – على مستوى من الصراحة العالية، فهم يتحاورون بصوت عال، وبذكاء متميز، ومن المفيد الإشارة هنا إلى موضوع مهم، وهو أن المؤرخين والكتّاب الغربيين ذوي الاختصاص بالإسلاميات، يرون الجانب الانقسامي في الإسلام، إلى يومنا هذا، ويُرجعونه إلى

---

١ ـ بعد استعراض المؤلف لسيرة عثمان، وبهذه الصورة الارستقراطية في اغناء الغني وافقار الفقير، وممارسة الذوقية والانتقائية في توزيع أموال المسلمين، لا يمكن أن يعدّ من الشخصيات الجليلة كما تفضل المؤلف ﷺ، فضلاً عن إدعاء عثمان نفسه بأن الخلافة قميصاً ألبسه الله له ـ وعلى لسان النبي ﷺ!! محذراً إياه من خلعه!! وعدم اهتمامه بأمور المسلمين وتفضيل الأُمويين ومنحهم المناصب والمقاطعات، فكانت الطبقيّة سِمة من سمات عهد الخليفه عثمان، وهذا مما لم يجحده كُتّاب التأريخ والسِّير. ولا نرى إلّا أن المؤلف ﷺ كان لابد له أن ينحى هذا المنحى في ضل سلطة قميعة ناصبت هوية المؤلف ومذهبه واعتقاده، ولا نغالي في القول: إن الحواجز المانعة كثيرة وكثيرة جداً بتنوعها، وقاصيّة جداً في ظُلّمها تُحيد الكاتب عن إدلاء حقيقة ما يؤمن به من أفكار أو التوثيق الصادق كما أشار الى ذلك المؤرخ الكبير أبي جعفر الطبري في مقدمة تاريخه. فالسلطة السياسيّة، والمراكز الدينية، وعقول العامة من الناس، والتأثيرات الاقتصادية والاجتماعية جميعها عوامل منع وتبكيت لِكُلّ مؤرخ وكاتب ينشد الحق والحقيقة.
وعلى الرغم من ذلك لم يَنجُ المؤلف ﷺ من تقارير مثقفي السلطة وعاش حياة الاعتقال والتعذيب، جراء تهمة الطائفية والميول الشيعية وأفرج عنه بعد قرار الكتابة بما يلائم توجهات السُلطة، ولم يُترك من مراقبة مثقفي هذه السلطة حتى أُعدِم في عام ١٩٩١م. (المحقق)

الصراعات الأولى في زمن الخلفاء الراشدين.

ويفوتُهم ذكر نقطة شديدة الأهمية، وهي أن الخلافات الأولى لم تستمر انعكاساتها الفكرية والسياسية على المسلمين طوال ما يقارب الثلاثة عشر قرناً، إلّا لأن الشخصيات الإسلامية الأولى وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، هي من طراز الشخصيات التأريخية المجيدة، فلو كانت أقل من ذلك - أي شخصيات سياسية مثل سواها من الملوك والرؤساء عبر التأريخ - لما كان للخلافات الحاصلة في زمنها، ذلك الانعكاس الهائل على أفكار المسلمين وسلوكهم في مختلف أقطار الأرض طوال القرون المتتالية، وكأنها حيّة إلى الأبد.

فقد عرفت انكلترا، وفرنسا، ومن قبل اليونان وروما، وغير ذلك من الأمم والدول ملوكاً ورؤساء، كانت لهم صراعات وانقسامات، لكنها لم تتجاوز حدود زمنها، وإذا ما تجاوزت زمنها إلى زمان آخر، فإنها لا ترقى إلى مستوى الاستمرارية القائمة في آثار الخلفاء الراشدين الماثلة إلى الآن - وإلى ما بعد.

وتوجد مشابهة - من نوع معين - في الديانة المسيحية، وقيام الفرق المسيحية المختلفة، واستمرار قيامها، إلّا أن الاختلاف ماثل في أن الفرق الإسلامية الأشد تماسكاً، واستمرارية ذات طابع سياسي - أيديولوجي موحّد. بمعنى أنها نبعت من الأوساط السياسية العليا، أي من داخل قيادة السلطة الإسلامية.

فهي ليست مجرد اصطراعات أيديولوجية - من صبغة دينية - بل هي رؤى سياسية وأيديولوجية تخص شؤون الدين والدنيا، والعقيدة والحكم معاً.

ويُخطىء كتّاب عرب، بسبب انحيازات جزئية، في عدم ملاحظة الجانب العظيم في اختلافات الصحابة، والمؤمنين، والتي كانت تجري بحرية تامة، بأحسن ما تكون المحاورة، وأغناها، وبالديمقراطية الفذّة.

إن التحجّر الطائفي يقتل هذه الملاحظة، مثلما يقتل موضوعية عبقرية الخلفاء الراشدين، في إطارها العقلي. لذلك يعمد المنحازون، ضيّقوا الأفق إلى إظهار جانب من

الحقيقة (من الحوار) وإخفاء الجانب المقابل، في حين التعامل مع الوقائع برؤية تتّسق مع النهج السائد في الحوار بين الخلفاء الراشدين والصحابة أنفسهم.

نعود - الآن - إلى موضوع تمسّك علي بن أبي طالب برأيه في أحقّيته بـالخلافة، رغم زهده بالسلطة، فقد كان اعتكافه في بيته بعد بيعة (أبي بكر) دليلاً على احتجاجه. زاره أبوبكر في داره، وخاطبه:

«ابن عمّ رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته، يُريد أن يشقّ عصا المسلمين؟».

تدخّل العباس قائلاً:

«ما أحد أولى بمقام رسول الله ﷺ منه!».

أجاب علي:

«أنا أحق بهذا الأمر منكم، فلا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي..».

قال أبوبكر:

«فهل كانت بيعتي من غير رضا الناس؟»

قال علي:

«ولكنكم زعمتم للأنصار أنكم أولى بها منهم، إذ كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، ولستُ أحتجّ عليكم إلّا بمثل ما سلف لكم من الحجّة على الأنصار».

قال عمر:

«قد كان رسول الله ﷺ منّا ومنكم».

فأجابه علي:

«نحن أولى برسول الله ﷺ حياً وميتاً! يا عمر، إنّا آله، موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، لا يُقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا..».

قال عمر:

«إنك إذن لست متروكاً حتى تبايع».

أجاب علي:

«أفتلزمني البيعة يا ابن الخطاب!».

تدخل أبوبكر:

«يا أبا الحسن، إن الناس قد اختاروني عليهم، وإني أحب لك أن تدخل فيما دخل فيه الناس..».

وعقّب عمر:

«يا خليفة رسول الله ﷺ، لقد لزمته طاعتك إذ بايعك الناس..».

فقال علي:

«يا عمر! ... احلب حلباً لك شطره، وشدّ له اليوم يردّه عليك غداً!».

ثم قال لأبي بكر:

«أما والله قد تقمّصتها وإنك لتعلم أن محلّي منها محلّ القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير!»..

أجابه أبوبكر:

«لا عليك يا أبا الحسن.. فإن لم تبايع فلا أكرهُك».

وغادر أبوبكر وعمر منزل علي دون أن يصلا إلى نتيجة. فاستكمل (أبوعبيدة) الحوار، بعد أن تخلّف عن صاحبيه، فكان له هذا الحوار مع علي:

«يا بن عم... إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم بالأمور...».

فردّ علي:

«أما السن فما أزعم لي بها على الرجل قِدَم!».

- **«فهلّا يا ابن عمر بايعت؟ إني أرى أبابكر أقوى على الأمر منك».**

فأجابه علي:

«أفأنتم خير أم رسول الله ﷺ خير؟».

- **«بل رسول الله!».**

قال علي:

«لقد كان رسول الله بعث أسامة بن زيد على جيش فيه مشيخة قومك هؤلاء، لم يطعن فيه أنه صبي!».

قال أبو عبيدة:

«إني، يا ابن العم، إنما عنيت أنك حديث السن، إنك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق، وبه حقيق، في فضلك، ودينك، وعلمك وفهمك، ونسبك، وصهرك..».

فقال علي:

«الله الله يا معشر المهاجرين! تُخرجون سلطان محمد في العرب من داره إلى دوركم وتدفعون أهله عن مقاله في الناس؟ أما والله لنحن - أهل البيت - أحقُّ منكم بالأمر، ما دام فينا القارىء لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، الدافع عنهم الأمور السيّئة، القاسم بينهم بالسّوية... وإنه والله لفينا يا أبا عبيدة! إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى، فتضلوا عن سبيل الله، وتزدادوا من الحق بُعداً...»[١].

ثم إن علياً بن أبي طالب، عاين الجانب الموضوعي، إذ انبعثت الصراعات الجاهلية بين الأوس والخزرج، ورفعت أفعى الردّة ذيلها، بعضها ردّة على الدين، وأخرى ردة على الزكاة، كذلك كان يقدّر لأبي بكر مكانته في الإسلام، فلم يطلْ اعتكافه، فبايع الخليفة الأول[٢]، وأصبح مرافقاً له وملازماً المسجد، ومؤدّياً دوره التثقيفي، والتربوي،

---

١ ـ العقد الفريد ٣:٦٣، وشرح نهج البلاغة ١:١٣٤ طبعة مصر، السقيفة وفدك: ٦٣، الاحتجاج ١:٩٦، مناقب الشيرواني: ٤٠١، كتاب الأربعين للقمي: ١٥٤، الأمامة والسياسة ١:٢٩ تحقيق الشيري / ١:١٩ تحقيق الزيني، الفتوح لابن أعثم ١:١٣، بحار الأنوار ٢٨: ١٨٦ و٣٤٩، نور البراهين للجزائري ٢:٤٨٢، الغدير ٥:٣٧٢، ولا يخفى ان حوارات الخلافة هي أشبه ما اجمع عليها المؤرخون وبمختلف اتجاهاتهم العقائدية.(المحقق)

٢ ـ البخاري ٣:٣٧، شرح نهج البلاغة ٦ز١١ ـ ١٢، كتاب سليم بن قيس، تحقيق المحمودي: ٢٦٩، كشف المحجة لثمرة المهجة لابن طاووس: ٧٧، الشافي ٣:٢٤٢، المناظرات في الإمامة:

☜

والقضائي، بصورة مشهودة.

فلم يكن رأيه – ورأي أنصاره معه – في حقه بالخلافة ليبعده عن صدقه الموضوعي، وأصالته المميزة، ووفائه لأبي بكر، فكان رثاؤه لأبي بكر لسان صدق في الإخلاص والمحبة والتقدير والألم، قال:

«رحمك الله يا أبابكر! كنت والله أوّل القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً وأشدَّهم يقيناً.. صدقت رسول الله صلى الله عليه وآله حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخل الناس – وقمت معه حين قعد الناس... كنت والله للإسلام حصناً وللكافرين ناكباً، لم تفلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كالجبل لا تحركه العواصف.. كنت والله كما قال الرسول صلى الله عليه وآله فيك: ضعيفاً في بدنك، قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، فلا حرمنا الله أجرك.. ولا أضلّنا بعدك»[1].

وأقدم علي بن أبي طالب على الزواج من أرملة (أبي بكر) أسماء بنت عميس،

٣٢٦، وصحيح مسلم ٥: ١٥٤، المسعودي في مروج الذهب ١: ٤١٤، بحار الأنوار ٢٨: ١٢٦، وقال: «لم يبايعه ـ أبو بكر ـ أحد من بني هاشم حتّى ماتت فاطمة» ويؤكد ابن أبي الحديد ان بيعة علي لأبي بكر تمت بعد ستة أشهر، انظر ٢: ١٨ من شرح النهج، الكنى والألقاب ١: ٣٨٧ وينقل القمي عن جعفر بن محمّد عليه السلام: قال: «والله ما بايع علي عليه السلام حتّى رأى الدخان قد دخل بيته». وهي اشارة إلى ما أقدم عليه الخليفة عمر من تهديد في احراق بيت فاطمة عليها السلام إذا لم يخرج علي عليه السلام ومن معه إلى بيعة أبي بكر وقد أرخ هذا الحادث ـ مؤخراً ـ الشاعر حافظ إبراهيم ـ من مصر ـ بقصيدته العمرية المعروفة:

وكلمة لعلي قالها عمر ... اكرم بسامعها اعظم بملقيها

حرقت بيتك لا ابقي عليك بها ... إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها

ما كان غير أبي حفص بقائلها ... يوماً لفارس عدنا وحاميها

(المحقق)

١ ـ انظر مجمع الزوائد للهيثمي ٩: ٤، كنز العمال ١٢: ٥٤٣، تاريخ مدينة دمشق ٣٠: ٤٤٠، أسد الغابة ١: ٩١ وان دلّ هذا القول على شيءٍ فإنّما يدلّ على عمق وسعة أخلاقية الامام علي عليه السلام الذي مُثّل بحق رسالة الإسلام في كيفية التعاطي والتعامل حتى مع الغاصبين له حَقّهُ في أمر الخلافة، ورغم ما كان صدره ينطوي على معاناة وآلام ألمت به جرّاء هذا الأمر، وقد عبّر عنها فيما بعد، قائلاً: «أرى تراثي نهباً». (المحقق)

وضمّ ابنها محمد بن أبي بكر إلى أبنائه وأسرته(١).

لم يُؤثّر على نفس علي بن أبي طالب أن الخليفة أبابكر قد أوصى بالخلافة من بعده – وكان في أشد المرض – إلى عمر بن الخطاب، قائلاً، وهو يشرف على الناس من داره:

«أيها الناس.. أترضون بمن استخلف عليكم؟ إني والله ما ألوْتُ من جهد في الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا..»(٢).

فدخل الإسلام في مرحلة ثانية للاستخلاف، كانت الأولى مرحلة استخلاف أبي بكر ثمرة المبايعة الشعبية على النحو الذي تمّت فيه في سقيفة قسّ بن ساعدة. أما المرحلة الثانية، فهي استخلاف عمر بن الخطاب بتعيين من قبل الخليفة الأول؛ وكان علي بن أبي طالب يرى أن حقه في خلافة رسول الله ﷺ قد استبعد، ولم يدفعه ذلك إلى سلبية العزلة، أوالتمرد. بل ظل مقيماً على العهد، حريصاً على وحدة المسلمين، وإن كان صدره ينطوي على ألمٍ خاص، عبّر عنه – فيما بعد – قائلاً:

«أرىٰ تُرَاثي نَهْباً.. فَيَا عَجَباً!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها في حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ـ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا!»(٣)..

ومن الحوارات بين عمر بن الخطاب وابن عباس (ابن عمّ علي بن أبي طالب)، ما يكشف عن العلاقات الحرة بين كبار المسلمين، فهم يعبّرون عن آرائهم ببداهة ذكية، وبلغة جامعة، وبأفكار محددة.

---

١ ـ مقاتل الطالبيين للاصفهاني: ١١، وفيه ان اسماء بنت عميس تزوجها أوّلاً جعفر بن أبي طالب ثمّ أبو بكر ثمّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفي الاحتجاج ١:١٢٥ أن أسماء هي أخت ميمونة زوجة الرسول ﷺ وأُخت لبابة زوجة العباس بن عبد المطلب وأمّ الفضل وعبد الله. وهاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب الطيار إلى الحبشة. (المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٢:٦١٨، تاريخ ابن خلدون ق ٢ ٢: ٨٥، تاريخ مدينة دمشق ٣٠:٤١٣، المصنّف لعبد الرزاق ٥:٤٤٩، كنز العمال ٥:٦٧٦، بحار الأنوار ٣٠:٥٦٨. (المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة لمحمد عبده ١: ٣٣.

ذات مرة، قال عمر: **«ما أرى، يا ابن عباس، صاحبك إلّا مظلوماً..»**[١].

- «فاردد إليه ظلامته يا أمير المؤمنين».

فوقف الشيخ هنيهة يهمهم كأنما يحدث نفسه، ثم عاد يقول:

«ما أظن القوم منعهم منه إلّا أن استصغروه...»[٢].

وأما الثانية، فمرَّ فيها بعلي، وهو بفناء داره ومعه ابن عمه ذات ليلة فألقى عليه السلام، ولما همَّ أن يسير الخليفة لشأنه هتف به ابن أبي طالب:

«أين تريد؟».

«البقيع».

«أفلا نصل جناحك ونقوم معك؟».

فوافق، وأشار علي لابن عمه أن يصحب عنه أمير المؤمنين. ومضى الرجلان فـي جوف الليل، الأمير صامت كأنما قد شغله التفكير، ورفيقه لا يحب أن يقطع عليه فكره بالحديث. حتى إذا جاوزا البقيع، التفت عمر إلى صاحبه، وقال:

- «يا ابن عباس... أما والله إن صاحبك لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، إلّا أننا خفناه على اثنتين..».

- «فما هما يا أمير المؤمنين؟».

- «خفناه على حداثة سنه، وحبه بني عبد المطلب».

---

١ ـ يعني علياً بن أبي طالب.

٢ ـ انظر السقيفة وفدك للجوهري: ٧١، حُلية الأبرار ٢: ٣١٧، كشف الغمة: ١٢٦، المناظرات فـي الإمامة: ٦٨، فتقول الرواية عن ابن عباس، فقلت في نفسي: هذه شر من الأُولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي‌بكر» وهي من الروايات المتفق عليها ـ رواية سورة براءة ـ ، رواها أحمد بن حنبل في مسنده ١: ٣، وصحيح الترمذي ٥: ٢٥٧، المستدرك للحاكم ٢: ٣٣١، تفسير الطبري ١٠: ٤٥، الدر المنثور للسيوطي ٣: ٢٠٩، الكشاف للزمخشري ٢: ٢٤٣، شرح نهج البلاغة ٦: ٤٥، فرائد السمطين ١: ٦١، وذكره العلامة الأميني (معاصر) في الغدير ٣: ٢٤٥ و٦: ٣٣٨، والسيد شرف الدين (معاصر) في كتابه «أبو هريرة»: ١٢٢. (المحقق)

وأما الثالثة، ففي بعض مجلس أمير المؤمنين، وقد جلس إليه نفر يتذاكرون الشعر والشعراء، ومرّ بهم إذ ذاك عبد الله بن عباس، فقال عمر للذين حوله، وهو يدعوه:

- «قد جاءكم الخبير...».

ثم التفت إليه يسأله:

- «من أشعر الناس يا عبد الله؟».

- «زهير بن أبي سلمى يا أمير المؤمنين».

- «فأنشدني بعض ما تستجيده له...».

قال ابن عباس:

«مدح قوماً من غطفان يقال لهم بنو سنان، فقال:

لو كان فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أومجدهم قعدوا
قوم سنانٌ أبوهم حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
أنسٌ إذا أمِنوا، جنٌّ إذا فزعوا	مرزّأون بها ليل إذا جهدوا
مُحسّدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر: «والله لقد أحسن.. وما أرى هذا المدح يصلح إلّا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله..».

وكأن عمر أراد أن يوائم بين رأيه هذا وبين ما سلف من قريش في حق هذا البيت الكريم، فراح يقول:

- «أتدري يا ابن عباس ما منع الناس منكم؟».

- «لا... يا أمير المؤمنين».

- «لكنني أدري».

- «فما هو؟».

«كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة فتجحّفوا الناس جحفاً فنظرت لأنفسها

فاختارت، ووفّقت وأصابت»[1].

ويبدو أنّ ابن عباس لم يكن متهيّباً هذه الآونة للسكوت فبادر إلى الجواب الذي ظل أعواماً يكتمه في نفسه ولا يفصح عنه.. قال لابن الخطاب:

«أيميط أمير المؤمنين عني غضبه؟».

فأجابه عمر قائلا: **«قل ما تشاء»**.

«أما قولك إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ... وأما قولك إنا كنا نجحف، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكننا قوم أخلاقنا من خلق رسول الله ﷺ الذي قال ربه فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ... وقال له: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ... وأما قولك إن قريشاً اختارت، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ ... وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه من اختار، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوُفّقت وأصابت!»..فتفكر عمر هنيهة، ثم قال وقد آذاه من ابن عباس هذا الحديث الصريح:

- **«على رسلك يا ابن عباس..! أبت قلوبكم يا بني هاشم إلاّ غشاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول»**.

- **«مهلاً يا أمير المؤمنين.. لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغش، فهي من قلب رسول الله الذي طهّره وزكاه، وإنهم لأهل البيت الذي قال لهم الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ - وأما الحقد فكيف لا يحقد من غُصِبَ شيئه ويراه في يد غيره؟..**

فغضب عمر، وصاح، وقد حضره في هذه الآونة أمر كان يكتمه:

- **«ما أنتَ يا ابن عباس؟... إني قد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به فتزول منزلتك**

---

١ - أنظر الجوهري في السقيفة وفدك: ٥٤، والبحراني في حلية الأبرار ٢: ٣١٨، والشيرواني في مناقب أهل البيت: ٤٥٢، وابن أبي‌الحديد في شرح نهج البلاغة ٢: ٥٨، ابن معصوم في الدرجات الرفيعة: ١٠٤، وابن الأثير في النهاية ١: ١٤٥. و (جحفاً) بمعنى: فخراً وشرفاً. (المحقق)

عندي...».

ـ«وما هو يا أمير المؤمنين؟... أخبرني به، فإن يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يكُ حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به..».

ـبلغني أنك لا تزال تقول: «**أُخذ هذا الأمر منا حسداً وظلماً**».

فأجاب ابن عباس:

ـ«نعم حسداً! وقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة.. ونعم ظلماً!.. وإنك لتعلم يا أمير المؤمنين صاحب الحق من هو.. يا أمير المؤمنين ألم تحتجّ العرب على العجم بحق رسول الله ﷺ، واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ﷺ؟ فنحن أحق برسول الله من سائر قريش»..

وبدرت إذ ذاك من الشيخ بادرة ليس فيها معنى الرضا عن سلوك هذا الفتى الذي لا يعيبه أن يمتلك نواصي الحديث بالحجّة وقوة الجدال، فلم يَرَ عبد الله بُداً من ترك المجلس.. فلما رآه عمر قائماً يريد أن يبرح، خشي أن يكون قد أساء إليه فأسرع يقول متلطِّفاً به:

ـ«أيها المنصرف! إني ـعلى ما كان منك ـلراعٍ حقّك».

فالتفت الفتى إليه يقول، ولم يزايله جدّه:

ـإن لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقاً برسول الله ﷺ، فمن حفظه فحقَّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقَّ نفسه أضاع!»..

ومضى عنه وفي أعقابه كلمات تقدير وإنصاف قالها الأمير للجالسين: «**واهاً لابن عباس!.. واهاً له.. فما رأيته لاحى أحداً قط إلّا خصمه**»[1].

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)، وأنظر شرح نهج البلاغة ٣:١٠٦ وفي طبعة ٢:١١٩ وفي أُخرى ١٢:٥٥، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣:٦٢، النهاية لابن الأثير ٢:١١٨ و١:١٤٥، الفائق ١:٤٢٥، مناقب الشيرواني : ٤٥٢، والايضاح للفضل بن شاذان : ١٧٢، ↵

بعد الطعنات الغادرة التي أصابت عمر بن الخطاب، وفي حالات صحوه، قبل الموت، سأله الناس: لمن عهدت يا أمير المؤمنين...».

فرفع عيناً إليهم، وإصبعاً إلى علي وقال:

«قد كنت أجمعت بعد مقالتي أن أولي رجلاً أحراكم أن يحملكم على الحق..».

ثم أتمّ حديثه، واهناً:

«.. ثم رهقتني غشية، فرأيت رجلاً دخل جنة فجعل يقطف كل غضّة ويانعة فيضمّها إليه ويصيرها تحته، فخفت أن أتحمّلها حياً وميتاً...»[1].

وكان قرار عمر الأخير، إرجاع الأمر إلى مجلس الشورى الذي اختاره والذي ضمّ مع علي بن أبي طالب: سعد بن أبي وقّاص وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله والزبير.

«قال العباس لعلي:

والمسترشد: ٦٨٨، وبحار الأنوار ٢٨: ٤٠٩، ٢٩: ٤٧٩ ـ ٦٢٩، وعمر بن الخطاب للبكري: ٣٧٥. (المحقق)

١ ـ تاريخ الطبري ٣: ٢٩٣، الفتوحات الإسلامية لأحمد زيني دحلان (مفتي مكة المكرمة) ٢: ٤٢٧ ط مصر ١٣٥٤ هـ. ويتضح من أقواله وأفعاله، إنه لم يكن حاسماً وصارماً ـ وهو على فراش الموت وفي لحظاته الأخيرة ـ لإرجاع الحق الى أهله. فهو يعيش حالة الوضوح في التذبذب وكأنه في حالة صراع نفسي رهيب بين الموقف الشرعي في إنصاف مظلومية علي عليه السلام وفق الاستحقاق، وبين رغبات كامنة تحركها رواسب تأريخية قديمة، ولم ير لهذه الأزمة النفسية مخرجاً إلاّ أن يجعلها في مجلس شورى لاضفاء طابع أكثر شرعية ـ معللاً هوى نفسه، وانعكاس رغبة الأمة في النتيجة التي يخرج منها المجلس ـ ولكن أرادها الخليفة عمر على طريقة المثل الشعبي القائل: «تريد أرنب أخذ أرنب، تريد غزال أخذ أرنب» وفي كلتا الحالتين يكون الخاسر هو علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا ما انتهى اليه الخليفة عمر بعد أن اختار مع علي عليه السلام خمسه من المهاجرين عارفاً برغباتهم وأهوائهم باستثناء الزبير الذي لم يستطع تجاوزه مع علمه لهواه واصطفافه مع علي عليه السلام، إلاّ إن الشرط الذي وضعه عمر والمتمثل في الميل الى الجهة التي فيها عبد الرحمن بن عوف لن يغيّر موقف الزبير موازين القوى المحسوبة بدقة متناهية، في أبعاد علي عليه السلام منها وإخراجه من اللعبة خاسراً! (المحقق)

«لا تدخل معهم؛

قال: أكره الخلاف،

قال: إذاً ترى ما تكره،

فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام فقال: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلّا فيكم. وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ. إني لا أخاف الناس عليكم إن استقتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة، ولكن كونوا قريباً، ووضع رأسه وقد نزفه الدم»[1].

وتشدّد عمر في موقفه قبل الموت كشأنه في حياته، فقال لأبي طلحة الأنصاري:

«يا أبا طلحة، إن الله عزّوجل طالما أعزَّ الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحثّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال لصهيب: صلِّ بالناس ثلاثة أيام وادخل علياً والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدَخ رأسه ـ أواضرب رأسه بالسيف ـ وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم، فحكّموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وقاتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس»[2].

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف) وأنظر شرح نهج البلاغة ١٩١:١.(المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه.(المؤلف) وأنظر أنساب الأشراف ١٦:٥ ـ ١٨، والإمامة والسياسة ٤٣:١، مناقب الشيرواني: ٣٤٩، العقد الفريد ٢٥٧:٢، تاريخ الطبري ٢٩٤:٣، تاريخ الكامل ٦٧:٣، شرح نهج البلاغة ١٩١:١، تاريخ المدينة للنمري ٩٢٥:٣، بحار الأنوار ٦٥:٣١، نشأة التشيع والشيعة، محمّد باقر الصدر: ٣٥. (المحقّق).

«فخرجوا، فقال علي لقوم كانوا معه من بني هاشم:

إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمّروا أبداً. وتلقّاه العباس، فقال: عدَلْتَ عنا!

فقال: وما علمك؟

قال: قُرِن بي عثمان،

قال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن صهر عثمان، لا يختلفون، ليولّيها عبد الرحمن عثمان، أويوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني، بله إني لا أرجو إلاّ أحدهما.

فقال له العباس:

لم أرفعك في شيء إلاّ رجعت إليّ مستأخراً بما أكره، أشرت عليك عند وفاة الرسول الله ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمر، فأبيتَ وأشرتُ عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت، وأشرتُ عليك حين سمّاك عمر في الشورىٰ ألا تدخل معهم فأبيت، احفظ عني واحدة، كلما عرض عليك القوم، فقل: لا، إلاّ أن يولوك، واحذر هؤلاء الرهط، فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر، حتى يقوم لنا به غيرها، وأيمُ الله لا يناله إلاّ بشرٌّ لا ينفع معه خير...»[1].

واستمر عبد الرحمن بن عوف في بذل الجهد لاختيار الخليفة الجديد «وبعث إلى علي، فقال له: **«إن لم أبايعك فأشر عليَّ؟ فقال: عثمان، ثم بعث إلى عثمان، فقال: إن لم أبايعك فمن تشير عليَّ، فقال: عثمان».**

ولما كانت الليلة الثالثة،

قال: يا مِسْوَر، قلت: لبّيك، قال: إنك لنائم، والله ما اكتحلتُ بغماض منذ ثلاث. اذهب فادعُ علياً وعثمان، قال:

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣: ٢٩٣، شرح نهج البلاغة ١: ١٩١ ـ ١٩٢.(المحقق)

قلت: يا خال، بأيّهما أبدأ؟

قال: بأيهما شئت.

قال: فخرجت فأتيتُ علياً ـ وكان هواي فيه ـ فقلت: أجب خالي.

فقال: بعثك معي إلى غيري؟

قلت: نعم.

قال: من؟

قلت: إلى عثمان.

قال: فأيُّنا أمرك أن تبدأ به؟

قلت: قد سألته فقال: بأيّهما شئت، فبدأت بك، وكان هواي فيك.

قال: فخرج معي حتى أتينا المقاعد، فجلس عليهما علي، ودخلت على عثمان فوجدته يوتر مع الفجر، فقلت: أجب خالي.

فقال: بعثك معي إلى غيري؟

قلت: نعم، إلى علي.

قال: بأيّنا أمرك أن تبدأ؟

قلت: سألته فقال: بأيّهما شئت، وهذا علي على المقاعد، فخرج معي، حتى دخلنا جميعاً على خالي، وهو في القبلة يُصلّي، فانصرف لما رآنا، ثم التفت إلى علي وعثمان، فقال: إني قد سألت عنكما وعن غيركما، فلم أجد الناس يعدلون بكما، هل أنت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيه، وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم لا، ولكن على جَهدي من ذلك وطاقتي، فالتفت إلى عثمان فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم نعم.

فأشار بيده إلى كتفيه وقال: إذا شئتما فنهضنا حتى دخلنا المسجد، وصاح الصائح: الصلاة جامعة، قال عثمان: فتأخرتُ والله حياءً لما رأيت من إسراعه إلى علي، فكنت في آخر

المسجد،

قال: وخرج عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التي عمّمه بها رسول الله صلى الله عليه وآله، متقلداً سيفه، حتى ركب المنبر، فوقف وقوفاً طويلاً، ثم دعا بما لم يسمعه الناس. ثم تكلم، فقال:

أيها الناس، إني قد سألتكم سراً وجهراً، عن إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، إما علي، وإما عثمان،

فقُم إليّ يا علي، فقام إليه فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم لا، ولكن على جَهدي من ذلك وطاقتي[١].

قال: فأرسل يده ثم نادى: ثم إليّ يا عثمان، فأخذ بيده ـ وهو في موقف علي الذي كان فيه ـ فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر؟

قال: اللهم نعم.

قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، ثم قال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان..»[٢].

ويعكس موقف علي بن أبي طالب في بيعة عثمان الجدل النفسي والعقلي الذي يُعبّر عن العلاقة بين رأيه بأحقّيته في الخلافة وبين التزامه بالقرار الذي توصّل إليه عبد الرحمن بن عوف، ومجلس الشورى.

قال عبد الرحمن مُذكراً عليّاً بالالتزام مردّداً الآية: ﴿فَمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ

---

١ ـ في مصادر أخرى كان نص جواب علي بن أبي طالب: «بل على كتاب الله وسنّة رسوله، واجتهاد رأيي» ويعلق عبد الفتاح عبد المقصود: «كان هذا هو الجواب الحاسم، الجدير بأن يلفظ به من له قوة خلق علي واعتداده بنفسه، ولن يضيره أن يفقد صولة أوملكاً بقدر ما كان يضيره لو آثر أن يصل إلى السلطان عن طريق حرية رأيه وجهره بما يعلم أنه حق أبلج لا تعتريه شبهة..» ـ الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

٢ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس. (المؤلف) والمصدر نفسه ٣: ٣٠٠ ـ ٣٠٢. (المحقق)

نَفْسِهِ...﴾.

فأجابه علي: **«حبوته حبو دهر!»**[١].

ثم التفت نحو قريش قائلاً:

«.. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون».

قال عبد الرحمن مبرراً:

«.. إني قد نظرت، وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان».

أجاب علي: **«والله ما وليت عثمان إلّا ليرد الأمر إليك..»**[٢].

وخاطب الناس: **«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَٱللهِ لأُسْلِمَنَّ مَاسَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، ٱلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذٰلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»**[٣].

ثم شدّ على يد عثمان بن عفان، وغادر المسجد متمتماً:

«سيبلغ الكتاب أجله!»[٤].

إن ثبات علي بن أبي طالب في رأيه معروف لدى الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة، وعامة المسلمين، وهو لم يخرج عن خط ثباته، إلّا أنه كان يُعالج إصراره في رأيه بزهده النادر، والذي كان قد عصم علياً من أن يكون سبباً في فتنة.

وحينما وصلت إليه الخلافة بالبيعة الشعبية، العلنية، التي لم تَخلُ من وجود معارضين، ما كان ذلك لينقص شيئاً من زهده، لأن زهده رافقه طوال سني خلافته، وقد قال لطلحة والزبير ذات مرة:

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣: ٢٩٧، تاريخ المدينة للنمري ٣: ٩٣٠، فتح الباري ١٣: ١٦٨.(المحقق)

٢ ـ تاريخ المدينة ٣: ٩٣٠، الكامل في التاريخ ٣: ٣٧، العقد الفريد ٣: ٧٦ ط ٢ تحت رقم (٥) من كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمّد عبده ١: ١٢٤، وينتهي قوله عليه السلام: من زخرفه وزبرجه. المناظرات في الإمامة: ٤٨، شرح نهج البلاغة ٦: ١٦٦، بحار الأنوار ٢٩: ٦١٢، الرقم ٢٧.(المحقق)

٤ ـ تاريخ الطبري ٥: ٣٧، شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٦٤.(المحقق)

«وَٱللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي ٱلْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلاَ فِي ٱلْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَىٰ كِتَابِ ٱللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا اسْتَسَنَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فَاقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَىٰ رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ، فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا، وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا...»[١].

ويبلغ زهد علي بن أبي طالب بالخلافة مبلغاً عظيماً، نادراً، يعلم به العدو قبل الصديق، وقد عَبَّرَ عن ذلك خير تعبير، وفي صورة تشبيه فذّة.

كان ـ يوماً ما ـ جالسا يخصف نعله (وهو في ذي قار)، وما إن انتهى منه حتى ثبّت نظره على ابن عباس، قائلاً له:

ـ يا ابن عباس... ما قيمة هذا النعل؟

ـ لا قيمة له يا أمير المؤمنين!

ـ والله لهي أحبّ إلي من إمرتكم، إلّا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً![٢]

كان ـ في ذلك ـ يلخص [مع زهده] منطلقه المبدئي، في أن السلطة أداة، ووسيلة، لإقامة الحق، ودفع الباطل.

ومن المنطلق المذكور كانت إشكالية السلطة في زمن خلافة علي بن أبي طالب، هي إشكالية السير في طريق تأدية السلطة لواجباتها، ووظائفها العادلة من جانب، والتخفيف من ثقل هيكلية السلطة، وأدواتها البيروقراطية من جانب آخر.

سلطة الحق

لم يكن هناك فاصل زمني واسع بين أفكار علي بن أبي طالب وتطبيقاته، رغم أن جو (المدينة) المضطرب، كان يمور بأسباب الصراع، والتآمر، والمناورة، والمداهنة.

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١١: ٧. (المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ٨٠، شرح نهج البلاغة ٢: ١٨٥.(المحقق)

فهو لم يأخذ النَفَس الطويل للتراخي في أموره المبدئية، وقد احتكم إلى رؤية التشخيص بأشد ما يكون الوعي مجال الناس المتلاطم، فلقد ازدحمت المدينة بالتيارات العديدة، واختلط الحابل بالنابل، وكان علي يرى ذلك الجو وما وراءه، وكان يعلم أن الفتنة التي أودت بعثمان هي فتنة عميقة ذات جذور بعيدة الغور، وأن انعكاسها الظاهر أقلّ من بُعدها كظاهرة، وقال في ذلك مُتنبئاً بفداحة الأزمات الآتية:

«... أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ)القِدْرِ، حَتَّىٰ يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ، وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا.

وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً، وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهٰذا المَقامِ وَهٰذَا اليَوْمِ....»[1].

وكان أول ما باشر عمله تحقيق المساواة الاقتصادية، على أساس أن العباد عباد الله، والمال مال الله، وهم شركاء فيه على قدر الجهد، لا على قدر التقوى، فجزاء التقوى عند الله، كما أوضحنا ذلك سابقاً.

وعزم علي بن أبي طالب على المعالجة الفورية لتركيبة السلطة، على أساس أن تطبيق المساواة والعدالة لا يمكن إنجازه إلّا من خلال أجهزة وأدوات وعناصر مؤمنة بالعدل الإسلامي، وبسياسة الحق، وقد كان أصل البلاء تفاقم الانتفاع اللامشروع، ونشوء ارستقراطية من داخل الحكم ذات سند مادي، وإقطاعات كبيرة.

ومن المؤكد أن المساواة لا تعني حرمان الناس من التقدم الاقتصادي، والرفاه، بل هي تعني إقامة علاقة عادلة مستقرة بين الثروة الاجتماعية والمجتمع، والحيلولة دون تركّز الأموال في طرف صغير محدود، وحرمان الطرف الأكبر منها. إن ثراء الأفراد في

---

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:٤٧، الكافي ١:٣٦٩ / ٨:٦٧، شرح الأخبار ١:٣٧١، كتاب الغيبة لمحمّد إبراهيم النعماني: ٢٠٢، عيون الحكم والمواعظ: ٥٠٧، بحار الأنوار ٥:٢١٨ / ٢٩: ٥٨٤ / ٣٢:٤٧ / ٦٥:١٨٢، شرح نهج البلاغة ١:٢٧٢، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١:١٤٩.(المحقق)

ظل ثراء المجتمع لا يشكل مشكلة حادة. ذلك لأن الخير العميم يحتوي ظاهرة ثراء الأفراد على نحو مشروع. أما المشكلة فهي استحواذ قلة من الآمرين والمتنفّذين على الأنصبة الوافرة من الثروة الاجتماعية، وانخراط غالبية الناس في دائرة الحرمان والعوز والإملاق.

وإن محدودية الثروة الاجتماعية، وأزمات الحرب والقحط والأوبئة، وغيرها، تجعل من العدالة الاجتماعية حقاً أبدياً للناس. لأن الثروة تنفذ بمرور الزمن، ويهلك الأثرياء، ولكن المجتمع يظل باقياً، فلا يرث إلّا الفقر والخراب، فيما لو كان العدل مفقوداً. وبذلك فإن الانحراف عن جادة العدل يلحق الضرر، ليس فقط بالمجتمع، بل وبالأجيال القادمة[1].

فالظلم يهلك القرى والأمم[2].

وإذ من غير الممكن تنفيذ سياسة العمل بالحق والعدل من خلال تركيبة خاطئة، أومنحرفة، أوبالارتكاز على الأسس التقليدية التي أوجدت التفاوت الطبقي الكبير وفتنته الهائجة، فإن أول مسعى سياسي لسلطة علي بن أبي طالب الإسلامية، كان يتمثل في مصادرة الأموال والأراضي التي استحوذ عليها بعض أقرباء الخليفة الثالث مستغلين كرمه وعطفه.

غير أن الإجراء الاقتصادي هذا – على أهميته – لم يكن الحل الجذري للمشكلة

---

١ ـ وهو القائل عليه السلام لابنه محمّد بن الحنفية: «يا بني إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت». ويعلق ابن أبي الحديد قائلاً: إذا أشتد الفقر فربما يحمل على الخيانة أوالكذب أواحتمال الذل أوالقعود عن نصرة الحقّ، وكلها نقص في الدين. انظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ٤:٧٦.(المحقق)

٢ ـ يقول علي عليه السلام أميرالمؤمنين: «ألا وأن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى «ان الله لا يغفر أن يشرك به» واما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات (أي الشيء اليسير والعمل الحقير) وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً. انظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢:٩٥.(المحقق)

الكبرى، التي كانت تتطلب حلاً سياسياً من أعلى مستوى، لا سيما، أن الانتفاعات الاقتصادية كانت متحصّلة عن طريق سياسي. ودونما مهادنة قرر عزل الولاة الذين انتفعوا كثيراً وحوّلوا الولاية إلى ملك.

ويكشف الحوار بين المغيرة بن شعبة والخليفة الرابع عن التصميم النهائي لعلي على سياسة العزل.

قال المغيرة: **«إن النصح رخيص، وأنت بقية الناس، وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد، والضياع اليوم تضيع به ما في غد، وإني مشير عليك أن ترسل إلى عمّال عثمان بعهودهم، أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، فإنهم يبايعون لك، ويهدئون البلاد، ويسكنون الناس».**

ويبدو- من الجانب السياسي - أن هناك مقتضيات عملية تدعو إلى المرونة. لأن الصخب السياسي أصبح مُنذراً بالخطر بعد مقتل عثمان الذي لا يمكن أن يمر بسلام.

لكن علياً بن أبي طالب اعتاد على وزن الأمور بميزان الحق، وما كان همُّه توفير مستلزمات التهدئة والتسوية للحفاظ على السلطة التي تبوأها منذ أيام. كانت سياسات مراكز القوى، قد انتقلت بالأمة إلى مستوى الدولة، وهبطت بالدولة إلى مستوى الحاكم وبطانته، وعلي بن أبي طالب يُريد إعادة الأمور إلى نصابها، فيدمج الحاكم والدولة بالأمة التي هي الأصل والأساس، والأول والأخير.

إن هذه الإرادة هي منهجه السياسي، النابع من فكره ومبادئه التي تشرّب بها من المصطفى محمد رسول الله ﷺ، فقال:

«والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي، ولا وليت هؤلاء، ولا مثلهم يولى».

فقال المغيرة: **«اكتب إليهم بإثباتهم، فإذا أتتك بيعتهم وطاعة الجنود استبدلت أوتركت»..**

فحسم علي الحوار:

- لا أدهن في ديني، ولا أعطي الدنيّ في أمري.

- فإن أبيت فانزع من شئت وأقرر معاوية، فإن لمعاوية جرأة، وهو في أهل الشام يُسمع

منه، ولك حجة في إثباته، إذ كان عمر بن الخطاب قد ولاه..

– لا والله.. لا استعمل معاوية يومين أبداً.

مرة ثانية، جاء المغيرة منقلباً على نفسه، قائلاً لعلي:

– إني أشرت عليك بما أشرتُ به فأبيت علي، ثم نظرتُ في الأمر فإذا أنت مصيب، لا ينبغي لك أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون في أمرك دُلْسة.

وكان رأي ابن عباس، أن المغيرة كان في المرة الأولى ناصحاً، وكان في الثانية غاشّاً.

قال ابن عباس: قلت لعلي، أما أول ما أشار به عليك فقد نصحك، وأما الآخر فغشّك، وأنا أشير عليك بأن تثبت معاوية، فإن بايع لك، فَعَلَيَّ أن أقلعه من منزله.

كان جواب علي بن أبي طالب واضحاً جداً منطلقاً من فطرته، وطبيعته القوية التي لا تعرف المراوغة، ولم تدع بين الفكرة والفعل مسافة أوفجوة.

ومن ذلك التطابق الجذريّ المتأسس في وجدانه، وعقله، ونشاطه، قال علي:

– لا والله، لا أعطيه إلّا السيف!

ثم تمثّل بهذا البيت:

ما ميتةٌ إن متُّها غيرَ عاجزٍ   بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها

فقلت:

– يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع لست بأرِب بالحرب، أما سمعت رسول الله ٩ يقول: «الحربُ خُدعة».

فقال علي: بلى..

فقال ابن عباس: أما والله لئن أطعتني لأصدرنَّ بهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون في دُبُر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها، في غير نقصان عليك ولا إثم لك.

فقال:

– يا ابن عباس لستُ من هنيئاتك وهنيئات معاوية في شيء، تشير عليَّ وأرى، فإذا عصيتك فأطعني.

قال: فقلت: أفعل، إن أيسر ما لكَ عندي الطاعة[1].

هل كان هيّناً على علي بن أبي طالب أن يقعد مع ابن عمه اتفاقاً خاصاً لمعالجة أمر معاوية بالمرونة والتكتيكية التي أرادها ابن عباس؟

لا.. لأنه في ذلك لن يكون علياً نفسه، المجبول على الوضوح التام، والصراحة التامة، والذي يرفض الخداع، والوصولية.

هنا يتجلى الفارق بين رجل المبدأ ورجل السياسة، وعلي بن أبي طالب رجل مبدأ، وكان يهجر لغة السياسة التي تستعير الوسائل المتعددة، والمتقلّبة من أجل تحقيق الهدف.

ورغم أن احتدام الأوضاع، وازدياد النقمة، وقيام القائمين بالمطالبة بالثأر لدم عثمان، واستغلال الفرصة من قبل المغامرين، والطامحين، والحاقدين، والثائرين، وأن كلاً يبحث عن مأربه، فكان يفترض - من الناحية السياسية - التحرك بمرونة، والاسترضاء، مع الإبقاء على بعض الولاة، وتأجيل بعض التناقضات لأجل حلّ تناقض آخر، وهلمّ جراً، فإن طبيعة علي الحقّانية كانت على غير ذلك.

كان يرى الرأي، فيثبت عليه، وخاصة في معرض إدانة الخصوم والناكثين. فاختار سنة ست وثلاثين عماله وفرّقهم على الأمصار.

كان في البداية يريد أن يوجّه ابن عباس إلى الشام، قائلاً له:

- سر إلى الشام، فقد ولّيتكها.

فقال ابن عباس: ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أمية، وهو ابن عم عثمان،

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣: ٤٦٢، وينسب بيت الشعر للاعشىٰ:

ما ميتةٌ ان متها غير عاجز ... بعارٍ إذا ما غالت النفس غولها

انظر الطبري في تاريخه ٥: ٣٤٣، وورد هذا البيت على لسان الكثير من رجالات التاريخ، فقال أبو الغنائم من أحب الحياة ذلّ ثمّ تمثل بقول الاعشىٰ فـ«ما ميتةٌ...» ذكره الطبري ٦: ٨٥. وورد الحوار نصاً ـ أيضاً ـ في تاريخ ابن خلدون ق ١ ٢: ١٥٢. (المحقق)

وعامله على الشام، ولستُ آمن أن يضرب عنقي لعثمان، أوأدنى ما هو صائغٌ أن يحبسني، فيتحكّم عليَّ.

فقال له علي: ولِمَ؟

قال: لقرابة ما بيني وبينك، إن كل ما حُمِل إليك حُمِل علي، ولكن اكتب لمعاوية، فمنِّه وعِدْهُ.

فأبى علي وقال: والله لا كان هذا أبدا![1].

وقرر علي بن أبي طالب أن يبعث عماله إلى الأمصار: عثمان بن حُنيف إلى البصرة، وعبيد الله بن عباس إلى اليمن، وقيس بن سعد إلى مصر، وسهل بن حنيف إلى الشام.

«وأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل، فقالوا: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أى شيء؟ قال: على الشام، قالوا: إن كان عثمان بعثك فأهلاً بك، وإن كان بعثك غيره فارجع[2]؟

سياسياً، كان القصاص من قتلة عثمان بن عفان مبدأ إسلامياً أساسياً، وكان شعار المطالبة بالثأر لدم عثمان قد تجمّع تحت لوائه الكثير من الناس، ولم يكن كل المطالبين بالثأر متشابهين في منطلقاتهم وأهدافهم، ومثلما اختلط في الثورة ضد عثمان أناس كثيرون من مختلف الملل، والمشارب، والأغراض، والمطامع، فإن معسكر الثأر لدعم عثمان انطوى على اتجاهات وأغراضٍ شتى.

وبعد بيعة علي بن أبي طالب، كانت قضية القصاص قضية الخلافة الأولى، لكن القصاص لم يكن في طوقه وحده، ذلك لأن المدينة اكتظّت بالثائرين المصريين، والكوفيين، والبصريين والأعراب، والعبيد، الذين سيطروا على المدينة، سيطرة كاملة.

وكما قال علي بن أبي طالب واصفاً واقع الحال لطلحة والزبير وعدة من الصحابة:

---

١ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس (المؤلف)، والمصدر نفسه ٣:٤٦١، تاريخ مدينة دمشق ٥٩:١٢٢. (المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٣:٤٦٢، الثقات لابن حبان ٢:٢٧٣، الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ١٠٠.(المحقق)

«يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلٰكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَٱلْقَوْمُ ٱلْمُجْلِبُونَ عَلَىٰ حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ! وهَاهُمْ هٰؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَٱلْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَىٰ شَيْءٍ، تُرِيدُونَهُ؟! إِنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ مَادَّةً.

إِنَّ النَّاسَ مِنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ ـ إِذَا حُرِّكَ ـ عَلَىٰ أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَىٰ لَا هٰذَا وَلَا هٰذَا، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَهْدَأَ النَّاسُ، وَتَقَعَ ٱلْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ ٱلْحُقُوقُ مُسْمَحَةً؛ فَاهْدَأُوا عَنِّي، وَٱنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي... »[1].

وجاء خروج طلحة والزبير عن المدينة مدعاة لتأجيج الصراع، وقد كان علي بن أبي طالب قد أبلغهما قبل الخروج قائلاً:

«إن الذي كنت أحذركم قد وقع يا قوم، وإن الأمر الذي وقع لا يُدرك إلّا بأمانته، وإنها فتنة كالنار، كلما سُعّرت ازدادت واستنارت». فقالا له: فأْذَن لنا أن نخرج من المدينة، فإما أن نُكابر وإما أن تَدَعنا، فقال: وَسَأُمْسِكُ ٱلْأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ ٱلْكَيُّ»[2].

أنموذج الكوفة

يرى عبد الفتاح عبد المقصود – محقاً – أن: «بنفس الأسلوب الذي بنى به محمد دولته الناشئة بالمدينة، مضى ابن عمه يبني في الكوفة، ولا هوادة في حق أومساومة في باطل. لا انحراف قط عن الخطة المثلى التي اختطها الله في كتابه سبيلاً للناس يسمو بالبشرية عن وهدة الضلالة والجهالة العمياء. فمن اليوم الذي انتهى إليه أمر أمته كان الإمام في قرارته يشعر بأن

---

١ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس.(المؤلف)، وأنظر الفتنة ووقعة الجمل للضبي: ٩٧، ومثله في نهج البلاغة لمحمّد عبده ٢: ٨٠، شرح نهج البلاغة ٩: ٢٩١، بحار الأنوار ٣١: ٥٠٢.(المحقق)

٢ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)، وأنظر تاريخ الطبري ٣: ٤٦٣.

عليه عبء تقويم الجماعة الإسلامية على النسق الذي أرادها عليه الرسول صلى الله عليه وآله..»[١].

أما لماذا اختار علي بن أبي طالب الكوفة، فثمة آراء عديدة – في هذا الشأن – منها أن الكوفة هي موئل أنصاره المخلصين، ومنها أنها تتوسَّط بقاع الإسلام، ومنها أنها أدنى بلدة في الأمصار من دمشق فلا تخفى عليه فيها خافية مما يبيت له معاوية بالشام[٢].

ويرى عبد الفتاح عبد المقصود أن هناك – علاوة على كل الأسباب المذكورة – سبباً مهماً في اختيار علي الكوفة. فيقول:

حين نكّر بالزمن خطوة إلى الوراء، بضعة أعوام، نرى ثمة عاملاً يتبدى في ضياء الحوادث المضطربة حينذاك ثم يسبح مناضلاً حتى يبلغ بنفسه أكداس السخط المتجمّعة كالهشيم فيشعل فيها النار! إن عزة الكوفة بأنصار علي، وتوسّط منزلها، ودنوّها من موطن دسيسة الأموي الأول، كانت لا ريب دوافع ليست منكورة الخطر، ذات أثر في اجتبائها حاضرة، ولكنها لا تحيط بكل الأسباب. إنما نجد ذلك العامل الذي أجّج الفتنة على عثمان في ذيل عهده، كان هو صاحب اليد الطولى في الخبرة، وبريشته وحدها تلوّن مصير المدينة، وتلوّن مصير البلدة التي قامت اليوم تتزعم بلاد الإسلام، وتلوّن من بعد كذلك مصير هذه الأمة الناشئة مدى أجيال وحقب طويلة. في الكوفة، حينذاك بزغ فجر القوميات...»[٣].

كانت فكرة علي بن أبي طالب الأساسية أن تكون الكوفة أنموذجاً إسلامياً للحكم، يعتمد على العلاقة المباشرة بين الخليفة والناس، تلك العلاقة التي يضبطها المسجد الجامع، والصلة الحرة المباشرة، في الأسواق، وفي ميادين العمل، وفي ساحات القتال، حيث لا حدود، ولا مسافات، ولا أسيجة تفصل المواطن عن الخليفة.

وكانت الحلول لكل المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، لا توضع في عهدة بيروقراطية متنفذة، أوفي أطر متعالية، سرّية، بل هي توضع في مجرى الصلة

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف) ٢ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

٣ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

الحية، المباشرة، وفي مجرى الحوار المتدفق بين أفراد المجتمع، رعاة ورعية.

وكان ذلك يجنّب الدولة الكثير من مشقات، ونفقات التضخم الإداري، البيروقراطي، ويعيد الدولة إلى طبيعتها الجماهيرية، إلى أصلها الذي قامت من أجله.

وفي الحوار الدائم بين السلطة والقاعدة الاجتماعية، يصبح المواطن قوة فعالة، تضمن الدولة حقوقه، ويضمن هو للدولة واجبه نحوها في البناء، وفي الجهاد، وفي الإنتاج، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كان أنموذج الكوفة هو أنموذج (التسيير الذاتي)، فالدولة هي المواطنون، هي المجتمع، وليس قوة فوقية رابضة فوق الناس، تخنقه، وتزهق روحه، وتستعبده.

ابتدأ علي بن أبي طالب خلافته بالاختيار الشعبي العارم في المدينة فخطب، وكان يحمل نعله بيده، وحين استقر به الأمر في الكوفة، رفض (قصر الخبال - قصر الإمارة)، ورفض مظاهر التعظيم التي كان يرغب بها بعض أشياعه.

وكانت نظرة الحق تريه أن الناس سواسية، فكان يرفض رفضاً باتاً سياسة التمييز القومي، والشوفينية القرشية، التي كانت تروم تحويل تراث النبي العظيم إلى مكاسب خاصة. فالإسلام دين البشرية الذي دخلت تحت لوائه أمم وشعوب وقوميات مختلفة، فلا محل - إذن - لأي استعلاء قومي، ولأية عرقية، مثلما، لا محل لأية هيمنة أرستقراطية مغالية.

وحقيقة الأمر أن العرب الأقحاح كانوا حريصين على وحدة الصف الإسلامي، على أساس الوحدة البشرية الإسلامية، التي لا ترفع قومية على أخرى درجات، ولا تحوّل القوميات المنتمية إلى الإسلام إلى قوميات تابعة ذليلة.

ولكن الارستقراطية المالية، والعقارية، هي الوحيدة التي عبثت بالمنظور الإسلامي، فأصبح نهجها الأرستقراطي في المال، والعقار، وفي الحكم، منهجاً في الاستعلاء القومي، واحتقار القوميات الأخرى، فانبعث الاسترقاق بصورة أخرى أكثر خطراً، وذلك باحتمائه بالحصانة القرشية، كأن قريشاً لم تكن قبل سنوات - ليست كثيرة -

خصم النبي، وعدوّه الشديد. ولم تكن الهجرة إلى المدينة، وخاتمة حياة النبي في المدينة، وقيام الخلافة الإسلامية في حاضرة المدينة، إلّا الدليل الأكيد على الحرص العظيم للنبي الكريم على الحفاظ على قيمة الدرس التأريخي.

ولكن حين امتد عبث الأوليغارشية القرشية إلى المدينة، وراح الخليفة المغدور عثمان بن عفان ضحية ذلك، وجد علي بن أبي طالب، أن إبعاد مركز الخلافة عن (المدينة) بعد أن اجتاحتها عواصف النقمة، وتيارات الدم، وبعد أن سال دم الخليفة إثر مذبحة وحشية قذرة، أصبح أمراً لازماً.

فكان اختيار الكوفة!

المهم أن الكوفة كانت مركزاً للاجتهادات الإسلامية، وكانت خلية نحل في هذا الشأن، كما أنها كانت على انفتاح واسع على العناصر القومية المختلفة، وقد خاضت – بنفسها – التمرد على سعيد بن العاص، عامل الخليفة عليها، والذي تحدّى أهلها قائلاً إن سواد العراق قنية خالصة لقريش، من دون سكانه الأصليين، فثار عليه الأشتر، وصعصعة بن صوحان[1].

لم يكن تصرف سعيد بن العاص ترجمان حاله بحسبانه عامل الخليفة الثالث على الكوفة، بل كان يتصرف وكأنه رسول الأرستقراطية والأوليغارشية القرشية، التي ترى في الأمصار إقطاعات وضياعاً لها[2].

كان وجه من وجوه الهياج الشرس في زمن عثمان بن عفان، سخطاً ضد

---

١ ـ الغارات ١: ٢٩٠، السقيفة وفدك: ٨٣، شرح الأخبار ١: ٣٤٢، وسعيد بن العاص هو الذي هدم دار علي بن أبي طالب ودار عقيل ودار الرباب بنت امرئ القيس وكانت تحت الحسين وهي أمّ سكينة. (شرح الأخبار ٣: ٢٦٩).(المحقق)

٢ ـ ان سعيد بن العاص كان أمير الكوفة، بعث مع ابن أبي عائشة مولاه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام بصلة، فقال علي عليه السلام: «والله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا ممّا أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة، والله لئن بقيت لأنفضنها نفض القصاب الوذام التربة» انظر السقيفة وفدك للجوهري: ٧٧.(المحقق)

الأوليغارشية القرشية، وضد الشوفينية، والعنصرية، من قبل قوميات أو أقليات، أو فئات مستضعفة، وجدت في الإسلام اكتشافها لذاتها، ولهويتها الإنسانية، ولحقّها في الحياة الحرة الكريمة.

فكانت رؤية علي بن أبي طالب رؤية الإسلام، وكان منطقه منطق الإسلام، فخاطب جماعته:

«.. إن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء، أسودكم وأحمركم، وجعلكم من الوالي، وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد، وبمنزلة الولد من الوالد الذي لا يكفيهم منعه إياهم طلب عدوه والتهمة، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذي عليكم، وإن حقكم أيضاً لكم، والتعديل بينكم، والكف عن فيئكم، فإذا فعل ذلك معكم، وجبت عليكم طاعته، بما وافق الحق.. ونصرته على سيرته، والدفع عن سلطان الله، فإنكم وزعة الله في الأرض..»[١].

لقد استنبط أفكاره من النور المحمدي، والمساواة المحمدية، ولم تكن تبعد عن ذهنه، وعن سياسته الأحاديث النبوية الرائعة، والهادية:

«الناس سواسية كأسنان المشط، و«ليس لعربي على أعجمي.. ولا لأسود على أبيض فضلٌ إلّا بالتقوى»[٢].

---

١ ـ وقعة صفين لابن مزاحم: ١٢٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد ٣: ١٩٥، بحار الأنوار ٧٢: ٣٥٦، ونهج السعادة لمحمد باقر المحمودي (معاصر) ٤: ٢٤٤. (المحقق)

٢ ـ قوله تعالى ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ سورة الحجرات، الآية: ١٣، وقال الرسول ﷺ: «لا فضل لعربي على اعجمي إلّا بالتقوى». المبسوط للسرخسي ٥:٢٣، البحر الرائق لابن بخيم المصري ١:٤٥٤، شرح اللمعة للشهيد الثاني ٦:٢٢١، مسند أحمد ٥:٤١١، نيل الأوطار للشوكاني ٥:١٦٤، مجمع الزوائد ٣:٢٦٦، البيان والتبيين ٢:٢٥، العقد الفريد ٢:٨٥، تاريخ اليعقوبي ٢:٩١، دراسات في نهج البلاغة لشمس الدين: ٣٦.(المحقق)

علي والشورى

إن سياسة الشورى في الإسلام، منصوص عليها في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي، ففي سورة آل عمران، جاء النص:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

وفي هذه المشاورة فائدتان:

الأولى: تأليف قلوبهم وإشاعة المودة بينهم نتيجة للمشاورة.

الثانية: تعويد للمسلمين على هذا النهج في معالجة الأمور لأن الرسول عليه السلام الأسوة الحسنة لهم، فإذا كان يلجأ إلى المشاورة فهم أولى أن يأخذوا بها[2].

وهناك سورة باسم سورة «**الشورى**»، ومنها هذه الآية: **﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**[3].

وقد وردت أحاديث نبوية في أهمية الشورى، منها:

«ما تشاور قوم قط إلّا هدوا لأرشد أمرهم»[4].

«ما ندم من استشار ولا خاب من استخار»[5].

«ما شقي قط عبد بمشورة، وما سعد باستغناء رأي»[6].

«المستشار مؤتمن»[7].

---

١ ـ سورة آل عمران: الآية ١٥٩.(المحقق)

٢ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

٣ ـ سورة الشورى: الآية ٣٩.(المحقق)

٤ ـ فتح الباري ١٣:٢٨٣، تفسير القرطبي ١٦:٣٦، الدر المنثور ٦:١٠، تفسير الثعالبي ٥:١٦٥. (المحقّق).

٥ ـ تفسير القرطبي ٤:٢٥٠، ٢٥١.(المحقق)

٦ ـ تفسير القرطبي ٤:٢٥١.(المحقق)

٧ ـ الحدائق الناضرة للمحقق البحراني ٢٥:١٤٨، شرح الأزهار للإمام أحمد المرتضى ٤:٥٩١،

وعن علي بن أبي طالب قوله: «**سئل رسول الله ﷺ، عن العزم، فقال: مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم**»(١).

وقد مارس الخلفاء الراشدون نهج الشورى، الذي أصبح له – بعد غياب الرسول – دور خاص، بعد افتقاد (الوحي)، فكان الخلفاء الراشدون، قد اختطوا سياسة الشورى، ولكن، في تباين الأسلوب، حتمته طبيعة الظروف المتغيرة.

وبعامة، كان ميل الخلفاء الثلاثة إلى اتباع الشورى، باعتماد (صفوة أهل الرأي)، من العناصر المبرزة في الإسلام.

مما دعا بعض المستشرقين الغربيين (وبخاصة يوليوس فلهوزن) إلى الاصطلاح على أهل الشورى بالارستقراطية الإسلامية. وهو يعني، بالمقياس الإسلامي، واعتباراته: «**اعتماد الحكم على أصحاب الكفايات الممتازة، وبعبارة أخرى فإن أهل الرأي والشورى كانوا يمثلون الطبقة الممتازة في المجتمع الإسلامي..**»(٢).

غير أن أهل الشورى في عهد أبي بكر قد تغيّر وضعهم عن أهل الشورى في عهد الرسول عليه السلام، فقد توفي الرسول والحكم الإسلامي يكاد يقتصر على المدينة ومكة. أما في عهد أبي بكر فقد بدأت المدينة تمثّل دور عاصمة الدولة الإسلامية، وبدأت المشاكل السياسية والاجتماعية، التي كان يحجبها وجود الرسول عليه السلام تظهر في عهد أبي بكر. ومن الحقائق التي لا شك فيها أن الإسهام في سياسة الدولة لم يكن مقرراً لعامة الأمة الإسلامية وإنما انفرد به أهل المدينة وحدهم ومنهم الذين يمثّلون الصفوة الممتازة من صحابة الرسول ﷺ، ومنهم القواد والعلماء وأهل التقوى

ⓗ كشف القناع للبهوتي ٥: ٩، المحاسن للبرقي ٢: ٦٠١، الوسائل (تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام) ١٢: ٤٤ / ٢٢: ٩ / ٨: ٤٢٧ / ٥: ٢٦٨، الغارات ٢: ٩١٩ و٩٢٣، وأحمد بن حنبل في مسنده ٥: ٢٧٤ والقول تارةً ينسب للرسول ﷺ وأُخرى لعلي عليه السلام.(المحقق)

١ ــ تفسير ابن كثير ١: ٤٣٠، الدر المنثور ٢: ٩٠، فتح القدير للشوكاني ١: ٣٩٥.(المحقق)

٢ ــ د. يعقوب محمد المليجي: مبدأ الشورى في الإسلام.(المؤلف)

والورع.

أما الأعراب، سكان البادية، الذين بقوا لا يعملون شيئاً مع قطعانهم وفي ديارهم، فلم يكونوا يُعتبرون متساوين في ممارسة النشاط السياسي مع أهل المدينة بصفة عامة، والصحابة البارزين على وجه الخصوص»[1].

وحسبما يرى المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن في كتابه: «تأريخ الدولة العربية» فإن هؤلاء الأعراب لم يكونوا يعتبرون مواطنين بالمعنى الكامل، بل كادوا ألّا يُعدّوا مواطنين على الإطلاق[2].

وفي عهد عمر بن الخطاب (١٣ – ٢٣ هـ)، الذي تحمّل مسؤولية حكم الدولة الإسلامية الكبرى لفترة زمنية طويلة، كان اعتماده على أهل الرأي مشهوراً، فكانت به شورى خاصة، وهم خاصّته من كبار الصحابة والقراء يجمعهم لاستشارتهم كلما جدَّ أمر، كما فعل في مسأله تقسيم الأراضي المفتوحة أوفرض الخراج.

و«**الذي يدل على مبلغ اهتمام عمر بأهل الشورى هو تشدّده في المحافظة على أصحاب الرأي وأهل المشورة وضنّه بهم على العمالة والوظائف العامة في أطراف الدولة تنزيهاً لأقدارهم وانتفاعاً برأيهم**»[3].

وكان عمر قد عهد إلى «**مجلس الشورى**» أن يختاروا خليفة للمسلمين، بعده، وهؤلاء «**لم يكونوا جماعة المسلمين، ولم يشرك الأمصار بأي صورة في ذلك الاختيار، بل كانت المدينة المنورة وحدها هي المدينة الرئيسية التي تتقرر فيها أخطر أمور الدولة الإسلامية، بل وفي المدينة نفسها أغفل شأن الأنصار إغفالاً تاماً**».

و«**كان اهل الشورى هم أقدم ستة كانوا لا يزالون أحياء من أصحاب النبي، أما بقية أهل المدينة فلم يكن لهم إلّا الحق في المبايعة لمن ينتخب فكان لابد أن تجيء البيعة بعد الانتخاب،**

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)   ٢ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

٣ ـ يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية.(المؤلف)

وكان لا بد أن تتم البيعة في المدينة»[١].

وبمنطقه الاستشراقي الغربي، يشّبه المستشرق الألماني (فلهوزن) أصحاب الشورى الستة المجتمعين لاختيار واحد منهم للخلافة يتفقون عليه، بأنهم كانوا كأنهم مجلس من الكرادلة[٢].

أما في زمن عثمان بن عفان (٢٣ – ٣٥ هـ) فإن **«الحديث عن أهل الشورى يكاد يكون في الوقت نفسه حديثاً عن الفتنة الكبرى لسبب بسيط، هو أنهم كانوا سبب هذه الفتنة، فإن عثمان لم يسلك مسلك سلفيه أبي بكر وعمر في اختيار أهل الشورى، بل كان أول من اعتمد على ذوي قرباه من بني أمية.. فترك لهم الأمر كله: أمر الحكم وأمر السياسة معاً»**[٣].

«فاتخذ ابن عمه مروان بن الحكم كاتباً له في المدينة (يلاحظ أن وظيفة كاتب كان لها حينئذٍ شأن كبير وهي تعادل اليوم حامل أختام الملك السكرتير الخاص)، وقد ترك عثمان الأمر لمروان، فقام هذا يملأ كل مناصب الولاية بأهل قرابته. ونحن لا نُبالغ إذا قلنا إن أهل الشورى جميعاً كانوا من بني أمية في عهد عثمان.

ولذلك أثار عثمان على نفسه زملاءه بقية أعضاء الشورى الخمسة، كما وجد كبار الصحابة على بني أمية، وساءهم أن يتبوّأوا هذه المنزلة السامقة وماضيهم معروف في محاربة الإسلام حتى عام الفتح. ولذلك حاولوا أن يبعدوا عثمان عن هذه البطانة الأموية، فلما فشلوا في ذلك عمدوا إلى مناوأته وتقويض هيبته في المدينة، وغذّوا سخط الساخطين عليه، فيها وفي «الأمصار» أي أن (أهل الشورى) تقلّصوا إلى طائفة من أهل المدينة خاصة، هي قرابة البيت الحاكم من بني أمية، وعادت عصبية العشائر والقبائل كما كانت وإن لبست ثوباً سياسياً يخفي الثارات القديمة والأحقاد والتراث الدفينة[٤].

---

١ ـ عباس محمود العقاد: عبقرية عمر.(المؤلف)

٢ ـ د. يعقوب محمد المليجي: مبدأ الشورى في الإسلام.(المؤلف)

٣ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

٤ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

أما في زمن علي بن أبي طالب (٣٥ ـ ٤٥ هـ)[١] فإن الشورى اتّسعت لديه، فتجاوزت حدود الفئة (الصفوة المختارة) وأصبحت تشمل جماعة المسلمين. **«فبينما اعتمد أبو بكر وعمر على خاصة أهل الرأي في المدينة، وبينما ارتكز عثمان على حزب بني أمية من ذوي قرباه، إذا بعلي يصرف عن هذا وذاك، ويعتمد على جمهور الأمة الإسلامية، كما لم يفعل خليفة ممن سبقه، وإذا به يجعل أهل المشورة في أخطر أمور الدولة هم آلاف الأفراد لا أحادهم، وجنود الجيش لا قواده... وقد سار في ذلك النهج إلى المدى الذي أودى فيه بالخلافة نفسها، وبمركزه فيها..»**[٢].

فكانت مبدئية علي العامل الأساسي في استمرارية نهجه الشعبي، الذي تضامن معه اختيار الشعب في بيعة شعبية علنية واسعة، وليس في اختيار خليفة، أومجلس شورى.

كما قال صاحب العقد الفريد: **«لما قتل عثمان بن عفان أقبل الناس يهرعون إلى علي فتراكمت عليه الجماعة في البيعة، وتقدم طلحة والزبير ثم المهاجرون والأنصار، ثم أقبل الناس فبايعوه...»**[٣].

أي أن بقية أهل الشورى، جاؤوا إلى بيعة علي من خلال الإرادة الشعبية الكاسحة.

إن علياً الذي اجتمعت الأهواء على حربه، وتنكّر له رجاله، لم تنفرد باختياره الخاصة في مجتمع محدود، بل انتخبه أقوام من المدينة، والبصرة، والكوفة، ومصر ـ أمهات بلاد الإسلام وأقطاره ـ كانوا يمثلون إلى حد كبير التيارات السياسية الشعبية والتي ترك لها حق اختيار خليفة من بعده، إذ قال، وهو على فراش الموت، حينما سأله القوم استخلاف (الحسن): لا آمركم ولا أنهاكم!»[٤].

---

١ ـ والصحيح (٣٥ ـ ٤٠ هـ).

٢ ـ د. يعقوب محمد المليجي: مبدأ الشورى في الإسلام. (المؤلف)

٣ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، شرح نهج البلاغة ٤: ٨، الثقات ٢: ٢٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٩: ٤١٩، الطبري: ١٥٣، الإمامة والسياسة ١: ٦٦ تحقيق الشيري / ١: ٤٧ الزيني، المناقب للخوارزمي: ٤٩، أسد الغابة ٤: ٣١، كشف الغمة ١: ٧٧.(المحقق)

٤ ـ نظم درر السمطين: ١٤٠، المناقب للخوارزمي: ٣٨٤.

فكان في ذلك في ذروة التطابق مع نهجه العادل في الديموقراطية، وفي الإقرار بحق الناس في اختيار الخليفة أوأمير المؤمنين.

وكان هذا المظهر الشعبي الذى اصطبغ به انتخاب علي هو في الواقع نكسة شعبية أصابت الاتجاه الارستقراطي. ولم يكن نهج علي في الشورى الجماعية إلّا تجسيداً لمبادئه وأفكاره، وتجاوباً طبيعياً مع الإرادة الشعبية التي اختارته.

السلطة أداة ووسيلة

ورد في التشخيصات الآنفة أن السلطة في زمن الخليفة علي بن أبي طالب هي سلطة الحق، وكان علي ـ نفسه ـ الضمانة الكبرى والأساسية لاتّصاف السلطة بالعدل. لقد كان ـ بذاته ـ سلطة خارج السلطة. وهذا هو الفارق الجوهري بينه وبين سواه من رؤساء الحكم الذين هم في حقيقة حالهم عبيد السلطة، مثلما يكون بعض الأثرياء الكبار عبيد المال.

كان الحكّام يتحصّنون بالسلطة، فيعمدون إلى تحويلها إلى أخطبوط ضخم، ضمن تصوّرات منحرفة مؤداها أن عظمة سلطانهم، تتولّد من عظمة أجهزة سلطتهم.

وما من شك في أن إغراء السلطة إغراء عظيم، وخاصة في البلدان ذات التركيب القبلي، لأن دورات البنية القبلية، وهي دورات فكرية كما هي دورات اجتماعية لولبية، أومتشابهة، تنعكس على بنية السلطة بأشكال وتعبيرات مختلفة.

والواقع أن السلطة ـ أية سلطة ـ قائمة ـ أصلاً ـ على التراتب، والتسلسل ومن أعلى إلى أسفل، في سُلم الوظائف، وفي توزيعها على مختلف ميادين النشاط، إضافة إلى أنها في علاقتها بالمجتمع، ليست جزءاً حيوياً منه، كما ينبغي، بل هي تتحول إلى قوة وظيفية فوقه. وذلك نابع ـ بالدرجة الأولى ـ من طبقية المجتمع، وسيطرة الفئات القوية المتمركزة بالنفوذ الاقتصادي والاجتماعي، على غالبية المجتمع، وهم الفقراء والقاعدة الشعبية العريضة.

وتخرج السلطة عن المهمة التعاقدية لها، والتي تحدث عنها **«جان جاك روسو»** في إطار تصوّراته عنها كحل تعاقدي بين الطبقات المتعارضة نفسها. فالصراع الطبقي، في حقيقته، أخطر مما يُرى، وأعظم مما يكشف عن نفسه.

ولا تنفع التعاقدات في وضع حلٍّ جذري لمسألة طويلة الأمد عانت منها البشرية أفدح المعاناة، لأن الحل الجذري يتطلب التوصل إلى معادلة متكاملة تضمن عدالة العلاقة بين الثروة والمجتمع على أساس استمرارية الدفاع عن مصالح الأجيال القادمة.

وتفيد حتمية موت الإنسان في البرهان على نسبية الثراء، وخدعته الزائلة، بالمقياس الفردي، لذلك تناضل البشرية من أجل إثراء المجتمع، كمجتمع، وإسعاد الفرد من خلال ذلك.

فمن الموت يستنبط المفكرون والسياسيون فكرة العدل، نظراً إلى أن الموت حجّة ضد الأشياء الزائلة، مثل الثروة، والسلطة.

ويتعامل الفكر البشري مع الاثنتين: الثروة والسلطة، وفقاً لنسبيّتهما، في حين يتعامل الفكر الضيّق (الطبقي، والمصلحي) على أساس الوهم الذي يصوّر له أبديتهما.

إن حياة محتومة الموت، قد استنفرت منذ تأريخ بعيد في عمر البشرية، كل الأفكار الإنسانية المشروعة الهادفة إلى السعي من أجل جعل الحياة سعيدة، ولا يتوفّر ذلك إلّا بالعدالة.

وتشغل مقولات: الاستحقاق، والكفاءة، مكانتها الجديرة بها، بضوء أبدية العدل، وقيمته الثابتة، لا باعتبارها استحواذاً، وكسب غنائم مؤدية إلى الامتياز.

وإذا ما ترتّبت على النجاحات السعيدة امتيازات معينة، فهي امتيازات عقل يخدم البشرية، التملص من إغرائها.

وقد كانت تجربة السلطة عند علي بن أبي طالب طرازاً إسلامياً فريداً، نافعاً لجميع المذاهب السياسية الإنسانية التي تفكر بكيفية إخضاع الدولة لواجباتها، وعدم التمرد على المجتمع بركوبها على كتفيه. كان علي بن أبي طالب يريد سلطة مكشوفة للناس،

هي سلطتهم أنفسهم، والتي يتحقق فيها أرقى صورة للإدارة الذاتية، والتسيير الذاتي. إنها سلطة المجتمع الفعلية، من الشعب وإلى الشعب، وليست السلطة المزدوجة التي تظهر على نحو وتبطن نحواً آخر.

فالمال ملك الناس، والفيء ملك الناس، والقوانين في خدمة الناس، ويُناقش الجميع أمور دنياهم ودولتهم بحرية تامة، كما يناقشون أمورهم الدينية.

وقد كان ذلك مثار استنكار الأوليغارشية التي تريد أن يكون القانون في خدمة مصالحها ولقهر مُعارضيها.

فالأوليغارشية تريد السلطة هدفاً، يستجيب لنزعاتها ونوازعها الاستحواذية، والتملكية، والتعسفية، في حين كانت سياسة عدل علي بن أبي طالب تنبع من وسيلة السلطة. فكان علي في السلطة ليقهرها، ويجعلها طيّعة في يده ليحمل عليها وبها حقوق الناس، وأمن الناس وخيرهم.

وكان لا بد للقائد لكي يتخلص من ضغط السلطة، وظلمها، وقهرها، وسوء إدارتها، أن يكون العين الكبيرة التي ترى كل شيء، والأذن المرهفة التي تسمع شكاوى الجميع والعقل الكبير الذي يُوفر الحلول لأصعب المعضلات، والنفس الكبيرة التي تحنو على الجميع، ويجد الناس تحت جناحها الاطمئنان، والمنعة، والأمان.

كذلك لا بد أن يكون العاملون في السلطة بالمستوى العادل الذي يُجسد إرادة الحق ويستبعد أيما شيء، غير الحق، لقد كانت السلطة سلطة حق، وكان علي بن أبي طالب مُصراً على الحق، ومعتذراً عن السلطة.

لذلك كان قائدالسلطة الذي ينفض رداءها عن نفسه يومياً، وكل حين، خلافاً لما يفعله مؤلّهو السلطة الذين تصبح ـ في نظرهم ـ عروشاً وتيجاناً وصولجانات، وأملاكاً، وأجهزة قمع، ومعسكرات اعتقال، نابذة العدل الإنساني، لاهية عن واجبها تجاه المجتمع.

إن سر قوة علي بن أبي طالب في رفضه إغراء الحكم والسلطان، أنه كان يرى إلى

السلطة أداة ووسيلة ليس غير.

والوسيلة قد تتغير أو تزول، لكن الحق راسخ لا يحول ولا يزول. وهي ـ لذلك ـ مسؤولية كبرى، للإصلاح، ومنع الظلم، وإقامة حدود العدل، كما أوضح ذلك علي قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلٰكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ...»[1].

ويضع علي بن أبي طالب السلطة في مركزها الدقيق، حيث لا تجاور بين العدل والجور، فإما أن تكون سلطة حق، أو سلطة جائرة.

فليس الحق صبوات، وطلعات، وممارسات موقوته، كما أنه ليس تملقاً للناس، أو للنفس... إنه ليس لعبة الموسم يفرغ منها الحاكم ليعود إلى سابق عهد الحكم من ظلم، وعسف، واستهتار، وإجحاف. بل هو حق صراع ثابت، حادّ كالموسى لمن يتعرض له، وناعم وجميل كزنابق الورد لمن تمسّح به.

وحسبما يرى علي بن أبي طالب، ورأيه في ذلك رأي الإسلام، أن يكون الإنسان عادلاً، ليس منّة، أو رغبة ذاتية، بل هو واجد وشرط، بدونه لا يلقى إلّا الجزاء المهلك.

فالحاكم ليس ملك اجتهاده الشخصي، ومشيئته المزاجية: أن يكون عادلاً أو لا يكون، لأن الأمر ليس أمر خصوصية، بل هو أمر عام تُناط به مصائر الناس، ومصالح المجتمع، ومستقبل الأجيال.

---

١ ـ نهج البلاغة ٢: ١٣؛ شرح نهج البلاغة ٨: ٢٦٣، النزاع والتخاصم للمقريزي: ٤٣.

فهو عليه السلام كان حريصاً على الخلافة من أجل إقامة المثل العليا، وتحقيق العدالة الاجتماعية وتطوير الوعي الاجتماعي وازدهار الحياة العامة، ولذا قال عليه السلام لابن عباس بذي قار معبراً عن مدى زهده بالسلطة واحتقاره للحكم، فكان عليه السلام يخصف بيده نعلاً له فألتفت إلى ابن عباس وقال له: ما قيمة هذا النعل؟

فأجابه ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لا قيمة له، فقال علي عليه السلام: انه خير من خلافتكم هذه إلّا أن أقيم حقّاً وأدفع باطلاً. انظر الجمل للمدني: ١١٢.(المحقق)

قال علي:

«.. ألا وأن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهاً للولاية على أمة محمد، حتى اجتمع رأيكم على ذلك، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيّما والٍ ولي الأمر من بعدي، أقيم على حد الصراط، ونشرت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله، ثم يهوى إلى النار فيكون أول ما يتّقيها أنه وحرّ وجهه، ولكني لما اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم...»[1].

ويرسم الحق حدوده العادلة على الوالي، والعامل، فهو إذ ينظر إلى السلطة نظرته إلى أداة في خدمة الحق، فإنه ينظر إلى الجماهير نظرة حق، دفاعاً عن خير الناس، عن طريق العدل.

فالسلطة إذ تخدم الجماهير، لا تعني تملّق الجماهير في غرائزيتها، واندفاعاتها غير المنضبطة، فالعدل يُحقُّ للجماهير حقوقها، ويُبطل اندفاعاتها الغرائزية السلبية.

وحسب رؤية العادلين ومفاهيمهم، فإن حب الجماهير ليس استعطافاً لها، أو تجاوباً معها في كل ما تريد، بل هو تربية الجماهير، وإعادة تربيتها بضوء مبادىء العدل والإنسانية، كما تشعر بدورها التاريخي، وتمارس مسؤولياتها بأمانة.

وكما أن تملّق الجماهير ليس ـ بالضرورة ـ حُبّاً لها، كذلك فإن ولاء الجماهير للوالي ليس ـ بالضرورة ـ تزكية له.

فسايكولوجية الجماهير لا تخلو من تعقيد، إذا ما أدركنا أن الجماهير مستودع للتيارات الفكرية، والغرائزية، ولكوامن اللاشعور الجمعيّ، والفردي، طوال قرون

---

١ ـ الأمالي للطوسي: ٧٢٨، كنز العمال ٦: ٢٠، شرح نهج البلاغة ٧: ٣٧، الجامع الصغير للسيوطي ١: ٤٦٤، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٣: ٢٠٢. وهو القائل ﷺ: «ايما والٍ احتجب عن حوائج الناس احتجب الله عنه يوم القيامة وعن حوائجه إن أخذ هدية كان غلولاً وإن أخذ الآجرة فهو مشرك». الوسائل: باب ٥ حديث ١٠، كلمة التقوى لمحمّد أمين زين الدين ٤: ٢٣، مسند زيد بن علي: ٣٦٢. (المحقق)

وسنين.

وحسب أي تحليل علمي جاد، فإن سلبيات السلطة مأخوذة ـ في خاتمة الأمر ـ من سلبيات الجماهير، لكنها ـ في السلطة ـ سلبيات مؤدية، تُلحق بالجماهير أذى جديداً، مضافاً.

وليس من الواقعية في شيء النظر إلى الجماهير وكأنها ملائكة، كما يفعل ـ عادة ـ بعض الثوريين!

ففي التاريخ معلومات وأخبار كثيرة عن شعوب خذلت قادة كباراً، وعرقلت مواقف تأريخية، لصالح قادة مزيّفين قدّموا لها الرشوات السياسية، والمادية، والأفكار العرقية، والعنصرية.

على كل حال، فالبشر حيوانات اجتماعية، وللمعايير الاجتماعية آثار قوية على الناس، وهي ـ عادة ـ معايير متوارثة، ومصنوعة عبر متناقضات وصراعات عديدة.

وغالباً ما يتكون سلوك نمطي، واتجاهات نمطية، «**فالناس يقومون بعمل بعض الملاحظات القليلة ويكوّنون أفكاراً عامة**»[١].

وتلعب الغرائز الموروثة دوراً خطيراً في صنع الأفكار والاتجاهات والسلوكيات النمطية للجماهير، وخاصة إذا ما كانت الجماهير قليلة التعلّم، متخلّفة «**ويبدوأن الفقر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعصب..**» و«**أن الكثيرين من العلماء السلوكيين يعتقدون أن المنافسة والإحباط اللذين كثيراً ما يصاحبان الفقر، تُعتبر أموراً متعلقة بذلك..**»[٢].

فالجماهير قابلة للتعصّب، والاندفاع، والتطرّف بسبب كل ذلك، كما أنها قابلة للثورة العارمة، وتستطيع التلاعب بعواطفها مجموعة عوامل مؤثرة، فيما إذا استخدمت

---

١ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد.(المؤلف)

٢ ـ دافيدوف: مدخل إلى علم النفس.(المؤلف). وقد اسلفنا سابقاً أقوال علي عليه السلام حول الفقر، وبالأخص وصيته لابنه محمّد بن الحنفية، مؤكداً أن الفقر منقصة للدين، ويكفي ما في كلمة «منقصة» من معانٍ عديدة ومنها التعصب الذي ينجم عن الجهل.(المحقق)

استخداماً جيّداً[١].

وتؤثّر التيارات الفكرية القريبة من السمات النفسية، للمجتمعات تأثيراً كبيراً في إلهاب شعورها، وتهييجها، خصوصاً إذا كانت الأفكار والحالة النفسية يُغذيهما الحرمان الكبير من حاجات أساسية.

إن الجماهير تخضع ـ سايكولوجياً ـ لمؤثرات عديدة، مادية، وفكرية، واعتقادية، وعاطفية، فتنشأ حالات نمطية، تلتحق بالسلوكية النمطية التقليدية، أو تفجّرها، ولا يمكن إغفال ذلك الخزين من الحالات اللاشعورية التي يصعب حدسها والتي كثيراً ما تكون وراء الرضا أو السخط، اللذين يؤطّران المزاج الاجتماعي.

وفي أغلب الأحوال، تكون انفعالية الجماهير وعاطفيّتها أقوى من وعيها العقلاني، وهذا هو ـ ضبطاً ـ ما استطاع، ويستطيع القادة السياسيون استثارته، سواء أكانوا قادة عدل، أو طغاة.

وقد تفعل الحشود المستنهضة استنهاضاً عاطفياً، أفعالاً تعبوية خطيرة، إلّا أنها لا تستطيع الاستمرار على ذلك، لأن الإستنهاض العاطفي يفتّته الزمن، والمتحوّلات المستجدة.

إن علاقة علي بن أبي طالب بالجماهير هي علاقة حب، وإيمان، وعمل دائب من أجل خيرها، واستقرارها، لكنه كان يريد عقلنة الحضور الجماهيري، من خلال ترسيخ وعيها بالحقّ.

ويدفعه إيمانه بالآخرة، إلى أن ينظر إلى الفرد وعمله نظرة أساسية داخل كيان المجتمع، لأن الحساب الأخروي ليس حساب جماعات وشعوب، بل هو حساب للأفراد على ما جنت أيديهم، وعلى إيمانهم.

ورؤية الحق توحّد الرابطة بين الحاكم والمحكوم، بين الفرد والجماعة، بين الحاضر

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

والمستقبل. ولكن ما هو مدى حضور الجماهير في هذه المعادلة.

إنها لا تستطيع الانتقال ـ بكل ثقلها ـ إلى الحق، بسبب جميع العوامل المختلفة، والتي تشكل الغرائزية عنصرها الغالب، لكنها ـ مؤكداً ـ وسط اجتماعي يصلح لجميع الفعاليات، والممارسات السياسية، والنظرية، ويحتاج انتماؤها الفكري إلى تعليم وتدريب طويلين، حتى تستطيع المبادىء الحقّانية طرد الأنماط والعوامل القديمة للتخلف.

وقد كان ميراث علي بن أبي طالب، من المرحلة التي سبقت خلافته، هو الغليان السياسي، والفكري، والاجتماعي الذي يحمل جميع بذور، وتيارات التصادم، والاحتدام، والاقتتال.

فكانت النوعية تعني علياً بن أبي طالب أكثر مما يعنيه (الكم) الشعبي، الذي ما كان يخدعه قط، فكان يقول: **«لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً[1]، لأنّي محق، والله مع الحق»**.

وتُعدّ علاقة علي بالمجتمع الكوفي، طرازاً من العلاقات السياسية بين القائد والشعب، تستحق المزيد من الدراسة، للوصول إلى إدراك الحقيقة السايكولوجية للمجتمع.

---

١ ـ يقول ضرار بن عمر، بعد أن أجبره معاوية لوصف علي عليه السلام، فقال: أتيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين فكأني الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا يا دنيا أليَّ تعرضت؟ أولي تشوقت؟ هيهات غري غيري، قد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك!!! فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير!!! آه من قلة الزاد ووحشة الطريق وبعد السفر!!! انظر مناقب أمير المؤمنين عليه السلام لمحمّد بن سليمان الكوفي ٢:٥٢.

وفي نهج البلاغة لمحمّد عبده ٤:١٧ «هيهات غري غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد».(المحقق)

فقد استطاع ـ فيما بعد ـ الحجاج بن يوسف الثقفي ـ مثلاً ـ إقامة حكمه القوي أكثر من عشرين عاماً، رغم السخط الجماهيري الواسع، في حين خذلت الجماهير علياً بن أبي طالب رغم ولائها له[١].

فكانوا ـ مع الحب ـ يقفون على نقيض مشيئته العادلة، فحين يبعثهم إلى الثغور منتظراً منهم الأمانة يلقى الخيانة، وحين يأمنون يرجفون، وحين يخافون يُنافقون، لا يذكرون حسنة، ولا يشكرون نعمة.

لقد قال لهم ذلك بنفسه مقرّعاً أشد تقريع:

«... إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة...».

«هل استخفّكم ناكث، أواستفواكم غاوٍ أواستفزّكم عاص، أواستنصركم ظالم، أواستعضدكم خالع، ألا اتبعتموه وآويتموه، ونصحتموه وزكيتموه؟ هل شغب شاغب، أونعب ناعب، أوزفر كاذب، إلّا كنتم أشياعه وأتباعه، وحماته وأنصاره؟ ألم تزجركم المواعظ؟ ألم تنبهكم الوقائع؟ ألم تردعكم الحوادث؟[٢]، وهو يختتم خطاب النقد والتقريع بدعاء يلخص حقيقة الصورة:

«... اَللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّوني، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُوني، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنّي!»[٣].

---

١ ـ قال المسعودي في مروج الذهب: تأمّر الحجاج على الناس عشرين سنة، وأُحصي من قتله ظلماً سوى من قتل في عساكره وحروبه، فوُجد مئة وعشرون ألفاً، ومات الحجاج وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً مجردة ـ عارية من الثياب!(المؤلف)

٢ ـ البداية والنهاية ٩: ١٤٢، العقد الفريد ٢: ١٥٣، مروج الذهب ٣: ١٨٥.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١: ٦٥، وينقل الكليني في الكافي ان علياً لما سمع بقصة عبد الله بن عباس وحمله مال البصرة صعد المنبر، فبكى، وقال: «اللّهم اني قد مللتهم فارحني منهم واقبضني إليك غير عاجز ولا ملول» ٨: ٢٥٩، الغارات ٢: ٦٣٦، شرح الأخبار ٢: ٢٩٠، الفصول ↲

وحين أراد علي استنهاض الكوفة لمقاتلة المهاجمين من أهل الشام على الأنبار ظل الناس في استكانتهم رغم هتافه فيهم:

«... فَإِنَّ ٱلجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلجَنَّةِ، فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ ٱلوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ، وَشَمِلَهُ ٱلبَلَاءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلقَمَاءَةِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ، وَأُدِيلَ ٱلحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلجِهَادِ، وَسِيمَ ٱلخَسْفَ، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ»[1].

وكانت كلماته النارّية لاعنة لهم وهو يقول:

«.. فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً..»[2].

ثم ختم خطبة الألم قائلاً:

«يَا أَشْبَاهَ ٱلرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ!... لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً - وَٱللهِ - جَرَّتْ نَدَماً... إلخ»[3].

«وخلّف مكانه وهو يطوح رأسه إلى الوراء ويهزّ كتفيه من برم ويأس، ويصفق كفاً بكف

المختارة للمفيد: ١٦٩، المسائل العكبرية للمفيد: ٣٥، الارشاد للمفيد ١:٢٨٢، الاحتجاج ١:٢٥٧، مناقب الشيرواني: ٢٠٦، أنساب الأشراف ٢:٣٨٣، بحار الأنوار ١٠:٣٧٩ / ٤٢: ١٥٣، وذكره (المعاصر) المحمودي في نهج السعادة ٢:٥٣٣.(المحقق)

١ ـ الكافي ٥:٤، تهذيب الأحكام للطوسي ٦:١٢٤، الغارات ٢:٤٧٥، بحار الأنوار ٩٧:٨.(المحقق)

٢ ـ أنظر نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:٦٩، الكافي ٥:٥، الغارات ٢:٤٧٦، ونهج السعادة (المعاصر) للمحمودي ٢:٥٤٧.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ١:٧٠، وفيها: «... وأعقبت سدماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيضا، وجرعتموني نغب التهام أنفاسا، وأفسدتم علي رأي بالعصيان والخذلان حتّى لقد قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع» وذكرها الكليني في الكافي ٥:٦، والثقفي في الغارات ٢:٤٧٧، والمفيد في الارشاد ١:٢٨٠، والطبرسي في الاحتجاج ١:٢٥٦، و(المعاصر) المحمودي في نهج السعادة ٢:٥٦٤.(المحقق)

من كسرة وأسف، كأنما كان ينفض عبئهم عن كاهله، وينظف من أمرهم يديه»[١].

وطفح به الحزن ـ مرة ـ فأراد أن يهجر الكوفة!

إن (علي بن أبي طالب) كان يُدرك بالبصيرة النافذة أن الجماهير الشعبية ليست كتلة نوعية، أوجنساً واحداً. وكان يحسب حساب العلم، وتأثيره على الواقع الجماهيري، فالقرب من العرب، كأن يُزكّي الناس، أما البعد منه، فكان يُقلل من حسابات التزكية. وما دور العلم إلّا تحرير النفس البشرية من الرعوية، والهمجية، والغوغائية ـ التي هي طبيعة حيوانية غير مهذّبة.

وشخّص علي ـ تشخيصاً فذّاً ـ تلك المجاميع من الجماهير، التي هي من طراز الهمج الرعاع، وهي مجاميع لا تشكل جوهر المجتمع، وليست هي الجماهير بتمامها، بل هي شرائح اجتماعية رهينة شروطها الفكرية الذاتية، وبنت التخلف الطويل، المقيم.. وأولئك الهمج الرعاع أعداء كل تقدم، وتطور، واستقرار. وهم يعاكسون إرادة الحق، ومسار العلم، واتجاه العدل، ويعطون الشرعية التهريجية للظالمين، فهم خدمهم، الذين ينفذون إرادتهم الطغيانيّة، وهم لا مانع لديهم، من استبدال سلطان بآخر، فهم مع الأقوى، والمنتصر. وكان علي في رؤيته، متنبئاً بما سيحمله (الشرق) من كوارث سياسية، سببها الصراعات الدامية حول السلطة، ودور الهمج الرعاع في تأجيجها، وفي دفعها إلى الذروة.

وفي أحسن الأحوال، فإن الرعاع أبعد الناس دوراً في الحيلولة دون تفاقم ظلم الولاة والرعاة، بما يقدمون لهم من ولاء.

قال علي بن أبي طالب:

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

«النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»[1].

١ ـ نهج البلاغة لمحمّد عبده ٤:٣٥، الكافي ١:٣٤، كمال الدين وتمام النعمة للصدوق: ٢٩٠، تحف العقول لابن شعبة الحراني: ١٦٩، خصائص الأئمّة للرضي: ١٠٥، روضة الواعظين: ١٠، وسائل الشيعة ٢٠:٣٠٤، خاتمة المستدرك للنوري ٣:٢١٢، الغارات ١:١٤٩، مناقب الكوفي ٢:٩٥، شرح الأخبار ٢:٣٧٠، الارشاد للمفيد ١:٢٢٧ والأمالي للمفيد: ٢٤٧، الأمالي للطوسي: ٢٠، عيون الحكم والمواعظ: ٦٤.(المحقق)

الفصل الثامن

▣ سلطة العقل

«العلم نقطة كثَّرها الجاهلون»

علي بن أبي طالب

ليس الحق عند علي بن أبي طالب إحساساً، يتوصل من خلاله إلى تمييز ما هو حق عما هو باطل، بل الحق عنده، معرفة مدعوة بالإحساس النبيل.

وترتكز المعرفة عند (علي) على معرفة العقل، حيث أفرد للعقل والعقلانية اهتماماً بالغاً في مناسبات عديدة، ومعرفة الحدوس، والرؤى والتوقعات، وهي متممة لمعرفة العقل.

وقد استفاض في إعلان شأن العقل، فكان أن قدّم إلينا في ذلك فلسفة متكاملة، لم تأخذ حقّها من الشرح والتوكيد الفلسفي. فهو أول من دافع عن الإسلام بمنطق العقل، وأول من ردّ شبهات المضلّلين، وأقوال المشككين، وأول الآيات المتشابهة بما يتفق والعقل السليم بطريقته العلمية المنظمة.

«ولست ادري على أي شيء اعتمد من قال: إن المعتزلة هم الممثلون للنزعة العقلية في الإسلام، وأنهم الدعاة الاول إلى تحرير العقل، وحرية الفكر، فإن كان لهم شيء من هذا فالفضل يعود إلى الإمام وحده»(1).

ويقول العقاد:

«فالمزيّة التي امتاز بها علي بين فقهاء عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل، ولم يقصره على العبادة، وإجراء الأحكام. فإذا عرف في عصره أناس فقهوا

---

(١) محمد جواد مغنية: علي والفلسفة.(المؤلف)

في الدين ليصححوا عباداته، ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز علي بالفقه الذي يُراد به الفكر المحض والدراسة الخاصة، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية أو الحقيقة الفلسفية كما نُسميها اليوم»[١].

وعلاوة على وقوف في مقدمة الميادين بالنزعة العقلية، فإنه كان أبا علم الكلام في الإسلام، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه، كما قال مؤيداً ذلك ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة:

«...فواصل بين عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ علي. وأما الأشعرية فإنهم ينتمون الى أبي الحسن علي بن أبي الحسن. وعلي بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبائي. وأبو علي الجبائي أحد مشايخ المعتزلة، الذين علّمهم واصل بن عطاء. أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه، وهكذا ينتهي الأمر إلى علي»[٢].

وكان علي بن أبي طالب قد أطلق فكرته القائلة: «**لا علم كالتفكير**»[٣] والتفكير «**يكاد يشمل جميع العمليات العقلية من التصور والتخيل والتذكّر، الى عمليات الحكم والفهم والاستدلال، والتعليل والتعميم والتخطيط..**» ولا يفكر العقل حين تصادفه المشاكل والصعاب، إنه «الجهاز الديناميكي الفعال، ويكون في نشاط مستمر طالما أن الإنسان

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام.(المؤلف)

(٢) علي محمد الحسين الأديب: منهج التربية عند الإمام علي.(المؤلف)ويعني «أن الأشعرية ينتهون إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم علي بن أبي طالب عليه السلام» انظر نص قول ابن ابي الحديد ١:١٧. فالمعتزلة كما يقول ابن ابي الحديد هم اصل التوحيد والعقل وأرباب النظر. ومنهم تعلم الناس هذا الفن، لان كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وهو امام الكيسانية، وعنه انتقلت البيعة إلى بني العباس كما جاء في تنقيح المقال ٢:٢١٢، أما عن سند المعتزلة إلى علي عليه السلام، انظرأمالي المرتضى ١:١٤٨ وما بعدها. (المحقق)

(٣) وشبيه هذا المعنى هو «لا عبارة كالتفكير»، «ولا عقل كالتدبير» انظر مجمع الزوائد ١٠:٢٨٣، عيون الحكم والمواعظ: ٥٣٦.(المحقق)

في حالة يقظة وانتباه، فقد يكون الشخص جالساً مسترخياً ويبدو وكأنه لا يقوم بأي نشاط أو فاعلية، ولا تظهر عليه ملامح شعور جاد بمشكلة يُعاني منها، غير أن عقله في الحقيقة يعمل ويتحرّك. فإن أهم ما يميّز هذا الكائن الذي يُسمّونه إنساناً عن سائر الكائنات الحيّة الأخرى قدرته وقابليته على التفكير والتأمل. لهذا قيل عنه بأنه **«حيوان عاقل»**.

«أدرك ذلك الفلاسفة الأولون وأكد عليه المحدثون من المربّين والفلاسفة، ولقد كان ابن أبي طالب من أولئك النفر القلائل في زمانه الذي نبّه لهذا الجوهر الثمين عند الانسان الذي ما برح يُخفيه في خبايا كيانه ووجوده. فأكبر أهميته وأعظم إجلاله وقرن رفيع العلم ما بني على أساس وطيد منه. ورفض أن يعيش سواه في القمة الشامخة وكأنه في موقفه ذاك ركّز وبإدراك عميق على الطريقة العلمية في البحث والتقصّي..»[١].

إن قيمة العقل في الانسان ترتفع إلى مستواها الأعلى، ما دام الإنسان خليفة الله في أرضه، بمعنى أن العقل أوتي من السمو ما يُفسر قيمة استخلاف الإنسان من قبل الرب.

يربط علي بين حقيقة الاستخلاف، وحقيقة (المعرفة) وفي نصين، يُكمل الواحد منهما الآخر في تأثير أولوية العقل. في الاستخلاف، وتهيئة الطبيعة الغنية للإنسان قبل خلقه، قال علي:

«فالله سبحانه قبل أن يخلق الإنسان خلق الكون ورتّبه أحسن ترتيب ونظمه أجمل تنظيم، ومهّد الأرض، وأتمّ مرافقها على أكمل الوجوه، فخلق فيها الهواء المطلق، وأجرى فيها العيون والأنهار وأعدّ أنواع الأطعمة والأشربة، ومن كل الثمرات.

وأنبت فيها النبات والزهر مختلفاً ألوانه.. وبعد أن أتمّها، وجمع فيها ما تشتهي الأنفس وتلّذ الأعين أخرج إليها الإنسان وأسكنه فيها، على أن يكون خليفته في أرضه يحيا في كنفها ويعيش في خيراتها ويمضي في أقواله وأفعاله ونواياه ومقاصده وفق أحكام الله سبحانه وإرادته»[٢].

---

(١) المصدر نفسه.(المؤلف). ويعني به المؤلف كتاب «منهج التربية عند الإمام علي». (المحقق)

(٢) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)، نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٢٠.(المحقق)

أما النص الثاني، المتمم للنص الأول، من الناحية الفلسفية، فهو، قول علي بن أبي طالب عن خلق آدم:

«ثُمَّ نَفَخَ فِيها (أي التربة) مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَالبَاطِلِ، والأَذْوَاقِ، والمَشَامِّ، وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاس»(١).

ويعطي تفسير وحدة النصّين دلالة على أن الإنسان يتفوّق بالعقل حتى على الملائكة، فيما إذا غلب عقله شهوته، وهنا، تكمن مصداقية أولوية العقل واستخلاف الله للإنسان على أرضه، قال في ذلك: **«إن الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم»**(٢).

إن أحاديث علي بن أبي طالب المتواترة عن (العلم) كثيرة جداً، وتحتاج إلى تبويب واسع، ومحيط، ليس محاله الآن.

غير أن ما يمكن تناوله هنا عرض الأقاليم الرئيسية لمفاهيمه وأفكاره، وتطبيقاته، عن العلم، وهو في قمة السلطة الإسلامية، وفي ذروة قيادته للعملية التربوية، والتعليمية وللحوار الفكري بين القيادة والقاعدة. لقد كان ـ في علمه ـ القمة في العلم، والثقافة، والحوار، إلى الحد الذي كانت فيه المعارضة تتهافت ذليلة تحت سطوة فكره الثاقب، وعلمه المتكامل. ابتداء، لا بد من اختيار مدخل ـ من كلام علي ـ في الحث على (العلم). قال: مخاطباً الناس، لأنه كان يريد العلم للناس، لا للصفوة المختارة، والقلة:

«أَيُّهَا النَّاس، ٱسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَٱمْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ ٱلْكَدَرِ.

---

(١) المصدر نفسه. (المؤلف)، نهج البلاغة ١: ٢٠، شرح نهج البلاغة محمد عبده ١:٩٦.(المحقق)

(٢) المصدر نفسه. (المؤلف). وانظر علل الشرائع للصدوق ١: ٤، تفسير نور الثقلين ٣:١٨٨. التفسير الأصفى أو الصافي للفيض الكاشاني ١:٤١٤، وسائل الشيعة ١:١٦٤.

ـ عِبَادَ اللهِ، لا تَرْكَنُوا إلَىٰ جَهَالَتِكُمْ، وَلا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهٰذَا الْمَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إلَىٰ مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لا يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لا يَتَقَارَبُ!... فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ (أي جفافها)، **وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ...»**[1].

هناك توكيدات صريحة، هي مطلع فلسفي قادم، استُخدم في عصر التنوير في الثورة الفرنسية، وفي أوروبا، وفي كل الدعوات الغربية (الشعبية) فيها يدعو علي بن أبي طالب إلى اتحاد العلم بالناس، والناس بالعلم، سعياً من أجل بناء مجتمع متعلم، واع، قادر على إدارة شؤونه بنفسه. إنه ـ في ذلك ـ كان يُتابع فلسفته في سلطة الناس، سلطة الحق، القائمة على العلم، والمعرفة، والحكمة، وانعدام الاستغلال الطبقي.

إن مقولة: العلم للجماهير، أكبر وأعظم وأكثر جذرية، وأوسع أفقاً من مقولة: العلم في خدمة الجماهير، لأنها تعني ـ حسب نظر علي بن أبي طالب، أن يكون الناس عارفين لقيمة العلم، متعلمين ومغترفين من ميادينه.

ولأن العلم ـ فيما يرغب ـ للناس جميعاً، فإنه يتحلّى بصفتين جوهريتين: الواحدة شموليته كشمولية وجود البشر المستخلفين ـ من قبل الله ـ على الأرض، والثانية: رفعته وسموّه، بالمستوى اللائق بشرف الإنسان ـ خليفة الله في ارضه.

ولا بد ـ على هذا الطريق ـ من تحرير العلم من إطاره الارستقراطي، إطار النخبة التي قد تلتصق بنخبة الماليين، ذلك الالتصاق الذي حصل ـ فعلاً ـ في البلدان الرأسمالية حيث تحالفت جمهرة من رجال العلم (وليس كل العلماء) مع الفئة الرأسمالية الكبرى، لوضع العلم في خدمة الاستغلال الرأسمالي، والاستعمار، والامبريالية.

فأعطى علي بن أبي طالب للعلم صفة أكثر حضوراً وأكثر شعبية من اللقب، والتسمية الأكاديمية، فالعلم هو التفكر، والتفكر هو إمكانية كل إنسان حر، قادر على أن يفكر،

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٢٠١، عيون الحكم والمواعظ:٩٢. وذكره شرف الدين في المراجعات :٦٨، وفصل فيه ابن ابي الحديد في شرح النهج ٧:١٦٧.(المحقق)

ويواصل التفكير، ويتحاور عقلياً مع نفسه، ومع الناس، ومع الكون.

قال علي «**لَا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ**»[١].

وفي إسباغ القيمة الأخلاقية العليا على العلم، وهي القيمة التي يستحقها الناس الشرفاء، قال: «...**وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ**». إن هذه المقولات المختزلة لكل العمق الدلالي المعاصر قيلت في خمسينات ـ ستينات القرن السابع الميلادي.

ولأن البشرية واسعة، والأخلاقية الشريفة (بكل المبادىء الإنسانية الجليلة) واسعة، فإن العلم الذي لا شرف مثله، أوسع من كل شيء، لأنه مقترن بالوجود العقلي للإنسان.

وهكذا يعرض عليٌ فكرته:

---

(١) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)

وهذا ما يطابق سياسة رسول الله صلى الله عليه وآله في أهمية التفكر والتي هي أساس المعرفة والعلم. فجاء من اقواله «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» لانه دليل على فاعلية العقل وحيويّة القلب البصير. وقد اشار الإمام الرضا عليه السلام لهذا المعنى: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله (عزّ وجل) أنظر كلمة التقوى للشيخ محمد امين زين الدين ٢:٣٣٥.

وفي حواشي الشرواني «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة» ١:٤١٧، وينقل الكليني عن الحسن الصقيل: «قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عما يروي الناس ان تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكر؟ قال: يمر بالخربة او الدار فيقول: أين ساكنوك، اين بانوك، ما لك لا تتكلمين» انظر الكافي ٢:٥٤.

فالتفكر هو علم ومعرفة الشيء، وربما يعتقد البعض ان الإسلام عنى بالعلم والمعرفة من باب الخلق والتربية الاجتماعية وتثبيت قيم الدين كنظام اجتماعي فقط وفقط، والحق ان دعوة الدين للتفكر لا تقتصر على هذه الجنبة فحسب، بل هو الدعوة إلى معرفة كُلّ ما يحيط الانسان والاشتغال بالعلم بما يخدمه ويخدم عموم البشرية من الاكتشافات الحديثة والاختراعات العلمية الباهرة في مجال التكنولوجيا وتطورها وفق التطور الزمني وحاجات الانسان. وكذا الامر عندما يكون الاهتمام بالمعرفة، فلذا ان سيرة الأئمة(ع) تخلو من التعصب والانغلاق، بل كانوا يدعون الناس إلى الاطلاع على المعارف الاخرى المخالفة حتى في أمور الفكر والعقيدة. لأن التفكر في العلم والمعرفة هما من سمات الشرف الانساني ومن أخلاقيات المبادىء الانسانية الجليلة. (المحقق).

«**كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعَاءَ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ**»(١) فيقدِّم العلم إلى البشرية، سلاحاً حياً، وأملاً عظيماً.

ثمة موضوعتان بارزتان، قبل سواهما، في أطروحات علي بن أبي طالب عن (العلم) و (المعرفة).

الأولى: إن العلم ـ في الإنسان ـ ليس معرفة لسانية، ليس أفكاراً استعراضية، وممارسة جدالية، بل العلم مطبوع، في جبلة الإنسان، وفي جوارحه، أي أن العلم يمتزج بدم الإنسان، مثل امتزاجه بروحه، فهو طبيعة وليس صفات منقطعة عن حقيقة الإنسان الطبيعية.

قال علي: «**الْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ، وَلَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ**»(٢).

وفي استعارة بليغة أخّاذة، يرى علي أن «**العلم صبغ النفس**» و «.. **ليس يفوق صبغ الشيء حتى ينظف من كل دنس**»(٣). فالعلم المطبوع لا يستطيع الإنسان التخلي عنه، بازدواجية ظاهرة أو مستترة، كما هو حاصل في العلم المسموع، واللساني. لأنه مستقر في الجوارح والأركان، مع الهيئة البنيوية للإنسان.

قال علي:

«**أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ**»(٤).

---

(١) المصدر نفسه.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٤٧، ووعاء العلم هو «العقل»، شرح نهج البلاغة ١٩:٢٦، خصائص الأئمة للشريف الرضي:١١٥، عيون الحكم والمواعظ:٣٧٦.(المحقق)

(٢) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٧٩، عيون الحكم والمواعظ :٦٤، شرح نهج البلاغة ١٩:٢٥٣.(المحقق)

(٣) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)
ان المؤلف رحمه الله استفاد من تقطيع الحديث، وإلا فإنّ الاصل هو: «العلم صبغ، وليس يفوق صبغ الشيء حتى ينظف من كل دنس». انظر شرح نهج البلاغة ٢٠:٢٦٨.(المحقق)

(٤) نهج البلاغة ٤:٢٠، شرح نهج البلاغة ١٨:٢٤٥.

أما الموضوعة الثانية: فهي علاقة العلم بالعمل، فالعلم ليس نظرياً صرفاً، ليس خيالاً، أو تجريدات معزولة عن الواقع، بل هو دليل مرشد للعمل الإنساني، الذي يُعوّل عليه في صنع الحياة.

فالإنسان مثلما هو حيوان ذو عقل، فهو حيوان عامل، ينتج، ويصنع، ويُنظم، ويؤسس. ويكتسب العمل من خلال العلم بُعده الإنساني، وبُعده التقدمي والتأريخي، لأن الحياة الإنسانية تتكون وتتطور في شروط العمل والعلم المتلازمين. ولا شك في أن علياً يعني بشكليه الاجتماعي، والفردي.

وليس أكثر مساءلة من عالم لا يستخدم علمه.

قال علي:

«وَإِنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ ٱلْحَائِرِ ٱلَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ ٱلْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَٱلْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ أَلْوَمُ، و«رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَا يَنْفَعُهُ»[1].

ويستحث ـ في حِكَم خالصة ـ على العمل بالعلم، **«فَإِنَّ ٱلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى**

ويعلق ابن ابي الحديد: «هذا حق، لأن العالم إذا لم يظهر من علمه إلا لقلقة لسانه من غير أن تظهر منه العبادات، كان عالماً ناقصاً، فأما اذا كان يفيد الناس بألفاظه ومنطقه، ثم يشاهده الناس على قدم عظيمه من العبادة، فأن النفع يكون به عاماً تاماً، وذلك لان الناس يقولون: لو لم يكن يعتقد حقيقة ما يقوله لما أدأب نفسه هذا الدأب.

وأما الأول فيقولون فيه: كل ما يقول نفاق وباطل، لأنه لو كان يعتقد حقيقة، ما يقول لأخذ به، ولظهر ذلك في حركاته، فيقتدون بفعله لا بقوله، فلا يشتغل أحد منهم بالعبادة ولا يهتم بها».(المحقق)

(١) المصدر نفسه. (المحقق)

نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٢٥، وذكره ابن ابي الحديد في ١٨:٢٦٩ وعلق بالقول «قد وقع مثل هذا كثير، كما جرى لعبد الله بن المقفع، وفضله مشهور، وحكمته أشهر من أن تذكر، ولو لم يكن له إلا كتاب، اليتيمة، لكفى.».

وقد ذكر هذا القول ايضاً: الشريف الرضي في خصائص الأئمة: ٩٧.

وذكره الحلي في المختصر: ١٠.(المحقق)

غيْرِ طَرِيقٍ، فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ إِلَّا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ، وَٱلْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!»(١).

«لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، وَيَقِينَكُمْ شَكّاً، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا»(٢). و«ٱلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَٱلْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ٱرْتَحَلَ»(٣).

وغير ذلك مأثورات عديدة أخرى، سبقت أطروحات القوى البراغماتية والاشتراكية عن القيمة العملية للعمل قبل قرون عديدة(٤).

وفي السياق الجدلي للموضوعتين، تكون معرفة النفس، مرحلة أولى في المعرفة، فـ«ٱلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرءِ جَهْلاً أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ»(٥).

لكن معرفة النفس ليست وليدة اللحظة، تُولد دفعة واحدة ونهائية. بل هي معرفة مترسخة، منطورة مُتسعة، متعاظمة، في ميادين النشاط الفردي والجماعي، والمقرون بالمعرفة الفعّالة. فتدخل معرفة النفس في صياغة الأفعال، والاعتقادات، والأعمال،

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ٩:١٧٦. (المحقق) (٢) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٦٧.(المحقق)

(٣) المصدر نفسه.(المؤلف)، نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٨٥.

وعن زرارة بن أعين قال سئلت ابا عبد الله عليه السلام: ما حق الله على العباد، قال: ان يقولوا ما يعلمون ويقفوا عندما لا يعلمون، وعن ابي عبد الله عليه السلام امثلة وزاد فان فعلوا ذلك فقد ادوا إلى الله حقه، وفي حديث آخر: ما علمتم فقولوا وما لم تعلموا فقولوا الله أعلم. انظر التحفة السنية (مخطوط) للفيض الكاشاني، شرح عبد الله الجزائري :١١. وعن علي بن الحسين عليه السلام: «مكتوب في الأنجيل لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولما تعلمون بما علمتم، فإن العلم اذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدد من الله إلا بعداً». انظر الكافي ١:٤٤.(المحقق)

(٤) اذن الإسلام هو أول من أعطى هذه القيمة المعرفيّة العملية للعمل، وفي إطار المعرفة العلمية الصادقة، بعد ان يكون العالِم قد عرف نفسه.(المحقق)

(٥) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٥٠، وقال علي عليه السلام: «هلك امرؤ لم يعرف قدره» والبليغ من القول ما يصفه علي عليه السلام: لا تكن ممن يرجوا الآخرة بغير العمل، ويرجى التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، وان اعطى منها لم يشبع، وان منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ينهي ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي... انظر صفحة ٣٨ من نفس المصدر.(المحقق)

والعلاقات، لأنها معرفة إنتاج، وإنتاج معرفة، تتنحى عنها المعرفة السلبية[(١)].

وكرّم علي بن أبي طالب بالمعرفة والعلم، لأنهما غذاؤه الوحيد. فكم تساءل:

«ما لي أرى الناس إذا قُرِّبَ إليهم الطعام ليلاً تكلفوا إنارة المصابيح ليبصروا ما يُدخلون بطونهم، ولا يهتمون بغذاء النفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم، ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب، في اعتقاداتهم وأعمالهم»[(٢)].

فالعلم عملية تطهير للنفوس، ذات صفة أبدية.

ولأن البشرية خضعت لوثن المال، فانخدعت به، حتى أضحت الخدعة بالغة السيطرة، فإن مقارنة العلم بالمال، كانت فكرة اقتحامية، تهدد مكانة المال[(٣)]، على الرغم من بساطتها.

إنها بسيطة لأنها شديدة الصدق، في أتم الوضوح. لكن شيطان المال قوي التحكم.

قال علي لكميل بن زياد النخعي:

«يَا كُمَيْلُ، ٱلْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْمَالِ: ٱلْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ ٱلْمَالَ، وَٱلْمَالُ تَنْقُصُهُ ٱلنَّفَقَةُ، وَٱلْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى ٱلْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ ٱلْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ ٱلْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ ٱلْإِنْسَانُ ٱلطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ ٱلْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَٱلْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَٱلْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، هَلَكَ خُزَّانُ ٱلْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَٱلْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَابَقِيَ ٱلدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، أَمْثَالُهُمْ فِي ٱلْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»[(٤)].

فالمال اختصر الدنيا اختصاراً مدهشاً، لأنه به تشتري اللذائذ والشهوات، وبه تُباع الدنيا وتشترى، لذلك فإن مفهوم الدنيا لا يشبع ـ مثل مفهوم العلم، ولذلك فإن كل طالب

---

(١) وهذا يعني في نهاية المطاف ان معرفة النفس تعني معرفة الخالق وقد قال علي عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» انظر شرح النهج ٢٠: ٢٩٢.(المحقق)

(٢) المصدر نفسه. (المؤلف)، وأنظر شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٦١. (المحقق)

(٣) والصحيح تهدد مكانة العلم.

(٤) المصدر نفسه. (المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤: ٣٦.(المحقق)

علم، ليس عالماً بحق.

فطلبة العلم على أصناف. قال علي:

«طلبة العلم على ثلاثة أصناف، ألا فاعرفوهم بصفاتهم: صنف منهم يتعلمون العلم للمراء والجدل، وصنف للاستطالة والحيل، وصنف للفقة والعمل. فأما صاحب المراء والجدل، فإنك تراه ممارياً للرجال في أندية المقال، قد تسربل بالتخشّع، وتخلى عن الورع فدّق الله من هذا حيزومه وقطع منه خيشومه. وأما صاحب الاستطالة والحيل فإنه يستطيل على أشباهه من أشكاله، ويتواضع للأغنياء من دونهم، فهو لحلوائهم هاضم، ولدينه حاطم، فأعمى الله من هذا بصره ومحا من العلماء أثره. وأما صاحب الفقه والعمل، فتراه ذا كآبة وحزن، قام الليل في حندسه، وانحنى في برنسه، يعمل ويخشى فشدَّ الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه..»(١).

وفي النص المذكور، تسليط ضوء كافٍ على المتحذلقين، والمتفقهين، والثرثارين، الذين جعلوا الأدب والعلم تسلية للملوك والأمراء، أو لعبة كلامية، أو حيلة لبيان الجدارة الشخصية، والغلبة الدعية. فالعلم، لا يوظف إلاّ للعلم، والحكمة، والعظة، والتغيير، وبناء أساس عادل لحياة الإنسان.

والإنسان لا يمكن أن يكون للعلم مجرد وعاء، يمتليء به قليلاً أو كثيراً، فيفرغه كما يشاء، وأنّى يشاء. إذ لا بد لمن يحمل العلم أن تتوفر فيه شروط العلم وفضائله. فأوجب علي بن أبي طالب على طالب العلم فضائله الشريفة، قائلاً:

«يا طالب العلم، إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظ الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمّته السلامة، وحكمته الورع، ومستقرّ النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة وسيفه الرضا، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى،

---

(١) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)، الآمالي للصدوق :٧٢٨. (المحقق)

ورفيقه محبة الأخيار»[١].

ومن توظيف العلم في الأنشطة والممارسات السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، انطلقت أفكار علي بن أبي طالب، انطلاقاً بعيد المدى، متضامناً، متوازي الخطوط في مختلف الميادين.

فهو كالحياة، في شموله على النظرة، والفكرة، والفعلة، يتغلغل في صميم الأشياء، مثلما يتغلغل في صميم طبع الإنسان، وفي سلوكه.

لقد أراد علي صنع عالم إنساني بالعلم، عالم يدين بالعلم، يبني به معطياته، ويؤسس به أوتاده.

قال لكميل:

«يَا كُمَيْل بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ ٱلْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ ٱلْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ ٱلْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَٱلْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَٱلْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ»[٢].

وفي زمن علي، كان العرب يتأثّرون بالتنجيم تأثيراً كبيراً، وخاصة في الجاهلية، وكان هناك (عرّافون)، منجمون، ينتشرون على الأرض العربية. ورغم أن شأنهم هبط بعد انتشار نور الإسلام، إلاّ أن التنجيم ظل قائماً في الحياة العربية.

وكان علي بن أبي طالب، رغم معرفته بأهمية المعرفة، يُحذّر أشد التحذير من التأثر بالمنجّمين، والاستجابة لأقوالهم، على حساب العلم، وعلى حساب الإرادة البشرية. فكان لا يسمح بزج التنجيم في قضايا السياسة، والحرب، فالإنسان يصنع أفعاله الإنسانية، ويعبّر عن إرادته العاقلة بالتصميم الكافي. وقد حذّر الناس من تعلم النجوم، إلاّ على سبيل واحد: هو الاهتداء بالنجوم في البر أو في البحر.

---

(١) المصدر نفسه. (المؤلف)، وأنظر كنز العمال للمتقي الهندي ١٠:٢٥٥.(المحقق)

(٢) المصدر نفسه. (المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٣٦، وذكره الصدوق في الخصال: ١٨٦ وايضاً في كتابه، كمال الدين وتمام النعمة: ٢٩٠، ونقله الحراني ابن شعبة في تحف العقول: ١٧٠ والشريف الرضي في خصائص الأئمة: ١٠٥ والنيسابوري في روضة الواعظين: ١٠، والنوري في خاتمة المستدرك ٣:٢١٢، والثقفي في الغارات ١:١٥٠. (المحقق)

كان علي بن أبي طالب عدو الكهانة، لأنه كان يسترشد بالعلم الذي يصلح وحده سلاحاً لجميع البشر في إدارة شؤون حياتهم، في حين ليست الكهانة إلاّ ضرباً من النشاطات الفردية التي تلغي دور العقل، والإرادة البشرية، في معالجة شؤونهم الحياتية.

لما عزم (علي) على المسير إلى الخوارج، قال عرّاف: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت، خشيت ألاّ تظفر بمرادك ـ من طريق علم النجوم ـ فقال رضي الله عنه:

«أَتَزْعَمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ ٱلضُّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ ٱلْقُرْآنَ، وَٱسْتَغْنَىٰ عَنِ ٱلِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عزّوجلّ فِي نَيْلِ ٱلْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ ٱلْمَكْرُوهِ، وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ ٱلْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ ـ بِزَعْمِكَ ـ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَىٰ السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَأَمِنَ الضُّرَّ!.

ثم أقبل على الناس قائلاً:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ في بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَىٰ ٱلْكَهَانَةِ، [و]ٱلْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ! وَالْكَافِرُ في النَّارِ! سِيرُوا عَلَىٰ ٱسْمِ ٱللهِ»[1].

لقد وضع علي بن أبي طالب ثقله الفكري، وسلطته السياسية، والمعنوية في كفة العلوم العقلية، وليس في كفة العلوم الغيبية. لأنه كان ينشد تعليم الناس أنهم مخيّرون، يمتلكون شرط الحرية الذي يستلزم الوعي، والمعرفة بأمور أنفسهم، وأمور دنياهم، بمستوى الأمانة التي وضعها الله في يد الإنسان المستخلف على الأرض.

أما المعرفة التي تشكل فرعاً من الغيبيات، فإنها حالات فردية، ورؤى، ومناجيات روحية، واستلهامات وحدوس، لا تُبنى المجتمعات على أساسها، لأن البناء الاجتماعي

---

(١) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)، نهج البلاغة، محمّد عبده ١: ١٢٨، وأنظر الاحتجاج ١: ٣٥٧، فرج المهموم للسيد ابن طاووس الحسيني: ٥٧، وذكره الحويزي في تفسير نور الثقلين ٤: ٤٠٨. (المحقق)

والاقتصادي يحتاج إلى قواعد وأسس علمية توفرها المعرفة العلمية فقط.

التوقّعات والمعرفة الإلهامية

خُصَّ علي بن أبي طالب، بالمعرفة الإلهامية، مثلما خُصَّ بالتوقّد العقلي الهائل، وقد تلقى تلك المعرفة من النبي العظيم، الذي كان يُلقمه العلم، ويُشهده التجربة، فكانت روحه ترى ما لا تراه العين، وكان ذهنه الذي يتفتّق عن المعارف والأفكار، يومض بالحدوس، والتوقّعات التي تدخل في صميم رؤى أكدتها الأحداث والوقائع.

وحين كان علي بن أبي طالب يُثقّف الناس بالثقافة العقلية، فذلك لأنها قابلة للتعلم، والممارسة، في حين لا تتوفر المعرفة الإلهامية إلاّ للمطهّرة أرواحهم، من الذين ينالون مكرمة الرب في العطاء النوراني.

فالمؤمنون العظماء الذين يسعى نورهم بين أيديهم يطلّون على الأشياء، بقوة النور المذكور فيرون ما لا يراه أحد بنعمة الله وفضله.

وقد كانت البصيرة المحمدية الملهمة، قد أعطت كلمات النبوءة التي فسّرت جميع ما مرّ به علي بن أبي طالب من محن، وصراعات، وحروب مدمرة، داخل الوسط الإسلامي. قال الرسول الكريم:

«إن منكم من يُقاتل على تأويل القرآن كما قاتلنا على تنزيله».

قال ابو بكر: أنا يا رسول الله؟

ـ لا.

قال عمر بن الخطاب: أنا يا رسول الله؟

ـ لا، بل خاصف النعل!

ومن يكون خاصف النعل غير علي بن أبي طالب؟![1]

---

(١) أنظر الكافي ٥:١٢، الخصال للصدوق: ٢٧٦، كفاية الأثر: ٨٨، تحف العقول: ٢٩٠، تهذيب ←

كان أحد الذين خرجوا على علي بن أبي طالب (ذو الثدية)، الذي كان أحد بني تميم، كان ـ قبل ذاك ـ يتجاسر على رسول الله، وهو يوزّع غنائم معركة (حنين):

ـ اعدل يا محمد!

فيتجاهله الرسول، فيكرّر بصلافة:

ـ اعدل يا محمد!

ثم يكرر:

ـ اعدل يا محمد فإنك لم تعدل!

فيجيبه الرسول غَضِباً:

ـ ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟

أراد البعض قتله، ولكن الرسول أبى ذلك.

ثم قال لهم:

«... سيخرج من ضِئضِئي هذا، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئاً فينظر إلى بغيته فلا يجد شيئاً، ثم ينظر إلى القَذذ فكذلك، سبق الفرث والدم... يخرجون على حين فرقة من الناس تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم، وصومكم عند صومهم، يقرأون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، آيتهم رجل أسود مخدج اليد، إحدى يديه كأنّها ثدي امرأة! إنهم شر الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم عند الله وسيلة...»[1].

وحلَّ وقت آخر، في زمن آخر، توجه فيه علي إلى الخوارج، الذين قادوا أنفسهم إلى المذبحة والهزيمة.

الأحكام ٤:١١٦ / ٦:١٣٧، روضة الواعظين: ١٠٧، وسائل الشيعة ١١:١٨، الايضاح: ٤٥١، المناقب للكوفي ١:٤٦١/ ٢:٥٥٤.(المحقق)

(١) فتح الباري ٨:٥٥، كنز العمال ١١:٣٠٠، تفسير ابن كثير ٢:٣٧٨، البداية والنهاية ٥:١٢٣، لسان العرب لأبن منظور ١:١١٠.(المحقق)

كان علي متأكداً أن **«ذا الثدية»** من بين قتلى الخوارج، قائلاً لأصحابه: **«والله ما كذبت، وما كذبت.. اطلبوا الرجل، إنه في القوم!»** وفتشوا الجثث، واحدة واحدة، حتى عثروا عليه، فصاح الناس:

ـ ذو الثدية!

خرَّ علي ساجداً، شكراً لله، وهو يقول:

ـ صدق الله ورسوله...

وهلّل المسلمون.

ـ الله أكبر!... الله أكبر.. (١).

وتواتيه المعرفة الإلهامية بتنبؤ مدهش، حين جاءوه بمروان بن الحكم، بعد انتصاره في حرب الجمل، وكان استشفع له الحسن والحسين، طالبين له الغفران.

«.. وانتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه، واستنزال عفوه، على الباغي المقهور، ثم أردفا يقولان:

يبايعك يا أمير المؤمنين».

فلم يزد على أن رشق عدوّه بنظرة أودعها خلاصة ازدرائه، وقدَّم مروان نحوه كفاً مرتجفة، فيها خضوعه وذلّته، ولكن علياً عفَّ عن تناولها، وأشاح عنها وعن صاحبها إلى سبطيِّ رسول الله، وإلى من حضره من رجاله حينذاك، وقال يوجه إليهم الخطاب:

«أَفَلَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمانَ؟ لاَ حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ! إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ!» (٢).

---

(١) أنظر الخصال للصدوق: ٣٨٢، الايضاح: ٤٥٣، الهداية الكبرى للخصيبي: ١٤٦، الفصول المختارة للمفيد: ٢٣٣ وفي كتابه الاختصاص: ١٨٠، الخرائج والجرائح: ٢٢٧.

وللمدائني عن مسروق: ان عائشة قالت له لما عرفت ان علياً قتل ذا الثدية، قالت: لعن الله عمرو بن العاص فإنه كتب الي أنّه قتله بالأسكندرية ألا أنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يقتله خير أمتي من بعدي. انظر سيرة اعلام النبلاء ٢: ١٤١ وابن كثير ٨: ٣٠٣، ومسند أحمد ٢: ٥٦، وسنن البيهقي ٨: ١٨٥، ومجمع الزوائد ٦: ٢٣٩. (المحقق)

(٢) عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)، وانظر الجمل لأبن شدقم المدني:

ثم علق عينيه بعد لحظات بذلك الغادر الذي كانت حياته لا تُساوي غير لفظة لسان أو إشارة بنان، وراح يتبعه في مسرب انطلاقة، بنظراته حتى اختفى عنه خلف المجهول.

غير أن اختفاءه عن العيون لم يحجبه برهة عن بصيرة الإمام، إنه ليراه الآن بعين الإلهام، ويخترق إليه أسجاف الزمن، وأستار السنين، وظلمة الغيوب، ثم يظل يتبع خطوه الساري في المستقبل الموفي به إلى نهايته، الممتدّ بعده لذراريه.

ويسمع الحضور صوت الإمام، عميقاً خافتاً، كأنما يأتيهم لفظه من قرار سحيق بعيد الأغوار:

«.. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ ٱلْكَلْبِ أَنْفَهُ، وَهُوَ أَبُو ٱلْأَكْبُشِ ٱلْأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَى ٱلْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْمَاً أَحْمَرَا!»[1].

هكذا كانت قراءة علي بن أبي طالب لصفحات قادمة.

وتأتي ومضة أخرى، تُميط الغطاء عن أحداث مأساوية قادمة، فيا لها من ومضة تكشف عن مأساة كالحة!

كان في طريقه إلى الشام، فوقف عند بقعة، سيشتهر اسمها **«كربلاء»**، وظل يرنو إليها بنظرة واجمة، ويهمس بصوت حزين:

«ها هنا، ها هنا! موضع رحالهم! ومناخ ركابهم! ها هنا مهراق دمائهم!»[2].

↩ ١٤٩ وأنساب الأشراف: ٢٦٣، ويضيف البلاذري تكملة حديث الإمام عليه السلام: (... **لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَغَدَرَ بِسُبَّتِهِ، أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ ٱلْكَلْبِ أَنْفَهُ، وَهُوَ أَبُو ٱلْأَكْبُشِ ٱلْأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَى ٱلْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْمَاً أَحْمَرَا!**).(المحقق)

(١) نهج البلاغة ١: ١٢٤، أنساب الأشراف للبلاذري: ٢٦٣. والأكبش الأربعة هُمّ ولد مروان، كلّ من عبدالملك، وعبدالعزيز، وبشر، ومحمد، تولى عبدالملك الخلافة، وولي محمد الجزيرة، وولي عبدالعزيز مصر، وولي بشر العراق، وقد حل بالمسلمين منهم ظلم عظيم. أنظر شرح نهج البلاغة ٦: ١٤، ودراسات في نهج البلاغة للشيخ محمد مهدي شمس الدين: ١٨٠ وذكرهم الطريحي في مجمع البحرين ٤: ١٣. (المحقق)

(٢) أنظر مجمع الزوائد ٩: ٩٨١، ذخائر العقبى: ١٤٧ بتغيير يسير، نظم درر السمطين: ٢١٦، اختيار

فتأخذ الناس من حديثه رجفة، ويسألون في توجّس وإشفاق: **«وما ذلك يا أمير المؤمنين؟»**.

ويتمهّل بهم، حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين، توقّف نظره على محياه في رنوة حانية، نديّة غائمة، هتف يجيب:

«ثقلٌ لآل محمد ينزل ها هنا، فويلٌ لها منكم، وويلٌ لكم منها.. ويل لهم: منكم تقتلونهم، وويل لكم منهم، يدخلكم الله بقتلهم إلى النار!» ويسير ناكس الرأس إلى مطيّته..»[1].

وعبّر علي في وقت آخر عن توقّعاته السياسية عن حكم الأمويين، فكان مما قال، مخاطباً القوم:

«.. وَأَيْمُ ٱللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوْءٍ بَعْدِي!..

وإنهم **«وَٱللهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّىٰ لَا يَدَعُوا للهِ مُحَرَّماً إِلَّا ٱسْتَحَلُّوهُ، وَلَا عَقْداً إِلَّا حَلُّوهُ، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتَّىٰ يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ»**[2].

وكانت بصيرة علي بن أبي طالب تمتد بنور الرعاية الربّانية، فترى خاتمة الأمور، وسوء المنقلب، بالنسبة إلى الأشرار الذين حاربوا علياً وأهله. وكانت توقعاته عن سوء عاقبة الظالمين تجسيداً لإيمانه العميق والنهائي بالحق الإلهي، وبالعدل الإلهي؛ فكان

معرفة الرجال للطوسي ١:٧٤، الأخبار الطوال: ٢٥٣.(المحقق)

(١) عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن طالب. (المؤلف)، وأنظر الأخبار الطوال: ٢٥٣، وقعة صفين: ١٤٢، ترجمة الإمام الحسين ﷺ لابن عساكر: ٢٧٣، كشف الغمة ٢:٢٢٢، نهج البلاغة ٣:١٦٩. (المحقق)

(٢) نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٩٠، وذكره الثقفي في الغارات ٢:٤٨٨، وعبد الكريم بن طاووس في فرحة الغري: ٦، شرح نهج البلاغة ٧:٧٨، تاريخ مدينة دمشق ٥٨:١٩٨، الامامة والسياسة ١:١٧٤، تحقيق الشيري و١:١٣٢ تحقيق الزيني، وتكملة الحديث: «... وحتى تكون نصرة أحدكم كنصرة العبد لسيده: اذا شهد أطاعه، واذا غاب سبه، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أتظن ذلك كائناً؟ قال: ما هو بالظن ولكنه اليقين».(المحقق)

دعاؤه لا يخرج عن نطاق إيمانه، وتوقعاته، وقد حُفِظ له كان مستجاب الدعاء!

وقال لبني أميّة:

«... أَلَا إِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً، وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلَا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ.

فَأُقْسِمُ بِاللهِ، يَا بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ!...»[١].

قال: ووقع ما قال بعد السنين الطوال. وكان الواقع هو النتيجة التي لا معدى من حلولها، عجّل بها الزمن أو تأخر، ترتيباً على ما اجترحوه.. كان القضاء اللازم، والقدر الداهم، الذي حذروه وأغفلوه، كان ثمن الطغيان.. وضربة بضربة ونكال بنكال[٢].

ومن دعائه المستجاب، حينما أوغل بسر بن أرطأة في عدوانه، وإبادته للمسلمين، قوله:

«اللهم، إن بسراً باع دينه بالدنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك، اللهم فلا تُمته حتى تسلبه عقله، ولا توجب له رحمتك، ولا ساعة من نهار!».[٣] وكان أن أصيب بلوثة عقلية، وكان يهذي ويصيح بمن حوله:

«أعطوني سيفاً!... أعطوني سيفاً أقتل!»[٤]..

وحين أعياهم أن يعيدوه لرشده المسلوب، ويكفّوه عن الهذيان، وضعوا في يمينه السيف الخشبي، وقدموا له وسائد لينة تمثل في ذهنه أعداءه الموهومين، ليثخِن فيها ما

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٢٠١، وذكر المفيد في الارشاد ١:٢٧٦، وابو جعفر الاسكافي (٢٢٠ هـ) في المعيار والموازنة: ٢٧٨، وابن ابي الحديد في شرح النهج ٧:١١٧، ومن المتأخرين القندوزي (١٢٩٤ هـ) في ينابيع المودة ٣:١٠٤. (المحقّق).

(٢) المصدر نفسه.(المؤلف)

(٣) انظر الغارات ٢:٦٤٠، الاغاني ١٥:٤٤ – ٤٧، تاريخ ابن عساكر ٣:٢٢٣، الاستيعاب ١:٦٥، النزاع والتخاصم: ١٣، تهذيب التهذيب ١:٤٣٥، ٤٣٦، وقريب منه في الارشاد للمفيد: ١٥٢، ومناقب ابن شهر اشوب ١:٤٣٤، وشرح النهج ٢:١٨. (المحقق)

(٤) عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

شاء![(١)]

وجاءت نهاية حكم بني أمية درساً تأريخياً بليغاً.

«كان هذا عندما انطوت صحيفتهم بمصرع آخر خلفائهم، مروان بن محمد، فقد تمزّق جيشهم، وهلكت كثرة من أمرائهم، وشرّقت البقية الباقية منهم، وغرّبت تضرب على غير هُدى في الآفاق إلى مأمن هنا، أو ملاذٍ هنا، يحفظ عليهم الحياة. إذ ذاك انتهى الفرار بعبد الله بن مروان، ولد الخليفة الصريع، إلى أرض النوبة يلتمس فيها النجاة. وعلم ملك النوبة بنزوله فأمر رجاله أن يكرموا مثواه، ثم أقبل عليه يزوره بعد أيام في وفد من أصحابه، قضاءً لحق الضيافة والتكريم، فما إن رآه عبد الله حتى هبَّ لاستقباله، يتنحى له عن صدر المجلس، ويدعوه للجلوس. لكن الملك آثر اقتعاد الأرض العارية، مُخلياً لضيفه مكان الصدارة، فلما عجب عبد الله، سأله:

«ما منعك من القعود على الفراش؟

فكان الجواب:

«إني ملك.. وحق الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمة متجددة عنده، وقد رأيت تجدّد نعمة الله عندي بقصدكم بلادي، واستجارتكم بي، بعد عزّكم وملككم، فقابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع». فكأنما خدشت هذه الكلمات بعض كبرياء عبد الله، أو كأنما حركت أشجانه، فأخلد الى الصمت وهو لا يكاد يجد ما يقول.

اما الملك فقد أغضى ملياً، رأسه مائل على صدره، وعينه ملتصقة بالتراب، ووجهه الأسود اللامع لا تبين منه إلاّ جبهة مغضّنة، قد انعقد فيها ما بين حاجبيه، كأنه يدير فيها ـ على مهل وعناء ـ فكرة شغلته تحاول أن تجد لنفسها طريقاً إلى شفتيه. ثم انتبه فجأة وبادر ضيفه:

«أيها الأمير.. لما شربتم الخمر، وهي محرمة عليكم في كتابكم ودينكم؟» فهزت

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ٢:١٨، وذكره بن معصوم (١١٢٠ هـ) في الدرجات الرفيعة: ١٤٧، والقمي (١٣٥٩ هـ) في الكنى والألقاب ١: ٢٤٠.(المحقق)

المفاجأة عبد الله.. ولكنه تمالك جأشه بعد هنيهة، وأجاب: «أجترأ على ذلك عبيدُنا بجهلهم...».

قال الملك:

«فلمَ وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم ودينكم؟».

ـ فعل ذلك أتباعنا وعمالنا جهلاً منهم..

ـ فلم لبستم الحرير والديباج والذهب وهو محرّم عليكم في كتابكم ودينكم؟».

ـ استعنّا في أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتّاب، ودخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك اتباعاً لسنّة سلفهم، على كرهٍ منا..»[1].

عندئذٍ لاح طيف بسمة على وجه الملك، وهو يطرق برأسه، ويقلب يده، ينكت في الأرض، ثم ما لبث أن قال بلهجة حاول أن تخفي سخريته:

«عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتّابنا! كلا! ما الأمر كما ذكرت... ولكنكم قوم استحللتم ما حرّم الله عليكم.. وركبتم ما عنه نُهيتم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزّ، وألبسكم الذل، وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد..».

وانتفض واقفاً يقول:

«أيها الأمير، لأخاف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم بأرضي فينالني معكم».

ثم أردف بهدوء كهدوء السكين لو غاصت عندئذٍ بطعنة مصمية في قلب الأمير المذهول:

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ٧:١٦٣، يقول ابن أبي الحديد: سأل المنصور ليلة عن عبد الله بن مروان بن محمد، فقال له الربيع: انه في سجن أمير المؤمنين حياً، فقال المنصور: قد كان يلغني كلام خاطبه به ملك النوبة، لما قدم دياره، وأنا أحب أن أسمعه من فيه، فليؤمر باحضاره، فأحضر فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة، فأمره المنصور بالجلوس، فجلس وللقيد في رجليه خشخشه، قال المنصور: أحب ان تسمعني كلاماً قاله لك ملك النوبة حيث غشيت بلاده، قال: نعم...فكان الحديث ونقله ابن عساكر في مدينة دمشق ٣٨:١١٧، وابن خلدون في تأريخه ١:٢٠٧.(المحقق)

«... الضيافة ثلاث! اطلبوا ما احتجتم اليه، وارتحلوا عني!». وغادر المكان[١].

كل حكيم يفعل ما فعله ملك النوبة، لأن الحكمة تعلّم أن الظالم لا أمل لأصحابه الظالمين.

وكانت توقعات علي بن أبي طالب تستمد نفسها من حكمته العالية، واستشرافه البعيد، من النُور الحقّاني الذي يُحاصر الظلمة الظالمة، ويفضحها.

لم تنفع الحكام الظالمين قصورهم المشيدة، وجبروتهم، ومنجزاتهم، التي ما أسرع أن ذهبت هباء، وظلت حصتّهم ـ في الذاكرة البشرية ـ اللعنة فقط.

وضمن الرحلة التي مضت مع نتفٍ من أخبار علي بن أبي طالب في معرفته الإلهامية، وفي حدسه، وفي استشرافه، وفي توقّعاته المثيرة، النادرة، العجيبة، وهي نتف أقل من القليل في أخبار وروايات شخصية علي بن أبي طالب، التي تعدُّ ـ بذاتها ـ أمراً عجباً من أمور الموهبة الإلهية، لا بد من التطرق الى تلك الرؤيا الواقعية التي جعلته يرى وجه قاتله **«عبد الرحمن بن ملجم المرادي»** يرى يده، وهيئته، فيحدس حدس العارف بباطن الزمن الآتي. كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له:

ـ يا علي.. أتعلم من أشقى الأولين؟

ـ نعم! عاقر الناقة..

ـ أتعلم من أشقى الآخرين؟

ـ لا...

ـ من يضربك ها هنا (مشيراً إلى هامته)، فيخضب هذه (مشيراًلحيته)[٢].

وها هو الأشقى... يأخذ حصّته من العطاء، وعلي بن أبي طالب يتفحّصه، مردداً:

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. (المؤلف)، انظر تفاصيل الحوار في شرح النهج لابن ابي الحديد ٧:١٦٣. (المحقق)

(٢) فتح الباري ٧: ٦٠، وشواهد التنزيل ٢:٤٣٦، أسد الغابة ٤: ٣٥. (المحقق)

ـ ما يحبسُ أشقاها؟(١)

ما كان ابن ملجم يعلم ما ادخره له القدر من دور خسيس.

لكن علياً كان يتذكر كلمات الرسول ﷺ، كان يتذكر نبوءة الدم، وفعلة الشقي، فكم قال لبعض خاصته المحبين الذين كانوا يشفقون عليه، حين الحرب، من خوض الحشود واقتحام السلاح، غير آبه شيئاً بما قد يصيبه أثناء القتال:

«إني لا أُقتل محارباً، وإنما أُقتل فتكاً وغيلة.. يقتلني رجل خامل الذكر..»(٢).

و«التفَّت العيون المذعورة، واسعة الحملاق، حائرة النظرات، وتناثر في الجو حوله رشاش الهمسات في تساؤل واستفسار.. لكن الإمام مال عنهم الوافد المشبوه، فمنحه عطاءه الذي جاء له، ثم تمثل ببيت شعر لعله أن يغني عن التفسير:

أُريد حياته ويريد قتلي ... عذيرَك من خليلك من مرادِ(٣).

---

(١) مجمع الزوائد ٩:١٣٨، شواهد التنزيل ٢:٤٣٩، أسد الغابة ٤:٣٥، روضة الواعظين: ١٣٢.(المحقق)

(٢) الجمل لأبن شدقم المدني: ١٣٤، مناقب الشرواني (١٢٠٠ هـ): ٢١٤. شرح نهج البلاغة ١:٢٣٥/ ٩:١١٨. (المحقق)

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري: ٥٠٢، وينسب بيت الشعر لعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وكان من أعظم فرسان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، وقد أسلم سنة تسع أو عشر، ولكن أرتد في زمن النبي ﷺ فأرسل إليه علياً عليه السلام فبارزه ولما تمكن منه هرب عمرو، ثم تاب وعاد إلى الإسلام، وكان صاحب السيف المعروف بالصمصامة.

وكان عمرو، هذا، شاعراً مجيداً وله ديوان شعر، شهد القادسية وقتل رستم وتوفي آخر خلافة عمر، وقيل انه قتل في وقعة نهاوند، وقيل مات في خلافة عثمان في خروجه إلى الري وقد قتله العطش، ومطلع قصيدته كانت:

اعاذلُ عدتي بدني ورمحي ... وكل مقلص سلس القياد
اعاذلُ إنما أفنى شبابي ... إجابتي الصريخ إلى المنادي
مع الأبطال حتى سل جسمي ... وأقرع عاتقي حمل النجادِ
ويبقى بعد حلم القوم حلمي ... ويفنى قبل زاد القوم زادي

هنا انبثق من البيت المرويّ مثل شعاع أضاء في الخواطر ما قد غمض على الناس في بدء ذلك اللقاء، من كلام الإمام.. الآن رفع الغطاء! برح الخفاء وانجاب الستر عن السرّ المسربل بالغيب، فلا حاجة به إلى تعقّب أمره، أو تبيّن ملامحه من خلال غموض الإيحاء! فطالب العطاء الذي أثار قلق القوم، وحرّك فيهم الشعور بالخطر، حميري من اليمن فيما يعلم نفر منهم غير قليلين، نَسبُهُ إلى مراد، أو حليف لمراد، وعداده في كنده، أهل الأشعث بن قيس وذويه..».

ـ هلا تقتله يا أمير المؤمنين؟

ـ فكيف أقتل قاتلي.

ثم قال:

ـ إنه لم يقتلني.. فكيف أقتل من لم يقتل!؟

أي كيف يُقام القصاص بغير جرم، والعقاب قبل الجريرة[1].

تمنى ان يلاقيني قييس   وددتُ وأينما مني ودادي

فمن ذا عاذري من ذي سفاه   يرودبنفسه مني المرادي

أُريد حياته ويريدُ قتلي   عذيرك من خليلك من مرادي

انظر الابيات في البداية والنهاية ٧: ١٣٥، وترجمته من تحقيق الشيخ مالك المحمودي في كتاب مناقب الخوارزمي: ٣٩٣.(المحقق)

(١) عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. (المؤلف)

الفصل التاسع

▣ عدل علي بن أبي طالب عليه السلام

الذي وُلِدَ في البيت العتيق، كان على موعدٍ مع إشاعة الحقّ بين الناس، ومثلما كان البيت العتيق يؤمّه الناس من كل الجهات، يترسّمون فيه حكمة الحياة والموت، وآفاق الخلق حسب وعيهم الذي كانوا عليه، فإن الوليد الذي جاء هناك، تفجّرت هيئته بالصورة التي أرادها الله، له، فتكون قدراته ملكاً للبشرية، وفيئاً لهم. فتكررت فيه صورة البيت العتيق، فأصبح مناراً كبيراً يدلُّ به على العدل.

ولم تكن تسمية البيت العتيق بيت الله لتبعد الحقيقة الكبرى ـ بل كانت تؤكدها وتقربها ـ ألا وهي أن الكون بكل موجوداته، هو ملك الرب.

فالبشر الذين أتوا وذهبوا، في فصول الحياة والموت، ليسوا ملوك الكون. أتوا وذهبوا، وظل الكون، من قبل، ومن بعد. فهو لله أولاً وأخيراً.

في بيت الله العتيق، تجسّدت تلك الحقيقة الكبرى في الاعتقاد، وفي تأدية الطقوس، وفي الممارسة الجليلة، التي يهرع إليها الإنسان هرباً من مخاوفه الثقيلة التي يستثيرها وسواس الملكية، والسلطة، والمنافع المادية المتراكمة.

وكم هي بعيدة وقريبة تلك العلاقة بين (البيت العتيق) والكون: بيت الله الوسيع الذي تكوّن لعياله؟ وكان علي في المسافة الصغيرة القائمة بين (البيت العتيق) الذي وُلِد فيه وبيت أبي طالب، يتعرّف على المسافة البعيدة الهائلة بين أطراف الكون، فيختصرها بعلمه الواسع، ويطويها في معرفته، فتبدو مسافةً صغيرة، لم تتعقد، وتتعاظم إلا بفعل محدودية الذهن العاجز الذي تأسره المصالح المادية الضيّقة.

وحين تلقّفه النبي الكريم رائد العدل الإسلامي، المصطفى، كانت غرسة العدل في روح علي بن أبي طالب تجد الرعاية الثمينة، والحرص الأوفر، فتنشأ غرسة العدل في

روح علي، وتترعرع، في الفكر وفي السلوك، متكاملة الجذور والأغصان والأزهار والثمار، في جدلية النموّ الدائم.

وكانت تعريفات العدل محتاجةً إلى المسلّمات الأولى، تلك المسلّمات التي أضاعتها المسافات المتباعدة بين الفطرة والقناع.

تلك المسافات التي صنعها القناع نفسه، وهو قناع المصالح الماديّة الخاصة والسلطان، الذي فصل بين فطرة الإنسان وصورته الجديدة المتباعدة عن الأصل.

وحيث كانت فرضيّة الإنسان الأولى، أن رحلة العقل الطويلة، التي أنشأت الحضارة، ينبغي أن تقود الإنسان إلى اكتشاف الفطرة السليمة، فإنها أبعدته عنها. فازدادت الفجوة بين الإنسان ونفسه، وأصبح العقل خادم المصلحة الضيّقة.

وأحاط الإنسان نفسه بحدود المنافع المادية، وابتعد عن حدود الحياة والموت، حدود النسبي والمطلق، حدود الزوال والخلود.

كان علي بن أبي طالب ابن الفطرة. ولم تكن رحلة العقل، عقله، عقله هو، إلّا رحلة الاكتشاف على اساس تعميق الفطرة المؤمنة، فلم تخدعه لعبة المنافع السياسية والمادية الزائلة، ففي نفسه تجمّعت حكمة البيت العتيق، عبر كل السنين، فأصبحت أفكاره عن الكون والبشرية، تكريساً لتلك الحكمة، فالجميع عباد الله، والملك ملك الله، والخير من الله، والخطأ من البشر.

وآلى على نفسه أن يُقاوم الخطأ الذي نجمت عنه الفوارق المعقّدة بين البشر، ونجم عنه الاستغلال والقهر، والاقتتال، والتمايز، والعداوة، والرذائل، وجميع فنون الشرّ.

ومن المؤكد أن أحزاباً، ومنظمات، وجماعات عديدة قد وضعت العدل في مقدمة أفكارها، وبرامجها ـ وسياستها، مثلما رفعت شخصيات عظيمة (العدل) شعاراً لها. إلا أن المشكلة الأساسية، ظلت ـ دائماً ـ ماثلة في التطبيق.

فالعدل سهلٌ في العبارات، والإنشاءات اللفظية، وكذلك هو سهلٌ في بعض التطبيقات المحدودة. إنما هو صعب، بالغ الصعوبة، في التطبيق المتكامل. فقد يعرف

الإنسان قيمة العدل لصالح نفسه، لا عليها. وقد يعرفها في الحلول الفردية، لا في الحلول الاجتماعية. وهكذا ظلّت قضية العدل أصعب القضايا، على مستوى التطبيق: على النفس وعلى الآخرين سواسية.

وعدل علي بن أبي طالب، النابع من صلب العدل المحمّدي، هو المثال الإنساني الخالد، في التعبير عن (كليّة العدل) ووحدة فروعه. في الأفكار، وفي الممارسة، وفي العلاقة، على الصعيدين الفردي والجماعي.

فكان أن أعلن في اليوم الثاني من بيعته خليفة للمسلمين:

«.. **أنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسم بينكم بالسويّة..**»[(١)] ولم يُعلن فكرته تلك، ويباشر تطبيقها، بسبب منطلقات الخلافة، بل كانت تلك المنطلقات مبذورةً في نفسه مزروعةً فيها، فأتى التجاوب بين الأفكار والممارسة مثل تجاوب نموّ أعضاء الكائن الحي الصحيح، بالتكامل الطبيعيّ.

إن مشكلة تطبيق العدل، إضافة إلى كونها مشكلة عظمى، هي مشكلة خاصّة أيضاً، بالنسبة إلى الأناس العادلين الذين يرومون تطبيق العدل، فينجحون في جانبٍ منه، ويخفقون في جانبٍ آخر. لأنهم قَد يَرون جانباً ولا يرون آخر.

ذلك لأن الأفكار الشريفة عن العدل ـ عند أولئك العادلين ـ ليست صاحبة الصلاحية المطلقة في قراراتهم، وفي اختياراتهم، وفي تطبيقاتهم. فهناك مرحلة ما قبل نشأة تلك الأفكار في نفوسهم، تلك المرحلة الأولى في تكوّن النفس والعقل، والتي تتّسم بالغموض، وهي مرحلة لا سلطان للأفكار عليها. وإنما ذات سلطان غير مباشر على تطبيق الأفكار، من حيث الكيفية وتأشير أبعاد التطبيق[(٢)].

---

(١) شرح نهج البلاغه ٧:٣٧، الامالي للطوسي: ٧٢٩، نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده ١:٢٦٠، وصبحي الصالح: ١٨٣ خطبة ١٢٦. (المحقق)

(٢) وهذه من الإلتفاتات المهمة في الدراسات النفسية، وتسليط الضوء على ماهية التربية في
↩

إن سطوة تلك المرحلة لتسهم في حرف الأفكار أحياناً، أو في تحديد ميدان تطبيقها، فإذا لم تستطع أن تلجم نمّو اتجاهات الأفكار، فإنها تستطيع كبحها في التطبيق، كبحاً جزئياً أو أكبر من جزئي.

هذا بالنسبة إلى العادلين من ذوي الأذهان المفكرة والمبدعة، أما بالنسبة الى المراتب العقلية الأقل شأناً (من الأتباع، وأعضاء الجمعيات والجماعات المنادية بالعدل السياسي مثلاً) فإن الأزمة الحقيقية هي أزمة التناقض بين الأفكار والممارسة.

فالعدل ـ غالباً ـ يدخل في التشكيلة النظرية لديهم، أكثر مما يدخل في التطبيق، لا سيما وأن انعدام مجالات التطبيق في النشاط الدعائي، التجريبي، تجعلهم على غير علم بأزمتهم الحقيقية.

وحينما يحين موعد التطبيق تكون نسبة الفارّين منه أكبر من نسبة المصمّمين عليه، علاوة على أن المصمّمين على تنفيذ العدل، يتصرّفون بوحي من طبيعتهم عند الجدّ.

إن ضمانة العدل الجوهرية، هي النفس العادلة، التي يشبُّ فيه العقل العادل. فالعدل في الفطرة، يكسب بالعقل سلاحاً قوياً، أصيلاً، قادراً على أن يؤدي مهماته ببساطة، وجرأة. بساطة بمقدار تلاؤم سلوكه مع فكرته ومع طبعه، وجرأة بمقدار تصدّيها لواقع يستنكر العدل ويرفضه.

الإطار النظري والمحتوى الاجتماعي لعدل عليّ بن أبي طالب

إن قيمة أيّة نظرية، وأيّة فكرة عن العدل، قائمة في التطبيق الاجتماعي لها. فالعدل ذو دلالة اجتماعية، من وجهة نظر الإصلاح الإنساني.

النشئة الأولى. وحاول المؤلف في اكثر من موقع الاشارة إلى هذه الخاصية في تربية الإمام علي عليه السلام مؤكداً أنّه عليه السلام تربى بحجر الرسول صلى الله عليه وآله او بالمصطلح الذي اطلقه المؤلف رحمه الله «البيت العتيق»، ولا يخفى من مجمل السيرة، ان علياً عليه السلام ومنذ ان ولد أحتضنه الرسول صلى الله عليه وآله وكان تحت نظرهِ من التوجيه والتربية.(المحقق)

وما من فائدة في العدل الفردي، فيما إذا كانت شروط العدل الاجتماعي معدومة، لأن العدل الفردي يخصُّ فرداً بعينه، فيما يخصّ العدل الاجتماعي البشرية بأكملها، أمماً، وشعوباً، وجماعات، وأفراداً.

وتبعاً لمنطلقات العدل المتكامل، كان علي بن أبي طالب يُركّز على عملية التغيير الاجتماعي، وهي عمليّة إحقاق الحقّ بين طبقات الأمة، وفقاً لدور تلك الطبقات، في البناء الاجتماعي المتوازن.

ويختلف معنى الطبقة ـ في زمن عليّ عن المعاني المتغيرة، للطبقات المتطوّرة والمستحدثة، في العصور المختلفة، وبخاصة في العصر الراهن.

فالطبقات ـ حينذاك ـ حقيقة النمو الاجتماعي، وطبيعة الواقع العسكري (طرحته ظاهرة الفتح) والواقع الاجتماعي المتغيّر، في إطار الخلافة الإسلامية.

فكانت الرعية (أي الشعب، المجتمع..) مجموع الطبقات التي يصح بعضها للبعض الآخر، وكانت تشمل حينذاك: الجند، والكتّاب (كتّاب العامّة والخاصّة)، والقضاة، والعمال، والتجار وأهل الصناعات، والطبقة السفلى.

وكانت من بينهم جماعات أهل الجزية، وأهل الخراج.

أي أن الدلالة الاقتصادية والدينية والعسكرية، مُتداخلة تبعاً لتداخل الفئات المذكورة في المجرى العام للحركة الإسلامية لعموم المجتمع والدولة. ويركز علي بن أبي طالب على (الوحدة) و (التنوّع) في التركيبة الاجتماعية للرعية. فهو يرفض عموميّة التحدّث عن وحدة الرعيّة، مقدماً رؤية واقعية عن مكانة كلّ طبقة، وفعاليتها الاجتماعية والاقتصادية و (العسكرية)، فهو يشخّص ـ ببعدِ نظرٍ شديد ـ طبيعة كل طبقة، وموقف السلطة الإسلامية منها، ملغياً النظرة العمومية السطحية، التي يتحكم بها الوعي المصلحي، الطبقي الضيق (الذي يرى في التفاوت الطبقي الحاد ظاهرةً طبيعية، لتبرير الاستغلال) أو نقيضه الشكلي؛ الوعي التسووي الذي يتحدث عن مساواة وهمية.

فهو ـ أولاً ـ يستعرض وجود الطبقات قائلاً:

«وَٱعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَىٰ بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَمِنْهَا جُنُودُ ٱللهِ،مِنْهَا كُتَّابُ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ ٱلْعَدْلِ، وَمِنهَا عُمَّالُ ٱلْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ ٱلْجِزْيَةِ وَٱلْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ ذَوِي ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّىٰ ٱللهُ سَهْمَهُ (إي نصيبه من الحق)، وَوَضَعَ عَلَىٰ حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِﷺ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ ٱللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ ٱلْوُلَاةِ، وعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ ٱلْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ.

ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ ٱللهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا أَصْلَحَهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ.

ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهٰذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ ٱلْقُضَاةِ وَٱلْعُمَّالِ وَٱلْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ ٱلْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنْ ٱلْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ ٱلْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا.

وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ ممَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ.

وَفِي ٱللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَىٰ ٱلْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ.

[وَلَيْسَ يَخْرُجُ ٱلْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ ٱللهُ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا بِالإِهْتِمَامِ وَالاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَىٰ لُزُومِ ٱلْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ].»(١).

ويستعرض علي بن أبي طالب صورة الطبقات، لا بما هي عليه، (وإن حدّدها كما هي موجودة) وإنما بصورتها الاجتماعية، وفي إطار واجباتها ومسؤولياتها نحو المجتمع الإسلامي، أي أنه رسم اللوحة الطبقية رسماً واقعياً تُستشفّ منه الحدود التي

---

(١) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة من كتاب إلى مالك الاشتر النخعي بعد توليته مصر.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٩١، تحف العقول: ١٣٢، مستدرك الوسائل ١٣:١٦٤، دستور معالم الحكم لأبن سلامة (٤٥٤ هـ): ١٥٠، شرح نهج البلاغة ١٧:٤٩.(المحقق)

ينبغي لها أن تتّحد، (أو تتّفق) فيها.

وبعد عرض الإطار العامّ للوحة الطبقية للرعيّة، يقدم التشخيصات النافذة لطبيعة كل طبقة أو فئة، فيبدأ الميزان، الذي تُوزن به كل طبقة بوقعها الحقيقي، ثم يُعطي حقّها في الموقف الرسميّ الواجب نحوها. أي أن ملموسية التحليل الواعي لواقع كل طبقة ـ بما هي عليه في حقيقتها وواقعها ـ تقود إلى استبعاد النظرة السطحيّة العمومية، بإحلال الموقف العملي المسترشد بذلك التحليل.

فثمة تحليل علمي، واقعي، يواكبه استيصاء، وموقف، وتعيين الحدّ. فعن (التجار وذوي الصناعات) يتحدّث عليّ بن أبي طالب مستوصياً بهم «**ٱلْمُقِيمِ مِنْهُمْ، وَٱلْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَٱلْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ ٱلْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ ٱلْمَرَافِقِ، وَجُلَّابُهَا مِنَ ٱلْمَبَاعِدِ وَٱلْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَىٰ غَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ...**»(١).

وعقب المقدمة يسلّط علي بن أبي طالب الضوء على الطبيعة الاحتكارية، والشحّ، والضيق الفاحش لكثير من التجار، وذوي الصناعات. وهي صفات الطبقة التجارية المستغلّة ـ بكسر الغين ـ أكثر من كونها صفات أفراد.

فهناك أفراد من الطبقة عينها يتّصفون بأخلاقية الإسلام، ويلتزمون بمبادئه. لكن الطبقة، كطبقة، ذات سمات أكبر من سمات الأفراد، لأن الطبقة أكبر من أي فرد فيها، بالمعنى الاقتصادي ـ الطبقيّ.

وقد يكون أفراد من الطبقة البورجوازية، ضحايا طبقتهم، لا على الصعيد الماديّ و (المالي)، بل على الصعيد الإيديولوجي والأخلاقي.. وأحياناً تدمّر الطبقة فردها العضو فيها، تدميراً مادياً ومالياً، وفقاً لدواعي طبيعتها الاحتكارية، التنافسيّة المدمرة.

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٩٩، تحف العقول: ١٤٠، شرح نهج البلاغة ١٧: ٨٣، مستدرك الوسائل ١٣: ١٦٧. (المحقق)

ولأن (علي بن أبي طالب) يدين الطبقة فإنه يسم الكثير من التجار وذوي الصناعات بالصفات المذكورة، وليس البعض منهم، قائلاً، في كتابه نفسه:

«وَٱعْلَمْ ـ مَعَ ذٰلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ (أي التجّار وذوي الصناعات) **ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَٱحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي ٱلْبِيَاعَاتِ، وَذٰلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَىٰ ٱلْوُلَاةِ، فَامْنَعْ مِنَ ٱلْإِحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وآله مَنَعَ مِنْهُ.**

وَلْيَكُنِ ٱلْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ، وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ.»[(١)].

ويميل ميزان علي بن أبي طالب لصالح الطبقة الخامسة: **«المساكين والمحتاجين»** والمستضعفين، فهم المادة البشرية التي تستحق عملية العدل الاجتماعي، أكبر استحقاق.

الجوهر الاقتصادي لسياسة العدل

يُعدُّ **«بيت المال»** مجمع الثروة الاجتماعية للدولة الإسلامية، ومصدر تنظيمها وتوزيعها. ويحمل بيت المال معنيين. حسب نوع السياسة العامة لقيادة الدولة، فهو قد يكون بيت المال الحكومي الذي يكرس إرادة قيادة الدولة ومصالح الفئات الاجتماعية المرتبطة بها. وهو بهذا المعنى، ذو دلالة طبقية، ممثلة لمصالح القوى السياسية والطبقية المتنفذة ومنافية للمعنى الذي حدده الإسلام لبيت المال.

أما المعنى الثاني (وهو المعنى الإسلامي)، فهو ماثل في تكريس بيت المال في خدمة المسلمين عموماً.

ومن الثابت أن طبيعة بيت المال، وحركته تعكسان بصورة أمينة أيديولوجية النظام السائد، وتجسّدان السياسة الاقتصادية للدولة. ذلك لأن خزائن بيت المال تتكون من

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ١٠٠ ،وابن ابي الحديد في شرح النهج ١٧: ٨٣، وذكرها العاملي في وسائل الشيعة ١٧: ٤٢٧، والنوري في المستدرك ١٣: ١٦٧. (المحقق)

المصادر الأساسية للاقتصاد، ومكوناتها الحقيقية، وبخاصة «**الخراج**» و «**الجزية**»[١].

ويعتبر الخراج الدعامة الأساسية للاقتصاد الماليّ وهو جوهر الصلة الاقتصادية العضوية بين الأرض والدولة، ذلك لأن غالبية مصروفات الدولة، ونفقاتها، (والتي يضمُّها بيت المال) هي من معطيات الخراج.

فأغلب مراتب الجند ـ مثلاً ـ من الخراج، فإذا ما ضعف الخراج «**ينتج عن ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان**».

وفي زمن تنامي الفتوحات الإسلامية وتعاظمها، كان (الفيء) جلب سيوف المقاتلين، قد أثّر ـ نوعاً ما ـ على مستوى العناية بالزراعة، فلحقت بالأرض بعض الآثار السلبيّة الناتجة عن نقص الاهتمام الموجود بشكل أو بآخر. وهو ما كان ينجم عنه ـ بالضرورة ـ نقص في الخراج.

ومن الأخطاء الفادحة، التي تمثّل انحرافاً خطيراً عن المضمون الاجتماعي لبيت المال، توّجه أجهزة الدولة وجباتها إلى الإفراط في الجباية، على حساب الاهتمام بعمران الأرض. أي أن استجلاب الخراج يصبح سياسة النظام وهمّه الكبير، دونما أي اكتراث بالعلاقة الاقتصادية والسياسية بين الخراج وأحوال الناس.

كانت فكرة علي بن أبي طالب، المبدئية، وحدة العناية بالخراج والجزية بالانطلاق من الاهتمام بعمران الارض، فهو يقول في كتابه إلى عامله على مصر: «**وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ ٱلْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَرَاجِ**»[٢]، غير أن عمران الأرض ـ نفسه ـ مرتبط أصلاً بمكانة الإنسان، وقيمته.

فالإنسان الحر، الكريم، غير المكبّل بالقيود، قادر على إعمار الأرض والعناية بها.

---

١ ـ الخراج: مكوس على إنتاج الأرض، وهي تُدفع إلى بيت المسلمين، من قبل المسلمين. أما الجزية فهي مكوس أهل الذمة (أهل الكتاب) الذين يقطنون في البلاد الإسلامية، إذ كان الراشد البالغ يدفع مكساً (عبارة عن دينار واحد بدل حماية الدولة له ولأملاكه، مع إعفائه من الجندية). (المؤلف)

(٢) نهج البلاغة، محمّد عبده ٣:٩٦ (المحقق).

أما الإنسان السجين، بقيود الظلم الاجتماعي، فهو غير قادر على إعمار أية أرض، إن كانت له أرض، ويقول (عليّ) في ذلك: **«وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يُعوز أهلها الإشراف أتعس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر»**(١).

وتبرز وحدة الأفق بين الإنسان وعمارة الأرض والخراج وبناء الدولة في ذلك التصوير العادل لوحدة العلاقة الاقتصادية بمضمونها الانساني بين تلك الأطراف. قال علي بن أبي طالب في كتابه إلى مالك الأشتر:

«وَتفَقَّدْ أَمْرَ ٱلْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صلَاحِهِ وَصلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَىٰ ٱلْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ.

وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ ٱلْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلَابِٱلْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ ٱلْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ ٱلْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ ٱلْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلاً.

فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أَوْ عِلَّةً، أَوِ ٱنْقِطَاعَ شِرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ (إي مطراً يبلّ الأرض)، **أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ ٱغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِما تَرْجُو أَنْ يصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ ٱلْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ، مَعَ ٱسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ ٱلْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ** (أي إراحتك لهم)، **وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ ٱلْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ ٱحْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ ٱلْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَىٰ خَرَابُ ٱلْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا،إِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ ٱلْوُلَاةِ عَلَىٰ ٱلْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ ٱنْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ»**(٢).

---

١ ـ أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٩٧، تحف العقول: ١٣٨، شرح نهج البلاغة ١٧: ٧١، دعائم الاسلام للنعمان المغربي (٣٦٣ هـ) ١: ٣٥٢، ومستدرك الوسائل ١٣: ١٤٤. (المحقق)

(٢) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٩٧:٣، دعائم الإسلام للنعمان المغربي (٣٦٣ هـ) ٣٥٢:١، تحف العقول: ١٣٨، شرح نهج البلاغة ٧١:١٧. نهج البلاغة لصبحي الصالح: ٤٣٦، مستدرك الوسائل ١٤٤:١٣ .(المحقق)

وإذ يحثّ علي بن أبي طالب مالك الأشتر على عمران الأرض بالعناية بأهلها، فإنّه يشدّد على اهتمامه بـ(مصر)، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بخزائنها العظيمة، بتسميتها بخزائن الأرض.

«قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾[1]، قال: هي خزائن مصر»[2].

لقد حفلت مصر برفاهٍ كبير، في زمن الفراعنة، كان مضرب الأمثال في العالم، حتى قيل إن فيها خزائن الأرض. قال أبو الحسن بن علي الأسدي، أخبرني أبي، قال: وجدتُ في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نُقِل بالعربية أن مبلغ ما كان يُستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر لخراج سنة واحدة، من الذهب العين (أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار). من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخلجان، والأنفاق على الجسور، وسدّ الترع، وتقوية ما يحتاج إلى التقوية، من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات، وأجرة من يُستعان به لحمل البذر، وسائر نفقات تطبيق الأرض (ثمانمائة ألف دينار)، ولما ينصرف للأرامل والأيتام، وإن كانوا غير محتاجين، حتى لا يخلوا أمثالهم من برّ فرعون (أربعمائة ألف دينار)، ولما ينصرف لكهنتهم، وبيوت صلاتهم (مائتا ألف دينار)، ولما ينصرف في الصدقات مما يصبُّ صبّاً، وينادي عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير (مائتا ألف دينار) فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنأوه بتفرقة الأموال، ودعوا إليه بطول البقاء، ودوام العزّ والنُعماء والسلامة، وأنهوا إليه حال الفقراء، فيأمر بإحضارهم وتغيير شعثهم ويمدّ لهم السماط، فيأكلون بين يديه، ويشربون، ويستفهم من كل واحدٍ منهم عن

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٥.(المحقق)

(٢) انظر تفسير جوامع الجامع للطبرسي ٢: ٢١٠، تفسير ابن كثير ٢: ٤٩٠، تاريخ الطبري ١: ٢٣٥.(المحقق)

سبب فاقته. فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له، ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبة في كل سنة (مائتا ألف دينار)، ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق ﷺ للملك، ويجعله في بيت المال لنوائب الزمان (أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار).

«وقال ابو رهم: كانت أرض مصر أرضاً مدّبرة حتى أن الماء يجري تحت منازلها وأفنيتها، فيحسبونه حيث شاؤوا، ويرسلونه حيث شاؤوا، وذلك قول فرعون: «**أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي**»[1].

وكان ملك مصر عظيماً لم يكن في الأرض أعظم منه ملكاً، وكانت الجنان بحافتي النيل متّصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد. وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروا من جسورها، وحافاتها، والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها، وذلك قوله تعالى: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ**﴾..»[2].

«وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره، فجعل أهل القرى يسألون أن يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً، فكان يذهب من قرية إلى قرية، من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى القبلة، ويسوقه كيف أرادوا حيث قصد، فليس خليج بمصر أكثر عطوفاً منه، فاجتمع له من ذلك أموال عظمية جزيلة، فحملها إلى فرعون، وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده، ويفيض عليهم من خزائنه، وذخائره، ولا يرغب فيما بأيديهم، ردّ على أهل القرى أموالهم، فردّ عليهم ما أخذه منهم..»[3].

إنَّ العبرة في ذلك أن ازدهار البلاد بازدهار أهلها، وازدهار أهلها، قائم ما قام الحكم بالعدل، والرعاية، والحكمة. وما إن ينقطع عدل الحكام، ويحل الجور، حتى يعم

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٥١. (المؤلف)
(٢) سورة الدخان: الآية ٢٥ ـ ٢٦.(المؤلف)
(٣) الإمام الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف.(المؤلف)

الشقاء والخراب، فتصبح البلاد مهددة بالكارثة الداخلية، وبالعدوان الخارجي.

ومن مبادىء العدل أن لا يكون بيت المال سلطة مالية فوق حاجات المجتمع، تراكم الأموال، لإغناء طبقة الحكم، من خلال ذلك ـ وإفقار الناس. وهذا أمرٌ عصيب تحقيقه، لأنه يتصل ـ عضوياً ـ بإرادة قيادة الحكم. وتفعل القوانين الاقتصادية للرأسمال المتراكم دورها الخطير في حرف سياسة الحكم، إذا لم تتوفر ضمانات مبدئية حازمة للعدل.

ولم يكن علي بن أبي طالب ليتأخّر عن تطبيق مبدئيته، ففي اليوم الثاني من بيعته خطب قائلاً:

«أيها الناس.. إنما أنا رجل منكم.. لي ما لكم، وعليّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيّكم، ومنفذٌ فيكم ما أُمرتُ به.. ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال.. فإن الحق لا يبطله شيء.. ولو وجدته قد تزوّج به النساء، وملك الاماء، وفرّق في البلدان لرددته. فإنَّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحقّ فالجور عليه أضيق.. أيها الناس.. ألا يقولنّ رجال منكم غداً ـ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة ـ إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعملون: «حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا».. ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى ان الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله... ألا وأيّما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملّتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتّقين عند الله أحسن الجزاء. فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله، ولا يتخلفنّ أحدٌ منكم. من أهل العطاء»[1].

وهكذا كان: «أبدأ بالمهاجرين يا عبيد الله...».

---

(١) علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)، وأنظر شرح نهج البلاغة ٧:٣٦ـ٣٧، ونقله الطوسي في الآمالي: ٧٢٩.(المحقق)

كان صوت علي بن أبي طالب إيذاناً بتقسيم أموال بيت المال على المسلمين سويةً، بلا فروق، وبلا مزايا وامتيازات.

كان ذلك حدثاً كبيراً، بل كبيراً جداً، بازاء ظهور فئة من الذين كنزوا الذهب والفضة، بعضٌ باسم السابقة في الإسلام، وبعضٌ من خلال السلطة، وبعضٌ من خلال القرابة للولاة والعمال، وغير ذلك.

وقد كان الحدث (وهو ثورة داخل الثورة الإسلامية والدولة الإسلامية من الموقع الأعلى) قد هزَّ الأفراد المتنفّذين الذين نسبوا صورة المسلم الصحيح، تلك الصورة التي لا تزال حيّةً في الذاكرة، صورة محمد النبي العظيم وصحبه الأبرار.

وابتدأت المواجهة، بالنصح أولاً، ثم بالمعاندة والمكابرة ثانياً، ثم بـإشهار التمرد ثالثاً، واختلطت الأسباب، والأقنعة.

قال علي بن أبي طالب للناصحين:

«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَٱللهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ ٱلْمَالُ لي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا ٱلْمَالُ مَالُ ٱللهِ لَهُمْ.

ثمّ قال عليه السلام:

أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ ٱلْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي ٱلآخِرَةِ»[1].

كان الاعتراض على تقسيم الأموال مساواةً بين المسلمين، تعبيراً عن منطق النفوذ الاقتصادي والسياسي، ومصالح الفئة الارستقراطية المنتفعة بدون حق. ورغم أن الغطاء النظري الإسلامي كان مشتركاً، فإن فعل المصالح ومراكز النفوذ والانتفاع كان سارياً بقوةٍ أو ببطء. وهو فعل أكبر من حدود الوعي، إذا لم يكن الوعي متجذّراً في العدل الإسلامي، متجاوزاً مفعول المنافع والمصالح اللامشروعة.

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٨: ١٠٩، ونهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٧.(المحقق)

فالمسلم الزاهد الثوري، الحقيقي، المؤمن بالحياة الأخرى، لا يخدعه بريق الأموال، ولا يهرج السلطة، لذلك لا تغطيه المساواة في توزيع أموال بيت المال. بل هو يُرحّب بها أشد ترحيب!.

وحينما نكث الناكثون، كانت سياسة عليّ الاقتصادية هي سياسة توزيع أموال المسلمين على المسلمين بالمساواة، التي علمها الإسلام، لا فرق بين عربيّ وغير عربيّ، ولا بين مالك وعبد مملوك.

وهي سياسة قد تُرضي كثرةً من الناس، ولكنها تُثير غضبة أناسٍ آخرين. فالعدل ـ من هذا الطراز صعبٌ جداً، وهو شديدٌ على المرحلة، بعد أن مضت سنوات على تجربة العدل المحمدي الباهرة. فقد نشأت المصالح، وتعزّزت المراكز، وأصبحت كلمة المساواة مثل الذكرى. وعلاوةً على كل ذلك فإن الأفكار المحدودة لبعض الناس الذين قد تنفعهم المساواة لا تستسيغ فكرة المساواة، بسبب اعتيادها التقليدي على التفاوت الطبقي، والتفاوت القبلي، واختلاف الأجناس، ذلك الاعتياد الذي أصبح ـ بمرور الزمن ـ نسقاً فكرياً، واعتقاداً ثابتاً.

نعم، حافظ الإسلام على المساواة في شعائره، **«وإننا لنلمسها في الصلاة يستوي فيها العزيز والذليل ويقفان موقفاً واحداً بمكان واحد، ينطقان بالألفاظ نفسها، ويأتيان الحركات نفسها. ونلمسها في الزكاة التي تأخذ من الغني بعض عروض الحياة لتردّه على الفقير حتى يشعر كلاهما ـ وإن باعدت بينهما الأنساب ـ بشعور الإخاء. ونلمسها في الحجّ، تزدحم بأرضه المقدّسة أقدام الرجال والنساء، فلا يميّز بينهم فارق واحد من الفوارق الاجتماعية التي قد تملي لها أهواء الإنسان، بل نراهم عند القيام بمناسك حفاة شبه عراة، لا يسترهم إلا اللباس عينه يستوى فيه الناس كافّة، أردية الأكفان.. التسوية الحقة هي جماع الإسلام والغاية التي هدفت إليه شعائره وتعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص في مواقفهم أمام الله..»**[1].

---

(١) عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. (المؤلف)

إلا أن حكم المصالح المادية والمالية هو التحدّي الأكبر للإنسان، في مبادئه، وفي أفعاله.

ومن الصعب جداً أن تصوغ الأفكار لإنسان كُله صياغةً واحدة، ونهائية، إذا كان فرداً فكيف إذا كان جماعةً!

فثمة أفكار قديمة، موروثة أو مكتسبة، وثمة مصالح جديدة، وثمة تداخل في المؤثرات المتباينة، التي تعرقل عملية الصياغة الفكرية للنفس البشرية.

وفي المدينة، بعد مصرع عثمان، كان الغليان الشعبيّ شديداً، وكانت المصالح والتيارات المعبّرة عن إرادة مراكز القوى، تزيد من شدة التأثيرات على أفكار الناس، إلا أن أغلبية المهاجرين والأنصار كانت مع علي في سياسته، فاختار الناكثون مكاناً للمعركة خارج المدينة، فكانت البصرة ذلك المكان.

وحين انتصر علي بن أبي طالب في معركة الجمل، لم تختلف سياسته المالية العادلة التي انتهجها في المدينة، عنها في البصرة.

كان الناكثون قد وضعوا اليد ـ قبل معركة الجمل ـ على بيت المال، فتحوّل من بيت مال المسلمين عامةً إلى مركز مالي خاص لتمويل حربهم، وتجهيز جندهم، وتمشية رغباتهم المالية، الأمر الذي يكشف عن الاهتمام الخاص ببيت المال، ذلك الاهتمام الذي يشكل ـ بمضمونه ـ أولوية سياسية.

ولكن علياً بن أبي طالب، بعد حسم المعركة، دخل بيت المال في البصرة، بسمّوه الفكري والنفسي العادل، متعالياً على خدعة المال، مطبقاً نهجه الثابت، الذي لا تغيير فيه، أينما كان، بتوزيع الأموال على المسلمين.

يقول المسعودي: ودخل علي بيت مال البصرة في جماعة من المهاجرين والأنصار، فنظر إلى ما فيه من العين والورق، فجعل يقول:

«يا صفراء غرّي غيري، ويا بيضاء غرّي غيري، وأدام النظر إلى المال مفكراً، ثم قال: اقسموه بين أصحابي، ومن معي خمسمائة خمسمائة، ففعلوا، فما نقص درهم واحد، وعدد

الرجال إثنا عشر ألفاً»[١].

وفي الكوفة، كان يوم الجمعة الشاهد الأكبر على ثبات نهج علي في سياسته المالية، التي تضع المال في خدمة الناس، وليس العكس، وترسم صورة للمجتمع هي صورة العائلة الواحدة المتشاركة في حل بيت المال. ففي كل يوم جمعة، كان لا يقرّ له قرار إلا بتوزيع المال في بيت المال، لا يبقي منه شيئاً فإذا ما فرغ من ذلك، كنس بيت المال بنفسه، ثم صلى ركعتين، وهو يقول: «**ليشهد لي يوم القيامة**»[٢].

هل كان علي عجلةٍ من الأمر، فما يدع بيت المال يصيب شيئاً من المال إلا ودهمه بتوزيع المال، وتفريغ البيت منه؟.

«**كان يخفّ دائماً إلى تقسيم الأعطيات على الناس، كلما اجتمع لديه منها شيء ـ ويكره أن يؤخّرها عنهم، كأنّما يتأثم من إرجائها، أو اكتنازها إلى حين..**»[٣].

كان الموقف الذي وقفه عليّ بن أبي طالب أكبر من التأثّم الشخصي، الذي تحدّث عنه عبد الفتاح عبد المقصود، كان إداركاً نافذاً للعلاقة بين المال والزمن.

فالمال ـ على طول الأزمنة الطبقية ـ سيّد لأنه يكهرب الزمن بغوايته التي سرعان ما تتحوّل إلى قوانين، وقواعد، وأوامر.

وكان الصراع بين المال والعقيدة، يتجاذب الزمن إلى شطريه، لكن الزمن كثيراً ما أدلى بصوته لصالح حجة المال.

ولقد تأسست عوالم بشرية على المال، وسُنّت القوانين التي تُكرس سلطته في تلك العوالم، فكان أن انسحب مفعول ذلك على النفس البشرية التي قد تبدي جلداً أمام

---

(١) المسعودي: مروج الذهب. (المؤلف)، انظر المجموع لمحي الدين النووي ١٨: ٣٤٤، النهاية في غريب الحديث لأبن الأثير ٤: ٢١١، تاج العروس للزبيدي ٩: ٥٢.(المحقق)

(٢) الغارات ١: ٤٨ ـ ٤٩، مناقب الكوفي ٢: ٣٢، تصحيح اعتقادات الامامية للمفيد: ١٠٩، شرح نهج البلاغة ٢: ١٩٩، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٧٨، كنز العمال ١٣: ١٨٢.(المحقق)

(٣) عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)، انظر كنز العمال: الحديث ٣٦٥٤٦.(المحقق)

إغراءات أخرى، لكن جَلدها يخونها أمام إغراء المال. وكان وجود الأموال مثل وجود الأصنام، يحيط بالناس، فيعشون معه ويتنفّسون هواءه، ويمتلئون بمفردات أخباره، فكان الاغراء المحيط، الحاضر أبداً.

فماذا يفعل عليّ العادل المدرك لمخاطر المال على النفس البشرية، وعلى الوحدة الاجتماعية للمجتمع الذي كان يريده أن يكون مثل عائلة سعيدة؟!.

إنه يباشر توزيع المال، معطياً الدرس الأكبر في تشخيص مصادر البلاء والفتنة. فإذا ما كانت الدولة تفعل هكذا ببيت مالها، وبيد الخليفة نفسه، فإن الإفادة من الدرس تقتضي استيعاب ذلك من قبل الفرد. لأن الفرد الذي يكنز الأموال يبني بينه وبين أخوانه المواطنين جداراً ضخماً، تنقطع دونه العلائق، وتتمزق الأواصر، ويحل الصداع. وما يصحّ على الدولة، يصحّ على الفرد، وما ينطبق على الفرد ينطبق على الدولة. فإذا ما اكتنزت الدولة بالأموال، عزلت نفسها عن الشعب، وأكثريته من الفقراء ومحدودي الدخل، ما دامت لا تنتهج العدل مذهباً ووسيلة.

ثم إن لغة الأموال الزائدة، التي لا تأخذ طريقها إلى خدمة الناس، تضحي لغة قوة، وإكراه وضغط، وتعالٍ، وعدوان، على المواطنين، وعلى المجتمعات المسالمة.

قال (قنبر) يوماً:

- «يا أمير المؤمنين.. لقد خبأت لك خبيئاً».

- «وما هو ويحك»؟.

- «قم معي»!.

وانطلق به إلى داره فوضع بين يديه غرارة مملوءة من جامات: ذهباً وفضة وهو يقول: «رأيتك لا تترك شيئاً إلا قسمته، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال»، فغضب علي وصاح بغلامه: «ويحك يا قنبر! أردت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة..».

ثم دعا بالناس، فقال: «اقسموه بالحصص».

ومضى على الأثر إلى بيت المال يقسم بينهم كل ما وجد فيه حتى وقع، على إبر

ومسال، جاءته من بعض عمّاله، فدفعها للناس:

ـ«ولتقسموا هذه أيضاً..».

قالوا:

ـ«ولا حاجة لنا فيها..».

فأبى أن يدعوها، وقال لهم ضاحكاً:

«ليؤخذنّ خيرهُ مع شرّه»![1].

ما كان ليؤثر نفسه بشيء على الناس، وكان دائماً يقول لهم:

«يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي، ورحلي وغلامي، فأنا خائن!...»[2].

السياسة المالية وضرورة اقتداء الولاة والعمال

حرص عليّ بن أبي طالب على إشاعة نهجه العادل في السياسة المالية، وذلك من خلال محاسبة الولاة والعمال الذين يمثّلون سياسة الدولة، ومتابعة أعمالهم. ذلك أن الولاة والعمال هم وجه السلطة، وصورتها المعبرة عنها، في الأمصار والمناطق البعيدة عن مركز الخلافة. فالناس يرون في الولاة والعمال عليهم صورة الخليفة، ووجه الدولة، والممثّل لنهجها وسياستها.

---

(١) الغارات ١:٥٥، ويذكر الثقفي: ان علياً عليه السلام ذهب مع قنبر إلى سوق الكرابيس، فإذا هو برجل وسيم، فقال: يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟ فوثب الرجل فقال: نعم يا أمير المؤمنين، فلما عرفه مضى عنه وتركه، فوقف على غلام. فقال له: يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟ قال نعم عندي ثوبان أحدهما اخير من الآخر، واحد بثلاثة والآخر بدرهمين، قال: هلمهما، فقال: ياقنبر الذي بثلاثة، قال: أنت أولى به يا أمير المؤمنين، تصعد المنبر وتخطب الناس، فقال: يا قنبر أنت شاب ولك شره الشباب وأنا استحي من ربي أن أتفضل عليك لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ألبسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تأكلون. انظر الغارات ١:١٠٦.(المحقق)

(٢) أنظر شرح نهج البلاغة ٢:٢٠٠، ويقول ابن ابي الحديد: فكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع، وكان يطعم الناس فيها، الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت.(المحقق)

وكانت محنة الولاة والعمال محنة المسلمين في جميع العصور، بما في ذلك العصر الإسلامي الأول. فكان الخلفاء يضطرون إلى عزل العديد منهم لعدم التزامهم بنهج الإسلام وتعاليمه.

وتسبّب إغراءات السلطة، والمال، انحرافاً لدى أولئك الذين يضعف لديهم النازع الديني، ويرون في بُعدهم من مركز الخلافة، ما يجعلهم بمأمن من المراقبة والمحاسبة.

وقد تولّى عليّ بن أبي طالب تطبيق منهجه العادل في السياسة المالية، بصورة متوازنة، فهو إذ يحرص على تقسيم أموال بيت المال على المسلمين. فإنه لا يفعل ذلك مُسرفاً، لا مُبالياً. وإنما يطبق نهجاً عادلاً. لكنما الوجه الآخر لهذا النهج في تقسيم الأموال سواءاً بين الناس، كانت سياسة الحرص على المال، موقفاً قوياً لا تراخي فيه.

لذلك كان يرى الولاة أمناء على المال يجب عليهم الحفاظ عليه، وفي حالة قيام أحد بتصرّفٍ لا مشروع، في السياسة المالية، فإن ذلك يعني إسخاط الرب، وإخزاء الأمانة.

وكان التفريط بأموال المسلمين، سواء في خيانة ماليّة، أو في توزيع الأعطيات بصورة خاصة لأقرباء أو أصدقاء، مدعاة لغضب علي، وحزمه في المعاقبة.

قال في كتاب له إلى زياد بن أبيه، أحد عماله:

«وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ ٱلْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ ٱلْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ ٱلْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ»[1].

كما قال له في كتاب آخر:

«فَدَعِ ٱلْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَٱذْكُرْ فِي ٱلْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ ٱلْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ ٱلْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ.

أَتَرْجُوا أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ أَجْرَ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ ـ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ١٩. (المحقق)

النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ والأَرْمَلَةَ ـ أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ المُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا المَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا [أ] سلَفَ، وَقَادِمٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ»[١].

وفي كتاب منه إلى الأشعث بن قيس عامل أذربيجان:

«وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفتَاتَ (أي تستبد) **فِي رَعِيَّةٍ، وَلاَ تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ، وَالسَّلَامُ»**[٢].

وسنرى أن هذه العدالة الحاسمة ستكون ذات أثر ملموس في ردّة فعل النفوس الضعيفة المتورطة بالإنفاق من أموال المسلمين بدون شرع ولا حقّ. إذ شهدت الإيام التالية قيادة الأشعث للثورة المضادة في معسكر عليّ في حرب صفين، وتواطؤ زياد ابن أبيه ـ لاحقاً ـ مع معاوية، بعد لعبة معاوية الذكية باستلحاق زياد ابن أبيه، اخاً له من والده أبي سفيان!.

كذلك ألزم عليّ بن أبي طالب مصقلة بن هبيرة الوالي على بعض مقاطعات فارس، إعادة المبلغ الذي أخذه من بيت المال، والذي أنقذ فيه من الأسر خمسمائة رجل معظمهم من بني بكر بن وائل قوم مصقلة، وقال في كتاب له:

«بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ، وَأَغْضَبْتَ إِمَامَكَ: أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ المُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذٰلِكَ حَقّاً لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً»[٣].

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١٩، شرح نهج البلاغة ١٥:١٣٩. (المحقق)

(٢) شرح نهج البلاغة ١٤:٣٣، وقعة صفين: ٢٠، الامامة والسياسة ١:١١١، تحقيق الشيري /١:٨٣، تحقيق الزيني، جواهر المطالب ٢:٢٦.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٦٨، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١٦:١٧٥، وذكره البلاذري في انساب الاشراف: ١٦٠.(المحقق)

وبعث إلى ابن عباس عامله في البصرة بأن يسترجع منه المبلغ[١]. لكن مصقلة لم يستجب إلى ذلك، وهرب إلى معاوية. فكان تعليق علي بن أبي طالب على ذلك: **«قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّىٰ أَسْكَتَهُ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّىٰ بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وَانْتَظَرْنا بِمَالِهِ وُفُورَهُ»**[٢] ويبدو أن مصقلة كان يأمل إعفاءه من المبلغ، فلما فشل في ذلك، قال: **«لو كنتُ قد طلبت أكثر من هذا المال إلى ابن عفّان ما منعني إياه»**.[٣]

ويتّضح من كلامه أن بعض الولاة والعمال، بعد أن ارتفعت عنهم قبضة عمر بن الخطاب، العادلة، بعد وفاته، استجابوا إلى إغراءات السلطة، والترف والدعة، فأباحوا لأنفسهم ـ حيث استطاعوا ـ حرية الإنفاق والتصرف ببعض أموال بيت مال المسلمين.

وكان الانحراف المذكور مندمجاً، **«بتبرجز»** الشرائح العليا في الدولة الإسلامية، فكان أن أصبح ظاهرة بارزة، ومعدية.

وقد كانت فعلة (ابن عباس) عاملهُ في مصر (ابن عمه)، علامة خطيرة من علائم الانعطاف البورجوازي الذي خلقته الظاهرة الاقتصادية ـ السياسية الجديدة، فأخذ أموال بيت المال، هارباً بها إلى مكة. ويُعدّ كتاب عليّ بن أبي طالب، إليه، من الكتب التي تفطرُ مبدئيّة، وعدالة، وحزناً أيضاً. قال له:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي، لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ.

فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَىٰ ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهٰذِهِ

---

١ ـ وفق توافر روايات هذا الحادث، لم تثبت خيانة ابن عباس لبيت مال البصرة، وقد أشرنا الى تفاصيل بعض إلتباسات هذا الحادث في هامش الصفحة (   ) من هذا الكتاب.

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ٩٥، الغارات ١: ٣٢٩، شرح نهج البلاغة ٣: ١١٩.(المحقق)

٣ ـ ذكرها النعمان المغربي في شرح الأخبار ٢: ٩٥، بأسلوب مغاير، وعلى قدر جهدنا لم نوفق في ايجاد النص كاملاً. (المحقق)

ٱلْأُمَّةَ قَدْ فَتَنَتْ (أي أخذت أمورها بالهزل) وَشَغَرَتْ (أي لم يبق فيها من يحميها)، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ ٱلْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ ٱلْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ ٱلْخَائِنِينَ، فَلَا ٱبْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَا ٱلْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ.

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ ٱللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ!

فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ ٱلشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ ٱلْأُمَّةِ، أَسْرَعْتَ ٱلْكَرَّةَ، وَعَاجَلْتَ ٱلْوَثْبَةَ، وَٱخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ ٱلْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ، ٱخْتِطَافَ ٱلذِّئْبِ ٱلْأَزَلِّ (أي السريع) دَامِيَةَ ٱلْمِعْزَىٰ ٱلْكَسِيرَةَ (اي المكسورة)، فَحَمَلْتَهُ إِلَىٰ ٱلْحِجَازِ رَحِيبَ ٱلصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ إِلَىٰ أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَسُبْحَانَ ٱللهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِٱلْمَعَادِ؟ أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ ٱلْحِسَابِ!

أَيُّهَا ٱلْمَعْدُودُ ـ كَانَ ـ عِنْدَنَا مِنْ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً، وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ ٱلْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ ٱلنِّسَاءَ مِنْ مَالِ ٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَاهِدِينَ، ٱلَّذِينَ أَفَاءَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هٰذِهِ ٱلْبِلَادَ؟!

فَاتَّقِ ٱللهَ، وَٱرْدُدْ إِلَىٰ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي ٱللهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَىٰ ٱللهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي ٱلَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ ٱلنَّارَ!

وَ وَٱللهِ لَوْ أَنَّ ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ ٱلَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّىٰ آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ ٱلْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا.

وَأُقْسِمُ بِٱللهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ٱلْمَدَىٰ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِٱلْمَحَلِّ ٱلَّذِي يُنَادِي ٱلظَّالِمُ فِيهِ بِٱلْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّىٰ ٱلْمُضَيِّعُ ٱلرَّجْعَةَ، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾! وَٱلسَّلَامُ»[1].

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٦٧، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٦٧، وقد أوضحنا فيما تقدم براءة ↲

البنية السياسية ومضمون الحكم

قد يرى بعض الكتّاب أن الفترة الزمنية القصيرة لخلافة علي بن أبي طالب، وانقضاءها في صّد التمردات والحروب المشتعلة، قد شغلته عن تأسيس كيان سياسيّ، أو هيكل سياسي يضمن تجسيد أفكاره في العدل والحق.

وقد يضيف بعض الكتاب إلى ذلك تصوراً مفاده أن علياً بن أبي طالب من طراز العادلين القدّيسين، الذين يعلمون البشرية مبادىء العدل، أكثر من انشغالهم بالتطبيق الوضعي لأفكاره.

ورغم أن فترة الخلافة كانت مغطاة بالحروب المريرة، إلا أن علياً بن ابي طالب كافح كفاحاً شديداً من أجل تطبيق العدالة الإسلامية، ووضع نظرية سياسية، تطبيقية رائدة، جهد الإمكان. وفي ظل ظروف بالغة التعقيد، وغير مؤاتيه أصلاً.

ولم تكن العلاقة بين أفكار علي وتطبيقاته، ذات بُعد زمني تتخلّله مؤثرات متعددة، تفرض على التطبيق مساراً آخر لا صلة له بالأفكار.

ذلك، لأنه كان يقرن الفكرة بالممارسة فوراً، نظراً إلى أن طبيعته الشخصية كانت كذلك.

فهو لم يعتمد المسافة بينه وبين نفسه، بما يكفل له القدرة على التأجيل (أي تأجيل بعض آرائه)، أو المناورة، أو المداورة، أو التخلّي، استجابةً لضغط بعض المقتضيات.

إنه ـ بسبب طبيعته الشخصية ـ كان يقرن النظرة، بالفكرة بالممارسة، ويجعل لرابطة الفكر والعمل ينبوعاً متدفّقاً يغني الآراء والأفكار على حدٍ سواء، ويغني تجربة المجتمع بالمكشوف المباشر.

ابن عباس من هذه التهمة التي أوشى بها أبو الأسود الدؤولي إلى علي عليه السلام كُرهاً بأبن عباس، وقد أشرنا إلى ان العلامة السيد محمد تقي الحكيم (رحمه الله) في كتابه «عبد الله بن عباس»، فنّد هذه التهمة بأروع أسلوب فقهي وتأريخي مع تحليلات منطقية وفق تسلسل الأحداث، فينتهي القاريء والباحث إلى النتيجة التأريخية الموثقة لبراءة ابن عباس من هذا الحادث.(المحقق)

ويمكن ـ رغم قصر الفترة الزمنية لحكم عليّ ـ رصد الملامح الأساسية لمخطّطه السياسيّ ـ الإسلامي، الهادف إلى تأسيس حكم العدل، والذي كان محتاجاً ـ بالضرورة التأريخية ـ إلى زمن طويل من السلم والبناء كيما تتبلور معالمه الرئيسية.

غير أن صعوبات الفترة الزمنية للخلافة، وطلاسمها، وتعتيماتها، وتشويهات الحروب (علاوة على مآسيها) لم تستطع طمس معالم تلك التجربة الرائدة في العدل الإسلامي والبشري، تجربة علي بن أبي طالب. وابتداء، لا بدّ للوصول إلى تقويم سليم لتلك التجربة من بيان حقيقة مهمة، مؤداها: أن العلاقة بين جوهر الحكم وشكله (وأساليبه) في الدول الطبقية ـ هي علاقة الوجه بالقناع، عبر متبدّلات ومتواريات عديدة، يكون الظاهر شيئاً والمحجوب شيئاً آخر.

وقليلة جداً، تلك التجارب في الحكم (عبر التاريخ) التي تتجلى فيها الحقيقة على الأصعدة الشعبية، والحكومية، بدون لفٍ ودوران، وباعلانيةٍ صميمة، هي من صنع الناس أنفسهم، أي من صنع إرادتهم المستقلة.

فالدولة ليست نتاج الإرادة الواعية للجماهير، في العهود الطبقية التأريخية، وهي ـ في جميع الاحوال أو أغلبها ـ منفصلة عن المجتمع بنسبة تزيد أو تنقص، حسب محتوى الدولة الطبقي، وتتحول ـ بنحوٍ أو بآخر ـ إلى كيان فوقي، مسيطر.

وقد حاولت الديمقراطيات الغربية المعاصرة معالجة العلاقة بين الدولة والمجتمع، لكن تلك المعالجات، (وسواها في تجارب أخرى مغايرة)، لم تستطع تقديم تصوّر عن معالجة جذريّة، فظلّ التناقض بين الدولة والمجتمع يحمل سيماء التنافر، والصراع، والتوتّر، والتأزّم، والانفجار في الأوقات التي لا مجال فيها لا ستمرار التفاهم. وقد توفّرت للبشريّة أطروحات نظرية مهمّة على صعيد حلّ مشكلات التناقض (والصراع) بين الدولة والجماهير، باتجاه إلغاء الدولة (في الفوضوية مثلاً)، إلا أن الطبيعة النظرية لتلك الأفكار، واختلافها في مجالي التطبيق، وبقاء الدولة ـ في العصر ـ بكل جبروتها، يُعيد إلى الأذهان أهمية مواصلة البحث النظري في المسألة، ومدّ النظر إلى الماضي

البعيد، إلى تلك المعطيات الرائدة التي شهدتها التجربة العربية في العصر الإسلامي الأول، وإلى المخطط النظري و(التطبيقي) لعلي بن أبي طالب، ذلك المخطط الذي كان فلتة، مثل صاحبه علي بن أبي طالب نفسه، الذي كان فلتة الإبداع العظيم، التي اغتالها الأهل: الناس أنفسهم.

وفي الحدود المؤشرة للبنية السياسية، التي توفّر جوهراً سياسياً للعدل، متكاملاً مع الجوهر الاقتصادي المذكور سالفاً، نتناول العلاقة بين السلطة والمجتمع في وعي علي بن أبي طالب وممارسته، حسب مداها التأريخي المتحقق فعلاً، وإن بصورة محدودة.

الراعي والرعية

إن مصطلح (الراعي والرعيّة) هو ما يُعبر عنه في العصر الراهن بـ(السلطة والجماهير)، أو (الدولة والشعب). وهذا المصطلح كان متواتراً في العصور الإسلامية، استلهاماً من أفكار النبي العظيم محمدﷺفي تأشير دلالات طرفي المصطلح: وما الرعية؟ وما مسؤولية الواحد نحو الآخر؟ ومدى صلة تلك المسؤولية بالحياة ـ الدنيا (سياسياً، اقتصادياً، فكرياً) وبالحياة ـ الآخرة (عبادياً وإيمانياً).

من المآخذ ـ لا بدَّ من استعادة ذكرها حسب الحاجة ـ أن الأفكار والنظريات السياسية، تتناول طرفي العلاقة (السلطة ـ الجماهير، الدولة ـ المجتمع) بميل إلى طرفٍ أكثر من الطرف الآخر.

فالتيارات الاشتراكية، واليسارية، والثورية تركز على (الجماهير) بأولوية خاصة، أما التيارات السياسية التقليدية، والمحافظة فتصرف للدولة، والنظام اهتماماً أكبر.

وانفردت أفكار ذات أصالة، بطرح المغزى الاجتماعي لنشوء الدولة، وتطوّر السلطة، عبر دراسات بنيوية سياسية ـ اقتصادية ـ اجتماعية متلازمة، بصور رؤية عصرية متوفِّرة، إلا أنها لم ترتكز على ذخيرة تأريخية لها.

كما أنها لم تستوعب حسيّة الاستمرار، والانقطاع، والتكرار، والتجدد، في حركة

الناس التأريخية، والاعتيادية.

أي أن النظرية ـ نفسها ـ تصبح بناءً مغلقاً، متعالياً، رغم أنه مهم ومثير. إنه يتحوّل إلى سلطة، سلطة نص أيديولوجي، وفكريات متماسكة، تتباعد ـ بدرجات وبمسافات ـ عن واقعية الحركة الاجتماعية بثقافتها العامة، والمتفرعة منها، أو خارجها.

كانت رؤية علي بن أبي طالب قد أقامت العلاقة بين الراعي والرعية على أساس جدلي عميق متبادل الفعل والتأثير. فالراعي (السلطة) هو ـ أصلاً ـ جزء من النسيج الاجتماعي للناس، وإن كان ـ بالنتجة ـ يبتعد من ذلك الأصل.

والرعية هي التي يتخرّج منها الرعاة، وولاة الأمر، والعمال، والقضاة، ورجال الأعمال.

ويأخذ التخرج مساره السياسي، والفكري، والطبقي، والانتاجي ـ اقتراباً وابتعاداً ـ من حقوق الرعية، ومصالحها.

ويؤكد علي بن أبي طالب على مبدأ سياسي أوّل وهو: إن الرعيّة لا تصلح إلا بصلاح الولاة.

وهذا يفترض ـ ابتداءً ـ أن الرعية بحاجة ثابتة إلى الراعي الصالح، الذي يخدم مصالح، وصالح الرعية، مشدداً في ذلك، على واجب السلطة، أية سلطة، في خدمة الرعية (الجماهير، الشعب، المجتمع) وهو واجب أكبر من حدود وتأطيرات سياسية، واقتصادية، وخدماتية، آنية، بل هو واجب يتصل بغاية أعظم، هي غاية الصلاح، التي تُعد أقصى أهداف السياسات الاجتماعية وغاياتها.

فالصلاح أكبر ـ وفقاً للفهم المذكور ـ من الاصلاحات الجزئية، والمرحلية. إنه تحقيق الخير العميم، والسعادة المشتركة، القائمة على ركيزة مادّية مدعومة بمنظومة أفكار حقوقية ضامنة لها، ومضمونة بها.

إن الرعية ـ بالذات ـ ليست مؤلّهة، مهما كانت مواقف الولاء لها حريصةً على إظهارها بأحسن صورة. فالرعية محتاجة إلى الصلاح، لأنها محرومة مادياً، وحقوقياً

منه، بأي مستوى وبأيّ شكل. وحاجتها إلى الوالي الصالح (السلطة العادلة)، هي حاجة ثابتة، إلى حين تتحقّق فيها الاستقامة العادلة لها، بعد أن تتجاوز الحرمان، والوعي القاصر، والعجز الذي يُدلّل على عدم وجود الإرادة المستقلة لها.

هنا، يشير علي بن أبي طالب، إلى قضيّة جوهرية أساسية، وذات مغزى تأريخي جذري، وهي أن الوالي لا يصلح إلا باستقامة الرعية. فهو ـ أولاً ـ نتاج موجودها الاجتماعي والفكري والنفسي.

وهو ـ ثانياً ـ يمثل سلطة إما أن تكون ظالمة، أو أنها غير ظالمة، إلا أنها تتجه نحو الظالم، بسبب الانحراف الناشيء من سلطان (السلطة) وطغيان المصلحية، والشعور بالقوة المتعالية.

وهذا يضع الرعيّة أمام مسؤولية التصدّي الواجب لظلم الوالي، أو لانحرافه.

وسوف ترد أمثلة كثيرة عن انحرافات الولاة والعمال المسلمين والمؤمنين، الذين كانوا يتمتعون النزاهة، سواء بصورتها المتواضعة: مثل (مصقلة الشيباني) العامل على (أردشير) من مقاطعات فارس، أو (المنذر بن الجارود العبدي)، أو بصورتها المتميّزة، والمشار إليها بالبنان، والتي كانت قصة عبد الله بن عباس (ابن عم علي بن أبي طالب)، مَثَلها المعروف. فالسلطة تحمل بذور الانحراف، للولاة والعمال، مهما كان الحرص على المباديء قوياً، لأنها تضمّ في أحشائها الاغراءات العالية التي قد تدفع إلى الانحزافات الخفيفة التي قد تتطوّر إلى انحرافات أقوى، هي (الفَساد) العدوّ الأول للصلاح.

إن منطق السلطة، المدعوم بالمصالح والامتيازات المتاحة من قبلها، يتصارع مع منطق العدل و(الزهد) للوالي والعامل، وقد يغلبه، وبخاصة حينما تكون المؤثرات السياسية والاقتصادية العامة مناقضة لمنطق العدل، متلائمة مع منطق الامتيازات السلطوية، والمصالح السياسية والاقتصادية.

ما هي الضمانة التي تحول دون انحراف الولاة، أو دون استمراره؟

هنا تتجلى الضربة الفكرية الفذّة لعلي بن أبي طالب، في البحث عن الضمانة دون انحراف الوالي، في إرادة الجماهير وفي حضورها العادل، وليس في السلطة نفسها.

فهي ـ بهذا المعنى ـ تعبّر عن إرادتها المباشرة، وتدخّلها المباشر في صنع السياسة، واختيار الولاة، وردع الانحراف. وهي أيضاً ـ تكتشف جوهرها، واستقامتها، في الفعالية السياسية الشاملة، التي هي فعالية نقد، وتقويم، وبناء، وإعادة بناء، دون أن تسمح بأي احتواء لها من قبل السلطة، ولأي سبب كان.

فالعلاقة ـ إذن ـ عميقة، ودقيقة، وحساسة بين صلاح الوالي واستقامة الرعيّة، تقرّرها معطيات واقعية، وقواسم مشتركة بعضها ظاهر، وبعضها الآخر باطني.

فالرعيّة، في الشقّ الثاني من الاضاءة ـ إذا لم تُمارس دورها في خلع الوالي الفاسد، وطرد الوالي المنحرف، إنما تكشف عن خلل في نزاهتها واستقامتها. فهي منحرفة بمقدار قبولها بوجود الوالي الظالم أو المنحرف (أي السلطة الظالمة أو المنحرفة). وأية خطوة تخطوها الرعية على طريق مواجهة السلطة الظالمة، تُقرِّبُها من اكتشاف استقامتها، وتأكيد جوهرها.

وتستوعب أفكار علي بن أبي طالب هذه. (والتي سنثبّت نصّها) المغزى العبقري للآية الكريمة: **(كيفما تكونوا يُوَلّ عليكم)**[1]، لأن جدلية بقاء الوالي أو تغييره، مرتبطة بجدلية قبول الجماهير أو عدم قبولها، بما تحمله تلك الجدلية ـ من جانبها ـ من صفات متوازية وراء الظاهر. فثمة قبول يحمل ـ سرّاً ـ عدم الرضا، وإلى الحين الذي يُعبّر فيه عن نفسه، بأنه عدم رضا، ورفض، فإن القسمات المشتركة للعلاقة بين الجماهير

(١) أصل القول حديثاً نبوياً ولم يكن آية قرآنيّة، وهذه من الأمور التي غالباً ما تلتبس في ذهن الكاتب أو الباحث، كون نغمة الحديث تتقارب مع مثيلاتها من نغمات قرآنيّة، انظر أصل الحديث في عون المعبود للعظيم آبادي ٥: ٦٢، والمناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦: ٥٢٤، وأصله «...فاستقيموا يستقيموا (أي الحكّام) وكما تكونوا يولَّ عليكم وكما تدين تدان والجزاء من جنس العمل...» عن ابن النجّار في تاريخه (عن عائشة)، المحقّق.

والسلطة تتقرّر بدقة زمنية تكون مفهومة في النتائج الفعلية.

وفيما يلي نصّ علي بن أبي طالب الذي يعرض لأبعاد رؤيته الفكرية في العلاقة بين الوالي والرعية:

«.. وَأَعْظَمُ مَا ٱفْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ ٱلْوَالِي عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ، عَلَىٰ ٱلْوَالِي، فَرِيضةً فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلٍّ عَلَىٰ كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ ٱلْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ ٱلْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ.

فَإِذا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَىٰ ٱلْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّىٰ ٱلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَىٰ أَذْلَالِهَاالسُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذٰلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلْأَعْدَاءِ.

وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ ٱلْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، ٱخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ ٱلْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ ٱلْجَوْرِ، وَكَثُرَ ٱلْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ (أي الفساد)، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَىٰ، وَعُطِّلَتِ ٱلْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ ٱلْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ ٱلْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ عِنْدَ ٱلْعِبَادِ.

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذٰلِكَ، وَحُسْنِ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ ـ وَإِنِ ٱشْتَدَّ عَلَىٰ رِضَىٰ اللهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي ٱلْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ ـ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ، وَلٰكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ ٱلنَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَٱلتَّعَاوُنُ عَلَىٰ إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ ٱمْرُؤٌ ـ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي ٱلْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ـ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَىٰ مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلَا ٱمْرُؤٌ ـ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَٱقْتَحَمَتْهُ ٱلْعُيُونُ ـ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَىٰ ذٰلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ...»[1].

وضمناً ـ أي ضمن الرؤية المذكورة ـ تزداد أهمية دور الوالي العادل، فيما إذا كانت الرعيّة تعيش في شروط التخلّف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، في إطار نظام

---

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)، وأنظر شرح نهج البلاغة ١١:٩٢، والكافي ٨:٣٥٤.(المحقق)

سياسي يعتمد على إرادة الأمة في بيعة الخليفة واختيار الولاة.

وحسب النظرة الإسلامية، فإنَّ ما يقدّمه الوالي إلى المجتمع من خير هو أقل بكثير مما يناله من خير من عند الله.

ومن الطبيعي أن هذه النظرة التي تستند إلى مبدأ الجزاء (والثواب الإلهي) هي جزء من التصوّر الإسلامي للرقيب الإلهي، الذي يتجاوز أية نظرة للعدل الاجتماعي موكولة إلى أفكار الإنسان الذاتيّة.

إن الأفكار المادية في العدل الاجتماعي تُحال إلى عقل الإنسان ونفسه، وتقديراته الخاصّة، واجتهاداته، بما ينتاب ذلك من مؤثرات شعورية أو لاشعورية قويّة، قد تجرف ـ في التنفيذ ـ المسار العام للحركة التطبيقية للعدل الاجتماعي في مسار ذاتي، يتعلّق بالرغبات الشخصية، أو في مسار براجماتي، يتعلق بالمصالح الآنيّة للدولة.

مثلما حصل في التجارب السوفيتية، وبلدان أوروبا الشرقية مثلاً. فالسلطة المطلقة، مارست التصفيات السياسية والجسدية، باسم ضرورات التطبيق الاشتراكي، محتكمةً في ذلك إلى إرادة الحزب وتصوّراته، التي هي ـ أيضاً ـ إرادة وتصوّرات قطاع واسع في الدولة والمجتمع. فالاجتهاد النظري والسياسي الذاتي، مع المصالح الآنيّة للحزب والدولة، كانا وراء الاجراءات القمعيّة القاسية.

ولم يستطع (القانون) أن يفعل شيئاً أمام إرادة السلطة المطلقة.

إذن، ما هو الكابح الذي يحول دون انفلات السلطة المطلقة فيما تراه صحيحاً، حسب اجتهادها؟.

إن الإلحاد يلغي أية خشية من وجود الرقيب الإلهي، أو أي احتساب لهُ. فتصبح حدود الذهن، والإرادة الشخصية، والمزاج، ومخزون اللاشعور، للفرد الحاكم ذي السلطة المطلقة، هي التي تقرّر كلّ موقف سياسي دون التزام بالحقّ، بالمفهوم الإلهي، بسبب فقدان الإيمان بالله، ودون الالتزام بالقوانين، فنتج عن ذلك فوضوية القرار، رغم التشدّد في المنهجية.

في حين أن العدل الإلهي، الذي يرجع إلى الإله في ميزان أعماله، يقدم فهماً للعدل أكبر أملاً، وأكثر إقناعاً، من خلال صلة ذلك الإدراك بالنشاط البشري في تأسيس مقوّمات العدل الاجتماعي.

فالوجود الإلهي، هو الرقيب، وهو الحسيب الذي يخترق الضمير الإنساني للفرد والجماعة، في سياق تأكيدات حاسمة على أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم[١].

فعملية التغيير الاجتماعي العادل موكولة إلى الناس أنفسهم، تحت سقف النظر الربّاني، والرقابة الإلهية، والحساب العادل. فالإنسان ـ هنا ـ امام نفسه فيما هو يُدافع عما هو موكول إليه، وهو مسؤول امام (الرب) لغربلة أعماله ونواياه. وبالتالي، يكون الدافع الذاتي في محاسبة النفس، بقدر ما هو محكمة عقل وضمير في استئناف دائم، هو أيضاً دافع موضوعي، لأنه يهم الآخرين، ويشترك وإياهم في المسؤولية الموحّدة.

وفي حالة إقصاء الرقيب الإلهي، والإيحاءات التي يخلقها في النفس، في تمييز الأفعال، وتصحيحها، بضوء العقاب والثواب بالدلالة الإلهية والكونية لهما، لن تكون ممارسات الإنسان وتطبيقاته أكثر من ممارسات وتطبيقات حيوانية، أو إنسانية ـ آليّة، مهما كانت من مستوى حسن. وإنها ـ فعلاً ـ مشكلة صعبة؛ هي مشكلة الفرز بين الأفكار و (الهوى) في نشاطات الإنسان الفكرية، وفي مناشطه العملية. فالهوى يصنع أفكاراً، مثلما يصنع صوراً من السلوك، وأشكالاً من الممارسات والعلاقات، قد لا تكون معبّرة عن النظرية الأيديولوجية ـ السياسية والهوى ـ وهذا مهم جداً ـ يعني اختلاف الأهواء والرغبات.

وقد يستطيع الإنسان، بمجاهدات إنسانية عادلة، أن يتوصّل إلى (بعض) الحقيقة، أو إلى (بعض) الحقّ، لكن ذلك لا يعني أنه قادر على كبح هواه (الفكري، العاطفي،

---

١ ـ سورة الرعد، من الآية: ١١. (المحقق)

الإنتاجي)، لصالح أفكاره المنهجية، إلا في حالات ذات وزن خصوصي (وهي حالات القادة النموذجيين، والفدائيين..) إنه يحتاج ـ من أجل ذلك ـ إلى الإيمان بالله، ذلك الإيمان الذي يسكُنُ نفسه، ويتعايش معه في الليل والنهار، في العامّ والخاصّ.

على كل حال فإنّ الشرح الملخّص للفارق بين فكرة العدل ذات البعد الإلهي، والإنساني، وفكرة العدل المادّي، آتٍ من صلته بموضوعنا. كتب علي بن أبي طالب إلى (الأسود بن قطيبة) صاحب جند حلوان (في فارس):

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْوَالِيَ إِذَا ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذٰلِكَ كَثِيراً مِنَ ٱلْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ ٱلْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا ٱفْتَرَضَ ٱللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوَابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا قَطُّ فِيهَا سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ[1]، أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ ٱلْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً، وَمِنَ ٱلْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَٱلإِحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَصِلُ بِكَ[2]، وَالسَّلَامُ»[3].

صفات الوالي العادل

الابتداء بالشرط الأصعب، هو وضع اليد على البداية الصحيحة للقيام بحكم العدل. لقد حُرِمت البشرية من العدل أجيالاً وأجيالاً، لحقب تأريخية طويلة، لم تتخللها إلاّ واحات من العدل الاجتماعي، تعرّضت للخنق والاغتيال، بأقصر فترة زمنية. فعمر العدل ـ على الأرض ـ قصير جداً، قياساً الى عمر الظلم الطويل الأمد. وتتّفق الآراء

---

(١) أي أن الإنسان مسؤول عن كل ساعة فراغ لا يعمل فيها لنفعه، ونفع أمّته. (المؤلف).

٢ ـ أي أن الثواب الذي يصل إلى الوالي من الله، والكرامة التي تصله من الرعية، أعظم بكثير من النفع الذي يصل إلى الرعية بسببه.(المؤلف)

٣ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)، أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١١٦، شرح نهج البلاغة ١٧:١٤٥.(المحقق)

على أن (الحكم) يتحمل المسؤولية الكبرى في حرمان البشرية من العدل. لذلك كانت مذاهب، وأفكار، وشعارات التغيير الاجتماعي العادل، والحرية، والمساواة، وغير ذلك، تُرتكز على عملية تغيير (الحكم) من أجل إنجاز الأهداف.

ففي الحكم تكمن قوانين، وسمات ومؤشرات الظلم، والعدل. وكان علي بن أبي طالب مدركاً لمخاطر الحكم ومسؤولياته الكبرى، لذلك كان متشدداً في تحديد مواصفات الوالي العادل. وهي مواصفات نظرية وعملية، حقيقية، وبالملموس. فالإمام العادل هو أفضل عباد الله عند الله وهو أفضل عباد الله بين عباد الله الموقنين بالعدل.

قال:

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ ٱللهِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَي، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ ٱلْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَٱللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً.

وَإِنِي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِالإِمَامِ ٱلْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ ٱلرَّحَىٰ، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا»[1].

وليس بغائب عن الذهن أن السنن المعلومة هي سنن الرسول التي لم يمضِ عليها زمن طويل، منذ أن قبض إلى بارئه.

أما السنن المتروكة فهي سنن الجاهلية، أما البدع فهي مستحدثات التبرجز الجديد الذي دشنته مرحلة تراكم رؤوس الأموال إثر الفتوحات الكبرى.

والعدل، عند الإمام العادل، والوالي العادل، ليس أطروحات نظرية، ومجموعة عبارات وأقوال، بل هو سيرة عادلة في السراء والضراء. سيرة صالحة لأن تكون قدوة للآخرين من الرعية، وفي الدولة.

قال علي بن أبي طالب:

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٦٩. (المحقق)

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ»[١].

وسيرة العدل تقتضي عدم الاستئثار بما هو حق مشترك للناس، قال علي:

«... وَإِيَّاكَ وَالْإِسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَىٰ بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ... »[٢].

وفي وسط انعدام العدل الاجتماعي، والفقراء يشكلون الاكثرية، لا يستطيع الإمام العادل أن يُمارس العدل بأنصاف الحلول، ولا يجوز أن يتعامل مع الفقراء على أساس أنهم باقون فقراء، وهو مفتون برحمته، وهو في برجه العاجي، أو في قمة الرفاه الذي يعزله عن قاعدة المجتمع الكبيرة. فإن لم يكن قادراً على حل قضايا العدل الاجتماعي، حلاً جذرياً، شاملاً، فإنه ـ في أقل تقدير ـ يظل بادي الانحياز إلى الفقراء، لا بالأفكار والكلمات، بل بالسيرة والسلوك.

قيل لعلي بن أبي طالب:

يا أميرالمؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجُشوبة مأكلك!

قال: وَيْحَكَ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!»[٣].

وتفرض الصلة بالفقراء والضعفاء نفسها. على مسالك الولاة والرعاة، ويوجب علي بن أبي طالب لها مكانة خاصة، وتأثيراً ملموساً حتى في ممارسة الشعائر والطقوس ذات القداسة. ففي الصلاة ـ مثلاً ـ وهي ما هي عليه من مكانة مقدسة في الإسلام، كان علي بن أبي طالب يصلي كصلاة أضعف الناس فلا يسمح لصلاته أن تكون في وادٍ

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤: ١٦. (المحقق)

٢ ـ نهج السعادة للمحمودي (معاصر) ٥: ١٢٠. (المحقق)

٣ ـ أي كي لا يهيج به ألم الفقر فيهلكه. (المؤلف)، أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ١٨٨. (المحقق)

وصلاه الضعفاء في وادٍ آخر.

إنه يسحب نفسه إلى معسكر الضعفاء، حتى في تلك الممارسة المقدسة، مستعيداً كلمة النبي محمد صلى الله عليه وآله، حين سأله، وهو مقبل على التوجه إلى اليمن:

كيف أصلي بهم؟

فقال له: **«صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»**[1].

فكان (علي بن أبي طالب عليه السلام) يُوصي الوالي:

«... وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ ٱلْعِلَّةُ وَلَهُ ٱلْحَاجَةُ...»[2].

لقد جعل التعاطف المبدئي مع الضعفاء مقياساً للعدل الذي ينتهجه الولاة، وبالاتجاه الذي تتطور فيه المعالجات العادلة، من مرحلة إلى أخرى، في ظل ظروف دقيقة، وشديدة الإحراج.

وقد استرشد بحديث نبوي مجيد جاء فيه: **«لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ ٱلْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ»**، موجهاً ولاته، وعماله على الالتزام بمضمونه[3].

---

١ ـ نهج البلاغة ٣: ١٠٣، شرح نهج البلاغة ١٧: ٨٩، تحف العقول: ١٤٤، خصائص الأئمة: ١٢٢، وسائل الشيعة ٨: ٤٢١، المستدرك ١٣: ١٦٩. (المحقق)

(٢) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ١٠٣، شرح نهج البلاغة ١٧: ٨٩، تحف العقول: ١٤٤، خصائص الأئمة: ١٢٢، وسائل الشيعة ٨: ٤٢١، المستدرك ١٣: ١٦٩. (المحقق)

٣ ـ تاريخ الطبري ٣: ٦/ و٥: ٢٩٤، مجمع الزوائد ٤: ١٣١و ١٤٠، المصنف لأبن شيبة ٥: ٢٤٧، الآحاد والمثاني للضحاك (٢٨٧ هـ) ٦: ٦٤، مسند أبي يعلي الموصلي ٢: ٢٤٤، المعجم الأوسط ٥: ٢٥٣ (٣٠٧ هـ)/و٦: ٧٩، المعجم الكبير ١٩: ٣٨٥/و٢٠: ٣١٣/و٢٤: ٢٣٣، والجامع الصغير ٢: ٢٩٩، كنز العمال ٣: ٧٢، فيض القدير للمناوي ٥: ٧٦، احكام القرآن للجصاص (٣٧٠ هـ) ١: ٥٧٩، الدرجات الرفيعة: ٧١، الجرح والتعديل ٥: ١٥١، تاريخ بغداد ٤: ٤١٠/و١٣: ٣٩١، تاريخ مدينة دمشق ٢٩: ٧٢/و٤٣: ٣٠، اسد الغابة ٣: ٢٦٥/و٥: ٤٤٨، الاصابة ٨: ١٢٣، البداية والنهاية ٧: ٤٣، جواهر المطالب ٢: ١٦٥، سبيل الهدى والرشاد ٩: ١٩، سنن ابن ماجة: الحديث ٢٤٢٦. (المحقق)

الصلة الحيّة المباشرة بالجماهير

إن السلطة سريعة الجنوح للعزلة عن الجماهير، لأنها تتكتل حول نفسها، بما تملكه من الثروة، ووسائل القوة، والمهمات والأعمال.

وتزداد السلطة عزلة كلما ازدادت طبقية، وطغيانية. فتفقد بذلك مبررات وجودها. وفي أغلب مراحل التاريخ، ظلت السلطة، مهما كان نوع مبادئها، ذات مجال اجتماعي محدود من حيث العلاقة. فهي تختار صفوة من المجتمع، بموجب منطلقاتها الفكرية والسياسية. أو أنها تصنع صفوتها الخاصة، ونخباتها التي تمثل وإياها، مصالح طبقية مشتركة.

إن أكثر السلطات الجماهيرية، تنتقل إلى مواقع متأخرة، على مستوى الرابطة الجماهيرية، بمرور الزمن، بمعنى أنها ترتبط بفئات ومجموعات وعناصر، من المجتمع، وتتعزل عن أغلبية المجتمع.

وتضطر السلطات، (وتحت أي شعار تنادي، به بالجماهيرية) إلى إيجاد الوسيط السياسي والاجتماعي، بينها وبين المجتمع. وهو وسيط مشوّه، يلعب دوراً سيئاً في إعاقة عملية النمو الحضاري، والتقدم الاجتماعي، لأنه يجعل نفسه بديلاً من قنوات الصلة الحقيقية للدولة بالجماهير، وإذ تضطرب عملية التفاعل الصحيح بين المجتمع والدولة، تتجه الجماهير إلى البعد من السلطة، ويحصل تغريب متبادل، يعرض نفسه في صراعات حادة، أو غير حادة، فتفشل إمكانات التوجّه على طريق العدل الاجتماعي، وتضع السلطة نفسها في قطب العداء لتلك الإمكانات.

كان علي بن أبي طالب يصرُّ على ضرورة الصلة الحيّة بين الوالي و(العامة من الأمة) مشيراً ـ بالبداهة ـ إلى أن الأمة تنقسم إلى (العامة) ـ أي الأكثرية ـ والخاصة الطبقية، التي تشكّل فئة الأثرياء والوجهاء. وحين يوصي الولاة، فإنه يضع نصب العين، أنهم من هذه المؤسسة الاجتماعية التي تشغل (العامة) الحيّز الأكبر فيها.

وجدلياً إن تضامن الولاة مع المراتب الاجتماعية، يؤثر سلباً أو أيجاباً على مرتبة

دون أخرى.

فالمجتمع الذي يتكون (في هرميّته التقليدية، الموروثة عبر القرون) من طبقات ومراتب، تتبوأ فيها (الخاصة) المكانة العليا، وتشغل فيها (العامة) المكانة السفلى، ولكن العريضة، والكبيرة، يضع الولاة أمام معادلات لا تخطيء في العلاقة.

فمن يربح الفئات العليا يخسر ما تحتها في السُلَّم الاجتماعي، في حين أن من يربح القاعدة الاجتماعية العريضة، يربح أغلبية المجتمع، وقد لايخسر كل (الخاصة). ثم إن (العامة) من الأمة، هم المصدر الدائم للواردات الاجتماعية المتجددة. فكل خاصة، هي ـ بالأصل ـ أبناء القاعدة الاجتماعية العريضة، التي تمد المجتمع بالعطاء البشري، والانتاجي، والثقافي.

يترتّب على ذلك أن التعامل المبدئي مع (عامة) الأمة، يصبح ـ حتماً ـ تعاملاً تأريخياً، بعيد المدى، لأنه ينطوي على عوامل الاستمرارية، والثبات، والقوة.

فالعامة من الأمة هم عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء، حسب تحليل علي بن أبي طالب، لذلك يدعو الولاة إلى صفوهم لهم، وميلهم معهم.

ويشخص ـ أبلغ تشخيص ـ خصائص (الخاصة)، فأفرادها أثقل على الوالي في الرخاء، وأقل معونة لهم في البلاء، وأكره للإنصاف.

قال في كتاب منه (الى الاشتر) والي مصر:

«وَلْيَكُنْ أَحَبُّ ٱلْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي ٱلْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي ٱلْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَىٰ الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ ٱلْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَىٰ ٱلْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ ٱلْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَىٰ ٱلْعَامَّةِ.

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ، أَثْقَلَ عَلَىٰ ٱلْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي ٱلْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ ٱلْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ ٱلْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱلْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ،

ٱلْعَامَّةُ مِنَ ٱلْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ»(١).

وبعد هذا التحديد لمراكز الثقل الاجتماعي، ووزنها التاريخي والسياسي، وبعد الإنابة عن خصائصها الفكرية والنفسية والسياسية، فإنّه يحدّد الخط السياسي والفكري بالانحياز الى عامة الأمة، بالحد والعدل، وبالاتجاه الذي يعزّز اكتشافها لنفسها ويزيد ثقتها بذاتها وبدورها في إقامة مجتمع العدل وزمن العدل.

آفة السلطة

حين تتنوّع مسؤوليات الوالي، وتتعدّد فإنه يعمد ـ في علاقاته بالناس ـ الى استخدام أدواته السياسية والوظيفية، فتنشأ شبكة من الإداريين والمسؤولين الثانويين، الذين يكونون البيروقراطية الجديدة المحيطة بالوالي، فتحل مراكز جديدة، بالمعنى السياسي والاقتصادي تؤثر على التوجه السياسي العام للوالي، فتحرفه كما تشاء إرادتها ومصالحها.

فالبيروقراطية المصلحية، المنتفعة بلا مشروعية، هي آفة السلطة، وهي تُولد ـ حتماً ـ في سياق نمو الدولة، وتركيز السلطات، تحت واجهات الشعارات السائدة نفسها.

ولشدة رصد علي بن أبي طالب لنشوء الظاهرة القبلية، المتمثلة باتّساع وجود الفئة المتبرجزة ونفوذها، والمتنامية بطبيعة (دينية ـ دنيوية)، وما رآه من انحراف عن جادة الإسلام وسننه المحمدية، كان قد أبدى احترازاً نظرياً وسلوكياً ضرورياً لمجابهة تلك الظاهرة وأشكالها المتجددة. لذلك كان يرى في العلاقة الحية، والصحيحة، مع الناس، وجهاً لوجه، ضمانة كبرى لجريان الحق في مجاريه الواضحة، فكان يرفض (السفراء) و(الحجاب) و(الوسطاء) بين الوالي وبين شعبه، لتربية الولاة على نسق العلاقة المباشرة، كيما تصبح نهجاً إسلامياً ثابتاً، تُصنع من خلاله قرارات الحق والعدل.

---

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٨٦، شرح نهج البلاغة ١٧:٣٥، والمستدرك ١٣:١٦٢. (المحقق)

قال يوصي عامله على مكة، (قثم بن العباس):

«... وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَىٰ النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ، وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَىٰ قَضَائِهَا»[1].

وأحياناً، كانت بعض المهمات مدعاة إلى احتجاب الوالي عن الرعيّة لوقت ما، فكان الإمام علي بن أبي طالب، يُحذّر من ذلك الاحتجاب، لأنه ينشد ديمومة التعايش مع الرعية، وديمومة الحوار، وحل المشكلات. قال في كتاب منه إلى (الاشتر):

«وَأَمَّا بَعْدَ هذا، فَلَا تُطَوِّلَنَّ ٱحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ ٱحْتِجَابَ ٱلْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ، وَالإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا ٱحْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ ٱلْكَبِيرُ، وَيَعْظَمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ ٱلْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ ٱلْقَبِيحُ، وَيُشَابُ ٱلْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا ٱلْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَىٰ عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ ٱلأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ ٱلْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا ٱمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي ٱلْحَقِّ، فَفِيمَ ٱحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلَىً بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ [مـ] ما لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ...»[2].

ويعوّل علي بن أبي طالب تعويلاً كبيراً على مجالس (الولاة والرعية)، لأن هذه المجالس هي النوى الواسعة التي يقود فيها دولتهم من خلالها، والتي تكتسب فيها الدولة مضمونها الشعبي، وصفتها الشعبية باستمرار.

ومن المؤكد أن ماتشهده المجالس من حوار، ونقد، وعرض حاجات، وتقويم بحرية تامة ـ تُلغى فيها الحواجز البيروقراطية، وتتّحد النفوس في المنحى الإسلامي، لا ينسجم مع بوليسية النظرة والتصرف التي تتّسم بها الأدوات المنفذة لسياسة الوالي.

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة. (المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١٢٨، الفايق في غريب الحديث للزمخشري (٥٣٨ هـ) ٣: /٤٢٥، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٠.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة ٣: ١٠٤، أنظر المستدرك ١٣: ١٦٩. (المحقق)

فإذا ما حضرت تلك الأدوات المسلّحة، تقلّصت حرية الرعية في ممارسة دورها في المجالس المشتركة، وفقدت اللقاءات المباشرة الكثير من ضرورتها، والكبير من نفعها.

كما أن عدداً من ذوي الحاجات (العامة والخاصة) قد لا يستطيع الجهر بحاجته، إلاّ عبر الصلة المباشرة بالوالي، وليس غير. لذلك حثّ علي بن أبي طالب الولاة على التفرّغ للناس بأشخاصهم.

جاء في كتابه إلى الأشر: «... وَٱجْعَلْ لِذَوِي ٱلْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَواضَعُ فِيهِ لله الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ٧ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ ٱلْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتِعٍ». ثُمَّ ٱحْتَمِلِ ٱلْخُرْقَ مِنْهُمْ وَٱلْعِيَّ (الخرق العنف، والعي العجز عن النطق)، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَٱلْأَنَفَ، يَبْسُطِ ٱللهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَٱمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ!

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا: مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ»[1].

بطانة الوالي

إن أزمة الحكم العربي الإسلامي، التي ابتدأت أشكالها الجنينية في أواخر العصر الإسلامي الفتي، وتعمّقت حتى أصبحت ظاهرة بارزة للعيان هي أزمة علاقة الحكم بالخاصة والعامة.

فالحكم، حسب مباديء الإسلام ـ هو حكم العامة، المرتبط بهم ارتباطاً أساسياً،

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١٠٢.(المحقق)

ولكن ـ في التطبيق ـ وبخاصة منذ أن قامت الخلافة الأموية، (وبعد ذلك الخلافة العباسية)، تحول إلى حكم الخاصة، لعوامل عديدة، هي في الغالب اقتصادية، وسياسية، وعسكرية، علاوة على تقليد طراز الحكم الأجنبي (للروم مثلاً).

وتشير أوليّات الصراع في زمن خلافة علي بن أبي طالب إلى أن البداية التي انطلقت منها حرب الناكثين، هي بروز فئة طبقية (دينية ـ دنيوية) جديدة، والتمهيد لظهور نمط جديد من السلطة.

ومن المؤكد أن النظر الثاقب لعمر بن الخطاب العادل، كان قد انتبهاستغلال رعايته لكبار المسلمين وذوي السابقة، مستفيدين من قولتهِ العادلة: «... **لا أجعل من قاتَلَ رسول الله صلى الله عليه وآله كمن قاتل معه...**»[1]، فانتفعوا انتفاعاً كبيراً. وبوحي من هذه الانتباهة، قال في آخر أيام حكمه:

«**والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقنّ آخر الناس بأولهم، ولأجعلنهم رجلاً واحداً**»[2].

كان يريد في ذلك ضرب الطبقة الجديدة، وإحلال المساواة الاجتماعية، التي تجعل من المجتمع الإسلامي مثل رجل واحد ليس طبقات متناقضة، متصارعة.

لقد كان أصحاب النبي مثالاً للزهد والتضحية، لا تشغلهم مطامع أو مكاسب عن الحياة الأخرى، فحافظوا على نموذج الوفاء لمبادىء الاستشهاد في سبيل العقيدة. لكن مكاسب الفتوحات الإسلامية ومغانمها، قد أفاءت على بعضهم ما أفاءت من مزايا مالية ومادية وأملاك، فكان لزيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس ـ وحدها ـ أداة تكسيره، لكبر الحجوم، وكثرة الكنوز!

---

١ ـ السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٣٥٠، مجمع الزوائد ٦: ٤، المصنف لأبن شيبة ٧: ٦١٥، شرح معاني الآثار لابن سلمة (٣٢١ هـ) ٣: ٣٠٥، كنز العمال ٥: ٥٩٣، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ٢٩٦، فتوح البلدان ٣: ٥٥٠.(المحقق)

٢ ـ تفسير العياشي (٣٢٠ هـ) ٢: ٣٠١، المصنّف لابن شيبة ٧: ٦١٧، فتح الباري ٧: ٢٧٦، شرح نهج البلاغة ١٢: ١٣٢، تفسير القرطبي ٨: ٢٣٨، الطبقات الكبرى ٣: ٣٠٢، كنز العمال ٤: ٥٦٩.(المحقق)

وكانت ماشية عبد الرحمن بن عوف من أفراس وإبل ما تُحصى بـالآلاف. وكـان لطلحة مئات العبيد والإماء، وللزبير العديد من القصور في الكـوفة والبـصرة ومـصر، وسواها من الأمصار والمدن.[1]

فكانت الظاهرة الوليدة مزدوجة: فهي دينية لأنها تمثّل مـجموعة مـن المسـلمين الكبار الذين لا شبهة عليهم، وهي دنيوية، لأنها تأسست اقتصادياً بمنطق دنيوي، نفعي، ربحي، غير إسلامي بالنتيجة.

والظاهرة ـ عادة وبخاصة إذا كانت اقتصادية ـ أكبر من أي فرد فيها. لأن مـنطق الملكية المالية، وغير المالية، يهجم بكل قوانينه، وشروطه، فيشغل النفس عن أساسيات منطق العدل والمساواة، إلاّ في حالات الإمان التام بتلك الأساسيات. فمن المعروف ان المال إذا زاد يصبح مشغلة كبرى، ومشكلة أكبر، لأن صاحب المال يـصبح مشـغولاً بحراسة ماله، وليس العكس، ويظل صاحب المال قلقاً في الحالتين: الخوف من نقص المال، والهم بزيادته.

قال علي بن أبي طالب، بإيجاز بارع محكم، مخاطباً (كميل بن زياد النخعي) مبيناً فضائل العلم على المال:

«يَا كُمَيْلُ، اَلْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ اَلْمَالِ: اَلْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ اَلْمَالَ، وَاَلْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَاَلْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى اَلْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ اَلْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْل بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ اَلْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ اَلْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ اَلْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَاَلْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَاَلْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْل بْنَ زِيَادٍ، هَلَكَ خُزَّانُ اَلْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَاَلْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَابَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ

---

١ ـ راجع مروج الذهب للمسعودي ١: ٤٣٤ والغدير للأميني ٨: ٢٨٤ و ٣٣٦، والصحيح من السيرة لجعفر مرتضى العاملي ٦: ٣٤٤ و٨: ٢٥١ عن حياة الصحابة ٢: ٢٤٤ وعن البداية والنهاية ٧: ٢٤٩.(المحقق)

مَفْقُودَةٌ، أَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»[١].

وتتبلور ظاهرة اكتناز الذهب والفضة، والتملّك الواسع، بالتوسع المفاجيء للدولة الإسلامية، والذي ترك المجال فسيحاً للارتحال الإداري وخاصة الاقتصادي، في إدارة موارد الدولة التي بدأت تتحمل عبء المشاكل المتزايدة للعمليات الحربية. وعدم انتظام هذه الموارد، وخاصة الذهب والكنوز المسلوبة، أولد نوعاً من محاباة الأقارب والتهاون والتردّد، بالإضافة إلى الطموحات الوليدة، وقد تضافرت هذه العناصر لتزيد من تعقيد مهمة الخليفة[٢].

وإذا ما كانت الطموحات الطبقية في الحجاز وليدة، ولا تزال تحت تأثير الاشعاعات النبوية التي ما زال الذين عايشوها في عهد النبي، أحياء، فإن ظاهرة إمارة معاوية في بلاد الشام كانت تشجع الظاهرة الوليدة في الحجاز، وفي العراق، وفي مصر، سيّما أن إمارة معاوية كانت قوية، ومنظمة، ذات مزايا إدارية، وافرة، وذات مصادر مالية غنية.

إن نشوء (الخاصة) كفئة طبقية متميّزة (أو ما تُسمى بطبقة الأشراف) كان غير ممكن حصوله في العصر الإسلامي الزاهد إلاّ من داخل البنية السياسية والأيديولوجية للإسلام، لأن الإسلام هو المهيمن الوحيد في المجتمعات الإسلامية، ولم يستطع أهل الذمة أن يؤسسوا من أنفسهم نخبة طبقية متميزة، في البيئات الإسلامية. فالاتجاه العام، إذن ـ كان اتجاه اصطفاف القوى السياسية والمالية، سواء من داخل السلطة، أو من

١ ـ أندريه ميكيل: الإسلام وحضارته. (المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٣٦، ونقله الصدوق بالخصال :١٨٦، وفي كتابة كمال الدين وتمام النعمة: ٢٩٠، تحف العقول: ١٧٠، خصائص الأئمة: ١٠٥، روضة الواعظين: ١٠، الغارات ١:١٤٩، مناقب الكوفي ٢:٩٥، شرح الاخبار ٢:٣٧٠، والارشاد للمفيد ١:٢٢٧، والامالي للمفيد: ٢٤٨، كنز الفوائد للكراجكي (٤٤٩هـ):١٤٧، وامالي الطوسي: ٢٠، خاتمة المستدرك ٣:٢١٢. (المحقق)

٢ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)، وربّما يعني المؤلّف قول علي عليه السلام: **إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ**؛ انظر نهج البلاغة ٣:١٠٤ (المحقق).

خارجها، في تحالف غير مشروع.

وحين وصلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب، كانت المشكلة الموروثة (من قَبله) تتفاقم. وكان ـ من حيث التوقّع ـ يرى أن البطانة (أي بطانة الوالي) هي انعكاس ثقل الظاهرة الطبقية على الوالي من جانب، كما أنها نتيجة حتمية لإفرازات المستجدات في الواقع التركيبي للسلطة من جانب آخر.

إن البطانة، إما أن تكون بطانة الوالي، المباشرة، التي تأمر وتنهي باسمه، وتستحوذ على ماتشاء من الأموال والأملاك والمصالح بإسمه أيضاً، أو أنها جزء من الدفعات السياسية والاقتصادية لعناصر (الخاصة) من خارج السلطةداخلها. وهي ـ عموماً ـ ذات قوة غير قليلة الشأن في الضغط على السياسة العامة للوالي، وفي حرفها في أكثر من موضع.

فكان علي بن أبي طالب، يرى في البطانة خطراً أكبر من الخطر الآني، على مسيرة الإسلام وعلى أهدافه.

لذلك، كان يشبع الولاة والعمال مراقبة، ومحاسبة، ووصاة، فكان له في ذلك إرثٌ عظيم، يجب أن يستلهمه السياسيون والمفكرون ورجال الدولة الإسلامية في كل عصر، لتجنب المخاطر السريّة، والمفاجئة الناجمة عن سوء البطانة.

قال في كتابه إلى الاشتر:

«ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً، فِيهِمُ ٱسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ [فِي مُعَامَلَةٍ،] فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ ٱلأَحْوَالِ، وَلاَ تُقْطِعَنَّ لأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ (أي قرابتك) **وَحَامَّتِكَ قَطِيعةً** (أي منحة من الأرض)**، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي ٱعْتِقَادِ عُقْدَةٍ، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ، فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذٰلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ»**[1].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ١٠٤، شرح نهج البلاغة ١٧: ٩٦، تحف العقول: ١٤٤، خصائص الأئمة: ١٢٣، مستدرك الوسائل ١٣: ١٦٩. (المحقق)

ويحذّر علي بن أبي طالب من المخضرمين الذين آزروا الأشرار والظلمة، وشاركوهم في الآثام، ومن الانتهازيين، والمطبّلين، والمدّاحين، الذين لا يجيدون غير النفاق والإطراء، ولا يعرفون الصدق في شيء، حاثّاً على اختيار الذين ينطقون بالحق، مهما كان مُرّاً.

قال للأشتر:

«شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي ٱلْآثَامِ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ ٱلْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ ٱلْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَ آثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَىٰ ظُلْمِهِ، وَلَا آثِماً عَلَىٰ إِثْمِهِ، أُولٰئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَىٰ عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً (أي محبة)، فَاتَّخِذْ أُولٰئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ ٱلْحَقِّ لَكَ (أي الحق الذي قوله مُرّ)، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ ٱللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ.

وَٱلْصَقْ بِأَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَىٰ أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ ٱلْعِزَّةِ».

ويقول له: «ثُمَّ ٱلْصَقْ بِذَوِي ٱلْمُرُوءَاتِ وَٱلْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ ٱلْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ ٱلْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ ٱلْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ ٱلْعُرْفِ (أي المعروف)»[1].

السلطة: رعاية لا تسلّط

إن ممارسة السلطة إغراء بالتسلّط، وهو إغراء ليس وهمياً، بل قائم في الممارسة والفعل. وإن مجموعة القوانين والمراسيم والتعليمات والأوامر الإدارية، ومجموع

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده، مستدرك الوسائل ١٣: ١٦٤، ٣: ٨٨.(المحقق)

الأجهزة الإدارية والشرطة، ودوائر الموظفين والجباة وغيرهم، تخلق أنموذج السلطة الآمرة.

فالسلطة ـ بطبيعتها الاحترافية ـ تسلط.

وحيث يعمد المصلحون إلى نزع أنياب التسلّط ومخالبه من السلطة، لإعادتها إلى أصلها الذي يجب أن تكون (سلطة شعبية)، فإنهم يقاومون نزعة التسلط والبيروقراطية. أي يقاومون العسف والدكتاتورية، وسلطة البطانة، بإشاعة مبادىء الحق والعدل، ودون أن يجعلوا من أنفسهم الحكم الأول والأخير لأية مصداقية لهذه المباديء. فهم محاسبون أمام الرقيب الإلهي (الذي يرى..)، وكذلك هم محاسبون أمام الجماهير لأن الحق والعدل ملك الناس عموماً، ومحور اهتمامهم، وحوارهم، وتحصيلهم. وكل ما يمكن أن يفعله الولاة هو التوجيه والتربية والإشراف على تنفيذ (وحسن تنفيذ) سياسة العدل.

والولاة، وهم يقومون بدورهم التربوي الطليعي، يربّون أنفسهم أيضاً، متخلّصين من نزع الشيطان، وشوائب النفس، واندفاعات الهوى.

ولا يختلف الولاة عن الرعيّة، في كون الاثنين بشراً، يصيبون ويُخطئون. لكن خطأ الوالي أكبر ضرراً، وأشد مفعولاً، لأنه يلحق الضرر بالمحكومين بأكبر نسبه منهم. كذلك؛ فإن خطأ الوالي مرئيّ من قبل الناس، وقد ينظرون إليه بعين المبالغة، فتكون لتلك المبالغة تأثيراتها المضافة. فمن يُلزم الوالي ـ بعد هذا ـ من عدم الانجراف في التسلط، والإكراه، والمغاضبة، والعدوان؟ ومن يستطيع أن يقاوم نشوء البطانة؛ بطانة السوء، أو يحدَّ من نشاطها السلبي؟

إن الوالي ـ نفسه ـ يستطيع ذلك، عبر شيئين متلازمين:

أولهما: أن يملك نفسه عن الهوى، ويضعها في خدمة العمل الصالح.

وثانيهما: أن تكون محبته للرعية حقيقة، طبيعة، ثابتة، لا محبة شعار، أو محبّة مصلحة، أو محبة مرحلة.

قال علي مخاطباً الأشتر:

«...إِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي ٱللهُ لَهُمْ عَلَىٰ أَلْسُنِ عِبَادِهِ.

فَلْيَكُنْ أَحَبُّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ ٱلْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ ٱلْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ.

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَٱلْـمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ...»[١].

وقد يزجر الوالي نزعات النفس السلبية، لكن بطانة السوء، قد تشوّه الصورة، فتزوّر، وتكذب، فتستثير، نزعات النفس السلبية لدى الوالي، فتحتدم النفس بالخطأ المتعجّل، وتلجأ إلى العنف وتشجّع طبيعة السلطة على العنف، لأنها ـ أداة العنف التقليدية عبر تأريخ الشعوب والمجتمعات.

فالسلطة أداة العنف الجاهزة، المجهّزة. لذلك تجذب النفس المحتدمة، والمغترّة، والمخدوعة، (من نفسها أو من سواها) إلى حومة العنف، فتضع أداة القمع في يد الوالي، وتبتديء فصول مأساوية، هي فصول الإرهاب.

وابتداء الإرهاب هو إنتهاء الدور الواجب للسلطة، باعتبارها سلطة عدل. وقد تُغتفر أخطاء الوالي لكن إرهابه للناس لا يُغتفر، فهو جرائم قتل تخضع للقصاص الإلهي والبشري، تخرج عن السياسة وتدخل في باب الجريمة العادية.

ويربط علي بن أبي طالب ربطاً باطنياً وشاملاً بين مبدأين على قدر عالٍ من الأهمية: مبدأ: **«إجتنب ما تنكر أمثاله»**[٢] وهو مبدأ يدعوك إلى عدم فعل ما لا تحب أن

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٨٤، ويضيف الامام عليه السلام: (... ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق...).(المحقق)

٢ ـ وعلى قدر جهدنا في التحقيق لم نرشد إلى مصدرها، ولكن هناك عشرات الأحاديث التي تنضوي تحت هذا المعنى، ومنها:

❊ ارض للناس بما ترضاه لنفسك تكن مسلماً.

❊ اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك فأحبب له ما تحب لنفسك وأكره له ما تكره لها، وأحسن ↵

يفعله الآخرون بك. ومبدأ: «**وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ**»[١].

ولأن العنف منظور، ومكروه، ومرفوض، ويستحق غضب الله، وسخط الناس، فعلى الوالي ـ قبل أن يعنف ـ أن يتذكر سخطه على عنف الولاة، حينما كان إنساناً من الرعية، أي قبل أن يتولى الولاية. فيما كان يكره أن يفعله به الوالي (أو غير الوالي)، عليه أن يتجنّبه أشدَّ التجنّب. وعليه أن يُقارن ـ دائماً ـ بين حالته الإنسانية وهو مواطن من الرعية، وبين حالته السلطوية وهو والٍ، بيده مقاليد الأمور، والسيطرة، على مصاير الناس.

فالمقارنة الدائمة، تجعله مشدوداً ـ أبداً ـ إلى قواعده الإنسانية، المشتاقة الى العدل، والحق، والصدق، وتجنّبه منزلقات عنف السلطة، مستعيناً في ذلك، بحبّه للرعية وحب الرعيّة له، وإيمانه بالانتصاف الإلهي.

وقد هتف علي بن أبي طالب بالأشتر هتفة وصية، وتحذير:

«**وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَأ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَ وَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ**»[٢].

كما تحب أن يحسن إليك، ولا تظلم كما تحب أن لا تظلم.

* اياك أن تكون على الناس طاعناً ولنفسك مداهناً فيعظم عليك الحوبة وتحم المثوبة.

* (... ان تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لها).

* لا تعب غيرك بما تأتيه ولا تعاقب غيرك على ذنب ترخص لنفسك فيه.(المحقق)

١ ـ من وصيته عليه السلام لمالك الأشتر، انظر نهج البلاغة، شرح محمد عبده ٣:٨٣.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٨٤، شرح نهج البلاغة ١٧:٣٢، تحف العقول: ١٢٧، المستدرك ١٣:١٦١. (المحقق)

الناس صنفان: أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق

تستحق هذه الوصيّة وقفة خاصة، لأنها مقولة ثمينة، جامعة للحكمة وللحق وللفائدة. وهي إذ تأتي بلسان علي بن أبي طالب، وبكتابه، فإنها تضيف إلى مآثره العظيمة مأثرة نظرية وسياسية كبرى بوجه سياسات ونظريات ومدارس وكتب ومناهج أزمنة العنف، والدكتاتورية، والبطش، وسفك الدم.

وهي ـ في حضورها ضمن منظومة أفكار علي بن أبي طالب طبيعية جداً، إلاّ أنها ـ مع ذلك ـ متقدمة كثيراً على زمن الافتطان بها، بذلك التلخيص المحكم، الجامع المانع، كما يُقال.

فهي ـ في حقيقة الأمر ـ دليل نظري وسياسي مرشد، وملهم لكل أولئك الذين ينافحون عن الديمقراطية، في العالم، في جميع العصور، وباختلاف التسميات.

ومن أجل التوطئة ـ التي لا بد منها ـ من المفيد ذكر واقعة تاريخية كبيرة. وهي أن مجيء عصور الديانات، ومن ثم الأيديولوجيات، الذي ارتبط ـ مؤكداً ـ بآمال البشرية (الأرضية، والسماوية)، كان قد أعلن ميلاد نمط جديد من التزمّت الإيديولوجي والسياسي، موجود في الإطار الديني، ولكنه ليس من الدين.

فالديانات سمحاء ترفض التزمّت الحاد وما يترتب عليه من انشقاقات وصراعات. ولقد سجلت صفحات التأريخ، وسجلاته، الأحداث الدامية والمروّعة الناجمة عن الصراعات داخل الديانة الواحدة، وبين ديانة أخرى. مثلما سجلت ـ أيضاً ـ الصراعات الدامية بين معسكرات الأيديولوجيا والسياسة.

إن العصبية المذهبية المتطرفة، كانت من الأسباب المؤديةالانشقاقات، وإلى التصعيد الصراعي بين الفرق المنشقة على بعضها، ورفعه إلى مستوى الاحتراب. وفي تأريخ الديانتين المسيحية والإسلامية، أمثلة عديدة عن الصراعات الداخلية، الدامية التي تؤكد ذلك.

وإذا كانت العصبية المذهبية المتزمّتة، والمتطرّفة، سريعة التحول عنصرية مذهبية

قاطعة، وعدوانية، داخل المعسكر الديني الواحد، فإنها ـ قبل ذلك وبعده ـ لا تستطيع التعايش أيديولوجياً مع معسكر ديني آخر.

وقد كان من نتائج التعصّب المذهبي المتشدد بروز الإرهاب الأيديولوجي (باسم الدين والدين منه براء كما يُقال)، فكان الإرهاب المشار إليه إرهابين: إرهاب الفكر (ومصادرة حرّيته) وإرهاب الإنسان نفسه، وإزهاق روحه. ولقد دفعت المصالح الخاصة للقوى الاجتماعية المتنفّذة، والمستفيدة، إلى استثمار الشعارات والمقولات الدينية، لتمرير مصالحها، وللتوصل إلى نيل مكاسب جديدة. مثلما كان ذلك في الحروب الصليبية التي استمرت أكثر من قرن من الزمن. فلقد أفتى (أحد البابوات) بالذهابالأرض المقدسة (حيث بيت المقدس) والسيطرة على ممالك الشرق لمعالجة الأزمة العميقة التي دخل فيها الإقطاع الفرنسي بالدرجة الأولى، وكانت أزمة صراع من أجل السيطرة على مساحات الأرض غير المجدبة، في وقت استشراء الأزمة الاقتصادية للنظام الإقطاعي بعامة. لقد وجد الإقطاعيون في الذهاب الى الشرق والسيطرة على (خيراته) حلاً للأزمة الاقتصادية الداخلية لهم. ووجدوا في البابا الغطاء الديني للعدوانية الصليبية الكاسحة.

ولا شك في أن العناصر المصابة بالجنون المذهبي، قد لعبت دوراً خطيراً في تزكية الحروب الصليبية والإعداد لها، ودعمها بقطاعات عريضة من المؤمنين بها. نخلص من ذلك إلى أن تأريخ عصور وحقب زمنية عديدة، قد شهد صراعات حادة ودامية، ليس بين معسكرات دينية وأيديولوجية متعارضة، فحسب، بل وفي داخل المعسكر الواحد. فبرز ـ في السياسة وفي الأيديولوجيا ـ طغيان الصوت الواحد للحزب، أو الفرقة، أو للطائفة، أو لكل من ينشقّ عنها.

فأحبطت البشرية إحباطاً كبيراً، إذ إنها بعد أن كانت ترتفع بمسارات تقدمها الحضاري إلى أفق إنساني، عالمي، تأريخي أرحب، رأت نفسها تتراجع إلى تجزئات، إنشقاقية، طائفية، مذهبية حادة، فخسرت (الكلي)، الذي تجاوزت به عصر القبليات

الاجتماعية والسياسية، وارتدت(الفئوي) الانقسامي بأسوأ أشكاله، وهو الشكل الطائفي، التناحري، الدموي.

ونتيجة لذلك، أصبحت العلاقات السياسية والأيديولوجية مهددة للوحدات الوطنية والقومية وللمتّحدات البشرية الواسعة.

كان حلُّ علي بن أبي طالب، الذي قدمه بمواجهة المشكلة، بصورتها الحسيّة حينذاك، حلاّ تأريخياً، لكل مشكلة من هذا النوع. فهو ـ في جوهره، وفي آفاقه ـ دستور أخلاقي ـ سياسي لحل مشكلة العلاقات ـ بين القوى والفصائل والأطراف المختلفة أيديولوجياً وسياسياً.

ويقوم الحل على ركنين:

الأول: ركن الأخوة الأيديولوجية والسياسية، وهو يتضمن وحدة المنطلقات، ووحدة العلاقة، وما يترتب على ذلك من تضامن.

أما الركن الثاني: (وهو الأهم)، فهو تذكير السلطة المذهبية، أن (الإنسان) من مذهب آخر، هو نظير (إنسان السلطة) في الخلق، وليس ثمة ما يتعالى به عليه، فتكون له ـ به ـ حجة لقمعة.

ومن المهم القول بأن مقولة علي بن أبي طالب تلك، تكتسب قيمة خاصة، ونادرة، من الوهلة الأولى، لا سيما أن العصر ـ حينذاك ـ كان لا يخلو من نظرة التعالي على (أهل الذمّة) والتجاسر عليهم أحياناً، من قبل بعض الجباة، وبعض أفراد الرعية، بالاستناد (غير الواقعي) إلى افكار دينية.

فكان تأكيد علي بن أبي طالب على فكرة **«النظير في الخلق»** تُضاهي فكرة الركن الأول **«الأخوة في الدين»**، وتضع أساساً لديمقراطية العلاقة بين جميع الناس، من مختلف الملل والنحل، والأحزاب، والطوائف، والأقليات القومية، وتحدد الإطار الحقوقي

لحرية الاعتقاد، تلك الحرية التي لا يمكن قهرها(١).

---

١ ـ نقول: سجل علي عليه السلام مواقف كثيرة يدعو فيها إلى احترام ومراعاة أصحاب الديانات الأخرى ـ الأقلية الدينية في المجتمع ـ ففي عهده، كتب إلى محمد بن أبي بكر: «هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنين عليه السلام الى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر، أمره بتقوى الله في السِّر والعلانية وخوف الله تعالى في المغيب والمشهد، وباللين للمسلم وبالغلظةِ على الفاجر وبالعدل على أهل الذمة وبالإنصاف للمظلوم وبالشدة على الظالم وبالعفو عن الناس وبالاحسان ما استطاع والله يجزي المحسنين» الغارات ١٤١:١ وانساب الاشراف: ١٩٣ وتحف العقول: ١٧٦ وعن عبد الله بن قعين قال: كنت أنا وأخي كعب بن قعين في ذلك الجيش مع معقل بن قيس، فلما أراد الخروج أتى علياً عليه السلام فودعه، فقال له علي عليه السلام: «يا معقل بن قيس، أتق الله ما استطعت فإنها وصيّة الله للمؤمنين، لا تبلغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة، ولا تتكبر، فإن الله لا يحب المتكبرين» وقال أمير المؤمنين عليه السلام لجارية بن قدامة لما ودعه: «ولا تحقر مسلماً ولا معاهداً» شرح النهج ٢٨٢:٣، والطبقات الكبرى لابن سعد ٨٣:٦.

ومن كتابٍ له عليه السلام كتب لجارية بن قدامة: «ولا تظلم معاهداً ولا معاهدة» تاريخ اليعقوبي ٢٠٠:٢، وقال عليه السلام: «لا ايمان لمن يقتل مسلماً أو معاهداً» غوالي اللآلي ٢٤١:٢ ب ٢ ح٨.

وعن الامام جعفر الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: «ان علياً عليه السلام صاحب رجلاً ذمياً، فقال له الذمي: أين تريد يا عبد الله؟ قال: أريد الكوفة، فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه علي عليه السلام، فقال له الذمي: أليس زعمت تريد الكوفة؟! قال: بلى، فقال له الذمي: فقد تركت الطريق، فقال: قد علمت فقال له: فلم عدلت معي وقت علمك ذلك؟! فقال له علي: هذا من تمام حسن الصحبة ان يشيّع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه، وكذلك أمرنا نبينا صلى الله عليه وآله فقال له: هكذا!

قال: نعم، فقال له الذمي: لا جرم انما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهد: أني على دينك. فرجع الذمي مع علي عليه السلام فلما عرفه أسلم» قرب الأسناد للحميري: ١٠، الكافي ٦٧٠:٢.

وأما قوله في مراعاة الحقوق الملكية الخاصة: «ولاتمسن مال أحدٍ من الناس مصل ولا معاهد» شرح النهج ١٩:١٧. أو قوله في المساواة: «يا أيها الناس ان آدم لم يلد عبداً ولا أمةً ان الناس كلهم أحرار» وسائل الشيعة ٨٢:١١.

ولاحظ موقفه عليه السلام عندما أعترض عليه أحد الأنصار في توزيع الحقوق والمساواة بينه وبين عبده الذي أعتقه منذ فترة وجيزة، حيث أعطى الامام عليه السلام لكل منهما ثلاثة دنانير فساوى بينهما، فقال له الأنصاري: «يا أمير المؤمنين هذا غلام أعتقته بالأمس تجعلني إياه سواء» فقال له عليه السلام: «اني نظرت في كتاب الله فلم أجد لولد اسماعيل على ولد اسحاق فضلاً» الكافي ٦٩:٨ وأيضاً موقفه

سفك الدم وزوال نعمة الوالي

إن أشد أنواع الظلم سفك الدم بغير حق. لذلك كان علي بن أبي طالب يرى أن على الولاة تجنب القتل، وسفك الدماء بدون حق. لأن في سفك الدماء علامة زوال النعمة، وانقطاع المدة، وعظم التبعة. وإن الله يبتدىء الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة. قال في كتاب له إلىٰ الأشتر:

«إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ، وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلَا أَحْرَىٰ بِزَوَالِ نِعْمَةٍ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَٱللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ ٱلْقِيَامةِ، فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ ٱللهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ ٱلْعَمدِ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ (أي قصاص) **ٱلْبَدَنِ»**[1].

فالخليفة مسؤول عن أعمال الولاة، ولا يمكن أن يدّعي عدم مسؤوليته عن الجرائم

لما سمع بهجوم بسر بن أرطأة على الأنبار وسلبه للمرأة المسلمة والمعاهدة، فتألم الإمام لكلاهما دون ان يفرق بينهما، فقال «وقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينزع حجلها وقلائدها ورعاثها.. لو أن الرجل مات بعد ذلك أسفاً لما كان عندي ملوماً بل كان عندي جديرا» المهذب لأبن البراج ١:٣٢٣ وجواهر المطالب ١:٣٢٢. فالإمام عليه السلام تألم لما جرى للمرأة المعاهدة بنفس المقدار من التالم على المرأة المسلمة، ولا فرق في منهج الإمام فالحديث يقول: «دم الذمي كدم المسلم حرام» وقوله عليه السلام: «دماؤهم كدمائنا»، وهذا مما يدل على شمولية الإسلام ورعايته للأديان الأخرى، ومثلما يكون الإنسان المسلم محترم وله حقوقه الكاملة في الدولة الإسلامية يكون بنفس المقدار من الحقوق والاحترام للانسان غير المسلم، ولم يكن هناك إكراه في الفكر والعقيدة او الحقوق والواجبات، فهي الرؤية الإسلامية للوضع الحقوقي للانسان والتركيز على صون المواطنة في المجتمع، وهذه من تجليات منهج علي عليه السلام. (المحقق)

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١٠٨، ونقله ابن شعبة الحراني في تحف العقول: ١٤٦، والعاملي (١١٠٤ هـ) في وسائل الشيعة ٢٩:٥٥.(المحقق)

التي يرتكبونها بدون حق، لأن كثرة الجرائم تدلل على الطبيعة الدموية لعموم النظام؛ والكل شركاء في المسؤولية من مختلف مراتبهم في قيادة النظام. إنه مسؤول في التشديد على محاسبة الأجهزة التنفيذية، التي تتوكّل القيام بالواجبات الأمنية والسياسية، لتلتزم بمبادىء الحق والعدل التي سطرها الإسلام. وإذاكان سفك الدم أعلى مستويات العدوان على المواطنين، فإن تحته مراتب ودرجات للظلم والعدوان، من قبيل مصادرة الأملاك، والسجن، والضرب، والاعتداء على الأسرة، والنفي والتشريد، الخ...

وهي أنواع من الظلم، تضع الوالي في موضع مخاصمة الله، لأن «مَنْ ظَلَمَ عِبَادَ ٱللهِ كَانَ ٱللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ ٱللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ لله حَرْباً حَتَّىٰ يَنْزِعَ وَيَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ إِلَىٰ تَغْيِيرِ نِعْمَةِ ٱللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَىٰ ظُلْمٍ، فَإِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ ٱلْمَظْلُومِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ»[1].

ولأن الغضب يسوق ـ غالباً ـ إلى اتخاذ القرارات العجلى، التي تتعلّق بمصائر أفراد الرعية، أو بحقوقها، أو بكرامتها، فإن علياً بن أبي طالب يؤكد على ضرورة عدم مُناسبة الغضب للسطوة، وعلى خطورة اتخاذ القرارات في حالات الغضب، إذ يجب ـ توخّياً للعدل ـ تأجيل إصدار القرارات عند الغضب، والإنتظار إلى الفرصة التي تهدأ فيها النفس، وتذهب عنها ثائرة الغضب.

فهو يقول موجهاً الوالي: «آمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ (أي حدة بأسك)، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَٱحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ بِكَفِّ ٱلْبَادِرَةِ (أي ما يبدر من اللسان عند الغضب)، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّىٰ يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ ٱلإِخْتِيَارَ...»[2].

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٨٥، ونقله صاحب المستدرك ١٢:٩٨.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١١٠، تحف العقول: ١٤٨، والمستدرك ١٣:١٧٢.(المحقق)

مبادىء وأسس في قنوات التعامل مع الرعية من أجل العدل

إن حب الوالي الصالح للرعية يدفعه إلى انتهاج مبادىء حقّانية ثابتة في تطوير علاقته مع الرعية، والحذر ـ كل الحذر ـ من الوقوع في شبكة العلاقات السلبية، التي قد تفرضها بطانة ضارة.

فالعدل ضوابطه ـ في العلاقة والنظرة ـ لا يجوز التفريط بها أو إخضاعها للتجريبية المتقلّبة والمزاجية العابرة.

إن تلك المبادىء والأسس ترتبط بمنظومة الأفكار والمبادىء التي تشكل الجوهر السياسي والمبدئي للحكم العادل، ومن بينها، كما يؤكد على ذلك علي بن أبي طالب:

أ ـ تقدير المنزلة لأصحاب المنزلة حسب قيمة الإحسان.

«وَلَا يَكُونَنَّ ٱلْمُحْسِنُ وَٱلْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ ٱلْإِحْسَانِ فِي ٱلْإِحْسَانِ، تَدْرِيباً لِأَهْلِ ٱلْإِسَاءَةِ عَلَىٰ ٱلْإِسَاءَةِ»(١).

ب ـ الحفاظ على السنن الصالحة، التي توارثها الناس، والتي تدل على الخير والعقل والحكمة والصلاح، **«وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ، وَٱجْتَمَعَتْ بِهَا ٱلْأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّعِيَّةُ، لَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ ٱلسُّنَنِ، فَيَكُونَ ٱلْأَجْرُ بِمَنْ سَنَّهَا، وَٱلْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا»**(٢).

ج ـ التقرب إلى أهل العلم، والحكمة، والمعرفة، لأن في ذلك شرفاً وتنويراً، وتطويراً، وإبداعاً، وإضافة تقوّي الصلاح، وتزيل الباطل، وتحلّ محله الصالح، وتزوّد النظام بعوامل القوة، والتقدم.

وليس أخطر على سياسة الوالي، من تقرّبه إلى (الأوباش) والمنافقين المصلحيين،

---

١ ـ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٨٨، وتحف العقول: ١٣٠، المستدرك ١٣:١٦٣.(المحقق)

٢ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٨٩، وتحف العقول: ١٣٠، المستدرك ١٣:١٦٣.(المحقق)

وعبيد اللذات، أو من تقربهم إليه (أو إلى بطانته)، لأنهم ـ بذلك ـ **يخرّبون العمران، ويفسدون الضمائر ش ويثيرون الفتن، ويصبحون حرباً عواناً على الرعية، وبالأخص على رؤوس الحكمة والعدل فيها.**

إن الإكثار من مدارسة العلماء، والحكماء، وذوي المروءات والإنصاف، يجلو البصيرة، ويرفع الغشاوة، ويُبعد سحب الفتنة، ويُعري زيف الأدعياء ممن ينصبون أنفسهم ـ زوراً ـ أعمدة لسياسة النظام، ويحمل الوالي على الازدراء بهم والاستغناء عنهم. قال علي بن أبي طالب:

«وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ ٱلْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ ٱلْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا ٱسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ»[١].

ففي السياسة، منعطفات، ومزالق، ودهاليز، يغفل عنها من لم يشارك العقول رأيها وعقلها وحكمتها، فتحدث العواقب السيئة، وتستعصي المعالجة.

د ـ إشاعة الخير للرعية دون منّة، أو تزيد، والعمل على اقتران الوعود بالتنفيذ، وتجنّب الخلف بالوعد، وإزجاء الأقوال غير المسنودة بأعمالها.

قال الإمام علي بن أبي طالب:

«وَإِيَّاكَ وَٱلْمَنَّ عَلَىٰ رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ ٱلْمَنَّ يُبْطِلُ ٱلْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ ٱلْحَقِّ، وَٱلْخُلْفَ يُوجِبُ ٱلْمَقْتَ عِنْدَ ٱللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ ٱللهُ سبحانه: ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[٢][٣].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٨٩، دعائم الإسلام ١: ٣٥٧، تحف العقول: ١٣١، المستدرك ١٣: ١٣٨ بلفظ مغاير. (المحقق)

٢ ـ سورة الصف، الآية: ٤. والآية من ضمن قول الإمام عليه السلام. (المحقق).

٣ ـ أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ١٠٩، تحف العقول: ١٤٧، المستدرك ٨: ٤٥٩، و١٧١ وذكرها (المعاصر) المحمودي في نهج السعادة ٥: ١١٩. (المحقق)

سمات الوالي وطباعه

إن النظرة السائدة في اختيار رجال الحكم والإدارة، عبر التأريخ، تركز في الغالب، على الصفات السياسية التي تعبّر عن نهج الحكم وسياسته العامة، أو على الاعتبارات الشخصية (القرابة، الصداقة، التفضيل الشخصي)، كما أن بعض الاختيارات تتم بصورة اعتباطية.

وفي سياسة العدل المتكاملة لعلي بن أبي طالب، لا تفلت الاتصافات الضرورية للحاكمين من اهتمامه، نظراً إلى أن مسؤولية الحكم مسؤولية تأريخية تسعى لإنشاء مشروع العدل الاجتماعي على أسس قويمة، وبضوابط وظيفية وإدارية فعّالة. وغالباً، ما تُهمل الخصائص الشخصية للولاة ورجال الحكم والإدارة، وبخاصة من قبل السياسيين الذين يؤمنون بالمبادىء الشمولية في التغيير والبناء، في نطاق تصورات مادية تخصهم.

ذلك لأنهم يرون في الخصائص الشخصية، أموراً ثانوية لا قيمة لها بإزاء القضايا الأساسية العامة، وهم يرون في الاهتمام بالتفاصيل الأخلاقية ابتعاداً من السياسة العلمية.

إن خطل ذلك الفهم (والممارسة) بيّن جداً، وهوشديد الضرر حتماً. فالسياسة، رغم أنها تلخص التيارات العميقة والظاهرة في الواقع الاجتماعي، فإنها لا تستطيع صياغة الناس بإشارة سحرية.

فالمنتمون إلى أحزاب سياسية معينة مثلاً، يعتنقون سياسة الحزب وأفكاره وبرامجه، لكن تلك الأفكار والبرامج لا تقوى على إعادة خلق خصائص الإنسان (المنتمي) الأصلية. ومع أن الحزب السياسي يكسب ـ عددياً ـ بانتماء هذا الشخص أو ذاك إليه، إلّا أنه، قد يفرط ببرامجه وأفكاره، أو يعرضها إلى الانحراف، والصدمات، (مما يؤثر ـ بالنتيجة ـ على رصيده الكمي والنوعي) بسبب فعالية الخصائص الأخلاقية للأفراد، والتي تجرُّ الممارسة السياسية إلى أجوائها، وتحرفها، وتُلبسها لبوسها.

فالأيديولوجيا، والسياسة لاتعصمان الفرد من الأخطاء المتسببّة عن طبيعته الأخلاقية، وطباعه الخاصه.

وعلى صعيد الحكم، تؤدي السمات الأخلاقية لا إنسانية، أو السلبية، إلى القيام بأعمال لا إنسانية أو سلبية، مؤذية للمجتمع.

وحين يؤكد علي بن أبي طالب على نهجه الثابت في اختيار الولاة رجال الحكم والإدارة، على أساس وحدة الشروط العقائدية والأخلاقية. فذلك لأنه يرى أن الشرط الأخلاقي تجسيد للشرط العقائدي، وتوكيد له. كما أنه الشرط العقائدي بلورة للشرط الأخلاقي وتزكية له.

وهو ـ من خلال ذلك ـ يُقدم للبشرية، وللقوى السياسية المدافعة عن العدل والسلم والتقدم، فائدة جوهرية على طريق بناء المجتمع السعيد من خلال بناء الإنسان الفاضل، في عملية متكاملة الجانبين.

فالأخلاقية هي الضمانة الحيوية لحسن تطبيق النهج السياسي للعدل الاجتماعي، وفيا عداها لا يتلقى المواطنون من رجال الحكم والإدارة غير الصفات السلبية، أو الشريرة التي يتحمل المجتمع أوزارها.

وكلما ازدادت قيمة المكانة الوظيفية لرجال الحكم والإدارة والمسؤولية ازدادت أهمية التوكيد على الاتصافات الأخلاقية العالية.

ويخطيء قادة الحكم، حينما يركزون على القدرة التنفيذية لرجال الإدارة والمسؤولية، بمعزل عن الطبائع الأخلاقية لهم، لأن القدرة التنفيذية ليست مجردة عن الطبيعة والطبع، وبخاصة في المهمات ذات المغزى الاجتماعي العام.

إن كل إنسان ـ بالضرورة ـ يحمل صفاته معه، إينما حل، في (الوظيفة الإدارية) أو في غيرها، وستباشر تلك الصفات حضورها الفعلي عبر الأشكال المتعددة للنشاط السياسي والثقافي له.

ويُحدد علي بن أبي طالب الأخلاقية للوالي (عند اختياره) ـ (وهي صفات تصلح

لكل عصر، ويتوجب تأمينها في كل مسؤول، وعامل) لأن مسؤولية الوالي كبيرة جداً فهو:

الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين.

إذ ينبغي أن لا يكون بخيلاً، فتكون في أموالهم نهمته،

وينبغي أن لا يكون جاهلاً، فيضلهم بجهله،

وينبغي أن لا يكون جافياً، فيقطعهم بجفائه،

وينبغي أن لا يكون حائفاً، فيتخذ قوماً دون قوم،

وينبغي أن لا يكون مرتشياً، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع.

وينبغي أن لا يكون معطلاً للسنّة، فيهلك الأمة.

إن هذه الصفات التي يحذّر منها علي بن أبي طالب تسبّب القطعية بين الناس والدولة. وتفسح المجال واسعاً أمام الأمراض والانحرافات السياسية، التي تهدد سياسة العدل، وتربك مسيرتها.

قال علي بن أبي طالب في هذا الأمر:

«وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى ٱلْفُرُوجِ وَٱلدِّمَاءِ وَٱلْمَغَانِمِ وَٱلْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا ٱلْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا ٱلْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلَا ٱلْمُرْتَشِي فِي ٱلْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ ٱلْمَقَاطِعِ، وَلَا ٱلْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ ٱلْأُمَّةَ»[1].

ويتضّح من الخصائص الأخلاقية السيئة (المذكورة) أنها تحمل دلالتها من خلال المعنى المالي والمصلحي الذي تشيعه الطبقية البغيضة بانحرافها اللاإنساني، فالبخل هو الحرص على المال بِنَهم، والرشوة هي تعاطي المال (أو ما يُعادله) مقابل تأدية خدمات شخصية بصورة غير مشروعة.

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ١٤، والقاضي المغربي في دعائم الإسلام ٢: ٥٣١، والمحقق النووي في المستدرك ١٧: ٢٥٢. (المحقق)

ولا تتفشى الرشوة (أو سواها من ظواهر الانحطاط الأخلاقي والسياسي بالنتيجة) إلاّ بوصول المجتمع إلى مرحلة الانقسام الخطير بين الفئة الثرية القليلة العدد، والتي تقف في أعلى السُلَّم الاجتماعي، والغالبية الاجتماعية العظمى، وهي الفقراء والضعفاء والمساكين. فيسقط الموظف الإداري في الرشوة بسبب ضعفه الأخلاقي أمام إغراءات المال، وتحت ضغط الحاجة (فيما إذا كان مرتبة الشهري ضئيلاً مثلاً). فتتضافر عوامل الطمع، والحاجة أحياناً، والمغريات وسوء القسمة والنصيب (وهو ظاهرة المجتمع الطبقي المضطرب)، مع هبوط الوازع الأخلاقي، في الانزلاق إلى الارتشاء.

ويلعب الراشي والرائش (الوسيط) دوراً خبيثاً في نشر الرشوة، وإسقاط ذمم الموظفين بصورة مُخجلة.

ولا يُتاح للراشي والرائش والمرتشي القيام بخيانة المجتمع، والأمانة، والضمير، إلاّ بوجود عوامل موضوعية في صلب السيرورة الاجتماعية وهي عوامل طبقية في واقعها. لأن استئثار قلة من أفراد المجتمع (من داخل السلطة ـ ومن خارجها) بأكبر نسبة من الثروة الاجتماعية، يدفع إلى حشر أكثرية الناس المحرومين من نصيبهم العادل في الثروة الاجتماعية في صفوف الفقراء الذين يتزايدون عدداً، فينشأ مثل ذلك الاستقطاب (اللامنطقي) الكبير لمبررات الفوضى، والانحراف، والتمرد، والانفجار.

ولم تكن أيام الفتنة في المرحلة الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان، قليلة الدروس. إذ إن كثرة من الثائرين كانوا من الفقراء، والعبيد والمحتاجين، بعضهم تدعوه دواعي الإنصاف، وترشده تصوّراته عن العدل الإسلامي، وبعضهم الآخر (وربما هم أكثر!) كانوا يريدون المال، لذلك كانت هجماتهم على بيت المال شديدة التهالك والاندفاع.

إن المحرومين تستولي عليهم انفعالات قد تكون غامضة أحياناً، إلا أنها ـ بلا شك ـ شديدة، وأشد الناس حرماناً المحروم من القوت والرزق. والإنسان ـ بطبيعته ـ يضع نفسه دائماً موضع المقارنة مع سواه، فترضيه المشاركة ويؤلمه الحرمان، لأن الحرمان يضرب على أهم وتر في وجدانه.

من هنا ـ فإن أغلب التيارات السياسية العنيفة،، والتمردات، تنطلق من الأوساط الاجتماعية المحرومة، والناقمة.

وتولي النظرات الإصلاحية ـ عادة ـ الاهتمام الوافر لمعالجة بعض ظواهر الحرمان ـ لكن حين يصبح الحرمان جماعياً، فإن الإصلاح يقف عاجزاً عن المعالجة. وتتسبّب عن الحرمان المادي انعكاسات من الحرمان ذات صفة معنوية ـ فالحرمان المعنوي هو وجه خطير ـ أيضاً ـ من وجوه الحرمان، لأنه يشكك بإنسانية الإنسان وحقّه في العمل، والمشاركة، والإستفادة، والبرهنة على حضوره في جميع ميادين العمل السياسي والفكري والاقتصادي مثل سواه.

إن احتكار السلطة، والثروة يؤدي إلى تفاقم النقمة، التي يتطاير منها شر الأخطار المختلفة.

ففي الأوساط المحرومة، الناقمة، تولد أكثر التيارات عنفاً، بصور واتجاهات سياسية، وأيديولوجية مختلفة، وفي دفعات زمنية وأوقات غير محددة. فبعض الانتفاضات تتسم بالفورية، وبعضها الآخر يتّسم بالتباطؤ، فيما يظل البعض منها يتحرّك تحت السطح، إلى أن يتفجر في زمنه الخاص به.

العدل المر: مع النفس أولاً

حين قال علي بن أبي طالب **«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ...»**[1]، كان ينقل الدرس عن تجربته الذاتية في العدل، والتي استقاها من زهده الذي كان على يسار العدل، وأرضيته الثابتة.

لقد كانت أفكاره عن العدل بنت طبيعته، وطبعه، وتجربته، مثلما كانت حياته محراباً لأفكاره، فلم تفصل فاصلة بين أفكاره وسلوكه الخاص والعام، لأنهما متحدان اتحاد

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:١٦، وتكملة القول: «...ومعلم نفسه ومؤودبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤودبهم». (المحقق)

نصف الشيء بنصفه الآخر في وحدة حيّة.

وتنطلق عدالة علي بن أبي طالب من إيمانه الإلهي العظيم، الذي أغناه بالزهد والتعلي عن الملكية الفردية، مهما كان نوعها.

وكان يردّد: **«وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!»** وهو في تجسيده لهذه الحكمة البليغة، كان يرسم سياسة العدل القائمة على جوهر حقيقي، لأن العدل محال بدون العدل في الملكية العامة، وفي النظر الى الدنيا بدون نهم، وجشع، واستحواذ.

وابتدأ علي بن أبي طالب في سياسته العادلة بنفسه أولاً، وبأقربائه، ثانياً وبأصحابه وولاته الأقربين، ثالثاً، وبالناس عموماً رابعاً: فكرّس بذلك وحدة العدل، وشموليته.

أما ابتداؤه مع نفسه، فإن تأريخ ذلك طويل، بدايته منذ أن تولاّه النبي العظيم بالاحضان والرعاية والتربية، فنقل عنه زهده، وتواضعه، وبساطته، وإعراضه عن زخرف الدنيا، فكان يروي عنه قائلاً:

«وَلَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْكُلُ عَلَىٰ الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَىٰ بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فُلَانَةُ ـ لإِحْدَىٰ أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا».

فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً»[1].

فكان الرسول ﷺ قدوته، ومثله الأعلى، فكراً وسلوكاً.

حتى إذا ما حلّت الهجرة إلى يثرب، وحلّ المهاجرون الأبطال ضيوفاً على الأنصار، كان علي بن أبي طالب يمسك ـ عقلياً وبالتجربة ـ بحقيقة العلاقة بين (العمل) و (الأجر)، فيرى فيها منطلقاً لسياسة العدل القائمة على الاستحقاق والجدارة، بدون بغي،

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)، أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٥٩.(المحقق)

ولا مبالغة.

لم يكن يرضيه أن يظل ضيفاً على إخوة الإيمان: الأنصار، فاشتغل في مزرعة لأحد اليهود، مقابل أجر، وبلغت ثروته ذات يوم اربعة دراهم فكره من أجلها نفسه، وسعى سعيه بالليل والنهار حتى أنفقها على ذوي حاجات، فجاءه جزاء هذا الإحسان من عند الله، آية كريمة نزلت فيه خلّدت صنيعه، وسماحة كفٍ هي أحوج إلى السماحة من أن تكون مسماحة[1]:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً..﴾[2].

وما إن اجتمع و (فاطمة) في بيت الزوجية، حتى كان شاهدهما فراش جلد كبش، لا غير، في حين كانت حصّته من (الصدقة) ما لو قسمت على بني هاشم لوسعتهم، كما كان يذكر[3].

وهكذا قدم زمن خلافته، وهو كما يقول عنه (عمر بن عبد العزيز): «ما علمنا أن أحداً كان في هذه الأمة أزهد من علي بن أبي طالب بعد النبي صلى الله عليه وآله[4]، وحين كان يواجه معسكر الجمل في حرب الجمل، كانت حجته بسيطة جداً، بساطة الصدق، فلم يكن محتاجاً إلى جعجعة الخطب، ولا إلى التلويح بالقوة ـ وكان شديد القوة ـ إنما قال:

«يا أهل البصرة ما تنقمون مني؟ هذا لمن غزل أهلي!» وأشار إلى قميصه[5]!

وعند قدومه إلى (الكوفة)، التي أصبحت عاصمة الخلافة، هيأ له أنصاره دار الإمارة لينزل فيها، قائلين:

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. (المؤلف)

٢ ـ سورة البقرة، من الآية: ٢٧٤، وانظر قصة نزول الآية في «من لا يحضره الفقيه» للصدوق ٢:٢٨٨، وروضة الواعظين: ١٠٥.(المحقق)

٣ ـ أنظر مناقب ابن شهر آشوب ١:٣٦٦، ذخائر العقبى: ٣٥، المصنف لابن شيبة ٨:١٥٦، مسند أبي يعلي ١:٣٦٣، الطبقات الكبرى ٨:٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢:٣٧٦، كنز العمال ١٣:٦٨٢.(المحقق)

٤ ـ كشف اليقين للعلامة الحلي:٨٦.(المحقق)

٥ ـ مناقب آل ابي طالب لابن شهر اشوب ١:٣٦٧، الجمل للمفيد: ٢٢٤.(المحقق)

«يا أمير المؤمنين ،أين تنزل؟ أتنزل القصر؟».

فما كان جوابه إلاّ البيان الكافي عن حقيقة عدله مع نفسه، وتشدّده عليها كما لا تحول بينه وبين العدل الحاسم أُبّهة الإمارة، وبهاؤها قال، مستخفاً بقصر الإمارة، هازئاً به:

ـ قصر الخبال؟ لا تُنزلونيه![1].

وذات مرة، ترصّد غداءه عمرو بن حريث، فدخل عليه.. فإذا بين يديه لبن حامض له ريح نفّاذة من شدة حموضته، ومعه رغيف يابس على وجهه نشار الشعير، وهو يكسره ويستعين أحياناً بركبته، فآذى صاحبه ما رأى، وهتف بجارية الإمام يلومها:

«يا فضّة.. أما تتقون الله في هذا الشيخ! ألا نَخلتُم دقيقة؟».

قالت فضّة:

«إنّا نكره أن نؤجر ويأثم.. فقد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقاً ما صحبناه..»، ولم يكن علي ملقياً باله إلى الحديث بين صاحبه وجاريته حتى صكّت سمعه كلمة أو كلمتان من قول فضّة، فالتفت إليها يسألها:

«ما تقولين؟»..

قالت تشير إلى صاحبه:

«سَلهُ!».

فاستنبأه بالأمر، فأجابه:

«إني قلت لها: لو نخلتم دقيقه...».

فإذا بالدمع يملأ عندئذٍ عيني الإمام، فيقول:

«بأبي وأمي من لم يشبع ثلاثاً متوالية من خبز بّر حتى فارق الدنيا، ولم ينخل دقيقه..».

وقال: **«كان رسول الله ﷺ يأكل أيبس من هذا»** ولوّح برغيفه، **«وكان يلبس أخشن من**

---

١ ـ وقعة صفين: ٥، شرح نهج البلاغة ٣: ١٠٥، وذكره (المعاصر) المحمودي في نهج السعادة ١: ٤١٨.(المحقق)

هذا وأشار إلى ثوبه، **«فإن أنا لم آخذ بما أخذ به خشيت ألاّ ألحق به..»**[١].

وقيل له ذات مرة، وقد هال أصحابه إسرافه الشديد في ماله بالصدقة والبذل:

«كم تتصدّق!.. كم تخرج مالك!..ألا تمسك!؟».

فكان جوابه:

«إني والله لو أعلم أن الله قبل مني فرضاً واحداً لأمسكت، ولكنني والله ما أدري أقبل مني شيئاً أم لا..»[٢].

ورآه عدي بن حاتم وبين يديه شنة فيها قراح ماء وكسرات من خبز شعير وملح، فقال: إني لا أرى لك يا أمير المؤمنين لتظل نهارك طاوياً مجاهداً وبالليل ساهراً مكابداً، ثم يكون هذا فطورك، فقال علي بن أبي طالب:

علّل النفس بالقنوع وإلاّ — طلبت منك فوق ما يكفيها[٣]

وقبل ذلك، كان بعض القوم، يرى في (قوت) علي بن أبي طالب، ما يُضعف صحته، فيقعد به الضعف عن قتال الأقران، ومنازلة الشجعان، فكان يقول رداً على ما يرون: **«وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هٰذَا قُوتُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ ٱلْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ.**

أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ ٱلْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَٱلرَّوَائِعَ ٱلْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ العِذْيَةَ أَقْوَىٰ وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً (أي أن النباتات الصحراوية تكون أقوى اشتعالاً من النباتات المرويّة)، **وَأَنَا مِنْ رَسُولِ ٱللهِ** صلى الله عليه وآله **كَالصِّنْوِ مِنَ الصِّنْوِ** (الصنوان: النخلتان يجمعهما واحد)، **وَالذِّرَاعِ مِنَ ٱلْعَضُدِ.**

---

١ ـ مناقب ابن شهر اشوب ٢:٩٨ (طبع قديمة)، اخذ عنه البحراني في حلية الابرار ٢:٢٣٢، مستدرك الوسائل ٣:٢٧١.(المحقق)

٢ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)، وأنظر شرح نهج البلاغة ٢:٢٠٢، مستدرك الوسائل ٧:٢٣٥، الغارات ١:٩١، كنز الفوائد: ١٧١ . (المحقق)

٣ ـ محمد كاظم القزويني: علي من المهد إلى اللحد. (المؤلف)، وأنظر مناقب ابن شهر اشوب ١:٣٦٨، مستدرك الوسائل ٧:٢٣٥/و١٥: ٢٣٠/ و١٦:٢٩٨ .(المحقق)

وَٱللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ ٱلْعَرَبُ عَلَىٰ قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا...»[١].

وقال عنه الباقر: «**إنه ولي خلافته خمس سنين، وما وضع أجرة على أجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعاً ولا أورث بيضاء ولا حمراء**»[٢]. ويلخص ضرار بن ضمرة صفات علي بن أبي طالب، وعدله، وزهده، خير تلخيص، وهو يجيب (معاوية) إذ سأله: يا ضرار.. صف لي علياً!؟

فقال أعفني!

قال: لتصفنّه!

قال: أما إذا كان لا بد من وصفه فإنه: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم في جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لانكاد نكلّمه هيبة له، يعظّمُ أهل الدين ويقرّب المساكين، ولا يُطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول: **يا دنيا غرّي غيري! أبي تعرضتِ؟ ام إلي تشوقتِ؟ هيهات قد باينتكِ ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق**.. فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا الحسن! كان والله كذلك.. فكيف حزنك عليه يا ضرار! قال: حزن من ذُبح ولدها بحجرها.. فهي لا ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها»[٣].

---

١ ـ لبيب وجيه بيضون: تصنيف نهج البلاغة. (المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٧٣. (المحقق)

٢ ـ مستدرك الوسائل ٣: ٤٦٧. وسائل الشيعة، ١٦: ٤١٣ بزيادة. (المحقق)

٣ ـ شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ٤٠٢، كشف الغمة ١: ٧٦، كشف اليقين:

قسوة العدل: مع الأقرباء ثانياً

كثيرة هي الأمثلة التي تُدلل على دوران العدل مع علي بن أبي طالب، حيث يدور، فكان عدله خِصباء، وعطاء، للمستحقين، وكان عدله قسوة وشدة على المستغلّين. وقد وضع علي بن أبي طالب نفسه في خدمة العهد الإلهي، عهد إحقاق الحق، والإنصاف بالعدل، وإبعاد واستبعاد ما هو غير ذلك.

وكانت شدّته على نفسه، تضعه ـ أبداً ـ على أبعد نقطة من أبعد خط في فقر الفقراء والمساكين، فكان أفقر الفقراء والمساكين، على ما هو عليه من إمكانات خليفة، وأمير المؤمنين.

وقد يرتمي المؤمن في زهده، وتقواه، وعدله، إلى المدى الإلهي الذي تتضاءل فيها الملكيات، والمنافع، والمبتكرات المادية ـ المصلحية للدنيا الزائلة (دنياه، ودنيا كل فرد). لكنه لا يجد غضاضة في العطف على الأقرباء، وإبداء العون. لكن علياً بن أبي طالب الذي يحمل في عقله وقلبه، وفي يده مصباح العدل، لا يفرق ـ في التطبيق ـ بين الواحد والآخر، بين نفسه وسواه، لأن العدل هو موقف ثابت، يستجيب لمشيئة الله العادلة.

فأصل العدل الإلهي، و «هو من صفات الله الثبوتية، وهو الاعتقاد بأن الله تعالى عادل، أي منزّه عن فعل القبيح، فلا يجوز في قضائه، ولا يحيف في حكمه، يثيب المطيعين، وله أن يجازي العاصين، ولا يكلف عباده ما لا يطيقون، ولا يعاقبهم زيادة على ما يستحقون.

١١٦، العمدة لابن البطريق: ١٦، ابن ميثم البحراني (القرن السادس) في شرح مئة كلمة: ٢٢٧ ـ ٢٢٨. وأصل النص: يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكِ عَنِّي، أَبِي تَعَرَّضْتِ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ؟ لَا حَانَ حِينُكِ! هَيْهَاتَ! غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلَاثاً لَا رَجْعَةَ فِيهَا! فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ.
آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَطُولِ الطَّرِيقِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ! نهج البلاغة ١٧:٤ (المحقق)

ومن عدالته سبحانه، أنه لا يفعل إلاّ الحسن، ولا يأمر إلاّ به.

إن المدركات الاستيعابية للعدل الإلهي، الموافقة للضرورات البشرية في العدل الاجتماعي، رفعت الحواجز في المسافات التطبيقية لسياسة علي بن أبي طالب العادلة فلم يحظَ هو نفسه، أو أي من أقربائه، بأي استثناء.

وليست هناك قصة في العدل، مثل قصة علي بن أبي طالب في زجره لأخيه (عقيل)، وكان ذا صبية، أضنكه العوز، ووهنه كبر العمر. كان يريد أن يَصِلهُ أخوه الخليفة من بيت المال، فما كان من علي بن أبي طالب إلاّ أن أخبره أنه لا يستطيع ذلك، وسيعطيه من (عطائه) إذا خرج. قال له عقيل: وما يبلغ مني عطاؤك؟

فأجابه علي: وهل تعلم لي مالاً غيره؟

ويبلغ إلحاح عقيل أكثر من مداه ـ ذات ليلة ـ فيحمي علي بن أبي طالب حديدة حتى تحمرّ، فيقرّبها من وجهه، فما كان من عقيل، إلاّ أن صرخ، فقال له علي:

«ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَىٰ نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! ...».

يذكر هذه القصة علي بن أبي طالب نفسه في كلمة له قائلاً:

«وَٱللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّىٰ ٱسْتَماحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ [الشُّعُورِ، غُبْرَ] ٱلأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ ٱلْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ، مُفَارِقاً طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَىٰ نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ ٱلأَذَىٰ وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَىً؟!»[1].

وكانت خاتمة مطاف (عقيل) التجاؤه إلى معاوية، الذي كان يُجزل العطاء من بيت

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١١:٢٤٥، الدرجات الرفيعة: ١٥٩، وذكرها البحراني (١١٠٧ هـ) في حلية الابرار ٢:٢٠٤.(المحقق)

المال، وكأن المال ماله الخاص، والبيت بيته الخاص![1] ومرة، جاء إليه ابن أخيه (عبد

---

١ ـ وروى المؤرخون، إن معاوية سأل عقيلاً عن قصة الحديدة، فبكى عقيل، وقال: أنا أحدثك يا معاوية عما سألت؟ نزل بالحسين عليه السلام أبنه ضيف فأستسلف درهماً اشترى به خبزاً واحتاج الى الأدام فطلب من قنبر خادمهم ان يفتح له زقاً من زقاق عسل جاءهم من اليمن،فأخذ منه رطلاً، فلما طلبها علي عليه السلام ليقسمها قال يا قنبر أظن أنه حدث في هذا الزق حدثاً، قال نعم يا أمير المؤمنين وأخبره، فغضب ،وقال عليٌّ بالحسين فرفع عليه الدرة، فقال الحسين بحق عمي جعفر، وكان إذا سئل بحق جعفر سكن فقال له ما حملك على أن أخذت منه قبل القسمة، قال عليه السلام أن لنا فيه حق فإذا أعطيناه رددناه، قال فداك ابوك وإن كان لك فيه حق فليس لك ان تنتفع بحقك قبل ان ينتفع المسلمون بحقوقهم، أما لو لا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبل ثنيتيك لأوجعتك ضرباً، ثم دفع الى قنبر درهماً كان مصروراً في ردائه، وقال اشتر به خير عسل تقدر عليه...ثم قال عقيل: والله لكأني انظر الى يد علي عليه السلام وهما على فم الزق وقنبر يقلب العسل فيه ثم شدّه، وجعل يبكي ويقول: اللهم أغفر للحسين فإنّه لم يعلم، فقال معاوية: ذكرت من لم ينكر فضله رحم الله ابا الحسن فلقد سبق من كان قبله، واعجز من يأتي بعده ولم يكتفي معاوية بهذا الموقف، وألح على عقيل ان يحدثه عن قصة الحديدة، فقال عقيل: أقويت وأصابتني مخمصة شديدة فسألته فلم تند صفاته فجمعت صبياني وجئت بهم، والبؤس والضر ظاهران عليهم، فقال عليه السلام إنني عشيّة لأدفع إليك شيئاً، فجئته يقودني أحد ولدي فأمره بالتنحي ثم قال ألا فدونك فأهويت حريصاً قد غلبني الجشع أضنها صرّه، فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً فلما قبضتها نبذتها وخرت كما يخور الثور تحت يدي جازره، فقال لي: ثكلتك أمك هذا من حديدة اوقدت لها نار الدنيا فكيف بك وفي غد إن سلكنا في سلاسل جهنم، ثم قرأ عليه السلام: إذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون ،ثم قال عليه السلام: ليس لك عندي فوق حقك الذي فرضه الله لك إلا ماترى، فأنصرف الى أهلك.

يقول الرواة: فجعل معاوية يتعجب، ويقول: هيهات هيهات عقمت النساء ان تلد مثله.

وينقل الرواه: ان معاوية أراد ان يخلق كرهاً وحقداً في قلب عقيل على أخيه علي عليه السلام بعد ما قدم عقيل وأكرمه معاوية وقربه وقضى عنه دينه، فقال له معاوية: إن علياً لم يكن حافظاً لك إذ قطع قرابتك وما وصلك وما اصطنعك. فقال عقيل: والله لقد أجزل العطية وأعظمها ووصل القربة وحفظها وحسن ظنه بالله إذ ساء به منك وحفظ امانته وأصلح رعيته إذ خنتم وأفسدتم وجرتم فاكفف لا أبا لك فانه عما تقول بمعزل.

ومرةً دخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معاوية على سريره وقال له انتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم، قال عقيل: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم. انظر ابن قتيبة ↵

الله بن جعفر)، في محنة ألمّت به: **«يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة.. فوالله ما لي نفقة إلاّ أن أبيع دابتي!»**.

فكان جواب علي:

«لا والله، لا أجد لك شيئاً، إلاّ أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك!»[1].

قد يكون جواب كهذا عجيباً، لكنه ـ من علي بن أبي طالب ـ ليس عجيباً.

أوَليس هو القائل (والفاعل، نعم الفاعل!):

«وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً (الحسك: الشوك، والسعدان نبت له شوك ترعاه الإبل)، **أَوْ أُجَرَّ فِي ٱلْأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى ٱللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ ٱلْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ ٱلْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَىٰ ٱلْبِلَىٰ قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَىٰ حُلُولُهَا؟!»**[2].

وكانت قصة (عبد الله بن عباس) شديدة التأثير على نفس علي، وكأن الزمان كاد يأبى إلاّ أن يصدمه في عدالته التي لا تساهل فيها، فيخذله بفعلة ابن عمه الذي كان أقرب الناس إليه.

فقد وصل من أبي الأسود الدؤلي بلاغ إلى الخليفة، يخبره فيه عن تجاوزات مالية لابن عباس، فطلب علي من ابن عباس تقديم كشف بذلك، وكان ابن عباس يظن أنه فوق المُساءلة، حتى إذا بلغت المساءلة حدّها العادل، هرب ابن عباس بأموالٍ من بيت مال البصرة، كما ورد ذكر ذلك في موضع آخر من الكتاب[3].

في عيون الاخبار ٢: ٢١٠، الدرجات الرفيعه للسيد علي بن معصوم (١١٢٠ ها: ١٥٩، المحاضرات للراغب ٢: ٤٨١، وذكر المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٤٠٦، ولسان العرب ٤: ٦٥. (المحقق)

١ ـ الغارات ١: ٧٦، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٠٠.(المحقق)

٢ ـ رسائل المرتضى ٣: ١٣٩، نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٢١٦، المستدرك ١٢: ٩٧، عيون الحكم والمواعظ: ٥٠٦.(المحقق)

٣ ـ وقد أضحنا بدورنا تبرير هذا الحدث التأريخي وفقاً للمصادر وقد أشرنا في حينه إلى المصدر

الشدة العادلة مع الولاة

يُروى أن (المأمون) سمع قصة رمزية ذات ليلة، من أحد سُمّاره ـ وكان قد أصابه الأرق ـ فانتظر حلول الصباح بفارغ الصبر كي يجلس للمظالم، وينصف الناس بعضهم من بعض. وهذه هي القصة التي رواها السمير:

«يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة، وبالبصرة بومة، فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها، فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلي في صداق ابنتي مئة صنيعة خربة. فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها، لكن إن دام والينا سلّمه الله علينا سنة واحدة، فعلتُ ذلك!».

إن المغزى الوارد في هذه القصة الرمزية، هو أن الوالي السيء يُخرّب العمران، في أقصر وقت من الزمن.

وكان علي بن أبي طالب، نبراس العدل والحق، خير من يدرك خطورة ولاية الوالي، وتأثير سياسته على حاضر الرعية، ومستقبلها. فكان يتشدد مع الولاة، حتى في الأمور التي تبدو صغيرة، أو بسيطة. وكان هو القدوة، في كل من يقول ويفعل، فكان يأمل من الولاة التعليم، وترك الغفلة، والزلل.

وقد كان ـ في الأمور الرئيسية، كالتجاوز على الأموال مثلاً ـ قوي الحساب، لكن طموحه كان أكبر من حدود الالتزام بالنهج الرسمي لسياسته، لأنه كان يريد للولاة أن يكونوا أولياء الله، الذين يمنحون أنفسهم كليّة الحق، لا غير الحق. وكان أكثر الولاة موضوعاً لتشدده، أصحابه وأنصاره.

روي أن شُريح بن الحارث القاضي، اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك فاستدعى شُريحاً وقال له: بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، وأشهدت فيه شهوداً.

عليه السلام بعينه. (المحقق)

فقال له شُريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين.

فنظر إليه نظر المغضب، ثم قال:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّىٰ يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَىٰ قَبْرِكَ خَالِصاً.

فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ٱبْتَعْتَ هٰذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الْثَمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ ٱلآخِرَةِ!

أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتاباً عَلَىٰ هٰذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هٰذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ»(١).

وتصل شدة علي بن أبي طالب في لوم الولاة ـ أصحابه ـ ومحاسبتهم، في أمور قد تبدو من الصغر، وكأنها ليست بذات أهمية، ولكنها ـ في واقع الحال ـ كانت مهمة لأنها تتعلّق بالوالي وسياسته. فهي لو صدرت عن إنسان عادي لما كانت بتلك الأهمية التي تبدو عليها عند الوالي.

بلغ علياً أن عامله على البصرة، عثمان بن حنيف الأنصاري، قد دعي وليمة قوم من أهل البصرة، فمضى إليها، فكتب إليه مستنكراً منه ذلك قائلاً:

«أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حُنَيْفٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلى مَأْدُبَةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ ٱلْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ ٱلْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلىٰ طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ.

فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هٰذَ ٱلْمَقْضَمِ، فَمَا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ»(٢).

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٤، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٧، نظم در السمطين: ١٧٠، الامالي للصدوق: ٣٨٨، روضة الواعظين: ٤٤٦.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٧٠، شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٥، وسائل الشيعة ١٨: ١١٦.(المحقق)

وكان هدف علي بن أبي طالب ترسخ اقتداء الولاة بأمير المؤمنين، ففي كثرة الولاة العادلين، المقتدين، صلاح للأمة، لأنهم ينتشرون في الأمصار، ويقودون المجتمعات، فهم همزة الوصل بين الخليفة وبين الناس في مختلف الأقاليم، وهم صورته المعبرة، وأداته الواعية.

ولا يستطيع أمير المؤمنين بمفرده تأدية المهمات الكبيرة، على مستوى الأمصار المتعددة، إذ،لا بد له من الولاة والعاملين الصالحين، فكان يحثّ على الاقتداء، قائلاً لابن حنيف ـ في كتابه المذكور:

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ.

أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَىٰ مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ (اي ثوبيه الباليين)، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ (أي رغيفيه).

أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذٰلِكَ، وَلٰكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، [وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ].

فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً.

بَلَىٰ! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ (قرية نحلها النبي لابنته الزهراء) مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ.

وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَىٰ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَىٰ جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ (كناية عن الصراط).

وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَىٰ مُصَفَّىٰ هٰذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هٰذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هٰذَا الْقَزِّ، وَلٰكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَىٰ تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَىٰ وَأَكْبَادٌ حَرَّىٰ، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ ٱلْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ ٱلْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ ٱلْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا (أي أن البهيمة السائبة شغلها أن تلتقط القمامة)، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلاَفِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدىً، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلاَلَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ ٱلْمَتَاهَةِ!!»[1].

ويعرف ابن حنيف، وغير ابن حنيف، أن عدالة علي بن أبي طالب مع نفسه قد سدّت عليها نوافذ الهدى، حتى لا تنحرف النفس باللّذة عن العدل. فكان يرفض حتى الهدية، لا لِقَلَقٍ من نفسه على نفسه، بل خشية على أن تكون الهدية ـ في نفس مهديها ـ مثل الرشوة، أو تفتح طريقاً إلى الرشوة. لقد أتاه الأشعث بن قيس مرة بهدية؛ هي نوع من الحلواء ملفوفة في وعاء، فرفضها، وقال في ذلك:

«وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا (أي كرهتها)، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذٰلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ! فَقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَلٰكِنَّهَا هَدِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ ٱلْهَبُولُ! (هي المرأة التي لا يعيش لها ولد) أَعَنْ دِينِ ٱللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ [أَنْتَ] أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ (أي تهذي) وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ ٱلْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ (أي قشرة) شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا، مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَىٰ، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَىٰ!

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ ٱلْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ»[2].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٧٢، وانظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦:٢٨٧ (المحقق).

٢ـ رسائل المرتضى ٣:١٣٩، نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٢١٨، شرح نهج البلاغة ١١:٢٤٥. (المحقق)

العدل المُرّ مع الناس

إن من صعوبات العدل أنه يرضي ويسخط، يرضي جماعة ويسخط أخرى.

ولا يكترث المؤمن بالله، وبالعدل الإلهي، للرضا والسخط، لأنه لا يعرف المحاباة في الحق، وهو لا يريد استثمار عواطف الرضا، فهو يطمح إلى أن يتعلم الناس، ويتربّوا على العدل كيما يصبح سنّة ثابتة لهم.

ففوائد التربية على العدل، والتمسك به ـ من خلال ذلك ـ كمنهج في الحياة، يُدافع به الناس بأنفسهم عنه، فلا يكون منّة من أحد، هي أكبر من الفوائد المادية للعدل. لأن الفوائد المادية للعدل قابلة للاسترجاع، والفقدان، أمام السلطة الجائرة. لكن الفائدة العظمى، هي أن يكون العدل سلاحاً بيد الناس، مثلما هو سلاحهم النظري، والكفاحي، فهو مصدر قوتهم، والسبيل إلى فرضهم الحق على السلطة. فالعدل ـ إذن ـ يُقاس بمقياس الحق، ولا يمكن أن يُقاس بمقياس ما هو أدنى منه، مثل المنافع، والمصالح المتحققة به.

ومن المؤكد أن العدل ينفع غالبية الناس، لأنه يحقّق لهم الخير العميم. فبدلاً من أن تنحصر الثروة الاجتماعية بيد فئة محدودة من المجتمع، فإنها تتوزّع ـ بالجدارة ـ على المجتمع العامل، بضوء المبادىء التي يقرّرها حق العمل، وحق أخذ الأجر على قدر المشقة.

ولكن غالبية الناس، اعتادوا على حياة مفرغة من العدل، وهي حياتهم الحاضرة، والمتوارثة ـ أيضاً ـ منذ قرون عديدة. ولم تكن التجربة المحمدية المجيدة بإزاء ذلك، إلاّ مثل حلم، ذهب بذهاب النبي صلى الله عليه وآله الى الرفيق الأعلى، وبذهاب كرام الصحابة، عن الحياة الدنيا. لقد رسخت في النفوس نوازع التملك، والمنفعة، وحب المال، حتى أصبحت وكأنها طبيعية إنسانية لا تبديل لها.

وقلة هم أولئك المتطهّرون من تلك النوازع، تلك هي القلة التي وقفت الى جانب النبي الكريم، فانتصر بها على الكفّار والمشركين، الذين كانوا كثرة ساحقة، فأصبحوا ـ

بفضل الإيمان ـ مدحورين، مغلوبين.

كان علي بن أبي طالب مدركاً لذلك، فكان يخاطب أصحابه الخلصاء: «**لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ ٱلْهُدَىٰ لِقِلَّةِ أَهْلِهِ...**»[1].

فالعدل ،ينفع أكثرية الناس، لكنه يسخط أكثرهم أيضاً.

ينفعهم في تحقيق الفوائد المادية العامة، ولكنه يسخطهم بملاحقة (الباطل) وبمجابهة الأطماع، والشرور، والرذائل، والأعمال الدنيئة؛ بنور الحق الساطع الذي يتسلّط على جميع زوايا الحياة البشرية، وخباياها، حياة المجتمع، وحياة الفرد. فلا تصمد أمامه ظلمة، أو خبيثة.

ودورة الحق أبدية، ولا وقفة فيها، ولا فصول، ولا تعاقب ليل ونهار، مثلما هو عليه الكون. فهو النهار الأبدي، بكل إضاءاته التي تفكّ الحصار عن النفس المطمئنة، وتدفع فعال الظلام الشريرة بالدليل القاطع.

إن أدلّة الحق عناوين ثابتة لهدى البشرية، على الطريق الذي ولجته البشرية، وتواصل السير فيه إلى الأبد.

تفرح نفس الإنسان إذا ما جاءته البركة، ولكنها تغضب إذا ما ساءها شيء، حتى لو كان الحق نفسه إلاّ من تزكى بالحق والهدى، ولم تفتنه المصلحة. كان علي بن أبي طالب العادل يرى بعين البصيرة عمق المشكلة وسعتها. ولم تكن الدنيا محصورة به وبمجتمعه، بل هي حاوية على نماذج من الحكم والسياسات المختلفة.

وكان أنموذج حكم معاوية، يتحدّاه فكراً، وأسلوباً، وفعالية، لأنّه نقيضه المقابل. وقد اعتمد ذلك الأنموذج سياسة الافتتان والإغراء، والتعامل مع النفس البشرية من زاوية الرؤية بأنها نفس طماعة، متقلّبة، تحتاج ـ في السياسة ـ إلى العطاء، والكيد، والسوط.

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:١٨١، الغارات ٢:٥٨٤، المسترشد: ٤٠٧، النعماني (٣٨٠ هـ) في كتابه الغيبة: ٢٧، الامالي للمفيد: ١٣٧، شرح اصول الكافي ٩:١٨٧، المستدرك ١٢:١٩٤.(المحقق)

فإن لم ينجح واحد من هذه الأساليب الثلاثة، ينجح الآخر.

لقد استبعد علي بن أبي طالب هذه الرؤية من فلسفته استبعاداً تاماً. فكان العدل منطقه الوحيد، وأسلوبه الوحيد، وعشقه الوحيد.

ومثلما تقوم الآخرة على الجنة والنار، قامت الدولة الإسلامية في زمن خلافة علي بن أبي طالب، وإمارة معاوية بن أبي سفيان على جنة السياسة ونارها. وحُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات واللذائذ[1]. فتسارع أهل الهوى إلى الشهوات دون أن يدركوا فكان الامتحان صعباً جداً، تعرض له أكثرية العامة، وبعض أهل الطاعة أيضاً. فأكثرية العامة ـ لم تخرج بصيرتهم عن حدود أبصارهم، فكانت فتنة المال، والأرض وترف المأكل والمشرب والملبس، ذات أثر بعيد في نفوسهم، فهم نتاج واقع اقتصادي، يُقاس كل شيء فيه بميزان الربح، والخسارة، والثروة والفقر.

واستبدال ذلك القياس بقياس الحق والباطل، عملية تاريخية طويلة، معقّدة، شاقة، ذات بُعد اجتماعي (جماعي). لا يجد حلوله في المعالجات الفردية، والجزئية، على الرغم من أهميتها العظيمة. فكانت جبهة معاوية، مثل المغناطيس الذي يجذب إليه نثار الحديد. فكانت نفوس بعض الناس تضعف أمام دعوة معاوية وإغراءاته، وبعضها يسخط ويحتج، أو يرتعب من سياسة العدل التي لا مجال للالتفاف والتحايل عليها.

فرأت تلك النفوس في عدل علي بؤساً وهي ترجو نعيماً، وقد عبّر عن ذلك (الأشتر) في قوله لعلي بن أبي طالب على تلك المشكلة:

«أنت تأخذهم يا أمير المؤمنين، بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتنصف الوضيع من الشريف، فليس لشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عموا به، واغتمّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف ـ فتاقت أنفس الناس للدنيا، وقلّ من ليس للدنيا بصاحب ـ وأكثرهم يحتوي الحق، ويشتري الباطل، ويؤثر

---

١ ـ نسبة إلى الحديث النبوي: «وإن الجنة حُفّت بالمكاره، وإن النار حُفّت بالشهوات».(المؤلف)

الدنيا، فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجال!»..

فأجابه علي:

«يا أشتر.. إن ماذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل، فإن الله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ .. وأنا مِن أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف.. وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقوا لذلك، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور، ولا لجأوا إذا فارقونا العدل، ولم يلتمسوا إلاّ دنيا زائلة عنهم، وليُسألنّ يوم القيامة: أللدنيا أرادوا أم الله عملوا؟..وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال، فإنه لا يسعنا أن نؤتي أمرأً من الفي أكثر من حقّه. وقد بعث الله محمداً وحده، فكثره بعد القلة، وأعزّه بعد الذلّة، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذلّل لنا صعبه ويسهل لنا حَزْنه»[1].

وأصابت الفتنة نفوس بعض أهل الطاعة، ولعل المثل قد لا يعوزنا في «**النجاشي الشاعر**» الذي أسال فكره قريضاً، ونظيماً يفيض ثناء على مناقب الإمام وإعزازاً لأمره، وهجواً لابن هند وتحقيراً لشأنه ومسلكه.. ومع ذلك فلا يكاد هذا الشاعر الغاوي يتعرض للامتحان حتى ينقلب الميزان، فإذا هو يرتدّ عن نهجه، وإذا الممدوح هو الخليق بالهجاء، والمذموم هو الحقيق بالثناء، خلط من الخلط يجريه الهوى، ويفرضه الإخلاص الأثيم للذات ولا تُسائل أنفسنا فيم كان انقلاب الرجب، أعدولاً عن باطل كان، أم استجابة لحق، أم تشبثاً بمبدأ جديد.. لا نسائل أنفسنا وأمامنا من خبرة قرينة حال تغني عن كل سؤال».

كان ذلك ذات رمضان، في أول نهار من هذا الشهر الذي يعفّ المسلمون فيه عن الطعام والشراب والشهوات زكاة للنفس وتعبئة لقوى الروح. وكان النجاشي قد خرج من بيته يسير إلى غير غاية كأنما ليشغل بعض وقته ويملأ بالحركة ما يحسه فيه من فراغ، فإذا هو يمر بصاحب له، قد لاذ بفناء داره، فأقرأه السلام.

---

١ ـ الغارات ١:٧٢، شرح نهج البلاغة ٢:١٩٧.(المحقق)

قال الرجل وهو يدعوه أن يلازمه لعله يغريه بالقبول:

«.. وهل لك في رؤوس وأليات قد وضعت في التنور في أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرّأت؟».

فراجع الشاعر سمعه ثم رد في استهجان:

«ويحك!.. في أول يوم من رمضان؟

لكنه قبل.. الطعام أغراه.. ثم أغراه بعده النبيذ، فأهدر صومه، وخرق شريعة الله...ثم راح يعبّ وصاحبه من الشراب حتى فقدا الوعي وعلا صياحهما المحموم ينبيء عما اقترفاه.. فلما انكشف الأمر، وأُخِذَ بسُكره إلى الإمام، فأمر بجلده ثمانين جلدة وزاد عليها عشرين. وكأنما هاله الجزاء، فأطلق لسانه يقول:

«يا أمير المؤمنين.. أما الحدّ فقد عرفته، فما هذه العلاوة»؟

قال علي:

«لجرأتك على الله، وإفطارك في رمضان».

فمن عجب أن تأخذه العزّة بالإثم، وتأخذ معه طائفة من اليمانية، فيها طارق بن عبد الله بن كعب النهدي. غضبوا له ولم يغضبوا لله، فمشوا ـ بمنطق الاستكبار والاستعلاء ـ إلى الإمام، يحاجّونه وينكرون عليه ما كان.. قال له طارق:

«يا أمير المؤمنين، ما كنا نرى أن أهل المعصية، والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيّان في الجزاء حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحارث..».

أفهذا منطق تناقش به جريرة الشاعر؟.. أم يرون قسطاط الله يُحابي الناس على أصولهم فيلين بهم. ما شرفت الأصول، وإن خفت الأعمال، ويشتد عليهم في العقاب إن انخفضت الأحساب، أم يريدون الإمام علياً أن يشتري من أتباعه طاعتهم بإهدار أحكام الله؟».

وكرثه قولهم، ولكنه استمسك ما استطاع، ليلفظ في وجوههم جوابه الذي لا جواب غيره في مثل هذا المقام:

«يا أخا نهد.. وهل هو إلاّ رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمات الله؟ ومع ذلك فقد أدلج طارق والشاعر بليل يفرّان من الحق إلى معاوية»[١].

قضاء العدل وعدل القضاء

من الحقائق المثبتة والمعروفة أن علياً بن أبي طالب اشتهر بالقضاء العادل، ذلك لما أوتي من عقل هو الميزان العادل، ومن إحساس شفّاف، ومن تجربة لا تُضاهي في الحكم على الأمور والأشياء.

وقد قال فيه النبي العظيم: «**أقضاكم علي**»[٢] وكفى بذلك شهادة ،وأعظِم به دليلاً!

وقد ولاّه النبي قضاء (اليمن) وكانت قد دخلت الإسلام وابتليث بارتداد الأسود العنسي، فكان (علي) الرجل الوحيد الذي يُناسب ـ بعدله ـ أهل اليمن، أهل الصدق والصراحة.

وفي زمن الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، كان علي بن أبي طالب الضليع والمستشار المؤتمن في القضاء وحسن الرأي، وكلاهما ـ القضاء وحسن الرأي ـ يدلّ على معدن العدالة، والنزاهة.

وقد أكد (الفاروق) العادل عمر بن الخطاب ميزة علي بن أبي طالب المتميزة، في القضاء، فقال غير مرة: «**لولا علي لهلك عمر**»[٣]، لأنه ـ أي عمر ـ كان يُحاسب نفسه

---

١ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. (المؤلف)، أنظر شرح نهج البلاغة ٤:٨٨.(المحقق)

٢ ـ الايضاح: ٢٣١و٣١٤، الاحتجاج ٢:١٠٣، النكت الاعتقادية للمفيد: ٤١، مناقب الشرواني: ١٩٢، روضة الاحباب: ٣١٤، الرياض النضرة ٢:١٩٨، كشف اليقين للعلامة الحلي: ٤٥.(المحقق)

٣ ـ الرياض النضرة ٢:١٩٦، ذخائر العقبى: ٨٠، مطالب السؤل:١٣، جواهر الكلام ٢:٢٣٣، مسند زيد بن علي: ٣٣٥، شرح الازهار ٤:٣٤٦. المناظرات في الامامة: ٤٤٥، مناقب ابن شهر اشوب ٢:٦١٣.(المحقق)

ويُحاسب سواه بقسوة العدل، فكان يتأثّم من خطأ قضائي، أو من قرار غير عادل. ومن أقوال (عمر) المشهورة في الاعتراف بفضل علي بن أبي طالب في القضاء، قوله: **«لا يُفتيني أحد في المسجد وعلي حاضر»**[١].

ويقول ابن أبي الحديد، عز الدين، **«كل فقيه في الإسلام عيال عليه»** ـ أي على علي بن أبي طالب[٢].

وقد تحكّم قضاء علي العادل بذكائه، وليس العكس، فكان يقول: **«لو لا الدين والتقى لكنت أدهى العرب..»**[٣]. وفي قضائه توحّد الدين، والتقى والعدل.

ومن منطلق وحدة القضاء وحسن الرأي، أنه كان يُشير على عمر في الأمور الصعبة، في السياسة والقضاء. قال لعمر، وقد شاوره في الخروج غزو الروم بنفسه، فنهاه عن ذلك:

«إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هٰذَا ٱلْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ بِشَخْصِكَ فَتُنْكَبْ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَىٰ بِلَادِهِمْ، وَلَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَٱحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ ٱلْبَلَاءِ وَٱلنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ ٱللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ ٱلْأُخْرَىٰ، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ»[٤].

إن حسن المشورة ـ هنا ـ يُوضح ـ بقوة ـ نوع الصلة بين علي بن أبي طالب والخليفة عمر، ومن قبله أبي بكر، ومن بعده عثمان بن عفان.

---

١ ـ مناقب الشرواني: ١٩٩، تذكرة السبط: ٨٧، مناقب الخوارزمي: ٦٠، فيض القدير ٤:٣٥٧، المناظرات في الامامة: ٤٤٥.(المحقق)

٢ ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. (المؤلف)، والمصدر نفسه ١:١٨.(المحقق)

٣ ـ كتاب الاربعين للقمي الشيرازي: ٤٢٢، الصوارم المهرقة للتستري: ٤٧، ينابيع المودة ١:٤٥٤، ومصدر هذه العبارة (أدهى العرب) أخذها المؤلف رحمه الله تصحيفاً من ابن ابي الحديد في شرح النهج ١:١٦، وقد جاء في النهج من «أدهى الناس»، والحق اننا لم نوفق في الوقوف على عبارة «ادهى العرب» في شرح النهج! وفي غيره. (المحقق)

٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:١٨، شرح ابن ابي الحديد ٨:٢٩٦.(المحقق)

فالطامح إلى سلطان الخلافة، لا يفكر بحسن المشورة، بل يرجو غياب الخليفة للقيام بمسؤوليتها نيابة عنه إن ظل على قيد الحياة، أو يتسلمها بعده إن جاء الأجل. ولكن علياً الزاهد كان زاهداً، بطبيعته، بالسلطة، وكان ناصحاً حقيقياً، بالطبيعة أيضاً.

وتتكرر النصيحة، حيثما استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه، فقال له:

«إِنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ ٱللهِ ٱلَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ ٱلَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّىٰ بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ ٱللهِ، وَٱللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ.

وَمَكَانُ ٱلْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ (أي السلك) مِنَ ٱلْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ ٱنْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً. وَٱلْعَرَبُ ٱلْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالإجْتِمَاعِ!

فَكُنْ قُطْباً، وَٱسْتَدِرِ الرَّحَا بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ ٱلْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ ٱلْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ ٱلْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ ٱلْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هٰذا أَصْلُ ٱلْعَرَبِ، فَإِذَا ٱقْتَطَعْتُمُوهُ ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ ٱلْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَٱلْمَعُونَةِ!»[1]. إنّ مشورة علي بن أبي طالب معتمدة، من قبل عمر بن الخطاب، في القضايا المصيرية التي تخص صراع الإسلام مع الروم والفرس، والتي تخص السلامة

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣:٢١٢، الثقات لأبن حيان ٢:٢٢٦، نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٣٠، شرح نهج البلاغة ٩:٩٥.(المحقق)

الشخصية للخليفة.

وكان ـ أيضاً ـ مستشاراً موثوقاً في قضايا الفقه، والرأي، وإعطاء النصيحة. مرة، نصح البعض عمر، بأخذ حلي الكعبة ـ وكان كثيراً ـ لتجهيز جيوش المسلمين به، فذلك ـ في رأي البعض ـ أعظم أجراً، وكاد عمر بن الخطاب أن يأخذ بالرأي ،ولكنه قبل أن يفعل، استشار علياً، فقال له علي:

«إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وَالْأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ: أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ، وَالْفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهِ، وَالْخُمُسُ فَوَضَعَهُ اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ، وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلَهَا. وَكَانَ حَلْيُ الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ، فَتَرَكَهُ اللهُ عَلَىٰ حَالِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسْيَاناً، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَكَاناً، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ».

فقال له عمر: لولاك لافتضحنا! وترك الحلي بحاله[1].

وكثيرة هي القصص والأخبار التي تتحدث عن قضائه العادل، ومضاء رأيه، وحسن مشورته، وقوة فقهه. وبخاصة، في الأمور المستشكلة، وذات الإعضال الصعب. وإحياناً تبدو بعض الجرائر متشابهة ـ في الظاهر ـ لكن قضاء علي يُعاين ما هو أبعد من الظاهر، فيتحسّس الفوارق، ويبدي قضاءه، بالعدل الساطع.

رويَ عنه، أنه رُفِع إليه رجلان سرقا من مال الله، أحدهما عبد من مال الله، والآخر من عروض الناس (أي عبد لأحد الناس) فقال عليه السلام:

أما هذا فهو من مال الله ولا حدَّ عليه، مالُ الله أكل بعضه بعضاً، وأما الآخر فعليه الحدُّ الشديد...»[2].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٦٥، وسائل الشيعة ١٣:٢٥٥، صحيح البخاري ٣:٨١، سنن ابي داود ١:٣١٧، سنن ابن ماجة ٢:٢٩٦، سنن البيهقي ٥:١٥٩، فتوح البلدان: ٥٥، الرياض النضرة ٢:٢٠، فتح الباري ٣:٣٥٨، كنز العمال ٧:١٤٥.(المحقق)

٢ ـ كشف اللثام للفاضل الهندي ٢:٤٢٠، تهذيب الأحكام ١٠:١٢٥، مناقب ابن شهر اشوب ٢:٢٠٢، الكافي ٢:٣١٣.(المحقق)

وكان علي بن أبي طالب شديد التكريس للشروط التي يجب أن يُحيط بها القضاة ويلتزموا أقوى الالتزام...

وكانت تحذيراته عن سوء القضاء، وعنّ القضاء الكاذب، من الأمور التي تحظى باهتمام خاص. ذلك لأن الدول والأنظمة والقوى البيروقراطية الاحتكارية والدكتاتورية المقنّعة بأقنعة الوطنية، والمبدئية ليس لها قضاء عادل، بل هي ـ في ازدواجيتها ـ ذات قضاء مزدوج، خارجي، سطحي، شكلي، مظهري يأخذ من القانون اسمه، ومادته، ولكن بصورة تخريج يتستر ـ عبثاً! ـ على الظلم.

أما حقيقته الداخلية، فهي العسف، والإرهاب، وضياع القانون، وسيطرة الأحقاد السياسية، وكل الاجراءات الشريرة القاتلة والقاسية، والتي تؤذن ـ حتماً ـ بسقوطها، بما تخلقه بمواجهتها من نقمة وعداء. إن الاجراءات الشريرة، والانتقامية تستثير ضدها النقمة المتصاعدة التي لا يُستهان بها.

لذلك، ليس كل الحكام الذين يستعينون بعدالة القضاء هدفهم العدل في ذاته، بل لكونهم يمتلكون من التعقل، والوعي، ما ينفعهم في تجنّب الكوارث السياسية والاجتماعية، والشخصية. فالحاكم ،يتمنى أن يحمي نفسه، ويحمي حكمه. وقدر من الوعي الواقعي يوصله إلى إدراك مخاطر العسف والظلم البيّن.

كذلك، هناك حكام يسعون إلى العدالة بمستوى مداركهم، وأفكارهم. فثمة أفكار جزئية عن الإصلاح تدعو إلى احترام استقلال القضاء، وثمة أفكار طيبة تنشد ـ قدر ما تستطيع ـ تحسين الأحوال، لكنها مفتقرة إلى الرؤية المنهجية المتكاملة، أو إلى النظرية المرشدة، فتأتي نواياها على حال، ويجري الواقع على حال أخرى.

إن النظرية والتطبيق ينبغي أن يتلازما لإنجاح النوايا الطيبة. فالنوايا تحتاج إلى فكر حقيقي، متماسك مع فعالية حقيقية معبّرة عنه.

حذّر علي بن أبي طالب ـ إذن ـ من سوء استغلال القضاء وتشويهه، باسم القضاء والقضاة، وقال:

إِنَّ أَبْغَضَ ٱلْخَلَائِقِ إِلَى ٱللهِ تعالى رَجُلَانِ:

رَجُلٌ وَكَلَهُ ٱللهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ، وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ ٱفْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ ٱقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ[1].

إن هذا النوع: الجائر عن قصد السبيل هو النوع الشائع كثيراً من أولئك الذين نالوا (المسؤولية) لا عن جدارة، ولا عن نزاهة، لذلك فهم يحكمون عن هوى، وانحياز، محتكمين إلى مصالحهم، وأمزجتهم، وإلى الدوافع الشخصية، ومؤثرات العلاقات الجانبية.

أما الثاني: فيشخصه علي قائلاً:

وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً، مُوضِعٌ (أي مُسرع) فِي جُهَّالِ ٱلْأُمَّةِ، غَادِرٌ فِي أَغْبَاشِ ٱلْفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ ٱلْهُدْنَةِ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ، مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إِذَا ٱرْتَوَىٰ مِنْ مَاءٍ آجِنٍ (أي فاسد)، وَأَكْثَرَ مِن غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا ٱلْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَىٰ ٱلْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ ٱلشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ ٱلْعَنْكَبُوتِ: لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، إِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ.

جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهلات، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَات، لَمْ يَعَضَّ عَلَى ٱلعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ، يُذرِي الرِّوَايَاتِ إِذراءَ الرِّيحِ ٱلْهَشِيمَ، لَا مَلِيٌّ -وَٱللهِ- بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلَا هُوَ أَهْلٌ لِما فُوِّضَ إليه، لَا يَحْسَبُ ٱلعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، وَلَا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ منه مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ ٱكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ، وَتَعَجُّ مِنْهُ ٱلمَوَارِيثُ[2].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٥١، شرح نهج البلاغة ١:٢٣٨، الكافي ١:٥٥، وسائل الشيعة ٢٧:٣٩، الارشاد للمفيد ١:٢٣١، الاحتجاج ١:٣٩٠، كشف اليقين: ١٨٦.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٥٣ ـ ٥٤، الاحتجاج ١:٣٩٠ ـ ٣٩١، شرح نهج البلاغة ١:٢٨٣.(المحقق)

في هذا النوع الثاني صورة الرجل المغرور، الفارغ، الذي ينسب إلى نفسه المعرفة في كل شيء، وهو من ذلك لا يملك أي شيء.

إن الجاهل الذي يتولى مسؤولية القضاء أو ما هو مقارب لها من مسؤوليات سياسية، يشتد ضرره، لأن جهله يصبح قانوناً، ورأيه الشخصي يصبح قراراً لا يُناقش، فتتساقط الضحايا من جوره.

ويحذّر علي من هذا النوع قائلاً:

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّىٰ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حبالِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ ٱلْكِتَابَ (أي القرآن) عَلَىٰ آرَائِهِ، وَعَطَفَ ٱلْحَقَّ عَلَىٰ أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ مِنَ ٱلْعَظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ ٱلْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ، وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ ٱلْبِدَعَ، وَبَيْنَهَا ٱضْطَجَعَ...»[1].

ومن هذا النوع ـ أيضاً ـ أولئك الذين:

«ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَٱلْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي المُبْهماتِ عَلَىٰ آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيما يَرَىٰ بِعُرىً ثِقَاتٍ، وأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ»[2].

وهذا النمط، يعني به علي بن أبي طالب، أولئك الذين لا يعنيهم الحق، والواقع والبراهين، وأسباب العدل، فهم يقيسون الأمور بمقاساتهم الشخصية. فيكون لآرائهم وأمزجتهم المضطربة اضطراب كبير في القضاء، فيتحملون وزر أعمالهم، وما يحلقون بالأمة من سيئات وشرور.

فالمسؤلية السياسية والقضائية، مسؤولية أمام الرب، ومسؤولية أمام الشعب، ومسؤولية أمام الضمير، ولا بد أن تودع بيد أناس تقودهم خشية الله إلى الحق، ويقودهم

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٥٣، شرح ابن ابي الحديد ٦:٣٧٢، وينابيع المودة ٣:٤٣٢.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٥٦، الارشاد للمفيد ١:٢٩١.(المحقق)

الضمير إلى الصدق، أناس العدل رائدهم، ولا يفصلون في أمر إلاّ بعد إزاحة الهوى، والغرضيّة الشخصية، والعلاقات المصلحية، فيكون القضاء صافي الحكم لا لبس فيه، ولا غشّ ولا تدليس.

وكم حريٌّ بالقضاة أن يستوعبوا كلمات علي بن أبي طالب ليناضلوا ضد إجراءات البطش الاستثنائي، وضد أحكام الهوى والمزاجية، وضد الأساليب اللاقانونية، واللاأخلاقية، التي تلجأ إلى التزوير وفرض (الإفادات) الكاذبة، وجلب الشهود (والشهادات) بالإكراه للإيقاع بالضحايا، وتدمير العوائل من غير ذنب.

ويضع علي بن أبي طالب الرحمة إلى جوار الحق، مادام في الرحمة إنقاذ لإنسانية الإنسان، وحماية لأسرته، واستعادة لوعيه البشري الصحيح. فـ**«ٱلْفَقِيهُ كُلُّ ٱلْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ ٱللهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ ٱللهِ»**[1].

ذلك أن أصل النظريات ومنطقها والأفكار القضائية، هما المعالجة للوضع الإنساني الشاذ ـ أو المنحرف، لذلك تأخذ الإجراءات القضائية قيمتها من هذا المنحى. فهي إذ تهدف إلى حماية مصالح المجتمع، وأمنه، واستقراره من الأعمال الإجرامية، فإنها ـ من جهة ثانية ـ تسعى إلى إصلاح ذات الفرد الجاني.

فالعقوبات القضائية ليست إجراءات انتقامية، بل هي تأخذ للمجتمع حقه، وتختار أسلوباً عقابياً تربوياً بالنتيجة.

وخلافاً لذلك، فإن النزعة الانتقامية، العدوانية تقضي على آدمية الجاني، وبدلاً من أن تدفع به إلى مراجعة نفسه واستعادة إنسانيته فإنها ـ بالإجراءات اللاإنسانية خارج الإجراء القضائي – تثير نقمته، وتزيده تطرفاً، إضافةردود الفعل السيئة ـ التي تحركها تلك الاجراءات في ضمائر الشرفاء الذين يرون في القانون مجرد أداة للانتقام

---

١ ـ الرسائل العشر لابن فهد الحلي: ٤٢٢، نضد القواعد الفقهية للمقداد السيوري:٦، نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:٢٠، تحف العقول: ٢٠٤، شرح نهج البلاغة ١٨:٢٤٣، تفسير نور الثقلين ٢:٥٢.(المحقق)

والتدمير.

ولذلك أحيط العدل القضائي بأطر الرحمة، والعفو، والإحسان، كما يُدرك القضاة أن هدف القضاء ـ بالضرورة ـ هو حماية الإنسان – المجتمع، والإنسان الفرد، وفقاً لمنطق العدل والرحمة.

ورغم أن علياً بن أبي طالب كان الإنموذج الراقي في عدل القضاء، فقد كان ينظر نظرة ذات أفق شامل، أبعد من أفق القضاء العادل.

فالقضاء إذ يتصدى لحل المشكلات المعروضة أمامه، فإنه لا يتولى حلها حلاً جذرياً. فإذا يسرق السارق، أو يزني الزاني، فإن واجب القضاء العادل معاقبة السارق والزاني عقاب الشرع، لكن السرقة تظل باقية، فثمة سُرّاقٌ آخرون، ولصوص من شتى الأنواع.

لذلك، يربط علي ربطاً جدلياً بين القضاء العادل والعدل الاجتماعي الذي يتصدى للمشكلات على نحو جذري.

فالعدل الاجتماعي يُعالج مسألة الحقوق، والحريات، ومقومات الكرامة الإنسانية، من أساسها.

أما القضاء العادل، فهو يعالج الآثار السلبية الناجمة عن الخلل العام في الميزان الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي.

وبهذه الرؤية، يؤدي القضاء دوراً مهماً، لكنه لا يرقى إلى مستوى عملية التغيير الجذري العادل.

وتؤكد أفكار علي بن أبي طالب على القيمة الأساسية لعلاقة عدل القضاء، بقضاء العدل، أي القضاء المنطلق من العدل الاجتماعي، ومن الثروة الاجتماعية، وبدون هذه العلاقة يكون القضاء العادل مثله مثل آلة قطع الأعشاب الفاسدة، تقطع ما تستطيع قطعه، من الظاهر، لكن الجذور تدفع ـ من تحت إلى الخارج ـ المزيد من الأعشاب الفاسدة.

كان علي بن أبي طالب يخطط لقضاء عادل، في مجتمع إسلامي يحكمه العدل،

ليست فيه قوى متناحرة، في المراكز، وفي الأموال، وفي المصالح، يقف بينها القضاء، يدفع أحداً عن أحد، كأنه يحجز فيما بين المتصارعين، فالحل الأمثل للظواهر الفاسدة، هو الحل الجذري، وليس الحل الجزئي. وهذا هو مجمل أفكار علي عن العدل، والقضاء العادل.

الصفحة الأخيرة في سجلّ العدل الخالد

ونعني بها آخر ممارسة عادلة لعلي بن أبي طالب بعد تعرّضه للاغتيال من قبل ابن ملجم، بالكوفة في رمضان سنة أربعين.

وكان ابن مُلجَم قد اجتمع بصاحبيه البُرَك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي، وقرر الثلاثة قتل علي بن أبي طالب ،ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص. «**فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينقص رجل عن صاحبه الذي توّجه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم، فسمّوها، واتّعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجّه إليه، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب**».

فإما ابن مُلجَم المرادي فكان عداده في كنده، فخرج فلقي أصحابه بالكوفة، وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره.

فإنه رأى ذات يوم أصحاباً من تَيم الرَّباب ـ وكان علي قتل منهم يوم النهر عشرة ـ فذكروا قتلاهم، ولقي من يومه ذلك امرأة من تيم الرَّباب يقال لها: قَطام ابنة الشجنة ـ وقد قتل أباها وأخاها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال ـ فلما رآها التبستْ بعقله، ونسي حاجته التي جاء لها، ثم خطبها، فقالت: لا أتزوجك حتى تشفي لي.

قال: وما يشفيك؟

قالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب.

قال: هو مهرٌ لك، فأما قتل علي فلا أراكِ ذكرتِه لي وأنت تريدينني.

قالت: بلى، التمس غرَّته، فإن أصبت شفيتَ نفسك ونفسي، ويُهنِئكَ العيش معي، وإن

قُتلتَ، فما عند الله خير من الدنيا، وزينتها وزينة أهلها.

قال: فوالله ما جاء بي إلى هذا المِصر إلاّ قتل علي، فلكِ ما سألتِ.

قالت: إني أطلب لك ما يُسند ظهرك، ويساعدك على أمرك، فبعثت رجل من قومها، من تيم الرباب يقال له وَردان فكلمته فأجابها، وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بَجرة، فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟

قال: وما ذاك؟

قال: قتل علي بن أبي طالب.

قال: ثكلتك أمك؟ لقد جئتَ شيئاً إدّاً، كيف تقدر على علي!

قال: أكمنُ له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغداة شَدَدنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا، وأدركنا ثأرنا، وإن قُتِلنا فما عند الله خيرٌ من الدنيا وما فيها.

قال: ويحك! لو كان غير علي لكان أهون علي، قد عرفتَ بلاءهَ في الإسلام، وسابقته مع النبي ﷺ وما أجدني أنشرح لقتله.

قال: أما تعلم أنه قتل أهل النهر العُبّاد الصالحين!

قال: بلى.

قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا.

فجاؤا قَطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة، فقالوا لها: قد أجمع رأينا على قتل علي.

قالت: فإذا أردتم ذلك فأتوني.

ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قُتل في صبيحتها، علي سنة أربعين، فقال: هذه الليلة التي واعدتُ فيها صاحبي أن يقتل كل منا صاحبه. فدعت لهم بالحرير فعصَبتهم به، وأخذوا أسيافهم، وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف، فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق، وضربه ابن ملجم في قرنه

بالسيف»[١].

وكان ابن ملجم قد استغل رفض علي بن أبي طالب للحراسة، وعبادته، وزهده، فكانت ضرباته الغادرة قد تهيأ لها تحقيق الهدف الشيطاني.

وكان موقف علي بن أبي طالب واضحاً، كشأنه في جميع مواقفه العادلة:

«النفس بالنفس، إن أنا مِتُّ فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيتُ رأيتُ فيه رأيي»![٢].

ونهى ابنه (الحسن) عن المُثلة، وقال:

يا بني عبد المطلب، لا أُلفينكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون: قُتِلَ أمير المؤمنين! ألا لا يُقتلنَّ إلا قاتلي. انظر يا حسن ،إن أنا متّ من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ـ ولا تمثّل بالرجل، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إياكم والمُثلة، ولو أنها بالكلب العقور[٣].

---

١ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس. (المؤلف)، تاريخ الطبري ٤: ١١٠.(المحقق)

٢ ـ المبسوط للطوسي ٧: ٢٦٨، منتهى المطلب العلامة الحلي: ٩٨٤، جواهر الكلام ٢١: ٣٣٢.(المحقق)

٣ ـ تاريخ الطبري ٤: ١١٤، شرح نهج البلاغة ١٧: ٦، ذخائر العقبى: ١١٦، وسائل الشيعة ١٩: ٩٦، روضة الواعظين: ١٣٧، نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٧٧، شرح اصول الكافي ٦: ١٥٠، وتاريخ ابن خلدون ق٢، ٢: ١٨٥ ويقول ابو الفرج الاصفهاني (٣٥٦ هـ)، عن أبي مخنف عن أبيه عن عبد الله الازدي: أدخل ابن ملجم لعنه الله ـ على علي، ودخلت عليه فيمن دخل، فسمعت علياً يقول: النفس بالنفس إن أنا مُتّ فاقتلوه كما قتلني، وإن سلمت رأيت فيه رأي، فقال ابن ملجم ـ لعنه الله ـ والله لقد ابتعته بألف، وسممته بألف، فإن خانني فأبعده الله، قال: ونادته أم كلثوم ـ بنت علي عليه السلام ـ يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين، قال: إنما قتلت أباك، قالت: يا عدو الله، اني لأرجو ان لا يكون عليه بأس، قال لها: فأراك انما تبكين علياً، إذاً والله لقد ضربته ضربة لو قسمت بين أهل الارض لأهلكتهم.

نقول: وعلى الرغم من أمويّة الاصفهاني إلاّ أنه في مقاتله للطالبيين، يُعدّ من أهم المصادر التأريخية المعتبرة، ولربما نجد فيه علويته من حُبٍّ وعشق لهم، وبغض وكره لأعدائهم، فهو ممن ينقل الواقعة التأريخية بكل صدقٍ وأمانة وهذا ما أتفق عليه معظم المؤرخين، ولا غرابة ان نجد في روايته هذه، صلابة أبن ملجم في حواره مع أم كلثوم!! فهو من طبقة الخوارج الأولى الذين

⇐

ودعا الحسن والحسين فقال لهما:

«أوصيكما بتقوى الله، وألاّ تبغيا الدنيا وإن بَغتكُما، ولا تبكيا على شيء زُوِيَ عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، واغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في الكتاب. ولا تأخذكما في الله لومة لائم. ثم نظر إلى محمد بن الحنفية، فقال: هل حفظت ما أوصيتُ به أخويك؟ قال: نعم، قال: فإني أوصيك بمثله: وأُوصيك بتوقير أخويك، لعظيم حقِّهما عليك. فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما. ثم قال: أوصيكما به، فإنه شقيقكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبُه، وقال للحسن: أوصيك أي بُني بتقوى الله، وإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فإنه لا صلاة إلاّ بطهور، ولا تُقبل صلاة من مانع زكاة، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ وصلة الرحم، والحلم عند الجهل، والتفقّه في الدين، والتثبّت في الأمر، والتعاهُد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش»[١].

فلما حضرته الوفاة كانت وصيته:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب، أوصى أن يشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له بذلك أُمِرت وأنا من المسلمين، ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم ولا تموتُنْ إلاّ

مارسوا الارهاب بشتى انواعه، مع ما سجلوا من انحرافات فكرية حادة ومتقاطعة مع منهج علي عليه السلام، وفي كل الأحوال فهم ممن أسسوا الإرهاب ضمن الدائرة الإسلامية، فيما لو بحثنا عن الجذور الأولى للإرهاب الذي يمارس بأسم الإسلام.(المحقق)

١ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الجزء الخامس. (المؤلف)، تاريخ الطبري ٤:١١٣، روضة الواعظين ـ عن الإمام الباقر عليه السلام: ١٣٦. (المحقق)

وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا فإني سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وآله يقول: «إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»! إنظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهوّن الله عليكم الحساب.

الله الله في الإيتام، فلا تُعنوا أفواههم، ولا يضيعُنَّ بحضرتكم. والله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم صلى الله عليه وآله، مازال يوصل به حتى ظننا أنه سيورِّثه. والله الله في القرآن، فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم. والله الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم. والله الله في بيت ربكم فلا تُخلّوه ما بقيتم، فإنه إن تُرِك لم يناظر. والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. والله الله في الزكاة، فإنها تُطفيء غضب الرب. والله الله في ذمّة نبيّكم، فلا يُظلمَنّ بين أظهركم، والله الله في أصحاب نبيكم، فإن رسول الله أوصى بهم. والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، والله الله فيما ملكت أيمانكم. الصلاة الصلاة لا تخافُنَّ في الله لومة لائم، يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم. وقولوا للناس حُسناً كما أمركما الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي الأمر شِراركم، ثم تَدعون فلا يُستجاب لكم. وعليكم بالتواصل والتباذُل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرّق. وتعاونوا على البِرّ والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب. حفظكم الله من أهلِ بيت، وحفظ فيكم نبيكم، استودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله»[1].

---

١ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)، وأنظر تاريخ الطبري ٤: ١١٣، البداية والنهاية ٧: ٣٦٣، مناقب الخوارزمي: ٣٨٥، نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٧٧، الكافي ٧: ٥١، من لا يحضره الفقيه للصدوق ٤: ١٩٠، تحف العقول: ١٩٨، تهذيب الاحكام ٩: ١٧٧، روضة الواعظين: ١٣٦، مقاتل الطالبيين: ٢٤. (المحقق)

الفصل العاشر

▣ علي بن أبي طالب عليه السلام

مدرسة التاريخ التربوية

في القراءة المدقّقة، وغير المدقّقة، لسيرة علي بن أبي طالب، تتجلى صورته إماماً منذوراً لرسالته الإسلامية التي تلقّاها عن النبي الكريم.

فلم يكن حضوره في السلطة ـ خليفة ـ يُمارس دوره الرئاسي المسؤول، بل هو ـ قبل السلطة وأثناءها ـ صاحب الرسالة التربوية الكبرى، وهي الرسالة الموجّهة نحو البشرية كافة.

لقد كان المربي الكبير الذي يباشر مهماته مع الجماعة، والأفراد، مع القبائل والشعوب، مع نفسه وأسرته. لأنه، وهو يُربي الآخرين، كان يتعهد نفسه بالمراقبة، والمحاسبة، على طريق الحق والعدل. وإن القارىء ـ (والمتابع) ـ ليلمس (وهو يدرس سيرة علي بن أبي طالب) مظاهر شخصية عظيمة نادرة، في المسجد، وفي ساحات الوغى، وفي ندوات الحوار، وفي البيت، في الفكر وفي العمل، وفي التربية، شخصية مجيدة، تشكّل مفخرة للعرب أمام الإنسانية، وبالتالي مفخرة الإسلام والمسلمين جميعاً.

لقد ابتدأ شعلة، ومات شعلة، وظل في الذاكرة التأريخية شعلة أبدية الاشتعال، والتوهّج، والإنارة. وقد أشار إلى ذلك (العقاد) وهو في صميم الصواب ذاكراً لقب الإمام الذي خُصَّ به (علي)، و **«والذي يطلق إذا أطلق فلا ينصرف إلى أحد غيره، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه».**

«وذاك هو علي بن أبي طالب كما لقّبه الناس وجرى لقبه على الألسنة، فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات بغير حاجة إلى تسمية أوتعريف».

«وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي ولا يُجاريه فيها إمام غيره، وهي

اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام. فهو مدشّن هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه. وندرت فرقة في الإسلام لم يكن علي معلماً لها منذ نشأتها، أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها، تقول فيه وتردّ على قائليه، وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة، وعلماء الأدب والبلاغة فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول»[1].

ولم يجانب جورج جرداق الصواب حينما يذكر:

«الإمام علي بن أبي طالب عظيم العظماء، نسخة مفردة لم ترَ لها الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل لا قديماً ولا حديثاً»[2].

إن نشأته في حضن النبي صلى الله عليه وآله، وفي أجواء الوحي، وتشرّبه من ثقافة القرآن، وتتلمذه التام على يد رسول الله صلى الله عليه وآله، عوامل حاسمة في تكوين شخصيته المتماسكة، التي لم يدخل عليها طاريء قديم أو جديد، من خارج الإسلام.

وهو، في جهاده الثابت، كان صورة ناطقة للحق الذي لم يعرف غيره، فجعل معرفته له كفاحاً مريراً من أجل إحقاقه، وتربية الناس باتجاه الإقرار به وإقراره.

وما كان ممكناً أن يكون علي بن أبي طالب مدرسة التأريخ في التربية، لو لا أنه كان المربي القدوة، الذي شمل الناس بالحكمة الفاعلة. وهي الحكمة التي تختلف عن الحكمة السائرة، التي عبّر عنها وعاش لها حكماء كبار مثل كونفوشيوس وسواه.

ذلك لأن علياً بن أبي طالب كان في خياره الوحيد حكيماً، قائداً، مكافحاً، حمل لواء النضال ضد الظلم، ومن أجل سيادة العدل، فقرن الحكمة بالتطبيق، والرأي بالفاعلية، لم يخدعه سلطان، ولم تسحبه الحكمة السلبية إلى أجوائها.

إنه العالم، والأديب، والفقيه، والمشرّع، والقائد، والباحث، والمجاهد، والقاضي، والزاهد، والمقاتل، ورجل السلم، الأنموذج في كل شيء، والمتّحد الصفات القولية

---

١ ـ عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام علي.(المؤلف)

٢ ـ جورج جرداق: الإمام علي صوت العداله الإنسانية.(المؤلف)

والفعلية في كل شيء.

لقد اهتدت روحه بالآية العظيمة: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[١] فلم تبقَ ثغرة في نفسه تفصل القول عن العمل، والعمل عن القول.

يقول جورج جرداق عن تماسك شخصية علي بن أبي طالب:

«وهذا التماسك في شخصية علي بن أبي طالب واضح ساطع حيث مشيت في دروب نهجه وأنّى اتجهت. فإذا الفكرة الأساس التي يبني عليها عهده لهذا الوالي هي الفكرة الأساس التي يبني عليها عهده لكل والٍ لا تناقض بين عهدين منهما ولا تضارب، لا في الجذور العامة، ولا في الفروع النامية عليها. ثم إنها هي نفس الفكرة الأساس التي بنى عليها خطبته وقوله أمس قبل أن يستخلفه الثائرون، والتي يبني عليها خطبته، وقول اليوم وقد استخلف، والتي سيبني عليها خطبته غداً في حالة السلم، وبعد غد في يوم الجمل وقد أصبح القتال قاعدة مناوئة؛ وفي الغد الأبعد في أيام صفّين وقد تألّب عليه أهل الوجاهات وأهل الغباء، وبعد ذلك في النهروان وبعد النهروان في ساعة مقتله»[٢].

و«هذا التماسك في شخصية ابن أبي طالب واضح ساطع كذلك في الفكرة الأساس التي يتوجه بها إلى الصديق والعدو معاً، وإلى القريب والبعيد، والمحازب والمحارب، لا قرب يدفعه في طريق التبديل والتغيير في هذه الفكرة، ولا مودة ولا محازبة، ولا بُعد يميل به عن هذه الفكرة ولا عداء ولا خصومة.

فالأساس الذي ينزع عنه بآرائه وتعاليمه واحد لا يجوز عليه رضاً أو غضب، ولا يزحزحه سلم أو قتال، ولا يبدّل وجهه وعدٌ أو وعيد»[٣].

ويلتقط جرداق صوت الطبيعة الأول في شخصية علي، والذي لم يكن هناك سواه، فهو بدء الشخصية ومنتهاها، فيقول:

---

١ ـ سورة الصف، الآية ٣.(المحقق)

٢ ـ جورج جرداق: الإمام علي صوت العداله الإنسانية.(المؤلف)

٣ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

«وهذا التماسك في شخصية ابن أبي طالب واضح ساطع في التمازج المطلق بين تعاليمه وعهوده وخطبه ووصاياه، وبين مسلكه مع نفسه ومع الناس، وأزيد على ذلك فأقول: إن ابن أبي طالب لم يكن ينفّذ تعاليمه وأوامره بنفسه ليكون قدوة لغيره شأن الكثيرين من أصحاب التعاليم والأوامر، بل كان أسلوبه في ذلك أبسط وأعمق وأجل شأناً. كان يحيا فكرته بقلبه ودمه قبل أن تُصبح فكرة مصوغة بألفاظ وتعابير، فإذا هي تنبثق انبثاقاً طبيعياً صافياً لا يد فيه للصنعة ولا عمل فيه لحمل النفس على ما لا تطيق»[1].

إن فكرة الحق شغلته – كلية ـ عن سواها. وقد اختلف عن سواه من المفكرين والمصلحين، بأنه كان فيلسوف الحق بلا منازع، والذي أعطى لفكرة الحق زخمها النضالي، الواقعي، سلاحاً بيد الناس، وليس أملاً مجرداً.

كان يُريد أن تكون فكرة الحق الغاية والوسيلة، لإنشاء عالم أرضي سعيد للناس، هو مدخلهم إلى الفردوس الإلهي.

بهذا التوجه كان علي فيلسوف الحق الذي نبذ ـ منذ البدء ـ الطرح النظري الصرف عن (الحق)، والذي ليس له سنده المادي والواقعي.

وتقوم مدرسة علي بن أبي طالب التربوية، على وحدة مفاهيمه عن (الحق والعدل والحرية)، وتطبيق تلك الوحدة في نشاطه الغني والمتنوع على خطوط السياسة، والثقافة، والحرب، والقضاء كافةً، الخ. لقد كان الحق قضيّته الجوهرية، فنال الخلود من قبل البشرية الواعية، لأنها ترى في الحق قضيتها الأساسية، التأريخية، وأملها الموعود الذي تناضل من أجل أن يتحقق.

وإذا أعطى علي بن أبي طالب نفسه للحق، فإن أية بقية في حياة خارج إطار ذلك الانتماء الجبار، لا وجود لها. فحياته والحق متطابقان، متلازمان مصيرياً، ولقد قال:

«والله إني لأعترف بالحق قبل أن أشهد عليه»[2]. **فَوَٱللَّهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَى ٱلْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ**

---

١ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

(٢) يتضح من نهج البلاغة أن هذا القول هو للمؤلف مأخوذاً من قول علي عليه السلام في وصف المتّقين

ٱلْمَوْتُ إِلَيَّ»[١].

والناس ـ لديه ـ سواء في الحق، كما قال:

«وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً»[٢].

«الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّىٰ آخُذَ ٱلْحَقَّ لَهُ، وَٱلْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّىٰ آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُ»[٣].

وفي تصميمه المنهجي الثابت في الدفاع عن الحق، كان يعمل على تكريس العدل ـ في جميع الظروف والأحوال، وكان شعاره: **«لأنصفن المظلوم من ظالمه»**[٤].

لقد كانت أفكاره معركة دائبه لتربية الناس تربيه عادلة، لكنها لم تكن معركة السفسطات، والحوارات المرفهة، فقد كان قائد قضية متكاملة الفهم، والمفاهيم. وكان من فهمه أن الحق والعدل والخير هي أسماء مجردة، وتعابير ومصطلحات جذّابة، لا قيمة لها إذا لم تُقرن بالتطبيق ،فيكون لها وجودها الواقعي الملموس الذي يحتضنه البشر. وكان يرى أن الطريق إلى الحق لا بد أن يبتدىء بقهر الفقر، فهو العدو الأكبر الذي شهر النبي محمدﷺ سلاح الحرب ضده، إذ أعلن التشخيص العظيم: **«كاد الفقر أن يكون كفراً»**[٥]، ولقد قاتل الرسول الكفر. فكانت رسالة علي امتداداً للنهج المحمدي. وصرّح: **«لو تمثّل لي الفقر رجلاً لقتلته»**.

لقد اكتشف استحالة إحقاق الحق بدون معالجة جذرية، للفقر والمشكلات المعقدة الناجمة عنه، فالفقر هو العدو الأول لوحدة إنسانية الإنسان فرداًكان أو مجتمعاً.

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، المصدر ٢: ١٦٤.

(١) نهج البلاغة ١: ١٠٤ (المحقق). (٢) نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٧٩.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ٨٩.(المحقق)

٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ١٩، شرح نهج البلاغة ٩: ٣١.(المحقق)

٥ ـ الكافي ٢: ٣٠٧، الخصال للصدوق: ١٢ في كتابه الأمالي: ٣٧١، والمستدرك ٣: ١٠٥، عوالي اللئالي للاحسائي (٨٨٠ هـ) ٢: ٧١، كنز العمال: ٦(الفقر الاضطراري)، حديث ١٦٦٨٢، مسند الشهاب لابن سلامة (٤٥٤ هـ) ١: ٣٤٢، وربما لا يخلو مصدر من هذا الحديث والتي تتمته: (..... وكاد الحسد أن يسبق القدر). (المحقق)

وأثبتت الأحداث والوقائع المشهودة صحة رأيه. فحين كان المسلمون سواسية في مجتمعهم ودولتهم، كانت قوة المسلمين مضرب الأمثال، وتراجع أمام المد الإسلامي النفوذان الرومي والفارسي. وما إن أصبح التفاوت الطبقي كبيراً بين الأوساط الاجتماعية، وأخذ بُعده العدائي، حتى فتحت الأزمة الداخلية شدقيها لتبتلع الكثير من الإيجابيات.

وأدرك علي بن أبي طالب بنظره الثاقب، وبدراسته للواقع العياني، استحالة توفر الحرية بدون القضاء على الفقر، واضعاً بذلك صرح نظرية البناء الإنساني الحر على قاعدته الاقتصادية، قبل أن تتوصل أوروبا الاشتراكية والديمقراطية إلى ذلك بعدة قرون.

ومع أن علياً بن أبي طالب كان شديداً في تصميماته العادلة ضد الظلم والظالمين، فقد كان يفتح أبواب الحدّية أمام (الحرية). فالحرية هي الشرط الأول لإنسانية الإنسان، ولوجوده الاجتماعي الحي. وكذلك هي الشرط الأول لكل إبداع، ولكل فعالية إنسانية صادقة، وجادة، ومغيّرة.

حقاً لا يتوصل إلى إدراك قيمة الحرية ومغزاها وضرورتها النهائية إلاّ الفكر الأصيل، القادر على التحرر من الانطباعات الفكرية التي تخلقها القيود المادية الثقيلة. فالإنسا في كثير من الأحوال ينسج أفكاره من وحي شروط حياته الشخصية والاجتماعية، ومن وحي المؤثرات المورثة، والتي لا تتناقض مع الشروط السائدة.

وبالفكر ـ فقط ـ وبالممارسة التي تدعم الفكر الحر، يمكن التمرد على القيود المادية، والانطلاق بأفكار حرة نحو مخططات جديدة للحياة.

إن عبودية الإنسان القديمة تجعل الصراع بين الأفكار الحرة والواقع السائد وكأنه صراع بين القلّة والكثرة.

وغالباً ما تغتال العبودية الصبوات الجديدة للحرية، لأن أذرعة الواقع المادي والشهوي، قويّة التأثير. وإن سلطانها ليمتد ويصل إلى الأحرار أنفسهم عندما يتسلمون

السلطة، فتكون مجابهة ضغط السلطة من داخل السلطة الشرط الوحيد لدفاع الأحرار عن حريتهم.

كانت مفاهيم علي بن أبي طالب عن الحرية أصيلة، ومرتكزة على فطرة حرة، وطباع حرة، في سياق حرص مبدئي على حرية المجتمع وأسباب تطوره، بمعنى أنه لم يعزل الحرية الفردية عن الحرية العامة، في مجرى قيادته لشؤون المجتمع الإسلامي. فكانت رؤيته الأيدلوجية والسياسية، المستندة على مبادىء الحق والعدل، ومجابهة الظلم، ومقاومة الفقر، ترتوي من مفاهيمه الأصلية عن الحرية.

فالحرية تلج في كل شيء ـ من وجهة نظره ـ لأنها الدليل الوحيد على وجود الفكر. فكانت صرخته: «**وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً**»[1] صرخة الحرية في كل مكان، ونداء التأريخ إلى الإنسان.

إن مفهوم الحرية ـ هنا ـ أوسع وأعم:

«نستدل على ذلك بنص صريح له أولاً، ثم بما نستنبطه من دستوره العام الذي نرى منه وجوهاً في معظم أقواله وعهوده ووصاياه... يقول علي نصاً: «**وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً**: فانظر كيف توجّه علي بقوله إلى من يريده أن يثق بنفسه ويستشعر روح

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٥١.

وربما اختصر المؤلف ﷺ من مساحة الخطبة على صرخة الحرية التي أطلقها علي عليه السلام على ان تكون الكرامة من الاساسيات والحيثيات المهمة عند الانسان، فهو عليه السلام يقول: «وأكرم نفسك عوضاً ،ولاتكن عبد غيرك وقد جعلك الله حُرّاً، وما خير لاينال إلا بشر، ويسر لا ينال إلا بعسر»، ثم لاحظ الدور التربوي في صون الكرامة، وهو يقول محذراً: «وإياك ان تجف بك مطايا الطمع، فتوردك مناهل الهلكة، وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، فإنك مدرك قسمك وآخذ سهمك، وان اليسير من الله سبحانه أعظم وأكرم من الكثير من خلقه وإن كان كُلٌّ منه، وتلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك» لاحظ ما يقوله عليه السلام: «وحفظ ما في يديك أحب إلى من طلب ما في يد غيرك، ومرارة اليأس خير من الطلب» فأي منهج هذا؟! وأيّ مدرسةٍ؟! انّه قاموس قيم الحياة.

فالله درك يا ابن ابي طالب من معلمٍ ومربٍّ وحكيم.(المحقق)

الحرية ومعناها، فألقى في نفسه ما يوقظه على أصل من أصول وجوده، وهو أن طبيعة الكون جعلته حراً لا يتمرد ولا يُطيع ولا يعمل ولا يقول إلاّ على أساس من هذا الحق الطبيعي، وهو بذلك إنما يلقي في نفسه بذور الثورة على كل ما من شأنه أن يضيّق عليه ويسلبه حقه في أن يكون حراً»[١]...

وكان يرفض الإكراه رغم قدرته على أداء حقه كسلطة.

وربما فات كثيراً من الدارسين أن من أهم عوامل المحنة التي مرّت بها خلافة علي بن أبي طالب، تمسكه المبدئي الصارم بالحرية. ورفضه الحاسم للإكراه من أي نوع. فقد رفض إكراه أحد على بيعته، فقال عن الذين بايعوه:

«ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين»[٢].

وقال عن طلحة والزبير: **«فبايعاني على هذا الأمر، ولو أبيا لم أُكرههما كما لم أُكره غيرهما»**.

وقال مخاطباً المغيرة بن شعبة:

«وقد أذنتُ لك أن تكون من أمرك على ما بدا لك»[٣].

ولقد فعل مثل ذلك مع الذين خاصموه،أو تهددوه[٤].

---

١ ـ جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية.(المؤلف)

٢ ـ انظر رسائل المرتضى ٢:٢٤١، الكافي ١:١٥٥، روضة الواعظين: ٤٠، الفصول المختارة للمفيد: ٧١، الامالي للمرتضى ١:١٠٤، الاحتجاج ١:٣٠، الطرائف: ٣٢٦، شرح نهج البلاغة ١٨:٢٢٧، فهرست منتخب الدين لابن بابويه (٥٨٥ هـ): ٢٤٢.(المحقق)

٣ ـ الامامة والسياسة ١:٩٦ تحقيق الشيري / ١:٥٠ تحقيق الزيني.(المحقق)

٤ ـ ينقل ابن ابي الحديد عن أبي الفرج: ان الاشعث دخل على علي عليه السلام فكلمه فأغلظ علي له، فعرض له الاشعث، أنه سيفتك به! فقال له علي: أبالموت تخوفني او تهددني! فو الله ما أبالي وقعتُ على الموت أو وقع الموت عليَّ! شرح نهج البلاغة ٦:١١٧ وبقى علي عليه السلام يواصله، إلا ان الاشعث أمتاز بخبث ومكر، حتى أنه قد أشترك في قتل علي، بعد ان سمعه حجر بن عدي، وهو يقول لابن ملجم: النجاء، النجاء لحاجتك فقد فضحك الصبح، فقال له حجر: قتلته يا أعور. انظر مقاتل الطالبيين للاصفهاني: ٢٠.(المحقق)

«من ذلك أيضاً أن حبيباً بن مسلم الفهري جاءه مرة يقول: **اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم**. فقال علي: **وما أنت وهذا الأمر؟ اسكت فإنك هناك ولا بأهلٍ له.**

فقام حبيب وقال: **والله لترينّي بحيث تكره!**»[1].

وليس بخاف على القارىء ما في هذا القول من التهديد الصريح يتوجه به أحدهم إلى علي بن أبي طالب والزمان والناس حربٌ عليه، ولكن ما كان من أمر علي؟ هل أمر به وفي يده أن يأمر وقد أطلق في وجهه مثل هذا التهديد؟ أم هل سجنه فمنع عليه أن يكون حراً في عدائه وتأليب قومه عليه؟ إنه لم يفعل شيئاً من هذا. بل نظر إلى صاحب التهديد وقال بلهجة الواثق من عدالته، المعترف بحق الآخرين في أن يقولوا ويفعلوا:

«ما أنت ولو أجلبتَ بخيلك ورجلك! لا أبقى عليك إن أبقيت عليَّ! فصوّب وصعّد ما بدا لك!»[2].

نضيف إلى ذلك شواهد أخرى تدل على مقدار ما كان يترك من الحرية الواسعة السمحة لأصحابه وأعدائه على السواء. من هذه الشواهد أن نفراً كانوا يرحلون من الحجاز والعراق ويأتون الشام ليلحقوا بمعاوية، فما كان علي ليصدّهم أو يعرض لهم، وما كان يُحاول استبقاءهم أو إغراءهم. فهم في مذهبه أحرار يعملون عن مدى تصورّهم ويسلكون سبيلهم إلى ما يريدون. يقول علي:

«الله إني دللتهم على طريق الرحمة وحرصتُ على توفيقهم بالتنبيه والتذكرة، ليثيب راجعٌ ويتعظ مُتذكر، فلم يُطَع لي قول. اللهم إني أعيد عليهم القول...»[3].

و«**شاهد آخر على معرفة علي حق الناس في الحرية الواسعة أسلوبه في معاملة الخوارج. فقد كان يُحسن معاملة من أقام منهم معه. ويعرف أن أحدهم يهم بالخروج فلا يستكرهه ولا**

١ ـ تاريخ الطبري ٤: ٤٠، الاخبار الطوال: ١٧١، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٨٤، تاريخ ابن خلدون ق ٢: ١٧١.(المحقق)

٢ ـ وقعة صفين: ٢٠٠، شرح نهج البلاغة ٤: ٢٣. (المحقق)

٣ ـ المسترشد: ٤٠٠.(المحقق)

يستبقيه، ولا يرضى بأن يتعرض له من أصحابه أحد. ثم إنه كان يعطيهم نصيبهم من الفيء أسوة بسائر الناس. ويفسح لهم في المجال لأن يتوجهوا حيث يشاؤون ـ فالحرية أساس في المعاملة. والناس أحرار في ما يرون من عمل وقول، وموالاة ومعاداة، إلاّ أن يعتدوا على الناس ويُفسدوا في الأرض فإنهم حينذاك غير أحرار، وإنه حينذاك مقيم ما لزِمَهم من الحدود في غير لين»[1].

وقد أخبره أحدهم مرة، واسمه الخرّيت بن راشد، بأنه لم يأتمَّ به ولن يشهد معه الصلاة ولن يأتمر بما يأمر ولن يكون له عليه سلطان، فما كان من علي إلاّ أن أقرّه على ما ارتأى وأراد وخلاّه حُراً في ما شاء. ثم كانت أيام خرج الخرّيت بن راشد بعدها ومعه أصحاب له كثير، فما استكرههم، علي على البقاء معه ولا منعهم من الخروج، وبيده أن يستكره وأن يمنع..»[2].

قد تبدو هذه القصة وسواها ـ في نظر البعض ـ دليلاً على نقص الخبرة السياسية وضعفاً في المقدرة العملية، ولكن حقيقة الأمر أن علياً بن أبي طالب لم يجعل الجانب العملي، والنجاح السياسي، فوق الاعتبارات المبدئية التي تقف (الحرية) في مقدمتها. فما كان يهمه النجاح بأناس مُستكرهين، أو قاصري التفكير، غير واثقين من صحة أفكارهم.

إن نجاحاً هذا شأنه هو نجاح مرحلي، موقت سرعان ما يتحول إلى إخفاق، وإن أناساً هذا شأنهم سرعان ما يرتدّون، راجعين إلى حقيقتهم الأصلية. فكانت أفكار علي

---

١ ـ جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية.(المؤلف)

٢ ـ يقول محمد عبده في شرحه: كان الخريت بن راشد الناجي أحد بني ناجية مع أمير المؤمنين في صفين ثم نقض عهده بعد صفين ونقم عليه في التحكيم وخرج يفسد الناس ويدعوهم للخلاف، فبعث إليه أمير المؤمنين كتيبة مع معقل بن قيس الرياحي لقتاله هو ومن انضم إليه فأدركته الكتيبة بسيف البحر بفارس، وبعد عودته إلى التوبة وإبائه قبولها شدت عليه فقتل وقتل معه كثير من قومه وسبي من أدرك في رحالهم من الرجال والنساء والصبيان فكانوا خمسمائة أسير... انظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٩٥.(المحقق)

تتجاوز كل ما هو مصلحيّ، وما هو موقت، إلى ما هو أبدي، وتأريخي، وثابت.

وكان يُربي الناس في ميدان التربية الحقيقي، في أن يكونوا بما هُم عليه، وليس بغير ذلك. فكان تأريخه الشخصي تأريخ حرية فرد، وكان تأريخه معهم تأريخ قائد يريد منهم أن يكونوا أحراراً ويظلوا أحراراً، حتى يُقبلوا إلى حساب الرب، مُتتلمذين ومتربين على الحرية في الحياة التي عاشوها.

وثمة فارق نوعي كبير وبارز بين أشياع علي بن أبي طالب، وأشياع معاوية بن أبي سفيان، يجعل لتطبيق الحرية دلالة خاصة.

كان معاوية يذكر عن أتباعه بأنهم لا يفرقون بين الناقة والجمل، فقال لكوفي: «**أبلغ علياً أني أقابله بمئة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل**»[١]، فكان يشير في ذلك إلى أتباع عبيد، منفّذين، لا يناقشون، ولا يحتجون.

في حين كان من أتباع علي بن أبي طالب

«جمهرة القراء والحُفّاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة، وهم خلق كثير يُعدّون بالألوف ويتفرقون في الحواضر والبوادي، ولا يزالون كأنبياء بني إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين، منكرين لكل خلاف ولو في إقامة أحكام الدين. لا يرضون عن الدنيا ولا عمّن رضي بها من طلابها، ولا يستمعون إلى أمر إلاّ إن يكون في رأيهم وفاقاً لحكم القرآن كما يفسرون وحكم السنّة كما يعتقدونها. وطالما وقفوا بين علي وبين القتال لأنهم لا يستجيرونه، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجلّون القرآن عن قبوله. فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة، فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلاّ ما أجازوه واستوجبوه لأنهم خرجوا في الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر، فلا يجمعون على طاعة ولا يُحاربون أو يسالمون في جماعة..»[٢].

---

١ ـ مروج الذهب ٢: ٧٢. (المحقق)

٢ ـ عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام علي. (المؤلف)، ومنهم طلحة والزبير، وقد أودى طمعهم

ويضيف (العقاد) إلى ذلك استغلال مبدئية علي بن أبي طالب في تجسيده للحرية ودفاعه عنها للصديق وللعدو، من قبل جمهرة الطامعين، والطامحين، وعاشقي الفتنة، وغيرهم ممن اجتمعوا في الحجاز والكوفة مع علي، فيقول:

«واجتمع مع علي في الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه، عليها، فمنهم من كان يقول لعلي: نُبايعك على أنا شركاؤك، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له وبالمبالات بقوله، ومنهم من كان يُحارب عثمان ثم أصبح يُحارب علياً باسم عثمان، تمحلاً لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور»[1].

تتكامل حلقات التربية عند علي بن أبي طالب، فهي تبتدىء بحلقة تأديب النفس، وتربيتها، تلك التربية التي تعتمد ـ أصلاً ـ على معرفة النفس.

فـ**«ٱلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ»** كما قال بحق. ومن خلال تلك المعرفة المطمئنة يتولى المرء تعليم نفسه، و **«معلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»**[2] وميزان السلوك ـ عنده ـ معاملة الآخرين، مثل معاملة النفس، وفي الميزان المذكور، إقرار فذّ بالمساواة العادلة.

قال من وصية له لابنه الحسن:

«يَا بُنَيَّ، ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَٱسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَٱرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.»[3].

خوض معركة ضارية مع علي عليه السلام سميت الجمل في البصرة. وقتلا فيها. وانتهت المعركة لصالح علي عليه السلام.(المحقق)

١ ـ عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام علي.(المؤلف)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤:١٦ من قصار الحكم.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٤٥، وذكرها البرقي في المحاسن ٢:٥٩٥، تحف العقول: ٧٤، شرح أصول الكافي ٨:٣٤٧، كشف المحجة لابن طاووس: ١٦٤، المستدرك ١١:٣١١.(المحقق)

«ليكن إصلاحك بنيّ إصلاحك لنفسك، فإن عيوبهم معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت»[١] وتتسع دائرة إصلاح النفس، وتعليمها، وتأديبها إلى الأصدقاء والقرناء والأصحاب، محذراً من صحابة السوء، قائلاً مخاطباً أحد صحابته:

«وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأيُهُ، وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ»[٢].

ويحذر مصاحبة الفسّاق والأشرار قائلاً:

«وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ، وَوَقِّرِ اللهَ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ»[٣].

وكان أصحاب علي بن أبي طالب وأنصاره من الصفوة النادرة في إخلاصها ووفائها. لأنها آمنت بإيمانه، واستضاءت بنوره، إذ رأت فيه الأنموذج الساطع، الذي تفجّر حكمة، وهداية، وعطاء.

كان معه عمار بن ياسر الذي قال:

«والله لو قاتلونا بسلاحهم وأوصلونا إلى سعفات هجّر لعلمنا أننا على حق وأنهم على باطل»[٤].

حينما تقابل جيش علي مع الأمويين في صفّين.

وقد قتل عمار في (صفّين) شهيداً، وحمل معه كلمات النبي الكريم: **«يا عمار تقتلك الفئة الباغية»**[٥].

---

١ ـ تاريخ مدينة دمشق ٣٨:٢٧٢.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ١٣٠، وابن ابي الحديد في شرح النهج ١٨:٤٢.(المحقق)

٣ ـ ينابيع المودة ٣:٤٤٦.(المحقق)   ٤ ـ انظر مجمع الزوائد ٩:٢٩٨.(المحقق)

٥ ـ عشرات المصادر التأريخية وبمختلف توجهات الفرق ذكرت هذا الحديث النبوي، ونكتفي ببعضها: الخلاف للطوسي ١:٦٥٧، وكتابه الاقتصاد: ١٨١ش منتهى المطلب للعلامة الحلي ١:٢٠٩، الترمذي ٥:٣٣٣، صحيح مسلم ٨:١٨٦، اسد الغابة ٤:٤٣، العبر ١:٢٧، تنقيح المقال ٢:٣٢٠، كشف الغطاء ١:١١، جواهر الكلام ٢١:٣٢٧، الكامل في التأريخ ٣:٣١١،العقد الفريد ٤:٣١٩، بدائع الصنائع ١:٣٢٣،المحلي لابن حزم ١١:٩٧، سبل السلام للعسقلاني ١:٩٥، ☜

ومن أصحابه التمّار (ميثم) الذي كان علي بن أبي طالب يقضي بعض أوقاته في دكانه يبيع التمر إذا غاب ميثم لقضاء حاجة له، وقد قتله الجلاد عُبيد الله بن زياد في الكوفة، وكانت قصة قتله دليل خسّة القاتل وجبنه، وحديث بطولة الشهيد ميثم التمار، الذي أكسبته عقيدة الإيمان قوة خارقة تضاءلت دونها قوة الحاكم عبيد الله بن زياد.

قال ابن زياد، بعد أن حمى به الغضب وهو يسمع وفاء التمّار وحبّه لعلي: **«والله لأقطعنّ يديك ورجليك ولأدعن لسانك حتى أكذبك وأكذب مولاك!».**

فأمر بأن **«تقطع يداه ورجلاه، ولكن ميثماً الذي مازال لديه لساناً، أخذ يُحدّث الناس عن فضائل علي، فأمر ابن زياد بقطعه، فأتاه الحراس فقالوا: يا ميثم، أخرج لسانك فقد أمرنا الأمير بقطعه!**

فقال ميثم: ألا زعم ابن الفاجرة أنه يكذبني ويكذب علي بن أبي طالب، هاكم لساني فأقطعوه[1]!

فكانت شجاعته درساً عظيماً، لم تقابله غير تفاهة القاتل الذي أمر بخسة بصلب ميثم التمار بعد أن كان قد مات وقطعت يداه ورجلاه ولسانه!

كذلك كان رشيد الهجري علماً من أعلام الإيمان والوفاء، أبى التبرؤ من علي بن أبي طالب، والسيف مشهر فوقه، فأمر به ابن زياد فقطعت يداه ورجلاه![2]

الكافي ٥: ١١، دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، السنن الكبرى للبيهقي ٨: ١٨٩، مسند أحمد ٢: ١٦١/٣: ٥/٥: ٣٠٦/٦: ٣٠٠، المستدرك ٢: ١٤٨/٣: ٣٨٦، شرح مسلم ١٨: ٤٠، مسند ابي داود الطيالسي: ٨٤، المعيار والموازنة للاسكافي: ٩٦، مسند ابن الجعد (٢٣٠ هـ): ١٨٢، مسند ابن راهويه ٤: ١٤٦، بغية الباحث للحارث بن ابي اسامة (٨٠٧ هـ): ٣٠٣، الآحاد والمثاني للضحاك (٢٨٧ هـ) ٣: ٤٣٦.(المحقق)

١ ـ روضة الواعظين: ٢٨٩، مناقب ابن شهر اشوب ٣: ٣٦١.(المحقق)

٢ ـ ذكرهُ الكشي في رجاله: ٧١ بإسناده عن قنواء بنت رشيد الهجري، قال: قلت لها: اخبريني ما سمعت من أبيك، قالت: سمعتُ أبي يقول: أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا رشيد كيف صبرك اذا أرسل إليك دعي بني أميّة فقطع يديك ورجليك ولسانك؟ قلت: يا أمير المؤمنين آخر ذلك إلى

وكان عمرو بن الحَمِق من أصحاب رسول الله ﷺ وقد أسلم قبل الفتح وكان مقرباً لدى النبي، وقد دعا له أن يمتعه بشبابه، فبلغ الثمانين من العمر ولم تبيّض له شعرة واحدة. ودعا له أمير المؤمنين بقوله:

«اللهم نوّر قلبه بالتقوى، واهده إلى صراطك المستقيم»[1].

وحين تولى زياد إمارة الكوفة من قبل معاوية طلب عمراً، فهرب منه فاعتقل زوجته آمنة بنت الشريد وسجنها، ثم تعذب عمراً حين ظفر به جلاوزة زياد، وقطعوا رأسه، فبعث به زياد إلى معاوية، وهو أول رأس طيف به في الإسلام. وكان من حلم معاوية ورقّته وكرمه(!) أن بعث بالرأس إلى زوجته السجينة، وألقيَ في حجرها، فوضعت كفها على جبهته، ولثمت فمه، وقالت:

الجنة؟ فقال: يا رشيد أنت معي في الدنيا والآخرة.

قلت: فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل إليه عبيد الله بن زياد الدعي فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يبرأ منه فقال له الدعي، فبأي ميتة قال لك تموت؟ فقال له: أخبرني خليلي أنّك تدعوني إلى البراءة منه فلا أبرأ فتقدمني فتقطع يدي ورجلي ولساني، فقال: والله لأكذّبن قوله، فقدموه فقطعوا يديه ورجليه وتركوا لسانه، فحملت أطراف يديه ورجليه، فقلت: يا أبت هل تجد ألماً مما أصابك؟ فقال: لا يا بنية إلا كالزحام بين الناس... فلما احتملناه وأخرجناه من القصر أجتمع الناس حوله فقال: أئتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى يوم الساعة، فأرسل إليه الحجام حتى قطع لسانه، فمات رحمة الله عليه في ليلته، وكان امير المؤمنين عليه السلام يسمّيه رشيد البلايا، وقد كان أُلقي إليه علم البلايا والمنايا، وكان في حياته إذا لقي الرجل قال له: فلان أنت تموت بميتة كذا وتقتل أنت يا فلان بقتله كذا، فيكون كما يقول رشيد. انظر وسائل الشيعة ١٩٣:٢٠.(المحقق)

١ ـ ولهذا القول تكملة رائعة بحق هذاالرجل، عمر بن الحمق الخزاعي، وهي (..ليت ان في جندي مائة مثلك) اذن اي شخصية تلك وعلي يتمنى مئة مثله؟!! انظر شرح نهج البلاغة ١٨١:٣، وكان الخزاعي ممّن أعان حجر بن عدي وكان من أصحابه فخاف زياداً وهرب إلى الموصل واختفى في غار في القرب منها وقُتِل على يد جنود والي الموصل وبُعث برأسه الى معاوية في الشام، وله الآن قبر مشهور في الموصل يزار وعليه مشهد كبير.(المحقق)

غيبتموه عني طويلاً ثم أهديتموه لي قتيلاً، فأهلاً به من هدية غير قالية ولا مقلية![1]

وهناك جويرية بن مسهر العبدي[2]، وآخرون كُثرٌ من أصحاب علي بن أبي طالب المشهود لهم بالبطولة.

لقد أرعبوا حكم القوة الغاشم رغم أنهم أناس بسطاء، فالعقيدة أمدّتهم بالعون الإلهي، والقوة العجيبة، فكان التمّار، وغير التمار من الناس العاديين دلائل قوة الهداية، والصحبة على الطريق الإلهي.

وستظل قصة استشهاد (قنبر) مولى علي بن أبي طالب رمزاً كبيراً من رموز الوفاء، وعجائب ما تصنعه رفقة علي بن أبي طالب من ولاء استشهادي.

بعث الحجاج في طلبه، وقال له: أنت قنبر؟

قال: نعم.

---

١ ـ ثم قالت أيها الرسول بلغ عني معاوية ما أقول: طلب الله بدمه وعجل الوبيل من نقمه، فقد أتى أمراً فرياً وقتل باراً تقياً، فأبلغ أيها الرسول معاوية ما قلت.

فبلّغ الرسول ما قالت: فبعث إليها، فقال لها: أنت القائلة ما قلت؟ قالت: نعم غير ناكلة عنه ولا معتذرة منه، قال لها: اخرجي من بلادي، قالت: افعل فوالله ما هو لي بوطن ولا أحن فيها إلى سجن، ولقد طال بها سهري وأشتد بها عبري وكثر فيها ديني من غير ما قرت به عيني.

فقال عبد الله بن أبي سرح الكاتب: يا أمير المؤمنين إنها منافقة فألطقها بزوجها، فنظرت إليه فقالت: يا من بين لحييه كجثمان الضفدع ألا قلت من أنعمك خلعاً، وأصفاك كساء؟ إنما المارق المنافق من قال بغير الصواب واتخذ العباد كالأرباب فأنزل كفره في الكتاب، فأومى معاوية إلى الحاجب بإخراجها، فقالت: واعجباه من ابن هند يشير الي ببنانه ويمنعني نوافذ لسانه، أما والله لأبقرنه بكلامٍ عتيد كنواقد الحديد أو ما أنا بآمنة بنت الشريد، انظر بلاغات النساء: ٥٩، دائرة المعارف لمحمد فريد وجدي ٥٩٥:١، وذكره المفيد في الاختصاص: ١٧، تاريخ مدينة دمشق ٤٠:٦٩ (وفيه تفصيل)، أسد الغابة ١٠١:٤، البداية والنهاية ٥٢:٨.(المحقق)

٢ ـ وهو من أصحاب علي عليه السلام وكان الإمام يحبه حباً شديداً، قال له يوماً: يا جويرية ليقتلنك العتل الزنيم، وليقطعن يدك ورجلك ثم إنه ليصلبنك، ثم مضى دهر حتى ولي زياد بن أبيه في أيام معاوية فقطع يده ورجله ثم صلبه، انظر تنقيح المقال ٢٣٨:١، رجال الطوسي :٣٧، رجال ابن داود: ٦٧، أعيان الشيعة ٥٦:١٧.(المحقق)

قال له: ابرأ من دين علي!

فقال: هل تدلّني على دين أفضل من دينه؟!

قال: إني قاتلك، فاختر أية قتلة أحب إليك!

قال: أخبرني أمير المؤمنين أن ميتتي تكون ذبحاً بغير حق!

فأمر به فَذُبح كما تذبح الشاة[1]!

وكذلك قصة استشهاد كميل بن زياد الذي تلقى العلم من علي بن أبي طالب، إذ كان من خاصته.

طلبه الحجاج، فهرب منه. فانتقم من قومه بحرمانهم حقهم في العطاء. فلما رأى كميل ذلك، قال: أنا شيخ كبير، وقد نفذ عمري، ولا ينبغي أن أكون سبباً في حرمان قومي ـ فاستسلم للحجاج. فلما رآه قال له:

كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً.

فقال كميل: لا تبرق ولا ترعد، فوالله ما بقي من عمري إلاّ مثل الغبار، فاقضِ، فإن الموعد لله عزّ وجلّ، وبعد القتل الحساب، ولقد أخبرني أمير المؤمنين أنك قاتلي.

فقال الحجاج: الحجة عليك إذن!

فقال كميل: ذاك إن كان القضاء لك!

قال: بلى اضربوا عنقه![2]

وهناك قصص وأخبار عديدة تُدلل على أهمية اختيار المريدين، والأصحاب المؤمنين، الذين يعمر الإيمان أفئدتهم.

فتعليم الأصحاب المؤمنين يربطهم بفلك الإيمان الذي يقوده المربي الكبير علي بن أبي طالب لتأدية الرسالة وإبلاغها.

لقد كان علي شديد التأثير على أصحابه، وعلى الناس.

---

١ ـ أنظر مستدرك الوسائل ١٢:٢٧٣.(المحقق)

٢ ـ الارشاد للمفيد ١:٣٢٧، كشف الغمة ١:٢٨١.(المحقق)

«وقد بلغ من عمق تأثير علي بن أبي طالب أنه اشترى عبداً، فعلّمه الإسلام واعتقه، لكن العبد لزمه.. حتى إذا مات النجاشي ملك الحبشة، واضطربت الأمور من بعده، اكتشف الملأ من الحبشة أن هذا العبد هو ابن للنجاشي قد خطفه تجار الرقيق وهو غلام وباعوه في مكة!! فجاءه الملأ من الحبشة يعرضون عليه مُلك الحبشة خلفاً لأبيه النجاشي، لكنه رفض الملك وآثر البقاء على الإسلام في صحبة علي!»[1].

وفي السياق التربوي العظمي للنفس، وللعائلة، وللأصحاب والمريدين، كان علي بن أبي طالب في خطاب دائم مع الجموع الشعبية، الفقيرة، في المساجد، والساحات، والشوارع، في السلم وفي الحرب، كأنه كان يُعجِّل في إبلاغ رسالته خشية التقصير، فكان سباقه مع الزمن سباق المربي الذي يريد إيصال الناس إلى الحق، لحماية كلمات الله، وآيات الله.

وحرص علي بن أبي طالب ـ أشد الحرص ـ في رسالته التربوية المجيدة، على استلهام التراث الثقافي للعرب وللشعوب الأخرى، ودراسة الخبرات الثقافية القديمة، وذلك حفاظاً منه على الأصول الثقافية، وحرصاً على التواصل الثقافي بين الأجيال المختلفة.

إن الثقافة ذات جذور عميقة بعيدة الغور، تنتشر في المجتمعات، وفي الأفراد عبر الزمن، فلا يمكن ـ والحالة هذه ـ تحقيق البناء الثقافي بالعزلة والانقطاع.

وإذا دعا علي بن أبي طالب إلى الاستمراية الثقافية، والتفاعل المتطور مع ثقافات الأمم والشعوب ومع أفكار الناس ومعارفهم، والخبرات الثقافية للأفراد المبدعين، فإنه كان يدعو إلى التفاعل الايجابي القائم على الغربلة، وحسن الاختيار، بضوء متطلبات الإيمان، والمثل الإسلامية العليا.

قال يوصي ابنه الحسن:

«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي

---

١ ـ عبد الرحمن الشرقاوي: علي إمام المتقين. (المؤلف)

أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَتَهُ،تَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ مُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُونِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ»[1].

وعلى هذا النحو يبدو أن الحاجة إلى التعليم أمر بديهي في المجتمعات، لاستمرار وجودها وتطورها.

والمجتمع لا يستمر في وجودها عن طريق النقل والاتصال، بما تتضمن هذه العمليات عن توجيه وإشراف هادفين لكفالة نمو المتعلم من الناحية الاجتماعية. وبفضل عملية الاتصال والنقل يحصل المتعلمون على أشياء عامة ومشتركة لتجعل منهم جماعة موحدة، ونعني بهذه الأشياء: المعتقدات والمعارف والآمال والتفاهم الأمثل[2].

ومن ناحية أخرى، فإن عمليات النقل والاتصال المتطورة ذات وظيفة تربوية عميقة الأثر. فإن حياة الفرد وسط هذه العمليات توفر له خبرة فسيحة متغيرة يشترك فيها مع الآخرين، فيشعر بشعورهم ويحس بأحاسيسهم. وقد يغير اتجاهاته في ضوء علاقته بهم ان هذه العلاقة في هذه الخبرة تتضمن تأثير الفرد في اتجاهاتهم وخبراتهم، ذلك أن الخبرة نفسها ينبغي أن تصاغ لكي تنتقل من فرد لآخر.

وصياغتها تتطلب بلورتها والنظر إليها من وجهة نظر الأفراد الآخرين لإدراك أثرها في حياة الفرد، ولتصبح أكثر معنى وأجدى فائدة. لذلك يقول علي ﷺ: **«نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ»**[3].

---

١ ـ انظر درر السمطين للزرندي الحنفي (٧٥٠هـ): ١٦٣.(المحقق)

٢ ـ علي محمد الحسين الأديب: منهج التربية عند الإمام علي.(المؤلف)

٣ ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

ويحسبُ علي بن أبي طالب حساباً كبيراً لاختلاف الأجيال، فلا يرتضي فرض أخلاق مرحلة قديمة على جيل جديد، لأن العلاقة بين منطق الأولين وأبناء الأجيال الآتية، هي علاقة تفاعلية حُرّة، ترفض القسر، وتقوم على الاختيار والقناعة.

إنه يصوغ إطار العلاقة بين (الأخلاق) و (الزمن) على قواعد التفهم الصحيح للمتغيّرات الكبرى التي تمر بها الأجيال. فالزمن في جريان دائم، تواكبه حركة المجتمعات، بما يعنيه ذلك من تغيّر المفاهيم، والأخلاق. فقال موجزاً ذلك في حكمة تربوية تأريخية:

«لا تُكرهوا أولادكم على أخلاقكم فأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم»[1].

ويتوجه علي بن أبي طالب بمبادئه التربوية الخالدة إلى الجماعة المسلمة، بالتشديد على (سنن الحق) التي لا بديل منها في بناء المجتمعات، والحفاظ على مقوّمات تطورها ونهوضها، لأن تلك (السنن) تمنح المجتمعات ديمومة التطور، وقوة الوحدة الاجتماعية، بسبب طبيعتها المتطورة، القوية، الدائمة الثبات في أصولها العادلة.

وبعكس ذلك، فإن سنن التخلف والانشقاق الطبقي هي المسؤولة عن الانقسام والصراعات اللاإنسانية التي تُهدر فيها القيم والدماء البشرية على حدٍ سواء.

قال مخاطباً الجماعة:

«أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَىٰ سَنَنِ ٱلحَقِّ في جَوَادِّ ٱلمَضَلَّةِ، حيثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلا تُمِيهُونَ»[2].

إن سنن الحق ومبادئه هي الدليل وهي الهدف.

ولا يمكن أن تتحقق إلاّ بأن تكون قوة فكرية ومادية عظمى تتمسك بها الجماعة البشرية، وتصبح ـ بفعلها ـ قادرة على إنجاز عملية التغيير الاجتماعي لصالح الناس.

و«لنستمع إلى رائد تربيتنا العظيم كيف يحمل على أولئك الذين لم يستفيدوا بعد من

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٢٠: ٢٦٧.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ٣٩، شرح نهج البلاغة ١: ٢٠٧.(المحقق)

خبر الحياة وتجاربها ما يُهيء لهم أمر تبديلها وتكييفها تبعاً لمقتضيات ما نتمناه من حياة إنسانية هانئة دون أن يكون سوء تصرفنا نحن مجلبة للشرور، وتجنيداً لسيطرة البيئة الاجتماعية على الإنسان النوع:

«إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ ٱللهِ، وَمُصَلَّىٰ مَلَائِكَةِ ٱللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ ٱللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ ٱللهِ، اكْتَسَبُوا فِيهَاالرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا ٱلْجَنَّةَ.

فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا ٱلْبَلَاءَ،شَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَىٰ السُّرُورِ؟! رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَذَكَرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا!»[1].

وهكذا يرى علي في نواميس البيئة الاجتماعية الكثير من العظات والخبرات والتجارب المفيدة..»[2].

إن مدرسة علي بن أبي طالب التربوية، والتي هي مدرسة البشر التأريخية، هي مدرسة جامعة لكل المبادىء الهادفة إلى قيام أنموذج الإنسان النزوع إلى الكمالات الممكنة، وهو الأنموذج الأمثل للإنسان. و«**حين نتصفح ذخر الحكمة الذي تركه لنا الإمام هداية وشرعة وأسلوب حياة، نقع فيه على صورة واضحة المعالم والقسمات لهذا النموذج الأمثل للإنسان الذي ظل دائماً حلم البشرية، ومناط أمل المصلحين ودعوات الدعاة**» كما قال ـ بحق ـ عبد الفتاح عبد المقصود.

إن سمات هذا الإنسان ترد في تحديدات علي له:

---

١ ـ شرح نهج البلاغة محمد عبده ٤:٣٢، تحف العقول: ١٨٦، خصائص الأئمة: ١٠٢، الارشاد للمفيد ١:٢٩٦، عيون الحكم والمواعظ: ١٤٤، شرح نهج البلاغة ١٨:٣٢٥، كنز العمال ٣:٧٣٢، تفسير نور الثقلين ٤:٢١٧.(المحقق)

٢ ـ علي محمد الحسين الأديب: منهج التربية عند الإمام علي.(المؤلف)

«...تَرَىٰ لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ، وَنَشاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ.

يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَىٰ وَجَلٍ...»[1].

ويقول: «... يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ... إِنِ ٱسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ.

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَىٰ... ٱلْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ...»

ويقول: «... يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ... لَا يَحِيفُ عَلَىٰ مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ.

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ... وَلَا يَدْخُلُ فِي ٱلْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ ٱلْحَقِّ.

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ ...».

ويقول: «بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ...»، بهذا الناموس الخليق أخذ الإمام نفسه حتى لكأنّما صبَّها في قالبه، أو كأنما كانت مُثله ومبادئه مسرى خطواته.. منطلق سلوكه. أسلوب حياته الذي له يمتثل، وعليه يسير، وإليه يدعو الناس كافةً أن يسلكوه أو يعيشوه، إذ هو الأسلوب الأوحد الذي يجعلهم يدخلون دنياهم من باب الآخرة، ويغنمون آخرتهم من طريق دنياهم. به تخشع الجوارح، وتصفو القلوب، وتعز إنسانيتهم فلا يصدر الفرد منهم في قول أو فعل إلاّ عن ضمير خالص، ونية نقية، وإرادة متجردة عن الهوى والزيغ، وهو يذكر الله في علنه وسره، وفي جهره ونجواه وكأنما يراه..»[2].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:١٦٣، كتاب التمحيص لابن همام الاسكافي :٧٢، تحف العقول: ١٦٠، روضة الواعظين: ٤٣٩، شرح نهج البلاغة ١٠:١٤٨، الجامع الصغير للسيوطي ١:٣٧٨، كشف الغمة ١:٩٩، كنز العمال ١:١٤٠. (المحقق)

٢ ـ عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب.(المؤلف)

الفصل الحادي عشر

▣ سلطة النص في بلاغة علي بن أبي طالب عليه السلام

إنّ النص في نهج البلاغة ـ كتاب علي بن أبي طالب ـ يتمتع بسلطة فائقة، محكمة، نادرة.

وهي تُحيل القاريء (والسامع) إلى أنموذج العلاقة بين الأفكار والأسلوب.

فثمة نص شكلاني، قائم على إبداعية الشكل، وهو نص إنتاجي من عمل الفنان المبدع، إلاّ أنه يتمتع بمزاياه الفنية الخالصة، كشكل فني قوي الاتصاف، سواء بصورته التجريدية أو بصورته الرمزية، أو بكيفيّته التقليدية.

فقد يكون النص، مثل اللوحة التي تُحاكي الطبيعة (أو الواقع) أو أنه يكون أداة تعبير عن الذات، بكل استطاعات التعبير الممكنة. وعادة، يكون التعبير النثري متعرضاً للشد والجذب بين قُطبي الذات والموضوع، بما يُرافق ذلك من توسّعات لغوية، أو حشو، أو فجوات، أو نواقص.

وهو ـ أي التعبير النثري ـ في ملاحقة للأفكار، ينتهج طرائق وأساليب عادة، متباينة في درجة نجاحها، فهو أحياناً يصل إلى الأفكار، وأحياناً يتقدم عليها، أو يتخلف عنها، وهو ـ أحياناً ـ يتماسّ وإياها، قد يُعبّر عنها بصراحة، أو بإيحاء، بوضوح تام، أو بإيماء.

في بلاغة علي بن أبي طالب، أنموذج رفيع للنص المتطابق الذي يُجسد سلطة علي بن أبي طالب على نفسه، تلك السلطة التي ينطلق منها في رؤية العالم الخارجي.

وتوضح سيرة علي بن أبي طالب، أحسن توضيح، تلك الطبيعة الحقّانية الصادقة التي تتبلور في عرض الأفكار ـ أفكاره هو ـ وفي البلاغة البيانيّة له.

فالنص لديه ـ ينقل أفكاره بصدق تام. بمعنى أنه يعطي صورة للبلاغة، ذات ميزان دقق، يستبعد كل بلاغة (بلاغية) تسوحُ في جولات الأساليب، والشكليات المتغيرة.

حقاً، كان قادراً في فنونه البلاغية المبدعة، لكنه لم يندمج في ظاهرة البلاغة من أجل البلاغة، التي كانت الإطار لعملية إيصال الأفكار.

لقد كانت الأفكار تُوصَل على نحو فعّال، بتصعيدات بلاغيّة تثير الإعجاب، أي أن البلاغة كانت تتولى وضع الإضافات فوق المعاني وحواليها، بالتعبير عن موهبة بلاغية معجبة، فثمة (معانٍ) تتخللها، وتحيط بها زركشات لفظية، مُدلِّلة على القدرة البيانية، التي انتشرت شعراً ونثراً منذ العصر الجاهلي.

أما بلاغة علي بن أبي طالب، فقد تبلورت في النص الذي يخرج من رحم اللغة مثل الوليد الجديد، وهو ـ في الوقت نفسه ـ يخرج من عالم الأفكار مثل الفكرة الجديدة، الباهرة.

إنه يتناول مسائلة الفكرية، وكأنها تُولد تواً. وكذلك هو في تناوله للمسائل الفكرية المتداولة (والمشتركة) وكأنها معطيات جديدة، ذلك لأن قدرته البلاغية ابتكارية، توليدية.

فالنص يُولد متكاملاً، في تأديته الوظيفية الخاصة به، رغم أنه يُبرهن ـ في حالات ثانية ـ عن جدارات أسلوبية.

لكن علياً بن أبي طالب لم يكن (رغم ما أوتي من ميلٍ للدعابة ـ أحياناً ـ) راغباً بأن يبتعد عن رسالته لحظة.

إن طغيان الجديّة كان من وقر المسؤولية الثابت.

وهو ـ في ذلك ـ كان متّسماً بالصدق التام، الذي يجب أن نرى فيه اختلافاً كبيراً عن أنواع أخرى من الصدق المرحلي، الموقت، وغير الثابت.

فثمة أوجه عديدة للصدق، كذلك هناك صدق في مناسبة، وعدمه في سواها. كان علي بن أبي طالب صادقاً في جميع الأوجه والمناسبات، لأن أفكاره كانت تشق الطبقات الكثيفة، والزيادات، والتلافيف التي تحول بين الناس والحق.

فالنص هو الفكرة والأداة معاً، هو المضمون والشكل، في اتّحادهما المتبادل

الإغناء، في إعطاء دلالات مؤكدة، كان الإمام علي يُظهر نفسه فيها من جانب، ويُحمّلها الطاقة التوصيلية (للوصول إلى الآخرين) من جانب آخر.

ويتضافر الجانبان في العملية الواحدة، التي تُكرس صدق القضية، وتهيء الآخرين للتجاوب مع الصدق. فالنص ـ في نهج البلاغة ـ ليس قطعة بلاغية ذات جمال مجرد. بل هو وظيفة متقنة، إنه ثمرة التزاوج الطبيعي بين البلاغة والأفكار، والذي ترتّب عليه إنجاب أفكار جديدة، واستحداثات لغوية وبيانية جديدة.

من المؤكد أن النص الأدبي الذي يُصبح ـ بسبب أهميته ـ مستقلاً، قائماً بذاته، بعد تجاوز ظرفه، هو ـ في حقيقته – تعبير عن طبيعة صاحبه. فالنص هو الشخصية التي تنشيء عدة شخصيات أخرى، مجنّدة لمهماتها المحددة.

وتُعد الكلمات، في النص الأدبي كائنات حية، لم تُخلق عبثاً. وليس من الضرورة بمكان أن تكون إنشاءات الكاتب الأسلوبية على صورته، من الناحية الظاهرية، لكن من الضروري للكاتب الحقيقي أن يكون العمق الفكري له ماثلاً في الحركة التحتية للنص.

فأبو تمام كان يُحرّك ألفاظه (كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد)، والبحتري كان يُحرّك ألفاظه (وكأنها نساء حسان عليهن خلائل مصبّغات، وقد تحلين بأصناف الحلي) كما يقول ابن الأثير الموصلي، لكن أبا تمام كان حاضراً وراء الألفاظ – والأشخاص، وكذلك البحتري، كلاً بطبيعته الخاصة، وبخياراته الخفيّة أو الظاهرة.

كانت مقدرة علي اللغوية ،والبيانية، بالغة الفراهة، غير أنه كان يريد إصابة المعنى دائماً، بسبب نظرته الفلسفية، وأفكاره الجمّة، التي كان يُصارع من أجل انتشارها. ونظراً إلى تعدد مناحي الثروة الفكرية، وغنى طبيعة علي بن أبي طالب، فإن النص جاء محمّلاً بالدلالات الغنية المُتنوعة، فهو قمة تتويج العلاقة الحرة بين المعنى والمبنى.

قال الشريف الرضي، في مقدمة نهج البلاغة:

«كان أمير المؤمنين علي مَشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أُخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب - وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا - وتقدم وتأخروا. وأما كلامه فهو البحر الذي لا يُساجل، والجَمُّ الذي لا يُحاقَل»(١).

ومن عجائبه التي انفرد بها، وأمن المشاركة فيها أن كلامه رضي الله عنه الوارد في الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، لم يعترضه الشك في أنه من كلامه من لا حظَّ له في غير الزهادة، ولا شُغل له بغير العبادة، ويـلا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلتاً سيفه فيقطُّ الرقاب، ويجدِّلُ الأبطال، ويعود به ينطُف دماً ويقطر مُهجاً»(٢).

ويذكر الشيخ محمد عبده في مقدمة شرح نهج البلاغة، مثل ذلك قائلاً:

«تصفحت بعض صفحاته في مواضع مختلفات، فكان يُخيل لي في كل مقام أن حروباً شبت، وغارات شنت، وأن للبلاغة دولة، والفصاحة صولة. وأن جحافل الخطابة، وكتائب الذرابة في عقود النظام، وصفوف الانتظام، تُنافح بالصفيح الأبلج، والقويم الأملج، فما أنا إلاّ والحق منتصر - والباطل منكسر... وأن مدّبر تلك الرواية، وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فتارةً كنتُ أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواح عالية، في حُلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية، توحي إليها رشادَها، وتقوم منها مرادها. وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة، قد تحفّزت للوثاب، ثم أنقضّت للاختلاب، فخلبت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها. وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً لا يشبة خَلقاً جسدانياً فَصَل عن الموكب الإلهي، واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة، وسما به إلى الملكوت

---

١ ـ الشريف الرضي: نهج البلاغة. (المؤلف)، نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١١.(المحقق)

٢ ـ لا يُساجَل: لايُكاثر. لا يُحاقل: لا يُفاخر في حفل. ينطف: يقطر. (المؤلف)، نفس المصدر ١:١١.(المحقق)

الأعلى[١].

وليس في أهل هذه اللغة إلاّ قائل بأن كلام الإمام علي هو أشرف الكلام، وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيّه، وأغزره مادة، وأرفعه أسلوباً.

ويشتمل (نهج البلاغة) على نحو ثلاث مئة خطبة، ومئة رسالة، وخمس مئة حكمة. نهل من معينها الكتّاب، والمفكرون، والمتصوّفة، والعلماء، والزهّاد، والعارفون، وقد قال عبد الحميد الكاتب:

«حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع (يعني به علي بن أبي طالب) **ففاضت ثم فاضت»**، وقيل له: **ما الذي خرّجك في البلاغة؟** قال: **خطب الأصلع**[٢].

وقال ابن نباته:

«حفظت من الخطابة كنزاً، لا يزيده الإنفاق إلاّ سعة. حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب»[٣].

وقال الشريف المرتضى:

«كان الحسن البصري بارع الفصاحة، بليغ المواعظ، كثير العلم، وجميع كلامه في الوعظ، وذم الدنيا، أو جلّه مأخوذ لفظاً ومعنى، أو معنى دون لفظ، من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي

---

١ ـ ويكمل محمد عبده قوله: (... ونما به إلى مشهد النور الاجلي، وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس، وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الأمة، ويعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الأرتياب، ويحذرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم دقاق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصفات الرئاسة ويصعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حُسن المصير). انظر مقدمة نهج البلاغة ١:٣. (المحقق)

٢ ـ الثعالبي: ثمار القلوب مصادر نهج البلاغة. (المؤلف)

٣ ـ شرح نهج البلاغة ١:٢٤، وينقل ابن ابي الحديد: ان محفن بن ابي محفن قال لمعاوية: جئتك من أعيا الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس! فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره، ويكفي هذا الكتاب نحن شارحوه دلالة على أنه لا يجارى في الفصاحة، ولا يبارى في البلاغة. (المحقق)

طالب رضي الله عنه، فهو القدوة والغاية»[١].

وقال الأستاذ حسن السندوبي:

«والظاهر أنّه (أي عبد الله بن المقفع) **تخرّج في البلاغة على خطب الإمام علي، ولذلك كان يقول: «شربت من الخطب ريّاً ولم أضبط لها روياً، فلا هي نظاماً وليس غيرها كلاماً»**[٢].

وكما كان نهج البلاغة مصدراً كبيراً من مصادر البيان والبلاغة، كذلك هو مصدر للرياضة والتصوف في الإسلام. وهو إلى ذلك المنجم الغني بأصول التوحيد والفلفسة الإسلامية (علم الكلام)، التي أوسعها المتكلمون ـ بعد ذلك ـ بالشرح والتفسير، وأحد الروافد الكبيرة للفكر الإسلامي في جميع جوانبه الاجتماعية والأخلاقية والدينية وغيرها.

وهو كذلك سجل حافل بعناصر تأريخية واقعية، تمد الباحث والمؤرخ بالحقيقة الساخرة، ويمثل كذلك الكثير من الحقائق المذهبية، والتوحيد، وتنزيه الخالق، وصفاته، والعدل. والجبر والاختيار، وما إلى ذلك[٣].

وليس نهج البلاغة (الكتاب الجامع لخطب علي بن أبي طالب ورسائله وأقواله، والذي أطلق عليه الشريف الرضي عنوانه)، أول جمع لتراث علي بن أبي طالب، فلقد حظي كلام الإمام وخطبه بعناية العلماء، والأدباء، قبل عصر الرضي، فعكف فريق منهم على جمع شوارده، ونظم فرائده، حتى تألفت من ذلك مجاميع كثيرة، كما عكف فريق آخر على حفظه والاستعانة به في كلامهم وخطبهم. وفريق ثالث ضمّنوا مؤلفاتهم الأدبية والتأريخية والأخلاقية، طائفة كبيرة من كلامه. وكان ذلك كله هو المصدر الرئيسي الذي اختار الرضي منه هذا المجموع (نهج البلاغة)، وانتقى منه هذه الطرائف البيانية

---

١ ـ الشريف المرتضى: أمالي المرتضى. (المؤلف)، الأمالي للمرتضى ١: ١٠٧. (المحقق)

٢ ـ الجاحظ: البيان والتبيين ج ١. من الهامش في ترجمة عبد الله بن المقفع وتعليقه عليه. (المؤلف) وأنظر سير اعلام النبلاء للذهبي ٦: ٢٠٩، البداية والنهاية ١٠: ١٠٢. (المحقق)

٣ ـ عبد الله حسين: مصادر نهج البلاغة. (المؤلف)

القيّمة[1].

وقد تجاوزت خطبه المتداوله بين أيدي الناس، إلى اكثر من أربعمائة خطبة.

قال ابن واضح اليعقوبي المؤرخ الشهير المتوفي سنة (٣٩٢ هـ) في كتاب (مشاكلة الناس لزمانهم):

«وحفظ الناس عنه الخطب، فإنه خطب بأربعمائة خطبة، حفظت عنه وهي التي تدور بين الناس، ويستعملونها في خطبهم».

وقال المسعودي المتوفي سنة (٣٤٦ هـ) في كتاب «مروج الذهب ـ الجزء الثاني»:

«والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته، أربعمائة ونيف وثمانون خطبة، يوردها على البديهة، وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً» وقد أشرنا إلى أن هناك جماعة من العلماء والأدباء عكفوا على جمع كلام الإمام علي قبل أن يخلق الشريف الرضي. وقد ذهبت هذه المجموعات مع الزمن كما ذهب سواها من تراثنا العربي، وبقيت أسماؤها[2].

---

١ ـ المصدر نفسه. (المؤلف)

٢ ـ ويذكر عبد الله نعمة من الأسماء:

١ - كتاب خطب علي عليه السلام وكتبه إلى عماله لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني المولود عام ١٣٥ هـ والمتوفي عام ٢١٥/٢٢٥ هـ

٢ - كتاب خطبة علي كرم الله وجهه لهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤/٢٠٦ هـ

٣ - كتاب خطب الإمام علي لأبي أحمد عبد العزيز بن يحيى بن عيسى الجلودي الأزدي البصري المتوفي سنة ٣٣٢ هـ وكان من شيوخ البصرة وأخبارييها، له ما يقرب من ثلاثمائة مؤلف.

٤ - كتاب رسائل علي.

٥ - كتاب ذكر كلام علي في الملاحم.

٦ - كتاب مواعظ الإمام علي.

٧ - كتاب قوله في الشورى.

٨ - كتاب الدعاء عن الإمام.

٩ - كتاب بقية رسائله وخطبه وأدل مناظراته.

١٠ - كتاب بقية مناظراته.

١١ ـ كتاب ماكان بين علي وعثمان من الكلام وهذه الكتب كلها للجلودي المذكور.

وقد بقي كتابه في خطب الإمام علي بين أيدي العلماء حتى أوائل القرن التاسع، وقد نقل عنه الشيخ حسن بن سليمان الحلي في كتابه (المختصر) شطراً من خطبته التي أولها: (أنا فقأتُ عين الفتنة).

١٢ ـ كتاب خطب أمير المؤمنين لأبي هاشم عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن المتوفي سنة (٢٥٢ هـ).

١٣ ـ كتاب الخطب لأمير المؤمنين لأبي إسحق النهمي إبراهيم بن سليمان بن عبد الله بن خالد الكوفي الخراز، يرويه عنه النجاشي بثلاث وسائط، آخرها حميد بن زياد الكوفي المتوفي سنة (٣١٠ هـ).

١٤ ـ كتاب خطب أمير المؤمنين لإبراهيم بن الحكم بن ظهير الفزاري، قال الطوسي في الفهرست: «إنه صاحب التفسير عن السدي، والسدي الكبير هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن الكوفي المفسر المتوفي في حدود سنة (١٢٨ هـ). والسدي الصغير هو حفيد السدي الكبير، محمد بن مروان بن عبيد الله بن إسماعيل السابق الذي يروي عن محمد بن السائب الكلبي، كتاب التفسير.

١٥ ـ كتاب الخطب لأمير المؤمنين لأبي يعقوب إسماعيل بن مهران بن محمد بن عمر بن أبي نصر السكوني.

١٦ ـ كتاب الملاحم للإمام لأبي يعقوب المذكور.

١٧ ـ خطب أمير المؤمنين على الناس في الجمع والأعياد وغيرهما لأبي سليمان زيد بن وهب الجهني الكوفي المتوفى سنة (٨٠/ ٩٦٠هـ).

١٨ ـ خطب أمير المؤمنين لأبي الخير صالح أبي حماد سلمة الرازي.

١٩ ـ خطب أمير المؤمنين المروية عن الصادق المتوفى عام (١٤٨ هـ).

٢٠ ـ خطب أمير المؤمنين لأبي محمد أو أبي بشر مسعدة بن صدقة العبدي.

٢١ ـ خطب أمير المؤمنين برواية أبي عبد الله محمد بن عمرالواقدي الأسلمي. رواه الشيخ أبو غالب الزراري بإسناده إلى الواقدي، وقد توفي الزراري عام (٣٦٨ هـ).

٢٢ ـ كتاب رسائل المؤمنين لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ وهو من ولد سعيد بن مسعود أخي عبيد بن مسعود صاحب وقعة الجسر مع الفرس، وعم المختار الثقفي، وله أيضاً كتاب الخطب السائرة...

٢٣ ـ كتاب الخطب لمحمد بن عيسى بن عبد الله بن سعد الأشعري.

خصوصية النص

إن القيمة الأساسية للنص، في خطب علي بن أبي طالب، وسائله، ماثلة في حضور الإبداع النصي في النشاط الفكري والكلامي له على المستويين: الشفهي والتحريري. وتلك ميزة نادرة يتفرد بها علي بن أبي طالب بصورة ملموسة.

وهي ميزة تجعله في المقدمة من جمع كتّاب النصوص المبرّزين، ذلك لأن أولئك

---

٢٤ ـ ماية كلمة من كلام أمير المؤمنين جمعها الجاحظ المتوفى عام (٢٥٧ هـ).

٢٥ ـ كتاب أبي العباس يعقوب بن أبي أحمد الصيمري الذي جمعه من كلام علي رضي الله عنه وخطبه. ذكره شارح النهج ابن أبي الحديد عند شرح كتاب علي إلى معاوية، وأول هذا الكتاب: «وكيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه...»».

٢٦ ـ كتاب الخطبة الزهراء لأمير المؤمنين لأبي مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي المتوفى سنة (١٥٨ هـ)، وقد رواها الطوسي في الفهرست بسنده،قال: أخبرنا بها أحمد بن محمد بن موسى عن ابن عقدة عن يحيى بن زكريا عن ابن شيبان عن نصر بن مزاحم عن أبي مخنف عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه، قال: خطب أمير المؤمنين، وذكر الخطبة. وهذه الخطبة الزهراء أوردها ابن عبد ربه في العقد الفريد (م ٢)، أولها: الحمد لله الذي هو أول كل شيء وبديه، ومنتهى كل شيء ووليه.

وفيها يقول: ملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك، وليست فيهم فترة ولا عندهم غفلة.

ثم يقول فيها: لم تسكنوا الأصلاب ولم تضمنهم الأرحام.. وهي طويلة، وآخرها. إنك ولي كريم.

٢٧ ـ خطب أمير المؤمنين مع شرحها لقاضي القضاة لدى الفاطميين أبي حنيفة النعمان المصري المتوفى سنة (٣٦٣ هـ) ذكره ناشر كتاب الهمة في معرفة الأئمة الدكتور محمد كامل حسين ناقلاً عن الأستاذ المستشرق إيفانوف في كتاب المرشد إلى أدب الإسماعيلية. ويتساءل عبد الله نعمة، بعد كل هذا: «أين تلك المؤلفات الموضوعة في خطب الإمام علي وكلامه؟ وأين ذهبت الأربعمائة خطبة أو تزيد مما كان يحفظه الناس من كلامه؟ وأين ما كان يحفظه الكتّاب والبلغاء من كلماته؟

أليس في كل هذا ما يؤكد أن ما اختاره الرضي في نهج البلاغة هو بعض ما كان مدوناً ومحفوظاً ومشهوراً بين الناس؟

أليس في هذا ما يدمغ أولئك القائلين بأن ما في النهج موضوع ومنحول على لسان الإمام علي؟».(المؤلف)

الكتّاب، مثلهم مثل الرسامين والنحّاتين الذين يصنعون نماذجهم، بعد طول تأمل، وتخطيط، وممارسة، وبعد مراجعات نقدية متواترة، وصولاً الى المحصلة الفنية النهائية، على صعيد العمل. وكان علي بن أبي طالب، بعفويته الثاقبة، يباشر عمله الإبداعي الفوري، فيأتي النص المرتجل، مثل النص المكتوب، آية في الإتقان والروعة. ومن الثابت، أن جريان خطب علي بن أبي طالب، على نحوه الباهر، في طوله، وقصره، هو دليل على الفعالية الخارقة لعقل مبدع، موهوب، هو السيد المؤكد في عالم العقول.

لا يمكن أن تتوفر تلك الخصوصية لقوة النص في المخاطبة الأرتجالية، وفي الكتابة، لشخص آخر ـ غير علي بن أبي طالب ـ الذي انطوت شخصيته على علوم وفنون وقدرات عظيمة، تتلاقح فيما بينها بجدلية خصبة.

ورغم أن الخطاب عند علي بن أبي طالب خطاب سياسي، وفقهي، وتربوي، ووعظي، في إطار معرفي محكم، إلاّ أنه ذو سمة رياضية، ماثلة في بنية الخطاب الذي يتكامل نصاً مغنياً.

ولقد ارتكزت السمة الرياضية في البناء الأدبي للخطاب على دعامتين بارزتين، الأولى هي في صلب بنية الخطاب، وعلاقاته الداخلية، والثانية في خفاء المنهج، أي في تنظيم فضائه.

المقوّم الأول، هو المقوم النحوي، الذي يعصم الخطاب الأدبي من التحرر الإنساني، وبعض مظاهر اللانحوية، التي قد يستكين إليها الوصف الأدبي والحماسة، والارتجال، وخاصة في الخطاب الشفهي.

إن أساس الخطاب في فعالية علي بن أبي طالب ـ من الناحية اللغوية ـ هو أساس نحوي، ذلك لأن علياً بن أبي طالب هو واضع النحو العربي، في منطلقه الأول.

قال لأبي الأسود الدؤلي، حين أعرب عن ألمه من شيوع اللحن على اللسان العربي، اكتب ما أملي عليك. ثم أملى عليه أصول النحو العربي، ومنها أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. ثم أملى عليه أن

الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر. وفي خاتمة التوجيهات قال علي: يا أبا الأسود انحُ هذا النحو. وهكذا أصبح عند العرب علم النحو[1].

من هنا، كان الأساس النحوي للنص في خطب علي بن أبي طالب، يُؤمّن القاعدة المادية لشبكة العلاقات الداخلية للنص، التي يرتكز عليها البناء البلاغي للنص.

ولا شك في أن تكامل الأساس النحوي والبناء البلاغي قائم ـ أصلاً ـ على المحور الفكري للنص، وهو محور المعاني والدلالات.

وإذ يستكمل الخطاب (العلوي) شروطه المادية ـ اللغوية، وجماع علاقاته الداخلية، فإنه يستكمل الوحدة القائمة بين نصّية النص ـ بمعناها الأدبي ـ والفضاء الروحي للنص. أي أن النص يتوفر له البعدان الرمزيان للأرض والسماء في وحدتهما التامة.

أما المقوّم المادي الثاني للنص، فهو المقوّم الرياضي الذي يُستدلُّ عليه، استدلالاً، لأنه لا يعبّر على نحو مباشر، إلاّ بالنسبة إلى المتلقي النابه.

إن الذهنية الرياضية النشطة، والمبادِهة لعلي، تنعكس تأثيراتها على تعبيراته

---

١ ـ نقل الجندي في كتابه (الامام الصادق عليه السلام) عن تاريخ الأدباء ـ معنعناً ـ عن ابي الاسود الدؤلي، قال: دخلت على أمير المؤمنين علي فوجدت في يده رقعة، فقلت ماهذه يا أمير المؤمنين، فقال: أني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الأعاجم) فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ثم ألقى إليّ الرقعة ومكتوب فيها(الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالأسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبىء به والحرف ما أفاد معنى) وقال لي انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع عليك، وأعلم يا أبا الاسود ان الاسماء الثلاثة...ظاهر ومضمر وأسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر (أراد بذلك الأسم المبهم) قال ثم وضعت بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إنَّ وأخواتها فكتبتها ما خلا «لكن» فلما عرضتها على أمير المؤمنين عليه السلام أمرني بضم لكن اليها، وكلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية، فقال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت فلذا سُمّي النحو»: الامام جعفر الصادق عليه السلام لعبد الحليم الجندي: ٢٩ الطبعة ١٣٩٧ هـ(معاصر).(المحقق)

الأدبية، بصوره الإتقان المحكم لعرض الأفكار، وكذلك في تقديمه المتقن للبناء اللغوي والبلاغي للخطاب.

فالاتساق الرياضي وارد في صلابة أفكاره، وفي عظمة منطقه، وبلاغته. ومردُّ ذلك ثابت في معرفته العملية بالحساب؛ تلك المعرفة التي كانت تكشف عنها سرعة البديهة في الجواب عن معضلات معقدة في المواريث والأقضية.

وذاعت الفريضة المنبرية التي أفتى بها وهو على منبر الكوفة، حينما سُئل عن ميت ترك زوجه وأبوين وابنتين، فأجاب من فَوره: صار ثُمنها تُسعاً[1].

وشكت ـ مرة ـ امرأة أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يُقسم لها من ميراثه غير دينار واحد، فقال لها بسرعة: لعله ترك زوجة وابنتين وأما وإثني عشر أخاً وأنت؟ وكان الأمر كذلك.

فمعرفته بعلم الحساب كانت أكثر من معرفة فقيه يتصرف في معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعدّ في ذلك الزمن ألغازاً تكدّ في حلها العقول[2].

تعبيرية النص

إن الدلالة المشتركة للمفردات وللتعبيرات، والتي يشترك في قولها وفي فهمها جمهرة الناس، مثقفين وغير مثقفين، هي توكيد للتفاهم بين أفراد المجتمع وللتعبير عن

---

١ ـ وقد سميت هذه المسألة بالميزانية. انظر شرح نهج البلاغة ١:١٩، النهاية لأبن الأثير ٣:١٩٣/٣:٣٢١، كنز العمال ١١:٢٧، احكام القرآن للجصاص (٣٧٠ هـ) ٢:١١٤، كشف الغمة ١:١٣٠/ وعلق الشيخ كمال الدين ابن طلحة: فانظر إلى استحضار الأجوبة في اسرع من رجع الطرف واعلم انه عليه السلام قد تجاوز غايات الوصف. ن.م. ١:١٣٢ط قم، لسان العرب ١١:٤٨٤، تهذيب الأحكام ٩:٢٥٧، مناقب ابن شهر اشوب ١:٣٢٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٦:/٢٥٣، والمصنف لأبن شيبة ٧:٣٤٩.(المحقق)

٢ ـ عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام علي.(المؤلف)

حاجاتهم الأساسية.

وقد أشبعت الكلمات والتعبيرات المشتركة تداولاً منذ بدء استعمالها، فأصبح الوصول إلى المعنى من خلالها ممارسة اعتيادية، ولكن أساسية.

والفارق بين الكلام العادي، والأسلوب الأدبي ليس فارقاً في الاستعمالات اللغوية فقط، بل هو فارق في دقة الاحتياز على المعاني، ومن ثمَّ التعبير عنها. فأنيطت بالقدرة التعبيرية مسؤولية الإمساك بالمعاني والكشف عن الدلالات، وإحراز أكبر في مخاطبة الآخرين والوصول إلى أذهانهم ونفوسهم. ويتفاوت الكتّاب في مستويات الإبداع، وتبعاً لذلك تتفاوت النصوص في ما تملكه من طاقة تعبيرية، ومن جمالية أسلوبية.

قد أنتقد ابن قتيبة في (مقدمة أدب الكاتب) أولئك الذين لم يعطوا الأسلوب حقه، فقال: «**رأيت كثيراً من كتّاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة، واستوطأوا مراكب العجز، وأعفوا أنفسهم من كدّ النظر، وقلوبهم من تعب الفكر، حين نالوا الدَّرك بغير سبب وبلغوا البُغية بغير آلة**».

وابن قتيبة محق، لأننا لا نريد من الأديب أن ينقل الينا المعاني وحدها، فإن الغاية من الأدب ليست هي المعرفة وتقرير الحقائق، بل نريد نقل المعاني ممزوجة بشعور الأديب، باعثة لشعورنا، وهذا لا يتأتى إلاّ إذا كان التعبير فنيّاً[١].

ويُلخص (الحوفي) عدة صفات في تعبير علي بن أبي طالب هي[٢]:

١ ـ تخيّر المفردات، «**بحيث تنسجم من الناحية الصوتية فتجيء خفيفة على اللسان، لذيذة الوقع في الآذان، موافقة لحركات النفس، مطابقة للعاطفة التي أزجتها أو للفكرة التي أملتها**».

كقوله في كتاب إلى عمّاله على الخراج:

«**فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلَاءُ ٱلْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ ٱلْأَئِمَّةِ**»[٣].

---

١ ـ الدكتور أحمد محمد الحوفي: بلاغة الإمام علي. (المؤلف)

٢ ـ آثرنا ـ هنا ـ تلخيص موضوع الدكتور الحوفي واختيار أهم النماذج التي وردت فيه. (المؤلف)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٨٠. (المحقق)

وكقوله إلى معاوية:

«فَلَسْتَ بِأَمْضَىٰ عَلَىٰ الشَّكِّ مِنِّي عَلَىٰ ٱلْيَقِينِ»(١).

وقوله:

«كُلَّما أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَٱنْجَحَرَ ٱنْجِحَارَ الضَّبَّةِ في جُحْرِهَا، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا»(٢).

وقوله: «دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ ٱلنِّضْوِ ٱلْأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾»(٣).

وقوله: «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسَبُهُ»(٤).

وقوله: «فَإِنَّ تَقْوَىٰ ٱللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَىٰ أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجِلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ...»(٥).

٢ ـ **قوة التعبير**: إذ أجمع علماء البيان العربي على أن الكلام إذا كان لفظه غثّاً ومعرضه رثّاً كان مردوداً ولو احتوى على أجل معنى وأنبله، كما ذكر أبو هلال العسكري في (الصناعتين). وأجمعوا على أن الجزل القوي من الكلمات يستعمل في وصف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وفي التنفيس عن الغضب والضيق وما شابه هذا.

وأما الرقيق منها، فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام الفراق، وفي

---

١ ـ كنز الفوائد: ٢٠١.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١١٧:١، والمنسر: قطعة من الجيش تكون امام الجيش الأعظم، الغارات ٤٥٢:٢.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٩٠:١.(المحقق)

٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٦:٤، المجازات النبوية للشريف الرضي: ٤٠٢، المستدرك ٣٦٣:٣، عيون الحكم والمواعظ: ٤٥٤.(المحقق)

٥ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١٧٣:٢، شرح نهج البلاغة ١٨٨:١٠.(المحقق)

استجلاب المودّات، واستدرار الاستعطاف وأشباه ذلك (كما ورد في المثل السائر لابن الأثير الموصلي).

ومن السهل أن نجد كثيراً مما يتصف بالقوة والجزالة والفخامة في خطب الإمام علي وفي رسائله، تعبيراً عن عواطفه وأفكاره التي تقتضي التعبير القوي الفخم الملائم لشدتها وقوتها وحرارتها»[١].

ومن الأمثلة والنماذج قوله:

«وَٱللهِ لَا أَكُونُ كالضَّبُعِ: تَنَامُ عَلى طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا، وَلكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى ٱلحَقِّ ٱلمُدْبِرَ عَنْهُ، وَبِالسَّامِعِ ٱلمُطِيعِ العَاصِيَ المُرِيبَ أَبَداً، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي»[٢]. وقوله: «أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَايَنْفَعُهُ ٱلحقُّ يَضْرُرهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لا يستقم بِهِ الهُدَىٰ يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَىٰ الرَّدَىٰ، أَلَا وَإِنَّكُمْ قَد أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَدُلِلْتُمْ عَلى الزَّادَ.

وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: ٱتِّبَاعُ الهَوَى، وَطُولُ ٱلأَمَلِ،...»[٣] وقال في خطبة يخوّف فيها أهل النهروان:

«فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَىٰ بِأَثْنَاءِ هٰذَا النَّهَرِ، وَبِأَهْضَامِ هٰذَا ٱلْغَائِطِ، عَلَىٰ غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ، قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ، وَٱحْتَبَلَكُمُ ٱلمِقْدَارُ، وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ المخالفين، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَىٰ هَوَاكُمْ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ ٱلْهَامِ، سُفَهَاءُ ٱلأَحْلَامِ، وَلَمْ آتِ ـ لَا أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً، وَلَا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً»[٤].

---

١ ـ الدكتور أحمد محمد الحوفي: بلاغة الإمام علي. (المؤلف)، نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٤١.(المحقق)

٢ ـ اللدم: صوت الحجر أو العصا تدقُ بها الأرض دقاً هيناً يصحبه قول الصائد عند حجر الضبع: خامري أم عامر، أي الزمي حجرك، فتنام، فيدخل إليها ويصيدها ـ المصدر.(المؤلف)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٧٢، تحف العقول: ١٥٢، الغارات ٢:٦٣٥، الارشاد للمفيد ١:٢٦٥.(المحقق)

٤ ـ الأهضام جمع هضم على وزن نهر وهو المطمئن من الوادي. الغائط: ما سفل من الأرض. البجر:

وقوله من خطبة له عند مسيره إلى البصرة:

«إِنَّ ٱللهَ سُبحانَه بَعَثَ مُحَمَّداًصلى الله عليه وآله، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَٱطْمَأَنَّتْ صِفَاتُهُمْ.

أَمَا وَٱللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، مَا عَجَزْتُ،وَلا جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسِيرِي هٰذَا لِمِثْلِهَا، فَلَأَنْقُبَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ ٱلْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ.

مَالي وَلِقُرَيْشٍ! وَٱللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ... »[1].

٣ ـ **سهولة التعبير**، مثل قوله في كتاب إلى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر:

«فَعِنْدَ ٱللهِ نَحْتَسِبُهُ، وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دَافِعاً.

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَىٰ لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ ٱلْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ ٱلآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ ٱلْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمُ ٱلْقَاعِدُ خَاذِلاً»[2].

وقوله في رسالة إلى عمرو بن العاص قبل التحكيم:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلاَّ فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهَجاً بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ!وَلَوِ ٱعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَىٰ حَفِظْتَ مَا بَقِيَ، وَالسَّلَامُ»[3].

وقوله في خطبة له بعد أن بلغه مقتل محمد بن أبي بكر:

«اسمعوا قولي، وأطيعوا أمري، فوالله لئن أطعتموني لا تغورن، وإن عصيتموني لا ترشدون. خذوا للحرب أهبتها، وأعدّوا لها عُدَّتها، فقد شبَّت نارها... إلاّ إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى في الجدِّ في غيِّهم وضلالتهم من أهل البر والزهادة

الداهية والأمر العظيم.(المؤلف)

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٨٧، شرح نهج البلاغة ٢:١٨٥.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٦٠، الغارات ٢:٧٦٤، شرح نهج البلاغة ١٦:١٤٥.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٧٨، الكافي ٥:٣١٣، شرح نهج البلاغة ٢:٢٢٧.(المحقق)

والإخبات في حقهم وطاعة ربهم.

إنّي والله لو لقيتهم فرداً وهم مِلاءُ الأرض ما باليتُ ولا استوحشتُ، وإني من ضلالتهم التي هم فيها والهدى الذي نحن عليه لعلى ثقة وبيّنة ويقين وبصيرة. فانفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون[1].

٤ ـ **قصر الفقرات**: مثل قوله لما أغار النعمان بن بشير الأنصاري على عين التّمر:

«مُنِيتُ بِمَنْ لاَ يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، أَبَا لَكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُمْ؟! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً، وَأُنادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاَ تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّىٰ تَكَشَّفَ ٱلْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ ٱلْمَسَاءَةِ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَلاَ يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ، دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ ٱلنِّضْوِ ٱلْأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾»[2].

وقوله:

«فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ ٱلْإِبِلِ ٱلْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا، قَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا، حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلَّبْتُ هٰذَا ٱلْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّىٰ مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ ٱلْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ ٱلْعِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ ٱلْآخِرَةِ»[3].

وقوله في كتاب إلى أمراء جيوشه:

«أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلَّا فِي حَرْبٍ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ،

---

١ ـ الغارات ١: ٣١٩، كشف المحجة لابن طاووس: ١٨٧، شرح نهج البلاغة ٦: ١٠٠، الامامة والسياسة: ١٧٨ تحقيق الشيري /١: ١٣٦ تحقيق الزيني. (المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ٩٠، الغارات ١: ٢٩١/٢: ٤٥٤، شرح نهج البلاغة ٢: ٣٠٠. (المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ١٠٣، الجمل لابن شدقم المدني: ٩٧، شرح نهج البلاغة ٤: ٦، المعيار والموازنة لابي جعفر الاسكافي: ٤٩. (المحقق)

وَلا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّاً عَنْ مَحَلِّهِ، وَلا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً، فَإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ وَجَبَتْ لله عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ، وَأَلَّا تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا ٱلْغَمَرَاتِ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ»[١]..

٥ ـ كثرة الصيغ الإنشائية، وهي: «الأمر والنهي والاستفهام والترجي والتمني والنداء والقسم والتعجب» وهي «أقوى من الصِّيغ الخبرية تجديداً لنشاط السامعين، وأشد تنبيهاً وأكثر إيقاظاً، وأدعى إلى مطالبتهم بالمشاركة في القول وفي الحكم. وهي في الوقت نفسه أدق في تصوير مشاعر الخطيب وأفكاره، لأن أفكاره ومشاعره المتنوعة في حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها.

ثم إن مغايرة الأساليب تستتبع مغايرة في نبرات الصوت وفي الوقفة والإشارة وطريقة الإلقاء، وهذا كله عون على الوضوح من ناحية وعلى التأثير في السامعين من ناحية»[٢].

أمثلة ونماذج

١ ـ من الأمر قوله:

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا أَصْغَرَ في أَعْيُنِكُمْ مِنْ حُثَالَةِ ٱلْقَرَظِ»[٣] و «فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ ٱلْأُمَمَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ ٱللهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ، وَٱتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَٱسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ ٱلْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ»[٤] وقوله: «لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ»[٥].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣: ٧٩، الامالي للطوسي: ٢١٧، المعيار والموازنة: ٤٩، شرح نهج البلاغة ١٧: ١٦. (المحقق)

٢ ـ الدكتور أحمد محمد الحوفي: بلاغة الإمام علي. (المؤلف)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ٧٩، وتكملت القول: (... وقراضة الجلم، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم). (المحقق)

٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٣: ١٤٧، وذكره شرف الدين في

٢ ـ ومن النهي قوله:

«فَلَا تَجْعَلَنْ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً»(٦) و «أَلَا وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ ٱلآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا»(٧).

و«لَا تَقْتُلُوا ٱلْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ ٱلْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ»(٨).

«وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ ٱلظَّلَمَةِ، وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ ٱلإِدْهَانُ عَلَىٰ ٱلْمَعْصِيَةِ... لَا تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ ٱلْحَسَدَ يَأْكُلُ ٱلإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا ٱلْحَالِقَةُ...»(٩).

و«فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ ٱلْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ، إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ»(١٠).

و«فإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا»(١١).

و«عِبَادَ ٱللهِ، لَا تَرْكَنُوا إِلَىٰ جَهَالَتِكُمْ، وَلَا تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ»(١٢).

و«لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا ٱلْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا ٱلْبَاطِلُ»(١٣)، و «فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب»(١٤).

وقوله: « فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ ٱلْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ

المراجعات: ٣٠٤.(المحقق)

٥ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٧٧، شرح نهج البلاغة ٩:٢٨٢.(المحقق)

٦ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١٧، شرح نهج البلاغة ١٥:١١٧.(المحقق)

٧ ـ تاريخ مدينة دمشق ٤٢:٤٩٤، مناقب الخوارزمي :٣٦٣.(المحقق)

٨ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٠٣، جواهر الكلام ٢:٣٣٢، علل الشرائع ١:٢١٨.(المحقق)

٩ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٥٠، تحف العقول: ١٥٠.(المحقق)

١٠ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٥٨.(المحقق)

١١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٨٩.(المحقق)

١٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٢١٠، المعيار والموازنة: ٢٧٨، شرح نهج البلاغة ٧:١٦٧.(المحقق)

١٣ ـ كشف الغمة ٢:١٣٨، تفسير نور الثقلين ٥:٣٥٦.(المحقق)

١٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٣٢، الكافي ٨:٣٩٠، شرح نهج البلاغة ٩:١٠٦.(المحقق)

ٱلْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِيَ ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي... فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ،...»(١).

٣ـ ومن الأستفهام قوله:

«أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ أَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ! لَقَدْ ﴿ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾!»(٢).

وقوله: «أَصْبَحْتُ وَٱللهِ لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوعِدُ ٱلعَدُوَّ بِكُم. مَا بَالُكُم؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ ٱلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ، أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ! وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ! وَطَمَعاً في غَيْرِ حَقٍّ؟!»(٣) وقوله: أيها الناس، «إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ... وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا في زَمَانٍ ٱتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ ٱلْغَدْرَ كَيْساً، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ ٱلْجَهْلِ فِيهِ إِلى حُسْنِ ٱلْحِيلَةِ، مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ ٱللهُ! قَدْ يَرَىٰ ٱلْحُوَّلُ ٱلْقُلَّبُ وَجْهَ ٱلْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ»(٤).

وقوله: «هَلْ تُحِسُّ بِهِ ـ ملك الموت ـ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّىٰ أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّىٰ ٱلْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؟! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟!»(٥)

وقوله:

«أَيْنَ ٱلْعُقُولُ ٱلْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ ٱلْهُدَىٰ، وَٱلأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَىٰ مَنَارِ ٱلتَّقْوَىٰ؟! أَيْنَ

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٢٠١، الكافي ٨: ٣٥٦، شرح نهج البلاغة ١١: ١٠٢.(المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٤: ٦٣.(المحقق)

٣ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ٥٧، شرح نهج البلاغة ٢: ١١١.(المحقق)

٤ ـ الحُوَّل القُلَّب: المجرّب المحنّك. الحريجة: الحرج والتقوى. (المؤلف)، أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ٩٢، خصائص الأئمة: ٩٨، مستدرك الوسائل ١١: ٤٧، ونقله في المزار محمد بن المشهدي (٦١٠ هـ): ٢٧٦ والمعيار والموازنة: ٩٦ وابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢: ٣١٢.(المحقق)

٥ ـ انظر تفسير نور الثقلين ٤: ٢٢٥.(المحقق)

ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي وُهِبَتْ لِلهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَىٰ طَاعَةِ ٱللهِ؟!»[١].

٤ـ ومن الترجّي قوله:

«فَاسْمَعُوا قَوْلي، وَعُوا مَنْطِقِي، عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هٰذَا ٱلأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ فِيهِ ٱلسُّيُوفُ»[٢].

«وَلَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ ٱلْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ ٱلأُمَّةِ»[٣].

وقوله: «لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ...»[٤].

وقوله: «وَلٰكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِيإِلَىٰ تَخَيُّرِ ٱلأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَاطَمَعَ لَهُ فِي ٱلْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ»[٥].

٥ ـ ومن التمني قوله:

«يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ! حُلُومُ ٱلأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ ٱلحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً ـ وَٱللهِ ـ جَرَّتْ نَدَماً»[٦].

وقوله: « قَدْ دَارَسْتُكُمُ ٱلْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ ٱلْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ ٱلأَعْمَىٰ يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ!...»[٧].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٢٨، شرح نهج البلاغة ٩:٨٨.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٢٣، شرح نهج البلاغة ١:١٩٥/٩:٤٩، تاريخ الطبري ٣:٣٠٠.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٥ (المحقق)

٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٢٣.(المحقق).

٥ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٧٢، شرح أصول الكافي ٨:٣٦٥، المستدرك ١٦:٣٠١، شرح نهج البلاغة ١٦:٢٨٦.(المحقق)

٦ ـ شرح نهج البلاغة ٢:٧٥، نهج البلاغة صبحي الصالح: ٢٧.(المحقق)

٧ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:١٠١، شرح نهج البلاغة ١٠:٦٧.(المحقق)

٦ ـ ومن النداء قوله:

«أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ...»(١).

وقوله: «فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ»(٢).

وقوله: «أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلامُكُم يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ»(٣).

وقوله: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا في دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ»(٤).

٧ ـ ومن القسم قوله:

«وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِفاً»(٥).

وقوله: «أَمَا وَاللهِ مَا أَتَيْتُكُمُ اخْتِيَاراً، وَلكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً».

وقوله: «وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ، لأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لاَ يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلاَّ كَلَعْقَةِ لاَعِقٍ»(٦).

وقوله: «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا...»(٧).

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٤٠، عيون الحكم والمواعظ: ٢٩٨، شرح نهج البلاغة ١:٢١٣، الدرجات الرفيعة: ٨٦.(المحقق)

٢ ـ عوالي اللئالي لابن جمهور الاحسائي ٤:١١٤.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٧٣، الغارات ٢:٤٨٣و٦٨٩ وبسيط من الاختلاف في الارشاد للمفيد ١:٢٧٣.(المحقق)

٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٧٧، شرح نهج البلاغة ٢:١٧٦.(المحقق)

٥ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٥٩/٢:١٩، الارشاد للمفيد ١:٢٥١، عيون الحكم والمواعظ: ١١٠، الجمل لابن شدقم المدني: ١١٧.(المحقق)

٦ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٣٦، شرح نهج البلاغة ٤:٥٠/١٦:٣، والكلمة لعق لاعق: يراد بها تحقير الشيء، وانظر أنساب الاشراف للبلاذري: ٤٣٠ في الهامش.(المحقق)

٧ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٣٦ ـ ٣٧، وذكرها الصدوق في علل الشرائع ١:١٥١.(المحقق)

وقوله: «وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا ٱخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ، وَأَيْمُ ٱللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً!»(١).

وقوله: «والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها، فكيف بالنفس التي قتلُها عند الله حرام؟»(٢).

٨ ـ ومن العجب قوله:

«سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ ٱلْآخِرَةِ!»(٣).

وقوله: «وَٱسْتَتِمُّوا نِعَمَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَٱلْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ»(٤).

«مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي ٱلْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ ٱلْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي ٱلْعُمُرِ!»(٥).

وقوله: «فَيَا عَجَباً! عَجَباً ـ وَٱللهِ ـ يُمِيتُ ٱلقَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن ٱجْتِمَاعِ هٰـؤُلَاءِ القَوْمِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ!»(٦).

وقوله: «فَيَاعَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي...»(٧).

٩ ـ السجع والترسُّل: جاء في إحدى خطبة:

«فَلْيَقْبَلِ ٱمْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرِ ٱمْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ،

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:١٠٥، الغارات ٢:٣٧٣، شرح نهج البلاغة: ٣٣.(المحقق)

٢ ـ تاريخ الطبري ٤:٦٣.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٢١٠، وفيه (ما أهول مانرى من ملكوتك)، المعيار والموازنة: ٢٥٧، شرح نهج البلاغة ٧:١٩٤.(المحقق)

٤ ـ نهج البلاغة لصبحي الصالح: الحكمة ٢٢٤.(المحقق)

٥ ـ شرح نهج البلاغة ١٣:٩٩.(المحقق)

٦ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٦٩.(المحقق)

٧ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١٠، شرح نهج البلاغة ١٤:٤٧.(المحقق)

وَقَلِيلِ مُقَامِهِ، فِي مَنْزِلٍ حَتَّىٰ يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ.

فَطُوبَىٰ لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ ٱلسَّلاَمَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ ٱلْهُدَىٰ قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ، وَٱسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ ٱلْحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ»[١].

وقوله: «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِـالدِّينِ ٱلمشْهُورِ، وَٱلعَلَمِ ٱلمأْثُورِ، وَٱلكِتَابِ ٱلمسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ، وَٱلأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَٱحْتِجَاجاً بِالبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالمَثُلاَتِ، وَالنَّاسُ في فِتَنٍ ٱنْجَذَمَ فِيها حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي اليَقِينِ، وَٱخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَتَشَتَّتَ ٱلأَمْرُ، وَضَاقَ ٱلْمَخْرَجُ، وَعَمِيَ ٱلمَصْدَرُ، فَالهُدَىٰ خَامِلٌ، والعَمَىٰ شَامِلٌ...»[٢].

ومن قوله لما أنكر عليه الخوارج تحكيم الرجال: «إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا ٱلْقُرْآنَ. وهٰذَا ٱلْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ.

وَلَمَّا دَعَانَا ٱلْقَوْمُ إِلَىٰ أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا ٱلْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ ٱلْفَرِيقَ ٱلْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ ٱللهِ، وقَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ وَالرَّسُولِ﴾، فَرَدُّهُ إِلَى ٱللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ ٱللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِهِ فَنَحْنُ أَوْلاَهُمْ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ؟

فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ ٱلْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ ٱلْعَالِمُ، وَلَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ ٱلْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَلاَ تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا...»[٣].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١٩٦:٢، شرح نهج البلاغة ٦٥:١١.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢٨:١، شرح نهج البلاغة ١٣٦:١، وذكره ابن منظور في لسان العرب ١٩٣:٥، وابن الاثير في النهاية ٢١:٥.(المحقق)

٣ ـ أكظام: جمع كظم وهو مخرج النفس. (المؤلف)، أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٥:٢،

وقوله: «من ترك الجهاد في الله، وأدهَنَ في أمره، كان على شفا هُلكه، إلاّ أن يتداركه الله بنعمة، فاتقوا الله، وقاتلوا من حادَّ الله، وحاول أن يطفيء نوره.

قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين الذين ليسوا بقرّاء للقرآن، ولا فقهاء في الدين ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام. والله وَلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل. تيسّروا وتهيأوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم، فإذا قدموا فاجتمعتم، شخصنا إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله»(١).

١٠ ـ **التوازن**. كثيراً ما تجيء الجمل في نهج البلاغة متوازنة، بأن يتساوى عدد كلماتها، أو تتماثل أوزان نهاياتها، وهذا ضرب آخر من موسيقى التعبير، ويجيب إلى السمع، ويقربُه إلى الذوق(٢).

ومن الموازنة قول الإمام علي:

«لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ٱبْتَدَأَ، وَلَا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ،وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ...»(٣).

وقوله: «وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ ٱلْمُدَّةِ، وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ ٱلْجَدِيدَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ، وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالفَوْزِ أَوالشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ ٱلْعُدَّةِ،... فَيَالَهَا حَسْرَةً عَلَىٰ كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ!

الاحتجاج للطوسي ١: ١٠٣، وذكره الفيض الكاشاني في تفسير الصافي ١: ٤٦٥.(المحقق)

١ ـ تاريخ الطبري ٤: ٥٧. (المحقق)

٢ ـ الدكتور أحمد محمد الحوفي: بلاغة الإمام علي.

«والتوازن أو الموازنة بهذا المعنى أعم من السجع، لأن السجع ورود أجزاء الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد مثل القريب والحسيب والغريب، أما الموازنة بين أواخر الكلمات فهي مثل القريب والشهيد والجليل، فالوزن واحد والحرف الأخير مختلف» ـ المصدر نفسه.(المؤلف)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ١١٣، الغارات ١: ١٧٤، شرح نهج البلاغة ٥: ١٥٣.(المحقق)

نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ، وَلاَ تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلاَ كَآبَةٌ»[١].

وكذلك قوله: «**إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتُبِطُوا بِمَا رُزِقُوا...**»[٢].

«وقد يجيء التوازن في داخل الجمل لا في نهاياتها، فيؤلف انسجاماً في نطق الكلمات وفي سماعها، مثل قوله: «**الْحَمْدُ للهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلاَ مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلاَ مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لاَ تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلاَ تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ**»[٣] فإنّ هنا موازنة بين مقنوط ومخلوّ وميؤوس.

١١ ـ الجناس، الطباق، والمقابلة، والتوشيع.. إلخ.

كما استعرض د. الحوفي، أمثلة عديدة عن الخيال البياني في خطب علي بن أبي طالب ورسائله ـ وما تعتمده من (**التشبيه**) و (**الاستعارة**) و (**الكناية**) و(**المجاز**) ـ وهي عدة الشاعر والخطيب والكاتب، التي برع فيها علي براعة منقطعة النظير، في شتى شؤون المعرفة، والعقل، والنفس، وفي مختلف قضايا البشر، والدين والدنيا.

ميزة خاصة

إن نهج البلاغة ـ كما يقول ابن أبي الحديد ـ إذا تأملته، «**وجدته كله ماء واحداً، ونفساً واحداً، وأسلوباً واحداً كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية**».. وهو ـ في عظمته الأسلوبية ـ يحتوي على عبقرية الحسن اللفظي، تلك العبقرية التي تتمثل في علاقة اللفظة بالأخرى، والتي ترد في خطب، وفقرات ممتازة

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ٥:١٤٥.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٢٢٢.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٩٥.(المحقق)

التميّز، تأخذ فيها اللفظة بعنق قرينتها، جاذبة إياها إلى نفسها، دالة عليها بذاتها»[١].

وذلك باعتراف جعفر بن يحيى، الذي كان من أبلغ الناس وأفصحهم كما رأى الجاحظ. قال الجاحظ: حدثني ثمامة، قال:

«سمعت جعفر بن يحيى ـ وكان من أبلغ الناس وأفصحهم ـ يقول: الكتابة بضم اللفظة إلى أختها، ألم تسمعوا قول شاعر لشاعر ـ وقد تفاخر ـ أنا أشعر منك، لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه، ثم وناهيك حسناً بقول علي بن أبي طالب :

«هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مجازٍ أَوْ مَحَارٍ!»[٢].

قال أبو عثمان (الجاحظ): وكان جعفر يُعجب أيضاً بقول علي:

«أين من جد واجتهد، وجمع واحتشد، وبنى فشيد، وفرش فمهّد، وزخرف فنجّد».

قال: **«ألاترى أن كل لفظة منها آخذة بعنق قرينتها، جاذبة إياها إلى نفسها، دالة عليهالذاتها»**[٣].

وقد روى هذا كله أيضاً ابن مسكويه في كتابه (الحكمة الخالدة) بأسلوب آخر عن جعفر بن يحيى. والفقرات التي حكى الجاحظ اعجاب جعفر بن يحيى بها، وهي (هل من مناص أو خلاص إلخ..) هي من بعض فصول هذه الخطبة.

أما الفقرات التي أعجب بها جعفر وهي (أي من جد واجتهد الخ..) فهي من خطبة أخرى ذكرها ابن عبد ربه في العقد الفريد.

وأولها: **أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته وبتقديم العمل وترك الأمل، فإنه من فرَّط في عمله لم ينتفع بشيء من أمله...»**[٤].

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١:٩.(المحقق)

٢ ـ محار: مرجع إلى الدنيا بعد فراقها. (المؤلف)، أنظر انظر نهج البلاغة ٦:٢٧٧.(المحقق)

٣ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦:٢٧٧، وقال (أبو عثمان) الجاحظ: فكان جعفر بن يحيى يُسمي علياً فصحيح قريش. (المحقق)

٤ ـ جواهر المطلب لابن الدمشقي ١:٢٤٣ ونقلها عن ابن عبد ربه، المحمودي (المعاصر) في نهج السعاده ٣:١٣٤.(المحقق)

النص الوصفي

إن ذكاء علي بن أبي طالب النادر، كان يستعين بذاكرة قوية، وقدرة هائلة على اختزان صور الناس والطبيعة، وأخبار البشر، وأوصاف الأشياء، وكانت دقة ملاحظته تجعله محيطاً إحاطة مدهشة، بسمات الشيء الباطنة، قبل الظاهرة.

وبفعل ذلك كان وصفُه يتغلغل إلى عمق الظاهرة، أو الصفة، كما يتسع ليربط الظاهرة، بالأخرى، والصفة بالأخرى، ليقدّم رؤية شاملة، تضع الجزئي في موضعه الحقيقي ضمن العام، وتضع البعض ضمن الكل. وبما أن أبلغ وصف هو ذلك الذي ينقل الصور البليغة للأشياء ويعكسها بأجمل تعبير، وأقوى إيحاء، وأدق وصف، وأجلى تعبير، فإن سحر البيان الذي أوتيَهُ علي بن أبي طالب، كان يجعل من عملية الانعكاس الوصفي قطعاً فريدة من النصوص الوصفية التي تفخُر بها العربية.

ومثل شأن علي بن أبي طالب، في معرفته بالعلوم اللغوية، والفقهية، والشرعية، والعسكرية، كانت الفنون الأسلوبية المميزة لقدرته البلاغية، والمجسِّدة لفكره الثاقب، تجعله مبدعاً في ميادين الأساليب المتعددة. فهو يقدم النص الوصفي بالقدرة الرائعة، التي يقدم بها النص السياسي، أو الفقهي، أو الأخلاقي. ورغم أن وصف الأشياء يتصل اتصالاً دقيقاً بعملية انعكاس الأشياء نفسها في الذهن، إلاّ أن طبيعة النفس المرهفة، والعقل النير، تجعل من عملية الانعكاس إعادة خلق صوري للموصوف، فيصبح الموصوف (في الصورة البلاغية) يشبه الحقيقة الملموسة للشيء الموصوف، ويتجاوزه بالجمالية الممنوحة إليه من داخل كلمات النص.

إن علياً بن أبي طالب كان يستنطق الصفات، واهباً إياها المقدرة على أن تستعرض نفسها، بشفافية أكثر[1].

---

١ ـ لاحظ دعائه عليه السلام والمسمى بـ«دعاء الصباح»:

«اللّهُمّ يا مَن دَلَعَ لِسانَ الصَّباحِ بِنُطقِ تَبَلُّجِهِ، وَسرَّحَ قِطَعَ اللَّيلِ المُظلِمِ بِغَياهِبِ تَلَجْلُجِهِ، وَأَتقَنَ صُنعَ ☜

لقد تميز: «بقوة ملاحظة نادرة، ثم بذاكرة واعية تخزن وتتسع، فتيسرت له من ذلك جميعاً عناصر قوية تغذي فكره، وتقوّي خياله، فتسهل عليه محاكمة الأشياء والمقارنة بين عناصرها لإثبات أرجحها وأفضلها للبقاء والتعميم.

وحديثه عن الطبيعة بمظاهرها الحية بما يتخللها من قواعد ونواميس حياتية وما يحكمها من إرادة خفية دقيقة التنظيم والصنع، وكلامه عن السحاب والزرع والحيوانات المختلفة المتباينة كالخفاش والطاووس والنملة، وتحليله الأوضاع الاجتماعية والغرائز الإنسانية، يعتبر في ذروة أنموذج التفكير العلمي المبدع المبني على دقة الملاحظة والإدراك الواعي، وهو بذلك كما يقول العقاد تلميذ ربّه جلّ وعلا»(١).

قال في وصف النملة:

«ٱنْظُرُوا إِلَى ٱلنَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ ٱلْبَصَرِ، وَلَا

الفَلَكِ الدَّوَّارِ فِي مَقَادِيرِ تَبَرُّجِهِ، وَشَعْشَعَ ضِيَاءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَأَجُّجِهِ، يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَجَلَّ عَنْ مُلَائَمَةِ كَيْفِيَّاتِهِ، يَا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَرَاتِ الظُّنُونِ، وَبَعُدَ عَنْ لَحَظَاتِ العُيُونِ، وَعَلِمَ بِمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، يَا مَنْ أَرْقَدَنِي فِي مِهَادِ أَمْنِهِ وَأَمَانِهِ، وَأَيْقَضَنِي إِلَى مَا مَنَحَنِي بِهِ مِنْ مِنَنِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَكَفَّ أَكُفَّ السُّوءِ عَنِّي بِيَدِهِ وَسُلْطَانِهِ، صَلِّ اللّهُمَّ عَلَى الدَّلِيلِ إِلَيكَ فِي اللَّيْلِ الأَلْيَلِ، وَالمَاسِكِ مِنْ أَسْبَابِكَ بِحَبْلِ الشَّرَفِ الأَطْوَلِ، وَالنَّاصِعِ الحَسَبِ فِي ذِرْوَةِ الكَاهِلِ الأَعْبَلِ، وَالثَّابِتِ القَدَمِ عَلَى زَحَالِيفِهَا فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ وَعَلَى آلِهِ الأَخْيَارِ المُصْطَفَيْنَ الأَبْرَارِ، وَافْتَحْ اللَّهُمَّ لَنَا مَصَارِيعَ الصَّبَاحِ بِمَفَاتِيحِ الرَّحْمَةِ وَالفَلَاحِ، وَأَلْبِسْنِي اللَّهُمَّ مِنْ أَفْضَلِ خِلَعِ الهِدَايَةِ وَالصَّلَاحِ، وَأَغْرِسِ اللَّهُمَّ بِعَظَمَتِكَ فِي شُرْبِ جِنَانِي يَنَابِيعَ الخُشُوعَ...».

وربما فات المؤلف الإستشهاد بهذا الدعاء وما فيه من روائع الصور البلاغية وما فيها من التحسس الواضح في الحركة، وكأنه يرسم لوحات فنية غاية في الجمال ودقة الوصف. ورغم ما أن المؤلف قد ذكر أهمية الدعاء وأثره عند علي بن أبي طالب، وسرعه استجابته، كما حصل مع بسر بن أرطأة إلا إنّه للأسف فاته التعليق الأدبي على الصور الجمالية في اللوحات البلاغية لأغلب ما جاء في أدعية الإمام. ونعلن هذا الأسف لما امتاز به المؤلف من أسلوب أدبي عالٍ في التعبير، مع دقة إلتفاتاته لشفافية اللفظ وجمالياته من خفايا النص، وهذا ما يلتمسه القارئ من قدرة المؤلف التعبيرية من هذا الكتاب على الأقل. (المحقق)

١ ـ علي محمد الحسين الأديب: منهج التربية عند الإمام علي. (المؤلف)

بِمُسْتَدْرَكِ ٱلْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَىٰ أَرْضِهَا، وَصَبَّتْ عَلَىٰ رِزْقِهَا، تَنْقُلُ ٱلْحَبَّةَ إِلَىٰ جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وُرُودِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا[١]، لَا يُغْفِلُهَا ٱلْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا ٱلْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ ٱلْجَامِسِ![٢]

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أُكْلِهَا، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا[٣]، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً!

فَتَعَالَىٰ الَّذِي أَقَامَهَا عَلَىٰ قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَىٰ دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَىٰ خَلْقِهَا قَادِرٌ.

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ ٱلدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَىٰ أَنَّ فَاطِرَ ٱلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ ٱخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ!...»[٤].

وقال يصف الخفّاش:

«وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ ٱلْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ ٱلْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ ٱلْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ ٱلْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَىٰ مَعَارِفِهَا.

وَرَدَعَهَا بِتَلَأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ ٱلْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا[٥]، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ٱئْتِلَاقِهَا[٦]، فَهِيَ مُسْدَلَةُ ٱلْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَىٰ حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ

---

١ ـ وِفقها: أي بما يوافقها من الرزق ويلائم طبعها. (المحقق)

٢ ـ الجامس: الجامد. (المؤلف)

٣ ـ الشراسيف: أطراف الأضلاع التي تشرف على البطن والمفرد شرسوف. (المؤلف)

٤ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ١١٦، شرح أصول الكافي ٣: ١٥٦، الاحتجاج للطبرسي ١: ٢٠٥، شرح نهج البلاغة ١٣: ٥٥. (المحقق)

٥ ـ سُبحات إشراقها: درجات نورها. (المؤلف)

٦ ـ البلج: الضوء الواضح، الأئتلاق: اللمعان القوي. (المؤلف)

في ٱلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ[١]، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ ٱلْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ.

فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَىٰ الضِّبَابِ[٢] فِي وِجَارِهَا، أَطْبَقَتِ ٱلْأَجْفَانَ عَلَىٰ مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ[٣] بِمَا ٱكْتَسَبَتْهُ مِنَ ٱلْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَجَعَلَ النَّهَارَ لَهَا سَكَناً وَقَرَاراً! وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا ٱلآذَانِ ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَىٰ مَوَاضِعَ ٱلْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلَاماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا.

تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَاصِقٌ بِهَا لَاجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ٱرْتَفَعَتْ، لَايُفَارِقُهَا حَتَّىٰ تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ. فَسُبْحَانَ ٱلْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!»[٤].

وقال يصف الجرادة:

«وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي ٱلْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ[٥]، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ ٱلْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا ٱلْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا ٱلْحِسَّ ٱلْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ[٦]. يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا[٧]، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِم، حَتَّىٰ تَرِدَ ٱلْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا[٨]، وَتَقْضِي مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً!»[٩].

وقال في وصفه للطاووس:

«يَمْشِي مَشْيَ ٱلْمَرِحِ ٱلْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَهُ، فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ،

---

١ ـ إسداف: إظلام.(المؤلف)
٢ ـ الضِّباب: جمع ضَبّ.(المؤلف)
٣ ـ تبلّغت: تناولت القوت.(المؤلف)
٤ ـ شرح نهج البلاغة ٩:١٨١.(المحقق)
٥ ـ قمراوين: مضيئتين.(المؤلف)
٦ ـ منجلين: رجلين (شبههما المنجلين لاعوجاجهما وخشونتهما).(المؤلف)
٧ ـ ذبّها: دفعها وأبعدها.(المؤلف)
٨ ـ نزواتها: وثباتها.(المؤلف)
٩ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:١١٨.(المحقق)

وَأَصَابِغِ وِشَاحِهِ؛ فَإِذَا رَمَىٰ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ قَوَائِمِهِ زَقَامُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ ٱسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ ٱلْخِلَاسِيَّةِ.

وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ ٱلْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ، وَمَخْرَجُ عَنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ، وَمَغْرِزُهَا إِلَىٰ حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ ٱلْوَسِمَةِ ٱلْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ،...»[١].

وقال ينفي زعم من يقول إن الطاووس يلقح أنثاه بدمعة تذرفها عينه فتشربها أنثاه فتحمل:

«كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَي جُفُونِهِ، وأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذٰلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ ٱلْمُنْبَجِسِ، لَمَا كَانَ ذٰلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ ٱلْغُرَابِ!»[٢].

ومن كلامه له في الأرض قال رداً على رغم أن الأرض تدور على قرن ثور وغير ذلك من الأباطيل والأوهام:

«وَأَنْشَأَ ٱلْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ ٱشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَىٰ غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ»[٣].

---

١ ـ زقا: صوت. معولاً: صارخاً (أي أنه يزهى بنفسه، فإذا نظر إلى ساقيه، أعول حزيناً لأنهما قبيحتان). الظنبوب: حرف الساق. صيصية: شوكة في رجله. العرف: الشعر المرتفع على عنقه ورأسه. القنزعة: الشعر حول الرأس. الوسمة: العظم الذي يخضب به.(المؤلف)، وأنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٧٣، شرح نهج البلاغة ٩: ٢٧١. (المحقق)

٢ ـ أي أن هذا الزعم كائن أيضاً في الغراب، إذ قالوا إن تلقيحه يكون بانتقال جزء من الماء المستقر في قانصة الذكر إلى الأنثى فتتناوله من منقاره، ومنشأ هذا الزعم في الغراب أنه يخفي تلقيحه. (المؤلف)، أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ٧٢، شرح نهج البلاغه ٩: ٢٦٨.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢: ١٢٣، الاحتجاج للطبرسي ١: ٣٠٣، شرح نهج البلاغة ١٣: ٨٧، ويكتمل قول الامام في الوصف، قائلاً: «وحصنها من الاود والاعوجاج، ومنعها من التهافت والأنفراج، ارسى اوتادها، وضرب اسدادها، واستفاض عيونها، وخد أوديتها، فلم يهن مابناه ولا ضعف ماقواه.(المحقق)

وقال في تكوين الجبال:

«وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَاوَأَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا في مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا، فَمَضَتْ رُؤُسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي متُونِ أَقْطَارِهَا، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا (أي ثبّتها) أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِن أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا»[1].

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ١١: ٥١، تفسير نور الثقلين ٥: ٥٠٥.(المحقق)

خاتمة

إن النص النثري لعلي بن أبي طالب، اكتسب فوائد عظمى من الثقافة القرآنية في المضمون وفي الشكل، وكان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم، وبالحديث النبوي. وكان كثير الاستشهاد بالشعر، لأنه كان شاعراً بطبيعته. وفي ذلك يقول العقاد:

«وعندي أنه رضي الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل: من أشعر الناس؟ قال: «إن القوم لم يجروا في حلقة تعرف الغاية عند قصبتها فإن كان لابد فالملك الضّليل»[1].

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب، فلا تكون المقابلة «إلاّ بين أشباه وأمثال، ولا يكون التعميم بالتفضيل إلاّ على التغليب».

ومن أمثلة استشهاده بالشعر ما جاء في قوله بعد خديعة التحكيم:

وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ في هٰذِهِ ٱلْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ ٱلْمُخَالِفِينَ ٱلْجُفَاةِ، وَٱلْمُنَابِذِينَ ٱلْعُصَاةِ، حَتَّىٰ ٱرْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ[2]

---

١ ـ ويريد به (امرأ القيس) انظر نهج البلاغة شرح محمد عبده ٤: ١٠٤.

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٨٦، مناقب ابن شهر اشوب ٢:٣٧٠، المعيار والموازنة: ٩٦، شرح نهج البلاغة ١:١٦١/٢:٢٠٤/٤:١٩١٩١/٣٦:.(المحقق)

وجاء في خطبته وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، استشهاد بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَضَرٍ - مِنْ ذَا الإِنَاءِ - قَلِيلِ(١)

ويقول أبي جندب الهذلي:

هُنَالِكَ، لَوْ دَعَوْتَ، أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ(٢)

وختم خطبته عند مسيره للقتال في البصرة بقوله:

«والله ما تنقم منا قريش إلاّ أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيّزنا فكانوا كما قال الأول:

أدمت لعمري شُربكَ المحضَ صابحاً وأكلكَ بالزُّبدِ المقشَّرَةَ البُجرا

ونحنُ وهبناك العلاء ولم تكن علياً وحُطْنا حولك الجرْدَ والسُّمرا(٣)

ومن هذا كتابه إلى معاوية: «أما بعد فإنك قد ذُقت ضرّاء الحرب وأذَقتَها، وإني عارضٌ عليك ما عرض المخارق على بني فالج:

أيا راكباً إما عَرَضت فَبلِّغن بني فالج حيث استقر قرارُها

هلموا إلينا لا تكونوا كأنكم بلاقعُ أرضٍ طار عنها غبارها

سليم بن منصور أُناس بحرةٍ وأرضهم أرضٌ كثيرٌ وبارُها(٤)

ومن استشهاداته الشعرية:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ(٥)

وتمثله بقول امريء القيس:

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٦٤، شرح نهج البلاغة ١:٣٣٢.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٦٥.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٨٢.(المحقق)

٤ ـ الدكتور أحمد محمد الحوفي: بلاغة الإمام علي. (المؤلف)، وأنظر وقعة صفين: ٣٨٥، الاخبار الطوال: ١٨٥.(المحقق)

٥ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ١:٣٢ وهو من ضمن خطبته الشقشقية، شرح أصول الكافي ٧:٩٥، الارشاد للمفيد ١:٢٨٨.(المحقق)

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ [وَلَكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ][١]

وكذلك:

(وَعَيَّرها الواشونَ أنّي أُحبّها) وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا[٢]

(والشطرة التي بين القوسين لم يذكرها الإمام، وإنما هي تتمة البيت)

وقوله:

(وكم سقتُ في آثاركم من نصيحة) وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ[٣]

وقوله:

فَلَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ (لابأسَ بالموتِ إذا الموتُ نزل)[٤]

كذلك، قال أخو بني سليم:

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي صَبُورٌ عَلَىٰ رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَىٰ بِي كَآبَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ[٥]

ومن كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ[٦]

وقال يذكر ما قاله أخو بني أسد:

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ[٧]

---

١ ـ نهج البلاغة، من كلام له رقم ١٦٢ صفحة: ٢٣١، الارشاد للمفيد ١:٢٩٥، شرح ابن ابي الحديد في النهج ٩:٢٤١.(المحقق)

٢ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٣٣، الاحتجاج ١:٢٦٢.(المحقق)

٣ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٣٤.(المحقق)

٤ ـ انظر نهج البلاغة شرح محمد عبده (في الهامش) ٣:٣٥.(المحقق)

٥ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:٦٢.(المحقق)

٦ ـ ذكرهُ القندوزي في ينابيع المودة ١:٤٤٠، وجعفر مرتضى العاملي في الصحيح من السيرة ٩:١٦٠ عن نهج البلاغة لصبحي الصالح: ٤١٧ ط سنة ١٣٨٧ هـ (المحقق)

٧ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٣:١٢٣، والاحتجاج ١:٢٦٤.(المحقق)

إن الشعر يتخلل خطب علي بن أبي طالب ورسائله وأحاديثه، لكن عظمة نثره ظلت آيةً من آيات الأدب والحكمة والمعرفة، تفيض كنوزها بالتلقي، فتزدادُ ثراء وتألقاً.

وصدق إذ قال: «وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ ٱلْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ»[1].

---

١ ـ نهج البلاغة شرح محمد عبده ٢:٢٢٦، تحف العقول: ٧، الآمالي للمرتضى ٤:١٩، وشرح نهج البلاغة ١٣:١٢، ويختم قوله واصفاً وموعظاً: «واعلموا رحمكم الله انكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الادهان، فتاهم عارم، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق، وقارئهم مماذق، لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم».(المحقق)

المصادر التي اعتمدها المؤلف

١ ـ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر.

٢ ـ أبو جعفر الطبري: تأريخ الطبري.

٣ ـ ابن الأثير: الكامل.

٤ ـ المبرد: الكامل.

٥ ـ ابن هشام: السيرة النبوية.

٦ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد.

٧ ـ البلاذري: أنساب الأشراف.

٨ ـ ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة.

٩ ـ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني.

١٠ ـ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة.

١١ ـ الإمام الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف.

١٢ ـ د. أحمد محمد الحوفي: بلاغة الإمام علي.

١٣ ـ أندريه ميكيل: الإسلام وحضارته.

١٤ ـ إبراهيم الأبياري: معاوية.

١٥ ـ دافيدوف: مدخل علم النفس.

١٦ ـ طه حسين: الخلفاء الراشدون المجلد الرابع.

١٧ ـ يعقوب محمد المليجي: مبدأ الشورى في الاسلام.

١٨ ـ يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية.

١٩ ـ لبيت وجيه بيضون: تصنيف نهج البلاغة.

٢٠ ـ محمد كاظم القزويني: **علي من المهد الى اللحد.**

٢١ ـ محمد علي أسبر: **هل قرأت أباذر؟**

٢٢ ـ محمد جواد مغنيه: **علي والفلسفة.**

٢٣ ـ سورديل: **الحضارة الاسلامية في عصرها الذهبي.**

٢٤ ـ علي بن ابي طالب: **نهج البلاغة.**

٢٥ ـ عبد الكريم الخطيب: **علي بن أبي طالب ـ بقية النبوة وخاتمة الخلافة.**

٢٦ ـ علي بن محمد الوليد: **تاج العقائد ومعدن الفوائد.**

٢٧ ـ علي محمد الحسين الأديب: **منهج التربية عند الامام علي.**

٢٨ ـ عباس محمود العقاد: **عبقرية الامام علي.**

٢٩ ـ عبد الفتّاح عبد المقصود: **الإمام علي بن أبي طالب ـ المجموعة الكاملة.**

٣٠ ـ عبد الله نعمة: **مصادر نهج البلاغة.**

٣١ ـ عبد الرحمن الشرقاوي: **محمد رسول الحرية.**

٣٢ ـ عبد الرحمن الشرقاوي: **علي إمام المتقين.**

٣٣ ـ خالد محمد خالد: **في رحاب علي.**

٣٤ ـ جورج جرداق: **الإمام علي صوت العدالة الإنسانية.**

الأخطاء المطبعية في النسخة الأصلية للكتاب
(الطبعة الثانية مؤسسة الانتشار العربي - بيروت)

رقم الصفحة	الخطأ	الصحيح
١٢	وتكتفي	وتكتنفني
٢٢	تطاق	نطاق
٢٧	العيشرة	العشيرة
٣٣	وأطرها	وأطر
٣٩	قصيرة	قصير
٥٦	لحرب	الحرب
٦٨	لخيل	الخيل
٦٨	الضمير	للضمير
٧٠	يتزج	امتزج
٧٧	تزيه	تزكية
٨٢	الدنيا	الدينار
٨٢	المؤشرة	المؤثرة
٨٩	ن يمسلمه	بن مسلمة
٩١	يعبد ابن	يعبد الله ابن
٩٣	نبرىء	تُبرىء
٩٧	ابن	(زائدة)
٩٨	المرك	المكر
١٢١	كا	كان
١٢٢	بن	بين بني
١٢٨	مجمع	مجتمع
١٤٣	استنفد	استنفذ

رقم الصفحة	الخطأ	الصحيح
١٤٤	ليد	بيد
١٥١	نعني	تعني
١٥١	الدامبة	الدامية
١٥١	ونتجاوب	وتتجاوب
١٥٦	لايني	(زائدة وليس لها معنى)
١٦٩	ما تدمجر	ما تدمر
١٧٠	ولا نقوم	ولا تقوم
١٧١	يُعايعوه	يُبايعوه
١٧٢	بثين	بقين
١٨٣	أهيمته	أهميته
١٨٥	لغرابة	لقرابة
١٨٦	تهرون	ترون
١٨٧	الخيرة	الخبرة
١٩١	٣٥ ـ ٤٥ هـ	٣٥ ـ ٤٠ هـ وفي هذه الصفحة تداخل في الهوامش ٢٦ الزاحف الى الصفحة ١٩٢
١٩٥	زحف هامش رقم ٢٨ الى صفحة ١٩٦	
١٩٨	فقدان هامش رقم ٣٣	
٢٠٢	المنادين	الميادين
٢١٥	عليهم	عليه
٢٢١	يستغم	يستقم
٢٢٧	مكز	مركز
٢٣٠	أفكاره	أفكار

رقم الصفحة	الخطأ	الصحيح
٢٠٣	الأقانيم	الأقاليم
٢٠٦	غذاؤها	غذاؤه
٢٣١	دارسات	دراسات
٢٣٢	ركيزرة	ركيزة
٢٣٣	وتكيد	وتأكيد
٢٣٤	المطلعة	المُطلقة
٢٣٥	الإدارك	الإدراك
٢٣٥	السمؤولية	المسؤولية
٢٣٨	لالتزام	الالتزام
٢٤٣	يستهلمه	يستلهمه
٢٤٧	تُضاعي	تُضاهي
٢٥٩	بمطرية	بطمرية
٢٦٠	التسمك	التمسك
٢٦١	بعير	بعين
٢٦١	مختلفة	المختلفة
٢٦١	الفقر	والفقر
٢٦٢	الدل	العدل
٢٧٢	قدي	قديم
٢٨٣	الإمان	الإمام
٣٠٣	لعلي	(زائدة)

من إصدارات المؤلف

١ - **محمد ﷺ الحقيقة العظمى**: دار الأندلس - بيروت.
٢ - **علي بن أبي طالب عليه السلام... سلطة الحق**: مؤسسة الانتشار العربي - بيروت.
٣ - **متصوفة بغداد**: المركز الثقافي العربي - بيروت.
٤ - **تأملات في الحضارة والاغتراب**: دار الأندلس - بيروت.
٥ - **الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي**: دار الأندلس - بيروت.
٦ - **الدليل في التنظيم**: دار الطليعة - بيروت.
٧ - **المفتون (رواية)**: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.

وهي الرواية الأخيرة للمؤلف. طبعت عام ٢٠٠٣م، ويقول مراسل رويترز في لندن الاستاذ معد فياض: حمل مخطوطتها الى دار النشر الدكتور محسن الموسوي، شقيق عزيز السيد الجاسم والذي كان قد انتظر طويلاً رحيل صدام حسين ونظامه ليدفع بالرواية الى النشر، ويضيف: جاء في المقدمة التي لم يذكر اسم كاتبها، ومن المرجح أن يكون الكاتب محسن الموسوي هو ممن كتب المقدمة، والرواية فريدة في كونها واحدة من النصوص القليلة المعنية بوضع العراق.

٨ - **نحو تحريفية أوسع للفكر القومي العربي**: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٩ - **هل التطور اللارأسمالي حقيقة أم وهم؟**: دار الطليعة - بيروت.
١٠ - **المجالسية في النظرية والتطبيق**: دار الطليعة - بيروت.
١١ - **التصور البروجوازي الصغير في مواجهة البرجوازية الصغيرة**: دار الطليعة - بيروت.
١٢ - **مسائل مرحلية في النضال العربي**: دار الطليعة - بيروت.
١٣ - **موضوعات عن الثقافة والثورة**: دار الطليعة - بيروت.
١٤ - **موضوعات الجبهة الوطنية التقدمية**: دار النهضة - توزيع دار الطليعة.
١٥ - **الإصلاح الزراعي والمسألة الفلاحية**: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.
١٦ - **تأميم النفط ومستلزمات الثورة الوطنية الديمقراطية**: المؤسسة العربية - بيروت.
١٧ - **الحرية والثورة الناقصة**: المؤسسة العربية - بيروت.

١٨ ـ **مقالات:** دار النهضة ـ بيروت.
١٩ ـ **الثوري اللاثوري:** وزارة الإعلام ـ بغداد.
٢٠ ـ **البيروقراطية في العمل السياسي:** وزارة الإعلام ـ بغداد.
٢١ ـ **الانتهازية:** دار النهضة ـ بغداد.
٢٢ ـ **الوصولية:** دار النهضة ـ بغداد.
٢٣ ـ **الثورة ومنطق الحزب الثوري:** دار النهضة ـ بغداد.
٢٤ ـ **الثورة الواقعية:** دار النهضة ـ بغداد.
٢٥ ـ **القضية الكردية:** دار الحرية ـ بغداد.
٢٦ ـ **الحقيقة الاشتراكية الموسوعة الصغيرة ـ كيف تصبح نقيباً:** الاتحاد العام لنقابات العمال ـ بغداد.
٢٧ ـ **جدل القومية وتطبيقه في السياق التاريخي لنشوء الأمة العربية:** منشورات وعي العمال ـ بغداد.
٢٨ ـ **نحو وعي مسؤول وتطبيق خلاق:** منشورت وعي العمال ـ بغداد.
٢٩ ـ **الثورة ومهمات العمل التقدمي:** مطبعة السجل ـ بغداد.
٣٠ ـ **الثورة بين الأهداف والمعضلات:** دار الثورة ـ بغداد.
٣١ ـ **في الديمقراطية:** دار الثورة ـ بغداد.
٣٢ ـ **أجراس الرؤية في مسيرة الوحدة:** منشورات وعي العمال ـ بغداد.
٣٣ ـ **دراسات نقدية في الأدب الحديث:** وزارة الإعلام ـ بغداد.
٣٤ ـ **المناضل (رواية):** دار الطليعة ـ بيروت.
٣٥ ـ **حق المرأة بين مشكلات التخلف الاجتماعي ومتطلبات الحياة الجديدة:** المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت.
٣٦ ـ **ديالكتيك العلاقة المعقدة بين المادية والمثالية:** دار النهار ـ بيروت.
٣٧ ـ **مقتل جمال عبدالناصر:** بغداد.
٣٨ ـ **مبادىء الصحافة في عالم المتغيرات:** بغداد.
٣٩ ـ **الزهر الشقي (رواية):** بغداد.

مصادر التحقيق

٤٠ ـ **القرآن الكريم.**
٤١ ـ **الآحاد والمثاني:** ابن أبي عاصم الضحاك (٢٨٧ هـ) تحقيق باسم فيصل أحمد، الرياض، دار الراية، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م.
٤٢ ـ **أبوهريرة:** عبدالحسين شرف الدين الموسوي العاملي، المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، النجف الأشرف ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م.
٤٣ ـ **الاحتجاج:** احمد بن علي الطبرسي (٥٦٠ هـ)، تحقيق محمد باقر الخرسان، منشورات النعمان للطباعة والنشر ١٩٦٥م. وأخرى: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.
٤٤ ـ **احقاق الحق وإزهاق الباطل:** السيد نور الله الحسيني المرعشي التستري مكتبة النجفي المرعشي.
٤٥ ـ **أحاديث أم المؤمنين عائشة:** السيد مرتضى العسكري (معاصر)، طهران ١٣٨٠ هـ.
٤٦ ـ **الاحكام السلطانية:** أبو الحسن عليّ بن محمد الماوردي (٤٥٠ هـ)، دفتر التبليغات الاسلامي ـ الحوزة العلمية، قم.
٤٧ ـ **أحكام القرآن:** أحمد بن عليّ الرازيّ، أبوبكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) دار الفكر، بيروت.
٤٨ ـ **اخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان:** العباس بن بكار الضبي، تحقيق سكينة الشهابي، طبع مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٣ هـ.
٤٩ ـ **الأخبار الطوال:** أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (٢٨٢ هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر، دار احياء الكتب العربية، الطبعة الأولى / القاهرة، ١٩٦٠م.
٥٠ ـ **الاختصاص:** محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الشيخ المفيد (٤١٣ هـ)،

تحقيق علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في قم.
٥١ ـ **الأربعين في امامة الائمة الطاهرين:** محمد طاهر القمي الشيرازي (١٠٩٨هـ)، تحقيق مهدي رجائي، الطبعة الاولى ١٤١٨ هـ.
٥٢ ـ **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري:** أحمد بن محمد، شهاب الدين، أبي العابس القسطلاني (ت ٩٢٣ هـ) أوفسيت دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٥٣ ـ **الارشاد في معرفة حجج الله على العباد:** الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٤١٣ هـ)، مؤسسة آل البيت ﷺ لاحياء التراث قم ١٤١٤ هـ.
٥٤ ـ **ارشاد القلوب:** أبو محمد الحسن بن محمد الديلمي (٤٦٨ هـ)، قم، منشورات الشريف الرضي.
٥٥ ـ **اسباب النزول:** أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٤٦٨ هـ) الواحدي، عالم الكتب، بيروت. وطبعة مؤسسة الحلبي وشركاؤه ـ القاهرة طبعة عام ١٣٨٨ هـ وأخرى: تحقيق كمال بسيوني زغلول، الطبعة الأولى ١٤١١هـ دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٦ ـ **الاستغاثة:** أبي القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت ٣٥٢ هـ).
٥٧ ـ **الاستيعاب في أسماء الأصحاب:** أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبدالبرّ القرطبي المالكي (٣٦٣ هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، دار النهضة مصر. وأيضاً المطبوع بهامش الإصابة.
٥٨ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة:** عز الدين ابن الأثير الجزري (٦٣٠ هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت.
٥٩ ـ **الاسلام يقود الحياة:** السيد محمد باقر الصدر (المجموعة الكاملة) الكتاب الثاني، دار التعارف للمطبوعات. ونسخة المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ.
٦٠ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة:** أحمد بن عليّ بن محمد، أبو الفضل العسقلاني الشافعي المعروف بابن حجر (٨٥٢ هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل الطبعة

الأولى ١٤١٢ هـ.
٦١ ـ **أصل الفقه المسمى بـ «الفصول في الأصول»**: أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) تحقيق عجيل جاسم النمشي، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.
٦٢ ـ **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**: الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن علي الطبرستاني القرشي (٦٠٦ هـ)، تحقيق علي سامي النشار، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٦٣ ـ **اعجاز القرآن**: أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مصر.
٦٤ ـ **أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**: عمر رضا كحالة، المطبعة الهاشمية، دمشق (بدون تاريخ).
٦٥ ـ **الأعلام**: خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ) دار العلم للملايين، الطبعة السادسة بيروت ١٩٨٤م.
٦٦ ـ **اعلام الموقعين**: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار الجيل، بيروت.
٦٧ ـ **إعلام الورى بأعلام الهدى**: أبو علي الفضل بن الحسن الطبري (٥٤٨ هـ) تحقيق:: علي أكبر غفاري، بيروت، دار المعرفة ١٣٩٩ هـ.
٦٨ ـ **اعيان الشيعة**: محسن الامين العاملي (١٣٧١ هـ)، الطبعة الخامسة، دار التعارف للمطبوعات.
٦٩ ـ **الاغاني**: ابو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني (٣٥٦ هـ)، ط دار الثقافة، بيروت ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.
٧٠ ـ **الاقتصاد الهادي الى طريق الرشاد**: الشيخ الطوسي (٤٦٠ هـ)، تحقيق حسن سعيد، مطبعة خيام، قم: ١٤٠٠ هـ.
٧١ ـ **الأمالي**: الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (٣٨١هـ)، قسم الدراسات، مؤسسة البعثة المكتبة الاسلامية قم ١٤١٧هـ.

٧٢ ـ **الأمالي**: الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن (٤٦٠ هـ)، قسم الدراسات الاسلامية، مؤسسة البعثة دار الثقافة قم ١٤٠٤ هـ.

٧٣ ـ **أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)**: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي العلوي (٤٣٦ هـ) تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم، بيروت دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ.

٧٤ ـ **الأمالي**: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٤١٣هـ)، تحقيق علي اكبر غفاري، جماعة المدرسين في حوزة قم ١٤١٣ هـ.

٧٥ ـ **الامام جعفر الصادق**: عبدالحليم الجندي، طبعة ١٣٩٧ هـ.

٧٦ ـ **الامام علي صوت العدالة الإنسانية**: جورج جرداق، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٠م. (معاصر)، والمختصر: طبع المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، اختصره وحققه حسن السنيد، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ.

٧٧ ـ **الامام علي بن أبي طالب وتجربة الحكم**: د. حسن الزين، دار الفكر الحديث ١٩٩٥م.

٧٨ ـ **الامام علي في آراء الخلفاء**: مهدي فقيه ايماني، ترجمة يحيى الكمالي، مؤسسة المعارف الاسلامية الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، (معاصر).

٧٩ ـ **الامامة والسياسة (المعروف بتاريخ الخلفاء)**: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ)، تحقيق علي شيري انتشارات الشريف الرضي، قم، الطبعة الأولى / ١٤١٣ هـ، وأخرى: تحقيق د. طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ في قم.

٨٠ ـ **الأموال**: أبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٨٨م.

٨١ ـ **امير المنابر**: الدكتور أحمد الوائلي: صادق جعفر الرّوازق، دار المحجة البيضاء، بيروت ١٤٢٤ هـ (معاصر).

٨٢ ـ **الانتصار**: الشريف المرتضى علم الهدى (٤٣٦ هـ)، مؤسسة النشر الاسلامي، قم الطبعة الاولى ١٤١٥ هـ.

٨٣ ـ **الانوار البهية في تواريخ الحجج الالهية**: عباس القمي، مؤسسة النشر الاسلامي قم، الطبعة الأولى ـ ١٤١٧ هـ.

٨٤ ـ **الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية**: الشيخ جعفر النقدي (ت ١٣٧٠ هـ)، المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، النجف الأشرف ١٣٨١ هـ.

٨٥ ـ **الأنساب**: عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني، أبو سعيد (ت ٥٦٢ هـ) تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي (مركز الخدمات والأبحاث الثقافية) دار الجنان الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

٨٦ ـ **أنساب الأشراف**: أحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩ هـ)، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧٤م، ونسخة أخرى من تحقيق سهيل زكار، ط دار الفكر بيروت ١٤١٧ هـ.

٨٧ ـ **أهل بيت النبي**: عبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه.

٨٨ ـ **الأوائل**: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (كان حياً ٣٩٥ هـ) بيروت، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

٨٩ ـ **الإيضاح**: فضل بن شاذان النيسابوري (٢٦٠ هـ) تحقيق السيد جلال الحسيني الأرموي (المحدّث) طهران؛ منشورات جامعة طهران ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م.

٩٠ ـ **ايمان أبي طالب**: الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) مؤسسة البعثة، دار المفيد، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م.

٩١ ـ **بحار الأنوار الجامعة لدر أخبار الأئمة الأطهار** عليهم السلام: محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (١١١٠ هـ)، دار الكتب الاسلامية.

٩٢ ـ **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**: ابن نجيم المصري الحنفي (٩٧٠ هـ) تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

٩٣ ـ **البدء والتاريخ**: مطهر بن طاهر المقدسي (٥٠٧ هـ) ط باريس ١٩١٩م وطبعة طهران مكتبة الأسدي ١٩٦٢م.

٩٤ ـ **البداية والنهاية:** الحافظ أبي فداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ)، دار احياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي ـ ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م. وأخرى من تحقيق علي شيري دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ بيروت.

٩٥ ـ **بشارة المصطفى لشيعة المرتضى:** أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الطبري (٥٢٥ هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٨٣ هـ. ق.

٩٦ ـ **بلاغات النساء:** ابن ابي طار أبو الفضل احمد بن ابي طاهر المعروف بابن طيفور (٢٨٠ هـ)، طبعة مصر ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م. وأخرى من طبعة بصيرتي، قم. وأخرى: انتشارات الشريف الرضي.

٩٧ ـ **البيان والتبيين:** أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ) تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخانجي بمصر ـ الطبعة الثانية، ١٩٦٠م، ١٣٨٠ هـ وطبعة بيروت، دار الجيل، ١٤١٠ هـ.

٩٨ ـ **البيان والتعريف:** ابراهيم بن محمد بن كمال الدين (ابو حمزة الحسيني) (١١٢٠ هـ) المكتبة العلمية، بيروت.

٩٩ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس:** محمد مرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ) مكتبة الحياة، بيروت.

١٠٠ ـ **تاج المواليد:** أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) المطبوع ضمن «مجموعة نفيسة» نشر مكتبة المرعشي النجفي، قم ١٤٠٦ هـ.

١٠١ ـ **تاريخ ابن الأثير (الكامل في التاريخ):** ابن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.

١٠٢ ـ **تاريخ ابن خلدون:** العلامة عبد الرحمن ابن خلدون المغربي (٨٠٨ هـ)، دار احياء التراث العربي بيروت الطبعة الرابعة (بدون تاريخ).

١٠٣ ـ **تاريخ ابي الفداء (المختصر في تاريخ البشر):** عماد الدين أبو الفداء، دار الفكر ودار البحار الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م.

١٠٤ ـ **تاريخ الاسلام الثقافي والسياسي، مسار الاسلام بعد الرسول ونشأت المذاهب:** صائب عبدالحميد، الغدير الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م، بيروت.

١٠٥ -**تاريخ بغداد أو مدينة السلام:** أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، مطبعة السعادة ١٩٣١م، ونسخة أخرى من تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.

١٠٦ -**تاريخ خليفة:** خليفة بن خياط العصفري (٢٤٠ هـ) تحقيق الدكتور سهيل زكار، طبعة عام ١٤١٤ هـ دار الفكر بيروت.

١٠٧ -**تاريخ الخلفاء:** عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، نشر مطبعة السعادة ـ مصر، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢م.

١٠٨ -**تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس:** حسين بن محمد بن الحسن الديابكري (ت ٩٦٦ هـ) مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت. (بدون تاريخ).

١٠٩ -**تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك):** محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، دار التراث، بيروت ١٩٦٧م. وأخرى: من تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الثانية، بيروت ١٣٨٧ هـ.

١١٠ -**تاريخ مدينة دمشق:** علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بأبن عساكر، تحقيق علي شيري، دار الفكر طبعة عام ١٤١٥هـ.

١١١ -**تاريخ المدينة المنورة:** عمر بن شبه النمري (٢٦٢ هـ)، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، قم.

١١٢ -**تاريخ اليعقوبي:** أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (٢٨٤هـ)، دار صادر، بيروت.

١١٣ -**التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين:** عماد الدين الاسفرائيني، ط الخانجي ـ القاهرة ١٩٥٥م.

١١٤ -**تراجم أعلام النساء:** الحائري، الشيخ محمد حسين بن سليمان بن ولي الله بن أمر الله بن عبد الله الأعلمي المهرجاني، (١٣٩١هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

١١٥ -**تحف العقول عن آل الرسول:** أبو محمد الحسن علي بن الحسين بن شعبة

الحراني(القرن الرابع)، منشورات الشريف الرضي. ونسخة أخرى، تحقيق علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.

١١٦ـ **التحفة السنية (مخطوط)**: الفيض الكاشاني، شرح عبدالعزيز الجزائري، مكتبة «استانة قدس».

١١٧ ـ **تذكرة الخواص من الأمة بذكر خصائص الأئمة**: يوسف بن قزغلي البغدادي سبط بن الجوزي، تحيق محمد صالح بحر العلوم، اصدار مكتبة نينوى، طهران. وأخرى: تحقيق حسين تقي زادة، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ.

١١٨ ـ **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)**: أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤ هـ) دار المعرفة، بيروت ١٤١٢ هـ.

١١٩ ـ **تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)**: أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلميّة ـ بيروت ١٩٨٨م.

١٢٠ ـ **تفسير الثعالبي**: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي (٨٧٥هـ).

١٢١ ـ **تفسير النيسابوري (تفسير الكشف والبيان)**: أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي النيسابوري (٤٢٧أو ٤٣٧ هـ).

١٢٢ ـ **تفسير جامع الجوامع**: الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبري (القرن السادس) تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي جامعة المدرسين، قم الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

١٢٣ ـ **تفسير الرازي (التفسير الكبير ـ مفاتيح الغيب)**: محمد بن عمر الخطيب الرازي(٦٠٦ هـ).

١٢٤ ـ **التفسير الصافي**: المولى محسن المعروف بالفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ) تحقيق حسين الأعلمي دار المرتضى، الطبعة الأولى (بدون تاريخ).

١٢٥ ـ **تفسير العيّاشي**: أبو النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعيّاشي (ت نحو ٣٢٠ هـ. ق) تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران، الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ. ق.

١٢٦ ـ **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**: محمد بن احمد الانصاري القرطبي، دار

احياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥هـ.
١٢٧ ـ **تفسير القمي**: أبو الحسن علي بن ابراهيم القمّي (من أعلام قرني ٣ و ٤ هـ. ق) تحقيق السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، ثم، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.ق.
١٢٨ ـ **تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)**: محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨م.
١٢٩ ـ **تفسير المنار**: محمد رضا رشيد (١٣٥٤ هـ)، دار المعرفة ـ بيروت.
١٣٠ ـ **تفسير نور الثقلين**: عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (١١١٢ هـ)، تحقيق هاشم المحلاتي، مؤسسة اسماعيليان، الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ، قم.
١٣١ ـ **تلخيص الشافي**: أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (٤٦٠هـ)، تحقيق السيد حسين بحرالعلوم، قم دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ.
١٣٢ ـ **التمحيص**: أبو علي محمّد بن همّام الإسكافي (٣٣٦ هـ) تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، قم.
١٣٣ ـ **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**: ابوالحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي، ط بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م.
١٣٤ ـ **تنزيه الأنبياء**: المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٤٣٦ هـ) قم، منشورات الرضي.
١٣٥ ـ **تنقيح المقال في علم الرجال**: الشيخ عبد الله بن محمد حسن المامقاني (ت ١٣٥١ هـ) المطبعة الرضوية، النجف الأشرف ١٣٥٢ هـ.
١٣٦ ـ **تهذيب الأحكام**: الشيخ الطوسي (٤٦٠ هـ)، تحقيق السيد حسن الخرسان، دار الكتب الاسلامية، الطبعة الثالثة، طهران ١٣٦٤هـ.
١٣٧ ـ **تهذيب التهذيب**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ). (بدون تاريخ).
١٣٨ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: جمال الدين ابو الحجاج يوسف المزي (٧٤٢ هـ)، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م.
١٣٩ ـ **التوابين**: ابو محمد عبد الله بن احمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ)، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣ هـ

١٤٠ ـ **التوحيد:** أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (٣٨١ هـ)، تحقيق هاشم الطهراني، جماعة المدرسين قم ١٣٨٧هـ.
١٤١ ـ **تيسير المطالب في آمالي أبي طالب:** السيد يحيى بن الحسين هارون (ت ٤٢٤هـ) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الألوى، بيروت ١٣٩٥ هـ.
١٤٢ ـ **الثقات:** محمد بن حبّان بن أحمد التميمي البستي (ت ٣٥٤ هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ. ق.
١٤٣ ـ **جامع البيان في تفسير القرآن:** محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر بيروت طبعة عام ١٤١٥ هـ.
١٤٤ ـ **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير:** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، دار الفكر الطبعة الاولى، بيروت ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.
١٤٥ ـ **الجامع لاحكام القرآن:** محمد بن أحمد القرطبي الأندلسي (٦٧١ هـ) تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني، بيروت، دار أحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.
١٤٦ ـ **الجرح والتعديل:** عبد الرحمن بن ابي حاتم الرازي (٣٢٧ هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٠م.
١٤٧ ـ **جلاء العيون:** محمد باقر المجلسي (١١١١ هـ)
١٤٨ ـ **الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة:** الشيخ المفيد، الدار الاسلامية بيروت، الطبعة الأولى / ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠١م، ونسخة اخرى من تحقيق علي مير شريفي مركز الاعلام الاسلامي الطبعة الثانية / ١٤١٦ هـ.
١٤٩ ـ **جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة:** أحمد زكي صفوت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م.
١٥٠ ـ **الجواهر السنية في الأحاديث القدسيّة:** الحر العاملي محمد بن الحسن بن علي بن الحسين (١١٠٤ هـ) مكتبة المفيد، قم.
١٥١ ـ **جواهر الكلام:** الشيخ محمد حسن النجفي (١٢٦٦ هـ)، تحقيق محمود القوچاني، المكتبة الاسلامية (٤٣ مجلد)، الطبعة الثالثة عام ١٣٦٧ هـ. ش.

١٥٢ ـ **جواهر المطالب في مناقب الامام الجليل علي بن ابي طالب**عليه السلام: محمد بن احمد الدمشقي الشافعي (٨٧١ هـ)، تحقيق محمد باقر المحمودي، مجمع احياء الثقافة الاسلامية قم المقدسة الطبعة الأولى / ١٤١٥ هـ.

١٥٣ ـ **الجوهر النقي**: علاء الدين بن علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني (ت ٧٤٥ هـ) المطبوع في ذيل «السنن الكبرى» للبيهقي، دار المعرفة، بيروت.

١٥٤ ـ **الحدائق الناظرة**: المحقق الشيخ يوسف البحراني (١١٨٦ هـ)، تحقيق محمد تقي الايرواني، جماعة المدرسين (بدون تاريخ).

١٥٥ ـ **حرب الجمل وحرب صفين**: محسن الامين العاملي، دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٩م.

١٥٦ ـ **حسن الظن بالله**: أبي بكر أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) تحقيق مخلص محمد، دار طيب، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

١٥٧ ـ **الحسين يكتب قصته الأخيرة**: صادق جعفر الرّوازق (معاصر)، لسان الصدق / قم، الطبعة الاولى ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م.

١٥٨ ـ **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**: آدم متز، نقله الى العربية محمد عبدالهادي أبو ريده، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٧م.

١٥٩ ـ **حُلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار**: السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ) تحقيق الشيخ غلام رضا مولانا البحراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، ايران، الطبعة الاولى ١٤١١ هـ.

١٦٠ ـ **حُلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهاني (٤٣٠ هـ)، دار الكتب العلمية الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٨٨م.

١٦١ ـ **حياة الامام الرضا**عليه السلام: جعفر مرتضى الحسيني العاملي، دار التبليغ الإسلامي، طبعة عام ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م.

١٦٢ ـ **الخرائج والجرائح**: قطب الدين الراوندي (٥٧٣ هـ) تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام قم، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.

١٦٣ ـ خصائص الأئمة عليهم السلام (خصائص أمير المؤمنين عليه السلام): الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى الموسوي البغدادي (٤٠٦ هـ)، تحقيق: محمد هادي الأميني، مؤسسة طبع ونشر الآستانة الرضوية المقدّسة ١٤٠٦ هـ.
١٦٤ ـ خصائض النسائي (خصائص أمير المؤمنين): احمد بن شعيب النسائي الشافعي، تحقيق محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة (بدون تاريخ).
١٦٥ ـ الخصال: ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الصدوق) (٣٨١ هـ)، تحقيق علي اكبر غفاري، قم منشورات جماعة المدرسين ١٤٠٣هـ.
١٦٦ ـ خلاصة عبقات الأنوار: السيد حامد الحسيني النقوي (١٣٠٦ هـ) ـ تلخيص الميلاني ـ مؤسسة البعثة للدراسات الاسلامية، قم ١٤٠٦ هـ.
١٦٧ ـ الخلاف: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بالشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) دار الكتب العلمية قم (بدون تاريخ).
١٦٨ ـ الخلفاء الراشدون (المجموعة الكاملة): د. طه حسين، دار الكتب اللبناني بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٣م.
١٦٩ ـ الخوارج والشيعة: يوليوس فلهوزن، ترجمة عبد الرحمن بدوي، طبعة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٨م.
١٧٠ ـ دراسات في الحديث والمحدثين: هاشم معروف الحسني، دار التعارف الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨م.
١٧١ ـ دراسات في نهج البلاغة: محمد مهدي شمس الدين، دار الزهراء بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م، والطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦م.
١٧٢ ـ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: صدر الدين السيد علي خان المدني الشيرازي الحسيني (١١٣٠ هـ)، مكتبة بصيرتي الطبعة الثانية / ١٣٩٧ هـ قم.
ويُشار إليه أحياناً بـ «السيد علي بن معصوم»، وقدم لهذا الكتاب العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم.
١٧٣ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ)، دار

الفكر، بيروت ١٤٠٣ هـ.
١٧٤ ـ **الدر المنضود**: السيد محمد رضا الگلپايگاني (ت ١٤١٤ هـ) دار القرآن الكريم، قم، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.
١٧٥ ـ **الدر المنضود في معرفة صيغ النيات والايقاعات والعقود**: زين الدين أبو القاسم العاملي الفقعاني (ت ٨٥٥ هـ) تحقيق محمد بركت، مكتبة مدرسة امام العصر (عج) العلمية، شيراز، الطبعة الاولى، قم ١٤١٨ هـ.
١٧٦ ـ **دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** عليه السلام: القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت ٤٥٤ هـ) المكتبة الأزهرية.
١٧٧ ـ **دعائم الاسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام**: القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي (٣٦٣ هـ) تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، القاهرة، دار المعارف ١٣٨٣ هـ.
١٧٨ ـ **الدعوة الى الاسلام**: توماس أرنولد، ترجمة حسن ابراهيم، عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوي ط النهضة، القاهرة ١٩٤٧م.
١٧٩ ـ **دلائل الصدق لنهج الحق**: محمد حسن المظفر، طبع مكتبة بصيرتي.
١٨٠ ـ **دلائل الامامة**: أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير (القرن الخامس) تحقيق ونشر مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.
١٨١ ـ **دلائل النبوة**: أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ) تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.
١٨٢ ـ **الدليل لأهل العقول لباغي السبيل بنور الدليل التحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق**: الشيخ أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني.
١٨٣ ـ **ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى**: احمد عبد الله الطبري (٦٩٤ هـ)، مكتبة القدسي، ١٣٥٦ هـ.
١٨٤ ـ **ذخيرة المعاد**: المحقق السبزواري (ت ١٠٩٠ هـ) مؤسسة آل البيت عليهم السلام طبعة حجرية.

١٨٥ ـ **الذخيرة**: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٤٣٦ هـ) تحقيق السيد أحمد الحسيني، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١١ هـ.
١٨٦ ـ **الذكرى**: الشهيد الأوّل (٧٨٦ هـ، طبعة حجرية غير مرقمة الصفحات، خط كرماني عام ١٢٧٢ هـ.
١٨٧ ـ **ذو النضار في شرح الثار**: ابن نما الحلي (ت ٦٤٥ هـ) تحقيق فارس حسون كريم مؤسسة النشر الاسلامي، قم، الطبعة الاولى ١٤١٦ هـ.
١٨٨ ـ **ربيع الابرار ونصوص الأخبار**: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، تحقيق سليم النعيمي، قم منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.
١٨٩ ـ **رجال ابن داود**: تقي الدين الحسن بن علي بن داوود الحلّي (بعد ٧٠٧ هـ) تحقيق السيد محمد صادق آل بحر العلوم، قم، منشورات الرضي عن منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٢م.
١٩٠ ـ **رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال)**: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠ هـ) تحقيق: حسن المصطفوي، مشهد: المؤتمر الألفي للشيخ الطوسي ١٣٤٨ هـ. ش.
١٩١ ـ **الرسالة**: محمد بن ادريس، أبي عبد الله الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر القاهرة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩م.
١٩٢ ـ **الرسائل التسع**: المحقق الحلي، تحقيق رضا الاستادي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم ط ١ / ١٤١٣ هـ.
١٩٣ ـ **رسائل الشريف المرتضى**: أبو القاسم علي بن الحسين المعروف بالسيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ) تحقيق السيد مهدي رجائي، نشر دار القرآن الكريم، قم ١٤٠٥ هـ.
١٩٤ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: محمود الآلوسي البغدادي (١٢٧٠ هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م. وأخرى: تصحيح محمد حسين العرب، بيروت دار الفكر ١٤١٧ هـ.
١٩٥ ـ **الروض الآنف في تفسير السيرة النبويّة لابن هشام**: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله

الخثعمي السهيلي (٥٨١ هـ) تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهريّة ومؤسسة المختار.

١٩٦ـ **الروضة البهية (شرح اللمعة):** الشهيد الثاني ﷺ (٩٦٦ هـ) انتشارات داوري، قم، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

١٩٧ ـ **روضة الطالبين:** يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ) تقحيق عادل أحمد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٨ ـ **روضة الواعظين:** ابن الفتال النيسابوري (٥٠٨ هـ)، تحقيق محمد مهدي الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم.

١٩٩ ـ **رياض المسائل:** السيد علي الطباطبائي (١٢٣١ هـ) تحقيق ونشر جامعة المدرسين، قم، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.

٢٠٠ ـ **الرياض النضرة في مناقب العشرة المبشرين بالجنة:** محب الدين الطبري (٦٩٤هـ)، دار الندوة الجديدة، بيروت ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٠١ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد:** ابن القيم الجوزية (٧٥١ هـ)، دار الفكر بيروت.

٢٠٢ ـ **سبل السلام:** محمد بن اسماعيل الكحلاني الصنعاني المعروف بالأمير (ت ١١٨٢ هـ) تحقيق محمد عبدالعزيز الخولي، دار احياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م.

٢٠٣ ـ **سبل الهدى والرشاد:** محمد يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢ هـ) تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ـ بيروت ١٤١٤ هـ.

٢٠٤ ـ **السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي:** أبو جعفر محمد بن منصور بن أحمد بن ادريس الحلّي (٥٩٨ هـ) تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٧ هـ والمستطرفات منه: تحقيق ونشر مؤسسة الامام المهدي ﷺ قم ١٤٠٨ هـ.

٢٠٥ ـ **سعد السعود للنفوس:** رضي الدين علي بن موسى ابن طاووس (ت ٦٦٤هـ) تحقيق مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، قم ١٤٢٢هـ.

٢٠٦ ـ **السقيفة والخلافة:** عبد الفتّاح عبد المقصود، مكتبة غريب، القاهرة.

٢٠٧ ـ **السقيفة وفدك:** ابي بكر احمد بن عبدالعزيز الجوهري البصري البغدادي (٣٢٣ هـ)، تحقيق د. محمد هادي الأميني، شركة الكتبي بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.

٢٠٨ ـ **سنن ابن ماجة:** محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥ هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت.

٢٠٩ ـ **سنن أبي داود:** أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥ هـ) تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، داء إحياء السنّة النبوية.

٢١٠ ـ **سنن البيهقي (السنن الكبرى):** أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨ هـ)، دار الفكر، بيروت.

٢١١ ـ **سنن الترمذي:** محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩ هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٣ هـ.

٢١٢ ـ **سسنن الدارقطني:** علي بن عمر الدارقطني (٣٨٥ هـ)، تحقيق مجدي بن منصور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦م.

٢١٣ ـ **سنن النسائي:** احمد بن شعيب النسائي (٣٠٣ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م. وطبعة دار الفكر ـ الأولى ـ بيروت عام ١٩٣٠ م ـ ١٣٤٨ هـ.

٢١٤ ـ **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية:** فان فلوتن، ترجمه عن الفرنسية الدكتور حسن ابراهيم حسن، محمد زكي ابراهيم، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة الاسلامية ١٩٦٥م.

٢١٥ ـ **سِيَر اعلام النبلاء:** شمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، بيروت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م. ونسخة اخرى من تحقيق شعيب الارناؤوط، حسين الأسد ـ الطبعة التاسعة مؤسسة الرسالة ١٤١٣ هـ.

٢١٦ ـ **السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون):** علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤ هـ)، دار المعرفة، بيروت (بدون تاريخ).

٢١٧ ـ **السيرة النبوية أو كتاب السير والمغازي:** ابن هشام محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي

(١٥١ هـ)، تحقيق ط عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت ١٩٨٥م، وأخرى من تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، طبعة عام ١٣٨٣ هـ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده.

٢١٨ـ **الشافي في الإمامة:** الشريف الرضي علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ) تحقيق عبدالزهراء الحسيني الخطيب، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ.

٢١٩ـ **شجرة طوبى:** الشيخ محمد مهدي الحائري (معاصر) المكتبة الحيدرية، الطبعة الخامسة ١٣٨٥ هـ.

٢٢٠ـ **شرح اصول الكافي:** مولى محمد صالح المازندراني (١٠٨١ هـ)، (بدون سنة الطبع واسم الناشر).

٢٢١ـ **شرح الأزهار:** أحمد بن يحيى ابن المرتضى (٨٤٠ هـ)، غمضان، صنعاء ١٤٠٠ هـ.

٢٢٢ـ **شرح الطحاوية:** القاضي علي بن أبي العز الحنفي (٧٣١ هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة.

٢٢٣ـ **الشرح الكبير:** عبد الرحمن بن قدامة (٦٨٢ هـ)، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢٢٤ـ **شرح مئة كلمة:** كمال الدين ميثم بن علي ميثم البحراني (القرن السادس) تحقيق: مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدّث، جماعة المدرسين.

٢٢٥ـ **شرح مسلم، (صحيح مسلم بشرح النووي):** النووي (٦٧٦ هـ)، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٢٦ـ **شرح معاني الآثار:** أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي (٣٢١ هـ) تحقيق: محمد زهري النجّار، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ.

٢٢٧ـ **شرح نهج البلاغة:** عز الدين عبدالحميد ابن أبي الحديد (٦٥٦ هـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية ـ بيروت الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ، وأخرى: من منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

٢٢٨ـ **الشعر والشعراء:** ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: الدكتور مفيد قمحة والاستاذ نعيم

زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

٢٢٩ ـ **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) تحقيق سيد عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٢ هـ.

٢٣٠ ـ **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في آيات النازلة في أهل البيت**ﷺ: عبد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني (القرن الخامس الهجري)، تحقيق محمد باقر المحمودي، مجمع احياء الثقافة الاسلامية في وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي، ايران، الطبعة الاولى ١٤١١ هـ.

٢٣١ ـ **الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)**: اسماعيل بن حمّاد الجوهري (٣٩٣ هـ) تحقيق: أحمد عبدالغفور عطّار، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ.

٢٣٢ ـ **صحيح البخاري**: محمد بن اسماعيل البخاري (٢٥٦ هـ)، دار الفكر بيروت ١٤٠١ هـ.

٢٣٣ ـ **صحيح مسلم**: مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١ هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م.

٢٣٤ ـ **الصحيح من سيرة النبي الأعظم**ﷺ: جعفر مرتضى العاملي (معاصر)، دار الهادي، الطبعة عام ١٤١٥ هـ بيروت.

٢٣٥ ـ **الصراط المستقيم الى مستحقّي التقديم**: عليّ بن يونس العاملي النباطي البياضي (٨٧٧ هـ) تحقيق: محمد باقر البهبودي، المكتبة المرتضوية الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ.

٢٣٦ ـ **الصواعق المحرقة**: ابن حجر الهيتمي (٩٧٤ هـ)، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف شركة الطباعة الفنية المتحدة القاهرة ١٩٦٥م.

٢٣٧ ـ **الصوارم المهرقة في نقد الصواعق المحرقة**: القاضي نور الله التستري الشهيد (١٠١٩ هـ) تحقيق جلال الدين المحدث، طبعة طهران، عام ١٣٦٧ هـ.

٢٣٨ ـ **الطبقات الكبرى**: ابن سعد الزهري (٢٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت ١٩٨١م.

٢٣٩ ـ **طبقات المالكية**: محمد مخلوف المالكي المصري، طبعة مصر.

٢٤٠ ـ **الطرائف**: السيد ابن طاووس الحسني (٦٦٤ هـ)، مطبعة خيام، قم، الطبعة الاولى

١٣٧١هـ.
٢٤١ـ **طرق حديث الأئمة إثنا عشر:** الشيخ كاظم آل نوح (ت ١٣٦٠ هـ) مطبعة دار المعارف ـ بغداد.
٢٤٢ ـ **الطرق الحكمية:** ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) طبعة مصر.
٢٤٣ ـ **الضعفاء الكبير:** محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي (٣٢٢هـ) تحقيق عبدالمعطي قلعجي الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
٢٤٤ ـ **عبد الله بن سبأ واساطير أخرى:** مرتضى العسكري (معاصر)، نشر مؤسسة التوحيد، الطبعة السادسة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م.
٢٤٥ ـ **عبد الله بن عباس شخصيته وآثاره:** محمد تقي الحكيم، مكتبة الصدر، قم، الطبعة الاولى ١٤٢٣ هـ.
٢٤٦ ـ **العبر في خبر من غبر:** أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ). ونسخة أخرى من تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦م.
٢٤٧ ـ **عبقرية الامام علي** عليه السلام: عباس محمود العقاد (المجموعة الكاملة) دار الكتاب اللبناني، الطبعة الاولى ١٩٧٤م.
٢٤٨ ـ **العقد الفريد:** ابن عبد ربه الاندلسي (٣٢٨ هـ)، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦م. وأخرى: دارالكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٤٩ ـ **علل الشرائع:** الصدوق (٣٨١ هـ)، المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م.
٢٥٠ ـ **علي بن ابي طالب نظرة عصرية جديدة:** (مجموعة كتاب) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الاولى، آيار ١٩٧٤م.
٢٥١ ـ **علي وبنوه:** المجموعة الكاملة، الخلفاء الراشدون المجلد الرابع، دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.
٢٥٢ ـ **العلل الواردة في الأحاديث النبوية:** أبي الحسن علي بن عمر ابن أحمد بن مهدي

الدارقطني (٣٨٥ هـ) تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ دار طيبة الرياض.

٢٥٣ـ **العمدة (عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار)**: ابن البطريق الأسدي الحلي (٦٠٠ هـ)، تحقيق جامعة مدرسية قم، الطبعة الاولى ١٤٠٧ هـ.

٢٥٤ـ **عمدة الطالب في أنساب علي بن أبي طالب**: جمال الدين احمد بن علي بن الحسين بن علي بن مهنا بن عنبة الداوودي الحسني (ت ٨٢٨ هـ) تصحيح محمد حسن آل الطالقاني، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٨٠ هـ.

٢٥٥ ـ **عمدة القارى شرح صحيح البخاري**: محمود بن أحمد بن موسى الحلبي العينتابي القاهري المعروف بالبدر العيني (ت ٨٥٥ هـ) دار الفكر، بيروت.

٢٥٦ ـ **عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية**: ابن أبي جمهور الاحسائي (٨٨٠هـ)، تحقيق المرعشي ومجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء، الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٥٧ ـ **العين**: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الأولى، قم ١٤٠٥هـ.

٢٥٨ـ **عيون الأثر**: ابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ) مؤسسة عز الدين طبعة عام ١٤٠٦هـ.

٢٥٩ـ **عيون اخبار الرضا عليه السلام**: الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (٣٨١ هـ)، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٨٠م.

٢٦٠ ـ **عيون الحكم والمواعظ**: علي بن محمد الليثي الواسطي (القرن السادس) تحقيق حسين الحسني البيرجندي، الطبعة الأولى، دار الحديث ١٣٧٦ هـ. ش.

٢٦١ ـ **عيون المعجزات**: حسين بن عبدالوهاب (القرن ٥ هـ)، المطبعة الحيدرية في النجف الاشرف طبعة عام ١٣٦٩ هـ. وأخرى: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ.

٢٦٢ ـ **الغارات**: ابراهيم بن محمد الثقفي الكوفي (٢٨٣ هـ)، تحقيق جلال الدين المحدث، مطبعة بهمن، قم (بدون تاريخ). وأخرى: تحقيق السيد عبدالزهراء الحسيني دار

الأضواء، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.
٢٦٣ـ **الغدير:** عبدالحسين الأميني (١٣٩٠ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت طبعة عام ١٣٧٩هـ.
٢٦٤ ـ **غريب الحديث:** أبو عبيد القاسم بن سلّام الهروي (٢٢٤ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ.
٢٦٥ ـ **الغَيْبة:** محمد بن إبراهيم النعماني ابن أبي زينب (القرن الرابع) تحقيق: عليّ أكبر الغفّاري، طهران، مكتبة الصدوق.
٢٦٦ ـ **الفائق في غريب الحديث:** محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥١٦ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل ابراهيم، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ.
٢٦٧ ـ **فتح الباري في شرح صحيح البخاري:** ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
٢٦٨ ـ **فتح القدير (تفسير):** الشوكاني (١٢٥٠ هـ)، دار احياء التراث العربي. وطبعة عالم الكتب، بيروت.
٢٦٩ ـ **الفتن:** أبو عبد الله نعيم بن حمّاد المروزي (٢٢٩ هـ) تحقيق: سهيل زكّار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ.
٢٧٠ ـ **الفتنة الكبرى:** طه حسين (١٣٩٣ هـ) دار المعارف، مصر ١٩٥٣م.
٢٧١ ـ **الفتنة ووقعة الجمل:** سيف بن عمر الظبي الاسدي (٢٠٠ هـ)، تحقيق احمد راتب عرموش، دار النفائس، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩١ هـ.
٢٧٢ ـ **الفتوح:** ابن اعثم الكوفي (٣١٤ هـ)، دار الكتب العلمية طبعة عام ١٤٠٦هـ.
٢٧٣ ـ **فتوح البلدان:** احمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري (٢٧٩ هـ)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
٢٧٤ ـ **فجر الاسلام:** احمد امين (١٣٧٣ هـ)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥م.
٢٧٥ ـ **فرائد السمطين:** ابراهيم بن محمد الجويني (٧٣٠ هـ) تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت، مؤسسة المحمودي، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ.

٢٧٦ ـ **فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في النجف:** غياث الدين السيد عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ت ٦٩٣ هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٦٨ هـ.
٢٧٧ ـ **الفخري في آداب السلطانية والدول:** محمد بن علي بن طباطبا «ابن الطقطقي»، بيروت، دار صادر.
٢٧٨ ـ **الفرق بين الفِرق:** البغدادي عبدالقاهر بن طاهر التميمي (٤٢٩هـ). دار الكتب العلمية، بيروت. وأخرى: تحقيق محي الدين عبدالحميد المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠م.
٢٧٩ ـ **الفصول المختارة:** الشيخ المفيد (٤١٣ هـ)، تحقيق مير علي شريفي، دار المفيد بيروت الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م.
٢٨٠ ـ **الفصول المهمة في معرفة الأئمة:** علي بن محمد بن أحمد المالكي المكّي المشهور بابن الصبّاغ (ت ٨٥٥ هـ) مطبعة العدل، النجف الأشرف (بدون تاريخ).
٢٨١ ـ **الفضائل:** شاذان بن جبرائيل القمي (٦٦٠ هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٩٦٢ م ـ ١٣٨١ هـ.
٢٨٢ ـ **فضائل أمير المؤمنين علي بن ابي طالب:** أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ)، تحقيق حسن السنيد، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
٢٨٣ ـ **الفهرست:** محمد بن إسحاق ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) دار المعرفة بيروت.
٢٨٤ ـ **الفهرست:** شيخ منتجب الدين علي بن بابويه رازي (٥٨٥ هـ) تحقيق: الدكتور سيد جلال الدين الأرموي المحدّث، نشر مكتبة آية الله السيد المرعشي النجفي طبعة عام ١٣٦٦ هـ. ش.
٢٨٥ ـ **في رحاب نهج البلاغة:** مرتضى مطهري استشهد (١٣٩٩)، ترجمة هادي اليوسفي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.
٢٨٦ ـ **فيض القدير في شرح الجامع الصغير:** محمد عبدالرؤوف المناوي (١٣٠١هـ)، تحقيق احمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٨٧ ـ **قاموس الرجال:** محمد تقي التستري، مؤسسة النشر الاسلامي لجامعة المدرسين قم الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ.

٢٨٨ ـ **قرب الاسناد:** عبد الله بن جعفر الحميري البغدادي (٣٠٠ هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث العربي قم الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٨٩ ـ **الكافئة في ابطال توبة الخاطئة:** الشيخ المفيد (٤١٣ هـ)، تحقيق علي اكبر زماني نژاد، دار المفيد بيروت ١٤١٤ هـ.

٢٩٠ ـ **الكافي:** محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٩ هـ)، تحقيق علي اكبر غفاري، منشورات المكتبة الاسلامية، الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ.

٢٩١ ـ **الكامل:** ابو العباس محمد بن زيد المعروف بالمبرد (٢٨٥ هـ) مطبعة مصطفى محمد، مصر.

٢٩٢ ـ **كامل الزيارات:** أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي (ت ٣٦٨هـ) تصحيح عبدالحسين الأميني التبريزي، المطبعة المرتضويّة، النجف الأشرف، ١٣٥٦ هـ.

٢٩٣ ـ **الكامل في التاريخ:** علي بن محمد الشيباني ابن الاثير (٦٣٠ هـ) دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.

٢٩٤ ـ **الكبائر:** الذهبي (٧٤٨ هـ) دار المعرفة بيروت.

٢٩٥ ـ **كتاب سليم بن قيس الهلالي:** ابو صادق سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي (٧٦ هـ)، تحقيق محمد باقر الانصاري نشر الهادي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٩٦ ـ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:** محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، مطبعة الاستقامة القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٣م.

٢٩٧ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون:** حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ)، دار احياء التراث العربي. وأخرى: دار الفكر بيروت ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٢٩٨ ـ **كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء:** الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي (ت ١٢٢٨ هـ) انشارات مهدوي اصفهان ـ ايران ـ طبعة حجرية.

٢٩٩ ـ **كشف الغمة في معرفة الائمة:** علي بن عيسى بن أبي‌الفتح الاربلي (٦٩٢هـ)، دار

الاضواء، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ.
٣٠٠ ـ **كشف القناع:** منصور بن يونس البهوتي (ت ١٠٥١ هـ) دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى، بيروت.
٣٠١ ـ **كشف المحجة لثمرة المهجة:** غياث الدين عبد الكريم ابن طاووس (ت٦٩٣هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠م.
٣٠٢ ـ **كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام:** الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر الحلّي المعروف بالعلّامة (ت ٧٢٦ هـ) تحقيق علي آل كوثر، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى، قم ١٤١٣هـ.
٣٠٣ ـ **كفاية الاثر في النص على الائمة الاثني عشر:** الخزاز القمي الرازي (من أعلام القران الرابع)، تحقيق عبداللطيف الحسيني، انشارات بيدار، قم ١٤٠١هـ.
٣٠٤ ـ **كفاية الطالب في مناقب علي بن ابي طالب:** محمد بن يوسف بن محمد الكنجي الشافعي (٦٥٨ هـ) تحقيق محمد هادي الأميني، طهران، دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ.
٣٠٥ ـ **كمال الدين وتمام النعمة:** الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، تحقيق على اكبر غفاري، مؤسسة النشر الاسلامي، قم ١٤٢٢ هـ.
٣٠٦ ـ **الكنى والألقاب:** الشيخ عباس بن محمد رضا القمي (ت ١٣٥٩)، ٣مجلدات، بدون اسم الناشر وسنة الطبع. وأخرى: صيدا مطبعة العرفان ١٣٥٨هـ. ش.
٣٠٧ ـ **كنز العمال:** المتقي الهندي (٩٧٥ هـ)، تحقيق بكر حياني، وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هبيروت.
٣٠٨ ـ **كنز الفوائد:** أبو الفتوح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي (٤٤٩ هـ) تحقيق عبد الله نعمة، دار الاضواء بيروت ١٤٠٥ هـ.
٣٠٩ ـ **الآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة:** جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ) بيروت، دار المعرفة ١٤٠٣ هـ.
٣١٠ ـ **لسان العرب:** أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور المصري (ت ٧١١ هـ)

دار صادر بيروت (بدون تاريخ).

٣١١ـ **لسان الميزان:** ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، مؤسسة الاعلمي، بيروت ١٤٠٦ هـ.

٣١٢ـ **لمحات في الكتاب والحديث والمذهب:** لطف الله الصافي الگلپايگاني (معاصر) قسم الدراسات الاسلامية، مؤسسة البعثة، والمؤلف هو من كبار مراجع الدين.

٣١٣ـ **اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء**ؑ: محمد علي بن أحمد القراچه داغي التبريزي الأنصاري (١٣١٠ هـ) تحقيق: السيد هاشم الميلاني، دفتر نشر الهادي، قم، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

٣١٤ـ **لوائح الأنوار القدسين في بيان العهود المحمدية:** سيدي عبدالوهاب الشعراني (ت ٩٧٣ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ.

٣١٥ـ **لواعج الأشجان في مقتل الحسين:** محسن الأمين العاملي (ت ١٣٧١ هـ) مكتبة بصيرتي، قم.

٣١٦ـ **المباهلة:** عبد الله الحسيني (معاصر) تحقيق السيد صدر الدين شرف الدين الموسوي مكتبة النجاح، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٣١٧ـ **مالك الاشتر:** محمد رضا الحكيم، طبعة ايران ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦م، طهران (معاصر).

٣١٨ـ **المبسوط:** محمد بن أحمد الحنفي، شمس الدين (ت ٤٨٣ هـ) دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م.

٣١٩ـ **المجدي في انساب الطالبيين:** علي بن محمد العمري النسابة (من أعلام القرن الخامس الهجري)، تحقيق احمد المهدوي الدامغاني، مكتبة المرعشي النجفي، الطبعة الاولى ١٤٠٩ هـ.

٣٢٠ـ **مجمع البحرين:** فخر الدين الطريحي (١٠٨٧ هـ) تحقيق: السيد أحمد الحسيني، المكتبة الرضويّة ١٣٦٢ هـ. ش.

٣٢١ـ **مجمع البيان في تفسير القرآن:** أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (٥٤٨هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

٣٢٢ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:** أبوبكر الهيثمي (٨٠٧ هـ)، دار الكتاب العربي، الطبعة

الثالثة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٢٣ ـ **المجموع في شرح المهذب**: محي الدين بن شرف، أبي زكريا النووي (ت ٦٧٦هـ) طبع دار الفكر، بيروت.

٣٢٤ ـ **مجموعة الرسائل**: الشيخ لطف الله الصافي الگلپايگاني، أحد مراجع الدين المعاصرين.

٣٢٥ ـ **مجموع الرسائل**: الشيخ لطف الله الصافي (معاصر). والكتاب مجموعة من البحوث والمقالات في التفسير والفقه والحديث والعقائد والاجتماع.

٣٢٦ ـ **المحاسن**: أحمد بن محمد بن خالد البرقي (٢٧٤ هـ)، تحقيق جلال الدين الحسيني، منشورات دار الكتب الإسلامية.

٣٢٧ ـ **المحاسن والمساوئ**: ابراهيم البيهقي (٤٥٨ هـ)، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م. وأخرى: تحقيق محمد سويد، بيروت ـ دار احياء العلوم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٢٨ ـ **المحبر**: محمد بن حبيب البغدادي (٢٤٥ هـ).

٣٢٩ ـ **المحتضر**: حسن بن سليمان الحلي (القرن التاسع) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١م.

٣٣٠ ـ **مختار الصحاح**: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (٧٢١ هـ) تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م.

٣٣١ ـ **المختار في مناقب الأخيار**: ابن الأثير.

٣٣٢ ـ **المختصر لأبي فداء (المختصر في تاريخ النشر)**: عماد الدين ابو الفداء، دار الفكر ودار البحار.

٣٣٣ ـ **المدخل الى مصادر السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي**: سامي البدري، دار الفقه للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ (معاصر).

٣٣٤ ـ **مدينة معاجز الأئمة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر**: السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ أو ١١٠٩ هـ). تحقيق: عزّة المولائي، قم، مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

٣٣٥ ـ **المراجعات:** عبد الحسين شرف الدين (١٣٧٧ هـ)، تحقيق حسين الراضي، الجمعية الإسلامية الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٣٦ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر:** علي بن الحسين المسعودي (٣٤٦ هـ)، تحقيق عبدالأمير المهنا، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.

٣٣٧ ـ **المزار:** الشيخ المفيد (٤١٣ هـ) تحقيق محمد باقر الأبطحي، قم، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ١٤١٣ هـ.

٣٣٨ ـ **المزار الكبير:** أبو عبد الله محمد بن جعفر المشهدي، تحقيق: جواد القيومي، قم، نشر القيوم، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ.

٣٣٩ ـ **المسائل العكبرية:** الشيخ المفيد (٤١٣هـ) دار المفيد، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٣٤٠ ـ **مستدرك الحاكم:** محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (٤٠٥ هـ)، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة بيروت ١٤٠٦هـ.

٣٤١ ـ **مستدرك سفينة البحار:** علي النمازي الشاهرودي (١٤٠٥ هـ) تحقيق: حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤١٩ هـ.

٣٤٢ ـ **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل:** المحقق النوري الطبرسي (١٣٢٠ هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

٣٤٣ ـ **المسترشد في امامة أمير المؤمنين** عليه السلام: محمد بن جرير بن رستم الطبري الامامي (أوائل القرن الرابع)، تحقيق أحمد المحمودي، مؤسسة الثقافة الاسلامية لكوشانبور، طهران ١٤١٥ هـ.

٣٤٤ ـ **المستطرف في كلّ فن مستظرف:** شهاب الدين بن محمد الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ)

٣٤٥ ـ **مستطرفات السرائر:** محمد بن ادريس الحلي (٥٩٨ هـ)، مؤسسة النشر الاسلامي، الطبعة الثانية ١٤١١ هـ.

٣٤٦ ـ **مستمسك العروة الوثقى:** السيد محسن الطباطبائي الحكيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٨٤ هـ.

٣٤٧ ـ **مسند ابن راهويه:** اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي (٢٣٨هـ)، تحقيق الدكتور عبدالغفور عبدالحق، مكتبة الايمان ط١ / ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، المدينة المنورة.
٣٤٨ ـ **مسند أبي داود:** ابي داود الطيالسي (٢٠٤ هـ)، دار الحديث، بيروت.
٣٤٩ ـ **مسند أبي يعلى الموصلي:** أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧ هـ) تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٤هـ.
٣٥٠ ـ **مسند أحمد:** الامام احمد بن حنبل (٢٤١ هـ)، عالم الفكر، بيروت.
٣٥١ ـ **مسند الإمام الرضا عليه السلام:** تحقيق الشيخ عزيز الله عطاردي (معاصر)، المؤتمر العالمي للامام الرضا عليه السلام، طبع ونشر الآستانة ـ مشهد ١٤٠٦ هـ.
٣٥٢ ـ **مسند سعد بن أبي وقاص:** أحمد بن ابراهيم بن كثير الدورقي (ت ٢٤٦ هـ) تحقيق صبري، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى ـ بيروت ١٤٠٧ هـ.
٣٥٣ ـ **مسند زيد بن علي بن الحسين عليه السلام (زيد الشهيد):** جمعه عبدالعزيز بن إسحاق البغدادي (٣٦٣ هـ) بيروت، دار الكتب العلمية.
٣٥٤ ـ **مسند علي بن ابي طالب:** جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١ هـ) طبعة حيدر آباد.
٣٥٥ ـ **مشكاة المصابيح:** محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (ت القرن ٨ هـ) تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٥ هـ.
٣٥٦ ـ **مشكل الأثار:** ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٣٢١ هـ) دار صادر، بيروت.
٣٥٧ ـ **مصباح الفقيه:** رضا الهمداني (١٣٢٢ هـ) مكتبة الصدر، طبعة حجرية.
٣٥٨ ـ **مصباح المتهجد:** الشيخ الطوسي (٤٦٠ هـ)، مؤسسة فقه الشيعة بيروت لبنان الطبعة الأولى / ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م.
٣٥٩ ـ **مصابيح السُنّة:** أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفرّاء البغوي (ت ٥١٦ هـ) تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٧هـ.
٣٦٠ ـ **المصنّف:** أبوبكر عبدالرزاق بن همّام الصنعاني (ت ٢١١ هـ. ق) تحقيق حبيب

الرحمن الأعظمي، المكتبة الاسلامية، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٣هـ.ق.
٣٦١ ـ **المصنّف في الأحاديث والآثار:** أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي (٢٣٥ هـ) تحقيق: محمد عبدالسلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٣٦٢ ـ **مطالب السؤول في مناقب آل الرسول:** محمد ابن طلحة الشافعي (٦٥٤ هـ)، الطبعة الاولى ـ النجف الأشرف.
٣٦٣ ـ **معالم التنزيل (تفسير البغوي):** أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي الشافعي (ت ٥١٦ هـ) تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة ١٤٠٧ هـ.
٣٦٤ ـ **المعالم الجديدة للأصول:** محمد باقر الصدر استشهد (١٤٠٠ هـ) ١٩٨٠م.
٣٦٥ ـ **معاني الأخبار:** أبو جعفر محمد بن علي، الشيخ الصدوق (٣٨١ هـ) تحقيق: علي أكبر الغفّاري، منشورات جماعة المدرسين، قم، الطبعة الأولى، ١٣٦١هـ.ش.
٣٦٦ ـ **المعتبر في شرح المختصر:** المحقق الحلي (٦٧٦ هـ) تحقيق: لجنة التحقيق باشراف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة سيد الشهداء ١٣٦٤ هـ. ش.
٣٦٧ ـ **مجمع الأمثال:** أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ) تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، الطبعة الثالثة ١٣٩٣ هـ.
٣٦٨ ـ **معجم البلدان:** أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩٩ هـ.
٣٦٩ ـ **معجم رجال الحديث:** السيد أبو القاسم الخوئي (١٤١٣ هـ) قم، منشورات مدينة العلم.
٣٧٠ ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة:** عمر رضا كحالة دار العلم للملايين الطبعة الثانية، بيروت ١٣٨٨ هـ.
٣٧١ ـ **معجم لغة الفقهاء:** محمد قلعچي (معاصر).
٣٧٢ ـ **المعجم الاوسط:** سليمان بن احمد بن ايوب اللخمي الطبراني (٣٦٠ هـ)، تحقيق ابراهيم الحسيني، دار الحرمين (بدون تاريخ). وأخرى: تحقيق محمود الطحّان،

الرياض، مكتبة المعارف الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٣٧٣ ـ **معاني الأخبار:** الشيخ الصدوق (٣٨١ هـ)، تحقيق علي اكبر غفاري، انتشارات اسلامي الطبعة عام ١٣٦١ هـ. ش.
٣٧٤ ـ **المعيار والموازنة:** محمد بن عبد الله المعتزلي أبوجعفر الإسكافي (٢٤٠ هـ) تحقيق محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ.
٣٧٥ ـ **مغني المحتاج:** محمد الشربيني الخطيب (ت ٩٧٧ هـ) دار احياء التراث العربي ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨م.
٣٧٦ ـ **مقاتل الطالبين:** ابو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني (٣٥٦ هـ)، تحقيق كاظم المظفر، المكتبة الحيدرية في النجف ١٩٦٥م مؤسسة دار الكتاب، الطبعة الثانية ـ قم.
٣٧٧ ـ **مقالات الاسلاميين واختلاف المسلمين:** علي بن اسماعيل الاشعري، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٩م.
٣٧٨ ـ **المقالات والفرق:** أبو خلف سعد بن عبد الله الأشعري، تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور، الطبعة الثالثة ١٣٦٠ هـ. ش ـ ١٩٨١م.
٣٧٩ ـ **مقدمة ابن خلدون** (٨٠٨هـ): دار الفكر، الطبعة الاولى، ١٩٨١م.
٣٨٠ ـ **مكاتيب الرسول:** علي الاحمدي الميانجي، دار الحديث ط ١ / ١٩٩٨م (معاصر).
٣٨١ ـ **الملل والنحل:** أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨ هـ) الشهرستاني، تخريج محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة. وأخرى: تصحيح أحمد فهمي محمد، بيروت، دار السرور، الطبعة الأولى ١٣٦٨ هـ.
٣٨٢ ـ **مناقب ابن المغازلي، مناقب الامام علي بن أبي طالب عليه السلام:** علي بن محمد بن محمد الواسطي الشافعي المعروف بابن المغازلي (ت ٤٨٣هـ) تحقيق محمد باقر البهبودي، دار الأضواء، بيروت ١٤٠٣ هـ.
٣٨٣ ـ **مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:** محمد بن سليمان الكوفي القاضي (٣٠٠هـ) تحقيق محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ، مجمع احياء الثقافة الإسلامية.
٣٨٤ ـ **المناقب لابن شهر آشوب (مناقب آل ابي طالب):** رشيد الدين محمد بن علي

المازندراني (٥٨٨ هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٦م.
٣٨٥ـ**المناقب للخوارزمي**:الموفق بن احمد الخوارزمي (٥٦٨ هـ)، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين.
٣٨٦ـ**مناظرات في الامامة**: عبد الله الحسن، انوار الهدى مطبعة مهر الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.
٣٨٧ـ**منتهى المطلب**: العلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) تبريز ١٣٣٣ هـ.
٣٨٨ـ**من لا يحضره الفقيه**: الشيخ الصدوق (٣٨١ هـ) تحقيق علي أكبر غفاري، جامعة المدرسين، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.
٣٨٩ـ**منهاج السنة النبوية**:أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (٧٢٨هـ)، المكتبة العلمية بيروت.
٣٩٠ـ**المهذب**: لابن براج الطرابلسي، عبدالعزيز بن البراج (ت ٤٨١ هـ)، تحقيق الشيخ جعفر السبحاني، جامعة مدرسين، الطبعة الأولى، قم ١٤٠٦ هـ.
٣٩١ـ**الموطأ**: مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت.
٣٩٢ـ**الموضوعات**: ابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الأولى / ١٣٨٦ هـ طبع المدينة المنورة.
٣٩٣ـ**الموفقيات**: الزبير بن بكار (٢٥٦ هـ)، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد.
٣٩٤ـ**ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: الذهبي (٧٤٨ هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ.
٣٩٥ـ**ميزان الحكمة**: محمد ري شهري، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ١٤٠٣ هـ.
٣٩٦ـ**الميزان في تفسير القرآن**: محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الاسلامي قم (بدون تاريخ). وأخرى: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م.
٣٩٧ـ**مئة منقبة من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة من ولده**:أبو الحسن محمّد بن أحمد بن علي بن شاذان القمّي (القرن الخامس) تحقيق: نبيل رضا علوان، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ.
٣٩٨ـ**النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم**: تقي الدين احمد بن علي المقريزي (٨٤٥

هـ)، تحقيق علي عاشور. والأخرى: المطبعة الابراهيمية مصر ١٩٣٧م.
٣٩٩ـ **نشأة التشيع والشيعة:** محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠ هـ) تحقيق عبد الجبّار شرارة، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ.
٤٠٠ـ **النص والاجتهاد:** عبدالحسين شرف الدين الموسوي العاملي، مطبعة النجف الأشرف ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م.
٤٠١ ـ **النصائح الكافية لمن يتولى معاوية:** محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي، دار الثقافة، قم الطبعة الاولى ١٤١٢ هـ.
٤٠٢ ـ **نصب الراية لأحاديث الهداية:** عبد الله بن يوسف جمال الدين، أبي محمد الزيعلي الحنفي (ت ٧٦٢ هـ) دار احياء التراث العربي، الطبعة الثالثة بيروت ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.
٤٠٣ ـ **نظم درر السمطين:** جمال الدين الزرندي الحنفي (٧٥٠ هـ)، من مخطوط مكتبة الامام أمير المؤمنين ﷺ العامة في النجف، الطبعة الاولى ١٩٥٨م.
٤٠٤ ـ **نقض الوشيعة أو الشيعة بين الحقائق والأوهام:** محسن الامين العاملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.
٤٠٥ ـ **النكت الاعتقادية:** الشيخ المفيد (٤١٣ هـ) دار المفيد، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م.
٤٠٦ ـ **نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب:** أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ).
٤٠٧ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر:** مبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير (٦٠٦ هـ) تحقيق: ظاهر أحمد الزاوي، مؤسسة اسماعيليان، قم، الطبعة الرابعة، ١٣٦٧ هـ. ش.
٤٠٨ ـ **نهج البلاغة:** خطب الامام علي ﷺ (٤٠ هـ)، تحقيق الشيخ محمد عبده، دار المعرفة بيروت. وأخرى: تحقيق الدكتور صبحي الصالحي، منشورات دار الهجرة، قم.
٤٠٩ ـ **نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة:** محمد باقر المحمودي، دار التعارف للمطبوعات الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ (معاصر).
٤١٠ ـ **نوادر المعجزات في مناقب الأئمة الهداة** ﷺ : محمد بن رستم الطبري الامامي (ت

اوائل القرن الرابع) مؤسسة الامام المهدي عليه السلام قم، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

٤١١ ـ **نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار:** مؤمن بن الحسن الشبلنجي (١٢٩٨هـ) منشورات الشريف الرضي.

٤١٢ ـ **نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين:** السيد نعمة الله الموسوي الجزائري، تحقيق السيد رجائي، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، قم ١٤١٧ هـ.

٤١٣ ـ **النور المشتعل من كتاب ما نزل من القرآن في علي عليه السلام:** أحمد بن عبد الله بن أحمد بن اسحاق المعروف بأبي نعيم الإصبهاني (ت ٤٣٠هـ. ق) جمع وترتيب محمد باقر المحمودي، منشورات مطبعة وزارة الارشاد الاسلامي، طهران، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

٤١٤ ـ **نيل الأوطار:** محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٥ هـ) دار احياء التراث العربي، بيروت.

٤١٥ ـ **الهداية:** الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) تحقيق ونشر مؤسسة الامام الهادي عليه السلام طبعة اعتماد، قم، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

٤١٦ ـ **الهداية الكبرى:** الحسين بن حمدان الخصيبي (٣٣٤هـ)، مؤسسة البلاغ بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م.

٤١٧ ـ **وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة):** الحر العاملي (١١٠٤ هـ)، تحقيق مؤسسة أهل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ.

٤١٨ ـ **وصول الأخيار الى أصول الأخبار:** الشيخ حسين عبدالصمد العاملي (والد البهائي العاملي) (ت ٩٤٨ هـ) تحقيق عبداللطيف الكوهكمري، مجمع الذخائر الإسلامية، مطبعة خيام، قم.

٤١٩ ـ **الوفا بأحوال المصطفى:** أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي (٥٩٧ هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

٤٢٠ ـ **وقعة الجمل:** ضامر بن شدقم بن علي الحسيني المدني (بعد ١٠٨٢ هـ)، تحقيق

تحسين آل شبيب، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.
٤٢١ ـ **وقعة صفين**: نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢ هـ) تحقيق عبدالسلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٣٨٢هـ.
٤٢٢ ـ **اليقين**: رضي الدين عليّ بن طاووس الحلي (ت ٦٦٤ هـ) تحقيق الأنصاري، مؤسسة دار الكتاب، الطبعة الأولى، قم ١٤١٣ هـ.
٤٢٣ ـ **ينابيع المودة لذوي القربى**: سليمان بن ابراهيم القندوزي الحنفي (١٢٩٤هـ)، تحقيق علي جمال اشرف الحسيني، دار الاسوة، الطبعة الاولى ١٤١٦ هـ.

الفهرس

إهداء المحقق ٥
مقدمة المحقق ٩
مع التركيبة الفكرية للمؤلف ١١
المؤلف في دائرة التعريف ١٩
أوّلاً: الكاتب ١٩
ثانياً: الكتاب ٢٥
الغاية من تحقيق الكتاب ٣٥
منهجية التحقيق ٣٦
إهداء المؤلف ٣٩
مقدمة المؤلف ٤١
الفصل الأول: مشيئة الرب ٤٧
شهادة الإسلام ٦١
الفصل الثاني: اصطفاء المصطفى لعلي بن أبي طالب وريث العلم النبوي ٧٣
الفصل الثالث: شجاعة علي: البدء المتطابق ١١١
ولادة ثانية ني ظل السيف ١١٥
الفصل الرابع: دلائل الشجاعة في حرب صفين ١٥٧
الفصل الخامس: السياسة العسكرية لعلي بن أبي طالب ٢٣٥
الفصل السادس: تأريخ لأوليات سياسية أوليات قديمة لجذر الصراع بين معاوية وعلي بن أبي طالب ٢٥٥
الفصل السابع: سلطة الحق في رفض السلطة ٣٢٧
الفصل الثامن: سلطة العقل ٣٨٧
الفصل التاسع: عدل علي بن أبي طالب ٤١٣
الإطار النظري والمحتوى الاجتماعي لعدل عليّ بن أبي طالب ٤١٨
الجوهر الاقتصادي لسياسة العدل ٤٢٩
السياسة المالية وضرورة اقتداء الولاة والعمال ٤٣٣
البنية السياسية ومضمون الحكم ٤٣٨
الراعي والرعية ٤٤٠

[stamp]

صفات الوالي العادل ٤٤٧
الصلة الحية المباشرة بالجماهير ٤٥١
آفة السلطة ٤٥٣
بطانة الوالي ٤٥٥
السلطة: رعاية لا تسلّط ٤٦٠
الناس صنفان: أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق ٤٦٤
سفك الدم وزوال نعمة الوالي ٤٦٨
مباديء وأسس في قنوات التعامل مع الرعية من أجل العدل ٤٧٠
سمات الوالي وطباعه ٤٧٢
العدل المر: مع النفس أولاً ٤٧٦
قسوة العدل: مع الأقرباء ثانياً ٤٨٢
الشدّة العادلة مع الولاة ٤٨٦
العدل المُرّ مع الناس ٤٩٠
قضاء العدل وعدل القضاء ٤٩٥
الصفحة الأخيرة في سجلّ العدل الخالد ٥٠٤
الفصل العاشر: علي بن أبي طالب مدرسة التاريخ التربوية ٥٠٩
الفصل الحادي عشر: سلطة النص في بلاغة علي بن أبي طالب ٥٣٣
خصوصية النص ٥٤٣
تعبيرية النص ٥٤٦
أمثلة ونماذج ٥٥٢
ميزة خاصة ٥٦٠
النص الوصفي ٥٦٢
خاتمة ٥٦٩
المصادر التي اعتمدها المؤلف ٥٧٣
الأخطاء المطبعية في النسخة الأصلية للكتاب (الطبعة الثانية) ٥٧٥
من إصدارات المؤلف ٥٧٩
مصادر التحقيق ٥٨١
الفهرس ٦١٥

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٤٨٢٩٥

هذا الكتاب جسّد آفاقاً جديدة في التحدّي والصمود ، لإعادة اعتبارية ما مسخه النظام من قيم الديمقراطية والحوار الإنساني المنفتح على الحياة وعلى كل مناخاتها المتعدّدة ، بعيداً عن سياسات القهر والطغيان . ولذا من الممكن القول : ان المؤلف استعرض خطاباً قيَمياً من معاني الإنسانية والأخلاق والحرية الفكريّة والتسامح وسيادة الحوار وإنصاف الحق إستنباطاً واستدلالاً من منظومة الإمام علي بن ابي طالب ﷺ .

ومع هذه الفرادة التي قدّمها المؤلف والتي عكس فيها همجيّة السلطة وفوضى سياساتها ، فهو ممن نال وسام الشهادة والخلود في تاريخ الثقافة العراقية الملتزمة ، فكانت له جولةٌ وكلمةٌ حرّة . مع ما سجّل من مدادٍ خالدٍ وهو يعلّم ويُخبر الطغاة بمنهج علي ﷺ ، بما يجب أن يُتبع ، لا بما يُتبع من قبلهم وفق جاهزية الأحكام الإنحرافية والارهابية ، فجاء استعراضه لعلي ﷺ وفق ما تحتاجه الذات العراقية ، من مواقف اللطف والشفافية ، وممارسة منظومة الحقوق بما فيها من العدل والمساواة بعد تضخم خزائن العراق البترولية ، كما سجل طموحاً مشروعاً في الصفح والعفو والتسامح ، وما أحوج ما كان عليه العراق بالامس واليوم من حاجة الى التسامح السياسي ، وفتح باب الحوار مع العراقيين جميعاً ، بعد أن شدّ عليهم الفقر والقهر والرقابة الشديدة ، لخنق الحرية الشخصية فضلاً عن الحرية السياسية .

مراكز التوزيع

قم . الغدير للنشر والتوزيع . موبايل : 4426 551 912 98 +
النجف الاشرف . شارع الرسول ﷺ . مكتبة دار الهلال
كربلاء . شارع قبلة الامام الحسين ﷺ . مكتبة ابن فهد الحلي
بغداد . شارع المتنبي . مكتبة بساتين المعرفة
البصرة . العشار . مكتبة الامام الهادي ﷺ